

الرقم الدولي: 2321-7928

بدأ صدورها في 2012م

مجلة الهند

مجلة فصلية محكمة

المجلد: 9 العددان: 2-3

أبريل-سبتمبر 2020م

مدير التحرير

د. أرنك زيب الأعظمي

المشارك في التحرير

د. هيفاء شاكري

نائب مدير التحرير

د. محمد معتصم الأعظمي

تصدر عن

مولانا آزاد أنيديل إيجوكيشنال ترست

بولفور، بنغال الغربية

المراسلات المتعلقة بالاشتراك في الطباعة والنشر توجه إلى:

عنوان البريد:

مولانا آزاد أنيديل إيجوكيشنال ترست، بولفور، بنغال الغربية رقم البريد: 731235

الهيئة الاستشارية

د. مثنى حارث الضاري (العراق)	د. سناء شعلان (الأردن)
د. صالح البلوشي (عمان)	السيد محمد دأنش الأعظمي (البحرين)

هيئة التحكيم

د. فيضان الله الفاروقي (الهند)	د. بشري زيدان (مصر)
د. حسن يشو (قطر)	د. صاحب عالم الأعظمي (الهند)

هيئة التحرير

د. أورنك زيب الأعظمي (مدير التحرير)	د. هيفاء شاكري (المشارك في التحرير)
د. محمد معتصم الأعظمي (نائب مدير التحرير)	د. محمد عمران علي ملا (عضو)

عنوان البريد الإلكتروني:

aurang11zeb@yahoo.co.in (1)

azebazmi@gmail.com (2)

موقع المجلة: www.azazmi.com

الاشتراك السنوي:

1000 روبية (للطلاب) 1500 روبية (للأساتذة والمكاتب)

قواعد النشر في المجلة

بالنسبة للبحوث التي ترسل للنشر في المجلة، يرجى مراعاة القواعد الآتية:

1. تقبل المجلة نشر البحوث باللغة العربية، إذا توافرت فيها الشروط التالية:
 - أ. أن يتسم البحث بالأصالة والابتكار، والجدة العلمية والمنهجية، وسلامة الاتجاه.
 - ب. أن يلتزم بالمنهج والأدوات والوسائل العلمية والمعتبرة في مجاله.
 - ج. أن يكون البحث دقيقاً في التوثيق والتخريج.
 - د. أن يتسم بالسلامة اللغوية.
 - هـ. الأفضل أن يتناول البحث موضوعاً جديداً ذا صلة بالعلوم العربية والإسلامية ومساهمة الهند في مختلف العلوم والفنون والآداب وما إليها.
 2. ألا يزيد البحث عن خمسين صفحة، والرجاء من الباحثين استخدام (Sakkal Majalla) على حجم 14.
 3. ألا يكون البحث قد سبق نشره أو قدّم لأي جهة أخرى من أجل النشر.
 4. يرفق بالبحث ملخص له في حدود صفحة.
 5. أن يقر صاحب البحث بأن بحثه عمل أصيل له.
 6. تخضع البحوث إلى تحكيم لجان علمية أكاديمية متخصصة وفق المعايير المعتبرة.
 7. تحتفظ المجلة بحقوقها في حذف أو إعادة صياغة بعض الكلمات والعبارات التي لا تناسب مع أسلوبها في النشر.
- تعبّر الأراء العلمية المنشورة عن آراء كاتبها، واجتهاداتهم الشخصية

في هذا العدد

الصفحة

6	- د. أورنك زيب الأعظمي	الافتتاحية (الشيخ عبد الحسيب الإصلاحي)
		مقالات وبحوث:
11	- الشيخ أمين أحسن الإصلاحي ترجمة: د. أورنك زيب الأعظمي	تفسير تدبر القرآن (16)
158	- د. أورنك زيب الأعظمي	"أضياء" و"أظلم"
191	- د. محمد وسيم خان	دلالات الألفاظ والتراكيب في سورة الفاتحة
226	- محمد أرياز بن محمد أنور الأموي	الماء في القرآن الكريم
245	- الشيخ أمين أحسن الإصلاحي ترجمة: الشيخ عبد الحسيب الإصلاحي	أحكام الحجاب في القرآن
264	- د. محمد البويسفي	الإنسان من القرآن إلى العمران
286	- د. ضياء القمر آدم علي	الدراسات اللغوية في شبه القارة الهندية قبل الإسلام وبعده
313	- د. سناء كامل شعلان	السرد الدرامي في ملحمة جلجامش
358	- أبو تحرير الهندي	العلامة محمد بن يوسف السورتى (4)

400	- أ. د. ظفر الإسلام الإصلاحي ترجمة: شفاء الرحمن	مدرسة العلوم بعلي كره (2)
425	- عبد الغفار المدهولي ترجمة: د. هيفاء شاكري	الجامعة المليية الإسلامية (5)
440	- أ. د. مجيب الرحمن	الترجمة بين اللغتين العربية والأردية في الهند
472	- د. محمد معتصم الأعظمي	دور علماء مدرسة الإصلاح في تطوير الصحافة العربية في الهند
489	- د. محمد أجمل	ترجمة كتاب "مسلمانوں کی گذشتہ تعلیم" العربية، دراسة تحليلية
503	- عبد الإله بنهدار	قراءة في غلاف رواية "أعشقني" للدكتورة سناء شعلان
		استعراض كتب:
524	- د. محمد أجمل أيوب الإصلاحي	ابن كثير، حياته ومؤلفاته
		أخبار وتقارير:
528	- د. مجيب أختر	ندوة علمية وطنية حول الصحافة العربية في الهند
		قصائد ومنظومات:
533	- الشيخ نظام الدين أحمد الفاروقي	أعلام الأمة الإسلامية

الافتتاحية

كان العدد الأول لهذه السنة جاهزًا للطباعة إذ بلغنا نعي الشيخ عبد الحسيب الإصلاحي الذي كان من كبار علماء القرآن الكريم المتخرجين في مدرسة الإصلاح وممن تبقى من تلاميذ الشيخ أختار أحسن الإصلاحي أجلّ تلامذة الإمام عبد الحميد الفراهي صاحب تفسير "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان".

كانت لي علاقة علمية مع الشيخ عبد الحسيب المرحوم إذ تبادلنا الخطابات العلمية، وأرسل إليّ الشيخ إحدى ترجماته لأقدمها إلى إحدى دور النشر العربية لتقوم بطباعتها، وقد حفظت بعض خطابه ولكن الانتقال من دلهي إلى شانتينيكيتان ثم الرجوع إلى دلهي قد ذهب به. وكان الشيخ المرحوم مجيد الخطّ كجده.

ولد الشيخ عبد الحسيب بن محمد عثمان بن أبو عيسى نور محمد ترابي في علاء الدين بقي إحدى قرى محافظة أعظم كره في 20/ أغسطس 1928م. كان جده (أبو عيسى نور محمد ترابي) أبرز علماء أهل الحديث، وكانت له مكتبة يقضي فيها معظم أوقاته في دراسة الكتب وتأليفها فنجد بعض أعماله مطبوعة وبعضها مخطوطة مثل "السراج الوهاج للحجاج"، و"تحفة الولدان"، و"تحفة الخليل". وقد أعان العلامة شمس الحق العظيم آبادي في تأليف "عون المعبود" شرح سنن أبي داود، وكان يجيد الخطّ. وكان دائمًا يشغل نفسه بالتأليف في حجرته بالطابق العلوي من المنزل.

كان الشيخ عبد الحسيب الإصلاحي من أسرة إقطاعية إلا أنّ معظم أفرادها كانوا مثقفين، خلافاً للأسر الإقطاعية في المحافظة، وكانوا مصطبغين بالصبغة الإلهية. فعلاوة على جده كان أبوه (الحاج محمد عثمان) يدرّس في مدرسة أقامها بجوار منزله، وكان يدرّس رجالاً كبار السنّ كما كان يعتني بتربية الأولاد والبنات. وهو الذي بادر بتحويل الكتاب الإسلامي ببليواغنج إلى جامعة الفلاح في 1937م،

الحلم الذي تحقّق على يد ولده (عبد الحسيب الإصلاحي) الذي وضع حجرَ أساسها في 1964م وجاهد ليلَ نهار لتطويرها ورفعها إلى قمة الرقيّ والتقدّم.

بدأ الشيخ عبد الحسيب الإصلاحي تعليمه الابتدائي في مدرسة أقامها والده بجوار منزله ثم التحق بالكتاب الإسلامي ببليراغنج الذي أصبح جامعة إسلامية في 1964م. أتمّ الشيخ الإصلاحي تعليمه هنا حتى الصف الثالث (الأردوي) ثم ألحقه والده بمدرسة الإصلاح (يسرائ مير، أعظم كره) في الصف الثالث لكتابها في 18/ نوفمبر 1939م، وأنداك كان الكتاب تنتهي فصوله على الصف الرابع. ألحقه بهذا الصف لكيلا يسبقه الآخرون من طلبة المدرسة. تخرّج الشيخ الإصلاحي من هذه المدرسة في مايو 1950م.

كان من زملائه في مدرسة الإصلاح الشيخ شرف الدين الإصلاحي من سنجر فور والشيخ إكرام من سَهْرِيَا (أعظم كره) والشيخ نصير الدين من آرا (بيهار) والشيخ الأخير رسب في امتحان الصف النهائي (أي الصف الثامن) فترك المدرسة وأقام بمنطقته مدرّسًا في إحدى مدارسها. والشيخو الذين استفاد منهم الشيخ الإصلاحي هم المنشي محمد كامل والشيخ قمر الزمان والشيخ شميم أحمد والشيخ داؤد أكبر الإصلاحي والشيخ مشتاق أحمد والشيخ صدر الدين. وأبرز شيوخه الشيخ أختَر أحسن الإصلاحي. ولم يتعلّم الإصلاحي على الشيخ أمين أحسن الإصلاحي بصورة منظمة إلا أنه ذكر في أحد حواراته أنه استفاد منه خلال إقامته بمدرسة الإصلاح. وكان يشيد باطلاعه الواسع وبقدرته على اللغة والأدب.

بعدما تخرّج الشيخ عبد الحسيب من مدرسة الإصلاح سافر إلى دربهنغه (بيهار) على دعوة من السيد حسنين ليدرّس بها ولكن لم يوافقّه جوّها إذ أصابته أمراض فرجع منها بعد بضعة أسابيع. وخلال تلك الفترة طلب منه شيخه الأكبر أختَر أحسن الإصلاحي أن يبقى في مدرسته الأمّ ويدرّس بها كمعلّم مؤقت على راتب شهري يبلغ 25 روبية هندية. فأقام بها حتى عيد الأضحى ولكنه حينما التقى بأّمه

الحنون بهذه المناسبة منعه عن هذه الوظيفة المؤقتة. وإضافة إلى ذلك وفاة والده الجليل التي حملته كافة المسؤوليات قد عرقلت سبيله إلى وظيفة المدرسة. فترك الشيخ هذه الوظيفة على إجازة من شيخه الأكبر. وعزم على أن يلزم داره. ولكن الشيخ أبا الليث الإصلاحي أرسله إلى رامفور ليدرّس بمدرسة الجماعة الإسلامية بها إلا أن العمل بها لم يتيسّر له فرجع بعد شهر إلى علي كره ليقوم بأعباء الدعوة الإسلامية ويؤمّ صلاة الجمعة ويربّي بها الطلاب الناشئين فأقام بها الشيخ عبد الحسيب لثلاث سنوات خلالها كتب إليه شيخه الأكبر (أختر أحسن الإصلاحي) مرتين يدعوّه إلى الرجوع إلى مدرسة الإصلاح وتدرّسه بها. ولكنه رفض إلا أنّه قبل دعوته في المرة الأخيرة.

جاء الشيخ عبد الحسيب إلى مدرسة الإصلاح في 1954م وأقام بها إلى سنة 1959م فأمضى بها ست سنوات تقريباً. وفي رمضان هذه السنة (1959م) قيل له أن يفارق المدرسة لأسباب فكرية وإدارية فتركها على حبّها. وسبق ذلك أن ملأ استمارة الحج لبیت الله الحرام وحينما كان يريد الحج التقى به الشيخ مجيب الله الندوي وقال له: إني أريد أن أقيم جامعة باسم "جامعة الرشاد" وأودّ أن تكون أول مدرّسها وعميد المدرسين بها فقبل الشيخ الإصلاحي دعوته. وبعد أداء الحج جاء إلى جامعة الرشاد بأعظم كره حيث أقام لستين، التمس منه خلالها الحكيم محمد أيوب برفقة أصحابه أن يتصل بجامعة الفلاح ويقوم بتطويرها فقبل دعوتهم شريطة أن يسمح له مؤسس جامعة الرشاد (الشيخ مجيب الله الندوي). والحمد لله على أن الشيخ الندوي أجازة فانسلك بجامعة الفلاح كمدرّس وأقام بها لأربعين عامًا خلالها جُعِلَ عميد المدرّسين عدة مرات. ولم يأل أيّ جهد لتطوير هذه الجامعة، ومسجدها الفخم إحدى ثمرات جهوده المضنية المخلصة. أحيل الشيخ الإصلاحي إلى التقاعد في 2004م. فقال معلقًا على ذلك: "لا يمضي عليّ يوم إذ أبكي أني حُرمتُ تدرّس القرآن الكريم". وبعد عزله عن جامعة الفلاح بدأ يدرّس في مدرسة بيندول (أعظم كره) حيث أقام لحوالي 12 سنة ثم انعزل عنها ولزم بيته. توفي الشيخ عبد الحسيب

في 25/ فبراير 2020م ورزق 92 سنة من عمره. ومن عجيب تلازم الأيام أنه ولد يوم الاثنين والتحق بمدرسة الإصلاح يوم الاثنين وتوفي يوم الاثنين أيضاً.

كان الشيخ عبد الحسيب الإصلاحي عالماً كبيراً للقرآن الكريم كما شغفه حباً ميله إلى أفكار الجماعة الإسلامية التي أقامها السيد أبو الأعلى المودودي فجعل عضوها في 1949م وبقي على هذا المنصب حتى توفاه الله تعالى. وأما القرآن الكريم فكان شغل ليله ونهاره وكان من أكبر الملمين بفكرة الإمام الفراهي في عصره. كان عضواً للمجلس الإداري لمدرسة الإصلاح، وعضواً فعالاً للمجلس الإداري لجامعة الفلاح.

وكان الشيخ عبد الحسيب ماهراً للشعر العربي الجاهلي وقد بلغنا أنه حفظ معظم قصائد ديوان الحماسة التي أعانته في شرح مفردات ومحتويات القرآن الكريم والتي هي فكرة نادى بها الإمام الفراهي في مختلف رسائله. ولكونه على إلمام تام باللغة العربية الحديثة فقد أجازة الشيخ أمين أحسن الإصلاحي لنقل مؤلفاته إلى اللغة العربية. نشرت له مقالة عن رمي الجمار في "مجلة الحج" حين سفره لحج بيت الله الحرام.

تلمذ له العديد من العلماء والكتّاب خلال تدريسه في مختلف الأماكن. وقد أمكن لنا التعرف على ما يلي من أسماء تلاميذه:

1. الدكتور عناية الله أسد السبحاني
2. البروفيسور اشتياق أحمد الظلي
3. الشيخ تقي الدين الندوي
4. الشيخ رحمة الله الأثري
5. الشيخ إسماعيل الفلاحي.
6. الدكتور ضياء الدين ملك الفلاحي
7. صباح الدين الأعظمي
8. الدكتور محيي الدين غازي

ومن أبرز ترجماته العربية:

1. التفسير الحقيقي للإسلام في الرد على كتاب "التفسير السياسي للإسلام" للشيخ أبي الحسن علي الندوي. ألفه السيد عروج أحمد القادري. نشرت الترجمة من مكتبة المنهل، جدة، المملكة العربية السعودية في 1982م.
 2. أحكام الحجاب في القرآن للشيخ أمين أحسن الإصلاحي، نشرتها مطبعة الكوثر أولاً ثم هدايت ببلشرز ايند دستري بيوترز، نيو دلهي.
 3. الدعوة الإسلامية ومناهجها للشيخ أمين أحسن الإصلاحي، نشرتها هدايت ببلشرز ايند دستري بيوترز، نيو دلهي في 2018م
 4. حقيقة الشرك للشيخ أمين أحسن الإصلاحي تحت الطبع
 5. تعليقات قرآنية بالأردوية نشرت في مجلة "دعوة القرآن" الفصلية بلكناؤ.
- وكذا نشرت له مقالات وبحوث في مجلة "الدعوة" الصادرة عن الجماعة الإسلامية، ونشر في هذا العدد أحد أعماله وهو "أحكام الحجاب في القرآن"، وبذلك ستعرفون على قدرته على الترجمة وأسلوبه العربي.
- هذا، والعدد بأيديكم عدد مزدوج يشتمل على أبريل-سبتمبر، ويحتوي على 13 بحثاً، وتحليل نقديّ لكتابين، واستعراض لكتاب مطبوع، وتقرير لندوة علمية وطنية، وقصيدة تثبت أنّ الدهر لا يبقى ولا يذر.
- وأخيراً نتقدم بالشكر الجزيل لكل من ساهم في هذا العدد من الباحثين والمترجمين وأعضاء هيئة التحرير، وكل من كانت له جهود مضيئة في إخراج هذا العدد في صورته الحالية وتقديمه إليكم.
- نسأل الله تعالى أن يجعله في ميزان حسناتنا يوم نلقاه.

د. أورك زيب الأعظمي

تفسير تدبر القرآن

(تفسير سورة البقرة)

- الشيخ أمين أحسن الإصلاحي¹ترجمة من الأردوية: د. أورنك زيب الأعظمي²

﴿16﴾

68- تفسير الآيات (204-214)

ذكر الحج انتهى على أن بعض الناس يجعلون الحج وسيلة لتحقيق أمانهم الدنيوية، ولا يرغبون في الآخرة شيئاً. ومن هنا تحول الحديث إلى ذكر المنافقين، وذلك لأن من يطلب غرضه إلى حد يطلب دنياه في أدعية الحج لا يكون إلا من المنافقين. وعلى هذا فقد عرّض المنافقون في آيات معدودات بجانب الإشارة إلى ما يتطلب من صفات المؤمنين المخلصين كما نهبوا على أشياء تليق بهذه المناسبة لكيلا يتعثروا من مكائد المنافقين، اقرأ الآيات التالية في ضوء ما قلنا:

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿١٦١﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَاسَادَ ﴿١٦٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ ﴿١٦٣﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٦٤﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٥﴾ فَإِنْ زُلْزِلْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٦٦﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ

¹ كاتب ومفسر هندي له مؤلفات عديدة ترجم البعض منها إلى العربية والإنجليزية² مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيو دلهي، الهند

إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٣١﴾
 سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ
 فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٣٢﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ
 ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٣﴾ كَانَ النَّاسُ
 أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ
 بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ
 الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ
 يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٤﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ
 الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ
 ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٣٥﴾

69- تحقيق الكلمات وتوضيح الآيات

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٣٦﴾
 هذه إشارة إلى المنافقين الذين تسوء صفاتهم خاصة أنهم يثرثرون ولا يفعلون على
 ما قالوا، وهم يخفون جانبهم العملي عن طريق كلامهم وهكذا فيغترون الأشخاص
 الساذجين بأحاديثهم الساحرة. وكان من بين منافقي المدينة طائفة تتكون من
 الأغنياء والكسالى والمثرثرين. فكانت صورهم جميلة، وملابسهم صافية. وكانوا
 مدرّبين في طرق الحديث والجلوس. ولكن قلوبهم كانت فائرة العزائم، وكانوا
 متخلفين في الأعمال. فلما حضروا جلسات النبي ﷺ رفعوا أصواتهم بتأييد
 الإسلام، وأظهروا عن حمايتهم له. ولكنهم حينما تخلفوا عنها سعوا ضده. صورهم
 القرآن الكريم في سورة المنافقين كما يلي:

"وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهِمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ
 يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ فَوَقَّاهُمُ اللَّهُ أَنْ يَكُونُوا

أي كَأَنَّ أجسامهم السمينة وصورهم الجذابة تغرّ القلوب، وكأنّ أحاديثهم اللطيفة الممتعة تلفت إليها الأنظار، فأنتم تسمعون أحاديثهم تلك. ولكنهم في الواقع أجوف داخلهم؛ فصدورهم تفقد القلوب والإيمان والإسلام، وهم مثل خشب مستدّة عليها ملابس جميلة. وبما أنهم يفقدون ثروة الإيمان فيفقدون العزيمة، ويرون أنّ كل خطر يطرأ عليهم محاولين أن يخفوا فتورهم هذا بكلامهم الساحر الجذاب. فيشرون إلى غيرهم بالبنان لكي تلتفتوا عنهم، ويقولون إنهم خطر للإسلام بينما الخطر الأصلي للإسلام هو نفاقهم وفقدهم للعزيمة فلتحذروا عنهم.

ونفس الشيء ذُكر في هذه الآية التي نحن بصدد البحث عنها أي أما فيما يتعلق بهذه الأحاديث فهي تجذب القلوب إليها، ولكنها بأسرها مطلية لا حياة لطلها إلا لوقت معلوم. فيمكن أن يغرّوا الناس بأحاديثهم الجذابة، ولكنه سيأتي يوم يبين الصحيح عن الغلط، الحق عن الباطل، وتكون فيه صورهم المقنّعة مكشوفة عنها.

وَيُشْهِدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ: معنى "إشهاد الله" هو القسم بالله. وهذا من علامات المنافق أنه يقسم بالله على أمر تافه وبعد كل هنية. ولأنه يفقد حجة العمل فيشهد على ما في قلبه بكل خطوة. وذلك لأن الكاذب يظن، لضعفه النفساني، أنّ المخاطب لا يؤمن به ما لم يقسم بالله على ما يقول له بينما الرجل الصادق الصالح يثق بعمله وخلقه، ولما يأخذه أحد على أمر منه فهو يشهد عليه بعمله. ولكنّ المنافق، لكونه فاقداً للعمل، يقسم بالله على أمر يؤخذ عليه فيحاول أن يلفت عن أخذه الناس عن طريق هذه اليمين الكاذبة. أشير إلى جانب المنافقين هذا في سورة المنافقين فجاء فيها:

"إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾".

وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ: "الخصام" جمعُ الخصم و"ألدّ" يعني شديد الخصومة. فالمعنى كأنّ أحاديثهم تبدو جذابة، ولكن قلوبهم تطوي بغضاً وحسداً شديدين ضدكم وضد دينكم، وإليه الإشارة في سورة المنافقين بكلمات "هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُوهُمْ".

وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٥٥﴾

أي ولو أنّ أحاديثهم تبدو لكم جذابة، ولكنهم كلما تولّوا عنكم لا يسعون إلا للفساد في الأرض. والمراد من الفساد في الأرض، كما قد أوضحناه تحت الآية الحادية عشرة، هو الصدود في سبيل الدعوة إلى عبادة الله وطاعته، التي كان يقوم به النبي ﷺ فأمن الأرض والعدل فيها ينحصران في أن يعبد الله عباده ويدخلوا في طاعته كما قال تعالى فيما بعد: "ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ"، وبعدها يدخل المرء في هذه العبادة وتلك الطاعة تنغلق كافة سبل التسلل والفساد للشيطان وإلا فيقع الجيل البشري كلهم في شبكة الشيطان المنتشرة للفساد في الأرض وهو لا يزال يشبّ نارَ البغض والعداوة، الأمر الذي يهلك الحرث والنسل بأجمعهما. فقد جرّبت العرب في جاهليتهم هذا الوضع السيئ خير تجربة فلم يصعب لهم تفتنه لأنّ الدعوة التي قدّمها القرآن الكريم إلى السلم والطاعة هي الرحمة والبركة لإخراج الناس من هذه النار المهلكة المدمّرة، ولشدة عداوة من كان يخالف هذه الدعوة وكانوا يودّون أن يستمرّ وقوع الدنيا في هذه النار، شدة عداوتهم للإنسانية.

وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ: أي ولو أنهم يحدّثونكم ما يجذبكم شديداً، ويثبتون أنهم أعوان مخلصون للإسلام ونبية ولكنهم لن يحصلوا على درجة عند الله. والحال أنهم يشبّون بمعاملاتهم نارَ الفساد التي هي مهلكة للبشرية كلها. فلما خلق الله هذه الدنيا كان يحبّ ازدهارها ورفاهيتها وهو لا يحبّ أي نوع من الفساد فيها.

وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ إِلَٰهًا ﴿٥٦﴾

ومن خصائص هؤلاء المدّعين بصدقهم للإسلام والعبودية أنهم كلما أخذوا على عمل يبدو مخالفاً للإسلام ويرشدوا إلى التوبة فالإصلاح فكان هذا يؤدي استكبارهم وكانوا يرون، لأجل ضعفهم وعدم ثقتهم والشعور بكونهم أسفل من غيرهم، يرون أنهم إذا اعترفوا بضعفهم ولو مرة واحدة فسينكشف ما كانوا يدّعون فلا يدعّون استكبارهم ينتهي لثانية ما. وقد أشير إلى هذا الجانب الخاص من المنافقين في سورة المنافقين بكلمات تالية:

"وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ٥ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ٦".

واليه تشير ما يأتي من آيات سورة النساء:

"وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ٦ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسِنًا وَتَوْفِيقًا ٧ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ٨ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ٩".

فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ: قد استخدمت هذه الفقرة عامة بالمناسبة التي يراد فيها إظهار أن الذين يميلون في الدنيا مع سوءاتهم إميلهم هذا ليس من نوع الاهتمام بهم بل يميلون لمجرد أنهم يجزون عن سوءاتهم كلها بالقائم في جهنم التي تكفيهم جزاءً وهي بالمحصاة فلا حاجة إلى أي عذاب لهم لأنها موضوعة لهم فإنها بنس المهاد.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ٧٧

شراه يشريه شراءً: باعه (To sell) وهذه إشارة إلى المؤمنين المخلصين الذين ضحّوا بما كان لديهم لمرضاة الله، وقد ذكروا هنا عن جهتين: إحداهما أن يستحي منهم المنافقون الذين ذُكِرُوا في الآيات السالفة بأنهم ليسوا أمثالكم يطلبون أغراضهم ولا يريدون إلا ما ينفعهم بل هم عباد الله الذين قد عاهدوا مع الله أن يضحّوا بأنفسهم وأموالهم، ولا يستهدفون بأنفسهم إلا أن يرضوا بها الله. والجهة الأخرى أن ذكره يشجّع المؤمنين الذين عارضوا المنافقين في هدف حياتهم بأنهم لا يحيون ولا يموتون إلا لله جلّ مجده فأظهر الله بذكرهم جنبًا بجنب المنافقين أن هناك عبادًا باسليين أوفياء وهم المستحقون برحمته ورأفته تعالى.

وفي "وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ" إشارة إلى أنه ولو أن عهد البيع والشراء مع الله صعب للغاية وأن التضحية بالحياة لمرضاة الله جهاد كبير للغاية يتطلب ما يحتاج إلى صبر طويل ولكن الله رءوف بعباده فهو لا يطبقهم ما لا يستطيع وإن صدر عنهم لم في أداء متطلبات هذا العهد فيغفر له الله، وهو قد ترك أبواب التوبة والإصلاح مفتوحة للصفح عن الزلات والآثام.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٣٥﴾

"السلم" تعني الطاعة والمراد منها طاعة الله ورسوله، وقد أراد بها بعض المفسرين الإسلام ولكن هذا فرق ظاهري فحسب فإن الإسلام أصله طاعة الله ورسوله. هذه الكلمة ضد للحرب كذلك فهي تعني الصلح والأمن. وروح الإسلام أيضًا توجد في هذا المعنى فإن أصل الصلح والأمن ليس سوى طاعة الله ورسوله.

و"كافة" تعني الجماعة وهي حال هنا، وقد استخدمت هذه الكلمة في نفس الأسلوب في غير هذا الموضع للقرآن الكريم.

ولو أن الخطاب عامٌ كافة المسلمين من حيث الكلمات ولكن القرينة تدلّ على أنه تعريض للمنافقين الذين قد مضى ذكرهم في الآيات السابقة فيقال لهم عن طريق مخاطبتهم أن يدخلوا في طاعة الله ورسوله كافة كما فعله المؤمنون المخلصون.

والسبب في هذا الإرشاد هو أنّ وفاء أولئك المنافقين كان مقسّمًا في قسمين ففي جانب كانوا يدعون بالإيمان بالنبي الخاتم ويدعون أنهم أعوان للإسلام. وفي جانب آخر كانوا يعقدون أواصر الودّ والإخلاص مع أعداء الإسلام. وأشار القرآن الكريم في غير موضع منه إلى مؤامرتهم هذه فقال، مثلاً، في سورة محمد مشيراً إليهم:

"ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٦٠﴾".

فالبديهي أنّ المراد من "الَّذِينَ كَرِهُوا" رؤساء اليهود والمشركين.

وقد أشير إلى معاملة المنافقين هذه في الآيات التالية من سورة النساء:

"أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦١﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَنَفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦٢﴾".

وهذا يثبت أنّ المراد من الطاغوت هنا محاكم اليهود. وبما أنّ إصدار الأحكام ضد العدل والإنصاف عن طريق الرشوة كان سهلاً للغاية في هذه المحاكم إضافة إلى ذلك أنّ اليهود قد غيروا العديد من الأحكام الشرعية حسب أهوائهم عن طريق أنواع من التحريف فكان المنافقون يحبّون أن يتحاكموا إليهم في العديد من القضايا وحينما سئلوا أن الإيمان والإسلام يتطلبان أن يتحاكموا إلى القرآن والنبي في قضاياهم ولكنهم يحاولون أن يجتنبوهما بأنواع من الحيل.

فقسمة الوفاء هذه تضادّ الإيمان والإسلام بل هي عين الشرك نظرًا لحقيقتها. ومن هنا تظفر الشياطين بشارع عام لإضلال الناس كما أشرنا إليه في الآية السابقة لسورة النساء وعلى هذا فقد أرشد القرآن الكريم إلى أن يغلق باب الفتنة هذا وأمر بأن يدخلوا جميعًا، بدون استثناء ولا امتياز، في طاعة الله ورسوله فسبيل الطاعة التامة هذا هو سبيل الأمن والعدل، ولمن يسلكه سيفوز. فمن يريد أن يفتح سبيلًا غير هذا

ويودّ أن يتعلّق بالكفر والإسلام معاً يتبع خطوات الشيطان، والشيطان عدو مبين للإنسان. وذلك لأنه قد تحدّى بأنه سيضلّه منذ أن أمر بالسجود لأدم.

فَإِنْ زُلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٥﴾

والمراد من "الْبَيِّنَاتُ" تنبيهات وتهديدات قد فصلت في القرآن للتحذير عن مكائد الشيطان وفتنه كما أريد بها إرشادات قطعية بَيِّنَةٌ وردت لتبيين ما يقتضيه الإيمان والإسلام، والمعنى أنكم (أيها المنافقون) إذا اتبعتم خطوات عدوكم السرمدي الشيطان بعد أن جاءتكم إرشادات وتنبيهات واضحة للغاية فلتعلموا أنكم لن تفلتوا عن بطشة الله فإنه عزيز حكيم.

والإشارة إلى صفة الله "العزيز" تدلّ على حقيقتين؛ إحداهما أنّ الله ليس بضعيف ولا صاغر بل هو قوي منيع فمن يتبع خطوات الشيطان بعد تحذيره عنها فهو سيضطّشه بعذابه الذي قد أقرّه لمن يتبع خطوات الشيطان والذي قد أخبره من قبل، والأخرى أن من يتبع خطوات الشيطان بعد هذه الإرشادات الواضحة ويترك السبيل السوي لا يضرّ بالله بل يضرّ بنفسه فإن الله عزيز حكيم أي هو فوق كل فائدة وخسارة.

وكذا تشير صفة "الحكيم" إلى حقيقتين؛ إحداهما أنّ خالق هذه الدنيا حكيم. وكونه حكيمًا يتطلب واضحًا أنّ يميز من يستقيم على هدايته عن منحرف عنها نظرًا للعاقبة. فإن لم يفعل ذلك ويترك كلا الثقيلين على ما هما أو يعامل معهما معاملة متساوية فهذا يعني أنه ليس بحكيم بل هو لاهٍ وهذه الدنيا ليست بمصنع بُني على حكمة وغاية بل هي عبث لاهٍ، والأخرى أنّ ما يشهد من تأخير أو تقديم في إبراز نتائج الخير والشر يبني على الحكمة فالله ربما يمهل من يتبع الشيطان كما أنّ المؤمن ربما يبلى فلا يغتر به من يتبع الباطل ولا يئس به من هو مؤمن بل يوقن بأنّ ذلك الإمهال وهذا البلاء كلاهما مبني على حكمة الله وسننه، ونتائجها التي تأتي تحتها لن تتبدّل ولن تستأخر شيئًا.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٣٧﴾

نظر ينظر: رأى، وكذا انتظر. والمعنى من لم يستقم على جادة الحق بعد هذه البينات والتنبيهات والتهديدات بل ضلّ في اتباع الشيطان، لم يبق شيء لإتمام الحجة عليه طبقاً لسنة الله، وإن ينتظر شيء بعد ذلك فليس سوى أن يبدو لهم الله في ظلل من الغمام، بعذاب منه، وحوله جيوش قوية للملائكة ومن ثم يقضى على النزاع بين الحق والباطل. ولكن هذا الفصل ليس بيدي النبي بل هو بيد الله فحسب وهو يعلم متى يقضى على قوم وكيف يقطع دابره.

فبدا من هذه الآية أنه لا يوثق من الإيمان والهدى إلا بما يسفر عن الاستماع إلى آيات الله وفهمها لا عن الانتظار برؤية جلال الله وظهور قهره ومشاهدته فالطائفة التي تنتظر الأمر الأخير فهي لا تنتظر عاقبتها. وذلك لأنها تحب أن لا تؤمن بالحقائق إلا بعد أن تراها بأعينها، وأما الله تعالى فهو يود أن يعمل المرء عقله فيقبل ما يرشد إليه أنبيأؤه ورسله.

سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٣٨﴾

المراد من الآيات البينات تلك المعجزات البينات التي أعطيت لبني إسرائيل، والهدف وراء الإشارة إليها هو أن سبيل الإيمان والهدى لا يمهد إلا لمن يخدم عقله وفهمه ومن لا يخدمهما فهو لا يخرج عن تذبذبه وسوء عقيدته ولو أعطي له مآت من المعجزات فانظر كم من معجزة أعطيت لبني إسرائيل وهم شهدوها بالرغم عن المعجزات التي برزت بمصر على يدي موسى فقد جفّ البحر لهم وانشق الطور وانفجرت اثنتا عشرة عيناً من صخرة صلدة وأنزلت لهم مائدة ملؤها المن والسلوى في وادٍ غير ذي زرع. وبالجمله فقد ظهرت لهم المعجزات في كل خطوة منهم ولكن

سوء العقيدة الذي قد طرأ عليهم منذ فجر تاريخهم لم يخرجوا عنه فكيف ترجو ممن يتبع خطواتهم أن ستفتح أعينهم إذا أعطوا معجزات يطلبونها، هذا أمل منك لن يتحقق للأبد فلا تُفْتَحْ أعينهم ولو شهدوا معجزات بيّنت بأعين رؤوسهم.

والجانب الخاص في الإشارة إلى تاريخ بني إسرائيل هو أنّ المنافقين الذين عُرِضُوا هنا كان معظمهم ينتمون إلى جماعة بني إسرائيل ولذا فقدّمت لهم مرآة لتاريخهم الماضي وهذا تعريض بليغ للغاية.

وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ: المراد من "نعمة الله" هدى الله وشريعته والمراد من تبديلها عدم تقديرها وجعلها ذريعة للكفر بدلاً من تقديرها وجعلها وسيلة للإيمان والهدى. وقد تم توضيح هذا النوع من التبديل في مواضع من القرآن الكريم فقال تعالى "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا" (سورة إبراهيم: 28) والمعنى أنّ من يعطى نعمة الله ولكنه لا يستفيد منها بل ينتظر ظهور آية تركعهم أمام الحق فهو في الواقع يبذل الهدى بالضلالة والنعمة بالنقمة، وسيلقى مثل هؤلاء الناس عذاب الله الشديد طبقاً لسنة تعالى.

زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

هذه إشارة إلى الاغترار الذي وقع فيه أهل الباطل ومن ثم فيخوضون في إنفاق حياتهم في اتباع الباطل فرحين ومسرورين وحينما ينهّون عن عاقبة غفلتهم هذه من قبل النبي وأصحابه فهم يستهزئون بهم ويطلبون منهم إنزال العذاب لكي يسكتوهم كما قد مضت الإشارة إليه في الآية السابقة.

والاغترار هو أنه قد أعطي الإمهال لكل من الحق والباطل، الكفر والإيمان في هذه الدنيا فإن يختار أحد سبيل الخير والطاعة فلا يعني أن بريء عن قانون الامتحان بل هو ربما يمتحن أشدّ فأشدّ مقابل إيمانه. وكذا إذا أراد أحد أن يقضي حياة الكفر والعصيان فليس من سنة الله في حقه أن ينزل الملائكة فيعاقبونه بل هو ربما يعطى

إمهالاً بعد إمهال حتى تزداد جراته يوماً فيوماً وهذا هو الاغترار الذي عبّر عنه بـ"زَيْن" أي أنهم قد زَيْنَ لهم اغترارهم بهذه الدنيا بأنهم لا يرضون عن أن ينظروا إلى جهة أخرى غير تلك الجهة، والبديبي أنّ تزيين الدنيا في أعينهم ليس إلا من قبل الشيطان كما قد صرّح عنه في مواضع أخرى من القرآن الكريم. وكذا من البدبيبي أنّ الشيطان اهتبل فرصة هذا التزيين عن طريق تعجل الإنسان واتباعه للشهوات.

فمن قد وقعوا في هذا الاغترار عندما يذكر لهم المؤمنون عن بطشة أو عقاب في الدنيا أو في الآخرة على أعمالهم أو عقائدهم فهم يضحكون منهم ويستهزئون بهم قائلين: أنظروا إلى صوتكم أ أنتم أرفه بالاً أم نحن؟ والواقع أننا أحسن منكم حالاً بدرجات فلم لا نظن أنّ ما نقوم به من المعاملة هو الصحيح وثم حينما يرون أنهم لا يؤخذون على كافة سيئاتهم، الأخذ الذي يهددهم به المؤمنون فيزدادون اقتناعاً بما هم فاعلون وبزيادة اطمئنانهم يزدادون هزءاً بهم.

وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ: أي يبدو من ظاهر هذه الدنيا أنّ من يعبد الشهوات يستهزئ بمن هو مؤمن ومتقٍ فإنّ الدنيا ليست بدار الجزاء أو العقاب بل هي دار للامتحان ولكن هناك حياة بعد هذه الحياة الفانية، حياة يجزى فيها الكلّ ما قدّم وما آخر فسترون أنّ المؤمنين الذين لم يغتروا بزينة الدنيا بل عاشوا حياة ملؤها التقوى سيكونون أعلى.

لم يقل هنا سوى أنهم الأعلى ولم يقل عن جزاء من كان يستهزئ بهم، والسبب وراء ذلك أنّ هذا كان متحتماً فقد قام النبي وأصحابه بإخبارهم بما سيواجهون يوم القيامة فلم تكن الحاجة إلى ذكرها إلا أنه قال لبيان فضل المؤمنين المتقين "وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ" فالرزق تعبير عن فضل الله الذي قيل فيه أنه سيكون بغير حساب أي ستعجز مقاييسات ومستويات البشر عن الوصول إلى غايته وتقديره، وقد ضربت أمثال بليغة في الأحاديث عن هذه الحقيقة، سنفضّلها بمناسبة أخرى.

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٢٧﴾

وقد ذكر، فيما سبق، هزء الكفار والمنافقين من المؤمنين وأما في هذه الآية فيتم تشجيع المؤمنين بأن يقتنعوا فإنكم على جادة الحق فالشيء الذي يفصل بين الحق والباطل حين الاختلافات والنزاعات تمتلكونه أنتم وإنما أنتم هم الذين قد هديتم إلى الصراط المستقيم في ظلمة مظلمة للكفر والضلالة فلا يخالفكم إلا هؤلاء الكفار والمنافقون ويستهزون منكم فلا يفعلون هذا كله إلا بغياً بينهم وعناداً فيهم، الأمر الذي قد سقطوا فيه دائماً فأصبحوا أعداءً لهدى الله، لا يودون أن يتمتعوا منها كما لا يخلون غيرهم يتمتعون منها فلا تنظروا إلى جهودهم المضادة واستقيموا على جادة الحق ففترة البلاء هذه التي لا بد لكم منها هي تحت سنة الله فإذا مررتم عليها فائزين فستكّلون بالفوز والنجاح.

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً: فـ"كَانَ" هنا تامة عندنا وهي كما في قوله تعالى "كَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً" لمعنى الدوام. والمعنى أما فيما يتعلق بالله فإنه قد أعطى الناس كلهم ديناً واحداً وجعلهم أمة واحدة كما قال "إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ" (سورة آل عمران: 19) وكما قال "فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا" (سورة الروم: 30) وهذا هو الدين الذي قد بعث به أنبياءه ورسله لهداية الناس فلا يحب ديناً غير الإسلام ولا جعل أمة غير الأمة المسلمة فالدين عنده الإسلام كما أن الأمة عنده هي الأمة المسلمة.

وقد حذف لفظ "اخْتَلَفُوا" بعد "كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً" وفكّ هذا الحذف فيما بعد فقال "لِيُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ"، وقد جاء هذا الحذف طبقاً

لأسلوب العربي لكيلا يتكرر الأمر. والمعنى: ولو أنّ الله قد أرسل دينًا واحدًا وجعل أمة واحدة ولكن الناس اختلفوا في هذا الدين ومن ثم تفرّقوا شيعًا فأرسل الله الأنبياء لكي يخبروا الناس عن عواقب الاختلاف في الدين ويبدشّروا الذين استقاموا على جادة الحق بالفوز والنجاة، وقد أنزل الله على هذه الأنبياء الكتب التي جاءت بالحق أي القول الفصل لكي يتم الفصل فيما اختلف في هذا الدين ويتم إحياء الحق من جديد. ولكن الأمم التي أعطيت هذا الحق قد اختلفت فيه بغيًا بينها بعدما فهمته جيدًا في ضوء الدلائل وهكذا لم ينجل الاختلاف ولو أنّ الله لم يزل يوضّح الحق عن طريق أنبيائه ورسله وقد قام بهذه الجريمة من قد جُعِلَ مسؤولاً عنه.

والآن فتح الله هذا السبيل مرة أخرى عن طريق القرآن الكريم للمؤمنين أي النبي وأصحابه، والله هو الذي يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم حسبما تتطلبه حكمته.

وفي الفقرة الأخيرة إشارة إلى تلك المسؤولية الكبرى التي تقع على هذه الأمة بشأن أمانة الدين الحق أي لا تتبعوا خطوات المتقدمين بعدما أعطيتهم هذا الدين الحق وتقعوا في الاختلافات، وكذا هي تشير إلى أنّ هذا الهدف ليس بسيط بل هو يتطلب التضحيات منكم فأولياء الدين القدامى الذين تنحصر تجارتهم الدينية كلها في إخفاء الحق لا يتركونكم سدًى بل سيثبون عليكم من كل جانب.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٦٧﴾

هذه إشارة إلى سنة الله التي تمتحن عليها كلّ أمة تبرز حاملة للحق، والمعنى أنّ لا تفتروا همّتكم من مخالفة المنافقين والكفار وهزءهما فهذه بداية هذه الطريقة الوعرة فستواجهون، في المستقبل، طريقة أوعر من ذات قبل فعليكم أن تمرّوا بهذه المراحل كلها التي قد مرّ بها من قام حاملاً لهذا الحق فمن سبقكم في المشي

على هذه الطريقة قد واجهوا مصائب وشدائد وامتحنوا امتحاناً شديداً حتى نادى الرسول وأعوانه "مَتَى نَصْرُ اللَّهِ".

"حَتَّى يَقُولَ" عندنا وقعت حالاً. والمراد منها صورة الحال. وكذا أسلوب "مَتَى نَصْرُ اللَّهِ" يشير إلى الاستغاثة التي ستكون مثل دقة نهائية بباب الأمل فقال إِنَّ باب نصر الله يفتح بمفتاح هذه الدقة النهائية، أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ.

70- تفسير الآيات (221-215)

فاتضح أَنَّ المبحث السابق قد جاء في صورة التفات للحج، خَلَقَ جَوْاً مناسباً لتنبيه المنافقين ولتذكير المؤمنين فإنَّ سلسلة الحديث أصلاً كانت متعلقة بالحج والجهاد والإنفاق. ولذا فلما انتهى هذا المبحث الضمني استأنفت تلك السلسلة فاتصلت بالأصل وفيها ردود على ما نشأ في أذهان الناس من الأسئلة.

وهذه الأسئلة، كما سيتضح من التفصيل، تتعلق بتلك القضايا التي نوقشت من قبل. وأما السؤال عن الخمر والميسر فيمكن أن يبدو غير مرتبط لمن لم يكن ملماً بالأوضاع الاجتماعية والحضارية للعرب في الزمن الذي نزلت فيه هذه الآيات، وفي الواقع أَنَّ هذا السؤال قد نشأ نظراً للإنفاق الذي قد مضى ذكره آنفاً.

وسنبين، من خلال توضيح الآيات، أنه كما كانت جوانب ضارة للخمر والميسر في المجتمع العربي الجاهلي فكذا كانت لهما جوانب مفيدة فقد اعتاد أغنياء العرب وأسحياؤهم على أنهم كانوا يجتمعون في زمن السنين لاسيما الشتاء فكانوا يشربون الخمر كثيراً ثم كانوا يذبحون أي ناقة وقعت عليها أيديهم بعد ذلك كانوا يدفعون ثمنها المطلوب إلى صاحبها وكانوا يقامرون على لحمها فكان ينفق الناجح قدر ما نجح من اللحم فيما بين الفقراء والمساكين الذين كانوا يجتمعون على الاستماع لمثل هذا الخبر. كان هذا تقليداً حبيباً لدى العرب؛ فلما جرت الشمال وعمّ الديار نوع من السنين فمن حضر هذه الجلسات أو ساهم فيها كان يعدّ من أغنياء العرب

وأسخياهم وكان يعتبر من أكرم الناس في المجتمع وبالعكس من ذلك فمن كان يجنتها استخدمت لهم كلمة خاصة وهي "برم"¹ وهي كانت تعني "بخيلاً".

وقد كان شعراء العرب يذكرون هذه الجلسات للخمر والميسر بكل شدة وحدة وقد وددت أن أنقل هنا نماذج بعض الشعراء ولكن مثل هذه الأشياء العلمية البحتة لا تفيد إلا القليل من الناس فأصرف النظر عنها.

وبالجملة فهذا ما كان من جانب الخمر والميسر، الجانب الذي قد اعتبرا به من عادات السخاء في المجتمع العربي الجاهلي ودافعين قوين لخدمة الناس والرحمة على الغرباء ولذا فلما أكد القرآن الكريم على الإنفاق والرأفة على الفقراء نشأ في ذهن بعض الناس سؤال: حينما يؤكّد الإسلام على الإنفاق على اليتامى والشفقة بهم فلم لا نتخذ الخمر والميسر اللذين كانا وسيلتين ناجحتين للإنفاق على

¹ نذكر فيما يلي بعض الشواهد فقال السموأل:

إذا عُقِبَ القُدور تَكُنَّ مَالاً تحَتَّ حلائل الأبرام عرسي
ديوانه، ص 117 والأبرام جمع البرم. وقالت الخنساء:

وقد حال خيرٌ من أناس، ورفدُهم بكفِّي غلام لا ضنين ولا برم
ديوانها، ص 107 وقال متمم بن نويرة اليربوعي:

لقد كَفَّنَ المنهال تحت رداءه فئى غير مبطان العشيات، أروعا
ولا برماً تُهدي النساء لعرسه إذا القشع من حسن الشتاء تقفععا
ليبب أعان اللب منه سماحةً خصيب إذا ما راكب الجذب أوضعا

ديوان المفضليات، ص 265 وقال حجر بن خالد:

كليبّة علق الفؤاد بذكرها ما إن تزال ترى لها أهوالا
فاقني حياءك لا أبالك إنني في أرض فارس مؤثّق أحوالا
وإذا هلكت فلا تريدي عاجزاً غسّاً ولا برماً ولا معزالا

شرح ديوان الحماسة، 1/131 وقال زياد بن حمّل بن سعد:

كم فيهم من فئى حلو شمائله جم الرماد إذا ما أحمّد البرم

شرح ديوان الحماسة، 2/830

المساكين زمن السنين فنقل القرآن الكريم هذا السؤال هنا ثم ردّ عليه بأنه لا شك في أنّ هذين يوجّهان فوائد في المجتمع عن جهات ولكنما يعودان به من مفساد خلقية ومادية في الفرد والمجتمع كليهما هي أكبر من تلك الفوائد الموقته وعلى هذا فقد حكم القرآن الكريم عن تحريمهما.

هذا السؤال يشبه السؤال الموجه من قبل الناس الذين يعقدون جلسات الرقص والغناء لجمع الأموال لمعونة المعانين من السنين والزلزلة والسيول أو يرون الأفلام أو يدعون الأبطال أو يعقدون المباريات فإن منعوا عن اختيار الطرق السيئة لهذه العوائد الحسنة فيردّون أنهم يخدمون الإنسانية فلم تلوّمونا على هذا، والواقع أنهم مثل عرب الجاهلية يرون من الجوانب ما هي تبدو مفيدة لهم وهم لا ينظرون إلى جوانب التهلكة التي بإمكانها أن تقطع دابر المجتمع. نكتفي هنا بهذا الإجمال وسنقوم بتفصيلها حين تفسير الآيات وتوضيحها.

وكذا نشأ سؤال، في غضون هذا الحدث، عن اليتامى فقد ذكر، من قبل، اليتامى مع الوالدين والأقرباء بالنسبة للإنفاق لأنهم أيضاً يستحقّون ذلك الإنفاق فسألوا: لو ضمّ شؤون يتيم من ذوي قرياه، تقع مسؤوليتها عليه ومن ثم تزوّج من أمه فهل هذا يضرّ فقد قام القرآن الكريم بتوضيح بعض جوانب هذا السؤال فالآن اتل الآيات التالية في ضوء هذا الموجز فستجدها متربطة بعضها ببعض.

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّذِينَ وَاللَّذِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿١٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ فِيهِ كِبِيرٌ وَصَدٌّ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَظْلَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا

وَالْآخِرَةُ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٢﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخُمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٧٣﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبْتُمْ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَنَّ وَلَا مَئْمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَا أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَا أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٧٥﴾

71- تحقيق الكلمات وتوضيح الآيات

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٧١﴾

منذ البداية يؤمر في هذه السورة بالإنفاق والزكاة لاسيما في الآية الخامسة والتسعين قد حُضَّ على الإنفاق بالتأكيد بشأن الجهاد الواجب لتحرير بيت الله وقد أشرنا هناك أنّ الخطاب ولو أنه عام بالنسبة للكلمات ولكنه موجّه أصلاً إلى المسلمين الذين كانوا متخلفين في التضحية بأموالهم وأنفسهم. وإذا كان قلب امرئ ضعيفاً في شيء فلا يجد تشجيعاً على القيام به فهو إذا يسأل مراراً وتكراراً لإخفاء ذلك الضعف ويكأنه يريد أن يثبت. أما فيما يتعلق بالقيام بذلك الفعل فيرضى عنه بكل قوته ورغبته ولكنه لا يتذبذب في القيام لأنّ هناك أسئلة في ذهنه يريد أن يقتنع بالردود عليها، وهذا هو السرّ في أنّ المسلمين المخلصين لم يطرحوا إلا قليلاً من الأسئلة، وقد طرح معظمها من قبل من كان فاطر الهمة وبخيلاً، وكان يودّ أن يخفي ضعفه هذا في طيّ الأسئلة. ومثل هؤلاء الناس الذين طرحوا سؤالاً حينما أمروا بالإنفاق، رُدّ عليه في الآية التي نحن بصدد البحث عنها فهذا السؤال يبدي بنفسه

أنه يتم الرد عليه لما طلب منهم الإنفاق فلا يفهمون حتى متى وإلى متى يطلب منهم هذا الإنفاق فقد ردّ عليه القرآن الكريم مراعيًا ذهن السائلين ولهذا الردّ جزآن:

أحدهما: ينبغي لمن ينفق في سبيل الله أن يضع أمامه أن ما يخرجته هو لا يبلغ شيء منه إلى الله فإن الله لا يحتاج إلى مال أحد منكم فما يأخذه بيد يردّه إليهم بأخرى فيستفيد من مالنا من هم أبائنا وأمهاتنا وأعزتنا وأقرباؤنا واليتامى فينا والمساكين بيننا والمسافرون إلينا أو منا فكأن ما ننفقه في سبيل الله لا نقوم به إلا في سبيلنا وعلينا، والفرق ليس إلا أنّ هذا الصرف صرفًا اجتماعيًا يستفيد منه جميعنا بصورة منظمة، وإلى هذا الواقع أشار النبي ﷺ قائلًا "تؤخذ من أغنيائهم وتردّ على فقرائهم" ¹ وإليه الإشارة في آية سورة سبأ التي جاء فيها "قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ" (رقم الآية: 47).

والجانب الثاني لهذا الرد هو أنّ ما يقدمه المرء من الخير ليقتنع بأن كل ذرة منه يعلمها الله فلا يخرج شيء عن علمه ولا هو ينساه فإذا علم عن شيء فهذا يتحتم على أنه سيجزيه جزاءً وافيًا، وإذا جزئ عن كل شيء وليس سواء بسواء بل من عشرة أضعاف إلى سبعمئة ضعف فلم يتخلف المرء في استثمار ماله في تجارة نافعة كهذه "وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" (سورة التوبة: 121).

ولو أنّ هذا الرد كان جامعًا وواضحًا للغاية ولكن يبدو من هذه الآية أنّ بعض الناس الذين كانوا ضعفاء في هذا المجال، كما أشرنا إليه آنفًا، لم يمتنعوا عن مواصلة السؤال ولذا جاء فيما بعد "وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ" (رقم الآية: 219) فقام هذا الرد بتعيين الحد النهائي للإنفاق. وذلك لأنّ هذا الإنفاق يتعلق بصيانة وبقاء الأمة فيطلب الدين أن يستعدّ المرء لإنفاق قدر ما استطاع إخراجته من واجباته اليومية.

ويأوّل الإمام الفراهي هذه الآية من وجهة أخرى وهي بما أنّ هذا الإنفاق كان للجهاد الذي أمر به لتحرير الكعبة عن سيطرة المشركين فقد جذب التفات المسلمين كله

¹ صحيح البخاري، رقم الحديث: 1331

إليه ورغبوا في الاستعداد لهذا الجهاد إلى حدّ لم يلتفتوا خيراً إلى مصارف الإنفاق الأخرى مثل الوالدين والأقرباء واليتامى والمساكين وغيرهم فنشأ في الناس سؤال عن قدر الإنفاق فرّد عليه أنّ ما ينفق في سبيل الله يستحقّه أولاً من قد سلف ذكره وإن زيد شيء فهو لا يخفى على الله وهو يجزيه سواء بسواء فلم يحدّد القدر هنا وتركه لعقل الناس وفهمهم وقيموا الاقتصاد في شؤون دينية مختلفة. فيبدو أنّ الشبهة لم تزل عن أذهان بعض الناس عن قدر الإنفاق فطرحوا السؤال مرة أخرى فصّحّ لهم أنّ أنفقوا ما بقي من المال بعد صرفه على المستحقين ولأنّ المستحقين قد سلف ذكرهم فقد كفى هذا الرد الموجز مقنعاً لهم.

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

قد مضى مفصّلاً أنّ الإنفاق والقتال كلاهما حلقتان لسلسلة واحدة فإنّ الجهاد يتمّ بالمال والنفوس كليهما فقد أزالنا الآية السابفة التذبذب الذي حدث في بعض الأذهان عن التضحية بالمال. والآن يُزال في هذه الآية التذبذب الذي حدث عن التضحية بالنفوس. ولإزالة هذا التذبذب قد تمّ توضيح أصل مبدئي وهو أنّ الإنسان لا يقدر على أن يعيّن لنفسه طريقاً للرفق والفوز بل هو الله الذي يعيّن له فإنه خلقه وهو الذي يعرف ما يكمن في فطرة الإنسان ولما هي تصلح وما هي الطرق والمبادئ التي إذا اختارها قدر على إجلاء كافة مواهبه فإن ترك للمرء أن يختار له سبيل الخير أو الشر حسب عقله وهواه فلا نتعجب من أنه ينزع في اتباع أهوائه كل ما يمكن أن يسبّب رقيه وفوزه روحاً وخلقاً فليس من هذه الأشياء المودعة في نفسه ما يوافق أهواءه بل منها ما لا يصبر عليه نفسه وهواها، وكذا يخاف أن يجمع في ذاته كل ما يهويه في أسفل سافلين فإنه سهل كلّهُ للنفس وملئ باللذة والجذب، وهذا من سرّ الفطرة البشرية أنّ ما ترغب فيه يسقطها في السفلى بينما الذي يرفعها لا ترغب فيه فطرته وعلى هذا وذلك فقد أوجب الله على نفسه أن يدلّ على الطريق إلى رقيه وفوزه. وأرسل لهما رسله وأنبياءه لكي يهدوه إلى ما يرضى عنه.

وكذا الأمر مع القتال والجهاد فإن نظرنا في جانبه الظاهري فهو أوحش الأمور وأهولها ولكن ربما يضطر الإنسان إلى أن يحب هذا الشيء الوحش المهيّب وذلك لأنه لو صرف النظر عنه فيمكن أن يذهب بكافة القيم الإنسانية.

وأما قوله "وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ" فهو لا يعني أنّ المرء لا يقدر على أن يعيّن جانب الخير أو الشر في أمر ما بل هو يعني أنّ المرء يواجه في هذا كثيرًا من الاشتباهاً فيمكن أن تعثر قدماء وليس هنا سوى الله الذي يحيط علمه بما ظهر وما بطن، وبما مضى وما سيأتي فقد صمّم للمرء مشاريع طول حياة المرء وأنزلها عن طريق رسوله، وهذه المشاريع جامعة إلى حدّ تضمن الرقي والصلاح في كلا العالمين. يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَزُدَّوَكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَظَلُّوْا وَمَنْ يَزِدْكُمْ مِّنْكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٧﴾

أشير في الآيات السالفة (190-195) إلى أنه إذا صدّ المشركون سبيلكم للحج وبالتالي فاضطررتم إلى القتال فقاتلوهم ولو أجبرتم على أن تقتاتلوهم في الأشهر الحرم أو في حدود الحرم ذاتها. ولو أن هذا كان واضحًا للغاية ولكن كان تقليدًا جامدًا لدى عرب الجاهلية أنهم كانوا يرون القتال في تلك الأشهر إثمًا فلا يمكن أن يثبت هذا في قلوب العديد من الناس. ولأنّ العواطف لها أثر شديد في مثل هذه القضايا فيمتل المعارضون فرصًا ملائمة لخلق الدعايات وعلى هذا فقد طرح الناس سؤالاً عن هذا فقام القرآن بالرد المفصّل عليه.

وكما أوضح القرآن في الآيات السابقة أنّ القتال في الأشهر الحرم إثم كبير فكذا أوضح أن "قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ" ولكنه صرّح بعد ذلك أنّ صدور الناس عن سبيل الله وكفرهم بالله ومنع الناس عن المسجد الحرام وإجبار من هو أحق بأن يجاور

المسجد الحرام باعتبار أعماله وعقائده على أن يهاجروه، هذا كله أشد من القتال في هذه الأشهر الحرم وعلى هذا فلو أجبر المسلمون على أن يقاتلوا الكفار في الأشهر الحرم لإزالة الإثم الكبير الخطير فهذا سيكون قصاصاً لحرمة تلك الأشهر وليس هذا بإثم بل هو نوع من الحسنه.

وزد على ذلك إشارته إلى كلمة "الفتنة" هنا خاصة فقال "وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ"، وقد قمنا بتحقيق كلمة "الفتنة" من قبل وهي أريد بها تلك العقوبات الشديدة التي كان الكفار والمشركون يمارسونها لتحويل المسلمين عن الإسلام فقال إن هذه الفتنة التي يمارسونها في حدود الحرم وفي الأشهر الحرم ولا يعتنون بحرمة هذه المقدسات فهي الآن أشد من القتل فيها، وإذا قام المسلمون بالقتال ضدهم فهو ليس بإثم بل هو حسنة يقدمها المسلمون.

ثم قال لتوضيح شدة هذه الفتنة أن ما يمارسه الكفار والمشركون من أنواع الظلم لصدّ المسلمين عن الدين الحق ليست بمجرد أحداث فردية تصدر عن عاطفة مؤقتة بل إنهم يقرّرون مشروعاً لبداية سلسلة للحروب الدامية لمنع المسلمين عن الدين وأنهم لن يتوقفوا، إن استطاعوا، ما لم ينجحوا في سعيهم هذا فهل نعتبر القتال في الأشهر الحرم لمواجهة مثل هذه الفتنة الشديدة إنمّا ما؟ كلا.

إلى هنا ردّ على سؤال مطروح وثم نبّه المسلمين حسب الموقع عن مسألة الردّة أي لو ارتدّ أحد منكم عن دينه تحت ضغطه من ظلمهم ثم يموت فيها فستحبط أعماله كلها في الدنيا والآخرة وهو يخلد في النار، وهنا استخدم كلمة "حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ" لكون الأعمال غير مفيدة. والمراد من الأعمال تلك التي قام بها ظاناً أنها حسنة ومعنى "حبط" هو كونها غير مفيدة ولا مؤثرة ولا عائدة بشيء ما. أي كلّ ما قدّمه بعد خروجه عن الكفر ودخوله في الإسلام من الأعمال لا يقام لها وزنٌ ما.

وهناك نكتة خاصة في هذه الآية تلفت النظر إليها وهي أنه قال بالنسبة لحبط الأعمال إنها ستحبط في الدنيا والآخرة كليهما "أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ"، فأما

حبط أعمال المرتد في الآخرة فهي واضحة للغاية ولكن حبطها في الدنيا شيء لا يفهم بسهولة، وللإجابة على ذلك نقول: إن من يرتد عن دينه يحرم كافة حقوق المدنية في الدولة الإسلامية فلا تكون الدولة مسؤولة عن نفسه وماله، وعلى هذا المبدأ يبني قانون العقاب الإسلامي المتعلق بالمرتد.

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾

وبعد ذكر عاقبة المرتدين بسبب الظلم الممارس من قبل الكفار أشار إلى درجة الذين يثبتون على إيمانهم بعدما صبروا على هذا الظلم الموجه من قبل الكفار ومهاجرون ويغزون ضدهم فقال فيهم إنهم يجدرون بأن تحيط بهم رحمة ربهم، فتدل القرينة على أن "ءَامَنُوا" هنا قد استخدم لمعناه التام وعلى هذا فقد ترجمناها بـ "قد ثبتوا على إيمانهم".

وقد كانت الهجرة والجهاد كلاهما واجباً على المسلمين في آن واحد فقد أمر بالجهاد لتحرير بيت الله عن سيطرة المسلمين وإزالة الفتنة كما أمر بالهجرة لانتصار النبي والحفاظ على الإيمان، وكانت هاتان المعركتان خطرتين للغاية وعلى هذا فذكرتا معاً وأرشد المسلمون فيهما إلى أن رد فعل الظلم ليس الردة بل هو الهجرة والجهاد.

وأما من كان يستطيع بأن يخوض في هذه المعركة فقال فيهم إنهم يرجون رحمة ربهم أي ولو أن أحداً منهم لا يسوغ له أن يتيقن النجاح المتقيد بعمله فإن النجاح ليس منوطاً بالأعمال بل هو من فضل الله ورحمته ولذا قال فيما بعد "وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ".

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا ۚ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ۖ قُلِ الْغَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٣٠﴾

وقد أشرنا في مدخل هذا الفصل إلى أن السؤال عن الخمر والميسر قد طرحه بعض الناس ظانين فوائدهما المنتشرة في العرب نظراً لتقاليد المجتمع الجاهلي.

وقد أوضحنا أنّ الخمر والميسر في المجتمع الجاهلي لم يكونا كما نشهده اليوم في المجتمع الراهن فالميسر هنا ليس إلا نيل الأمل فالدمار وأما الخمر فهي عبارة عن اللهو بالنساء ولكنهما كانا يطويان بين جنبيهما في المجتمع الجاهلي جوانب اعتبرهما العرب من الفضائل لا من الرذائل، ونظرًا إلى تلك الجوانب فقد نشأ فيهم السؤال عنهما بشأن الإنفاق والجهاد بأنّ هناك سبيلًا للإنفاق في السنين أنّ الأغنياء كانوا يشربون الخمر وكانوا يقامرون فما ظفروا به قد نشروه فيما بين الفقراء فماذا يرى القرآن الكريم عن هذين؟

اعترف القرآن الكريم بفوائدهما الموقته ولكن خسائرها التي تؤثر في المجتمع هي أكبر من فوائدها وعلى هذا فهي لا تسوغ نظرًا للرفاهية الخلقية فكأن القرآن الكريم أشار هنا إلى روح الشريعة الإسلامية بأنّ الأشياء التي خسائرها أكبر من منافعها لا تسوغ في الشريعة الإسلامية البتة.

يرى بعض الناس أنّ فوائد ومنافع الخمر والميسر التي اعترف بها القرآن الكريم هنا هي فوائدها ومنافعها المادية والطبية ولكن هذه فكرة باطلة. أولاً لأنّ القرآن الكريم لا علاقة له مباشرة مع فوائد الأشياء والأعمال المادية والطبية وإن كان كذلك فهل في الدنيا شيء غير طيب لا توجد فيه أيّ فوائد مادية أو طبية بجانب اشتماله على الضرر فلم خصّ القرآن الكريم الخمر والميسر بذكر فوائدها؟ فهل لا توجد فوائد في السرقة والزنى والربا والخنزير ولم لم يخصصها بالذكر؟

وعندنا أسباب ثلاثة تالية لسوء الفهم هذا:

أولها: أنّ الناس قد قاسوا خمر وميسر العصر الجاهلي على خمر وميسر اليوم الذي يتروج في مجتمعاتنا الحديث فلن يتصوروا وجود أيّ قيمة إنسانية وخلقية فيهما.

وثانيها: أنّ الناس عادة ما لا يعرفون جيدًا بكلام عرب الجاهلية وتقاليدهم ومعروفهم ومنكرهم فلا يدركون إشارات القرآن هذه إلا قليلًا.

وثالثها: أنهم لا يتفكرون في كلمات القرآن الكريم كما يرام فيذيعون ما تظفر به أيديهم عاجلة. فانظروا أنّ القرآن الكريم أوضح باستخدام كلمة "إثم" مقابل "نفع"، لأنّ المراد منها ليس فوائدهما الطبية والمادية بل هي فوائدهما الخلقية فإنّ كلمة "إثم" لا تستخدم للضرر الطبي بل هي تستخدم للمفاسد الخلقية والسيئات فإن كان السؤال عن ضرر الخمر الطبي فاستخدمت كلمة "الضرر" بدل كلمة "الإثم".

فقد أوضحت هذه الآية روح الشريعة الإسلامية بأنّ الأشياء التي تضرّ عن الجهة الخلقية يجب الحذر عنها في الإسلام ولو أنها تقدر على نفع البشر أو يمكن بها توجيه أيّ نفع إلى البشر فمثلاً أن يشتري الناس في مكان سهماً من اليانصيب رجاء أن يبنوا بما ظفروا به من المال، مسجداً فخماً أو يعقدوا برنامجاً لبروز أبطال الفيلم أملين أن يعينوا مسلمي منطقة مصابة بالآفات بما حصلوا على المال بعد بيع التذاكر. ولو أنّ هذه الخدمات من أشغال الخير وخدمة الناس ولكن الإسلام لا يسمح خيرها لأنّ ما ينمو في خيرها من الشر هو أكبر من ذاك الخير.

وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٣٤﴾
وقد أوضحت لكم السبب في تكرار السؤال عن شيء واضح بأنّه قد طُرِحَ من قبل الضعفاء الذين تضيق خواطرهم عن الإنفاق. ولأجل العناية بضعفهم هذا فقد ردّ القرآن الكريم على سؤالهم في حلقات لكيلا يشقّ عليهم. وتفصيل ذلك أننا لو أعطينا جلّ الدواء لمريض يهرب من الدواء فيمكن أن يزجج بالرحمة تقتضي أن نعطيها مرتين أو ثلاث مرات. وعلى هذا فقد ردّ القرآن الكريم على من كان يسأل عن الإنفاق ردّاً نهائياً في المرة الثانية فإن وجّه هذا الرد النهائي في المرة الأولى فأمكن أن يبتلى الضعفاء في إيمانهم.

هذا ردّ موجز للغاية ولكنه بالرغم من ذلك واضح وقطعي تماماً فقال "قُلِ الْعَفْوَ" فالمراد من العفو ما بقي من المال بعد تلبية حاجيات المرء وعياله فلنلاحظ هنا أنه لم يناقش هنا ذاك الإنفاق الذي يجب على كل مسلم لكل من يستحقه في صورة

الزكاة والصدقات الواجبة بل المراد منه ذاك الإنفاق الذي يتعلق بالجهاد وإعلاء كلمة الله وصيانة الملة والدفاع عنها فما يحتمل على مسلم من مسؤولية عن الإنفاق لهذه الأهداف هذا هو حدّها النهائي أي إذا مسّت الحاجة لصيانة الملة والدفاع عنها فليضحّ بما يمكن إبقاؤه من حاجيات المرء الواجبة في سبيل الجهاد فتحدث في الحياة القومية أحداث ووقائع يجب فيها على المرء أن يضحي بكل ما لديه لأجل الحفاظ على الدين والدفاع عن الوطن، ويضطر كل قوم، فيه غيرة كافرًا كان أو مؤمنًا، إلى الخوض في مثل هذه المعركة ويودّ الإسلام أن نستعدّ لمثل هذه التضحيات طوعًا لا كرهًا.

كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ: هذا تحليل لما مضى من السؤال والردّ بإسرهما فقد ذكرنا أنّ هذه الأسئلة كلها تتعلق بالقضايا التي قد ذكرت عن الأشهر الحرم والجهاد والإنفاق بشأن الحج، وقد نشأت أسئلة أخرى عن هذه القضايا فقام القرآن الكريم بتوضيحها وأشار كمنة إلى أنّ هذا توضيح لما أجمل سالفًا ووفاء لما وعده الله وما هو مذكور في سورة القيامة "إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾".

وأما فائدة هذا التبيين التي ذكرها هنا فهي "لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ" فقد اختار القرآن الكريم في بيان القضايا أسلوبًا لم يذكر كافة جوانب أمر مرة واحدة بل ترك أشياء منها مجملة غير مفصّلة حتى نشأت عنها الأسئلة في أذهان الناس فقام بالردّ عليه تدريجيًا. لم يفعل هذا إلا لكي يتربّي الناس على التفكير ولا يكونوا عميانًا في أمر الدين بل لكي يعملوا عقولهم للوصول إلى أسرارهم ورموزهم، وفوائده ومصالحه. ولو أن هذه الآية تنبهي على "لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ" ولكنه قد تبعها كلمات "فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ". وحينما نتفكّر فيها يبدو لنا أنّ هذه الزيادة قيّمة للغاية فلو تفكّرتم في الأسئلة السالفة لعلمتم أنّ هذه الأسئلة لم تنشأ إلا لأنّ الناس عامة لا يمتلكون ذلك الميزان الذي يمكن به زنة عادلة لفوائد ومصالح الدين والدنيا كليهما، وهذه

الزنة الظالمة تسفر عن أنّ الناس لو مالوا إلى التدين لجعلوه رهبانية بحتة حتى يعتبرون القتال والجهاد ضدًا للتقوى ولو كانا في أي صورة أو حالة وإن مالوا إلى الدنيا جعلوا الخمر والميسر خيرًا لمجرد أنهما يطويان فوائد فيهما فالسبيل الذي اختاره القرآن الكريم في تربية الفكر الإنساني يبعد عنه هذا الوزن الظالم ويجعله صالحًا لكي يعرف حق الدين والدنيا كليهما صحيحًا عاديًا.

وقد حاول من تأثر بالنظرية الاشتراكية أن ينتجوا من كلمة "العفو" أنّ الحكومة الإسلامية تستطيع أن تسيطر على ما بقي من المال بعد القضاء على الحاجات اللازمة لأجل الأهداف الاجتماعية ولكن هذه الفكرة ليست بصحيحة فأولًا كل ما قيل هنا لا يتعلق بالحكومة بل بعامة الأفراد أن يستعدوا بهذه الأثرة وهم أحرار فيها وثانيًا أنه لا يتعلق بالأوضاع العامة، كما قد أوضحناه، بل هو يتعلق بحالة الطوارئ حينما تعرضت الأوضاع للخفاظ على الملة وفي مثل هذه الأوضاع يرضى الناس أولًا عن أن يضحوّوا بما يمتلكونه ولا تضيق خواطرهم عما تجبرهم على شيء إذا فعلت أو شعرت به. ولو أنّ الإسلام يميل حقًا إلى أن تتم تربية الأفراد بحيث أن يتشجعوا على تقديم الخير ما استطاعوا بجانب حرّيتهم في الإرادة والخيار فلا يهّم الإسلام الخير في حالة الجبر والقيّد قدرما يقيّمه والناس أحرار.

فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبْتُمْ إِنْ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٦﴾

وقد نشأ هذا السؤال عن اليتامى نظرًا لتلك الخدمة الاجتماعية والتضامن اللذين قد أرشد إليهما في الآية 215. فلما حمّل الإسلام كلّ الأفراد مسؤوليات اليتامى ولاسيما يتامى العشيرة التي ينتمون إليهم بجانب الوالدين والأقرباء بما أنهم إذا كانوا في حاجة ماسة ويفقدون ما يعينهم فينفقوا عليهم وإذا امتلكوا مالاّ فلينظموه بكل حذر ولينمّوه قدر ما استطاعوا، فلما فعل الإسلام كذلك نشأ في الناس سؤال: إذا ضمّ أحدٌ مال يتيّم أو تجارته إلى ماله أو تجارته لكي يسهل

التنظيم والتدوير أو نكح من أمّ مثل هذه اليتامى لصيانة حقوقه فهل يكون فيه حرج؟ قد نشأ هذا السؤال خصوصاً لما أكّد الإسلام على الحذر في صيانة حقوق اليتيم وأمواله وهو صعب للغاية فقد صرّح القرآن الكريم بأن لا تقتربوا من مال اليتيم إلا لأجل هدف صالح كما قال إنّ من يأكل مال اليتيم فكأنه يحشو بطنه من نار جهنم. ونظرًا لهذه التنبيهات والتوكيدات لن يمكن لمُتّق أن يجترئ على أن يضمّ ما يمتلك اليتيم إلى ما يمتلكه هو.

وما ذكره القرآن الكريم من أصل ردًّا على هذا السؤال هو "إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ" فالغاية القصوى هي أن يرضى المرء تنمية اليتامى وتقدّمهم فالشيء الذي يمكن صلاحًا له هو خير لهم فإن كان من الأحسن طبق ظروفكم أن تفردوا أمورهم فلتفعلوا وإن تظنوا من الأحسن أن تضمّوها إليكم فأنتم مسموحون لذلك. وذلك لأنهم منكم فلم تفصلوهم عنكم؟ ولكن قد نبّه بعد هذه الرخصة "وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ" أي لا يخفى على الله ما يريد به المرء فلا يخفى من يريد به خيرًا لليتامى أو من يريد غصب أموالهم فإن أساء أحد استخدام هذه الرخصة فيعلم أنّ الله عزيز حكيم فلن يهرب أحد عن بطشته. وعلاوة على ذلك أشار إلى هذه المنّة بأنّ ما أعطاكم الله من رخصة ضمّ أمواله إلى أموالكم فهي نعمة منه وإلا فكان هو قادرًا على أن يمنعكم عنه ويأمركم بالحفاظ عليها بدون أيّ انضمام، وإن كان كذلك فيمكن أن تقعوا في مشكلة أخرى أكبر من ذات قبل، ولكن الله قد أنعم عليكم بحيث قد فتح لكم سبيلًا لنيل الخير فليشكر كلكم على ما أحسن إليكم ولا تريدوا أن تسيئوا استخدام هذه النعمة.

"العنت" تعني المشقة والمشكلة ومنها الإعانات وهو إيقاع أحد في المشقة، وتبدو منه روح الشريعة الإسلامية بأنّ هذه الشريعة لم تنزل لكي توقع الناس في المشقة بل جاءت لكي تخرجهم عنها.

وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ وَلَا مَئِمَّةً مُّؤْمِنَةً خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا

تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ؕ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ
إِلَى الْكَافِرِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٣٨﴾

وما سمح من الانضمام عن جهة رفاهية اليتامى جانبها الأول أنه إذا استحسن وليّ
يتيم عن جهة صيانة حقوق يتيم أن يتزوج من أمّ ذلك اليتيم لكي يربّي أيّماً
ويصونها ويحمي عزتها فتأتي في بيته امرأة واعية للعناية بحقوق يتيم فماذا تحكم
الشريعة إذا؟ ردّ القرآن الكريم على هذا السؤال بأن هذه المصلحة مهمّة للغاية
ويسمح للأولياء أن يتزوجوا من أمهات اليتامى نظراً لهذا الحذر ولكن شريطة أن
تكون مؤمنة. اشترط هذا لأنه في ذاك الوقت كان هناك يتامى لم تكن أمهاتهم
مسلمات وعلى هذا فقد أرشد إلى أنّ النكاح من المشركات لا يجوز ولو نظراً لهذه
المصلحة فإنه يمكن أن تحدث أضرار أخرى أشار إليها فيما بعد.

وليلاحظ هنا أنّ كلمة المشركين والمشركات في القرآن الكريم قد استخدمت خاصة
لمشركي العرب ومشركاتهم كلقب أو علم لهم فالأقوام التي يوجد فيها الشرك سواء
كانوا من أهل الكتاب أو من غير أهل الكتاب لا تأتي تحت هذه الكلمة فسيأتي
تفصيل أحكامها على حدة.

وقد أوضح هنا عن مشركي بني إسرائيل ومشركاتهم أنه لا يجوز لكم أن تنكحوا
من بناتهم ولا أن تزوجوا بناتكم من أولادهم كما أوضح بالتوكيد أنّ أمة مسلمة
خيرٌ من مشركة ولو أعجبتكم كما أنّ عبداً مؤمناً خيرٌ من مشرك ولو أعجبكم ثم
بيّن السبب وراء هذا وهو أنّ مستوى الإعجاب أو السخط في الإسلام لا يبنى على
الصورة الظاهرية ولا على الحسب والنسب ولا على الحرية والعبودية بل يبنى على
الإيمان والعمل الصالح فالآن لم تبق أواصركم مبنية على الأنساب والطبقات بل
على العقائد والأعمال الصالحة فأمية قرشية لا تزن شيئاً إذا لم تتصف بالإيمان
بينما أمة إفريقية سوداء مثل حواء الجنة لكم إذا كان قلبها متنوراً بنور الإيمان
والإسلام، وهكذا يجوز لكم أن تزوجوا ببناتكم من عبد إذا كان مؤمناً ولكن لا

تزوّجوها من أمير قرشي له قوة وشوكة إذا لم يكن مؤمناً مسلماً.

ثم ذكر فلسفة هذا الحجز بأن أثر القربى لا يكون عادياً في الحياة بل يكون راسخاً للغاية فإن لم يهّم المرء العقائد والأعمال شيئاً في هذا ويهتم فيه بمجرد الحسن والمال والنسب والمصلحة فيمكن أن يأتي بمصيبة على نفقته الخاصة، لا تؤثر فيه بل عسى أن تذهب بإيمان وإسلام أولاده وحفدته فما قامت أواصر النكاح من تغييرات كبرى في الدين والتقاليد والحضارة والثقافة، لا يخلو التاريخ من الأمثلة العملية عليها فيبدو من دراسة تاريخ بني إسرائيل أنهم قد انتشر فيهم ضلالات عقائدية لأجل النساء الأجنبية اللاتي قد تزوّجوا منهن وكذا ما قام به الأباطرة المغول من الزواج من أميرات الراجات الهندوس نظراً للمصالح السياسية فأدخلوا في بيوتهم عقائدهم وخرافاتهم وعباداتهم فمن يصرّ على إزالة معالم الأمم والأديان ووجهات نظرهم يرى من أنجح وسائل هذه المكيدة الزواج على مستوى الأديان فلا يغفل مسلم في هذا الأمر بل ليضع أمام عينيه أنّ الرب الذي يؤمن به يدعو إلى المغفرة والجنة ومن يحرم الإيمان لا يدلّ إلا على نار جهنم سواء كان رجلاً أو امرأة. ولأنّ هذه الآية نزلت لتوضيح ما مضى من المباحث السالفة فقال في نهايتها "وَيُبَيِّنْ عَائِيَّتِهِ لِّلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ".

وما قيل عن اليتامى في الآيتين السالفتين قد مضت الإشارة إليه في سورة النساء فننقل هنا ما يتعلق به من الآيات لكي يتضح كل جانب بقراءة كلا الموضوعين. قال تعالى:

"وَأَثَاؤُاِ اَلْيَتَامَىٰ اَمْوَالُهُمْ وَلَا تَتَّبَدَّلُوا اَلْحَيْثُ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا اَمْوَالَهُمْ اِلَىٰ اَمْوَالِكُمْ اِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٦﴾ وَاِنْ خِفْتُمْ اَلَّا تَقْسِطُوا فِى اَلْيَتَامَىٰ فَاَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ مَتًى وَتِلْكَ وَرُبِعٌۭ فَاِنْ خِفْتُمْ اَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ اَوْ مَا مَلَكَتْ اَيْمَانُكُمْ ذٰلِكَ اَدْنَىٰ اَلَّا تَعُولُوا ﴿٧﴾ وَأَثَاؤُاِ النِّسَاءِ صَدَقَتِهِنَّ نِحْلَةً فَاِنْ طَبَنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوْهُ هَنِيًْا مَّرِيًا ﴿٨﴾ وَلَا تُوْثَرُوا السُّفَهَاءَ اَمْوَالَكُمُ الَّتِى جَعَلَ اللّٰهُ لَكُمْ قِيَمًا

وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۝ وَابْتَلُوا الَّذِينَ تَنَمَّي حَتَّى إِذَا بَلَغُوا
الْبِكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ
يَكْبَرُوا ۚ وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ
إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ۝

72- تفسير الآيات (22-231)

قد رأيتم فيما سلف كيف نشأت قضايا عن الجهاد بعد ذكر الحج وتبعها الإنفاق الذي سبق الخمر والميسر ومن ثم الرحمة على اليتامى، وهكذا قضية النكاح من أمهات اليتامى قد مهّدت السبيل لبيان قضايا ملائمة للنكاح والطلاق في جانب وفي جانب آخر خلقت جواً مناسباً لتزول بعض الأحكام والإرشادات نظراً لحماية حقوق النساء، وهذا هو أسلوب القرآن الكريم بأنه كلما أصبح الجوّ مناسباً لبيان حديث فينزل الحديث مثل المطر في نطاق واسع فقد بُيِّنَ هنا جزء مهم للقضايا المتعلقة بالموضوع. ابتدئ ذكر هذه القضايا بالرد على سؤال عن أيام الحيض، إنّ هذا السؤال الخاص يهتم بأن العديد من قضايا النكاح والطلاق، كما سيوضح فيما بعد، يحددها هذا الحيض. ولذلك فقد صرف النظر عن القضايا الأصلية وأوجب المعرفة بأحكام الشريعة وإرشاداتها عن هذا الأمر. والآن اقرأ الآيات التالية في ضوء هذا المدخل:

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَظْهَرْنَ فَإِذَا تَظَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ۝ نِسَاءُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ شَتْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوَةٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ

وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَالْمُطَلَّقَتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكِ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمَّ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْنَاهُمْ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِيَتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا عَآيِةَ اللَّهِ هُزُوعًا وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾

73- تحقيق الكلمات وتوضيح الآيات

وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٣٢﴾

لم ينشأ السؤال عن أيام الحيض لمجرد أن القرب من النساء يجوز فيها أم لا يجوز فلم يكن القرب ممنوعاً في كافة الأديان السماوية بل العرب أنفسهم كانوا يمتنعون منها في جاهليتهم ولقد أشاروا إليها في قصائدهم عن مختلف الجهات. نعم كانت هناك قضايا أخرى تتعلق بها، لم يكونوا يعدلون فيها فمثلاً ما هي

الحدود للاجتناب عن النساء في تلك الأيام، وما هي الطرق والآداب للطهارة عنه، وما هي أهميته إذا طلق أحد زوجته في تلك الأيام وكيف تكون العدة؟ لاسيما السؤال الأخير الذي قد نال أهمية كبرى فإنه كان يعود أثره على النكاح والطلاق والعدة والإرث والقضايا العائلية الأخرى. ولذا فقد تناولته القرآن الكريم بالرد أولاً حينما ناقش قضايا النكاح والطلاق.

فالأمر بالاعتزال عن النساء يتضح حدّه بالكلمات التالية وهي "وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَظْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ" فالاعتزال ليس إلا للجماع فلا يعني هذا أن تجعلوا النساء منبذات كما يوجد في الأديان الأخرى، وقد أوضحه النبي ﷺ بأقواله وأعماله.

واستخدمت كلمتان "طهر" و"تطهر" فالطهر يعني انتهاء مدة الحيض، والتطهر يعني غسلهن وطهارتهن فقد اشترط الطهر للتقرب من النساء في الآية ومن ثم قال: لا تقربوهن إلا إذا طهرن، وهذا لأن الاعتزال عن النساء يسببه الدم فإذا انقطع الدم فلا تبتعدوا منهن ولكن الأصح أن تقربوا منهن إذا نلن الطهارة بعد الغسل.

ويبدو من الجملة "فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ" أَنَّ كافة الأمور البديهيّة مما تأمره فطرة الله، ومن ثم هي من أجزاء الشريعة ولو أمر بها أم لم يؤمر بها. فمثلاً أنه لم يؤمر في مكان بأن تدخل اللقمة في الفم ولا تلمس في الأنف أو العين. ولكنه أمر من الله فإن فاطرنا تعالى قد جعلنا كذلك فإن قام أحد بخلافه فهو يخالف أمراً من الله واضحاً بل أوضح وهو يستحق العقاب عند الله وقد كتبنا "أوضح" بدلاً من "واضح" لأن الله قد ترك هذه الأمور إلى فطرتنا بما أنها لا تحتاج إلى أي إرشاد فيها. ونفس الأمر مع مكان الجماع فإن يخالفه أحد فهو أضلّ من البهائم فإنها لا تخطئ فيها أبداً ولو أنها لا تعرف قرأنا ولا كتاباً منزلاً.

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوْبَةَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ: فإن تفكروا في حقيقي التوبة والتطهر فسترون أَنَّ التوبة تنجي داخلنا عن الآثام بينما التطهر ينجينا عن النجاسة

الخارجية وهكذا فأصبحا واحدًا ولا غير. والله يحبّ هاتين العادتين للمؤمنين. وأما من حرّمهما فلا يحبّه الله. والسياق الذي ذكر فيه الحديث هنا نتعلم منه أنّ من لا يعتزل عن النساء في زمن الحيض أو يتجاوز حدود الله في الجماع لا يحبّه الله، وقد قامت الأحاديث بإيضاح هذا الأمر.

فَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لَأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوَةٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٦﴾

الحَرْث يعني بالعربية المزرع حدائق كانت أم محاصد.

والجانب البسيط في كون المرأة مزرعًا هو أنه كما أنّ المزرع يجب فيه أن يذرّ البذر فيه في الميعاد وأن يذرّ في داخل المزرع ولا خارجه. ولا يخالف كافرٌ هذا الأصل فكذلك المرأة فلا يسوغ فيها أن يجامعها المرء في غير أوانها وغير مكانها فإنّ الحيض زمن لا تصلح فيه المرأة للحمل وأنّ الجماع في غير محله يؤذي المرأة ويضيع البذر فلا يسوغ لرجل سليم الفطرة أن يرتكب هذه الجريمة. ومن هذه الجهة تقوم هذه الآية بشرح مزيد لما ذكر في الآية السالفة.

وفي "فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ" إشارة إلى أمرين اثنين؛ أولهما حرية المرء وعدم تكلفه واستقلاله بزوجه كما يحدث مع صاحب مزرع. وآخرهما ثباته ومسؤوليته وحذره الذي يقوم به صاحب حديقة عن حديقته، وإلى هذا الجانب الثاني تشير كلمة "الحَرْث" وأما الجانب الأول فيدلّ عليه كلمة "أَنَّى شِئْتُمْ". فتلك الحرية وهذا الثبات يعيّنان تلك المعاملة التي يجب على الزوج أن يختارها مع زوجته.

فيعرف كل امرئ أنّ هدوء وسرور الحياة العائلية كليهما ينحصر في اطمئنان الزوجين أنّ الرب لم يضع على حريتهما قيدًا أو رقابة سوى قيود مبدئية واضحة، وفي هذا الشعور بالحرية فرحة مسكرة فلما يدخل المرء في حديقة راحته وفرحته فيؤدّ الله جلّ مجده أن يتشبع من سكره هذا ولكنه مع ذلك قد قيّده بأنها ليست بغابة بل هي حديقته الشخصية وهي ليست بأرض قاحلة بل هي مزرعه الخاص

فهو حرّ في زيارته مرة أو مرتين أو مرارًا كثيرة بكل شوكة وسلطان وطريق. ولكن لا ينس أنها حديقته ومزرعه فلا يغفل عن جانبه هذا في أيّ مرة يزوره.

فيودّ كلّ كافر من أعماق قلبه عن مزرعه الخاص أنّ يستمر حصد نتائج جميلة جيّدة منه فيحرثه في الميعاد ويقوّيه بالمواد المقوية ويسقيه ويصونه عن الآفات الفطرية ولا يتركه يضرب به كلّ جاء وآت، حي وميّت، إنس وحيوان، قريب وبعيد. ولما ينظر إليه فيسرّه طراوته وخصوبته ويشبعه بثماره حين يأتي الأوان.

فباستعارة الحرث للمرأة قد جمع القرآن الكريم هذه الجوانب كلها وثم أبطلت هذه الاستعارة فكرة من يقوم بتنظيم النسل وذلك لأنه يمكن أن يعترف بهذا الإرشاد عن الحرث إلى كيف نحصل به على حصد أجود وأكثر ولكن لا يكون معقولاً أنّ نعلّم الناس أن ينشروا البذور أكثر فأكثر ولكن لا نحصل إلا على الأقل من الحصاد فلا يعطي مثل هذه الفكرة إلا من هو غبي لا يعقل.

"وَقَدِّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ" تعني أنه كما يستهدف بمزرع الأرض أن نقوم به بنظم المعاش في المستقبل فكذلك الهدف من وراء حرث المرأة هي أن تثبتوا بها مكانكم في النسل الإنساني في المستقبل وتلعبوا دوركم في ثباته وبقائه. فزيادة هذه الكلمات بعد "فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أُنّى شَيْئُمْ" قد قدّمت هذه الحقيقة بكلمات صريحة بأنّ الغاية في الاتصال بالمرأة ليست إلا بقاء النسل البشري وأما الالتذاذ بها فهو يأتي ضمنها فكل طريقة تشيع هذه الغاية أو تضرّ بها تخالف فطرة خالقها وما تتطلبها ولو أنها تفي بمتطلبات اللذة.

ولا ننس هنا أنّ الإنسان كما يثبت مكانة له فيما بين النسل البشري عن طريق أولاده فكذلك تزيد في درجات علّوه في الآخرة إذا ربّاهم تربية حسنة فإنّ الأولاد الصالحة وسيلة جارية للخير، لا تنقطع سلسلته حتى بعد موت الوالد، ولنا دليل على ذلك في الأحاديث النبوية فيوجد هذان الجانبان في قوله تعالى "وَقَدِّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ".

أول بعض المفسّرين تأويلًا يخالف ما ذهبنا إليه ولكن ما ذكرناه هو خير تأويل

لدينا، ويؤيده نظائر القرآن الكريم فقد جاء في موضع آخر من هذه السورة "فَالَّذِينَ بَشِيرُهُمْ وَابْتُغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ" (سورة البقرة: 187). وقد ذكرنا تأويل هذه الآية من قبل.

وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ؛ وهي تعني: ولو أمكن لكم أن تتجاوزوا قوانين الفطرة هذه وحدود الله تلك في خلائكم وجلانكم وقد أمهل لكم ولكن لا تنسوا أنكم ستحشرون إلى الله يومًا وهو يراكم كل ثنائية ولستم بمعصومين عن بطشته، وبجانب هذا التهديد قد بشر المؤمنين الذين لا ينسون على الرغم من كافة أهواء النفس المرغبة أنهم سيحضر يومًا أمام الله "وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ".

وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٣﴾

"العرضة" تعني الهدف والغاية ومعنى "جعل الله عرضة للأيمان" الإقسام باسمه بدون حاجة على ما هو خلاف البر والتقوى وهدف الإصلاح فمثل استخدام اسم الله العظيم لأيمان لايعنية مثل إطلاق الصاروخ لقتل البعوضة فكأن استخدام اسمه الطاهر لما هو خلاف البر والتقوى إزالة الخير والتقوى التي هي مصدر كل خير.

ربما يحذف المضاف بعد "أن" في العربية وربما تحذف "لا" بعدها، ولا يعرف هذا المحذوف إلا بالسياق. والقرينة تبين أن "لا" محذوفة هنا. وفي القرآن الكريم أمثلة كثيرة على ذلك. وقد جمع الإمام الفراهي الأمثلة على هذا الأسلوب في كتابه "أساليب القرآن".¹

وقد اشتملت كلمات البر والتقوى والإصلاح الثلاث على كافة أقسام الخير فكلمة "البر" تحتوي على كافة الحسنات التي تتعلق بالوالدين وذوي القربى والمساكين

¹ ولو أن هذا من مباحث الأساليب إلا أن الفراهي قد ذكره في كتابه "مفردات القرآن"، انظر ص 152-158 (طبعة محققة)

واليتامى وحقوق العباد الأخرى، وكلمة "التقوى" تشمل الحسنات التي تتعلق بحقوق الله وأما كلمة "الإصلاح" فهي يراد بها الخيرات التي تتعلق بالمجتمع.

هذه الآية مدخل لما يأتي بيانه من القضايا فسيأتي بيان "الإيلاء" وبعض القضايا المهمة عن النكاح والطلاق فالإيلاء هي اليمين التي يتخذها امرؤ بقطع علاقته الزوجية مع زوجته، ولأنَّ اليمين وسيلة الوثوق والثبات في كافة الأمور والمواثيق السياسية والاجتماعية والاقتصادية ويتم بها أهداف الحضارة العالية للغاية فقد أوضح أهمية اليمين قبل بيان قضايا الإيلاء والنكاح والطلاق فقال إنه لا يجوز أن يستخدم اسم الله على الأيمان التي تنافي البرّ والتقوى والإصلاح فالإقسام بالله يعني جعله شاهدًا على الأمر فإن يتخذ أحدٌ على اسمه يمينًا تكون لمعارضة البرّ والصدقة والعدل فهذا يعني أنه يجعل الله شاهدًا ضد الله في حق الشيطان فمثل هذه الأيمان كلها بمنزلة الهزء بالله فلا تجوز مثل هذه الأيمان أولًا ولكنه إذا اتخذها أحدٌ فقد أمر الإسلام بأن ينكثها.

وفي النهاية أشار إلى صفتيه "سَمِيعٌ" و"عَلِيمٌ" وهو أسلوب يشوبه تهديد أي من يتخذ اسم الله المقدس عرضة لمثل هذه الأيمان الباطلة لا ينس أن الله يسمع ويعلم فهو ليعاقب من مثل هذا المرء الذي يهتك عزة الله.

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٣٥﴾

أي لا يعتصم عن هذا العقاب إلا من قد اتخذوها لغوًا لا تتعلق بالقلب بل هي تجري على اللسان بدون وعي ولا نية في الضرر بأحد والنفع لآخر بل هي تأتي مثلما يتلفظها المرء عادة. وأما الأيمان التي تتخذ بأعماق القلوب والتي تنم عن فائدة أو خسارة قريبة أو بعيدة في حق أحد فلا يتركه الله عليها بل يحاسبه حسابًا شديدًا.

ولو أنه استثنى اللغو من الأيمان من الحساب فالعقاب فإن الله غفور حلیم،

ولكنه قد صرح بالتعبير عنها بكلمة "اللغو" بأنه يجب على من هو ذو حلم يوثق به أن يجتنبها، فمن الأوصاف والعادات التي ذكرها القرآن الكريم لأرباب الحلم والثقة أنهم يجتنبون اللغو.

لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٦﴾

وبعد هذا المدخل المذكور أعلاه للأيمان يأتي بيان قضية شرعية تسببها اليمين وهي قضية الإيلاء. والإيلاء من ألا يألوا: أنى ونقص في أمر فالإيلاء اتخاذ اليمين على ترك شيء. هذا مصطلح جاهلي للإقسام بالله على ترك العلاقة الزوجية بين الزوجين. ولأن هذه الكلمة تطوي بين جنبها معنى الترك فلم يحتج إلى زيادة ملحق إليها للدلالة على معنى الترك.

ولأن أيمان هذا النوع ضد الأهداف الزوجية وتنافي التقوى وأنها تجعل الزوجة معلقة فقد قرّر الإسلام لمن يتخذ مثل هذه الأيمان حداً يمتد لأربعة أشهر أن يستأنفوا تلك العلاقة من خلالها أو حكموا على طلاقها فمن يختار الصورة الأولى فقال فيهم "إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ" أي: ولو أن يمينهم هذه تبنى على ظلم ولا يجوز أن تجعل اليمين حائزاً ضد حق أحد ولكن الله سيغفر لهم بعد أن يصلحوا أحوالهم. ولو أنه لم تذكر أي فدية على نكث هذه اليمين ولكن القانون الذي قد ذكره الله عن نكث الأيمان لا داعي لأن نستثني هذه الصورة عنه فنرى قوياً رأي الفقهاء الذين يقولون بالفدية على هذه الصورة.

وقال عن الطائفة الثانية إنهم لو عزموا على الطلاق فلهم خيار في ذلك ولكن الحدود والقيود التي قررها الله تعالى في هذا الأمر يجب عليهم أن يعتنوا بها عناية تامة فالله يسمع كل شيء ويعلمه.

وينشأ هنا سؤال: لو مضت فترة أربعة أشهر ولا رجوع المرء عنها في تلك الفترة ولا

طلّقها فماذا ترى الشريعة فيه؟ فترد جماعة من الفقهاء على هذا السؤال بأنّ طليقة واحدة تقع بعد مضيّ هذه المدة، ويرى البعض أنّ هذه الطليقة الواحدة ستكون بائنة بينما يرى الآخر أنها تكون رجعية. وأما الطائفة الأخرى فتري أنّ القضية ستترفع إلى القاضي بعد مضيّ هذه المدة وهو الذي يسأل الزوج إما أن يرجع عنها أو يطلقها. وما يظهر من كلمات القرآن هو أنّ الزوج يجب عليه أن يفصل عن الأمر بعد مضيّ هذه المدة إما أن يرجع أو يطلقها وإن لم يفعل أحد هذين الخيارين فالزوجة لها حق أن تخلع في المحكمة.

وكذا ظهر من كلمات القرآن الكريم أنّ الزوجة لا تستحق الخلع إلا إذا أقسم الزوج على أن لا يلقى زوجته بغضاً وتنفرًا وهو يريد أن يجعلها معلقة. وإن لم يكن الأمر كذلك مثلاً يريد أن يعيد صحته أو ينهها على أمر فلا تأتي اليمين تحت هذه الصورة ولو طالبت المدة أو قصرت.

وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٥﴾

القروء جمع القراء واختلف اللغويون في تعيين معنى هذه الكلمة فأراد بها بعضهم الحيض بينما البعض الآخر أراد بها الطهر فكلما تفكرنا في مادتها والمشتقات منها ملنا إلى أنّ معناها الحيض أصلاً ولكن بما أنّ الطهر تابع كلّ حيض فعامة الناس يعتبرون بها عن الطهر كذلك. ومثله مثل الليل والنهار فكلاهما يتبع بعضهما البعض، ونجد أمثلة على هذا الأسلوب في كل لغة.

القضية التي ذكرت هنا تدلّ قرينتها الظاهرة على أنّ المراد بالقروء هو الحيض فالتوقف الذي أرشدت إليه النساء المطلقات الحكمة فيه هي أن يتعين هل هن

حاملات أم لا؟

والبديهي أنّ الفصل عن كون امرأة حاملاً أو غيرها يفصل عنه الحيض لا الطهر فالأقرب أن نريد بها الحيض ولا غير. ونظرًا لاختلاف المعنى فقد اختلف الأحناف والشوافع في تحديد مدة العدة، وذكر مثل هذه الاختلافات في كتب الفقه.

وبما أنّ الهدف الأصلي وراء هذه القروء الثلاثة هو أن نتبين هل هي حامل أم لا؟ فقد ينحصر فيه العديد من الأمور فيتطلب إيمان هذه المطلقات وإسلامهن منهن أنه لو يشعرن بشيء أشبه بالحمل فلن يحاولن إخفائه وإلا فهذا يضرّ بتلك المصالح التي قد اعتنى بها الشريعة عن الزوج والزوجة ومن هو في الرحم بالنسبة لهذا الأمر.

وخلال هذه المدة يستحق الزوج أن يرجع إذا أراد الإصلاح واستئناف هذه العلاقة، وقد وجّهت الشريعة أهمية كبرى إلى العلاقة بين الزوجين فلا يصبر على قطعها إلا إذا لم يبق شيء من إصلاح ذات البين، وعلى هذا فقد قرّرت هذه المدة لكي يعيد الزوج والزوجة النظر في قضيتهما إذا حدث هذا لسبب تافه أو غضب شديد إلا أنّ القرآن الكريم اشترط هذه الرجعة من قبل الزوج أن تكون هذه الرجعة لأجل الإصلاح فقط أي يريد أن يستأنف العلاقة بمودة ورغبة ونشاط فلم يرد به إزعاج الزوجة أو سوماها خسفاً وإلا فهذا سيكون سوء استخدام هذا الحق الذي سيثير غضب الله عليه.

ثم أوضح بكلمات جامعة ما يجب على أحد من قبل الآخر من الحقوق بأن لا يظن الزوج أنه لا يتمتع من الحقوق إلا هو. وأما الزوجة فهي فقيرة بشأنها بل كما أنّ له حقوقاً واجبات على زوجته فكذلك تتمتع الزوجة من حقوق وواجبات عليه بالمعروف، ولا تخلو هذه الحقوق والواجبات عن أي اقتصاد وتوازن فعلى كل زوج أن يعتني بحقوق الزوجة عليه كما يطلب منها حقوقه عليها، وعلى هذا الاقتصاد والتوازن يمكن حسن العلاقة واستمرارها بين الزوجين.

إلا أنّ الإسلام قد أعطى الزوج درجة للترجيح على الزوجة نظرًا لحياة وثبات النظام العائلي والمراد من هذا الترجيح، كما يتضح من صراحات غير هذا من مواضع القرآن الكريم، أنّ الإسلام قد جعل الزوج لا الزوجة قوامًا على العائلة فكما أنّ نظم دولة يحتاج إلى مشرف وقوام فكذا يحتاج نظم عائلة، على مستوى سافل، إلى إشراف قوام، ولا يصلح لهذا إلا المرء طبقًا لفطرته ومؤهلاته.

وقد استدّل القرآن الكريم في موضع آخر على وجوه ترجيح المرء على المرأة فسنفصلها في موضع يناسبه.¹ والأمر الذي نودّ أن نلفت أنظاركم إليه هو كلمات القرآن "وَلِلرِّجَالِ عَلَى النِّسَاءِ دَرَجَةٌ" فمعناها أنّ للرجال درجة للترجيح على النساء. ولأنّ القرآن الكريم قد صرّح عن الأمر بالكلمات الواضحة فلا مجال لمسلم أن يؤمن بنظرية المساواة بين المرء والمرأة، التي ورّدها مفكرونا من الغرب فالقرآن يعترف بأن للمرأة حقوقًا قدرما تقع عليها مسؤوليات ولكنه لا يعترف بأنهما (المرء والمرأة) سواء من كل جهة بل يصرح عن ترجيح المرء على المرأة، وأما قوله "وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ" فهذا لن يعني أن للمرأة والمرء حقوقًا يتساويان فيها بل هذا يعني أنّ للمرأة حقوقًا كما عليها مسؤوليات.

وعلى أصل "وَلِلرِّجَالِ عَلَى النِّسَاءِ دَرَجَةٌ" هذا قد قرّر القرآن، كما أشرنا إليه، المرء قوامًا على النساء في العائلة ومن ثم وضع نظام العائلة كله فإن دمرنا الأساس وجعلنا المرأة سوية للمرء من كل جانب فسيبقى الدين الإسلامي كله محرّفًا لو فهمناه فهمًا جيدًا.

وفي نهاية الآية أشير إلى صفتي الله "عزيز" و"حكيم"، وبما أنّ الله عزيز فهو يصلح لإصدار الحكم، وبما أنه حكيم فما أصدره من الحكم يبني على الحكمة فعلى العباد أن يطيعوا أمره طوعًا فإن يخالفوا أحكامه فسيصدّون غيرته وعزته

¹ ومن يريد التفصيل عن القضية فليقرأ كتابي "أهمية المرأة في المجتمع الإسلامي" (بالأردنية) فقد قمنا بالبحث المقنع عنها من كل جانب في ضوء القرآن والفلسفة الجديدة كليهما.

وسيدعون عذابه، وإن يظنوا أنهم أكثر حكمة من الله فسيخربون قوانينهم ونظمهم بأيديهم.

الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ حِفْظُهُمَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٥﴾

والآن بين الله تعالى طريقة صحيحة للطلاق، ولأن الحياة الاجتماعية كلها تبنى على العلاقة الطيبة للنكاح ولذا لو اضطر الزوجان إلى أن يقطعا هذه العلاقة لسبب معقول فلا يكون أن يقطعها المرء في مرة واحدة بل يجب على الزوج أن يطلق زوجته مرتين في طهرين كما يجب على المطلقة أن تنتظر لثلاثة قروء، وأن تراجعها في الطهر الثالث إذا أراد الرجوع أو أن يطلقها البتة إذا عزم عليها، وإذا أراد الرجعة فعليه أن يتبع المعروف أي أن يريد بها معاملتها كزوجة كما يفعل رجل تقي صالح مثقف وكما هو المعروف بين الصالحاء ولا يريد بها أذاها أو جعلها معلقة، وإذا أراد طلاقها فعليه أن يحسن إليها أي ولو أنها لم تبق زوجاً له ولكن تقتضي رجولية المرء وفتوته أن يرجعها بأن يعطيها ما هو بالمعروف وبأسلوب حسن لما أنها قد كانت زوجته وبما أنها من الخلق الضعيف.

وكما أن هناك مصالح عديدة للمطلقة في انتظارها لثلاثة قروء فكذلك هناك بركات عديدة لمن يريد الطلاق في الترتيب المذكور، يحرمها من لا يتبع ما ترشد إليه الشريعة غضباً أو تعجلاً منه ويطلقها البتة في المرة الواحدة، وعامة نرى أن من لا يتبع طريقة الشريعة يتأسف على خطأه ولكن أسفه هذا لا يفيد شياً وإنما قرّرت الشريعة هذه الطريقة لأن العلاقة الزوجية علاقة مهمة للغاية فلا ينبغي للمرء أن يقطعها بل يجب عليه أن يوصلها ما استطاع فلا ينبغي له أن يفصل عنها شيئاً في عجلة أو غضب بل يجب عليه أن يعيد النظر فيها وكل ما يعزم عليه

يقلبه ظهرًا لبطن، وهذا لا يمكن إذا لم يراع بما دلّ عليه القرآن الكريم من طريقة الطلاق.¹

ويبدو من "وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا" أنه لا يراد به النفقة والصدّاق وما شاهما فإنها من حقوق الزوجة فلا مساغ لردّها أو السؤال عن رجوعها فلازم أن يراد به ما أهدي إليها فقال فيها إنه لا يحسن للزوج بعد طلاقها أن يقعد لمحاسبتها، والسبب في النهي عن رجوعها، كما أشرنا إليه، هو أن مثل هذا العمل الدني ينافي رجولية الزوج وفتوته إذا كانتا فيه حقًا فقد نبّه القرآن الكريم الزوج على جانبه عن الزوجة هذا غير مرة وخصوصًا حينما طلقها فقال مثلاً "وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَآءَاتَيْتُمُوهُنَّ" (سورة النساء: 19) وقال في موضع آخر من هذه السورة "وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ۝" وفي سورة البقرة نفسها قيل مخاطبًا الأزواج "وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ" (سورة البقرة: 237).

ثم يبيّن الصورة التي استثنّاها عن هذا النهي، وهي حينما كانت الزوجة تختلف عن زوجها اختلافًا يبدو منها أنهما لن يعتنيا بالحدود والقيود التي تجب عنايتها لبقاء العلاقة الزوجية فلا حرج في أن تفدي الزوجة مألًا تحرّر به نفسها. هذا ما يسعى بـ"الخلع" في الشريعة، ولأن هذه الصورة يغلبها صلاح الزوجة فقد سمح أن تؤخذ منها الفدية ولو أنها خلق ضعيف.

ويبرز هنا أمران من كلمات القرآن الكريم وهما كما يلي:

1. أنه إذا لم يمكن للزوجين أن يبلغا إلى نتيجة ما فيجب على الزوجة أن ترفع

¹ وليلاحظ هنا أننا لا نقول بأن أحدًا لو طلق خلافاً لهذه الطريقة فلا يقع الطلاق، وقد قمنا بالبحث الشامل عن هذه القضية في كتابنا "تقرير الهيئة العائلية، دراسة تحليلية" (بالأردية). فمن يريد مزيد البحث فليقرأه.

كلها مبنية على متطلبات الفطرة البشرية ومصالح العباد أنفسهم، وعلى هذا فمن يكسرها فهو يخرّب فطرته بيديه ويدمر مصالحه.

فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٥﴾

وفي الأخير يبين الحكم الذي يتعلق بمن يريد أن يتزوج من المرأة التي طلقها فقال إنها لن يحلّ لزوجها السابق ما لم تتزوج من رجل آخر فيطلقها ذاك الرجل فكما أصدر الحكم السابق لكيلا يطلق أحد زوجته في عجلة أو غضب فكذلك وضع هذا القيد لكيلا يجعل الناس الطلاق عملاً سهلاً للغاية فإن كان الزوج حرّاً في الزوج من امرأة طلقها البتة فما أمكن للعديد من الناس أن يعطوا الطلاق من الأهمية ما يستحقها ولكنه لما تقيّد زواج المرء من زوجته التي طلقها بأن تتزوج من رجل فيطلقها ذاك الرجل لسبب معقول ثم يتزوج منها إذا رضيت فالبديهي أن من يريد طلاق زوجته بعد هذا القيد الشديد فسيعيد النظر في أمره مراراً وتكراراً وبعد التكفير في كافة النتائج الممكنة.

وكلمة النكاح في "حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ" تعني عقد النكاح فمن أراد به الوطي فقد تكلّفوا ما لا يطاق والحال أنهم لا يصلون إلى هدفهم المراد بعد إرادة معنى الوطي من هذه الكلمة، وكذلك لا يؤيد هذا المعنى استعمال هذه الكلمة هنا ففاعل "تَنْكِحَ" هنا المرأة كما يبدو فإن أريد بها الوطي لكان المعنى "حتى تطي تلك المرأة رجلاً آخر" فالوطي عمل الرجل لا المرأة وإن نرد بها "حتى يتم وطئها من قبل رجل آخر" فهل يؤيد استخدام هذه الكلمة هذا المعنى.

والأصل أن كلمة النكاح مصطلح معروف للشرعية الإسلامية، يطلق على اتفاقية الزواج بين المرأة والرجل، التي يتم عقدها للقضاء على حياة الزوجين لإرادة العمل عليها طول الحياة فإن لم توجد هذه الإرادة في نكاح ما فهو ليس بالنكاح حقاً بل هو مؤامرة قام بها رجل وامرأة معاً فما وضعت الشريعة من مساع الطلاق مع

النكاح فهو ليس بجزء من المشروع الأصلي بل هو ما يضطر إليه الزوج أو الزوجة إذا طرأ أمر لن يمكن فيه العمل على تلك الاتفاقية ففطرة النكاح الأصلية هي أن يتم لإرادة العمل عليه طول الحياة فإن عقد نكاح لمدة محدّدة معيّنة فيقال له متعة وهي محرّمة في الإسلام، وهكذا إذا نكح رجل من امرأة ينوي به طلاقها بعد وقت كي تحلّ هي لزوجها الأول الذي طلقها فهذه حلاله في مصطلحات الشريعة وهي أيضاً محرّمة في الإسلام مثل المتعة فمن يقوم بهذا العمل الوضيع لحصول أحد على غرضه فهو مثل قرم ساق أو تيس مستعار كما في الحديث النبوي الشريف. وعلى من يفعل هذا أو من يطلب أحدًا أن يفعل هذا لعنة الله تعالى.

إلا أنّ هناك فرقاً بسيطاً بين المتعة والحلالة بجانب اشتراكهما في الأمر وهو أن المتعة تكون لمدة معيّنة بصراحة فيمكن لفقيه أن يحكم عنها بأنّ هذا النكاح لم ينعقد ولكن الحلالة مثل مؤامرة خفية فلا يوجد شاهد ظاهر بأنه يهزء بشريعة الله باسم النكاح فيبطل هذا النكاح وهذا الطلاق باطل عند الله ولكن الفقيه الذي يجب عليه أن يحكم بما ظهر له من الشواهد لا يسوغ له أن يقول إنّ مثل هذا النكاح لم ينعقد أصلاً، وعلى هذا فيرى بعض الفقهاء أن النكاح ينعقد ورأيهم هذا مرجّح عندي.

وأما السؤال عن أنّ مثل هذه المرأة لا تحلّ لزوجها الأول إلا حينما يطلقها الزوج الثاني بعد أن يطهاها فلا نجد دليلاً على هذا الوطي من القرآن الكريم فما يستدل بكلمة "تَنكِحَ" باطل كما ذكرناه، ولكن الشيء الذي يطلب منا التفكير هو هل تمام فعل الوطي ينقض من قبح الحلالة ولعنة الله على فاعلها؟ فإن عقد نكاح على مؤامرة الحلالة فلا فرق على بطلانه سواء تم الطلاق قبل الوطي أو بعده فإن تم الطلاق قبل الوطي فهذا مثل قرم ساق وإن تم الطلاق بعد الوطي فهذا مثل التيس المستعار المذكور في الحديث النبوي الشريف، وعلى كل حال فمسرحية النكاح والطلاق في كلتا الصورتين قد كانت هزءً بالشريعة الربانية، وما أرشدنا إليه في هذه الآية هو أن تدخل المرأة في حباله عقد رجل آخر على نية أن تكون له

زوجة طول الحياة ثم يطلق هذا الزوج الثاني إذا اضطرَّ إلى مثل ما اضطرَّ إليه زوجها الأول ولكنه إذا كانت أيِّ مؤامرة وراء هذا النكاح وذاك الطلاق فمن شارك في مثل هذا النكاح وذاك الطلاق كلهم ملعون عليهم عند الله ومغضوب منهم سواء هذا حدث قبل الوطي أو بعده.

وقد حدثت هذه المسألة لحديث نبوي وأما الاستدلال بالقرآن الكريم فهذا مثل نكتة بعد الوقوع ولكن هذا الاستدلال بالحديث ضعيف جداً عندنا فما نستنتج من مختلف طرق الحديث هو موافق للقرآن الكريم مئة بالمئة، ولو لم نقرّر حدّاً للمباحث الفقهية لقمنا بالبحث المشيع عن هذا الحديث ولكشفنا القناع عن الواقع الأصلي وثم ماذا صيَّره الناس فيما بعد ولكن هذا البحث لا يتسعه نطاق كتابي هذا.

ثم قال إنه لا حرج في أن يتحوّل الزوجان السابقان إلى زوجين مرة أخرى بعد أن يتم طلاقها من قبل زوجها الثاني شريطة أن يرجوا أنهما يقيمان حدود الله. وقد مسّت الحاجة إلى هذا التنبيه لأنّ النكاح أو الطلاق ليس بلعبة الأطفال فإذا وجد فليكن بنية خالصة وآمال مخلصّة للثبات.

وفي النهاية قال إن الله قد أوضح حدوده المقرّرة فمن يطلب المعرفة بحدود الله فليقدّرهما ويتقّ عواقب مخالفتها. وفعل "يَعْلَمُونَ" هنا لإرادة الفعل أي لمن يريد المعرفة بها وهذا لأن الفعل بالعربية يأتي لمعناه الكامل ولإرادة الفعل كما هو يأتي لمعناه الابتدائي، وهذا كله يدلّ عليه محلّ الحديث وسياقه.

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنِ أَجَلَهُنَّ فَأُمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا عَآيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٥٦﴾

مدة الانتظار التي قرّرها الشريعة المطلقة قد ذكرت في الآية الـ 228 كما ذكرت طريقة الطلاق في الآية الـ 229 وكذا وُضِّحَ أن يرجع المرء زوجته في الطهر الثالث. وإن لم يرد ذلك فعليه أن يبلغها إلى أوليائها بالمعروف إحساناً إليها. والآن قد زاد في هذه الآية موضحاً ما هو مراد الشريعة من "الإمسك بالمعروف"؟ ثم يبين أن المراد من هذا الإمساك ليس بممارسة الظلم أو توجيه الضرر إلى الزوجة. وعندما قال ما قال بأسلوب إيجابي قام بتوضيحه بأسلوب سلبي لأنه يخاف أن يسيئ الظالمون استخدام حقهم المختص بالزوج فيوجهوا الظلم إليها بينما هذا اعتداء بين أي تجاوز عن حدود الله وهزاء بشريعته فقال إن من يجترئ على هذا يمارس الظلم مع امرأة بل هو يظلم على نفسه أكثر مما يوجهه إلى زوجته لأن عقاب التجاوز عن حدود الله والهزاء بشريعته يفقد نظيره في الشدة.

وقال في النهاية إن تتذكروا منة الله عليكم بأنه أحلّكم محلّ أمة مصطفىة، وبعث نبيه لهدايتكم، وأنزل عليكم كتابه للتمييز بين الخير والشر، الحق والباطل، الكتاب الذي هو مجموعة للقانون والحكمة، فإن لم تشكروا على نعمة الله هذه فتجاوزتم عن حدوده، واستهزأتم من شريعته فاستعدوا لمواجهة عقاب هذه الجريمة ثم قال إن تتقوا الله وتعلموا أنه خير بكل ما تعلنون وما تسرون أي ولو أنه يمهّل الناس بعدما يقومون بأنواع الشر ولكنه حينما يريد البطش فلا يعصم عنه أحد.

ولنلاحظ هنا أنّ المراد من الهزاء بالشريعة ليس بالهزاء بها علناً فحسب بل من أشنع أنواعه أنّ يظهر بعمل لا يردّ عليه أحدٌ ولكنه يضاد هدف الشريعة وغايتها نظراً لمراده فمثلاً أنّ أحداً يرجع عن زوجته في التطليقة الثالثة وله حق لهذا العمل طبقاً للشريعة ولكنه إذا أراد به إلحاق الضرر بالزوجة فمعنى ذلك أنه خالف الله عن طريق الرخصة التي أعطاه الله له، ومن البديهي أنّ هذا هزاء يبين بالله وشريعته.

وقال مضيئاً إلى ما ذكر من الأحكام والإرشادات عن النكاح والطلاق:

وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْوَاجُكُمْ لَكُمْ وَأَظْهَرَ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِيمَ الرِّضَاعَةُ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَزِجُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْتَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِيمَ اللَّهِ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

75- تحقيق الكلمات وتوضيح الآيات

وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْوَاجُكُمْ لَكُمْ

وَأَظْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

"العضل" تعني "الصدّ عن السبيل والعرقلة"، والمراد من "أزواجهن" الرجال الذين سيكونون أزواجاً لهم بعدما ينكحن منهم.

المرأة التي قد طَلَّقَتْ ثم أَتَمَّتْ عِدَّتَهَا، حَرَّةٌ في أن تنكح ممن أَحَبَّتْهُ فلا ينبغي لزوجها الذي طَلَّقَهَا أو أفراد عائلته ذلك الزوج أن يعرقلوا سبيل زواجها من رجل آخر سواء كانت هذه العرقلة من نوع العراقل الصريحة أو من نوع المؤامرة الخفية أو الحل والعقد. فنجد لدى بعض العشائر والطبقات أنه إذا تزوّجت امرأة من أحد أفرادها فلا يدعونها بعد أن طَلَّقَتْ أو توقّاه الله أن تنكح من رجل آخر غير فرد تلك العشيرة أو الطبقة فهي تشعر في هذا بهتك عزتها فتعرقل سبيلها لنكاحها من رجل آخر حتى يجبرها هذا على القتال في بعض الأحيان. وكما نجد هذا الجهل في بلادنا فكذلك كان يوجد في العرب أنفسهم فمنع القرآن الكريم زوجها الذي طَلَّقَهَا عن أن يصدّها عن النكاح من رجل آخر فهي حَرَّةٌ في أن تنكح من رجل شاءت وحيث شاءت شريطة أن يتم النكاح بالمعروف.

المراد من "المعروف" هنا ذاك المعروف لدى أشرف العرب، الذي قد طهره الإسلام عن التقاليد والطقوس الباطلة فجعله جزءاً من الشريعة الإسلامية وإما أرشد الناس إلى العمل عليه في معظم الشؤون أو جعلهم أحراراً في العمل عليه. والمراد مما اشترطه بالمعروف لحلّ القضية هو أنه يجب على المرء والمرأة كليهما ألا يفعلوا ما لا يليق بمعروف الأشراف، خلال حلّ القضية، وما يخاف عنه أن بهتك عزة عشيرة الزوج السابق أو الزوج القادم أو الزوجة.

فقال إن هذه الإرشادات توجّه إلى من يؤمن بالله واليوم الآخر أي من يوجد في داخله إيمان بالله واليوم الآخر يوجب إيمانه عليه أن يعمل على تلك الإرشادات ثم قال إن هذه طريقة زكية وطاره أي إذا حاول أحد أن يعرقل سبيل النكاح الذي تحبه الزوجة فيخاف أن تسبّب هذه العرقلة انتشار العديد من السيئات

في العشيرة ومن ثم في المجتمع ومن هنا يفتح باب الأواصر الودية الخفية فالزنا فالاختطاف فالفرار عن الحي وهكذا فتهتك عزة كل من يعرقل الفطرة فيعمل على التقاليد الباطلة وقال في النهاية إنكم لا تعلمون أي إن علمكم وفكرتكم كليهما ضيق نطاقه فيشكل عليكم أن تفهموا مدّ وجزر الحياة فاعملوا على ما تؤمرون به من قبل الله جلّ مجده.

وَالْوَالِدَتُ يُرَضَعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدَيْهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوهُمَا أُولَدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٧﴾

فقد ذكر هنا العديد من القضايا عن الرضاعة وهي كما يلي:

1. على المطلقة أن ترضع ولدها لعامين اثنين إذا ودّ الزوج الذي طلقها أن تكمل العدة.
2. وفي هذه الحالة يجب على المولود له أن ينفق على المرضعة بالمعروف أي الحكم عما ينفق على المرضعة يصدر طبقاً لقدر الزوج وحاجيات الزوجة وظروف الموضع.
3. ألا يكلف أحد الفريقين ما لا يطاق فلا تضارّ الأم لأجل الولد ولا يكلف الوالد ما لا يطاق لأجل الولد.
4. إن توفي الوالد فيكلف ورثته ما كاد أن يكلف الوالد.
5. إذا تراضيا عن أن يقطم الولد قبل العامين فيمكن.
6. إذا أراد الوالد أو ورثته أن يسترضعوا امرأة غير أمّ الوالد فلهم الخيار لذلك شريطة أن لا تحرم الوالدة ما قد اتفق عليه.

وفي النهاية نبه على أن يتقوا الله ويعلموا أن ما يقومون به لا يخفى على الله فهو بصير به.

إن ما ذكر آنفاً من القضايا يمكن أن تحل على تراض من الزوج والزوجة وأولياءهما ولكنه إذا وقع نزاع في أمر ما فستفصل عنها الجلسات التحكيمية ثم المحاكم الحكومية بناءً على تلك الأصول.

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٦٦﴾

وإذا توفي زوج امرأة فعدتها أربعة أشهر وعشرة أيام (وأما الحامل فعدتها وضع الحمل)، والسبب وراء زيادة في عدة الأيم هو استبراء الرحم، وتسهيلها، ومختلف مصالحتها للحزن. ولأن المرأة تكون جنساً ضعيفاً، ذات قلب رقيق، ومهفة الإحساس فهي تشعر بوجد الزوج أشد كما هي أحوج إلى الرحمة عليها في حالة الأيمنة ولذا فقد قرّرت عدتها أكثر من غيرها لكيلا تجد فراق دار زوجها بعد فراقه فوراً، وعلى هذا فقد وجه إرشاد مؤقت كتوضيح مزيد لهذه الآية "وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَّعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" (سورة البقرة).

وبعد قضاء تلك المدة هن أحرار فيما سيقدر من خطوة فيهن بالمعروف فلا يتهم الأولياء بعدها ولا هن أنفسهن إذا لم يخالفن المعروف شيئاً. ومعنى ذلك ألا يتهم بعضنا بعضاً محلين التقاليد غير الشرعية محلّ الشريعة فلا يطعن ورثة الزوج وأولياء الزوجة أنه سئموا منها قبل أن تنتهي الزوجة عن الحزن على زوجها كما يرام ولا يطعن الزوجة على أنها بدأت تتزوج قبل أن يكدر كفن الزوج فليعتن بما قرّره الله من الحدود وليعلموا أن الله خبير بكل ما يفعله العباد.

وما اشترط للمرأة من أن تعمل على المعروف يبدو منه أن يعتنى بالكفو في أمر

النكاح لكيلا ينال من عزة هذه أو تلك العشيرة.

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِيمٌ اللَّهُ أَنْكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ. وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٣٦﴾

المجتمع الإسلامي يعطي أهمية زائدة لعواطف الناس ويعتني بها كثيرًا ولذا فقد منع عن أن يسعى أحدًا لنكاحه من أيم واحد توفي وهي في العدة، وهذا أيضًا يخالف ما يرجى من أخ حسّاس ورحيم من امتلاكه من العواطف لأخ متوفى كما هو ينافي ما يرجى من رجل حليم من العناية بعواطف زوجة واجدة فمجتمع المسلمين مجتمع أفراد "رَحْمَاءٌ بَيْنَهُمْ" فليس هو بقطيع من البهائم فقال: إذا أراد أحدٌ أن ينكح من أيم فله أن ينجم عن كلمة تشير إلى ذلك أو أن يخفي تلك الإرادة في قلبه ولكن لا يجوز له أن يؤامر لذلك فيعقد اتفاقية خفية على ذلك فينبغي أن يقصر حديثه على العزاء والترحم للذين هما من معروف تلك الظروف وإن خرجت من لسانه كلمة من خلال هذه الرحمة تشير إلى تلك النية فلا حرج.

"عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ" جملة معترضة تهدف إلى ألا تظنوا فيما تخفي قلوبكم أنه لا يظهر لله فالله يعلم جيدًا أنكم ستظهرون نيتكم هذه فأظهروها ولكن ليس بأن تصبح اتفاقية خفية وميثاقًا سرّيًا بل ليكن بأسلوب يوافق ووضع تلك النسبة.

وكلمة "الكتاب"، كما أوضحناها في غير هذا الموضع، قد استخدمها القرآن الكريم كذلك لقانون معين شرعي فالمراد منه هنا هو قانون عدة أربعة أشهر وعشرة أيام الذي قد ذكر آنفًا بالنسبة لأيم، والتعبير عن قانون معين بكلمة "الكتاب" يبدي أهميته فقال: لا تعزموا على عقد النكاح ما لم تكتمل مدة قانون.

وفي النهاية أشار إلى صفته للعلم التي تبنى على ذكراها حرمة صحيحة لقوانين الله وكذا قال إن تخافوا الله فلا تغتروا بمهلتها، ولأنه غفور حلیم فهو يصفح عن الذنوب ولكن لا يخفى شيء على علمه.

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾

ف"لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ" تتعلق هنا بشيء قد حذف فالكلام التام سيكون: إذا كانت حالة الحدث أن رجلاً يطلق زوجته من حيث إنه لم يجامعها كما لم يقرّر لها صداقاً فإذا لا جناح عليه في أمر الصداق بل ينبغي له أن يعطي شيئاً لها بالمعروف ثم يرجعها إلى أوليائه بدلاً من أن يعطي لها الصداق، والمراد من "بِالْمَعْرُوفِ" أنه لا حدّ معيّن بل هذا ينحصر في مستوى معيشة المرأة فليعط فقير حسب قدر كما ينبغي لغني أن يعطي حسب قدره إلا أن من يريد أن يحسن حياته ويحب أن ينضم إلى زمرة المحسنين فعليه حقّ معلوم.

وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٧﴾

هذه صورة تختلف عما مضى من الصورة وهي أن الطلاق قد تم قبل الخلاء ولو أن الصداق قد كان معيّنًا ففي هذه الحالة يجب أن يؤدّى نصف الصداق إلا إذا عفت المرأة عن حقها ذلك أو يعفو المرأة عن حقه فيؤدّي الصداق كله، ولو أن هناك دافعاً للمرأة للعفو عن صداقها بأن المرأة قد طلقها قبل أن يدخل عليها إلا أن القرآن الكريم قد حثّ المرأة على أن لا يرجو من المرأة عفوها عن حقها لأنه فئى عالي العزيمة فيليق به أن يفضل الأثرة، وقد حثّ القرآن المرأة على هذه الأثرة عن

ثلاثة جوانب؛ أولها أنّ الله قد فضّل المرء على المرأة لأنه مختار في الطلاق كما أنه مختار في النكاح، وثانيها أنّ الأثرة التي هي أسنى صفات المتقين يجدر بها المرء مقابل المرأة، وثالثها أنّ الله قد جعل المرء قواماً على المرأة فينبغي له أن لا ينسى هذا الجانب لتفضيله على المرأة، وهكذا تطلب منه هذه الفضيلة أن لا يرجو شيئاً من المرأة بل يعطيها شيئاً من عنده.

وهناك نكتة أخرى في "بَيْدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ"، ينبغي لمهرة الاجتماع المعاصرين أن يضعوها أمام أعينهم وتلك هي أنّ عقدة النكاح تنحل من أجل المرء كما هي تحكم من أجله فكأن هذه الحلقة قد جعلت الشريعة ربطها بيد المرء ففكرة إعطاء المرأة حق الطلاق التي تنتشر في البلاد الإسلامية اتباعاً للغرب هي تضادّ الشريعة الإسلامية وبها تتبدّد شمل النظام العائلي.

76- تفسير الآيات (238-242)

باب الأحكام والقوانين التي بدأ بالآية الـ 163 مشتملاً على التوحيد ثم الصلوة والزكاة انتهى على هذه الآيات، وتترتب آيات هذه المجموعة كما يلي:

آية واحدة منها وهي مثل خاتمة الباب تتعلق بالحفاظ على الصلوات في كل صورة من الأمن والخوف، ثم في الآيتين إرشادات ضمنية، نزلت فيما بعد، عن الأيم والمطلقة اللتين قد ذكرتا في الآيات السالفة وقد ألحقت هاتان الآيتان بخاتمة الباب لكي يتضح بترتيبهما في الحديث أنّ هاتين الآيتين قد نزلتا كموضحتين بعد الأحكام الأصلية ولذا ضُمَّت إليهما جملة "كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ" فأشار بها إلى كونهما من الآيات الموضحة لكيلا يشكل على طالب نظم الكلام فهم ربط الكلام.

فكأن الآية الأصلية لخاتمة الباب هي "حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى". وإن تمعنوا النظر في بداية هذا الباب تعلموا أنّ الصلوة والزكاة ذكرتا في الآية الـ 177 بالنسبة عن أحكام الشريعة بعد ذكر التوحيد، وإن تعيدوا النظر فيها تروا أن

هذا الباب أيضاً ختم على الصلوة فهذه إشارة إلى أن ما تحتله الصلوة من الأهمية في الدين لا يحتلها ركن آخر فقيام وبقاء الشريعة كلها ينحصران في قيامها وبقائها فكأن الله قد جعلها حظيرة لإقامة الشريعة والحفاظ عليها فمن يحافظ عليها فكأنه يحافظ على الدين كلها ومن يجعل الفطور فيها فهو أكثر إضاعة للدين كله كما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ولنلاحظ هنا أن الصلوة التي ذكرت في بداية الباب هي الصلوات الخمس المكتوبة في حالة الأمن وهنا زيد عليها الصلوات في حالة الخوف أيضاً فكأن هذه الزيادة تدريجية في بيان أحكام الصلوة نظراً لتغير الأوضاع فلما نزلت آيات بداية الباب لم يكن الوضع مليئاً بالحرب والقتال ولكن حينما تحولت القبلة، كما رأيتم، نزلت أحكام الحرب والقتال بكل تفصيل بل الواقع أن سلسلة الكلام التي كانت تجري هنا كانت متعلقة بالجهاد والإنفاق. وأما القضايا الأخرى، كما أشرنا إليها، فقد جاءت ضمنها فافتضى تغير الأوضاع هذا أن تذكر الصلوة في حالة الخوف بجانب الصلوة في حالة الأمن فذكرت صلوة الأمن بإقامة الصلوة بينما ذكرت صلوة الخوف بالمحافظة على الصلوة وما يختفي في هذين الأسلوبين من الفرق لشدة الاعتناء بالصلوة لا يخفى على من وفق التفكير في القرآن الكريم.

وأما القول بأن الصلوة حظيرة ومعدل للدين كله فلو لا يخفى هذا على من يتدبر القرآن فإن له نظائر ودلائل عديدة في القرآن الكريم ولكنه يمكن أن يشك قارئ عادي للقرآن الكريم في أننا قد تكلفنا في ربط الكلام ولذا نحيل إلى سورة المؤمنين التي تحوي مثلاً واضحاً للغاية لهذا النوع من الأسلوب، قال تعالى:

"قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ② وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ③ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ⑤ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ⑥ فَمَنْ أَتْبَغَىٰ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ⑦ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ⑧ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ⑨".

فإن تفكروا هذه الآيات تجدوا أنَّ ما ذكر هنا من الأمور ابتدئ بالصلوة ثم ذكر أشياء عن الدين والأخلاق ختمها بالصلوة، وزد على ذلك أنَّ الصلوة الأولى ذكرت بالخشوع الذي هو روح الصلوة الأصلية بينما الصلوة الأخرى قد ذكرت بالمحافظة التي هي تعبير جامع للعناية الظاهرية بها ومنها يلمح أنَّ الحفاظ على الصلوات هو الحفاظ على كافة الأمور الأخرى للدين.

ونفس الأسلوب يوجد في آيات سورة المعارج فقال تعالى:

"إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَ الَّذِينَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ فَاعْلَمُوا أَنَّهُمْ لَٰكِنَّا مُّكَاذِبُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾".

فانظروا كيف بدأت الفقرة بالصلوة ثم انتهت عليها فكما أنَّ سوارًا يحافظ على المدينة كلها فكذلك الصلوة تحافظ على الحسنات الأخرى كلها، والهدف وراءها، كما ذكرنا آنفًا، هي الإشارة إلى أنَّ الصلوة هي المحافظة على الدين كله فمن حافظ عليها فكأنه حافظ على الدين كله ومن ضييعها فهو لما سواها أضيع.

وعلى نفس الأسلوب ابتدئ هذا الباب بالصلوة وانتهى عليها فكأن العمل على هذه الأحكام والقوانين لا يمكن إلا بدون المحافظة على الصلوة.

والآن اتل ما يأتي من الآيات في ضوء ما قلنا، يقول الله تعالى:

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٩﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَاتًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٤٠﴾ وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنكُم

وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَّعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٢٤﴾ وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتْنَعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٥﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٢٦﴾

77- تحقيق الكلمات وتوضيح الآيات

حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿١٢٧﴾

والمحافظة على الصلوة تشمل المحافظة والعناية بكل ما يتعلق بملتزماتها وشرائطها، وأدائها وأركانها وقد ذكرنا هذه كلها حين توضيح إقامة الصلوة في بداية الكتاب، ولكن هنا جاءت كلمة المحافظة بدلاً من الإقامة وهي تشير إلى جانب جديد وهو أن يتم المحافظة عليها حتى في أخطر الأوضاع مواجهًا كل نوع من الأخطار، ولذا فقد ذكرت فيما بعد صلوة الخوف، الأمر الذي يوضح أن الشيء الذي لن ينسى ولو في ظلال السيوف هو الصلوة ولا غير وما أحسن غالب حين قال:

گو میں رہا رہیں ستمائے روزگار لیکن ترے خیال سے غافل نہیں رہا

ترجمة: ولو أني ما دمت أتعرض لنوائب الدهر إلا أني لم أغفل عن ذكراك ولو لثانية.

ومعنى "الصَّلَاةِ الْوُسْطَى" واضح للغاية أي الصلوة التي تقع في وسط الصلوات الأخرى ويشهد الأسلوب أنه عام بعد الخاص، وأما السؤال عن هذا الخاص فقد وقع اختلاف شديد فيما بين أرباب التأويل فترى أغلبيتهم أن المراد منها صلوة العصر وهذا رأينا أيضًا فإن هذه الصلوة تقع حسب قسمة الليل والنهار موقعًا يقع به على حد فارق بين الليل والنهار، ويمكن أن نقول إن صلوة الفجر أيضًا تقع على الحد الفارق ولكن الحد الذي تقع عليه صلوة العصر هو عادة محفوف بالخطر، وإذا كان الوضع يغلبه القتال فهو يصبح أخطر. وإن نظرنا فيه عن جهة العموم وجدنا أنه بما أن كافة فعاليات النهار تكون في نهايتها فيكون هذا الوقت لمن يطلب الدنيا وقتًا يسعى فيه مثل هؤلاء الرجال فيريد المسافر أن يبلغ غايته

قبل أن يجنّه الليل، ويودّ التاجر أن يكتسب شيئاً قبل أن يغلق دكانه، ويحاول العامل أن يتم شغله المحدّد، وحتى يخوض اللاعبون في الملعب في اختيار تدابيرهم النهائية وبلوغ غايتهم إلى حدّ لا يجدون الفرصة للالتفات إلى شيء آخر.

وهبّ على ذلك أنه لو حان وقت القتال فماذا يبلغ هذا السعي لاسيما حين يقرب وقت صلوة العصر وعلى هذا فقد أكّد القرآن الكريم على المحافظة على صلوة العصر بجانب المحافظة على الصلوات الأخرى.

وأما السؤال: لو أريد بها صلوة العصر فلم لم يعبر عنها بكلمة "صلوة العصر"؟ فالرد على هذا أنّ استخدام هذه الكلمة للصلوة يكشف لنا عن موقعها الخطير الذي يطلب منا أن نهتم بها.

ولنلاحظ هنا أنّ هذه هي الصلوة التي ابتلي بها اثنان من الأنبياء أحدهما سليمان عليه السلام حين كان يمتحن الأفراس الجياد والآخر نبينا محمد ﷺ حين الخوض في غزوة الأحزاب.

"الفنوت" تعني "الخضوع والتذلّل"، وهنا موقعها يدلّ على أنّ أدب الصلوة هذا أيضاً يشمل المحافظة على الصلوة.

فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

رجال جمعُ راجل وركبان جمعُ راكب وأحدهما ضدّ للآخر فقال إذا أحاط بكم العدو ولم تستطيعوا أن تؤدوا الصلوة بكافة شرائطها وأداها فأدوا الصلوة كيفما كنتم ركباناً أو رجالاً أو صورة أخرى وهذه هي صورة المحافظة على الصلوة في حالة الخطر، وفي موضع آخر من القرآن قد ذكرت الصورة التي يمكن اتخاذها للصلوة بالجماعة إذا أمكنت.

ثم قال إذا تيسّر لكم حالة الأمن فاذكروا الله كما علّمكم، والمراد من ذكر الله الصلوة هنا وقد استخدمت كلمة "الذكر" للصلوة في القرآن غير مرة. وبما أنّ روح

الصلوة هي الذكر فقد يعبر بروحها عن صورتها لكيلا ينسى المرء روح العمل حين اتخاذ الصورة ولا يعتكف على الصورة فحسب.

ويتضح جلياً من جملة "كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ" أَنَّ تعليم النبي هو تعليم الله وذلك لأنه ولو أمر بالصلوة في القرآن الكريم ولكن لم تذكر طريقته في أي موضع منه فقد تعلّمها الأمة عن النبي ﷺ فحسب ولكنه مع ذلك قال "كَمَا عَلَّمَكُم"، والآن هنا يثور سؤال: إذا لم يكن تعليم النبي عين تعليم الله فأَي شيء عبّر عنه الله بتعليمه؟

وقد بيّنا خلال توضيح الآية "وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ" أَنَّ من يرى أَنَّ النبي لم يبعث إلا لقراءة القرآن الكريم على الناس فهذا رأي خاطئ أصلاً فقد أمر النبي بجانب تلاوة القرآن على الناس أَنَّ يعلمه الناس ويبيّن ما أشكل عليهم ويكشف القناع عما يشمله من الأسرار والحكم والإشارات والتلميحات، وبما أَنه كان مسؤولاً عن هذا العمل من قبل الله تعالى فما علّم أمته كمعلّم أو درّجها عليه كان تحت مسؤوليته للنبوّة. ونتعجب بعد هذه الآيات الصريحة ممن يقوم بالنقاش اللايعني حول أوقات الصلوة وركعاتها.

وأما كلمات "مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ" فهذه لبيان المنّة فهذا فضل من الله كبير على العرب الأميين أَنه كشف لهم عن أسرار الدين والشريعة التي لا انكشفت لهم ولا اتضحت لمن سبقهم ولا تبينت لغيرهم فالبدوي أَن هذا الفضل العظيم من الله عليهم يطلب منهم أَن يقدّروه ولا يحقّروه مثلما فعله بنو إسرائيل.

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَّتَعًا إِلَى الْخَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٩﴾

وكلمة "وَصِيَّةً" تقع مفعولاً لفعل محذوف و"مَّتَعًا" مفعول لـ"وصية" و"غَيْرِ إِخْرَاجٍ" حال عن "لِأَزْوَاجِهِمْ" وقد حاولنا أَن نوضّح هذا التركيب عند الترجمة وإن لم

يتضح فهذا من عجزي إلا ما ذكرناه من تأليف الكلام هو الصحيح عندنا.

وفي الآية السالفة (234) ذكرت عدة الأيامى ولتوضيح تلك الآية نزلت هذه الآية بأن يوصي الأزواج المتوفون بنفقة مدة سنة لزوجاتهم وإقامتهن ببيوتهم، وإن تركت الزوجات هذه البيوت ويحاولن للنكاح من رجال آخرين ويتخذن خطوات لسكونتهن بالمعروف فلهن حق لذلك ولا يحق لورثة الأموات أن يخالفوا ما أوصوا به.

وقد أرشدوا إلى هذه الوصية لأن قانون الإرث لم ينزل حتى نزول هذه الآيات ولذلك فقد مضى في بداية هذا الباب ذكر الوصية للوالدين وذوي القربى. وقد بينا هناك أن هذا الحكم قد صدر مؤقتاً للفترة التي لم ينزل فيها قانون الإرث المذكور في سورة النساء. وقد أمر، ضمن هذا القانون، بالوصية عن الأيامى بأن تعطى نفقة سنة بجانب الإقامة ببيوت الأزواج خلال تلك الفترة. وهذا بديهي أنه لو نزل قانون الإرث فيما بعد وعيّنت الشريعة نصيب الأيامى بجانب الورثة الآخرين للميت فكما نسخت الوصية بالنسبة للوالدين وذوي القربى فكذلك نسخت الوصية للأيامى وقام مقامها قانون مستقل بالإرث.

وإن كانت هذه الآية ملحقة بالآية السالفة (234) التي ذكرت فيها عدة الأيام فلم يشكل على أحد فهم ربطها ولكنه لم يكفد يتضح آنذاك أن هذه الآية قد نزلت بعد الحكم الماضي وهي موضحة له والحال أن هذا لازم لفهم تدريج الأحكام وحكمها، ونظراً لهذه الحكمة فقد وضعت هذه الآية وما بعدها في نهاية الباب كما أشرنا إليه وأشار بذلك إلى أنها من الآيات الموضحات النازلات بعد.

وصفتنا "عَزِيزٌ" و"حَكِيمٌ" كما تشيران إلى حق الله للمتقين وكون حكمه مليئاً بالحكمة فكذلك تشيران إلى عواقب مخالفة هذا الحكم. والدين كله في الإسلام والشريعة بأوامرها ونواهيها مبنية على صفات الله تعالى فينبغي لنا أن لا نظنها مملأ الفراغ في مكان ما بل يجب علينا أن نتفكر فيها كأساس لفلسفة قانون الإسلام وفلسفة الأخلاق.

وَلَمَّا طَلَّغَتْ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٣٦﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٣٧﴾

وما أرشد في الآية السالفة (236) إلى توديع النساء المطلقات بعد إعطائهن ما يحق بالمعروف قد ذكره في النهاية وجعله حقاً على المتقين فالحقوق التي تبني على الصفات والمعاملات يمكن في بعض الأحيان أن تفلت عن نطاق بطشة القانون في هذه الحياة الدنيوية ولكن تلك الحقوق ستكون ميزاناً لتلك الصفات عند الله فإن جعل شيء حقاً على المؤمنين أو المحسنين أو المتقين فيمكن أن لا يؤخذ قانون الإسلام من يخالفه في هذه الدنيا ولكن هذا لا يعني أنه لا يؤثر شيئاً في المخالفين يوم القيامة فإيمان المرء أو إحسانه أو تقواه يوزن طبقاً لأداء هذه الحقوق أو عدم أدائها.

وفي النهاية جاءت جملة "كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ ---" كمنة على العباد وبها تتضح، كما بيناه فيما سبق، نوعية الآيات التي تشير إليها "كَذَلِكَ". وقد ذكرنا أن هذه الجملة تأتي عامة بعد الآيات التي تأتي لمزيد التوضيح والتي نزلت بعدما نشأ في أذهان السامعين استفسار أو استبحاث أو استكشاف. ومن يتتبع نظم الكلام يسترشد من هذه الجمل في العديد من المواضع فلا نغفل عنها.

وما اختاره القرآن الكريم من أسلوب التفصيل بعد الإجمال، والتوضيح بعد الإيجاز ومزيد التوضيح بعد التوضيح يحوي بين جنبه جوانب عديدة للتربية ومنها تربية عقولنا على التفكير في الدين والبلوغ إلى فوائده ومصالحه، وأسراره وحكمه، وعن طريق الكشف عن هذا التدرج يرشدنا إلى الواقع كيف نعمل عقولنا في شؤون الدين وكيف نستنبط أحكاماً من تلك الأصول في الظروف الطارئة والقضايا القادمة، وإلى هذا الواقع تشير كلمات "لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ".

78- تفسير الآيات (243-253)

ولنرجع هنا إلى السابق فلنحضر سلسلة الحديث في أذهاننا فقد أشرنا في الفصل

الرابع والسبعين أنّ الحديث كان يجري عن الجهاد والإنفاق بالنسبة لبيت الله ولكن مبحث الإنفاق قد أثار صلاح اليتامى ورفاهيتهم والنكاح من أهمّاتهم وهكذا فقد تفسح المجال لبيان بعض القضايا المناسبة عن النكاح والطلاق. وهذا أسلوب القرآن الكريم أنه كلما يتفسّح المجال لبيان قضية فيوقف سلسلة الحديث الأصلية ويبين أشياء عن هذه القضية يتطلبها تلك الظروف الطارئة وثم تستأنف سلسلة الحديث الأصلية، ونفس الأسلوب نراه هنا فلما انتهى من بيان القضايا المطلوبة عن النكاح والطلاق استأنف ذكر الجهاد فالإنفاق.

وترتيب المباحث القادمة هكذا: أولاً أشار إلى حادثة لبني إسرائيل بأنهم تركوا ديارهم خوفاً من أعدائهم ولو أن عددهم كان غير قليل وهكذا فقد فضّلوا لهم موتهم الخلقى والسياسي، والهدف من وراء هذه الإشارة تنبيه المسلمين أنّ هجرتهم من مكة إلى المدينة ليست بموتهم أو فرارهم من العدو بل الفرار عن الكفر والفتنة، والهدف من وراءه ليس بنجاة أنفسهم بل تنظيمهم لعلّ كلمة الله وتوحيدهم للجهاد في سبيله.

وبعد هذا المدخل حتّ المسلمين على الجهاد والإنفاق كما تناول بقدر من التفصيل حرب بني إسرائيل التي حرّضوا عليها لنفس الهدف الذي يحثّ هنا المسلمون على الجهاد أي أنّ بني إسرائيل قد خاضوا هذه الحرب لتحرير قبلتهم والمسلمون أيضاً يقدمون لتحرير قبلتهم ذاتها.

وبما أنّ الابتلاءات التي مرّ بها بنو إسرائيل في مختلف مراحل حربهم هذه، والفتن التي ابتلوا بها كانت مليئة بالعبر الشتى فقد استوجب أن يتلى هذا الجزء لقصّتهم على المسلمين الذين كانوا يستعدون لمواجهة مثل هذه المراحل لكي يعتبر المسلمون بها ويقوا أنفسهم تلك الفتن التي يمكن أن تقابلهم في حياتهم المستقبلية.

ثم خاطب النبي ﷺ في عدة آيات فقليل له أنّ الهدف وراء ذكر هذه القصة ليس بمجرد رواية القصة بل يمكن أن تواجهه مثل ما ذكر آنفاً وبه يتم تصديق نبوتك

ولكن بني إسرائيل لا يتخلفون عن عنادهم ومخالفتهم لك ولو بعد أن رأوا صورتك في مرآتهم أنفُسهم فلا يزعجك مخالفتهم والله من ورائك فهو ينصرك ويغلبك، والآن اتل الآيات القادمة في ضوء هذا المدخل، قال الله تعالى:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٤﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ وَأَضعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿١٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلتَقُوا اللَّهَ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أقدامنا وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٠﴾ فَهَرَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢١﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ

بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٩٢﴾ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٩٣﴾

79- تحقيق الكلمات وتوضيح الآيات

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾

لا يجب أن يكون الخطاب بـ"أَلَمْ تَرَ" موجهاً إلى الواحد بل عامة هو يكون، كما أوضح الأستاذ الإمام في تفسير سورة الفيل، للجمع فكان الخطاب موجهاً فيه إلى كل فرد من أفراد الجماعة التي خوطبت، ثم الحادثة التي أشير إليها شهد بها المخاطب بعينه أو تكون الحادثة شهيرة إلى حد يرجى من المخاطب أنه يعرفها أو يجب عليه أن يعرفها أو يثق المتكلم بأن صدق الواقعة معترف به إلى حد لن يمكن أن يشك فيه اثنان.

وقد كتبنا عن كلمة "الموت" حين تفسير الآية (56) لهذه السورة أنها استخدمت في القرآن للموت الخلقي والإيماني والغشي والنوم كما هي استخدمت للموت الحقيقي، وقد أحلنا هناك إلى معجم لسان العرب ولنقرأ بعض نظائر القرآن هنا، فقال تعالى "اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا" (سورة الزمر: 42) وقال "ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾" (سورة البقرة) وقال "إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ" (سورة النمل: 80) وقال "أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ" (سورة الأنعام: 122).

وكذا الأمر مع الحياة التي تستخدم للحياة الخلقية والإيمانية واليقظة من النوم كما هي تستخدم للحياة المادية، والدليل الواضح على تلك آية سورة الأنعام

المذكورة أعلاه، وأما الدليل الآخر فلنقرأه في سورة الأنفال فقال تعالى "أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ" (رقم الآية: 24).

والحادثة التي أشير إليها في هذه الآية تتعلق بعهد تاريخ بني إسرائيل الذي ذكر في صحيفة صموئيل فقد كان بنو إسرائيل يمرّون بفوضى شديدة في فجر عهد النبي صموئيل، ولو أنّ عددهم كان أكثر من ثلاثمئة ألف نسمة كما صرّح عنه في صموئيل، ولكن لأجل غلبة البدع وانتشار الشرك فيهم قد فسدت حالتهم الدينية والخلقية، ولأجل فقد تنظيمهم الاجتماعي قد تشّتت شملهم وانحطت حالتهم السياسية. وقد كانت الأعداء يشنون عليهم الغارة من كل جانب، وقد رعبوا واندھشوا إلى حدّ لم يجدوا فيهم همة لمواجهة أحد من أعدائهم، ولاسيما الفلسطينيين الذين قد رعبوا عليهم بشدة وقد عقدوا الحملة عليهم فقتلوا جمعمهم وانتزعوا منهم التابوت الذي الذي كان في مكان القبلة لديهم، والذي كانوا يصدّرونه في كل شأن لهم وعبادة، وخوفاً منهم فقد أخلّى بنو إسرائيل مدّهم من عقرون إلى جات. وقد طرأ عليهم حالة الخوف والجن هذه لمدة عشرين سنة ثم بدأ صموئيل بعمل الإصلاح فيهم والتجديد ودعاهم للتوبة عن الشرك والبدع، وقطع دابر تشّتهم وتوحيدهم على رصيف واحد، فكّلّل الله دعوته هذه بالنجاح وهكذا فبعد موت عشرين سنة تيقظ بنو إسرائيل من جديد إيماناً وسياسة وصلحوا لأنّ يواجهوا الفلسطينيين من جديد ويستعيدوا مدّهم من أيديهم، التي قد أخلوها هم بأنفسهم وفرّوا منها.

هذه القصة مبعثرة في صفحات صموئيل فننقل فيما يلي طرفاً من أجزائها الضرورية التي تؤيد فكرتنا هذه التي قدّمناها فيما سبق:

وقد ذكر رعبهم من الفلسطينيين وقتل جمعمهم بأيديهم وانتزاع التابوت منهم كما يلي: "فحارب الفلسطينيون وانكسر إسرائيل وهربوا كل واحد إلى خيمته وكانت الضربة عظيمة جدّاً وسقط من إسرائيل ثلاثون ألف راجل وأخذ تابوت الله" (صموئيل/الباب/4-10-11)

وما أثر انتزاع التابوت في بني إسرائيل قد ذكر كما يلي:

"فأجاب المخبر وقال هرب إسرائيل أمام الفلسطينيين وكانت أيضًا كسرة عظيمة في الشعب ومات أيضًا ابنك حفي وفيخاس وأخذ تابوت الله وكان لما ذكر تابوت الله أنه سقط عن الكرسي إلى وراء إلى جانب الباب فانكسرت رقبته ومات --- قائلة قد زال المجد من إسرائيل لأن تابوت الله قد أخذ ولأجل حميها ورجلها فقالت زال المجد من إسرائيل لأن تابوت الله قد أخذ" (صموئيل/الباب/4-17-24)

وبعد هذا الحدث طرأ عليهم حالة الخوف والجبن لمدة عشرين سنة كما قضوا حياتهم في النياحة والتحزن ثم دعاهم صموئيل للإصلاح والتجديد ما جاء ذكره كما يلي:

"وكان من يوم جلوس التابوت في قرية يعاريم أنَّ المدة طالت وكانت عشرين سنة. وناح كل بيت إسرائيل وراء الرب وكلَّم صموئيل كل بيت إسرائيل قائلاً إن كنتم بكل قلوبكم راجعين إلى الرب فانزعوا الآلهة الغريبة والعشتاروث من وسطكم وأعدّوا قلوبكم للرب واعبدوه وحده فينقذكم من يد الفلسطينيين. فترع بنو إسرائيل البعليم والعشتاروث وعبدوا الرب وحده. فقال صموئيل أجمعوا كل إسرائيل إلى المصفاة فأصلي لأجلكم إلى الرب" (صموئيل/الباب/7-2-6)

وبعدما تابوا جميعًا واستغفروا وقاموا بتوحيد صفوفهم من جديد صلح بنو إسرائيل ليواجهوا الفلسطينيين ويغلبوا عليهم ويستعيدوا مدنهم التي تم انتزاعها منهم كما يستعيدوا ماضيهم الزاهر. يبتدئ ذكر حياة بني إسرائيل الجديدة هذه كما يلي:

"وصرخ صموئيل إلى الرب من أجل إسرائيل فاستجاب له الرب وبينما كان صموئيل يصعد المحرقة تقدّم الفلسطينيون لمحاربة إسرائيل فأرعد الرب بصوت عظيم في ذلك اليوم على الفلسطينيين وأزعجهم فانكسروا أمام إسرائيل وخرج رجال إسرائيل من المصفاة وتبعوا الفلسطينيين وضربوهم إلى ما تحت بيت كار ---

فذلّ الفلسطينيون ولم يعودوا بعدُ للدخول في تخم إسرائيل وكانت يد الرب على الفلسطينيين كل أيام صموئيل والمدن التي أخذها الفلسطينيون من إسرائيل رجعت إلى إسرائيل من عقرون إلى جتّ. واستخلص إسرائيل تخومها من يد الفلسطينيين" (صموئيل/الباب/7-10-14)

هذا هو جزء تاريخ بني إسرائيل الذي أُشير إليه في هذه الآية فلما اختاروا حياة ملؤها خوف وجبن ففوّضهم الله إلى موتهم الإيماني والخلقي الذي عبّر عنه بـ"مُوتُوا". قد حدث هذا طبقًا لسنة الله التي أُشير إليها في قوله تعالى "فَلَمَّا رَاغُوا أَرَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ" (سورة الصف: 5) أي قد مهّد الله لهم سبيلهم إلى ما شاءوا ثم لما دعوا إلى الإصلاح والتجديد وعزموا على أن يؤمنوا ويسلموا من جديد فأحياهم الله من جديد ونفخ فيهم الروح الجديدة، وهذا الذي عبّر عنه بـ"ثُمَّ أَحْيَاهُمْ"، وهذه هي سنة الله عن تقدّم الأمم وتدهورها فإن تفضّل أمة ذلة لها وشقاوة فيفوّضها الله إلى ما أرادت وإذا أحبّت أمة التقدّم وحسن الحظ وحاولت أن تلبّي ما يقتضيه هذا وذلك فيرفعها الله ويعزّها ومن ثم يمتحنها شديدًا.

والهدف من وراء ذكر هذا الحدث هو حث المسلمين لاسيما الضعفاء منهم على الجهاد والإنفاق فكأن هذا مدخل لما سيأتي في الآيات القادمة، وقد أشرنا في فصل المدخل إلى أنّ حدث بني إسرائيل هذا كان يتعلق بقتالهم لقبليهم، والقتال والجهاد اللذان حُثّ المسلمون عليهما أيضًا يتعلقان بتحرير القبلة أصلًا فيوجد بينهما تشابه واشتراك للهدف فكأن المسلمين أيضًا قد خيّر لهما سبيلان إما الحياة وإما الموت فإن خافوا الموت فيعلموا أنه لن يعصمهم عن الموت شيء فليطروا عليهم موت الذلة والاستكانة والنفاق وإن لم يغفلوا عن الموت وشمروا عن ساقهم للمشي على سبيل الحياة فسيهبهم الله حياة جليّة للإيمان والإسلام في هذه الدنيا كما يخلّد لهم الحياة في الآخرة بالفوز والفلاح.

وَقَتِّلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٤٤﴾

وبعد المدخل التاريخي المذكور أعلاه حثّ المسلمين على القتال. وهناك دافعان بارزان على هذا التحريض: أحدهما أنّ هذا القتال في سبيل الله ليس في سبيل النفس والشيطان فالعبد مصحوب من نجدة الله في كل خطوة منه وآخرهما أنّ الله يسمع كل شيء ويراه فهو يعلم كل تضحياتكم وأدعيتكم وتدابير أعدائكم فينبغي ألا يخافوا خذلهم من قبل الله العزيز الحكيم.

والبديهي أنّ الهدف في الإشارة إلى هذه الصفات هو ما تلزمه هي أي كلما يسمع الله ويراه فلا بد من أن يجيب على دعوتكم ويعينكم ويجزي تضحياتكم خيرًا.

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ، لَهُ أَوْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ
وَالِيهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤﴾

وبعد أنّ دعاهم إلى التضحية بالنفس يدعوههم إلى التضحية بالمال، والأسلوب الذي اختاره لهذا الأمر مؤثر للغاية فأولاً طرح السؤال هكذا "مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ" وهذا مشوّق للغاية ثم عبّر عن الإنفاق في سبيل الله بالإقراض، والقرض، كما نعلم، يجب تسديده على من أعطي هذا القرض. وهذا من فضل الله العظيم أنّ المال الذي وهبه لعباده يعتبره بالقرض عليه كلما يطلب منهم أن ينفقوه في سبيله أي قد أوجب على نفسه أنه سيسدّه ثم قال ما يرغّب في الإنفاق وهو أنّ الله يطلب من العباد هذا القرض لكي يزيد مالهم أضعافاً مضاعفة لا تفتى ولا تنقضي أي أنّ الله لم يحتج إلى هذا القرض على أنّ خزينته قد تقلّلت بل هو غني عن معونة عباده وعلى الرغم من ذلك فقد فتح لعباده سبيلاً للاستثمار فإذا أرادوا أن يزيدوا مالهم من عشرة أضعاف إلى سبعمئة ضعف فلينفقوا في سبيله تعالى.

ولم يشترط هذا القرض إلا أن يكون هذا القرض "قَرْضًا حَسَنًا"، والقرض الحسن يعني، كما يبدو من مواضع أخرى للقرآن الكريم، أن لا يعطى القرض عن ضيق الخاطر لأداء المسؤولية بل أن يعطى بكل رحابة الصدر وهمة للنفس، ولا أن يعطى رثاءً وسمعةً بل مرضاةً لله لا أن يراد به نفع دنيوي بل يراد به الأجر

الأخروي. وفوق ذلك أن لا يكون من المال الذي اكتسب عن وسائل محرمة ودنية بل أن يكون من المكتسب الزكي الحبيب العزيز، وسيتم توضيح هذا الواقع فيما بعد من آيات هذه السورة وتفصيله الأحاديث كذلك.

وفي النهاية ذكر ما هو الأصل أي الفقر أو الغناء لا ينحصر في تدابير المرء ذاته بل هذا أيضًا بيد الله ولذا فمن يريد أن يخفي ماله على الله ولا يظهره عليه فمعنى ذلك أنه يخفيه على من هو يقدر على نزعته كما هو يعطيه.

وفي "وَاللَّهِ تَرْجَعُونَ" لمحة عن أن من يضيق خاطره عن الإنفاق في سبيل الله اليوم لا ينس أنه سيحضر الله يومًا ما كما هي تلمح عن أن الحياة التي يبخل لها على الله ليست هي خالدة فالحياة الأصلية هي حياة الآخرة التي تتطلب أن يتفكر الناس عنها.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾

"ملأ" يعني To fill بالإنجليزية ومن هنا جعلت هي تستخدم لأشراف قوم وكبارهم، ولعل السبب في ذلك هو أن أشرف القوم هم الذين يملأون جلسات القوم وندواته وهيأته وأبلطته.

و"ملك" يعني من له خيار وسيطرة فيمكن أن يكون هذا الخيار وتلك السيطرة بدون القيود كما نراها لدى ملك جبار مختار في حكمه كما يمكن أن يكونا بالقبود كما نشهدهما لدى قائد أو حاكم أو ملك يلتزم القانون أو الشريعة، وقد استخدمت هذه الكلمة لكلا المعنيين في القرآن الكريم. وتدل القرينة على أنها استخدمت هنا للمعنى الثاني وذلك لأن بني إسرائيل قد طلبوا من نبي ذاك الزمان (صموئيل) أن يعينه وبالفعل إنه قام بتعيينه، ويبدو من تفاصيل التوراة¹ أن

¹ صموئيل، الباب: 10: 25

الملك كان يؤدي كافة المسؤوليات والواجبات حسب إرشاداته وحسبما دعاه النبي. وقد استخدمها القرآن الكريم لكل من المدح والذم فكان هناك ملك حاج مع إبراهيم والذي ادعى أنه يقدر على الحياة والموت فذمه القرآن الكريم وبالعكس من ذلك فكان ذو القرنين ودأود وسليمان ملوكًا ولكنه أثنى عليهم فيظهر من هذا أنّ المهم في النظم السياسية عند القرآن الكريم ليس صورتها بل روحها فإن كانت روحها تابعة للشريعة فهي قابلة للثناء أيًا كانت صورتها، وإن كانت روحها معتدية على الله ورسوله فهي قابلة للذم ملوكية كانت أو جمهورية.

وكما أشار القرآن الكريم إلى حدث للموت والحياة الإيمانيين والخلقين لبني إسرائيل فدعا المسلمين لخيار سبيل الحياة وقيل لهم أنّ هذه الحياة يظفر بها عن التضحية بالمال والنفوس في سبيل الله فكذا أشار في هذه الآية وما بعدها من الآيات، إلى أحداث من تاريخ بني إسرائيل من هذا النوع قد أعطى المسلمين دروسًا مهمة تتعلق بالحياة السياسية والاجتماعية.

والحدث الذي أشير إليه في هذه الآية يبدو من تفصيله في ضوء التوراة أنّ عمل الإصلاح والتجديد وتوحيدهم الذي بدأ به النبي صموئيل¹ فيما بين بني إسرائيل ولو أنه نفخ روحًا ما في بني إسرائيل فقاموا ضد الفلسطينيين ونجحوا في استعادة بعض مدنها التي سلبت ولكن بني إسرائيل كانوا محاطًا بهم من الأعداء من كل جانب فكانت مدنها العديدة محتلة من قبل الأعداء حتى الآن وكانوا على خطر من قبل ملوك موآب وبني عمون وأروم وضوباه وزد على ذلك كبر سن النبي صموئيل، ولم يكن أولاده الذين فوّض إليهم مسؤوليات القيادة والحكم يؤدونها كما توقع منهم بنو إسرائيل فطلبوا من صموئيل أن يعين ملكًا لهم يمكن لهم الجهاد تحت قيادته والانتقام من أعدائهم.²

وكان صموئيل على علم لتجاربه بأنّ ضعف بني إسرائيل ليس بأنهم يفقدون قائدًا

¹ زمنه 889 قبل الميلاد

² راجع الباب الثامن لصموئيل

لهم يرشدهم في ساحة الحرب بل ضعفهم الحقيقي هو أنهم يفقدون عزيمة على مواجهة أخطار الحرب والإيمان بربهم العزيز ولذا فإنهم، كما يتضح من التوراة، خالفوا ما طلبوه آنفاً ونهتهم على ضعفهم الحقيقي بأنه ليس أن يكتب الجهاد عليكم ويعين القائد ثم تنكروا هذا الجهاد فنادوا بأعلى صوتهم بأنهم قد أخرجوا من ديارهم وحرّموا أزواجهم فإن لم نقم بالحرب الآن فمتى نقوم بها؟ ولكن صحّ ما ظنّ صموئيل فقد قرّر قائداً لهم في القتال كما أمرهم بالجهاد ولكن بني إسرائيل تخلفوا في الميعاد فسيبدو من التفاصيل القادمة أنهم أولاً اعترضوا على القائد الذي قرّره صموئيل وثانياً لما انضموا إلى جنوده قد خابوا في الاختبار الأول. والمراد من "وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْظَّالِمِينَ" نتيجه اللازمة أي لما يعرف الله جيداً فهو سيعامل معهم حسبما يعرفه هو.

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكُهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤﴾

"بَعَثَ" يعني أنهض وأثار وأرسل ومن ثم تدرّج لمعنى قرّر، وبما أنّ صموئيل قد قرّر هذا القائد بأمر من الله، كما يثبت من التوراة والقرآن الذي قال "اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ"، فقد استخدمت له كلمة "بَعَثَ".

وطالوت اسم هذا القائد المقرر وقد سمّاه التوراة بـ"ساؤل" كما خصّته بالإشارة إلى طول قامته "فوقف بين الشعب فكان أطول من كل الشعب من كتفه فما فوق (صموئيل، باب: 10/24) ولا يستبعد أنه قد اشتهر بهذا اللقب لطول قامته فطالوت يعني "طويل جداً". ولأنّ العربية والعبرية أختان فتشتركان في كثير من موادها فيرى أنّ التوراة ذكرته بالاسم بينما القرآن الكريم ذكره باللقب وإلا فعلينا أن نؤمن بأنّ بيان التوراة عن اسمه خاطئ فالاسم الحقيقي هو طالوت فقد قام القرآن الكريم بتريديد بعض بيانات التوراة في الأحداث الأخرى التي سنشير إليها فيما

بعد كما سنقوم بتوضيح السبب في ترجيح بيان القرآن في مثل هذه الأحداث.

فلما قرّر صموئيل قائداً لهم على طلب من بني إسرائيل وعرضه عليهم فلم يقبلوه مسرورين بل اعترضوا عليه حسب العادة بأنه لن يكون قائداً لهم فنحن أحق منه بهذا المنصب، والسبب في هذا الاعتراض أنّ طالوت لم يكن رجلاً ثرياً بجانب انتمائه إلى قبيلة بنيامين التي هي أوضع قبيلة من بين قبائل بني إسرائيل، وأضيف إلى ذلك انتسابه إلى أحقر عائلة من عائلاتهما. ويبدو من التوراة أنّ طالوت كان يشعر بنفسه بهذه الحقارة لقبيلته ولذا فلما اختاره صموئيل ردّ عليه بكلمات تالية ملؤها بساطة:

"فأجاب شاول وقال أما أنا بنياميني من أصغر أسباط إسرائيل وعشيرتي أصغر كل عشائر أسباط بنيامين (صموئيل، الباب: 9/21)

فالبديهي أنّ قبائل بني إسرائيل التي كانت فيها عصبيتها العريقة وكبرياؤها بثروتها، كيف لها أن تعبأ برجل حقير عدداً ومالاً فقاموا بالاعتراض على هذا الاختيار، وإليه الإشارة في التوراة:

"وأما بنو بليعال فقالوا كيف يخلصنا هذا فاحتقروه ولم يقدموا له هدية فكان كأصم" (صموئيل، الباب: 10/27)

وجاء كذلك:

"قال الشعب لصموئيل من هم الذين يقولون هل شاول يملك علينا" (صموئيل، الباب: 11/12)

فردّ النبي صموئيل على هذا الاعتراض بأن هذا الاصطفاء من لدن الله سبحانه وهو الذي قد اصطفاه لقيادتهم. إنكم تقيسون القيادة بميزان العدد والمال ولكن الله يقيسها بميزان العلم والعمل، فلو أنّ طالوت لا يتمتع من شوكة قبلية ووفرة مالية ولكنه يمتلك سعة العلم وقوة العمل. وهذان الأمران يرعاهما الله في اختيار

أحد لمسؤولية مهمة.

ثم قال إِنَّ الحكم والسيطرة مما يهبه الله فهو يعطي من يشاء، وحكمه يحيط بكافة الأحكام وعلمه يحيط بكل ما يختفي ويظهر فلا هو يحتاج إلى شيء لعطائه ولا هو يعجز عن سلب شيء بعد أن أعطاه ولا يختفي عليه شيء من ظاهر قضية وباطنها، ماضيها ومستقبلها.

وفي "وَسِعَ غَلِيمٌ" إشارة إلى أنكم ولو ترون كل قضية بأنظاركم الضيقة ولكن الله يحكم عن شيء في ضوء قدرته وعلمه.

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٥١﴾

التابوت هو الصندوق، وقد أريد به صندوق بني إسرائيل الذي عبّر عنه في التوراة بـ"تابوت الله" أو "تابوت عهد الله"، وقد تمتع هذا التابوت بكونه قبلة لبني إسرائيل منذ خروجهم من مصر إلى بناء البيت المقدس فقد كانوا يضعونه من وراء الستور بكل عناية على موضع خاص في مخيمهم للعبادة وكانوا يتوجهون نحوه في كل دعاء لهم وعبادة حتى كان ربيّوهم وكهنتهم يرجعون إليه للاستهداء بالغيب، وقد نال هذا التابوت دافعاً قوياً لتشجيعهم في شدائهم، ومصائبهم القومية، وساحاتهم للحرب. وقد حفظت فيه التوراة وذكريات حياتهم الصحراوية ثم أضيفت إليها أسباب مقدّسة لموسى، وهارون، وعشائريهما.

والسكينة تعني الاطمئنان، والقرار، والهمة لاسيما الاطمئنان والهمة اللذين يثبتان المرء على الحق في الظروف الخطرة وشدائد الحرب فقال مثلاً "هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا" (سورة الفتح: 4) وقال أيضاً "فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا" (سورة الفتح: 18). ومن جوانب ما هام بنو إسرائيل بهذا التابوت، كما ذكرنا، أنه كان يلعب دوراً قيادياً في تشجيعهم وإثباتهم على الحق في الشدائد والنوائب في ساحة الحرب وخارجها

فجملته "فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ" تشير إلى هذا الجانب الخاص.

وقد ذكرنا آنفاً أنَّ هذا التابوت سُلِبَ من قبل الفلسطينيين كما بيَّنا أنَّ سلبه عبَّر عنه كبار بني إسرائيل بسلب كل قوة لهم وشوكة وحزن القوم كله على هذا الحادث الكبير في حياتهم فقد ثار سؤال خطير للغاية في ذلك العهد عن استعادة ذاك التابوت ولذا فقد قرَّر صموئيل أنَّ اصطفاء هذا القائد تم من قبل الله تعالى وأنَّ التابوت سيصل إليكم بأيدي الملائكة، وقد صدق ما بشر به فوضع الفلسطينيون هذا التابوت في عربة وجروها إلى ديار بني إسرائيل. يذكر صموئيل هذا الواقع كما يلي:

"فالآن خذوا واعملوا عجلة واحدة جديدة وبقرتين مرضعتين لم يعلمها نير واربطوا البقرتين إلى العجلة وارجعوا ولديهما عنهما إلى البيت وخذوا تابوت الرب واجعلوه على العجلة وضعوا أمتعة الذهب التي تردونها له قربان إثم في صندوق بجانبه وأطلقوه فيذهب --- فجعل الرجال كذلك وأخذوا بقرتين مرضعتين وربطوهما إلى العجلة وحبسوا ولديهما في البيت ووضعوا تابوت الرب على العجلة مع الصندوق وفيران الذهب وتمائيل بواسيرهم. فاستقامت البقرتان في الطريق إلى طريق بيتشمس وكانتا تسيران في سكة واحدة وتجاران ولم تميلاً يميناً ولا شمالاً وأقطاب الفلسطينيين يسرون وراءهما إلى تخم بيتشمس. وكان أهل بيتشمس يحصدون حصاد الحنطة في الوادي فرفعوا أعينهم ورأوا التابوت وفرحوا برؤيته" (صموئيل/الباب: 7/13-13)

فوصول التابوت في عربة لا سائق لها يجزها بقرتان حلوبتان قد خلفتا ولديهما في ديارهما إلى الغاية المنشودة كان حدثاً لن يمكن إلا بهداية الكروبيين ومعونة الملائكة، وهذا الذي عبَّر عنه بـ "تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ".

وهناك فرق بين ذكر التوراة وما للقرآن عن عودة التابوت فيثبت من آية القرآن الكريم التي نحن بصدد الحديث عنها أنَّ التابوت عاد إليهم حينما أعلن بأن

طالوت ملك تعين من قبل الله جلّ جلاله، وكأن هذا الحدث كان آية لأن طالوت اصطفى من قبل الله تعالى فباركه صموئيل بمسحه كما أمره الله به، وتعيينه بداية لعهد جديد للخير والبركة بين بني إسرائيل وتاريخ النجاح والفلاح الجديد.

وبالعكس من ذلك فتذكر التوراة أنّ الفلسطينيين قد وضعوا التابوت، قبل هذا الحدث، في عربة فجزّوها إلى ديار بني إسرائيل كما هو المذكور في المقتبس السالف وبلغهم التابوت بكل صيانة، وهكذا فقد ذكر السبب وراء إعادته في التوراة أنه ولو أنّ الفلسطينيين قد سلبوا التابوت من بني إسرائيل ولكنه أصبح له آفة فقد حدث الوباء حيثما وضعوه، الأمر الذي قد سبّب ضحايا ألف نسمة منهم فملّوه وبمشورة منجمهم رجعوه حيث سلبوه.

والسؤال هنا: أيهما يصدق مقياس الرواية والدراية؟ وعندنا ما ذكره القرآن الكريم صحيح غير خاطئ بينما قصة التوراة خاطئة لأسباب تالية:

1. أولها أنّ ما قاله القرآن الكريم في نهاية هذه الأحداث وهو "تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ" (سورة البقرة) فيبدو منه أنّ القرآن يلاحظ هنا أنّ الصورة التي يقدم فيها هذا الحدث تختلف عما اختاره التوراة ولكن صورة الحدث الصحيحة هي التي يقدمها القرآن الكريم لا ما تقدّمه التوراة، ثم قرّره دليلاً على رسالة محمد ﷺ أنّ قصص الصحف السماوية القديمة التي لا تمتلك أي وسيلة لمعرفة تقديمها صحيحة من حيث لا تبقى مجرد سرد القصص والأسماء بل تظهر للناس بربطها العقلي ونتائجها الحكمة لم يمكن إلا لأن الله قد جعلك رسوله وأخبرك بها عن طريق وحيه.

ولكن يمكن لعنيد أن يقول إنّ بيان القرآن يختلف عن بيان التوراة لما أنّ النبي محمداً لم يكن يعرف التوراة مباشرة وهو كان، نعوذ بالله من ذلك، يتلو ما سمعه عن الناس ولذا فكان بيانه يختلف عما في التوراة ولكن هذا القول لن يصح أبداً فأولاً أنّ من يقول أخذاً عن أفواه الناس فيكون حديثه عادة

موافقًا لما يرويه العامة له ولا أن يكون مختلفًا عنهم تمامًا. وثانيًا أن من ينقل ما سمعه عن الناس لا يدعي بكل ثبات ويقين أن ما تقوله أنت ليس كذا بل هو كذا وكذا فلا يقول هذا أو لن يقول هذا إلا من يعلم شيئًا جيدًا وصحيحًا ويتحدّى المروي ويريد أن ينتقده أو يقيم عوجه. فيبدو أن الأمر كما ذكرنا فقد قام القرآن الكريم بإصلاح اسم ساؤل كما قدّم صورة عودة التابوت كما كانت، وعيّن محل امتحان النهر بالصحة ثم قال إن هذا هو الحق الذي يقدمه القرآن لا ما هو منقول في التوراة.

2. وثانيًا أن ما يذكره القرآن الكريم يبدو صحيحًا من العقل والمنطق فيظهر من التوراة أن التابوت قد عاد لأجل الكرامات التي قد ظهرت بالتابوت فقد تعرض الفلسطينيون للآفات والبلايا منذ أن رجعوا به إلى ديارهم فظنوا أن أصحّ طريق للنجاة منها هو أن يرجع إلى من سلب منه فاختروا الصورة المذكورة أعلاه لنجاتهم. ولأنّ هذا كان أقرب إلى قوم ضعيفة عقيدته ومعتقد في الكرامات فقد قاموا باختلافه ثم أدخل هذه الرواية الرغبة للعامة في التوراة ولكن الملفت الأنظار هو هل تحدث مثل هذه الوقائع في حياة قوم ما بشكل أطفال؟ فالتابوت كان بمنزل القبلة لبني إسرائيل فسلبه ليس بأمر عادي ولا عودته بأمر تافه فإن وقع مثل هذا الحدث فهذا يعني أن بني إسرائيل قد خاضوا في ضلالات العمل والعقيدة التي سببت لهم هذا العقاب من قبل الله جلّ مجده، وإن نجحوا في استعادته فحدث هذا لأنهم قاموا بإصلاح ما بطل من أمرهم فمالت إليهم رحمة الله فرعب أعداؤهم منهم. يبدو جليًا من التوراة أن الزمن الذي سلب فيه التابوت كان فيه بنو إسرائيل سيئًا بالهم نظرًا لأعمالهم وعقائدهم كما كانوا مشتتًا حالهم بالنسبة لسياستهم وحكومتهم. وقد استدللنا على هذه الدعوى بما سلف فأراد صموئيل أن يصلح هذه الحالة فنجح فيها إلى حد ولكن يبدو أن فوزى بني إسرائيل قد انتشرت إلى حد لم يكذب هذا الجماع وحيدًا وهو في كبر سنه.

ولكن الحالة قد تغيّرت بوضوح حينما تعيّن طالوت ملكًا فاتحدا صموئيل وطالوت في إثارة أمل جديد فيما بين بني إسرائيل فالخطبة التي ألقاها صموئيل أمام بني إسرائيل كلهم بعد تعيين طالوت ننقل طرقًا منها كما يلي، يمكن به تقدير ما كان عليه بنو إسرائيل قبل تعيين طالوت من سوء الحال وما هو الأمل الذي قد بدا فيهم بعد هذا التعيين:

"وقال صموئيل للشعب الرب الذي أقام موسى وهارون وأصعد آبائكم من أرض مصر. فالآن امثلوا فأحاكمكم أمام الرب بجميع حقوق الرب التي صنعها معكم ومع آبائكم. لما جاء يعقوب إلى مصر وصرخ أبائكم إلى الرب أرسل الرب موسى وهارون فأخرجوا آبائكم من مصر وأسكنهم في هذا المكان. فلما نسوا الرب إلههم باعهم ليد سيسرا رئيس جيش حاصور وليد الفلسطينيين وليد ملك موآب فحاربوهم. فصرخوا إلى الرب وقالوا أخطأنا لأننا تركنا الرب وعبدنا اليعليم والعشتاروث. فالآن أنقذنا من يد أعدائنا فنعبدك. فأرسل الرب يريعل وبدان ويفتاح وصموئيل وأنقذكم من يد أعدائكم الذين حولكم فسكنتم آمنين. ولما رأيتم ناحاش ملك بني عمون آتيًا عليكم قلتهم لي لا بل يملك علينا ملك. والرب إلهكم ملككم. فالآن هوذا الملك الذي اخترتموه الذي طلبتموه وهوذا قد جعل الرب عليكم ملكًا. إن اتقيتم الرب وعبدتموه وسمعتهم صوته ولم تعصوا قول الرب وكنتم أنتم والملك أيضًا الذي يملك عليكم وراء الرب إلهكم. وإن لم تسمعوا صوت الرب بل عصيتم قول الرب تكن يد الرب عليكم كما على آبائكم. فالآن امثلوا أيضًا وانظروا هذا الأمر العظيم الذي يفعله الرب أمام أعينكم" (صموئيل: الباب: 12/16-6)

وقد كان النبي صموئيل مشغولًا في إقامة ما اعوجّ من عقيدتهم وإيمانهم في جانب وفي جانب آخر خاض طالوت لأجل موهبته الربانية في جمع شملهم ونفخ روح الجهاد فيهم فلأجل مواجهة العمونيين قام بإحصاء رجال بني إسرائيل فعلم أنّ بني إسرائيل ثلاثمئة ألف رجل بينما يهوداه عدد رجاله مجرد ثلاثين ألف رجل ثم شنّ على العمونيين غارة شديدة بدّدت شملهم

وهكذا فقد طرأ رعبه على الأصدقاء والأحباء. ولا شك أنّ هذه الظروف قد أرعبت أعدائهم ومن ثم ظن الفلسطينيون خيراً لهم أن يرجعوا التابوت إليهم فينجّوهم من مخافة حرب دامية، ولا شك أنّ هذا كان حدثاً خطيراً يمكن أن يصبح آية لنجاح طالوت وكونه مصطفًى من الله ولذا فقد أشار إليه القرآن الكريم كما ذكرنا وهذا يتفق والعقل والقياس مئة بالمئة.

3. وثالثها أنّ بيان التوراة هذا يردّده بيان التوراة نفسه فإن صحّ أنّ الفلسطينيين قد رجعوا التابوت في غضون سبعة أشهر التي ظهرت فيها العديد من كرامات التابوت وخوارقها فماذا يعني بيان التوراة التالي:

"فجاء أهل قرية يعاريم وأصعدوا تابوت الرب وأدخلوه إلى بيت أبيناداب في الأكمة وقدّسوا ألعازار ابنه لأجل حراسة تابوت الرب. وكان من يوم جلوس التابوت في قرية يعاريم أن المدة طالت وكانت عشرين سنة" (صموئيل، الباب: 1/7)

فالسؤال هنا: لو كانت قرية يعرم منضمة إلى مناطق بني إسرائيل المحتلة وكان التابوت تحت رقابتهم فلم بقيت عشائر إسرائيل كلها تنوح أمام الله لمدة عشرين سنة؟ وماذا تعني كلمات "وراء الرب"؟

والواقع أن اليهود قد حشوا صموئيل بروايات يضادّ بعضها بعضاً حتى صعب لهم التمييز بين الحق والباطل، فهذا من فضل القرآن الكريم أنه كشف عن جوانب صحيحة لبعض الوقائع.

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ كَمِ مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٢٨﴾

فصل يفصل فصولاً: غادر مكاناً وخرج منه أي خرج طالوت بجنوده للخطب. يبدو من التوراة أن هذا الخطب كان هي مواجهة الفلسطينيين الذين كان قائدهم

جاءت جوليت الذي سمّاها القرآن الكريم بـ"جالوت"، وما صوّره القرآن الكريم من مقابلة جنود طالوت جنود جالوت كان مشابهاً للغاية بما قد حدث في غزوة بدر. يذكرها صموئيل هكذا:

"وجمع الفلسطينيون جيوشهم للحرب فاجتمعوا في سوكونه التي ليهودا ونزلوا بين سوكونه وعزيقة في أفس دميم واجتمع شاول ورجال إسرائيل ونزلوا في وادي البطم واصطفوا للحرب للقاء الفلسطينيين. وكان الفلسطينيون وقوفاً على جبل من هنا وإسرائيل وقوفاً على جبل من هناك والوادي بينهم" (صموئيل، الباب: 17/3-1)

تفكر في هذه الصورة ثم انظر إلى ما شهد يوم بدر في مقابلة المسلمين جنود الكفار ترّ واضحاً أنها صورة تشبه صورة بدر مئة مئة فالحرب الأولى التي وقعت بعد تحويل القبلة بحوالي شهرين هذه هي غزوة بدر فكان الله قد أرى المسلمين عن طريق حرب طالوت ما سيشهدون يوم بدر، وسنوضح في سورة الأنفال أنّ اليهود، حينما رأوا صورة قتال بدر، قد فطنوا ولكنهم قد اتبعوا خطوات الشيطان في إثارة المشركين ضد المسلمين، ولنلاحظ هنا أنّ عدد جنود طالوت كان مثل عدد جنود النبي محمد ﷺ يوم بدر تقريباً.

إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ: قد أعلن طالوت بهذا لامتحان تنظيم جنوده وطاعتهم ووفائهم بأن الله يمتحنكم بنهر يقابلكم أنفاً فمن يشرب منه فلا يصلح لأن يكون صديقي ومن لا يشرب شيئاً منه فهو سيكون صديقي، وإن شرب أحد جرعة أو جرعتين بيديه فهو مغفور له فقد خاب أغلبية الجنود في هذا الامتحان فشبع الجنود بالمياه ولم ينجح في هذا الاختبار إلا القليل منهم.

ولو أن بني إسرائيل قد اختاروا قائدهم بكل نشاط ورغبة ولكنهم كانوا فاشلين في النظم والنسق لاسيما حيث يمتحن تقديم المال والنفس في سبيل ما، وقد كشف عن عيبهم هذا النبي صموئيل أول يوم فيبدو أن طالوت قد امتحنهم على مشورة منه لكي يمتاز الجيد منهم من الردي، ولا يغتر طالوت بهم في ساحة القتال فمن

هو صادق ينتخب قبل البلاء. ولأنَّ هذا الامتحان قد أُجري على مشورة من النبي صموئيل فقد عزاه طالوت إلى الله تعالى، والنهر الذي ابتلوا به لم يسمَّ هنا وذلك لأنَّ الهدف هو الامتحان لا بيان الاسم فيمكن أن يكون نهر الأردن كما يمكن أن يكون ينبوع في هذا الوادي يحول بين الثقليين.

فالشروط الذي عقد للنجاح الممتاز في هذا الامتحان هو ألا يتذوّق أحد ماءه فقال "وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ" إلا أنه غفر لمن شرب جرعة أو جرعتين شريطة أن تكون الجرعة "بِيَدِهِ" مخافة أن لا تبلغ هذه الرخصة الكأس أو إناء أكبر منها. والمراد من "وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ" هم المؤمنون الصادقون الذين قد نجحوا في هذا الامتحان. وفعل "ءَامَنُوا" هنا استخدم لمعناه التام أي من ثبت على إيمانه فيظهر منه بديهياً أن من خاب في الامتحان فهو منافق في دعوى إيمانه.

قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ: هذا قول من قد شبع من الماء بل يظهر من الرد أنهم لم يتأذوا بعبور النهر فقال لمن كان يعبر النهر من أصحابه إننا لا نقدر على مواجهة جالوت وجنوده، ويبدو من ذكر اسم جالوت وجنوده أنهم كانوا أشدَّاء يربع مجرد خيالهم لأحد.

قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا اللَّهَ: وقد بيّنا كلمة "الظن" تحت الآية الـ46 وهذا ردّ طالوت وأصحابه المؤمنين على قول الجبناء السالف الذكر، فمن صفاته المميزة التي ذكرها هنا هي ظنهم بأنهم ملاقوا الله. والسبب في ذكر هذه الصفة الخاصة، كما بيّنا في الآية الـ154، أن الشجاعة الحقيقية التي تجعل الموت في سبيل الله أعزّ وأحبّ من الحياة يلدها عقيدة المؤمن بأنّ المقتولين في سبيل الله لا يموتون حقاً بل يتشرفون بالحياة الحقيقية وبلقاء الله جلّ جلاله فقد أثار هؤلاء أصحابهم الذين قد فترت عزيبتهم على ألا يربعوا من كثرة عدد الفلسطينيين فتفتر عزيبتهم فالأصل في الحرب ليس العدد والعدة بل هو نجدة الله ونصره فالتاريخ مليء بالأمثلة العديدة حيث غلبت فئة قليلة للغاية فئة كثيرة بنصر الله وأمره فالشيء الذي يجب لنيل

نصر الله وتعزيده هو الصبر والثبات، والعزيمة والهمة لا قلة العدد أو كثرته، ولعل يونثان ابن طالوت قال ما قد نقل في صموئيل من الفقرة الشهيرة:

"فقال يونثان للغالم حامل سلاحه تعال نعبر إلى صفّ هؤلاء الغلف لعل الله يعمل معنا لأنه ليس للرب مانع عن أن يخلص بالكثير أو بالقليل" (صموئيل، الباب: 6/14)

ولو أن هذا الامتحان لم يذكر في التوراة إلا هناك امتحاناً أشبه به قد ذكر كما يلي:

"وضنك رجال إسرائيل في ذلك اليوم لأنّ شاول حلّف الشعب قائلاً ملعون الرجل الذي يأكل خبزاً إلى المساء حتى أنتم من أعدائي. فلم يذق جميع الشعب خبزاً. وجاء كل الشعب إلى الوعر وكان غسل على وجه الحقل. ولما دخل الشعب الوعر إذا بالغسل يقطر ولم يمدّ أحد يده إلى فيه لأنّ الشعب خاف من القسم. وأما يونثان فلم يسمع عندما استحلف أبوه الشعب فمدّ طرف النشابة التي بيده وغمسه في قطر الغسل وردّ يده إلى فيه فاستنارت عيناه. فأجاب واحد من الشعب. فقال يونثان قد كدّر أبي الأرض. انظروا كيف استنارت عيناى لأنى ذقت قليلاً من هذا الغسل. فكم بالحري لو أكل اليوم الشعب من غنيمة أعدائهم التي وجدوا --- وثار الشعب على الغنيمة فأخذوا غنماً وبقراً وعجولاً وذبحوا على الأرض وأكل الشعب على الدم" (صموئيل، الباب: 23-24/14)

فقد ثبت من هذا الحدث أنّ طالوت قد امتحن جنوده حين قتالهم ضد الفلسطينيين ففشل كلهم حتى لم ينجح فيه يونثان الذي يبدو من التوراة أنه كان عالي الهمة فلم ينجح في هذا الامتحان فحسب بل يثبت من كتابات التوراة الأخرى أنّ تضليله هو الذي قد قام بتضليل جنود والده كلهم.

وبيان القرآن يختلف عن بيان التوراة كما يلي:

أولها: يثبت من التوراة أنّ طالوت قد امتحنهم حينما اشتبكوا مع الأعداء، والهدف

من وراء هذا الامتحان لم يكن سوى أن لا يخوض الجنود في الطعام والشراب ما لم يقتل الأعداء، وبالعكس من ذلك فيثبت من القرآن أن طالوت قد امتحن جنوده قبل أن يشتبكوا مع الأعداء. والهدف من وراءه هو العلم بمن هو صادق في الأخطار ممن هو جاء ليتولى حين يرى الأعداء.

وثانيها: يثبت من التوراة أن طالوت قد منع عن الطعام وبالعكس من ذلك أن القرآن يقول إن هذا المنع قد جاء عن شرب الماء بنهر خاص لدى موكب الجنود. (Parade)

وثالثها: يثبت من التوراة أن جنوده كلهم قد خابوا في هذا الامتحان حتى لم ينجح ولده بل هو الذي قام بتضليل الجنود كلهم بينما يثبت من القرآن الكريم أن طائفة منهم قد ثبتوا على عزمهم وإيمانهم، وبفضل عزمهم وإيمانهم قد انهزم الفلسطينيون.

فإما أن نقر بأن ما تذكره التوراة شيء آخر وما يذكره القرآن لا يمت إليه بصلة أو أن نقر بأن الحدث واحد إلا أن رواية التوراة قد مسخوه وجعلوه غير مفيد فقام القرآن بذكره كما حدث بهدفه وفوائده، وأيا كان هو الأصح إلا أن بيان القرآن هادف، ومنتج، ومليء بالحكمة من كل جانب بينما لا هدف لبيان التوراة وهو مجرد سرد القصة.

وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا مَبِيعًا وَتَبَتِ أَعْدَامُنَا وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٣٥﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾

كان جالوت قائدًا للفلسطينيين. وتذكره التوراة بـ "جاتي جوليت". كان هذا قائدًا جبارًا قويًا ماهرًا في أمور الحرب فكان الأعداء يربعون به لاسيما بني إسرائيل الذين كانوا يخافونه شديداً.

وداؤد هو داؤد الذي جعله الله نبياً والذي رزق سليمان فكان في البداية فقيراً إلا أنه في آخر الأمر قد علا شأنه فقد قال في نفسه "قد أخرجني ربي من المربد فولاني عرش بني إسرائيل"، إنه قد انضم إلى جنود طالوت الذي نقرأ عنهم الآن. وهناك روايتان عن انضمامه هذا فيثبت من الأولى أنه انضم إلى جنود طالوت قبل هذه الحرب كحامل الأسلحة لطالوت، وهو كان ملكاً ممسوحاً في المستقبل لصموئيل بينما الرواية الأخرى تبدي أنه قد فاجأ الحرب بحيث جاء لتقديم بعض الأطعمة إلى إخوته الكبار الذين كانوا حاضرين الحرب لأمر من والده فرأى أنّ جالوت ينادي للمبارزة ولكن لا يتقدم أحد لمواجهته فثارت غيخته فاستجاز طالوت مواجهته، وكان داؤد آنذاك فتى قوياً في شرح الشباب فتردد طالوت في إجازته لأنه كان شاباً غير مجرب ولكنه حينما قال إني أكسر أسنان الأسود المفترسة لغني فماذا يعني هذا الفلسطيني الجبان؟ وكيف له أن يندم جنود الله وهو حيّ فآنذاك أجازته طالوت وألبسه ملابسه الحربية الخاصة وأعطاه أسلحته الخاصة وبعث بها لمواجهة هذا القائد الفلسطيني. كان داؤد حتى ذاك الحين قد قضى حياته في رعي الغنم فلم يكن يحصل على تجربة لوضع هذه الملابس الحربية على بدنه فبدأ يشعر بالانزعاج بعد أن وارى هذه الملابس فأمر طالوت بأن يتحرر عنها فأخذ فلاحنه مثل الرعاة ووضع بعض الأحجار في جانب من رداءه وقام ثابتاً أمام قائد جبار في زمنه فاستهزأ به أولاً ولكن حينما بلغه الردّ على كل قول له فقال "سأطعمك اليوم الحدا والغريان" فرماه داؤد بحجر من فلاحنه فالتزم الحجر برأسه وصرع من فوره فقتل قائد جبار كهذا بيد راعٍ حقير كداؤد كان حدثاً كبيراً للغاية فبدأت الجنود الفلسطينية تهرب وتتولّى بينما كانت نساء بني إسرائيل يغنين هذه الأغنية: "قتل ساؤل الآلاف بينما داؤد قتل مآت ألف".

ومن هذا الحدث تبتدئ حياة داؤد وبلغ الدرجة التي قدّرت له في تاريخ بني إسرائيل.

وفي "فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ" إشارة إلى الواقع أنّ كل ما يصيب المرء من الفتح أو

الهزيمة لا يتعلق بالقلة أو الكثرة أصلاً، وبالعدة والتدبير بل هو يأتي من قبل الله تعالى فيتكل المرء على الله لا على الأسباب، والهدف من وراء هذا ليس بالنهي عن اتخاذ الأسباب بل النهي عن الاتكال عليها وحدها فداؤد الذي صرع جندياً جبّاراً بحجرة واحدة ولو أنه لم يجعل نبياً حتى الآن إلا أنه كان خبيراً عن هذا الواقع ولذلك فقال مخاطباً جالوت:

"وتعلم هذه الجماعة كلها أنه ليس بسيف ولا برمح يخلص الرب لأن الحرب للرب وهو يدفعكم ليدنا" (صموئيل، الباب: 17/48)

ونفس الواقع يثبت من قوله تعالى "وَمَا رَمَيْتْ إِذْ رَمَيْتْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى" (سورة الأنفال: 17).

وَعَائِدَةُ اللَّهِ أَلَمْ تَكُنْ وَالْحِكْمَةُ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ: هذا بيان النعم التي قد نزلت عليه بعد هذا الواقع كما أصبح صهراً لداؤد بعد ذلك ومن ثم ملكاً لبني إسرائيل. وبجانب هذا فقد أعطي خزينة للحكمة، برزت في شكل "الزبور". والواقع أن هذه هي الحكمة التي حينما ترتبط بالملك ينال ذلك الملك درجة خلافة الله على الأرض.

فإن لم تكن هذه فالملك كله ظلم وهضم، وهذا هو مزاج الملك والغناء الذي يحبه الله فكان داؤد وسليمان وأبو بكر وعمر الفاروق وعمر بن عبد العزيز ملوكاً نساكاً فلم يصنع عرش وتاج ملكهم من الذهب والفضة بل كانا قد صُنِعَا من اللؤلؤ والجوهر.

وهنا يثور سؤال وجيز: لم قال "وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ" ولم يقل "وَعَلَّمَهُ مِمَّا شَاءَ". إني أرى أنه اتخذ هذا الأسلوب لكيلا يختص هذا بداؤد بل يصبح هذا أسلوب ذكر سنة الله بأن الله علّمه وأخبره بما يحبّه لعباده من تعليمه والإخبار عنه.

وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ ---: هذا ذكر الجهاد والحاجة إليه أي لو لم يأمر الله بالجهاد ولو لم يرفع عباد الصالحون سيوفهم لتطهير الأرض من الفتنة والفساد لملاً الأشرار والمفسدون الأرض بالشر والفساد ولخلت أرض الله عن كافة آثار الخير والتقوى.

وقد أشير إلى هذه الحاجة إلى الجهاد وحكمته تلك في العديد من مواضع القرآن الكريم بأساليب مختلفة فقال الله تعالى مثلاً "وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدَمَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا" (سورة الحج: 40).

وقد مسّت الحاجة إلى التنبيه على هذه الحقيقة لأنّ القتال والجهاد كانا يخيّلان خلاف التقوى والبرّ لعموم أثر الرهبانية ولذلك فقد كان قريش يعتبرون ضعف المسلمين دليلاً عليهم ولكن لما حدثت غزوة بدر جعلوا يعتبرون عاطفتهم للجهاد دليلاً عليهم. وسنفضّل هذا الأمر في موضع مناسب له، فأولاً ردّ القرآن الكريم على مثل هذه الاعتراضات كلها بأنّ الجهاد الذي يخوض فيه الأنبياء والصالحون لا يستهدف إلا لقيام الحق والعدل وإزالة الفساد وإلاّ فيمكن أن تبقى أرض الله قاحلة للخير والتقوى فجهاد الصالحين لهو اهتمام شديد لله بمن يسكن هذه الأرض.

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾

هذه الآية والآية التي تلحقها جاءتا كالاتفات في سياق الحديث أي قد قطع سلسلة الحديث الأصلية فخاطب النبي ﷺ وقال له إن بني إسرائيل كانوا قد جعلوا قصة مهمة لتاريخهم غير مفيدة و لا دالة على معنى، والآن قد قصصناها لكم بنتائجها الصحيحة وفوائدها الحقّة، وبمصالحها وحكمها لكي ترى أنت وأصحابك في هذه المرآة مشروعكم في المستقبل، وهذا برهان على أنك حلقة لسلسلة الأنبياء والرسل المباركة وإلا فالشيء الذي لم يكن لديك وسيلة لمعرفته كيف يمكن لك أن تعلمه بهذه الصحة والصدق بأن تجلت الواقعة للناس خالية من كل شوب غير عقلي ولا فطري فإن تفكّر أهل الكتاب على هذا الجانب الوحيد للقضية لكفاهم دليلاً على إثبات رسالتك ولكن عصبيتهم العمياء قد منعتهم عن اعترافهم برسالة رسول غير رسولهم أو بفضيلة رسول غير رسولهم إلا أن دعوى الفضيلة المطلقة في حق نبي أو رسول لا تصحّ فقد خصّ الله أنبيائه ورسله بفضيلة أو أخرى، ولكل منهم درجة أو منزلة ولكن أهل الكتاب قد خاضوا في العصبية الطائفية فاستعدّوا لتكذيب أو مخالفة الكل سوى أنفسهم فاصبر على هذا واتركهم على ما هم عليه فقد أمهل الله

الشر في هذه الدنيا أيضًا، ولا شك أنهم لم يستطيعوا بهذا كله إن شاء الله تعالى ولكنه شاء هذا وما شاءه مليء بالحكمة والمصلحة.

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٣٢﴾

"تِلْكَ" تشير إلى الرسل الذين أشير إليهم بكلمات "وَاتَّكَ لِمَنِ الْمُرْسَلِينَ".

في هذه الآية توضيح تلك المعاملة الصحيحة التي وجب على أمم الأنبياء أن تختارها بالنسبة لرسول الله ولكنها لم تختار بل بدلتها بمعاملة باطلة سببت خلق عصبية عديدة بين ظهرانها وأصبحت بعضها عدواً للبعض وخالف بعضها البعض إلى حد خاضت في القتال فيما بينها. والغاية وراء هذا الحديث هي التصريح للنبي عن أن مخالفة بني إسرائيل لك ولأمتك وسعيهم ضدكم ليس إلا نوع من هذه المعاملة الباطلة.

قد فضل الله رسله بعضهم على بعض، ولأجل هذه الفضيلة يمتاز بعضهم عن البعض فمثلاً كلم موسى عليه السلام فهذا جانب خاص لفضيلته كما أعطى عيسى عليه السلام معجزات بيّنة وأيده بروح القدس فهذه مما يختص به عيسى عليه السلام وهكذا فقد خص الله الآخرين من رسله بما يمتازون به من الدرجات والخصائص. وهذه هي وجهة نظر حقة بالنسبة لفضائل الأنبياء والرسل، ولكن المعاملة التي اختارتها أمم الأنبياء هي أن إحداها قد حاولت جمع كافة الميزات في رسولها الذي آمنت به وظنت من فقد إيمانها أن تقرّ للآخرين من الأنبياء صفة ما أو فضيلة فأسفرت هذه العصبية عن أن كل أمة من الأمم السابقة قد حصرت نفسها في النطاق الذي هي فيه وأغلقت على نفسها أبواب الاستفادة من الأنبياء والرسل الآخرين فإن اخترن المعاملة الصحيحة لكان كل رسول رسولها كما كانت

كل هداية هدايتها ولنالت نصيبها من هذا القرآن الكريم الذي قد نزل كهدي نهائي على العالمين، وقد أشير إلى هذا الواقع في سورة بني إسرائيل حيث قال تعالى "وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا" (رقم الآية: 255).

وفي الجزء الثاني للآية أشار الله تعالى إلى سنته التي اختارها في أمر الهداية والضلالة والتي جاء ذكرها في غير موضع من القرآن الكريم بأساليب مختلفة. وتلك أنه لم يجبر الناس على الهداية أو الضلالة فإن يفعل هكذا فلم يبق أحد على هذه الأرض إلا وأن يكون مؤمناً، وعلى الرغم من ذلك قد حرر العباد في أن يستخدموا عقولهم وأذهانهم لاختيار سبيل الكفر أو المشي على طريق الإيمان فإن اختاروا سبيل الإيمان فسيجوزون به وإن اختاروا سبيل الكفر فسيواجهون عواقبه وقال في النهاية "وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ". فأحب أن لا يجبر العباد في هذا الأمر وإن أحب هذا فيظهر من ذلك أن خياله هذا مليء بالحكمة والمصلحة فإنه لا تخلو أي إرادة من الله عن الحكمة والمصلحة.

والهدف في ذكر هذه السنة هنا هو تسليية النبي بأنك لست بمسؤول عن هداية الناس أو ضلالهم إلا أن تبلغ الحق إليهم ثم اترك قبوله أو رده إليهم فليست هذه مسؤوليتك ولا تبخع نفسك لها.

وما استخدمت كلمات "وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ" عن عيسى قد أشرنا إلى الحكمة المختلفة فيها حين تفسير آية هذه السورة (87)، وأما ذكر كلام موسى مع الله فأريد به خطاب الله إياه مباشرة، الذي شرفه به وقد جاء ذكر هذا الخطاب معه مراراً وتكراراً في التوراة كما أشار إليه القرآن الكريم في غير موضع منه.

80- تفسير الآيات (254-256)

كان الحديث يدور حول الجهاد والإنفاق ثم جاءت آيتان في ضمنه منبهتين ومذكّرتين وهما لم تكونا إلا كجملة معترضة. وبعدهما اتصل الحديث عن

الإنفاق، والاستدلال الذي اتخذه لتوضيح هذا المبحث يظهر منه أن الشيء الذي يفيد عند الله هو التضحية بالنفس والمال ولكن هؤلاء المنكرين لا يرضون عن تقديم هذه الأضحية إلا أنهم قد جعلوا أنداداً من عند أنفسهم ثم اتركوا على شفاعتهم وحمايتهم والحال أن هذه الأعوان المزورة لا تفيدهم شيئاً فمن يغتر بهذه الحماقة يظلم على نفسه شديداً.

ثم أوضح حقيقة التوحيد بكلمات موجزة جامعة وردت على الشرك بأن من يحيى على معونة باطلة ليستيقظوا ويختاروا صحيح سبيل عبادة الله.

ثم قال إن الله قد أوضح الحق والباطل، الهداية والضلالة عن طريق كتابه فرسوله، وما احتيج إلى التبليغ والتعليم، والإنذار والتبشير قد تم تليته. والآن ليعتصم بعروة الله الوثقى من يريد أن يرغب عن غير الله ويميل إلى الله وليخرب عقباه من يريد أن يغتر بمعونات باطلة فالله لا يعبأ بمن يفضل الخيار الثاني فإن الله يود أن يؤمن الناس باستخدام عقولهم وأذهانهم وذلك لأن الله لو أراد أن يسوق الناس كلهم على سبيل الخير لفعل ولكنه لا يحب الجبر في أمر الهدى والضلالة.

ثم ميز من يوفقهم الله الهدى عمن يهيم في وادي الضلال بعد توضيح الحق لهم.

والآن اتل الآيات التالية في ضوء ما قدمناه من التمهيد، قال الله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ ۗ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾

81- تحقيق الكلمات وتوضيح الآيات

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ ۚ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾

والدعوة إلى الإنفاق المذكورة في الآية السابقة (245) تُفَصِّلُ قليلاً ففي "مِمَّا رَزَقْنَكُمْ"، كما قد أشرنا، دليل على الإنفاق وتسهيل له أي أن ما يطلبه الله منكم من الإنفاق لا يضيق به خاطركم فهو لا يسألكم شيئاً تمتلكونه بل يطلب منكم ما قد وهبكم إياه، وأيضاً لا يسألكم كل ما وهبكموه بل يطلب منكم أن تنفقوا جزءً منه.

ثم قال إنَّ متاع الدنيا هذا لا يفيدكم أبداً ودائماً إلا أن تنفقوه فتبدلوه في صورة خزينة خالدة فإنَّ ما ستواجهونه من اليوم لا ينفعكم فيه إلا ما قدتموه من الخير فلا يفيدكم شيء غير ذلك ففي هذه الدنيا تستفيدون من البيع والشراء، والصدقة والشفاعة ولكن تلك الدنيا الآخرة لا يفيدكم فيها شيء من تلك فلا تنفعكم إلا إيمانكم وما قدتموه من الأعمال الصالحة.

وقد أردنا بالبيع معنى البيع والشراء كليهما، والسبب في ذلك، كما قد أشرنا في مواضع أخرى، أنه حينما يبدل شيء بشيء فيشملهما معنى البيع والشراء كلاهما.

والمراد من "وَالْكَافِرُونَ" هم الذين ينكرون بيوم كهذا الذي وعد عنه ومن ينكر بالآخرة لا يمكن لهم أن يضحوا بنفع اليوم على قرض الغد فقال في مثل هؤلاء: ولو أن هؤلاء يظنون أنفسهم مؤمنين بالواقع ويرون أنهم ينفعون أنفسهم ولكن في الحقيقة أنهم يظلمون أنفسهم ظلماً شديداً.

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿١٥٥﴾

"قِيَوْمٌ" مبالغة في القيام وهو يعني أَنَّ الذي يقوم بنفسه وهو ذريعة لقيام الآخرين وبقائهم.

"سنة" تعني Dizzy و"نوم" تعني Sleep فبنفهما تمّ نفي بدء النوم ونهايته فهذا يعني أَنَّ الله بريء عن أيّ أثر من آثار الغفلة.

والمراد من "مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ" أَنَّ علم الله يحيط بما خلف الناس وما أمامهم، ماضيهم ومستقبلهم وبالعكس من ذلك فلا يبلغ علم الآخرين إلا ما يشاء الله أن يبلغه "وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ".

كرسٌ بالعربية تعني طيات جامدة لشيء ومن هنا خرجت كلمة "الكرسي" التي تعني ما يقعد عليه من الأسباب مثل العرش وما شابهها فإذا كان شيء يستخدم لجلوس رجل حاكم فهو يعتبر مركزاً لحكمه وسيطرته ولذا فجعلت كلمة "الكرسي" تستخدم للتعبير عن الحكم والسيطرة فمعنى "وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ" هو أَنَّ حكمه يشمل كلّ جهة من جهات الكون فلا يخرج عن سيطرته أيّ جهة من جهات الكون الأربع.

آد يثود أوداً: كون شيء ثقیلاً إلى حدّ يصعب تحمّله فمعنى "وَلَا يَثُودُهُ حِفْظُهُمَا" أَنَّ حفظ السماء والأرض لا يصعب تحمّله لله جلّ جلاله شيئاً إذ يحتاج إلى ركن أو معونة.

وقال في الآية السالفة بأن "أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ"، وهذا مزيد التفصيل لذلك المعنى فكأن معنى ردّ الشفاعة والشرك هذا قد مهّد السبيل إلى توضيح التوحيد الخالص وهكذا فقد نزلت آية في بيان التوحيد، لن يمكن أن نحيط بمحاسنها البلاغية.

فأولاً قال إنه لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ثم أثبت له الصفات التي تتطلبها ألوهيته والتي هي أنكارها ينفي ألوهيته بجانب تبرئته عما لو تم إقراره لأفسد معنى ألوهيته فالصفات التي

أثبتها أولاً وصفه حيًا وقيومًا فالحيّ يعني ما هو مليء بالحياة والقيوم يعني من هو قائم على نفسه ويوزع غيره فالبديحي أن من هو ليس بحيّ كيف ينفخ الروح في العالمين، ومن هو ليس بقائم كيف يقيم السماوات والأرض ومن هو بعيد عن هذه الصفات كيف يجدر بأن يكون إلهاً؟ وإذا كان الله متصفاً بهذه الصفات ولا بد له من أن يتصف بها فيقرر أحد ندًا له وشريكًا لا يناسب وألوهيته.

وهكذا فقد قام القرآن بنفي كافة الآلهة التي لا هي بحية ولا مصدرًا للحياة ولا قائمة ولا قادرة على قيام غيرها بل هي تحتاج إلى حي وقيوم لحياتها وقيامها وبقائها. ثم قال إنه لا تأتية سنة ولا هو ينام وهكذا فقد برّاه عن بدء النوم ونهايته وهذا ما يقتضيه صفته للحياة والقيام فالنوم واحد من مظاهر الموت ومبادئه ولذا فهذا ينافي شأن ألوهية الله وكذا هو أيضًا ينافي شأنه للقيام فمن يغلبه النوم وهو ليس بقادر على القيام فكيف له أن يقيم العالمين، وعندما هو يقظان كل ثانية ويرقب العالمين فكيف نهب أنه يحتاج إلى أحد غيره لتنظيم العالم وتنسيقه.

وتم قال "لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ" وهذا واقع لم ينكره أحد ممن كان القرآن يخاطبه ولم يكن لأحد مجال لإنكاره، وذلك لأن معنى إنكاره هو إنكار ألوهية الإله فقد أوحى من هذا الواقع المعترف به إلى بطلان عقيدة الشفاعة التي قد شغفت حبًا كلاً من مشركي العرب وأهل الكتاب فقال "مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ" وهذا القول قد أبطل تصور الشفاعة الذي كان مبنياً على أن بعض الشركاء يتمتعون عند الله بدرجة الثقة والتدلل إلى حد يسوغ لهم أن يشفعوا عنده لأحد وبالتالي فالله ليقبلن شفاعتهم فردّد هذه الفكرة بأنه لا يتمتع أحد من هذه المنزلة لدى الله ولا لأحد مجال أن يتكلم أمامه قبل أن يؤذن له، وقد أوضح هذا الواقع في مكان آخر فقال "وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٦٧﴾" (سورة الأنبياء).

ثم قال "يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ" أي لا يصلح للتحدث أمام الله عن أحد إلا من يقدر على أن يضيف شيئاً إلى علمه ويدعي بأن الله لا يعلم، نعوذ بالله عن ذلك، عن أحد علماً تاماً بينما يعلمه هو تماماً ولكن من يصلح لذلك؟ فالله يعلم ما بين أيدي الناس وما خلفهم، وماضيهم ومستقبلهم وبالعكس من ذلك فلا يمكن لأحد أن يحيط بما يعلمه الله فلا يعلم العباد إلا قدر ما أعطاهم من العلم فسعة علم الله هذه وضيق نطاق معرفة الناس ذلك يبطلان تصور المشركين للشفاعة، وعلى هذا فقد أشار القرآن الكريم حين القضاء على تصور الشفاعة إلى سعة اطلاع الله تعالى وضيق نطاق معرفة العباد فمثلاً قال تعالى "يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ" (سورة الأنبياء) وقال أيضاً "يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَن أِذْنُ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرِضَىٰ لَهُ" قَوْلًا ﴿١٩١﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١٩٢﴾ (سورة طه).

فتصور الشفاعة هذا خاطئ أصلاً لأن الشفاعة تجعل العباد يتكلمون على العباد بدلاً من اتكالهم على الله وهكذا فهي تفتح سبيلاً إلى الشرك، وبالرغم من ذلك فقد قدّم القرآن الكريم تصوّر الشفاعة بأن الله يصطفي من عباده من يشاء لكي يشفعوا لمن يشاء ولا يتكلم العبد المصطفى إلا ما هو حق وهو خائف مشفق من ربه، وبما أن هذه الشفاعة ستكون بإذن من الله وهي كذلك تكون لمن يشاء الله وهي كذلك لا تبطل الحق ولا تحقق الباطل بل توافق والحق فهي تثبت اتكال العباد على الله وتطابق مقتضيات التوحيد ولذا فقد فسح لهذه الشفاعة مجاًلاً من عنده ويصطفي لها من يشاء من عباده. وسنتحدث عن هذا الموضوع بالتفصيل في سورة الأنعام إن شاء الله تعالى، ونكتفي هنا بهذا القدر من الإشارة.

وكما أن التثنية قد وقع في أمر الشفاعة كذلك وقع التثنية في أمر العلم بأن الله يعطي عباده من علمه قدر ما يشاء أي لن يحيط بعلم الله أحد من العالمين فما قد حصل عليه أنبيأؤه ورسله وملائكته من العلم لا يزيد على ما قد أعطاه لهم.

ثم قال "وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا" فليس أن أقصى أرجاء حكومته خارجة عن سيطرته أو هو عاجز عنها فيها أو هو مضطر إلى جعل الأنداد للسيطرة عليها فالله ليس كممثل ملوك وحكام هذه الأرض، الذين يحتاجون إلى من ينوبهم أو يعضدهم فلا يقدرّون على النظم إلا بمعونتهم بل هو يمتلك علماً لا نهاية له، وقدرة لا غاية لها، وقوة منظمة لا حد لها وعلى هذا فكما نرقب في فناء دارنا فكذلك هو يرقب كل ما في الكون بل أسهل من ذلك وأيسر ولا يشكل عليه هذا كله ليحتاج إلى من يعينه أو ينوب عنه.

وقال في النهاية بأن الله "عَلِيٌّ" و"عَظِيمٌ" أي هو عالٍ للغاية ولا حدّ لعظمته فلا تقيسوا علمه وقدرته وسعته بميزانكم الضيق فإن هذا يغوي ويفتح السبيل للشرك فلتؤمنوا بقدر ما يخبركم بصفاته واجتنبوا أنواع الظن والقياس والتشبيه والتمثيل.

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣١﴾

طاغوت من طغى على زنة ملكوت وجبروت وهو من يتجاوز الحدود فالشيء الذي قد تجاوز حدّه المناسب له يقال له "طغى" مثل "طغى الماء" أي قد كسر الماء الحدود فالأفة التي أهلكت قوم ثمود سميت بالطاغية ومن هنا استخدمت هذه الكلمة لتجاوز حدود العبودية ومن فعل هذا فهو جعل يسعّى بـ"طاغوت" ثم توسع طاقتها حتى جعلت تستخدم كل ما هو السبب من وراء تجاوز الحدود وعلى هذا فيشرحها اللغويون عادة بـ"الطاغوت عبارة عن كل معتدٍ وكل معبود من دون الله".

وقد استخدم القرآن الكريم هذه الكلمة في مواضعه المختلفة وذكر في كل منها ما يقابلها من الكلمة وهكذا فقد أشار إلى معانيها المختلفة فمثلاً قال في الآية التي نحن بصدد البحث عنها "فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ" فالمراد هنا من "الطاغوت" كل معبود من دون الله، وقال في سورة النحل "أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ"

(رقم الآية: 37) وهنا كذلك أريد بها كل معبود من دون الله. وقال في سورة النساء "الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الظَّالِمِينَ" (رقم الآية: 76) وقال بعدها فوراً "فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ" (76) فتعين أن المراد من الطاغوت الشيطان وكلمة الشيطان تشمل شياطين الإنس والجن كليهما، وكذا استخدمت هذه الكلمة لما دون كتاب الله ورسوله فقال "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا" (٥) وإذا قيل لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦) (سورة النساء) فقد أوضح بـ"تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ" مقابل "يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ" أن المراد من الطاغوت ما هو خلاف كتاب الله ورسوله.

فقد ظهر من هذا التفصيل أن من يخرج عن حدود عبادة الله وطاعته أو أن يكون وسيلة للخروج عنها كل ذلك يشمل هذا المعنى.

فما أشير إليه من سنة الله لتسليّة النبي في الآية السالفة "وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ ---" أوضحه قليلاً بأن مسؤولية رسول الله بالنسبة للهدى والضلالة ليست إلا بأن يوضح الحق جيداً ويبلغه كما يراد ولما انتبهى من هذا العمل وبأن الحق عن الباطل فقد تمت مسؤولية الرسول، والآن تقع المسؤولية على الذين قد تمت الحجة عليهم فإن شاءوا آمنوا وإن شاءوا كفروا فلم يختار الله سبيل الجبر في هذا الشأن بل قد جعل الناس أحراراً ومختارين وذلك لأنه لو أراد ذلك لساق الناس كلهم على سبيل الخير ولكنه لم يفعل كذلك بل قد حرّر الناس في أمر الهدى والضلالة فمن يؤمن يؤت جزاءه ومن لم يؤمن يواجه عقاب عمله، وقد بين هذا المعنى في مختلف مواضع القرآن الكريم بأساليب مختلفة فقال تعالى مثلاً "وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا

مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ آعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٣٦﴾ إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ تَلْصِيحٍ ﴿٣٧﴾ (سورة النحل).

وقد بين هذا المعنى في مختلف مواضع القرآن بأساليب مختلفة واكتفينا هنا بنقل آية واحدة مخافة التناول فيتضح من هذا أن الجبر والإكراه الذي نفي في الفقرة "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ" المراد منه نفي الجبر الفطري أي لم يجعل من سننه أن يجبر الناس على الهدى أو الضلالة وذلك أنه لو أراد ذلك لم يكن بمستطاع أحد أن يقبض على يديه ولكن هذا خلاف حكمته وعدله تعالى، وبالعكس من ذلك أنه أرسل أنبيائه ورسله الذين بدورهم يقومون بتوضيح الحق والباطل لهم وبعد ذلك خير لمن شاء أن يسير سبيل الهدى كما أمهل لمن يريد السير على سبيل الضلالة.

والهدف في بيان هذا الواقع هو أولاً أريد به الرد على الكفار والمشركين الذين كانوا يريدون أن يثبتوا، في ظلال هذا الجبر، كفرهم وشركهم ثواباً فكانوا يقولون إنه لو كانت عقيدتهم باطلة وعملهم فاسداً فالله قادر على كل شيء فلم لا يقيم عوجه باستخدام قدرته الكاملة وثانياً هو التصريح للنبي، كما أشرنا آنفاً، عن أن النبي ليس بمسؤول سوى عن تبليغ الرسالة بصورة واضحة فهو ليس بمسؤول عن هداهم إلى سواء السبيل.

وبعض سفهاء زماننا يحولون هذه الآية من الجبر الفطري إلى الجبر القانوني ثم يستدلون بها قائلين: بما أن الإسلام لا يؤيد الإكراه في الدين فما يتم تقرير الأشياء الفلانة المستوجبة العقوبات باسم الإسلام ليست هي إلا مما قد اختلقه المولويون وهي لا تمت إلى الإسلام بصلة، فإن اعترفنا باستدلال هذه الطائفة هذا فهذا يعني أن الشريعة الإسلامية خلو عن العقوبات والتعذيبات، شريعة تحرر أتباعها في

القيام بما شاء فلا عقاب على الزنا والافتهام والسرقة، ولا تعذيب على سلب الأموال وقطع الطرق والفساد في الأرض والعدوان والحال أن كل امرئ يعرف أن للإسلام نظامًا خاصًا بالعقابات والتعذيبات، يجب على الحكّام والملوك تنفيذه وهو من واجبات الدين فإن لم يصل أحد ولا صام فالحكومة الإسلامية يسيع لها أن تعاقبها فهذا لا ينافي قوله تعالى "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ" وهكذا إذا اعتدى مسلم على الإسلام فله عقاب على ما فعل في الشريعة الإسلامية فهذا أيضًا لا ينافي القول في الإكراه، وقد أوجب الإسلام الجهاد على أتباعه لإزالة الفتنة والفساد من الأرض وهذا أيضًا لا يضادّ قوله تعالى "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ".

فلا شك في أن الإسلام لا يسيع أن يفعل المرء بعدما دخل في الإسلام، ما شاء ومهما شاء ولا يعاقب عليه بل هو يجبره على أن لا يتعدى حدوده وقيوده. وقد أقرت النظم اللادينية الدين من الحياة الشخصية ولذا فهي تعترف بالعقابات على العدوان على الحكومة ولكن المواطنين أحرار في الاعتداء على الله وأما الإسلام فهو لا يخص الدين بالحياة الشخصية بل الحكومة الإسلامية هي حكومة الله وإدارة الدولة السياسية لا تكون إلا لتنفيذ ما قد قرره الله من الأحكام والأوامر ففيها يسأل كل من يعتدي على الله عما فعل أو يفعل ولو أنه يسرّ ما يفعل أو يعلن والفرق ليس إلا أن المحكمة السماوية ستسأل ما أخفاه المرء بينما الحكومة الإسلامية يسوغ لها أن تعاقب ما ظهر من سوء أعمال المواطنين. وكذا الردة جريمة من هذا النوع بل هي جريمة كبرى وما يتم تنفيذه من العقاب عليها في النظام الإسلامي لا ينقذ على أن يجبر المرء على أن يدخل في الإسلام بل هو يعاقب على أنه قد رفع صوته خلاف حكومة الله وقوانينه تعالى.

وكذا لا ننكر أن مجرد وجود الكفر في قوم ما لا يكفي أن يجاهد أتباع الإسلام ضده فيجروهم على الدخول في الإسلام بقوة السيوف فلا يلزم أن تكون علاقة الأمة المسلمة مع الأقوام الكافرة علاقة العداوة والمضادة في كل صورة بل يمكن أن تكون هي علاقة المصالحة فقد جعل الجهاد لإزالة الفتنة والفساد فإن وجد

هذا الشر في قوم ما فعل المسلمين المؤمنين أن يجاهدوا لإزالة هذا الشر إذا استطاعوا لاسيما الذي قد أثارته أيدي الكفار لتحويل المؤمنين عن دينهم أو أن يدمر النظام الإسلامي. وعندما انتهى هذا الشر فلا يسيغ الإسلام أتباعه أن يجبروا الناس على الدخول في الدين بل قد أبقى في نظامه مساعاً ومجالاً أن يكون الكفار رعية الحكومة الإسلامية مع أن يكونوا كافرين وصيانة حقوقهم من واجبات الحكومة الإسلامية سوى مشركي بني إسرائيل. وقد بينا وجوه هذا بالتفصيل في آتي هذه السورة (192-193) وسنبحث عنها بشيء من التوضيح في سورة البراءة إن شاء الله تعالى.

قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ: هذا ما ذكر من الوجه في نفي الإكراه المذكور أعلاه أنه يكفي متمماً للحجة من قبل الله جلّ مجده أنه قد بين الحق عن الباطل عن طريق أنبيائه وثم تبقى المسؤولية على أكتاف الناس فمن يشأ يختار الحق ومن يشأ لم يفصل نفسه عن الباطل إلا أنه ينبغي لهم أن يعلموا أن من لا يزال يتبع الباطل بعد هذا التوضيح فسيأتي يوم يخلد الباطل فيه فالحعرة الوثقى ليست إلا أن ترغبوا عن غير الله وتميلوا إلى الله وحده.

وفي النهاية الإشارة إلى صفتي الله "سَمِيعٌ" و"عَلِيمٌ" توضّح الواقع أن من يستمسك بعروة الله تاركاً ما سواه فهو يتثبت بذيل من يسمع كل شيء ويعلمه فهو ملجأه ومأواه في كل خطوة منه ومرحلة وبالعكس من ذلك من يعبد ما سوى الله يحيى على معونة من لا يعلم عن بدايته والنهاية ودغ أن يعلم بداية ونهاية أتباعه حتى لا يعلم أن بعض الحمقاء يعبدونه ولذا فسيعلن عن جهله عن هذا يوم القيامة فيعلن على من ارتكب هذه الجريمة.

82- تفسير الآيات (257-260)

وما أشير إليه من سنة الله للهدى والضلالة في "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ" قد أوضحها في آيات قادمة ثم اتصل الحديث بسلسلة الحديث الأصلية أي الإنفاق. وقد قدم

هذا التوضيح عن طريق ثلاثة أمثلة واقعية وذلك لأن الحقائق إذا لم توضح بالأمثلة فلا ترسو في الأذهان جيداً، وهذا من أساليب القرآن الكريم أنه أولاً يذكر البراهين العقلية والفطرية على قضية ما ثم يعضدها بالدلائل التاريخية والواقعية واختار هنا نفس الأسلوب. فبعدما بين سنة الله عن الهدى والضلالة ذكر ثلاثة أمثلة يبدو من أحدها من هو يغتر بالشيطان فيحرم الخروج عن الضلالة إلى الهدى بينما يظهر من الثاني والثالث من هو يوزعه الله فيخرجه من تعقيدات كل نوع ويهيه نوراً للإيمان واليقين والطمأنينة لشرح الصدر.

فاتل الآيات التالية في ضوء هذا المدخل، قال الله تعالى:

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاهُمْ أَتَطْلُعُونَ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىْ أَلَّذِى يُحْيِىْ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِىْ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِى هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِى الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَظْمِنَ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٠﴾

83- تحقيق الكلمات وتوضيح الآيات

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاهُمْ أَتَطْلُعُونَ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾

"ولي" يعني معيّنًا ونافعًا وصديقًا وحميمًا.

والمراد من النور هنا هو النور الخلقي والعملي والإيماني والعقلي وهكذا فالمراد من الظلمة هي الظلمة الخلقية والعقلية ولأنّ مصدر النور وحيد وهو الله وكذا لا يوجد أي انتشار في الحق بل هي الوحدة فقد استخدمت هذه الكلمة مفردة وبالعكس من ذلك فقد استخدمت كلمة الظلمة جمعًا أي "ظلمات" وذلك لأنّ هناك سبلاً مختلفة لبروزها كما هناك انتشار واختلاف في أمزجتها.

وقد مضى تحقيق كلمة "طاغوت" من قبل.

والمعنى أنّ الشيء الذي هو مهمّ بالنسبة للهدى والضلالة هو هل يتشبّه العبد بذيل ربه أو بغيره فإنّ يتشبّه بذيل الرب فيصير الرب مفيدًا لعبده ومعينًا وبتوقيفه يخرجته تدريجيًا من كافة ظلمات النفس والأهواء، والكفر والشرك والنفاق ويأتي به إلى شارع الإيمان الكامل والتوحيد الخالص، وإذا ننا العبد بجانبه عن ربه ومشى على سبيل آخر فيختطفه الشيطان وذريته وهو بالتالي يقبض على عنانه ويبعده عن كل نوع من نور العقل والفطرة ومن ثم فهم يسقطونه في هوة الضلال وهذا مثل سائر "العقل الفارغ معمل للشيطان" وكذا فالقلب الذي يخلو من الإيمان يحتله الشيطان ثم يجعله الشياطين هاويًا في وادي الضلال، وإليه الإشارة في سورة الأنعام "قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ" (رقم الآية: 71) وجاء في سورة الأعراف "وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٧٥﴾" (سورة الأعراف) وكذا جاء في سورة الزخرف "وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٢١﴾".

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُخِيءُ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُخِيءُ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٢﴾

وقد مضى تحقيق الخطاب بـ "أَلَمْ تَرَ".

ولو أنّ المراد من "أَلَّذِي" ليس بواضح هنا ولكن عامة المفسرين قد أرادوا به نمرود. يرى هذا الرأي سديداً فقد كان نمرود ملكاً معاصراً لإبراهيم وقد ذكر في التالمود مناظرة إبراهيم معه، التي أشار إليها القرآن الكريم هنا.

ولعل النقاش حول الرب قد جرى لأن الملوك في ذلك الزمن كانوا يظهرون أنفسهم كملوك معبودة (God Kings) أي الآلهة التي كان شعبه يعبدونها كان الملك يعتبر أكبر مظهر لها وهكذا فقد كان الملك يتمتع بسيطرتين معاً؛ سيطرة سياسية وسيطرة دينية وقد كان معظم ملوك الهند والصين ومصر وما شابهها من البلاد يحتلون مثل هذه الدرجات فيثبت من الصحف السماوية القديمة والقرآن الكريم أنّ الشمس كانت أكبر إله من بين الآلهة التي كان شعب نمرود يعبدونها وعلى هذا فأمكن أنّ نمرود كان يعتبر مظهراً للإله الشمس فالبدوي أنّ من يزعم هذا كيف يصبر على أن يسهم أحد آخر في ألوهيته. فلما أعلن إبراهيم بأن الرب الحقيقي هو الله وحده فيمكن أنه قد شعر بضربة دعوته على ألوهيته ثم دعا إبراهيم فسأله عن الرب الذي كان يدعو إليه فإن الرب أنا فإني مظهر للإله الشمس.

وفي "أَنْ ءَاتَهُ اللَّهُ الْمُلْكَ" قد حذف حرف الجر قبل "أَنْ" طبقاً لأسلوب العربية. والمعنى أنه قد وقع في استكبار الألوهية هذا لأن الله وهبه الحكم والسيطرة فينبغي له أن يشكر الله ويطيعه بعدما أعطي هذه النعمة ولكن النعمة في معظم الأحيان قد ثبتت سبباً للضلال لمن هو دنيئ وفاقد العقل، وهم قد استخدموها للكفر بدلاً من الشكر. فإذا نال أحد السيطرة ثم لم يعتبره فضلاً من الله ونعمة منه بل يظنه نتيجة لجدارته وعلمه وتدبيره فينسى أن الله يمتحنه بعدما أعطاه هذه السيطرة، بل هو يستكبر ويحاول أن يثبت نفسه إلهاً عن طريق تقديمه كمظهر لله وظلّه وعلى هذا فقد ثبت استكبار الثروة والنعمة والسيطرة أكبر سبب للضلال ولم يغتر بهذه الفتنة إلا القليل من الناس.

وللرد على سؤال نمرود ذكر إبراهيم أول ما ذكر من أوصاف ربه ما كان واضحاً للغاية أي ربي هو الذي يحيي ويميت فمن يتفكر في السؤال عن الحياة والموت يجبره هذا السؤال على أن يؤمن بالله إلا إذا لم يكن أي خلل في ذهنه ولكن نمرود كان ذهنه مغتوراً بالحكم ولذا فقد حاجَّ إبراهيم على هذا الواقع البين بأنه يقدر على الموت والحياة فأحيى من أشياء وأقتل من أشياء، ولا شك أنَّ هذه المحاجة كانت خالية عن الحلم والرزانة فردَّ عليه إبراهيم بحقيقة أخرى كان بمقدرة إبراهيم على أن يوضِّح الفرق بين هذا وذلك ولكنه شعر بأنه لا يحاجه على هذا الحق إلا من قد أعرض عن الرزانة وفطر على المحاجة اللايعنية فلم يودَّ إبراهيم أن يوقِّر له فرصة للمزيد من المعارضة. وذلك لأنَّ الأنبياء لا يبعثون مناظرين بل هم يرسلون كدعاة فلم يعقِّد البحث على هذا الجانب الخاص بل قدَّم صفة أخرى للرب قد سدَّت لنمرود السبل للنقاش وهي أنك إذا لم تؤمن بهذا فأت بالشمس من المغرب لأن ربي يأتي بها من المشرق فلم يسطع نمرود الردَّ عليه. ولننظر في الجانب البلاغي لهذه الحجة وهي أنَّ إبراهيم قد خص بالذكر تسخير الشمس التي كانت تعتبر إلهاً أكبر فيما بين الآلهة التي كان يعتقد بها نمرود وهو كان يعتبر ذاته مظهرًا لهذا الإله الأكبر، فهذا مثال جميل للاستدلال الجيِّد والتعريض اللطيف.

وقال في النهاية "وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" فلخصَّ البحث هنا بذكر سنته للهدى والضلال، التي قد ذكرت القصة السالفة لتوضيحها. ولنلاحظ هنا كلمة "الظالم" خاصة فالظالم مصطلح قرآني يستخدم لمن يسيء استخدام ما وهبه الله من المؤهلات والجدارات، ومن لا يعتبر ما وهبه الله من فضله تعالى بل يعتبره حقاً له، ومن لا يشكره على نعمه بل يستكبر ويعتدي كما فعل إبليس، ومن لا يعبد الله ولا يطيعه بل يحاول أن يجعله رباً للناس وإلهاً فقال إن من يسير هذا الطريق فهو مختوم عليه سبيل الهدى، ومثل هؤلاء الناس يحاجون في كل شيء ولو ظهر لهم الحق جلياً حتى ولو لمح لهم طريق للهدى فيتحيرون مثل نمرود ولكن لا يقبلون الحق.

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ ۖ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِتَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ۖ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ ۖ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٥﴾

حرف "أو" يأتي للقسم أصلاً فقد قدّم أولاً مثل من جاء ذكرهم بـ "وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَٰئَاؤُهُمُ الظَّالِمُونَ" والآن يذكر مثال من يأتي ذكرهم بـ "اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ".

وقد مضى مثال هذه القسمة في الآيات (17-20) لهذه السورة فلا يصحّ عندنا ما يراه الزمخشري من أنّ الذي أشير إليه هنا كان كافراً بل يظهر أنه ذكر عبد مؤمن ولو كان قد أعطي الإيمان إلا أنه كان يريد اطمئنان القلب واليقين بالنسبة لإيمانه فسأله "أَنَّى يُحْيِي هَٰذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا؟" ليس من نوع الإنكار لأمر بل هو من نوع التحير فالإنسان ربما يؤمن بشيء لأنه مشهود له من قبل العقل والفتنة إلا أنّ ذلك الأمر يكون محيراً إلى حدّ يثور في نفسه سؤال عن صورته مراراً وتكراراً. ولا يثور هذا السؤال من عاطفة الإنكار بل للبحث عن الواقع لاسيما حينما يبدو له منظر يثير داخله فهذه الحالة ليست بخلاف الإيمان مما يقتضيه الإيمان المبني على العقل والبصيرة فهذه رياضة لسلوك الباطن، لا بد لكل من يريد معرفة الواقع من المرور بها ولا يزال العبد الباحث يمرّ بهذا حتى يبلغ درجة "حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ" ولو أنّ كل منزلة من هذه المنازل خطوة للأحسن من الحسن ولكنه في عين العارف يكون مستقبلة أكثر جلاء من ماضيه حتى يعتبر ماضيه مظلماً بالنسبة لمستقبله.

إلى من أشير هنا بـ "الَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ؟" يصعب علينا أن نردّ على هذا السؤال ردّاً قطعياً فقد سمّاه بعض المفسرين "خضر" بينما البعض الآخر سمّاه "عزيز" ولكن

لا نجد أي واقعة ذكرت عنهما في الصحف القديمة تشبه بما جاء في القرآن الكريم إلا أننا نجد شيئاً يشبهه في صحيفة حزقي إيل وهو من نوع المكاشفة. ننقله فيما يلي:

"كانت علي يد الرب فأخرجني بروح الرب وأنزلي في وسط البقعة وهي ملانة عظاماً. وأمرني عليها من حولها وإذا هي كثيرة جداً على وجه البقعة وإذا هي يابسة جداً. فقال لي يا ابن آدم أتحيا هذه العظام؟ فقلت يا سيد الرب أنت تعلم. فقال لي تنبأ على هذه العظام وقل لها. أيتها العظام اليابسة اسمعي كلمة الرب. هكذا قال السيد الرب لهذه العظام. ها أنذا أدخل فيكم روحاً فتحيون. وأضع عليكم عصباً وأكسيكم لحماً وأبسط عليكم جلدًا وأجعل فيكم روحاً فتحيون وتعلمون أني أنا الرب. فتنبأت كما أمرت وبينما أنا أتنبأ كان صوتٌ وإذا رعشٌ فتقاربت العظام كل عظم إلى عظمه. ونظرت وإذا بالعصب واللحم كساها وبُسط الجلد عليها من فوق وليس فيها روح. فقال لي تنبأ للروح تنبأ يا ابن آدم وقل للروح هكذا قال السيد الرب هلم يا روح من الرياح الأربع وهب على هؤلاء القتلى ليحيوا. فتنبأت كما أمرني فدخل فيهم الروح فحيوا وقاموا على أقدامهم جيشٌ عظيم جداً جداً" (حزقيال، الباب: 11-1/37)

ولو أنّ هناك فرقاً بين ما يذكره القرآن وما يرويه التوراة ولكن هذا الفرق ليس من نوع التضاد بل هو من نوع الإجمال والتفصيل. وربما يوجد مثل هذا الفرق في روايتين لهما هدف واحد لا يجمع بنا أن نحملهما على التناقض بل على الإجمال والتفصيل ففي القرآن أشياء ليست في التوراة وفي مثل هذه المواضع نرجح ما يذكره القرآن لأنه كلام رباني مباشر ومصون تماماً فمثلاً لا تذكر التوراة أنّ مثل ذلك الونم قد أجبر على حزقي إيل أيضاً كما لا يوجد في ذكر عدم تنسّه الطعام وبعث الحمار حيّاً ولكن لا يلزم فقد ذكرهما أنّ مثل هذه المشاهدات قد فقدت حزقي إيل فهذان الأمران قد شملا المشاهدات التي مرّ بها حزقي إيل ولكنهما لم يذكر في التوراة أو أضعاهما أهل التوراة أنفسهم.

فإن اعترفنا بأن ما يذكره القرآن الكريم يتعلق بما شهده حزقي إيل من الملكوت فهذا يعني أن هذا كان من نوع سير الملكوت لمشاهدة الآيات الربانية، الذي قد سمعنا عن أعلى مثال له في المعراج، وبما أن هذه الأمور تقع في عالم لا يحيط به قوانين وحدود الكون الذي نحن فيه فلا يصح لنا أن نقيس ما يجري فيه على ما يجري هنا من الأحكام والقوانين ففي ذلك العالم تتم الأمور في ثوانٍ ودقائق ما يتم في عالمنا في القرون والدهور.

وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا: هذه صورة قرية تم خرابها، وعادة حينما تهدم المباني القديمة فيبتدئ انهدامها بمطاراتها ومناراتها وعروشها ففي البدء ينهدم ما يكون أعلى ويتلوه الجدران.

أَنِّي يُحْيِي هَذِهِ أَلَلَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا: هذا السؤال، كما أشرنا إليه آنفًا، ليس من نوع الإنكار بل من نوع الحيرة والاستعجاب والمطلوب منه كان حق اليقين وعلى هذا فهو ليس بما ينافي الإيمان بل هو من درجاته ومنازله، ولليقين درجات ولذا فيطلبه أشخاص كل درجة وطبقة حتى الأنبياء والرسل الذين يحتلون أرفع درجة للإيمان واليقين لا نستثنهم منه بل هم يستمرون في دعائهم لله تعالى لزيادتهم في هذا الأمر فالمكان الذي تنور فيه مثل هذه الأسئلة هو داخل شخص يطلب هذا الشيء فهو لا يطرح هذه الأسئلة أمام أحد بل يسأل نفسه عنها ولا يريد الرد عليها من قبل أحد بل ممن يهدي بالغيث، من يتجلى على داخله. يبدو أن مثل هذا السؤال كان يطويه داخل حزقي إيل فقام الله برفع اشتباهه هذا عن طريق إرائته من آياته وهكذا فلم يطمئن قلبه في أمر الحياة بعد الموت فحسب بل قد ثبت قلبه، كما سيتضح فيما بعد، على إحياء بني إسرائيل الذي كان مسؤولاً عنه من قبل الله تعالى. وهذا من سنن الله أنه يمهد السبيل لمن يستهديه ويربّيه لأداء مسؤولياته وينيره من نوره الخاص.

كَمْ لَبِثْتُ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةً عَامٍ: هذا السؤال والرّد

عليه ليسا إلا لإبراز الواقع بأن الزمن الذي يقضيه المرء في عالم البرزخ لا يشعر به حين يبعث بعده ويشعر أنه قد نام الحين فاستيقظ منه، والآن نشعر بأن حياة هذه الدنيا، ثم الموت، ثم البرزخ، ثم القيامة أمر يستغرق مدة طويلة فلا يجمل بنا أن نقلق له منذ الآن ولكننا كلما نقوم من هذا فسنشعر أن ما حدث ليس بما استغرق مدة طويلة بل هذا قد حدث في صبح أو مساء.

وقد حذفت ألفاظ "كيف نحياه" بعد "وَأَنْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِتَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ" أي انظر كيف نحى هذا الحمار وذلك لأن أمراً أعجب منه وأكثر تحييراً يأتي بعده وهو تفصيل عظامه البالية ونشزها وكسوها باللحم ففي هذا يوجد ما قد أشرنا إليه من المحذوف.

وفي "وَلِتَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ" وجود حرف العطف، والحال أننا لا نرى كلمة تكون معطوفاً عليها، يشير إلى أن المعطوف عليه محذوف هنا، ولهذا الأسلوب أمثلة كثيرة في القرآن الكريم ونوضحها في المواقع المناسبة لها. وهذا الحذف يفيد هنا أن الكلام الكثير تشمله الألفاظ القليلة وذلك في مثل هذه المواقع يحذف كل ما يدل عليه سياق الحديث، والموقع يدل هنا على حذف "لنؤمن بالبعث" أو كلمة تشبهها فكان الكلام التام هكذا "انظر إلى حمارك لكي يتم إيمانك بالحياة بعد الممات ولنجعلك آية للناس" ولأن جعلك آية كان فائدة له قادمة لم يسهل للأذهان أن ينتقل إليها فأظهره ولأن فائدته للإيمان بالبعث كانت بادية فقد حذفها وأشار إليها بحرف العطف.

وَلِتَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ: أي قد أريناكم آيات ربانية لكي تكون آية لبني إسرائيل على أنه لا يستبعد من قدرة الله أن يحزهم عن ذلة الاسترقاق والعبودية ويعطيكم حياة ملؤها حرية وقوة وعزة. وليتضح هنا أن النبي حزقي إيل لم يرسل إلى المنكرين بل إلى بني إسرائيل، وكان هدفه الخاص إحياء بني إسرائيل. ولكن يعلم من التوراة أن بني إسرائيل كانوا قد يئسوا عن مستقبلهم في ذلك الزمان ولذا فما نقلناه من

عبارة صحيفة حزقي إيل تنتهي على ما يلي:

"ثم قال لي يا ابن آدم هذه العظام هي كل بيت إسرائيل. ها هم يقولون يبست عظامنا وهلك رجالنا. قد انقطعنا لذلك تنبأ وقل لهم هكذا قال السيد الرب. ها أنذا أفتح قبوركم وأصعدكم من قبوركم يا شعبي وأتي بكم إلى أرض إسرائيل فتعلمون أنني أنا الرب عند فتحي قبوركم وإصعادي إياكم من قبوركم يا شعبي. وأجعل روحي فيكم فتحيون وأجعلكم في أرضكم فتعلمون أنني أنا الرب تكلمت" (حزقيال، الباب: 37/11-14)

فيعرف من هذا أن الهدف من وراء إراءة النبي حزقي إيل هذه الآيات أولاً أن يشرح صدره عن قضية الحياة بعد الموت وثانياً أن تثبت إراءته هذه رسالة للحياة لبني إسرائيل فيتشجعوا على أن الله قادر على جعلهم قومًا مليئًا بالحياة.

ولنلاحظ هنا أنّ ما قال في الأشياء التي تؤكل من "لم يتسنّه" وبالعكس من ذلك أن كل شيء من الحمار قد يلي قد يثير في ذهن أحد سؤالاً: لم ظهر هذان الأثران المختلفان في ظروف يشبه بعضها بعضاً؟ فالردّ عليه هو أنّ القلق الأصلي الذي قد أصاب ذهن الطالب هو كيف يمكن لشيء مات فبلى ثم يبعث حيّاً؟ فهذه المشاهدة قد قضت على قلقها ومن ثم عدم تغير الأغذية يثبت أنّ الشيء الأصلي هو حكم الله فهو يبعث شيئاً بعد موته وبلائه إذا شاء ويبقى شيئاً طرئاً كما هو، إذا شاء، بالرغم من القوانين الطبيعية، وما ذكره القرآن الكريم من قصة أصحاب الكهف مثال لهذا الواقع.

وقال في النهاية "فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" أي لما انكشف له واقع الحياة بعد الموت نادى أنه الآن عالم بأن الله قادر على كل شيء فـ"أَعْلَمُ" هنا جاء في معناه التام أي هو يعلم بتمام معنى العلم وما عبّر عنه القرآن بـ"عِلْمَ الْيَقِينِ" فقد نال هذا العلم عن أمر القيامة كما عن مستقبل بني إسرائيل فكأنه رأى بعينه في هذه المشاهدة أنّ عظام بني إسرائيل البالية تحيي فيكسوها اللحم

ووثق بنجاح مشروعه ثقة تامة، ومن هذه الجهة قد جعل هو آية لقومه.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُنْخِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَظْمِنَنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ أَدْغُهنَّ يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا وَاعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٥٦﴾

"اطمئنان" يعني قرار شيء بمكان بحيث لا يخاف زلته عنه شيئاً فإذا قرَّ الإناء في مكانه فيقال له "إطمأنَّ الإناء" وإذا كان ضوء السراج مستقيماً تماماً ولا يميل لأجل الهواء فيقال له "إطمأنَّ ضوءه"، ومن هنا جعلت هذه الكلمة تستخدم للتعبير عن حالة النفس أو القلب فالنفس التي لا تزل في عقيدتها وعملها ولا يخلل قرارها تحوّل الظروف فيقال لها "نفس مطمئنة" فهذا الاطمئنان من أعلى درجات الإيمان وقد عبّر عنها في القرآن الكريم بـ "شرح الصدر" فقال تعالى مخاطباً النبي ﷺ "أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ" (سورة الشرح) فالباطن يعلو في درجاته ويسلك في منازلته تدريجياً ولذا فيتمتئ الأنبياء هذه الدرجة في دور من أدوار سير الباطن والحال أنه كما يتعلق بالإيمان فهم يتمتعون منها منذ البداية فهذه الأمنية لا تنافي الإيمان بل هي مكملته له. الصور هو الميل والرجوح فصرت الشيء أو أصرت: أملتة إلى وضممته إلى ومنه "فَصُرْهُنَّ" أي ضمَّ الطيور إليك.

وكما أعرب عبد مؤمن عن قلقه الذهني أمام الله في الحدث المذكور أعلاه فكشف الله له عن جانب من ملكوته وقضى على همّه. وهكذا فقد تمتئ إبراهيم من خلال سلوكه الباطني (يمكن أن يكون هو زمن بداية حياته) أن يشاهد كيف يحيي الله الموتى يوم الحشر؟ كانت أمنيته هذه مثلما تمتئ موسى أن يرى الله جبهة فلم يتمنَّ إبراهيم بما أنه، نعوذ بالله من ذلك، لم يكن يعتقد بالقيامة. إنه كان يؤمن بها ولكن واقعاً يعترف به المرء بعقله يبقى غير مرئي ما دام أن يراه بعينه فيشرح صدره بها ومثل هذه الأمانى ليست خلافاً لشأن الأنبياء وقد علّم النبي محمد ﷺ في القرآن الكريم "وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا" (سورة طه: 114) فلا يقضى على هذه الأمنية

ما لم يكشف عن الأستار بين المرء وبين ما يعتقد ولكن مثل هذه الأشياء لن يمكن في هذه الدنيا بل أمكن في الآخرة. وأما فيما يتعلق بالاطمئنان وشرح الصدر فلا يجرمه الله عباده الذين يطلبونه عن عميق قلوبهم وإخلاص نياتهم حتى يشاهد بعض عباده جوانب من ملكوته إذا اقتضته حكمته وهذا دليل على فضله الخاص فهو ولي وظهير لمن يؤمن به فلا يتركهم في الحيرة والضلال بل يقدمهم دائماً من الظلمة إلى النور ومن الاضطراب إلى الاطمئنان.

فقد أرشد إبراهيم لرفع قلقه أن يأخذ أربعة من الطير فيصورهن إليه أولاً ثم يقطعها وينشر قطعة منها في صخور قريبة منه ثم يدعوها إليه يأتينه عدواً.

وقد أرشد إلى أخذ أربعة من الطير لكي يشاهد إبراهيم جمعها في جهات أربع لكي يحكم يقينه على أن كافة الخلق يهرع إلى الله يوم القيامة بعد نفخ الصور فوراً.

وقد أرشد إلى صورهن لكي يعرفهن جيداً كيلا يشتبه في أنّ الطيور التي أتته هي التي قطعها في قطعات كما ليتضح أن البعث بعد الموت لا يغير ما كان عليه الناس في الحياة الدنيوية حتى تعرف الطيور الأنيسة أصوات ربها الدنيوي.

ولو أنه لم تستخدم كلمة خاصة لقطع الطيور في أجزاء ولا حرج في أن نستخرج هذا المعنى وذلك لأن كلمة "جزءاً" المستخدمة هنا تعني قطعها في الأجزاء ثم نشرها في الصخور فإن أريد بها وضع الطيور حياً على حدة على هذه الصخور فلم يستخدم هذا الأسلوب العربي فالأسلوب الذي يستخدم لأداء هذا المعنى يختلف تماماً عما استخدم هنا. هذا، وقد كان إبراهيم متردداً في إحياء الموتى فهذا التردد لا يزول بمجيء طيور أنيسة إليه بعد ندائها فمثل هذه التجارب يمارسها يومياً كل من يرّبي الدجاج والسماوي والحمامة والصقر فإن مرّر إبراهيم بهذه التجربة فكيف يمكن أن يزول قلقه الذي عرضه لربه تعالى وهذا لن يمكن إلا إذا فنت أجزاء شيء وانتشرت في جهات ثم جمعت من كل جانب في صورة حيّ يرزق.

إلا أننا لا ننسى هنا أنّ هذا الحدث ليس من نوع المعجزات التي وقعت على يدي

إبراهيم لإقامة الحجة عليهم بل هو من نوع المشاهدات الشخصية التي مرّر بها إبراهيم لكي يطمئن قلبه ويشرح صدره. ومثل هذه المشاهدات يمرّر بها الأنبياء لكي تتم تربيتهم ويصلحوا لتحمل العبء العظيم الذي يحملهم الله كما يشاطرهم غيرهم ممن يطلب الحق ولكن شطرهم لا يكون إلا قدر صلاحيتهم ودرجتهم ومنزلتهم. ويمكن أن تمارس مشاهدات هذا النوع في عالم الظاهر كما في عالم الروح ولكن كل من يمرّ بها يعطيه مزيد الاطمئنان واليقين وهذا هو المستهدف منها.

وفي النهاية أمر بأن يتم التركيز على صفتي الله "عَزِيزٌ" و"حَكِيمٌ" لأن ذكر هاتين الصفتين يرسخ اليقين على أن الله سيبعث الناس بعد موتهم لأنه قادر على ذلك وأن حكمته تقتضي مثل ذلك العمل.

84- تفسير الآيات (261-274)

وقد أشرنا من قبل أنّ سلسلة الحديث كانت متعلقة أصلاً بالجهاد والإنفاق ولكن الآية "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ" قد شملت سنة من سنن الله وجب أن تعطى هذه الأمثلة لتوضيحها ومن هنا توسّع البحث قليلاً والآن وقد انتهى هذا البحث الضمني واستأنف الحديث عن الإنفاق الذي كان هو المبحث الأصلي لهذه السلسلة الكلامية فذكرت بركات الإنفاق وخصائصه وأفاته بصورة مفصلة. والآن اتل الآيات التالية في ضوء هذا المدخل:

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِائَةٌ
حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا
يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾
﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى﴾ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
لَا يُبْطِلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابُهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلًّا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ
مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ أَنْتِعَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ

وَتَنبِيئًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ
فَطُلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٦٥﴾ أَيْدُكُمْ أَتَتْكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْتَابٍ تُجْرَى
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّتٌ ضِعْفًا فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ
فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ
وَأَنْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦٧﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ
وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٨﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ
مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٦٩﴾ وَمَا أَنْفَقْتُمْ
مِّنْ نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِّنْ نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٠﴾ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ
فَعِيمًا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُم مِّنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٧١﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ هُدْنُهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ
فَلَا تُنْفِسْكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُّوفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا
تُظْلَمُونَ ﴿٧٢﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ
الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ النَّعْتِ تَعْرِفُهُمْ بِسَمِهِمْ لَا يَسْأَلُونَ الْخَافَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ
فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْئِيلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ
رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٧٤﴾

85- تحقيق الكلمات وتوضيح الآيات

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ
مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٤﴾

"فِي سَبِيلِ اللَّهِ" مصطلح قرآني يشمل كل ما يؤدى من الأعمال لرفاهية الإسلام
والمسلمين وفلاحهم فيمكن أن يكون عمل ما أهم بالنسبة للظروف أو غير أهم
ولكن كلما يؤدى من الأعمال حسب إرشادات الشريعة لمرضاة الله تعالى هو ما

يشمله مصطلح "في سبيل الله".

هذا مثل النمو الذي يرجى في أجر المال الذي تم إنفاقه في سبيل الله فقال: كما قد نبتت سبع سنابل من حبة وفي كل سنبل مئة حبة فهكذا يجد العبد ثواب حسنة له حتى سبعمئة ضعف في الآخرة، وقد تم توضيح هذا المعنى في الأحاديث كذلك فقد قال النبي ﷺ إن الحسنه يؤتى أجرها من عشرة أضعاف إلى سبعمئة ضعف. ولا شك أن هذا الفرق فيما بين أنواع الأجر وأقذارها سيكون نظراً لنوع العمل وزمنه وأوضاع صاحبه الظاهرية والباطنية فإن قدمت حسنة في أصعب وضع وأضيق وسيلة فسيكون أجرها أكثر وإن قدمت حسنة في أيسر وضع وأوسع وسيلة فسيكون أجرها أقل وزد على هذا أثر أحاسيس المقدم على حسنته فإن قدمت حسنة بكل رغبة وسرور ونشاط وحماس بينما قدمت حسنة بفتور وأداء وظيفة ما فالبدوي أن سيكون هناك فرق بين أجرهما فقد ذكر في الآية معدل الأجر الذي هو على قمة العلو ثم قال "وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ" فهذه إشارة إلى سنة قد أشرنا إليها فلا يخالف كل ما يشاء الله الحكمة والإنصاف فهو يشاء هذا النمو لمن يمثل بما قد وضعه من سننه.

وقد اتضح من "وَسِعَ عَلِيمٌ" أن العبد أولاً يمكن أن يتحير بعدما بقي ضيق باله على سعة الأجر هذه ولكن الله واسع للغاية وثانياً أن كل ما ينفق في سبيل الله قليلاً كان أو كثيراً، صغيراً كان أو كبيراً يعلمه الله فليطمئن كل منهم عن جهة أجره على ما قدمه من الأعمال الحسنة فإذا كانت خزانة المعطي لا يحيط بها حد كما أن علمه يسع كل ما ظهر وما بطن فلا مجال للقلق والاضطراب.

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَتًّا وَلَا أَدَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٧﴾

كلمة "أدى" تستخدم لكل شيء يسبب الوجد والضرر جسدياً كان أم روحياً

والمراد منه هنا ذاك الطعن والتحقير الذي يأتي من قبل السفهاء إلى من قد يحسن إليهم.

فقال إن هذا الأجر العظيم الذي ذكر في الآية السالفة لمن لا يمنّ على من ينفق عليه ولا يؤذيه شيئاً، ويتضح أنّ المنّة والأذى جانبان لمعاملة سيئة؛ فإنّ ينفق سفيه أو ضيع على أحد فيرى أن يكون الممنون عليه شاكراً لإحسانه ورقيقه طول عمره فإن يشعر بأنّ أمنيته هذه لا تكاد تتحقق فيطعن عليه ويحاول تدليله كلما وجد الفرصة لذلك فقال إن مثل هؤلاء المحسنين لا أجر لهم فالأجر كل الأجر لمن يخلو إنفاقه من هذه السيئة.

وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ: فقد أوضحنا في موضع آخر أنّ هذا تعبير عن الجنة فإنّ الجنة مكان لا يخاف شيء عن المستقبل ولا أسف على ما مضى فما عرّف هنا بالجنة بهذه الكلمات يبدو منها بلطافة أنّ المنفقين يستحقون هذه الجنة لأنهم لم يتفكروا فيما أنفقوه في سبيل الله ولا خافوا ماذا سيحدث في المستقبل إذا أصبحوا فقراء بائسين، ونظراً لعزيمتهم تلك فقد زاد الله أجر ما أنفقوا من عشرة أضعاف إلى سبعمئة ضعف ويجعلهم لا خوف عليهم ولا حزن بالنسبة لماضيهم ومستقبلهم.

قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَّدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٣٧﴾

ولو أنّ هنا ذكر محض الأذى ولم يذكر المنّة ولكن المراد، كما يظهر، الأذى والمنّة معاً فالسبب في حذف أحدهما، كما أشرنا من قبل، أنّ هذين جانبان لمعاملة واحدة فالمنّة حيث الأذى كما أنّ الأذى حيث المنّة.

فقال إن كلمة معروفة ومغفرة خير من الصدقة التي يتبعها أذى فقد أرشد القرآن الكريم غير مرة إلى الرد على المتسولين والفقراء بأسلوب حسن والاجتناب عن المعاملة السيئة معهم وقد فصلنا القول عن هذا الإرشاد في الآية الثالثة والثمانين لهذه السورة فإن كان المرء فارغاً عن الحلم مع الغنى فلن يؤدي حق الإنفاق فإن

ينفق فهو ربما لا ينال ثوابه بل يردّ عليه عقابه فمن يعطى المال فهو ربما يولد فيه شعور بالعلوّ وعلى هذا فهو يرى المتسولين والفقراء بنظرة التحقير فإنه ربما ينهر المتسولين كما أنّ معاملة المتسولين ربما تزيد غضب الأغنياء السريعي الغضب. وكذا يصرفون النظر عن الفقراء المحتاجين الأصليين لما أنهم يشكونهم على أساس صحيح أو خاطئ. وتولد هذه المساوى أنّ الأغنياء ربما يمتلكون الأموال ولكنهم لا يمتلكون قدرًا كبيرًا من العفو والمغفرة وعلى هذا فقد ركّز القرآن الكريم على تنمية هذه العادة فيهم حيث أمرهم بالإنفاق فلا ينال الإنفاق بدونه درجة الإحسان ولنقرأ آية من سورة آل عمران حيث قال تعالى "الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُتُوبِ وَالْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ" (١٣).

وما أحيل إلى صفتي "غنيّ" و "حليم" يشتمل أولاً على أن الله يواصل في إنعامه على عباده لأنه غني حليم ولو أنهم يرتكبون ما لا يرضاه تعالى وإن يحرم العباد على مساوئهم فلا يبقى أحد يستحق نعمته عليه وهذا هو الحلم الذي يسبب إنعامه على الصالحين والفاجرين على السواء، وعندما يتصف بما ذكر أنفأ فهو يودّ أن تعكس صفاته تانك على عباده أيضاً أي يجب على الأغنياء أن يكونوا حلماً قدر غناهم.

وكذا هو يشتمل على أنّ الأيدي التي تمتد من داخل أكمال الفقراء لا تكون إلا هي أيدي الله، كما جاء في الحديث القدسي، فليعلم من يحقر تلك الأيدي أنّ الأيدي التي يزدونها هي أيدي من أغناهم فإن يصرف عنهم الله على سوءهم فليعلموا أنّ هذا لأجل حلمه تعالى وإلا فكان الواجب عليهم أن يحرموا كل ما أعطوا من النعم والأفضال.

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ ثُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾

"صفوان" يعني حجرة صلبة أو صخرة صلبة. و"وابل" يعني مطراً غزيراً.

و"صلد" يعني شيئاً صلباً ومصقلاً فالأرض الصلبة أو المكان الصلب ذاك الموضع

الذي لا ينشأ فيه نبات وكذا "رأس صلد" ما لا شعر فيه.

ربما يحدث أنّ التين يتجمّع في صخرة في جبل ثم يبدأ الكفّار يحثرون فيه ظانين أنها خصبة ولكن في معظم الأحيان ينزل المطر الغزير في أعلى سطح الجبل فيجّر التين كله من تلك الصخرة ولا يبقى إلا صخرة لا تين عليها ولا زرع ونسمع أخباراً عن مثل تلك الأحداث في الجرائد والصحف. يسمّى هذا الحدث بـ "Landslide" بالإنجليزية. وفي هذا المثل قدّمت هذه الصورة.

فقال إن من يحسن مرة ثم يمتنّ على من أحسن إليه أو يؤذيه لا تعود صدقته بشيء في الآخرة فيضيع عمله على إيمانه مثلما يضيع عمل من ينفق رثاءً ولا يؤمن بالله وبيوم الآخرة فهذا يوضّح شدة سوء منته وأذاه بأن هذه الأشياء في تضييع إنفاقه مثل الكفر في هذه العملية.

فقد مثّل هذا المرء بفلاح يزرع في أرض على صخرة فلما اشتدّ المطر لم يبق سوى صخرة صلبة فقال: كما ضاع جهد هذا الفلاح البائس فكذلك يضيع أجر من يحسن إلى رجل ثم يمتنّ عليه ويؤذيه فقال إن مثل هؤلاء الرجال يضيعون صدقاتهم كلها فلا يقدرّون على إبقاء شيء منها.

والهدى التي ذكرت في "وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ" هي هدى لها غاية وهدف وقد بيّنا في بداية هذا التفسير أن للهدى أقساماً: ومنها هدى فطرية تعطى كل حيوان وإنسان، ومنها ما يعطيه الله عباده في تدابيرهم ومحاولاتهم وبه ينجحون فيما يحاولون، ومنها ما يتناول المرء عن طريق الأنبياء والشرائع وبها يوفق العبد قبول الحق، ومنها ما يفوز به المرء يوم الآخرة وبه يهتدي العباد إلى نتائج ما قدّموه. وقد استخدمت كلمة "الهدى" في القرآن الكريم لهذه المعاني كلها، وأما هنا فقد استخدمت هذه الكلمة للمعنى النهائي أي من لا يشكر ربه ويكفره لا ينجح في غايته ويخيب في مسعاه.

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ أَبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيئًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٥٥﴾

تَثْبِيئًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ: التثبيت يعني الإحكام والتمكين والإرساء أي بجانب مرضاة الرب يريدون بإنفاقهم أموالهم أن يربّوا بها أنفسهم لكي يثبتوا في الامتثال بأحكام الدين فكان "من" هنا دخلت على مفعول التثبيت.

فكما أريد بالصيام تربية النفس كي يثبت المرء على الوفاء بما يتطلبه التقوى فكذلك الإنفاق تربية يوطّن بها المرء نفسه ويسهل بها سبيله إلى التقرب إلى الله فظهر منه أنّ فائدة الإنفاق الحقيقية ترجع إلى العبد لا إلى الله من جانب ومن جانب آخر أنّ أعلى إنفاق هو ما يتم في زمن السنين وعلى البؤس طردًا حاجياته اللازمة، مما يحبّه من المال ولاسيما على من لا يرضي قلبه من المستحقين وذلك لأن هذا هو الإنفاق الذي تتربى بها النفس على الثبات على الحق فيسهل للمرء التقرب إلى الله قدرما يتمرن على المشي ضد هوى نفسه.

"الربوة" تعني مكانًا عاليًا مرتفعًا فيبدو من تتبعاتها أنّ من خصائصها أن تكون مسوأة وممهّدة فقد ذكر من صفاتها في القرآن "ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ" (سورة المؤمنون: 50) ومنها يبدو أنّ التسوية والعلو من لوازمها وكذا موافقة الجوّ شيء معترف به للأرض العالية والمسوأة وإذا كانت هناك حديقة فكما يزيد لها علو الأرض جمالًا كذلك يصونها من السيل وكذا تسوية الأرض تصونها من فنائها مثل فناء الزرع الذي يكون على صخرة صلدة منحدرية. وزدّ على هذا أنّ موافقة الجوّ تضمن جنبا وإن كان الطقس موافقًا فلا تسئل عن كثرة ثمارها وإن لم يكن موافقًا فأيضًا هي تعطي ثمارها.

هذا مثل يضادّ مثل الطائفة المذكورة أعلاه فهذه الطائفة تنفق المال لمرضاة الله وتربية نفسه فقال إن هؤلاء ليجدنّ أجرهم لأنهم لم يزرعوا في أرض يخاف فيها ضياعه فقد زرعوا في مكان رفيع مسوّ ذي جوّ ملائم فلا يقدر المطر على ضياعه بل

يزيده جنياً على جني وإن لم يمطر فالرذاذ القليل يكفي حصاده لأجل ملائمة الجو.

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ؛ هذا للتسلية والتعزية أي لا يخفى على الله ما يحاول عباده الله الصالحون من الإجهاد لنيل رضى الله ولتربية أنفسهم فهو يرى كلاً منهم فلا يضيع أجرهم وأثرهم ويجزيهم ما لم يخطر ببالهم.

أَيُّدُ أَحَدِكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضِعْفًا فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٣١﴾

جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ: هذه صورة حديقة جيّدة عند العرب فكان العرب يرون عن حديقة جيّدة أن تحيد بها أشجار من النخيل من كل جانب ويتوسطها أشجار الكرم ويتخللها قطعات لحصاد مختلف الفصول، وتكون الحديقة على مرتفع، وتجري فيها الأنهار وتجري جداولها في الحديقة، وقد صوّر القرآن الحديقة في مكان آخر فقال "جَعَلْنَا لَّأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِّنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴿٣٢﴾ كَلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٣﴾". (سورة الكهف) فبدا من هذا أن الحديقة كانت يحاط بها من أشجار النخيل لكي ينالوا منها الأثمار كما هي تصونها من شدة الحرارة ولفحها وسرعة الرياح وشدة الشمس بجانب زيادتها جمالاً وثم يتخللها أشجار الكرم وغيرها من الأشجار كما يزرع فيها فصول مختلفة حسب الطقوس، واليه الإشارة في قوله تعالى "لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ" وقد قمنا في مكان آخر بتوضيح أن الثمرات لا تعني الأثمار فحسب بل هي تعني أنواعاً من الغلات.

إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ: الإعصار بلغتنا "گردباد" و"بگولا" وأما ذكر النار معه فهي ليست هذه النار بل هي لفح السموم الذي ربما يوجد في الإعصار وهو يحترق كل حديقة تقابله.

وقد ذكر أنفاً مثل من يضيع إنفاقه بالرياء والمنة والأذى، وهذا المثل توضيح مزيد

لذلك المثل فقال فيه إن أرباب الحديقة سيتحسرون على ضياع حديقته حينما يحتاجون إليها ولكن لا يجدون أي باب للمسعاة مفتوحاً لهم.

هذا المثل لمن زرع جنة من أعناب ونخيل كانت تجري من تحتها الأنهار التي كانت تضمن خصبتها، وكذا كانت هناك أثمار متنوعة فيها كما كانت بها غلات مختلفة وكان قد أصبح صاحبها مسنّاً وكانت أولاده صغاراً ومن خلال تلك الفترة مرّ لفح من السموم بتلك الجنة فتخرّبت الجنة كلها. فقال: إن مثل هذه الصورة سيمرّ بها في يوم الآخرة من لا يصون إنفاقه من آفة التخريب فهو يخفي الرعد في داخله لكوخه وهو سيبرز حينما لا يجد وقتاً للعودة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٩٠﴾

من طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ: كلمة "طيّبات" تظهر أمرين معاً أحدهما أن ينفقوا مما اكتسبوه ما كان طيباً غير فاسد وثانيهما أن يكون المال جيداً لا رديئاً فلا يرضي المال الحرام ولا الجيد منه الله ولا يربّي النفس، الأمر الذي ذكر بكلمة "التثبيت".

وذكر "وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ" على حدة يدلّ على أنّ المال من "مما كَسَبْتُمْ" يتعلق بالتجارة وطرقها وأما ذكر ما تخرج لهم الأرض على حدة فذلك لأنّ زكوة هذه الأموال مختلفة مما للتجارة.

وفي "وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ" تأكيد شديد على الاجتناب عن المال الحرام والردئ وهذا مثل "لا تقربوا" أي لا تقربوا من شيء كذا وكذا ففقرة "لَا تَيَمَّمُوا" تعني أن لا يخطر ببالكم أن تنفقوا مما هو خبيث من المال ثم أوضح ما هو المراد من خبيث المال فقال إنه هو المال الذي ترضون عن صرفه في سبيل الله ولكن لا ترضون عن أخذه إذا أعطيتكم فالشيء الذي لا يحب المرء أن يأخذه لا يسوغ له أن يعطيه في سبيل من أعطاه كل ما هو يمتلكه هو فلا يربّي هذا المال لمرضاة الله والتقرب منه بل يغضبه ويبعده عنه تعالى.

أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ: أي الله لا يحتاج إلى مال أحد وصدفته. وإذا أحب أن ينفق الناس في سبيله فهذا ليس أنه يحتاج إليه بل هو يريد امتحانهم أن كيف يعيدون ما أعطاه إياهم من المال إذا سأل منهم وثم ضمّ صفة "حَمِيدٌ" إلى "غَنِيٌّ" فالحميد يعني من هو مصدر لكل أنواع من الحمد والشكر أي أنه جدير بأن يحمده الناس كلهم كما هو غني عن أموالهم، إن ينبوع فضله لا تنقطع سلسلته والتي يستفيد منها كل قريب وبعيد، صالح وفاجر.

الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٦﴾

الفحشاء هي ذنب كبير شنيع وقد عبّر بها القرآن الكريم عن الجرائم الشنيعة مثل الزنا واللواط والعري، وكذا تستخدم كلمة الأمر للمشورة كما هي تستخدم للحكم وقد بيّنا تحقيقها في مكان آخر.

هذه إشارة إلى تلك العراقيل التي تحجز سبيل الإنفاق من قبل الشيطان وذريته. فحينما يريد المرء أن ينفق في سبيل الخير فيحاول الشيطان وعملاؤه أن يصدّوه عن ذلك عن طريقتين: إحداهما أنهم يخوّفونه عن أخطار المستقبل الموهومة بأن كذا وكذا من الخطوب تتصدّره فينبغي له أن لا ينفق الأموال فيه وإلا فسيقع في المشاكل. وأخرهما أنهم يوقعونه في العادات السيئة مثل اللهو بالعداري وشرب الخمر ورؤية الأفلام والإسراف والتبذير لكيلا تتسع له الأموال التي سينفقها في غير هذا من مجالات الخير ففتنة الشيطان أشدّ وأصعب فمن يقع فيها فيخوض في سكره إلى حدّ لا يبقى صالحاً لأداء حقوق الله وحقوق عباده ولذا فقد منع المرء عن الوقوع في فتنة الشيطان هذه كما أمر بالإنفاق في سبيل الله فقد جاء في سورة الإسراء:

"وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾".

وقد ذكر نفس المعنى في نفس السياق في الآيتين (134 و135) من سورة آل عمران. **وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**: فالمغفرة هنا تقابل الفحشاء، والفضل يقابل الفقر أي الشيطان يهديكم إلى التبذير في سبيل هوى النفس والهوى بالعذارى بدلاً من الإنفاق في سبيل الله لكي يجركم إلى النار مباشرة ولكن الله يهديكم إلى الإنفاق في سبيله فيدعوكم إلى المغفرة والجنة وكذا يعدكم الشيطان عن الفقر فيمنعكم عن الإنفاق ولكن الله يعدكم عن ما لا يحصى من أفضاله ونعمه في الدنيا والآخرة فإن الله واسع وعليم بما تعملون فلا هو يضيق خاطره عن عطائكم ولا هو جاهل عما تقدّمونه في سبيله.

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ٣٦

وقد قمنا بتحقيق كلمة "الحكمة" تحت الآية الحادية والخمسين بعد المئة لهذه السورة فإعادته هنا لا يخلو من التطويل إلا نتذكر أن روحه إحكام الإيمان والعمل الذي يبني على بصيرة راسخة فمن يتمتع بها فهو لا يقتني لذة الدنيا الفانية بل يدّخر للآخرة فلا يخاف مما يعده الشيطان بل يثق بما يعده ربه تعالى ولا يجمع خبائث الدنيا بل يطلب في مكانها الحكمة التي هي خير كثير وشيء كبير. وهي خير مما في الأرض من ذخائرها ويعطيها الله من يشاء أي من يستحقها فإن مشيئة الله لا تخلو من الحكمة فهذا من سننه أن لا يهيم بلذات هذه الدنيا الفانية وينفق أمواله لنيل مغفرة الله وفضله فهو يحشو قلبه من الحكمة جزاء لما فعل.

ثم قال في النهاية إن هذا لا يفهمه كل جاء وأت فلا يفهمه إلا العاقلون أي من حجاه منورة من نور الحكمة فهو يترك لذات هذه الدنيا ويصرف أمواله للنجاح في عالم لم يره فلا يناله إلا من هو حكيم.

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ ثَقَفَةٍ أَوْ نَذْرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ٣٧

النذر يعني أن يعد الإنسان أنه يعبد على قدر معلوم أو يصوم أو ينفق المبلغ المحدد من الأموال إذا تم ما يتمناه. والإسلام، كما يبدو من الأحاديث، لا يؤيد

النذر ولكن إذا نذر أحدٌ ولا يوجد فيه جانب غير شرعي فالواجب الوفاء بما نذر وذلك لأنَّ هذا نوع من العهود التي يعقدها الناذر مع ربه والعهد يجب الوفاء به صغيراً كان أو كبيراً إذا لم تكن تخالفه الشريعة فإن الله سيسأل عن كل عهد صغيراً كان أو كبيراً، وسنخبركم في سورة المائدة أنَّ الشريعة كلها والأخلاق كلها مبنية على العهد ولذلك فلم يصبر الإسلام على أي نوع من الفتور فيه.

فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ: هذه الفقرة مثل الرد على الشرط أي من ينفق في سبيل الله أو ينذر له نذراً فليثق بأنَّ الله يعلم كلَّ ما ينفقه أو ينذر له من نذر والمراد من "يعلم" أنه يجزيه حسبما فعل العبد، وهذا أسلوب عام للعربية والقرآن الكريم.

وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ: المراد من الظالم من هو يظلم نفسه أي أنهم إما عبدوا ثروة الدنيا فلا ينفقون في سبيل الله أو إذا أنفقوا فيضيعون ما ينفقونه بالرياء والمنة والأذى فقال إن مثل هؤلاء الرجال أشقياء حظاً لأنهم لا يتكلمون على الإنفاق والأثرة وفضل الله ورحمته بل على أموالهم وآلهتهم الكاذبة فهم يتكلمون عليهم والجال أن لا يظهر لهم عند الله.

إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْثَرُهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٧١﴾

ولأنَّ الحديث هنا عن الخيرات والصدقات العامة فلم ترد بها الصدقات الواجبة التي تعطى علناً فالسؤال ينشأ هنا: هل تخرج هي سرّاً أو علناً فردّ عليه القرآن الكريم بأنه لو أعلن بها لكان أيضاً خيراً وذلك لأنَّ لعلها فوائد منها أنها ترغّب الآخرين في الإنفاق لاسيما حينما أريد بها الحثّ العام والتشويق الجمهوري، ولكنه إذا لم تكن الحال كما سلف فالأفضل أن تعطوها سرّاً لكي تحفظوا عن فتنة الرياء ولا يمسّ غيرة الفقراء الغيورين شيء من الهتك. وهنا عطف "يُكَفِّرُ عَنْكُمْ" على معنى "فهو خير لكم" أي أن هذا الإنفاق السري سيعود عليكم بأجره المضاعف ويكفر عنكم سيئاتكم كذلك ثم قال إن قضية الإعلان أو الإخفاء هي

بالنسبة لكم فلا يخفى شيء على الله فما تفعلونه من خير أو شر وحيثما تفعلون ومع من تفعلونه كل شيء معلوم لله العليم الخبير.

لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا نَفْسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٣٧﴾

لا توجد في هذه الآية كلمة ما تحتاج إلى مزيد من التحقيق سوى أسلوب "وَمَا تُنْفِقُونَ" --- الذي يقلق القراء قليلاً فيخيلني أن هذا أسلوب خبري يطوي معنى الإنشاء. وقد عمّ هذا الأسلوب باللغة العربية كما توجد أمثلة عليه في القرآن الكريم بحيث أن الأمر والنهي يأتي بأسلوب الخبر في مثل هذه المواقع التي يلقن المخاطب شيئاً بأسلوب ملؤه الشفقة والعناية الخاصة، وقد لاحظته في أثناء الترجمة، واختار هذا الرأي بعض من السلف. ولكني لا اقتنع به تماماً وقد أشرت إليه لكي يتفكر العلماء والباحثون.

فإن تفكرتم في الآية الكاملة علمتم أنه قد التفت فيها الخطاب إلى النبي ﷺ كما خوطب المسلمون عامة.

فقد خوطب النبي وذكر له السنة التي قد قررها الله تعالى في أمر الهدى والضلالة والتي قد جاء ذكرها في هذه السورة غير مرة كما هي ذكرت في غير هذا من مواضع القرآن الكريم بأساليب مختلفة. وتلك السنة هي أن الأنبياء مسؤولون عن هداية الناس إلى أن يخبروهم بشريعة الله جيداً فإن أدوا هذه المسؤولية فقد برأوا عن ذمتهم فليس عليهم أن يجبروهم على قبولها الذي يوفقهم الله، والحال أن الله لا يوفق إلا من يشاء، وعند الله سنة لمن يشاء، قد قمنا بتوضيحها في الآيات (256-260).

والهدف من وراء الإشارة إلى سنة الله تلك هو أن ما كان يتعلق من الأمور عن الإنفاق قد قام النبي بتفصيلها وهذا هو واجبه الذي قد أذاه هو. والآن تأتي نوبة الناس هل هم يقبلونها أم لا فلا تبخع نفسك لهذا فإن لم يقدرها الناس فسيلقونهم أنفسهم عاقبتها.

ثم خاطب المسلمين ونهّهم أخيراً على أن ما تنفقونه من المال في سبيل الله لا تظنوه مما تنفقون على غيركم بل تجمعونه لكم أنفسكم وهو سيعود عليكم من عشرة أضعاف إلى سبعمئة ضعف ولا يشترط فيه إلا أن تنفقوه لمرضاة الله ولا غير فما تنفقونه لمرضاة الله سيعود عليكم تمامًا ولا ينقص منه شيء.

لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٣٩﴾

والمبتدأ محذوف قبل "لِلْفُقَرَاءِ" أي الصدقة أو الإنفاق الذي تدعون إليه هو للفقراء الذين صفاتهم كما يلي. والسبب في حذف المبتدأ هو أولاً أن القرينة تدل على هذا، وثانياً أنه إشارة بليغة إلى إخفاء الصدقة فكأن الآية ولو أشارت إلى المحتاجين بالأصابع ولكن الهدف وراء هذه الإشارة قد ترك إدراكه للحضور وهكذا فقد روعيت فيها غيرة الفقراء بجانب إخفاء الصدقة، الأمر الذي قد أشرنا إليه من قبل.

أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ: أي أن هدفاً دينياً قد منعهم جهد الاكتساب فهؤلاء لا يقدرون على الرحلة إلى البلاد لأجل التجارة فـ"ضرب في الأرض" يعني السفر فقال تعالى مثلاً "وَأَخْرَجُوا يَصْرِيحًا فِي الْأَرْضِ ابْتَغُوا مِنَ فَضْلِ اللَّهِ" (سورة المزمل: 20).

يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ: فالجاهل هنا يعني "من لا يعلم" و"التعفف" يعني الغيرة أي أنهم لا يمدون أيديهم للسؤال أمام أحد لأجل الغيرة ولا يعلنون عن فقرهم وفاقهم ولذا فمن لا يعرف عن حالتهم فهو يظنهم أغنياء.

تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا: السیما تعني الآية والهيئة كما قال تعالى "سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ" (سورة الفتح: 29).

الإلحاف يعني السؤال بإصرار ففي "لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا" نفي عن السؤال

وأما "إِلْحَاقًا" فقد ألحق بهذه لمجرد تصوير السائلين العامة وشناعتها فمثلاً قال تعالى "وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ حَسْبِيَ إِمْلَاقٌ" (سورة الإسراء: 32) فقد منع فيها عن القتل وأما إضافة "حَسْبِيَ إِمْلَاقٌ" فهي لإظهار شناعة هذا العمل أو كما قال تعالى "لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بَغْوَ" (سورة آل عمران: 130) فقد منع هنا عن أكل الربا وأما زيادة "أَضْعَفًا مَضْعَفَةً" فهي لمجرد إبراز كراهة هذا العمل أو كما قال "وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنَّ أَرْدَنَ تَحَصُّنًا" (سورة النور: 33) وفي هذه الآية أيضاً أريد نفس المنع وأما ضم "إِنَّ أَرْدَنَ تَحَصُّنًا" فهو أيضاً جاء لمجرد بيان شناعة هذا العمل.

وكذا في "لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا" منع عن السؤال وأما زيادة "إِلْحَاقًا" فهي جاءت لمجرد بيان حالة المتسولين العامة فلو أنهم لا يسألون الناس لغيرتهم فلا ينبغي للناس أن يظنّوهم أغنياء بل يجب على المنفقين أن يبحثوا عنهم والوسيلة الوحيدة لمعرفةهم هي وجوههم المغبرة.

وأصدق مثال لهذه الآية حين نزول القرآن كان أصحاب الصفة وما ذكر في الأحاديث من صفاتهم يظهر منها جلياً أنهم كانوا يصدقون ما ذكر القرآن من صفات الفقراء الغيورين. وكذا ذكر القرآن من خلال هذه الآيات من نماذج الفقراء المؤمنين ما يجدر بأن يتبع كما أشار إلى الطريقة التي ينبغي للأغنياء المؤمنين أن يمارسوها مع أمثال هؤلاء الفقراء الغيورين. فليز فقراء اليوم وأغنياءهم صورهم في ضوء هذه المرأة التي قدّمها القرآن الكريم.

ثم قال في النهاية أنّ ما تنفقونه سرّاً من الأموال على مثل هؤلاء الفقراء الغيورين لا يخفى على الله ولو أنه يختفي على الناس فالله يجزيكم خيراً لما فعلتم.

الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْأَيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٧٦﴾

وينبغي لنا أن لا ننسى هنا ما يوجد من التقابل والمناسبة بين الليل والنهار، الخفي وغير الخفي فقد أحيط بالأوقات كما أحيط بالأحوال وكذا ما ينبغي للمؤمنين من الحماس للإنفاق يتدفق بنفسه من أسلوب الحديث وأضف إلى ذلك ما يوجد من الأجر للمنفقين عند الله قد وُضِحَ جيداً فهذه الآية هي الختام المسك لمبحث الإنفاق.

86- تفسير الآيات (275-283)

وبعد ذكر الإنفاق يأتي بيان حرمة الربا ولأن الربا تتعلق بالقرض فقد ذكرت إرشادات هامة متعلقة بالإقراض وسدّ القرض وكذا يتعلق الرهن بهذا الشأن فقد بين حكمه أيضاً.

ولا شك عن الربا في أنها ضدّ للإنفاق فالإنفاق دافعه علوّ الهمة والعطف والسخاء والأثرة والرحمة بينما الربا دافعها فتور الهمة وحبّ الذات وعدم الرحمة والانتهازية فالإنفاق يودّ أن يواسي المحتاجين بينما الربا تريد أن تقتلهم فبعضهما ضدّ للآخر وهذا من أصول الفطرة أن الشيء يعرف بضده. ونظراً لهذا الأصل فقد اعتنى القرآن الكريم بذكر ضدّ الشيء الذي يريد توضيحه فمثلاً يذكر الكفار إذا أراد ذكر المؤمنين، وجنهم مع الجنة حتى أنه أصبح خصوصية لنظم القرآن، ونظراً لهذه الخصوصية فقد أكثر القرآن الكريم ذكر البخل أو الربا مع الإنفاق فالربا هنا ذكرت ضدّاً للإنفاق. وفي الآية 127 لسورة آل عمران جاء ذكرها قبل الإنفاق ولكن الهدف من ورائه واحد فظلمة الأول تكشف عن نور الآخر وجمال الأول يكشف عن قباحة الآخر. وعن طريق نظم الكلام هذا تتجلى جوانب للحكمة لن تتضح عن طريق آخر. والآن اتل الآيات في ضوء هذا المدخل:

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ

ءَامِنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَالْكُتْبَةُ وَلْيَكُتَبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكُتَبْ وَلِيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلِيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمْلَئَ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِّن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَفْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ وَإِن كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنِ مَقْبُوضَةً فَإِن أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ وَلِيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاتِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾

87- تحقيق الكلمات وتوضيح الآيات

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانْتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٨٤﴾

ربا يربو رباء: نما وازداد ومنه ربا وهي تعني زيادة محدّدة يتناولها المقرض من

المقرض مجرد أنه يمهل له الزمن محدّد، وقد عرف هذا المصطلح لهذا المعنى في الجاهلية والإسلام على السواء ولكنه يعني أنّ المقرض يتناول مالا أكثر مما أقرضه لمجرد أنه قد أمهله لمدة معيّنة وهذا لا يعني أنّ هذا القرض قد أعطي غنياً أو فقيراً وكذا لا يعني أنّ هذا القرض قد أعطي لتجهيز وتكفين ميت أو لمشروع رفاهي أو مشروع فردي أو اجتماعي لتجارة وزراعة وصناعة فما اشتهر في الجاهلية والإسلام من معنى هذا الاصطلاح لم يتغير حتى الآن فمن يرى أنّ تغير حالة المقرض يغيّر في صورة الربا فهو مخطئ في رأيه فسترى فيما يأتي أنّ كلمات القرآن ذاتها تفنّد هذا الرأي العام.

التخبط من خبط الليل وهو الضلال في ظلمة الليل فخابط الليل من لا يظن ليمينه ولا لشماله وهو يهيم في الوادي بدون وعي ولا هدف. ومن هنا يخبط خبط عشواء لمن لا يهتدي السبيل وهو يهيم في الوادي مثل ناقه عمياء. وكذا تخبطه الشيطان يعني "مسّه الشيطان بخبل أو جنون".

مسّه يمسّ: مسحه وهو ربما يستخدم لإصابة أحد بالأذى والآفة والحزن وقد ترجمناها بـ"جهوت" في لغتنا وهي تؤدّي المعنى لفظاً ومعنى. والواقع أنّ ما يحدث في هذا العالم لا يحدث إلا بإذن الله تعالى ولكن الأشغال التي أمهل لها الشيطان تعزى إليه في بعض الأحيان كما جاء في دعاء أيوب عليه السلام "أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ" (سورة ص 41) وأما العباد الصالحون فلا يؤثر فيهم الأرواح الخبيثة إلا أن يصيبهم أذى أو بلاء ولكن من أرواحهم خبيثة وأن قلوبهم بأيدي الشيطان يسيطر الشيطان على قلوبهم وعقولهم في بعض الأحيان وهم يهيمون في الوديان مثل المجانين ممزّقين ملابسهم وجيوبهم، ولاطمين وجوههم ومغبرّين وشعثاً.

وقد قرأتم من قبل عن المنفقين أنّ الله يربّهم ويرسخهم في العلم والعمل كليهما ويوقّقهم العزيمة ويباركهم في إنفاقهم وينصرهم في الخروج من الظلمات إلى النور ويعطيهم خزينة لا تفتى للحكمة وفوق ذلك أنه سيوفقهم السرور الأبدي المعبر

عنه بـ"لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ".

والآن يأتي بيان من يضادهم أي من يأكل الربوا فقال فيهم إنهم يقومون يوم القيامة كما يقوم الذي خبطه الشيطان بالمس ولم يتم بتوضيح هذا المثل وذلك لأن إيجازه يكفي تفهيمًا للحديث كما ذكر في القرآن الكريم تشبيهه "رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ" الذي تلمح كلماته عن الخوف والضرر وكذا فكللمات "يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ" تقدّم صورة الوحشة وشعث البال التي لا تحتاج إلى توضيح مزيد.

ثم قال إنهم يرون هكذا لأنهم كانوا يعترضون على تحريم الربوا فكانوا يقولون إن البيع مثل الربوا فلم شرع البيع وحرمت الربوا؟ ولأن هذا الاعتراض لا يثيره إلا من قد تخبطه الشيطان من المس وهو مجنون لا عقل له ولا حجة فهذا الرجل المعترض سيقوم يوم القيامة مثل المجنون نظرًا للتشابه بين العمل وجزائه المذكور في قوله تعالى "وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا" (سورة الإسراء).

وهنا أشار إلى قولهم ثم صرف الذكر عنه ولم يتم بترديده وذلك لأن لغو هذا الحديث واضح إلى حد لا يحتاج إلى أي ترديد من الله تعالى فلا يقول هذا إلا من قد جنّ جنونه ولا حاجة إلى ترديد قول المجنون. وقد ذهب عامة المفسرين إلى أن جملة "وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا" ترديد على هذا القول ولذا فقد قاموا بتأويله كما فهموها. ولو أن هذا الحديث له محلّ وموقع لأنّ تحريم شيء أو إحلاله من قبل الله تعالى دليل قوي على أنه حرام أو حلال لدى العقل والفطرة، المعيشة والمعاد ولكن هذا الدليل لا يفيد إلا المؤمن فلا يفيد المنكر قليلاً وعلى هذا فيتخيّل إلى مرارًا وتكرارًا أنّ هذه الجملة ليست بمفصولة عن الأصل بل هي متصلة بـ"قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا" فقالوا إن البيع مثل الربوا فلم لا يستفيد المقرض من المقرض كما يستفيد التاجر من سلعه فلم حرّم الله الربوا وأحلّ البيع؟ ولو أنّ هذه الجملة ليست في صورة سؤال ولكن ما يختفي وراءها لا يقلّ شيئاً عن السؤال أو الاعتراض.

فقد اتضح من هذا الاعتراض أنّ من يعترض على حلّة البيع وحرمة الربوا ليس ببديع بل قد رسا أصله في القدم. ولم يعبأ القرآن بهذه الفكرة كما أشرنا إليه وذلك لأن هذه باطلة بداهةً ودليل على جنون عقل المعترض فيستثمر تاجر سلعه في شيء يحتاج إليه الناس وهو يجتهد، ويتأذى ويتعرض للخطر فيبلغها لمن لا يقدر على أن ينالها بجهودهم الشخصية وإن قدروا على الحصول عليها فيجب عليهم أن ينفقوا أكثر مما يتطلبه التاجر منهم من المال ثم يقدم التاجر سلعه في أسواق عامة ويواجه ما علا من الثمن وما بخس فيمكن أن يلقي الإفلاس فيها أو ينتفع بها وهكذا لا يمكن له أن ينتفع من روبية يستثمرها في الأسواق وعسى أن تعود عليه تلك الروبية بصفر من الفائدة وهكذا فهو يخدم المجتمع ولا ينال شيئاً من المنافع والفوائد.

والآن بيدكم الحكم فهل رأسمال تاجر خادم، وغيور وشجاعان يبلغه رأسمال أكل الربوا عدو الإنسانية، وفاقد الغيرة، وجبان، وقاسي القلب لا يتعرض للأخطار بل يطلب كل نوع من المنافع فرأسمال الأكل الربوا يبدو في صورتين وفي كليهما جبان وقاسي فإحدهما أنّ من يتجر بالربوا يبدو كتاجر محلي وبائنا ويهودي ولا مجال لأحد أن ينكر وحشتهم في هذه الصورة وذلك لأنّ تاجرًا محليًا أو بائنا كلما يوقع أحداً في شبكته لا يتركه في الميعاد فيأتيه ويأخذ منه قدر ما عيّنه من المال وربما يكون أنّ رأس مال هذا التاجر لا يبقى كما هو بل يكون أضعافاً مضاعفة حتى يأخذ كل ما يمتلكه المقرض من أثاث بيته وبنيه وزوجته فهل تاجر عادي يقدر على أن يمارس هذا القدر من الظلم مع أحد؟ كلما يقدر عليه من النفع هو أن يبيع شيئاً لروبية بروبية ونصف أو روبيتين ولا غير.

والصورة الأخرى لمن يأكل الربوا أنّ ما يفعله باسم الأشغال الرفاهية والمشروعات الاجتماعية والخطط الوطنية وفي زماننا هذا يراه كثير من الساذجين معصوماً عن الخطأ ولكن كلما تفكرنا وجدنا أنّ جبنه وحبّ ذاته يوجدان في صورته هذه كما كانت في صورته تلك ولنفهم هذا بمثال؛ هب أنّ الحكومة تريد أن تخطط مشروعاً ضخماً لتنجية إحدى مناطقها من السيل العظيم أو من خطر كبير للغاية وتأخذ له قرضاً

بنسبة خمس روبيات أو سبع في المئة من الشعب فيمكن أن يضيق مشروع الحكومة بعد أن صرفت عشرات ملايين من الروبيات، لآفة سماوية والآن انظر أن الوطن كله قد أصابه خسران كبير ولكن الأكل الربوا الذين أقرضوه لا يحفظ رأس مالهم فحسب بل يزداد يومًا فيومًا على معدل خاص فهل هذه خدمة وطنية أم ظلم على الوطن وأهاليه فإن تفكروا تجدوا أنه لا فرق بين هذه الصورة وتلك الصورة ففي كلتا الصورتين يحفظ رأس المال ويواجه عقابه من قد تناول الدين.

وبالعكس من ذلك فرأس مال تاجر يتعرض للخطر قبل أن يخدم الوطن وشعبه فإن أصابه خسران لرفع السوق وخفضها ولتغير الظروف فهو يصير عليه وهو لا يتخيل لدقيقة أنه يكمن في مكان ويستدرّ نفعه من الشعب ولو وافقه الظروف فلا يبلغ نفعها إلا قدر ما تعينه السوق وهكذا كل ما يتناوله هو من المنافع يكون مما اجتهد له وأجهد نفسه وراءه وعلى هذا فقد عبّر الله تعالى عن نفع التاجر بفضله كما عبّر عن رأس مال التاجر الأكل الربوا بفحل يتشعب من حمى غيره كما سنوضحه حين تفسير سورة الروم.

فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنَ رَبِّهِ فَلْيُصَرِّحْ بِهَا لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ مُنِيبًا (سورة النور: 24) الموعظة يغلبها جانب الزجر والتنبيه ولذا فقد ترجمتها بـ"تنبيه" نظرًا لروحها ولكونها مؤنثة غير حقيقية فقد استخدم لها فعل مذكر طبقًا لمعنى اللفظ، وأما زيادة "مَنْ رَبَّهِ" فقد جاءت مؤكدة عليها أي أنّ هذا التنبيه ليس بشيء تافه بل جاء من قبل ربّ ومالك العالمين فلا ينبغي لهم أن يضعوه وراء ظهورهم. "فَلَهُ مَا سَلَفَ" أي من امتنع عن أكل الربوا بعد هذا التنبيه فلا يسأل عما سلف من أكل الربوا فإن نقذ هذا القانون فيما مضى لحدثت صعوبات لا يمكن تيسيرها ولكنه قال مع ذلك "وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ" أي لا تسأله الحكومة الإسلامية عما فعل في السابق من أكل الربوا ولكن هذا لا يعني أنه قد غفر له من قبل الله تعالى فأمره مفوض إلى الله فإن المغفرة عن شيء لا تعني أنّ أحدًا تركه بل يجب عليه أن يكره من أعماق قلبه. وهذا يعني أنهم لا ينبغي لهم أن يكونوا غير مباليين

عن الآخرة بل يجب عليهم أن يسدّوا نقص ما مضى قدرما أمكن له فإنّ ما ارتكبه يتعلق بالناس. وحقوق العباد لها أهمية كبرى عند الله تعالى.

وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ: أي من يعامل بالربوا بعد هذا التنبيه فهو داخل في النار وخالد فيها. والسبب في خلود أمثالهم في النار أنهم لا يرضون عن الامتثال بأمر الله هذا فإن اعتدى المرء على ما أمره الله به تحت ضغط العاطفة فالتوبة ستزيله وكذا يمكن أن يغفر عنه الله بعدما لم يتب أو يعتبه قدرما أخطأ ولكن كلما يصبر المرء على فعل الشر بعد تنبيه واضح للغاية فهذا يعني أنه ينكر ما يأمره الله به، وإن يدّع بإيمانه على ذلك فإنه ليس بإيمان خالص بل هو إيمان يملؤه النفاق. وهذا لا يخفى على الله الذي يعلم ما تكتنه القلوب فيعامل معهم معاملة يستحقونها أي سيدخلهم في النار خالدين فيها، العذاب الذي قد أعدّ للكفار والمنافقين.

ولنعلم أنّ هناك فرقاً بين ارتكاب جريمة وإصرار المرء عليها فالجريمة التي سيطت من دم المرء لا تؤثر في جانب من جوانب حياته بل تحيط بكل جانب لحياته فكل من ظاهره وباطنه، عقيدته وعمله، إيمانه وإسلامه يتأثر بها وقد عبّر القرآن الكريم عن هذه الحالة بـ"الإحاطة" وقال فهم إنهم يخلدون في النار فقال مثلاً "يَلَّ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" (سورة البقرة).

يَمْحَقُ اللَّهُ الْرِبَا وَرِبَايَ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾

المحق هو النقص والمحو ومنه "محق الله الشيء" أي محا الله بركته والإبراء هو التنمية والزيادة.

إنّ أكل الربوا يزعم أنّ الربوا تزيد في أمواله بينما الصدقة تنقص منها ولكن الواقع خلاف ذلك فالله ينقص من الربوا ويربي الصدقات، ولكن هذا النقص والزيادة

ليسا بالنسبة لميزان العالم المحدد بل طبقاً لحياة الدنيا والآخرة كليهما فلما تبرز الآخرة فسيرى أكل الربوا أنّ بنك الآخرة يخلو من أمواله ولو أنّ بنك الدنيا كان مليئاً بها فلا يجد سوى الندامة والتحسر وبالعكس من ذلك فلما يفتح المنفق في سبيل الله عينه في الآخرة فسيرى أنّ ما أنفقه من أموال فانية ظهرت هنا في صورة جبال من الجواهر. وقد أوضح القرآن الكريم هذه الحقيقة في موضع آخر منه فقال "وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لَّيْرَبُّوا۟ فِي۟ أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُّو۟ا۟ عِنۢدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضَعِفُونَ ﴿٢٨﴾" (سورة الروم).

وتؤيده الأحاديث النبوية فقد جاء في حديث كما يلي:

"حدّثنا القاسم بن محمّد قال سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله "إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه، فيربّيها لأحدكم كما يربّي أحدكم مهره، حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد ---". (جامع الترمذي، الزكوة: 82)

ولو أنّ رأسمال الربوا لا يتبارك في هذه الدنيا ولكن الآية تتعلق بما سيظهر في الآخرة من ثمراتها ونتائجها.

الكافر هنا يعني كافر النعمة والأثيم، كما قد أوضحناه في موضع آخر، سالب حقوق الآخرين. فهذه الجملة توضّح السبب في إحباط مال الأكل الربوا بيد الله فقال إنه لا يشكر الله ويتلف حقوق العباد والله لن يجعل من أوليائه من لا يشكره ولا يؤدي حقوق عبادته فإن يعط الله أحداً مالاً أكثر من حاجته فلا يعطيه إلا ليشكره وأن يحسن إلى عبادته كما أحسن الله إليه ولكن حينما يعبد المال بعدما ظفر به ولا يدعّم غيره بل يسلب أموالهم ولا يؤدي حقوقهم فآنذاك يستحق مثل هذا الرجل القاسي الكافر للنعمة أن يرجع ماله إليه خسراناً له يوم القيامة ولا يعود إليه إلا حرماناً وحسرة.

ثم ذكر عظيم أجر المؤمنين وضخيم ثوابهم وتدل القرينة على أن هناك إشارة إلى المؤمنين الذين قد أشارت الآية الماضية إلى البركة في صدقاتهم، وقد مضى شرح

كافة أجزاء هذه الآية في مختلف مواضع القرآن فلا نرى إعادته هنا.

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

وفي هذه الآية خوطب المؤمنون مباشرة أرشدوا إلى الخوف من الله والتخلي عما بقي من الربوا لدى المقرضين وثم اعتبر هذا العمل من مستلزمات الإيمان. والآيات التي نزلت من قبل عن الربوا لم تكن إلا كنصيحة وموعظة وكانت مبنية على أنها لم تنزل تعتبر شيئاً حراماً ومكروهاً لدى كافة الأديان السماوية ومعروف العالم ولم يكن العرب جاهلين عن هذا الواقع وعلى هذا فقد بدأ القرآن الكريم يوضح كونه ظلماً على الناس في العهد المكي وعن هذه الجهة قد ذكرت هي في سورة الروم وهي سورة مكية ولكن لكونها فساداً اقتصادياً واسعاً نطاقه والذي لن يمكن إصلاحه إلا أن يكون نظام الدولة كله تحت الشريعة الإسلامية فقد قضى عليها بمناسبة حجة الوداع. وهكذا نزلت هذه الآيات بتلك المناسبة ثم وضعت هنا نظراً لتشابه المعاني.

فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٧٩﴾

هذه الآية كالإبلاغ النهائي أي من لم يمثل بهذا الأمر فليستعدوا لمواجهة الحرب من قبل الله ورسوله فما تطويه هذه الآيات من الأسلوب يشبهه أسلوب النبي ﷺ عن الربوا في خطبته يوم حجة الوداع، الأمر الذي يوحي إلى زمن نزول هذه الآيات، وقد صرحت هذه الآية أنّ من يتجر بالربوا هو مثل الباغي والمفسد في الدولة الإسلامية، الذي يقام عوده بالجيش إذا مسّت الحاجة إليه. وسنفضّل الحديث عنه في سورة المائدة إن شاء الله تعالى.

وبعد هذا البلاغ النهائي لم يشرع لمن يتجر بالربوا إلا أن يعيدوا رأسمالهم من المقرضين ولا يجوز لهم أن يزيدوا فيه شيئاً بالمكر كما لا يجوز للمقرضين أن لا يعيدوا رأسمالهم مسيئين استخدام هذه الرخصة. وقد احتيج إلى هذا التنبيه لأنه

كلما حدث إصلاح اجتماعي واقتصادي مهم وقعت ضجة وفوضى في الطبقات التي تتأثر به فمن يخاف الخسران منه يختار تدابير خفية يسد بها نقصه ومن يرجو النفع منه يتجاوز الحدود في الانتفاع مما تشرع لهم الحكومة. ولمنع هذا الاضطراب والصراع قد أعد القرآن الكريم أذهان الناس لقبوله من قبل كما اتضح آنفاً. ولما نزل الأمر النهائي فقال لكل من الحضور "لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ". وهذا من بركة هذا الإرشاد أن هذا الإصلاح الاقتصادي المهم قد وقع بدون أي صراع طبقي فلا طراً على المقرضين مصيبة ولا أؤدي المقرضون شيئاً بل قد استفاد من بركة هذا الإصلاح كل من المقرض والمقرض فإن خيف أن يتجاوز الأمر الحدود فسئركم هنا ماذا خسر به الأقوام لأجل هذا النوع من الإصلاح.

وَأَن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾
وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨٢﴾

وما أجزى للمقرضين من قبل بأن يعيدوا رأسمالهم من المقرضين قد تبعه القول بأنه لو كان المقرض ذا عسرة فليمهله المقرض حتى يصبح ذا ميسرة وإن عفا المقرض عن رأسماله فهذا خير له وأكثر أجراً وثواباً عند الله تعالى.

ويدعي بعض سفهاء عصرنا أن الربوا التي كانت رائجة عند العرب قبل نزول القرآن الكريم لم تكن إلا بين الفقير والتاجر المحلي فكان الفقراء البائسون يضطرون إلى أخذ الربوا من هؤلاء التجار المحليين بناءً على أشد حاجاتهم ومن ثم هؤلاء التجار كانوا يأخذون من هؤلاء الفقراء البائسين أضعافاً مضاعفة من الربوا، وهذه هي التي سمّاها القرآن بـ"الربوا" وهي التي حرّمها الله وأما القروض التجارية التي تروج اليوم لم تكن مروجّة في ذلك العصر ولا تحدّث عنها القرآن الكريم.

وقد ردّ عليهم القرآن في هذه الآية فعندما يقول القرآن بأن يمهّل المقرض المقرض الذي هو ذو عسر حتى يكون ذا ميسرة فكأن هذه الآية قد صرّحت بأن الأغنياء أيضاً كانوا يستقرضون في ذلك العصر بل لو أدّينا أسلوب الحديث حقاً لكان

المعنى أَنَّ أغلبية المقرضين كانوا هم الأغنياء إلا أنه من الممكن أن يقع مقرض في سوء البال فينبغي للمقرض أن يمهله إلى أن يصبح ذا ميسرة وإن عفا عنه فهذا خير له. يبدو هذا من كلمات الآية التي جاء فيها "إِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ" فلا يستخدم حرف "إن" بالعربية للوضع العام العادي بل يستخدم لما شذَّ وطراً من الأوضاع والظروف، والحرف الذي يستخدم للوضع العام هو "إذا" فإن تفكروا في ضوء هذا الأصل فستجدون أَنَّ معظم المقرضين كانوا من ذوي ميسرة إلا أنهم كانوا يقعون في سوء البال في بعض الأحيان فأرشد المقرضون إلى أن يمهلوهم حتى يستعيدوا ماضيهم الغني.

ولو أَنَّ كلَّ ما أكتب في هذا التفسير مما قد استفضت من كتاباته ولكني قد وجدت بيانه بخصوص هذه الآية التي قد كتبها قبل هذا بخمسين سنة على الأقل حينما لم يكن الباحثون يختلفون في أمر الربوا كهذا فما أدلى به الإمام الفراهي من رأي عادل غير منحاز إلى عصبية وفي ضوء القرآن الكريم وكلماته هو كما يلي:

"وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ" يلوح من هذه الكلمات أنهم كانوا يأخذون الربوا من ذي ميسرة. وقريش كانت تجاراً وأصحاب الربوا فلا أرى فرقاً بين حالهم وحال أبناء زماننا في الربوا، والله أعلم بالصواب".

فالبديهي أَنَّ الأغنياء لم يكونوا يلجأون إلى المقرضين لحاجيات حياتهم بل كانوا يستقروضونهم لأهدافهم التجارية فما الفرق بين قروضهم وبين ما يستقرضه التجار لأهدافهم الاقتصادية؟

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ

يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَأَمْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ بَجَرَّةٍ حَاضِرَةٍ تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٧﴾

لا يوجد في هذه الآية من مشكلة نحوية ولا لغوية فكلمة "الإملاء" تعني ما تعنيه كلمة "الإملاء" وقد استخدم القرآن الكريم هاتين الكلمتين لمعنى واحد. وإني تفكرت في أصلهما وما اشتق منهما من الكلمات ووجدت أن كلمة "الإملاء" استخدمت لمعنى "طلب من أحد أن يكتب" ولكن لكون "الإملاء" يشبه "الإملاء" صوتاً فاستخدم هذا لمعناه وإلا فلا أجد سعة لمعنى "الإملاء" في أصل "الإملاء". وقد كثرت الأمثلة لنقل معنى إلى معنى آخر لأجل مشابهة صوتية ولكن لا يتسع هذا التفسير البحث عن مثل هذه الأمور.

وما جاء من كلمة "بكم" الملحقة بـ"فسوق" في نهاية الآية فيرى بعض المفسرين أن لحوق الباء بالفسوق لا يحسن فليلاحظ مثل هؤلاء الناس أصلاً عربياً خاصاً أنه كلما اختلفت الصلة عن فعلها فهذا يعني أن هناك فعلاً آخر قد خُفِىَ ويوافق مع هذه الصلة البديعة فحينما نتفكر في هذه القضية نجد أن هناك فعلاً لمعنى اللزوم والحياق قد حذف هنا. ويكون المعنى أنك إذا ارتكبت أمراً فلائاً فسيكون هذا فسوق منك لا يحقق إلا بك.

وبعد أن أنهى الحديث عن القروض الربوية البتة قد أرشد المقرضين والمقرضين إلى أمور شتى ليبعدهم عن الصراع والخسران كليهما:

1. إذا كان القرض لمدة خاصة فلتكتب له وثيقة.

2. وليكتب هذه الوثيقة كاتب بالعدل في حضرة الفريقين ولا يغفل فيها ولا يختلق شيئاً ومن يعرف الكتابة فلا ينبغي له أن يطرد هذا الطلب فالكتابة نعمة من الله وهذا من شكرها أن يكتب المرء الكاتب إذا طلب منه أداء هذه الخدمة. واحتيج إلى هذه النصيحة لأنّ عدد الكاتبين في ذاك العصر كان قليلاً ولم تصبح كتابة الوثائق وتسجيلها أمراً حكومياً كما أنه لم يكن سهلاً في ذاك العصر.
3. وعلى المقرض أن يستكتب أحداً كتابة الوثيقة وعليه أن يقرّ في تلك الوثيقة بأنه استقرض المبلغ المعين من فلان بن فلان وعليه أن يتثبت بذيل التقوى في هذا كما هو من واجبات الكاتب، ولا يحاول أن يمكر شيئاً في حق المقرض.
4. إذا كان المستقرض غيباً أو ضعيفاً أو لا يصلح لاستكتاب الوثيقة فعلى وليه أو وكيله أن يقوم مقامه ويستكتب الوثيقة بكل عدل وأمانة.
5. ويوقع على الوثيقة رجلان اشترط فيهما أن "من رجّالكم" وهذا يبدي أمرين أحدهما أن يكونا مسلمين وثانيهما أن يكونا ممن يعرفهم الفريقان وكذا اشترط فيهما أن "ممن ترّضون" أي أن يكونا من رجال صالحين يوثق بهم.
6. وإن لم يوجد رجلان ذوا صفات مذكورة أعلاه فيمكن أن يختار رجل وامرأتان لهذه القضية وقد اشترط امرأتين اثنتين لكي تذكر إحداهما الأخرى إذا نسيت الأولى أو زلت قدمها. وليس هذا الفرق لتحقير المرأة بل لما يختص به روحها ولظروفها وأشغالها فإنها مسؤولة كبرى لها ولذا فقد وقّرت الشريعة ظهيراً لها وعوناً وسنحدث عن هذا الموضوع في سورة النساء بشكل مفصّل إن شاء الله تعالى.
7. ومن انضم إلى شهداء وثيقة ما يجب عليهم أن يشهدوا عند الحاجة فإن شهادة الحق خدمة اجتماعية كبرى وهي جزء من أجزاء مسؤولية هذه الأمة على أنهم شهداء الله.

8. ولو كانت قضية القرض صغيرة أو كبيرة إذا كانت لمدة معينة ولم تكن من نوع رأس المال العامل فلا يضيق الخاطر عن كتابته فمن يعرض عنها ولا

يتأذى لها ربما يقع، لأجل التهاون، في صراعات نتائجها بعيدة المدى.

9. إن تلك الإرشادات عند الله لهي عين الحق والعدل، ومقيمة الشهادة، ومبعدة عن الشك والصراع فيجب الاهتمام بها لصالح المجتمع وفلاحه.

10. ولا يجب أن يستكتب وثيقة لرأس المال العامل.

11. إلا أنه إذا بيع شيء خطير أو اشتري فينبغي أن يشهد عليه لكيلا يخاف حدوث صراع ما.

12. لا يجوز لأي الفريقين أن يحاول أذى الكاتب أو الشاهد عند حدوث الصراع فالكاتب أو الشاهد يؤدي خدمة اجتماعية وحضارية مهمة فمحاولة توجيه الأذى إليه بدون الحق ستنتج في أن الثقات والصالحين يحترزون عن الشهادة والكتابة وسيشكل على الناس أن يظفروا بكاتب أو شاهد صالح موثوق به.

13. وما نرى اليوم من أن الرجال الثقات الرزءاء يحترزون عن كتابة أو شهادة يلعب وراءه هذا السبب الرئيسي وذلك إذا حدث صراع ما في قضية فلا يلفت الشهاء إلا وهم يتعرضون لمخاطره فهم يتعرضون لهتك عزتهم، واختطافهم، وخسران أموالهم وعقاراتهم حتى لقتلهم شر قتلة فقد منع القرآن الكريم عن شر هذا النوع بأن من يرتكب هذا الشر فليعلم أنه لا يرتكب خطأ صغيراً أو لمّا بل هذا فسوق منه يلحق به وسيصعب له أن يلفت عن عواقبه السيئة فإنه محاولة لهدم بناء تلك الشهادة التي هي غاية قصوى لبعثة هذه الأمة.

وقال في نهاية الآية أن يتقوا الله فإن الله لا يبطش بالناس على العدوان ولكن حينما يبطش عليه فلا عاصم له منه ثم قال إن الله يعلمكم ما يطوي نفعا لكم وهو الذي يعلم كل شيء فهو يحق أن يعلمكم ويرشدكم إلى ما هو الصواب لكم.

وَأَن كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنَ مَقْبُوضَةً فَإِنِ أَتَيْتُمْ بِبَعْضِ الْفُلُوحِ
الَّذِي أَوْثَقْتُمُ الْأَمْنَةَ وَلَيْتَى اللَّهُ رَبُّهُ وَلَا تَكُونُوا الشَّهَدَةَ وَمَن يَكْتُمَهَا فَإِنَّهُ عَائِمٌ
قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٧﴾

رهان جمع رهن وهو ما يعطيه المستقرض لمقرض ضماناً بما حصل عليه من الدين و"فَرِهَنْ مَقْبُوضَةً" جملة مثل "قَصِرَّ جَمِيلٌ" في سورة يوسف فيمكن أن نقدر حذف خبره ظانين أنه مبتدأ كما أن نقدر حذف مبتدأه ظانين أنه خبر. والمعنى: إذا لم توجد الكتابة أو الشهادة فيمكن أن يستقرض المرء معطيًا شيئاً ضماناً بالدين.

أمن فلان فلاناً: أن فلاناً يرى أنه مصون عن الخطر من قبل فلان فهو يتكل عليه.

ءَاثِمٌ قَلْبُهُ: هذه الجملة تشير إلى الواقع بأن بعض الآثام تؤثر في أعضاء المرء الظاهرية فهي مثل غبار ظاهري مثل الأيمان اللغو التي تتخذ بدون هدف فمثل هذه الآثام إما يكفر عنها لأجل حسنات المرء أو يتم إصلاح عوجه بعد عناية قليلة. وهناك آثام أخرى تثور من أعماق القلب فمثل هذه الآثام تؤثر في القلب أيضاً، وهذا أخطر نوع من الآثام وأشنعها. إنها تشير إلى فساد القلب فإن لم يحذر عنها أو لم يتب المرء بعد صدورها فوراً يمكن أن يرسو أصلها في القلب. وقد تحدثنا من قبل عن الآثام التي تحيط بالمرء أو الفسوق الذي يحيق به فلا تنسها وقد أخبر هنا عن أن كتمان الشهادة إثم من هذا النوع، والهدف من وراءه، كما أشرت إليه آنفاً، أن الشهادة على الناس فريضة لهذه الأمة جعلها الله مسؤولة عنها فأى قصور عن هذا يسفر عن نتائج بعيدة المدى.

وقد أرشد في هذه الآية إلى أنه لو احتاج المرء إلى الدين في السفر لم يمكن أن يقيّد بالكتابة والشهادة ولم يرض المقرض أن يعطي القرض بدون أي ضمان فيمكن أن يعطى شيء ما ضماناً بالدين ولكن هذه الصورة تجري ما لم يطمئن المقرض ويثق بالمقرض. فإذا حدث أن يوفّر لكل من المقرض والمقرض ما يجب وجوده مثلاً أن ينتهي السفر وأن يوجد الكاتب لكتابة الوثيقة ويوجد الشاهد ويصدق أمر الدين بحضور الرجال المعروفين ولم يبق سبب معقول وراء عدم اطمئنان المقرض بدون الرهن فينبغي له أن يعيد ما أخذه رهناً ويختار ما أمر به من قبل إذا شاء أن يطمئن وقد اعتبر المال المرتهن هنا "أمانة" يبدو منها أن المال

المرتتهن أمانة عند المقرض يجب عليه أن يصونها ولا يجوز له أن ينتفع بها.

وقد روي عن مجاهد والضحاك في التفاسير أنهما يخصصان الرهن بالسفر وأنا أرى رأيهما قويًا فيصريح من كلمات القرآن أنه إذا كانت هناك وجوه وأسباب للثقة فلا يبقى وجه لاتخاذ الرهن فينبغي أن تعاد هذه الأمانة لمن هي له لاسيما إذا كان الأمر بين مسلم ومسلم فأنذاك سيكون هذا نوعًا من الدناءة دعه أن يكون خلافًا للأخوة الإسلامية والمروءة فإذا قد أمكن لرجل أن يحصل على ضمانات الوثائق والشهادات لا يجمل به أن يأخذ دار المقرض، وحقله، وحديقته، وفرسه، وشأته، حلي زوجته وبناته، وملابسهم ضمانًا بما أعطاه من الدين.

ولا ننكر الرواية التي يبدو منها أنّ النبي ﷺ ارتهن درعه بشعير لدى يهودي ولكن لا يبدو منها سوى أنّ مسلمًا يجوز له أن يرتهن لدى يهودي أو تاجر محلي غير مسلم شيئًا يمتلكه إذا مسّت له الحاجة إلى أخذ دين منه ولا يرضى المقرض إلا عن أن يأخذ شيئًا كرهن، وإن قمنا بتوسيع المجال فيمكن أن نجيز هذه المعاملة مع مسلم يضيق خاطره ولا يطمئن بهذه الأصول ولكن هذه الصورة لا تجمل بمسلم صالح أن يختار شيئًا جديدًا بدل ما قرّره كتاب ربه العزيز الحكيم من طريقة جميلة لمعاملة الدين، وهذا لا يوافق وما يقوله القرآن الكريم. وأما الحديث المذكور أعلاه فلا يحرى بنا أن نستدل به على عموم جواز الرهن فقد وقع هذا الأمر مع يهودي، كما أشرنا إليه، وفي حاجة ملحة للغاية كما يبدو.

وفي الآية التي نحن بصدد البحث عنها أراد المفسرون بالأمانة ذاك الدين الذي يعطيه رجل آخر واثقًا به بدون أيّ ضمان ولكن تعبير الأمانة للدين خاطئ عندنا لوجوه. والحق أنّ هؤلاء المفسرين لا يرضون عن أن يرجع المال المرتتهن بعد انتهاء السفر فقد ركبوا هذا التكلف في تأويل كلمة الأمانة ولكن التأويل الذي قمنا به يحدّد محلّ الآية عن محلّ الحديث فلا حاجة إلى الوقوع في مثل هذا التكلف ولا إلى تقديم الدلائل على الرد عليه.

الآن انتهت هذه السورة الكبيرة فالآيات القادمة هي كمسك الختام ففي هذا الختام قد نبّه أولاً على أنّ ما في السماوات والأرض مما يمتلكه الله بيده وهو يعلم كل ما خفي من أمر العباد أو ما ظهر فهو يحاسب كلّاً على حدة ويغفر لمن يجده صالحاً للمغفرة ويعذب من يجده جديراً بالعذاب فهو حاكم مختار لا يحق لأحد أن يخلّ بما يريد هو.

هذه هي حقيقة الدين الأصلية التي يؤهل الشعور الصادق بها حمل أمانة عُرِضَتْ للأمة المسلمة في هذه السورة وهذه هي الحقيقة التي حين نسبها اليهود والنصارى حُرْمُوا سعادتها، ونظراً لأهميتها تلك فقد ذُكِرَتْ هي في النهاية كما هي ذُكِرَتْ في غير موضع من هذه الآية.

ثم قال إنّ رسول الله وعباده الذين آمنوا به قد قبلوا ما نزل فيهم وإنهم هم الذين كانوا يستحقون الإيمان به. إنهم لم يتعصبوا كاليهود والنصارى في أمر أنبياء الله ورسله فيفرقوا بينهم وعلى هذا فقد فتح الله لهم سبيل الهدى فتكلّلوا بالنجاح وأما من هو واقع في شبك العصبية فلا يعبأ بهم الله فليضلوا في وادٍ يحبّونه وسيرون عاقبتهم بأعينهم.

ومن ثم يبرز ذاك الدعاء العظيم الذي هو لسان حال كل فرد من أفراد هذه الأمة، إنّ كل كلمة منه يتقطر منها الشعور بتلك المسؤولية الكبرى التي قد حملت هذه الأمة كما يبدو ذاك الاعتراف الذي هو روح الإيمان ويلمح التضرع لتنجيتهم عما أضلّ الأمم السالفة والاستعانة في أمر العراقل التي يخاف وقوعها في سبيل أداء هذه الفريضة والعفو عن مخافة الزلات في هذا المجال. والآن اقرء الآيات في ضوء هذا المدخل:

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ءَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكَاتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ

مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٩﴾

89- تحقيق الكلمات وتوضيح الآيات

لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبَدُّواْ مَا فِيْ أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨﴾

لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ: إِنَّ هذه الجملة لها معانٍ ثلاثة أولها أن كل شيء مما يمتلكه الله وثانيها أن كل شيء تحت تصرفه وخياره وثالثها أن مرجع كل شيء هو الله في النهاية. ولم يخطر ببالي أن أقوم بترجمة أردوية تحوي هذه المعاني الثلاثة.

أَوْ تُخَفُّوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ: لم يرد من محاسبة ما خفي في الصدور أن تحاسب كل أخيلة ووساوس تخطر بالقلب بل أريد بها تلك العزائم التي تكمن في القلوب بإرادة قوية ولكنها لم تبرز أو تتم لعجز أو دفاع شديد فمثلاً أن رجلاً قد عزم على أن يقتل أحداً فالله يحاسبه عليها ولو أنه لم يجد الفرصة لإتمامها لخوف أو عجز.

وفي "فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ" أو آيات تشبهها يتم التركيز على أن لا أحد يمسك يدي الله إذا أراد عذاب أحد أو جزاءه، كما أوضحناه في كتابنا هذا، والهدف من وراءه القضاء على الشرك، ولا يراد بها أن مشيئة الله لا تدري قانوناً أو سنة من سننه فمشيئة الله مليئة بالحكمة فأمر المغفرة أو العذاب يتبع قانون الحكمة ذاك الذي قد قرره هو إلا أنه لا مجال لأحد أن يخل به.

وإن تفكروا في موقع هذه الآية بأسرها تجدوا أنها مرتبطة بما سبقها من جانب، ومن جانب آخر أنها مدخل جامع ومؤثر لخاتمة السورة فقال في الآية السالفة "وَلَا

تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ " وإن تلحقوا به هذا المعنى "لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" فكان الحديث قد أصبح مدللاً بكامله كما أصبح تاماً للغاية. وهذه مناسبة الآية بما سبق.

وربطها بما لحق، كما قلنا، هو أنّ هذه آية التوحيد فكما أنّ الصلاة أهمّ الأحكام والواجبات كذلك يكون التوحيد أساساً للدين بالنسبة للعقائد فستتذكرون أنّ التوحيد قد تصدر منذ أن ابتدئ به باب تعليم الشرائع لهذه الأمة في هذه السورة ثم ذكرت الصلاة والآن حينما انتهى الحديث ذكرت الأمة بالتوحيد لتعليم الأمة الإسلام التام والتفويض الكامل. وأما أسلوب التذكير فهو أشبه بالتنبيه من التعليم، والهدف من وراءه أن تفهم الأمة ثقل حمل هذه الأمانة، ولا تتكل على الوسائل الكاذبة، وتستعدّ للمحاسبة أمام الله وحده.

ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللّٰهِ وَمَلَكَاتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٣٥﴾

والهدف من وراء الإخبار عن إيمان الرسول والمسلمين هو ليس مجرد الإخبار عن واقعة بل هو بيان عدم العناية بمخالفة معارضي القرآن لاسيما اليهود. وستتذكرون أن هذه السورة قد ابتدئت بأنه إذا لم يكن شك في كون القرآن كتاباً سماوياً ولكنه لا يؤمن به إلا من يكون تقياً، بصيراً بالحق، وطالباً للحق فمن هو واقع في العصبية واستعلاء منزلته سيحرم الإيمان بهذا الكتاب والآن قد أعلن حين الختام بأن الرسول والذين آمنوا معه قد أوضحوا من كان من السعداء بالإيمان؟ فكان زبدة الحليب قد قدمت أمام الناس وأشير إليها بالبنان وأما ما بقي فهو اللبن والله لا يعبأ به.

ولنلاحظ هنا أن أول من جاء ذكره من بين المؤمنين بكتاب الله هو الرسول نفسه

فيبدو منه أنَّ الرسول في الإسلام حيث عامة المؤمنين فيه بالنسبة لاتباع القانون فما يضعه ملوك العالم من القوانين لشعبهم يكونون هم أنفسهم فوقه ولكن عند الله ليس من يحمل هذا القانون إلى الشعب في طليعتهم فحسب بل يجب عليه أن يقول بأنه "أول المؤمنين" و"أول المسلمين"، وهذه شهادة على صدق الرسل لا يكذبها إلا معتدٍ عنيد.

وأجزاء الإيمان التي ذكرت في "كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ ---" قد تكلمنا عنها في آية هذه السورة 177 وقد فصلنا هناك ما هي حقيقة الإيمان بالله وملانكته وكتبه ورساله لاسيما الحاجة إلى الإيمان بالملائكة التي قد فصلناها تفصيلاً إلا أنَّ هنا شيئاً تجب الإشارة إليه وهو أن هناك كلمة "كتاب" (واحد) بينما هناك كلمة "كتب" (جمع) فيبدو منها أنه كما يجب علينا أن نؤمن بالرسول كلهم فكذلك يجب علينا أن نؤمن بالكتب كلها فلا يؤمن أهل الكتاب إلا بكتابتهم وبنبيهم أو أنبيائهم الذين يظنونهم أنبيائهم وبالعكس من ذلك فتؤمن هذه الأمة بكل نبي وكل كتاب سماوي. أما فيما يتعلق بالإيمان الإجمالي فلا نفرق بين النبي محمد والأنبياء الآخرين، وبين القرآن الكريم والكتب الأخرى السماوية إلا أنَّ تعاليم الأنبياء الآخرين لم تحفظ كما أخبر أولئك الأنبياء في صحفهم أنَّ شريعتهم ليست بكاملة فلا يكملها إلا النبي محمد بالقرآن الكريم فلا نؤمن بالقرآن وصاحبه عليه الصلاة إيماناً إجمالياً فحسب بل نؤمن بهما إيماناً تفصيلياً وكذا ندعو العالم إلى هذا الإيمان التفصيلي.

لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ: وقد قمنا بتوضيح هذه الجملة حين شرح كلمة "أمة وسط" تحت الآية 135 لهذه السورة إلا أن لا ننسى هنا مفاجئة تبديل الخطاب من الغائب إلى المتكلم فقد قيل في الجملة السالفة من قبل الله تعالى ولكن هذه الجملة قد برزت في صورة مباشرة بشكل اعتراف وإظهار من قبل الأمة ففيها نكتة بلاغية وهي أنَّ ما ذُكرَ آنفاً من إيمان المسلمين وعقيدتهم تقرُّ الأمة كلها وتعلن بأننا لا نفرق بين أحد من رسل الله تعالى فكافة الأنبياء حلقات مختلفة لسلسلة

واحدة فلا تتبع اليهود والنصارى بأن نؤمن ببعض وننكر البعض الآخر، وبما أنّ كلمة "أحد" تأتي بمعنى الجمع كما قال تعالى "لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ الْنِّسَاءِ" (سورة الأحزاب: 32) فقد صحَّ معها استخدام كلمة "بين".

وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا: كلمة "السمع" هنا ليست لمجرد معنى السمع (To listen) بل لمعنى الإقرار والقبول. وقد استخدمت هذه الكلمة لهذا المعنى في غير موضع من القرآن الكريم وكذا تستخدم كلمة "سُنْنَا" لهذا المعنى باللغة الأردوية ففيها كلمة "سمعنا" تبين قبولها من أعماق القلب بينما كلمة "أطعنا" تدلّ على الطاعة فعلاً وهي حقيقة الإيمان والإسلام وكذا فيها تعريض لطيف لقول اليهود "سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا".

غُفِّرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ: غفرانك مفعول لفعل محذوف ففي مثل هذه المواقع حذف الفعل يشير إلى اضطراب الداعي وهي شفاعة مؤثرة للغاية لقبول الدعاء من قبل الله جلّ جلاله.

وجريان الدعاء بعد الإقرار بالسمع والطاعة فوراً يبدي أنّ هذا الإقرار إقرار بمسؤولية كبرى فهذه أول خطوة في مقتل الحبّ فستأتي بلاءات شديدة وتخاف بكل خطة زلات وعثرات. والشعور بهذا الواقع قد لفت المرء إلى الاستغفار بعد الإقرار بالسمع والطاعة فوراً وذلك لأنه حينما كان السبيل صعباً ويحاسب كلّ خفي وجلي، كما مضى في الآية السالفة، وأنّ العذاب والرحمة كليهما بيد الله وحده فكل وسيلة سوى وسيلة مغفرته باطلة. ف"وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ" تفويض تام أي ليس أحدٌ سواك يمكن أن يلجأ إليه ويرجع، وفيه تعريض لطيف على اليهود والنصارى الذين قد اتكلوا على آبائهم وشركائهم وشفعائهم فلم يبرأوا ذمة عن مسؤوليات السمع والطاعة ولكن لا يخفى على هذه الأمة أنّ كل الناس سيرجعون إلى الله فيحضرون أمامه ويحاسبون بين يديه.

لَا يُكَفِّرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسَعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا

إِنْ نُسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨﴾

لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ: هذه جملة معترضة من بين الدعاء. والهدف من وراء ذكرها بيان الحقيقة المهمة بأن مسؤولية السمع والطاعة التي قد أُلقيت على هذه الأمة ولو أنها مسؤولية كبرى ولكنه لا ينسى، بجانب الشعور بثقل حملها، جانب لطف الله ورحمته بأنه لا يحمل العباد ما لا طاقة لهم به فكل نسمة مكلفة قدر ما تستطيع تحمله فلا يؤاخذ المرء على ما هو خارج عن حدوده وقدرته فقد اعتنت الشريعة بهذا الأمر في سننها وأحكامها كما أعطت العباد الرخصة حين الضرورة والحاجة الملحة فلا يحب الله أن يكلف العباد أنفسهم ما لا طاقة لهم به كما لا يجوز لأحد أن يحملهم ما لا طاقة لهم به.

ولنتذكر هنا أن قد جاء في الأحاديث أن النبي ﷺ كان يشترط بنفسه قدر المستطاع كلما عقد مع الناس ميثاق السمع والطاعة فهذا امتثال نبوي بما أمر في هذه الآية فما تطويه الآية من تخفيف وبشرى للمؤمنين واضح تمامًا لاسيما حينما تلقى عليهم مسؤوليات الشريعة العظيمة.

لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ: ولأن هذا جانب آخر من هذا الحديث الذي قد مضى أنفًا فقد ألحقه به ولم يفصله عنه. ومعناه أن كل نفع أو ضرر يصيب المرء لا يصيبه إلا من أجل عمله فسيحصل ما يزرعه هو فلا يصل إليه جزاء عمل آخر حسن ولا هو يحمل وزر عمل آخر سيء فقد كلف الله كل نسمة قدر مستطاعها فنجاح أو خيبة كل امرئ منوط به. كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْنَةٌ.

رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نُسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا: جاءت هذه الجملة المعترضة لمجرد تسلية

المؤمنين وتذكير حقيقة تناسب الموقع والآن قد استأنف الدعاء الأصلي فقد طلب في هذه الجملة عدم المؤاخذه على النسيان والخطأ فالنسيان هو أن ينسى المرء شيئاً من خلال أداء مسؤولية السمع والطاعة. والخطأ أن يؤدي عملاً ما بأسلوب خاطئ لسوء فهمه له. ولو أن هذه الأشياء قد عفا الله عنها ولكن طلب مغفرة ما عفي عنه من الأشياء هو بيان خشية تامة من قبل العبد ذاته، تفتح أبواباً أخرى لرحمة الله وعنايته فقد كان النبي ﷺ قد عفي عما تأخر وما تقدم ولكنه بالرغم من ذلك يجهد نفسه في العبادة والاستغفار فلما سئل عن السبب وراء هذا فرد عليهم "أفلا أكون عبداً شكوراً".

رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا: الإصر هو الميثاق والمسؤولية فقال مثلاً "ءَأَقْرَزْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي" (سورة آل عمران: 81) ومن هنا استخدمت للمسؤوليات الصعبة التي يصعب تحملها وفي نفس المعنى قد استخدمت هذه الكلمة هنا. وقد كانت شريعة اليهود تطوي ما تطويه من مثل هذه الإصر والأغلال التي يأتي تفصيلها في سورة الأعراف وكان من أهداف بعثة النبي الخاتم محمد ﷺ أن يضع هذه الأغلال والإصر عن شريعة الله فيقيمها على أصول الفطرة كما قال تعالى "وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ" (سورة الأعراف: 157) وإليه الإشارة في كلمات هذا الدعاء بأن لا يحمل علينا مثل هذا الإصر والأغلال التي قد وضعت على اليهود على عدوانهم والتي لم يكادوا يحملونها فتبدي كلمات الدعاء هذه أن مزاج هذه الأمة ومزاج الشريعة التي تعطاها يتوافقان.

رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ: التحميل هو وضع الحمل الثقيل على أحد، والمعنى أن لا يكون بلاء من بين البلاءات الصعبة التي سنواجهها في سبيل السمع والطاعة هذا، أصعب إلى حد لا نكاد نحمله والذي يخيبنا في امتحان برك. وأما فيما يتعلق بالبلاء فهو مما يلزمه الإيمان والإسلام بل مما تلزمه الحياة والذي لا محيص منه في هذه الدنيا فلا مفر منه للتمييز بين الجيد والردئ ولتجلية

مؤهلات العباد ولكن ينبغي للعباد أن يواصلوا هذا الدعاء بأن لا يتجاوز بلاء حدود طاقته فالاعتراف بعجز العبد وضعفه مقابل بلاء الله تعالى هو معاملة صحيحة للغاية فمن يتكل عليه اتكالا ربما يخيب في هذا البلاء فممنوع عنه بمختلف الجوانب في الأحاديث.

ولنلاحظ هنا الفرق بين الجملة السابقة وهذه الجملة فقد دعي في الجملة السالفة أن تكون شريعتنا خالية عن الإصر والأغلال التي كانت توجد في الشرائع القديمة. وأما في هذه الجملة فقد دعي فيها الصيانة عن البلاءات التي لا يستطيعها العبد والتي عسى أن تعرقل سبيل أداء حقوق هذه الشريعة.

وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا؛ فقد دعي فيها عن ثلاثة أشياء معاً وهي العفو والمغفرة والرحمة فالعفو هو الصفح كما هو العفو ولكنها جاءت هنا للمعنى الآخر، والمغفرة تعني الستر. وأما الرحمة فمعناها أوضح مما يحتاج إلى أي بيان فليتكل العبد على هذه الأشياء الثلاثة ولا غير بأن يعفو الرب الكريم عن الزلات ويستتر الأخطاء ويتغمد برحمته فلا ملجأ ولا مأوى إلا إلى هذه الأشياء الثلاثة في الآخرة.

أَنْتَ مَوْلَانَا فَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ: المولى هو المرجع الذي يلجأ إليه حين الشدائد وهذا دعاء للمعونة والنصر من دون معارضي الإسلام وأعدائه فإن الأمة قد حملت هذا العبء الثقيل للسمع والطاعة في حين لم يضعه الآخرون عن أكتافهم فحسب، كما اتضح مما سبق من التفاصيل، بل قد تحولوا أعداء الداء للمسلمين على أنهم ليم تحمّلوا ما قد وضعوه عن أكتافهم؟

هذه هي الأسطر الأخيرة التي قد وفق الله هذا الخاطئ الحقير كتابتها في تفسير هذه السورة وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

"أضاء" و"أظلم"

- د. أورك زيب الأعظمي¹

فعل "أضاء" استخدم مرتين في القرآن الكريم بينما استخدم فعل "أظلم" في هذا المعنى مرة واحدة وكلاهما استخدم في سورة البقرة. وكذا جاء فعل "يضيء" مرة في سورة النور كما استخدمت كلمة "ضيء" ثلاث مرات، وتلك في سورة يونس والأنبياء والقصص. ولكننا نبحث هنا عن فعل "أضاء" و"أظلم" وسيأتي فعل "يضيء" ضمن هذا.

يبدو من تتبع كلام العرب والحديث النبوي أنّ "أضاء" يعني "نوّر الشيء" و"تنوّر الشيء" معاً فيقول امرؤ القيس الكندي:

تُضيءُ الظلامَ بالعشاء كأنها منارةٌ ممسى راهبٍ متبّل²
وقال طفيل الغنوي:

أصاح ترى برقاً أريك وميضه يضيء سناه سوق أثلٍ مرّكّم³
وقال حاجز بن عوف الأزدي:

سيوفهم تغشي الجبان ونبلهم يضيء لدى الأقوام نازر الجباحب⁴
وقال شاعر حماسي:

دعته بغير اسمٍ هُلمَّ إلى القرى فأسرى يبوع الأرض والنارُ تزهر

¹ مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الملكية الإسلامية، نيودلهي

² جمهرة أشعار العرب، ص 130

³ ديوانه، ص 103

⁴ قصائد جاهلية نادرة، ص 80

فلما أضاءت شخصه قلتُ مرحبًا هَلُمَّ وللصالحين بالنار أبشروا¹
وقال المرقش الأكبر:

ولما أضأنا النارَ عند شوائنا عرانا عليها أطلسُ اللون ناعس²
وقال أعشى باهلة:

ورأى حربٍ شهابٍ يُستضاء به كما يُضيءُ سوادَ الطخية القمر³
وقال المرقش:

ولما أضأنا النارَ عند شوائنا عرانا عليها أطلسُ اللون بئس⁴
وقال عبدة بن الطبيب:

فيها الدجاجُ وفيها الأسدُ مُخدرٌ من شيء يُرى فيها تماثيل
في كعبةٍ شادها بانٍ وزينها فيها ذبالٌ يُضيءُ الليلَ مفتول⁵
وقال خفاف بن ندية:

فدعُ ذا ولكن هل ترى ضوءَ بارقٍ يُضيءُ حبيبا في دُرَى متألق⁶
وقال عمر بن أبي ربيعة العامري:

خَلِقتُ ذكْرَها من شيمتي ما أضاء الأرضَ تبليجُ الصباح⁷

¹ ديوان الحماسة، 970/2

² ديوان المفضليات، ص 226

³ ديوان الأصمعيات، ص 92، الطخية: الظلمة

⁴ شرح ديوان الحماسة، 1078/2

⁵ ديوان المفضليات، ص 144

⁶ ديوان الأصمعيات، ص 25

⁷ ديوانه، ص 125

وله ما يلي:

وجلت عشيّة بطن مكة إذ بدت
وقال الفرزدق:

رأيتك يا أبانُ تمتّ لما
أضاء الأرض، والأخرى عليها،
وله أبيات أخرى كما يلي:

إذا أثقبوها بالكُدادة³ لم تُضيء
تراخى بهنّ الليلُ يتبعنّ فارغًا
لأمدحنّ بني المهلب مدحةً
مثل النجوم، أمامها قمرٌ لها
وما ظلم الملك ابنُ عاتكة التي
فما خمدت حتى أضاء وقودها
خبطت بها الظلماء حتى أضاءها
وقال الأخطل:

كانه إذ أضاء البرق بهجته
في أصفهانية أو مُصطفى نار¹⁰

¹ ديوانه، ص 227

² ديوانه، ص 293

³ كدادة: زيت السراج، أضاءه

⁴ ديوانه، ص 162

⁵ ديوانه، ص 252

⁶ ديوانه، ص 265

⁷ ديوانه، ص 647

⁸ ديوانه، ص 651

⁹ ديوانه، ص 574

¹⁰ ديوانه، ص 140

وقال الأخطل أيضاً:

وَمُتَّسِقٍ كَالنُّورِ مِنْ كُلِّ صَبْغَةٍ يُضِيءُ الدُّجَى فَوْقَ التَّرَائِبِ وَالنَّحْرِ¹
وقال جرير:

لَحَبَّ الْوَافِدَانِ إِلَى مُوسَى وَجَعَدُ لَوْ أَضَاءَ هُمَا الْوُقُودُ²
وقال جرير أيضاً:

فَمَا عِبْتُ مِنْ نَارِ أَضَاءَ وَقُودُهَا فِرَاسًا وَبِسْطَامِ بْنِ قَيْسٍ مُقَيِّدًا³
أَضَاءَ وَقُودُ النَّارِ مِنْهَا بَصِيرَةٌ وَعِبْرَةٌ أَعْيَى هُمُّهُ قَدْ تَرَدَّدًا⁴
وله كذلك:

إِنَّ الَّذِينَ أَضَاءُوا النَّارَ قَدْ عَرَفُوا آثَارَ بَرَزَةٍ، وَالْآثَارُ تُقْتَفَرُ⁵
وجاء في الأحاديث أَنَّ قَتَادَةَ بْنَ النُّعْمَانِ قَالَ: خَرَجْتُ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي مُظْلِمَةً، فَقُلْتُ:
لَوْ أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَشَهِدْتُ مَعَهُ الصَّلَاةَ وَأَنَسْتُه بِنَفْسِي، فَفَعَلْتُ، فَلَمَّا دَخَلْتُ
الْمَسْجِدَ بَرَقَتِ السَّمَاءُ فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «يَا قَتَادَةُ مَا هَاجَ عَلَيْكَ؟»، فَقُلْتُ:
أَرَدْتُ، يَا أَبَايَ وَأُمِّي أَنْتَ، أَنْ أُوَسِّدَكَ، قَالَ: "خُذْ هَذَا الْعُرْجُونَ فَتَحَصَّنْ بِهِ، فَإِنَّكَ إِذَا
خَرَجْتَ أَضَاءَ لَكَ عَشْرًا أَمَامَكَ وَعَشْرًا خَلْفَكَ"، ثُمَّ قَالَ: "إِذَا دَخَلْتَ بَيْتَكَ اضْرِبْ بِهِ
مِثْلَ الْحَجَرِ الْأَخْشَنِ فِي إِنْسَانِ الْبَيْتِ، فَإِنَّ ذَلِكَ الشَّيْطَانَ"، قَالَ: فَخَرَجْتُ فَأَضَاءَ
لِي، ثُمَّ ضَرَبْتُ مِثْلَ الْحَجَرِ الْأَخْشَنِ حَتَّى خَرَجَ مِنْ بَيْتِي".⁶

¹ ديوانه، ص 177

² ديوانه، ص 116

³ ديوانه، ص 145

⁴ ديوانه، ص 145

⁵ ديوانه، ص 221

⁶ المعجم الكبير للطبراني: 19

ويروى عن أبي هريرة أنه قال: يبلغُ به النبي - ﷺ -: "لا ينظر أحدكم إلى من فوقه في الخَلْقِ أو الخُلُقِ أو المال، ولكن ينظر إلى من هو دونه". فلما أضاءت ما حوله جعل الفَرَّاش والدواب تتقَحَّم فيها، فأنا أخذ بحُجَزِكُمْ، وأنتم تواقعون فيها".¹

وكثر مجيء "أضاء" لازماً في كلام العرب فيقول امرؤ القيس الكندي:

يُضيءُ سناه أو مصابيحُ راهبٍ أهان السليطَ بالذُّبالِ المُقتَل²
وقال أبو صعتره البولاني:

أودُّهم وُدًّا إذا خامر الحشا أضاء على الأضلاع والليل دامس³
وقال الأعشى الكبير:

فلما أضاء الصبحُ قام مُبادراً وحن انطلاقُ الشاة من حيث خيما⁴
وقال محرز بن المكعب الضبي:

فلما أن أضاء الصبحُ جاءوا رعيلاً خلقه منهم رعيلا⁵
وقال زهير بن أبي سلمى:

ليلتَه كلها حتى إذا حسرتُ عنه النجومُ أضاء الصبحُ فانفلقا⁶
وقال طليحة بن خويلد الأسدي:

ويومًا تُضيءُ المشرفيةُ وسطها ويومًا تراها في ظلال عوال⁷

¹ مسند أحمد: 7317

² جمهرة أشعار العرب، ص 143

³ شرح ديوان الحماسة، 643/1

⁴ ديوانه، 573/2

⁵ قصائد جاهلية نادرة، ص 194

⁶ ديوانه، ص 75

⁷ ديوان الوحشيات، ص 115

وقال عمرو بن معديكرب:

لقد أسمعَتْ لو ناديتَ حيًّا ولكن لا حياة لمن تنادي
ولو نازَّ نفختَ بها أضاءتْ ولكن أنت تنفخ في رماد¹

وقال أوس بن حجر:

يا مَنْ لبرقِ أبيتُ الليلَ أرقبُه في عارضٍ كمُضيءِ الصبحِ مَاح²
وقال روبة بن العجاج:

فإن تُضيء نارك للعوافي
لا يعيشُها جاري ولا أضيافي³

وقال عمر بن أبي ربيعة العامري:

فلما أضاء الفجرُ عتّا لنا ذرى النخل والقصر الذي دون عزور⁴
وله ما يلي:

فاعتزلنا فلن نراجعَ وصلًا ما أضاءتْ نجومُ ليلٍ لساري⁵
وله أيضًا:

لها وجهٌ يُضيءُ كضوءِ بدرٍ عتيقُ اللونِ بأشره النعيم⁶

¹ شعره، ص 113

² ديوانه، ص 15

³ شرح ديوانه، 295/3

⁴ ديوانه، ص 197

⁵ ديوانه، ص 239

⁶ ديوانه، ص 528

وقال الفرزدق:

جزى الله خير المسلمين وخيرهم
إماماً كائن من إمام نعى به
يدين وأغناهم لمن كان أفقر
وشمسٍ وبدرٍ قد أضاء فنوراً¹

وقال الفرزدق يمدح سليمان بن عبد الملك:

وأباك إذ كشف الإله به
عنا العى، وأضاء كالفجر²
وله أبيات عديدة مثلاً قال:

وبيتي إلى جنبٍ رحيبٍ فناؤه،
فلا تتركوا عذري المضيء بياؤه
وأنت ابنُ فرعٍ ماجدٍ لعقيلةٍ،
فلما أروها أمه هان وجدها
بجيلة عند الشمس أو هي فوقها،
لقد ضربَ الحجاجُ ضربةً حازم
أضاء لها ما بين شرقٍ ومغرب،
ومن دونه البدرُ المضيء كواكبه³
ولا تجعلوني في الركبة كالردي⁴
تلقتُ له الشمسُ المضيئةً بالبدر⁵
رجاة الغنى لما أضاء منيرها⁶
وإذ هي كالشمس المضيئة، يُطرق⁷
كبا جندُ إبليسٍ لها وتضعضوا
بنورٍ مضيء، والأسنة شُرْع⁸

وقال جرير:

هزمٌ أجشٌ إذا استحار ببلدة
فكأنما بجوائها الأنهار

¹ ديوانه، ص 299

² ديوانه، ص 234

³ ديوانه، ص 50

⁴ ديوانه، ص 129

⁵ ديوانه، ص 178

⁶ ديوانه، ص 315

⁷ ديوانه، ص 403

⁸ ديوانه، ص 360

مُتْرَاكِبٌ رَجَلٌ يُضِيءُ وَمِيضُهُ كَالْبُلُقِ تَحْتَ بَطُونِهَا الْأَمْهَارِ¹

وقال جرير أيضاً:

وما لتغلبَ إنْ عُدَّتْ مساعِها نجمٌ يُضِيءُ ولا شمسٌ ولا قمر²

ألا إنما قيسٌ نجومٌ مُضِيئةٌ يشقُّ دجى الظلماء بالليل نورها³

وقال أيضاً:

ورأيتُ ناركُ إذ أضاءَ وَقُودُها فرأيتُ أحسنَ مصطلين وناار⁴

وروي عن عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ: أَخْبَرَنِي حَفْصَةُ زَوْجُ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُصَلِّي رُكْعَتَيِ الْفَجْرِ إِذَا أَضَاءَ الْفَجْرُ⁵

وعن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ وقف بجمع، فلما أضاء كل شيء قبل أن تطلع الشمس أفاض⁶.

وبروي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "يَجْمَعُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ قِيَامًا أَرْبَعِينَ سَنَةً شَاخِصَةً أَبْصَارُهُمْ إِلَى السَّمَاءِ يَنْتَظِرُونَ فَصَلَ الْقَضَاءِ"، قَالَ: "وَيُنْزِلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ظُلُلٍ مِنَ الْغَمَامِ مِنَ الْعَرْشِ إِلَى الْكُرْسِيِّ، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ أَمَّا النَّاسُ: أَلَمْ تَرْضَوْا مِنْ رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ وَأَمَرَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا أَنْ يُؤَلِّيَ كُلَّ نَاسٍ مِنْكُمْ مَا كَانُوا يَتَوَلَّوْنَ وَيَعْبُدُونَ فِي الدِّينِ، أَلَيْسَ ذَلِكَ عَدْلًا مِنْ رَبِّكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى"، قَالَ: "فَلْيَنْطَلِقْ كُلُّ قَوْمٍ إِلَى مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ فِي الدُّنْيَا"، قَالَ: "فَيَنْطَلِقُونَ وَيُمَثِّلُ لَهُمْ أَشْيَاءَ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، فَمِنْهُمْ مَنْ

¹ ديوانه، ص 155

² ديوانه، ص 200

³ ديوانه، ص 204

⁴ ديوانه، ص 245

⁵ صحيح ابن خزيمة: 1111

⁶ مسند أحمد: 3021

يَنْطَلِقُ إِلَى الشَّمْسِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْطَلِقُ إِلَى الْقَمَرِ، وَإِلَى الْأَوْثَانِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَأَشْبَاهِ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ"، قَالَ: "وَيُمَثِّلُ لِمَنْ كَانَ يَعْبُدُ عَيْسَى شَيْطَانُ عَيْسَى، وَيُمَثِّلُ لِمَنْ كَانَ يَعْبُدُ عَزْرِيَّا شَيْطَانُ عَزْرِيَّا، وَيَبْقَى مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأُمَّتُهُ"، قَالَ: "فَيُمَثِّلُ الرَّبُّ عَزْرَ وَجَلَّ فَيَأْتِيهِمْ فَيَقُولُ: مَا لَكُمْ لَا تَنْطَلِقُونَ كَمَا انْطَلَقَ النَّاسُ؟" قَالَ: "فَيَقُولُونَ إِنَّ لَنَا لَهَا مَا رَأَيْنَاهُ بَعْدُ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَهُ إِنْ رَأَيْتُمُوهُ؟ فَيَقُولُونَ: إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ عِلَاقَةٌ إِذَا رَأَيْنَاهَا عَرَفْنَاهَا، قَالَ: فَيَقُولُ: مَا هِيَ؟ فَيَقُولُونَ: يَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ"، قَالَ: "فَعِنْدَ ذَلِكَ يُكْشِفُ عَنْ سَاقٍ فَيَخِرُّ كُلُّ مَنْ كَانَ بِظَهْرِهِ طَبَقٌ، وَيَبْقَى قَوْمٌ ظُهُورُهُمْ كَصِيَاصِيِّ الْبَقَرِ يُرِيدُونَ السُّجُودَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ، وَقَدْ كَانَ يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ، ثُمَّ يَقُولُ: ازْفَعُوا رُءُوسَكُمْ، فَيَزْفَعُونَ رُءُوسَهُمْ فَيُعْطِيهِمْ نُورَهُمْ عَلَى قَدَرِ أَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورُهُ مِثْلَ الْجَبَلِ الْعَظِيمِ يَسْعَى بَيْنَ يَدَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورُهُ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورًا مِثْلَ النَّخْلَةِ بِيَمِينِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورًا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ، حَتَّى يَكُونَ رَجُلًا يُعْطَى نُورُهُ عَلَى إِبْهَامِ قَدَمِهِ يَضِيءُ مَرَّةً وَيَفِيءُ مَرَّةً، فَإِذَا أَضَاءَ قَدَمَ قَدَمَهُ فَمَشَى، وَإِذَا طُفِئَ قَامَ"، قَالَ: "وَالرَّبُّ عَزْرَ وَجَلَّ أَمَامَهُمْ حَتَّى يَمُرَّ فِي النَّارِ فَيَبْقَى أَثَرُهُ كَحَدِّ السَّيْفِ دَحْضُ مَزَلَةٍ"، قَالَ: "وَيَقُولُ: مُرُوا، فَيَمُرُّونَ عَلَى قَدَرِ نُورِهِمْ، مِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَطَرْفِ الْعَيْنِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالْبَرْقِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالسَّحَابِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَانْقِضَاضِ الْكَوْكَبِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالرَّيْحِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَشَدِّ الْفَرَسِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَشَدِّ الرَّجُلِ، حَتَّى يَمُرَّ الَّذِي أُعْطِيَ نُورُهُ عَلَى إِبْهَامِ قَدَمَيْهِ يَحْبُو عَلَى وَجْهِهِ وَيَدِيهِ وَرِجْلَيْهِ تَخِرُّ رِجْلٌ، وَتَعْلُقُ رِجْلٌ، وَيَصِيبُ جَوَانِبَهُ النَّارُ، فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَخْلُصَ، فَإِذَا خَلَصَ وَقَفَ عَلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ لَقَدْ أَعْطَانِي اللَّهُ مَا لَمْ يُعْطِ أَحَدًا أَنْ نَجَانِي مِنْهَا بَعْدَ إِذْ رَأَيْتُهَا"، قَالَ: "فَيُنْطَلِقُ بِهِ إِلَى غَدِيرٍ عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ، فَيَغْتَسِلُ فَيَعُودُ إِلَيْهِ رِيحُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالْوَاهِنُ، فَيَرَى مَا فِي الْجَنَّةِ مِنْ خِلَالِ الْبَابِ فَيَقُولُ: رَبِّ أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَتَسْأَلُ الْجَنَّةَ، وَقَدْ نَجَيْتَكَ مِنَ النَّارِ؟ فَيَقُولُ: رَبِّ اجْعَلْ بَيْنِي وَبَيْنَهَا حِجَابًا لَا أَسْمَعُ

حَسْبِسَهَا"، قَالَ: "فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ"، قَالَ: "فَيَرَى- أَوْ يُرْفَعُ لَهُ- مَنْزِلٌ أَمَامَ ذَلِكَ كَأَنَّمَا هُوَ فِيهِ إِلَيْهِ حُلْمٌ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَعْطِنِي ذَلِكَ الْمَنْزِلَ، فَيَقُولُ لَهُ: فَلَعَلَّكَ إِنِ أَعْطَيْتُكَه تَسْأَلُ غَيْرَهُ، فَيَقُولُ: فَلَعَلَّكَ إِنِ أَعْطَيْتُكَه تَسْأَلُ غَيْرَهُ، فَيَقُولُ: لَا وَعِزَّتِكَ لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ، وَأَيُّ مَنْزِلٍ يَكُونُ أَحْسَنَ مِنْهُ، قَالَ: وَيَرَى أَوْ يُرْفَعُ لَهُ أَمَامَ ذَلِكَ مَنْزِلٌ آخَرَ كَأَنَّمَا هُوَ إِلَيْهِ حُلْمٌ، فَيَقُولُ: أَعْطِنِي ذَلِكَ الْمَنْزِلَ، فَيَقُولُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: فَلَعَلَّكَ إِنِ أَعْطَيْتُكَه تَسْأَلُ غَيْرَهُ، قَالَ: لَا وَعِزَّتِكَ لَا أَسْأَلُ غَيْرَهُ وَأَيُّ مَنْزِلٍ يَكُونُ أَحْسَنَ مِنْهُ، قَالَ: فَيُعْطَاهُ فَيَنْزِلُ ثُمَّ يَسْكُتُ فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَا لَكَ لَا تَسْأَلُ؟ فَيَقُولُ: رَبِّ لَقَدْ سَأَلْتُكَ حَتَّى اسْتَحْيَيْتُكَ، وَأَقْسَمْتُ لَكَ حَتَّى اسْتَحْيَيْتُكَ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَلَمْ تَرْضَ أَنْ أُعْطِيكَ مِثْلَ الدُّنْيَا مُنْذُ خَلَقْتُهَا إِلَى يَوْمِ أَفْنَيْتُهَا وَعَشْرَةَ أَضْعَافِهِ؟ فَيَقُولُ: أَتَسْتَهْزِئُ بِي، وَأَنْتَ رَبُّ الْعِزَّةِ، فَيَضْحَكُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ قَوْلِهِ - قَالَ: فَرَأَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ إِذَا بَلَغَ هَذَا الْمَكَانَ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ ضَحِكَ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، قَدْ سَمِعْتُكَ تُحَدِّثُ هَذَا الْحَدِيثَ مِرَارًا كَلَّمَا بَلَغْتَ هَذَا الْمَكَانَ ضَحِكْتَ، فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُحَدِّثُ هَذَا الْحَدِيثَ مِرَارًا كَلَّمَا بَلَغَ هَذَا الْمَكَانَ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ ضَحِكَ حَتَّى تَبْدُو أَضْرَاسُهُ - قَالَ: "فَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: وَلِكِنِّي عَلَى ذَلِكَ قَادِرٌ، سَلْ، فَيَقُولُ: أَلْجَفْنِي بِالنَّاسِ، فَيَقُولُ: الْحَقُّ النَّاسَ، قَالَ: فَيَنْطَلِقُ يَرْمُلُ فِي الْجَنَّةِ حَتَّى إِذَا دَنَا مِنَ النَّاسِ رُفِعَ لَهُ قَصْرٌ مِنْ دُرَّةٍ فَيَجْرُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ لَهُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ مَا لَكَ؟ فَيَقُولُ: رَأَيْتُ رَبِّي - أَوْ تَرَأَى لِي رَبِّي - فَيُقَالُ لَهُ: إِنَّمَا هُوَ مَنْزِلٌ مِنْ مَنَازِلِكَ، قَالَ: ثُمَّ يَلْقَى رَجُلًا فَيَتَهَيَّأُ لِلْسُّجُودِ لَهُ فَيُقَالُ لَهُ: مَهْ، مَا لَكَ؟ فَيَقُولُ: رَأَيْتُ أَنَّكَ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَيَقُولُ: إِنَّمَا أَنَا خَازِنٌ مِنْ خَزَائِكَ، عَبْدٌ مِنْ عِبِيدِكَ تَحْتَ يَدَيِ أَلْفِ قَهْرْمَانٍ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ، قَالَ: فَيَنْطَلِقُ أَمَامَهُ حَتَّى يَفْتَحَ لَهُ الْقَصْرَ، قَالَ: "وَهُوَ فِي دُرَّةٍ، مُجَوَّفَةٍ سَقَائِفُهَا، وَأَبْوَابُهَا، وَأَعْلَاقُهَا، وَمَقَاتِيحُهَا مِنْهَا تَسْتَقْبِلُهُ جَوْهَرَةٌ خَضِرَاءُ مُبْطَنَةٌ بِحُمْرَاءَ كُلُّ جَوْهَرَةٍ تُفْضِي إِلَى جَوْهَرَةٍ عَلَى غَيْرِ لَوْنٍ الْأُخْرَى فِي كُلِّ جَوْهَرَةٍ سُرَّرَ وَأَرْوَاجٌ، وَوَصَائِفُ أَذْنَاهُنَّ حَوَرَاءُ عَيْنَاهُ عَلَيَّهَا سَبْعُونَ خَلَّةً يُرَى مِخُّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ حُلِيِّهَا، كَبِدُهَا مِرَاتُهُ

وَكَيْدُهُ مِرَاتُهَا، إِذَا أَعْرَضَ عَنْهَا إِعْرَاضَةً أَزْدَادَتْ فِي عَيْنِهِ سَبْعِينَ ضِعْفًا عَمَّا كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ، وَإِذَا أَعْرَضَتْ عَنْهُ إِعْرَاضَةً أَزْدَادَ فِي عَيْنِهَا سَبْعِينَ ضِعْفًا عَمَّا كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ، فَيَقُولُ لَهَا: وَاللَّهِ لَقَدْ أَزْدَدْتُ فِي عَيْنِي سَبْعِينَ ضِعْفًا، وَتَقُولُ لَهُ: وَأَنْتَ وَاللَّهِ لَقَدْ أَزْدَدْتَ فِي عَيْنِي سَبْعِينَ ضِعْفًا، فَيَقَالُ لَهُ: أَشْرَفُ، قَالَ: فَيُشْرَفُ، فَيَقَالُ لَهُ: مُلْكُكَ مَسِيرَةُ مِائَةِ عَامٍ يَنْفُذُهُ بَصَرُهُ¹.

وَعَنِ الْحَسَنِ بْنِ الْفُرَاتِ، (أَنَّهُ قَالَ): حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا الطُّفَيْلِ، حَدَّثَنِي حَدِيثَهُ بَنُ أَسِيدٍ صَاحِبِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: كُنَّا نَتَحَدَّثُ فِي ظِلِّ غُرْفَةٍ، فَأَشْرَفَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ تِلْكَ الْغُرْفَةِ، فَقَالَ: مَا تَحَدَّثُونَ؟ قُلْنَا: نَتَحَدَّثُ عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ: لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَخْرُجَ عَشْرُ آيَاتٍ: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالِدَّجَالُ، وَالِدُّخَانُ، وَدَابَّةُ الْأَرْضِ، وَثَلَاثَةُ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَيَخْرُجُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، وَتَخْرُجُ نَارٌ مِنْ قَعْرِ عَدْنٍ تُحِيطُ بِالنَّاسِ لَا يَتَخَلَّفُهَا أَحَدٌ تَسُوفُهُمْ إِلَى أَرْضِ الْمُحْشَرِ، فَتَقِيمُ حَتَّى يَقْضُوا حَوَائِجَهُمْ، ثُمَّ تَحْرُكُ بِهِمْ فَتَرْجُلُهُمْ. قَالَ: وَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَخْرُجَ نَارٌ مِنْ رُومَانَ أَوْ رُكُوبَةٌ يُضِيءُ مِنْهَا أَعْنَاقُ الْإِبِلِ بِبُصْرَى»².

وَيَحَدِّثُ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، حَدَّثَهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "يَدْخُلُ مِنْ أُمَّتِي زُمْرَةٌ هُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا تُضِيءُ وُجُوهَهُمْ إِضَاءَةَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ"، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَقَامَ عَكَاشَةُ بْنُ مَخْصَنِ الْأَسَدِيِّ يَرْفَعُ نَمْرَةً عَلَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ"، ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "سَبَقَكَ بِهَا عَكَاشَةُ"³.

¹ المعجم الكبير للطبراني: 9753

² المصدر نفسه: 1632

³ صحيح مسلم: 369

وأما استخدام "أضاء له" لازمًا فقال المزار الفقعي:

آليتُ لا أخفي إذا الليلُ جَنّني سنى النار عن سارٍ ولا متنوّر
فيا موقدي ناري ارفعها لعلها تُضيء لسارٍ آخرَ الليل مُقتر¹
وقالت الخنساء:

وسوف أبكيك ما ناحت مطوّقة وما أضاءت نجومُ الليل للساري²
وقال الأعشى الكبير:

أرقتُ لبرقٍ بليلى أهل يُضيء سنّاه بأعلى الجبل³
وشيوخ غُيورٍ له كاعب تُضيء كبدرٍ إذا ما استقل⁴
فبات يُضيء لنا نحرُها كأنّ عليه شرارَ الشُعَل
من الشذر والدرّ زيناها تُريك معاصمَ نَعْمًا غُيل⁵
وقال يزيد بن الحذاق الشني:

ولقد أضاء لك الطريقُ وأنّهجت سبيلُ المسالك والهدى يُعدي⁶
وقال أبو دؤاد الإيادي:

فلَمّا أضاءت لنا سُدفَةٌ⁷ ولاح من الصبح خيطٌ أنارا⁸

¹ شرح ديوان الحماسة، 1009/2

² ديوانها، ص 54

³ ديوانه، 691/2

⁴ ديوانه، 693/2

⁵ ديوانه، 695/2

⁶ ديوان المفضليات، ص 294

⁷ سدفة هنا ضوء وهي من الأضداد

⁸ ديوان الأضمعيات، ص 190

وقال عمر بن أبي ربيعة العامري:

وجلا بُردُها وقد حسرتُه نورَ بدرٍ يُضيءُ للناظرينا¹

وقال الفرزدق:

وأنت للناس نورٌ يُستضاء به كما أضاء لنا في الظلمة اللَّهَبُ²

وقال أيضًا:

وكنْتُ كفاقيء عينيهِ عمداً فأصبح ما يُضيء له النهارُ³

وقال الأخطل:

فجاء وقد بَلَّتْ عليه ثيابه سحابةٌ مُسَوِّدٍ من الليل أظلمًا

وفي ليلةٍ لا ينبُحُ الكلبُ ضيقها إذا نُبِّهَ المبلودُ فيها تغمغما

فلما أضاءته لنا النارُ ، واصطلى أضاءتُ هَجَفًا مُوحِشًا قد تهشَّمَا⁴

وفي هذا المعنى تستخدم كلمة "وضح له" و"أشرق له" كما قال الفرزدق:

ولو تُرْمَى بلوم بني كليب نجومُ الليل ما وضحتُ لساري⁵

وقال الفرزدق أيضًا:

له أشرقت أرضُ العراق لنوره وأومِنَ ، إلا ذنبه ، كلُّ خائف⁶

ويروى عن ابنِ عُمَرَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ - كَانَ إِذَا أَضَاءَ لَهُ الْفَجْرُ صَلَّى رُكْعَتَيْنِ.⁷

¹ ديوانه، ص 585

² ديوانه، ص 37

³ ديوانه، ص 258

⁴ ديوانه، ص 314

⁵ ديوانه، ص 305

⁶ ديوانه، ص 484، 436، 425، 369

⁷ صحيح ابن ماجة: 1143

ويحدث عكرمة بن خالد بن المغيرة أن سعيد بن جبير حدثه، قال ابن عباس: أتيت خالتي ميمونة، فوجدت ليلتها تلك من رسول الله -ﷺ-، فذكر نحو حديث يزيد، إلا أنه قال: حتى إذا طلع الفجر الأول أمسك رسول الله -ﷺ- هنيئةً، حتى إذا أضاء له الصبح قام فصلى الوتر تسع ركعات، يسلم في كل ركعتين، حتى إذا فرغ من وتره أمسك يسيرا، حتى إذا أصبح في نفسه قام رسول الله -ﷺ- فركع ركعتي الفجر لصلاة الصبح، ثم وضع جنبه، فنام حتى سمعت جخيفه، قال: ثم جاء بلال نيه للصلاة، فقام رسول الله -ﷺ- فصلى الصبح.¹

ويروى عن سلمان الفارسي (أنه) قال: كنت رجلاً من أهل جيٍّ، وكان أهل قريتي يعبدون الخيل البلق، وكنت أعرف أنهم ليسوا على شيء، ف قيل لي: إن الدين الذي تطلب، إنما هو بالمغرب، فخرجت حتى أتيت الموصل، فسألت عن أفضل رجل فيها، فدللت على رجل في صومعة، فأتيت فقلت له: إني رجل من أهل جيٍّ، وإني جئت أطلب العلم وأتعلم، فضمني إليك أخدمك وأصحبك، وتعلمني مما علمك الله؟ فقال: نعم، فصحبته، فأجرى عليّ مثل ما كان يجري عليه الخل والزيت والحبوب، فلم أزل معه حتى نزل به الموت، فجلست عند رأسه أبكيه، فقال: ما يبكيك؟ قلت: يبكيني أي خرجت من بلاد أطلب الخير، فرزقني الله عز وجل فصحبتك فعلمتني، وأحسن صحتي، فنزل بك الموت، ولا أدري أين أذهب، قال لي: أخ بالجزيرة بمكان كذا وكذا، فهو على الحق فأتته، فأقرته مي السلام، وأخبره أي أوصيت إليه وأوصيتك بصحبته، قال: فلما أن قبض الرجل خرجت حتى أتيت الرجل الذي وصف لي، فأخبرته بالخبر، وأقرته السلام من صاحبه، وأخبرته أنه هلك وأمرني بصحبته، قال: فلما أن قبض الرجل خرجت حتى أتيت الرجل الذي وصف لي، فأخبرته وأوقيته السلام من صاحبه، أنه هلك وأمرني بصحبته، قال: فضمني إليه، وأجرى عليّ كما كان يجري عليّ مع الآخر، فصحبته ما شاء الله، ثم نزل به الموت،

¹ مسند أحمد: 3502

فَلَمَّا أَنْ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ جَلَسْتُ عِنْدَ رَأْسِهِ أَبِي، فَقَالَ لِي: مَا يُبْكِيكَ؟ قُلْتُ: خَرَجْتُ مِنْ بِلَادِي أَطْلُبُ الْخَيْرَ، فَرَزَقَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ صُحْبَةً فُلَانٍ، فَأَحْسَنَ صُحْبَتِي وَعَلَّمَنِي، فَلَمَّا نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ أَوْصَى بِي إِلَيْكَ فَضَمَمْتَنِي، وَأَحْسَنْتَ صُحْبَتِي، وَعَلَّمْتَنِي، وَقَدْ نَزَلَ بِكَ الْمَوْتُ، فَلَا أَذْرِي أَيْنَ أَتَوَجَّهُ؟ قَالَ: فَانْتَ أَخَا لِي عَلَى قُرْبِ الرُّومِ، فَهُوَ عَلَى الْحَقِّ فَائِثُهُ، وَأَقْرَاهُ مِنِّي السَّلَامَ وَاصْحَبُهُ، فَإِنَّهُ عَلَى الْحَقِّ، فَلَمَّا قُبِضَ الرَّجُلُ خَرَجْتُ حَتَّى أَتَيْتُهُ، فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبْرِي، وَبِوَصِيَّةِ الْآخِرِ قَبْلَهُ، قَالَ: فَضَمَمَنِي إِلَيْهِ، وَأَجْرَى عَلَيَّ كَمَا يُجْرَى عَلَيَّ، فَلَمَّا نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ، جَلَسْتُ أَبِي عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لِي: مَا يُبْكِيكَ؟ فَقَصَصْتُ قِصَّتِي، قُلْتُ لَهُ: إِنَّ اللَّهَ رَزَقَنِي صُحْبَتَكَ، وَأَحْسَنْتَ صُحْبَتِي، وَقَدْ نَزَلَ بِكَ الْمَوْتُ، فَلَا أَذْرِي أَيْنَ أَتَوَجَّهُ؟ قَالَ: لَا أَيْنَ، مَا بَقِيَ أَحَدٌ أَعْلَمُهُ عَلَى دِينِ عَيْسَى فِي الْأَرْضِ، وَلَكِنْ هَذَا أَوَانٌ يَخْرُجُ فِيهِ نَبِيٌّ، أَوْ قَدْ خَرَجَ بِهَيْمَامَةٍ فَانْتَ عَلَى الطَّرِيقِ لَا يَمُرُّ بِكَ أَحَدٌ إِلَّا سَأَلْتَهُ عَنْهُ، وَإِذَا بَلَغَكَ أَنَّهُ خَرَجَ فَائِثُهُ، فَإِنَّهُ النَّبِيُّ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَآيَةُ ذَلِكَ أَنَّ يَنْ كَتِفَيْهِ خَاتَمَ النَّبُوَّةِ، وَأَنَّهُ يَأْكُلُ الْهَدْيَةَ، وَلَا يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ، قَالَ: فَكَانَ لَا يَمُرُّ بِي أَحَدٌ إِلَّا سَأَلْتُهُ عَنْهُ، فَمَرَّ بِي نَاسٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ فَسَأَلْتُهُمْ، فَقَالُوا: نَعَمْ قَدْ ظَهَرَ فِينَا رَجُلٌ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، فَقُلْتُ لِبَعْضِهِمْ: هَلْ لَكُمْ إِلَى أَنْ أَكُونَ عَبْدًا لِبَعْضِكُمْ عَلَى أَنْ تَحْمِلُونِي عُقْبَةً، وَتُطْعَمُونِي مِنَ الْكِسْرِ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ إِلَى بِلَادِكُمْ، فَإِنْ شَاءَ أَنْ يَبِيعَ بَاعَ، وَإِنْ شَاءَ أَنْ يَسْتَعْبِدَ اسْتَعْبَدَ، فَقَالَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ: أَنَا، فَصِرْتُ عَبْدًا لَهُ حَتَّى قَدِمَ بِي مَكَّةَ، فَجَعَلَنِي فِي بُسْتَانٍ لَهُ مَعَ حُبْشَانٍ كَانُوا فِيهِ، فَخَرَجْتُ وَسَأَلْتُ، فَلَقِيتُ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ بِلَادِي فَسَأَلْتُهَا، فَإِذَا أَهْلُ بَيْتِهَا قَدْ أَسْلَمُوا، وَقَالَتْ لِي: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ فِي الْحِجْرِ هُوَ وَأَصْحَابُهُ إِذَا صَاحَ عُصْفُورٌ بِمَكَّةَ، حَتَّى إِذَا أَضَاءَ لَهُمُ الْفَجْرُ تَفَرَّقُوا، فَاَنْطَلَقْتُ إِلَى الْبُسْتَانِ فَكُنْتُ أَخْتَلِفُ لِنَلِّي، فَقَالَ لِي الْحُبْشَانُ: مَا لَكَ؟ قُلْتُ: أَشْتَكِي بَطْنِي، قَالَ: وَإِنَّمَا صَنَعْتُ ذَلِكَ لِنَّا يَفْقِدُونِي إِذَا ذَهَبْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: فَلَمَّا كَانَتِ السَّاعَةُ الَّتِي أَخْبَرْتَنِي الْمَرْأَةُ الَّتِي يَجْلِسُ فِيهَا هُوَ وَأَصْحَابُهُ، خَرَجْتُ أُمْسِي حَتَّى رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَإِذَا هُوَ مُحْتَبٍ وَأَصْحَابُهُ حَوْلَهُ، فَاتَيْتُهُ مِنْ وَرَائِهِ، فَعَرَفَ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ الَّذِي أُرِيدُ، فَأَرْسَلَ حَبَوْتَهُ، فَنَظَرْتُ إِلَى خَاتَمِ

النُّبُوَّةَ بَيْنَ كِتْفَيْهِ، فَقُلْتُ: اللَّهُ أَكْبَرُ، هَذِهِ وَاحِدَةٌ، ثُمَّ انْصَرَفَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلَةُ الْمُقْبِلَةُ لَقَطْتُ ثَمَرًا جَيِّدًا، ثُمَّ انْطَلَقْتُ حَتَّى أَتَيْتُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَوَضَعْتُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ: «مَا هَذَا؟» قُلْتُ هُوَ هَدِيَّةٌ، فَأَكَلَ مِنْهَا، وَقَالَ لِلْقَوْمِ: «كُلُوا»، قَالَ: قُلْتُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، فَسَأَلَنِي عَنْ أَمْرِي، فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: «اذهَبْ فَاشْتَرِ نَفْسَكَ»، فَأَنْطَلَقْتُ إِلَى صَاحِبِي، فَقُلْتُ: بِعْنِي نَفْسِي؟ قَالَ: نَعَمْ، عَلَى أَنْ تُنْبِتَ لِي مِائَةَ نَخْلَةٍ، فَإِذَا أَنْبَتَتْ جِئْنِي بِوَزْنِ نَوَاحٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اشْتَرِ نَفْسَكَ بِالَّذِي سَأَلْتُكَ وَاتَّيْنِي بِدَلْوٍ مِنْ مَاءِ الْبُئْرِ الَّذِي كُنْتَ تَسْقِي مِنْهَا ذَلِكَ النَّخْلَ»، قَالَ: قَدَعَا لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيهَا، ثُمَّ سَقَيْتُهَا فَوَاللَّهِ لَقَدْ غَرَسْتُ مِائَةَ نَخْلَةٍ، فَمَا غَادَرْتُ مِنْهَا نَخْلَةً، إِلَّا نَبَتَتْ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّ النَّخْلَ قَدْ نَبَتَ، فَأَعْطَانِي قِطْعَةً مِنْ ذَهَبٍ، فَأَنْطَلَقْتُ بِهَا فَوَضَعْتُهَا فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ، وَوَضَعَ فِي الْجَانِبِ الْآخَرَ نَوَاحٍ، فَوَاللَّهِ مَا اسْتَقَلَّتِ الْقِطْعَةُ الذَّهَبُ مِنَ الْأَرْضِ، قَالَ: وَجِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَعْتَقَنِي.¹

ويروي أَبُو سُلَيْمَانَ عَنِ ابْنِ أَبِي سُوَيْدٍ الثَّقَفِيِّ (أَنَّهُ) قَالَ: سَمِعْتُ عُثْمَانَ بْنَ أَبِي الْعَاصِ، يَقُولُ: أَخْبَرَنِي أُمِّي، قَالَتْ: «شَهِدْتُ أَمِنَةً لَمَّا وَلَدَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا ضَرَبَهَا الْمُخَاضُ نَظَرْتُ إِلَى النُّجُومِ تَدَلَّى، حَتَّى إِنِّي أَقُولُ لَتَقَعَنَّ عَلَيَّ، فَلَمَّا وَلَدَتْ، خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَ لَهُ الْبَيْتُ الَّذِي نَحْنُ فِيهِ وَالدَّارُ، فَمَا مَيَّءٌ أَنْظُرُ إِلَيْهِ، إِلَّا نُورٌ»². ويروي عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (أَنَّهُ) قَالَ: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ، أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ".³

ويروي أَبُو تَمِيمَةَ عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَزْدِيِّ صَاحِبِ النَّبِيِّ ﷺ (أَنَّهُ) قَالَ: انْطَلَقْتُ أَنَا وَهُوَ إِلَى الْبَصْرَةِ حَتَّى أَتَيْنَا مَكَانًا يُقَالُ لَهُ بَيْتُ الْمُسْكِينِ، وَهُوَ مِنْ

¹ المعجم الكبير للطبراني: 6073

² المصدر نفسه: 355

³ سنن الدارمي: 3450

الْبَصْرَةَ مِثْلَ الثَّوْبَةِ مِنَ الْكُوفَةِ، فَقَالَ: هَلْ كُنْتَ تُدَارِسُ أَحَدًا الْقُرْآنَ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَإِذَا أَتَيْنَا الْبَصْرَةَ فَاتِنِي بِهِمْ فَأَتَيْنَاهُ بِصَالِحِ بْنِ مُسَرِّحٍ وَبِأَبِي بِلَالٍ وَنَجْدَةَ وَنَافِعِ بْنِ الْأَزْرَقِ وَهُمْ فِي نَفْسِي يَوْمَئِذٍ مِنْ أَفَاضِلِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ فَأَنْشَأَ يُحَدِّثُنِي عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ جُنْدُبٌ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَثَلُ الْعَالِمِ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ الْخَيْرَ وَيَنْسَى نَفْسَهُ كَمَثَلِ السِّرَاجِ يُضِيءُ لِلنَّاسِ وَيَحْرِقُ نَفْسَهُ»¹.

ويروي طائوس عن أبي موسى الأشعري (أنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ الْأَيَّامَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى هَيْئَتِهَا، وَيَبْعَثُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ زُهْرَاءَ مُنِيرَةً أَهْلُهَا يَحْفُونَ بِهَا كَالْعُرُوسِ تُهْدَى إِلَى كَرِيمَتِهَا، تُضِيءُ لَهُمْ، يَمْشُونَ فِي ضَوْئِهَا، أَلْوَانُهُمْ كَالثَّلَاجِ بَيَاضًا، وَرِيحُهُمْ يَسْطَعُ كَالْمِسْكِ، يَخُوضُونَ فِي جِبَالِ الْكَافُورِ يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ الثَّقَلَانِ مَا يُطْرِقُونَ تَعْجُبًا، حَتَّى يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ، لَا يُخَالِطُهُمْ أَحَدٌ إِلَّا الْمُؤَذِّنُونَ الْمُخْتَسِبُونَ"².

ويروي ابن عباس عن النبي ﷺ أَنَّهُ صَلَّى فِي كُسُوفٍ، قَرَأَ ثَمَّ رَكَعَ، ثُمَّ قَرَأَ ثَمَّ رَكَعَ، ثُمَّ قَرَأَ ثَمَّ رَكَعَ، ثُمَّ قَرَأَ ثَمَّ رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ وَالْأُخْرَى مِثْلَهَا. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: قَدْ خَرَجْتُ طَرُقَ هَذِهِ الْأَخْبَارِ فِي "كِتَابِ الْكَبِيرِ"، فَجَانِزٌ لِلْمَرْءِ أَنْ يُصَلِّيَ فِي الْكُسُوفِ كَيْفَ أَحَبَّ وَشَاءَ مِمَّا فَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ عَدَدِ الرُّكُوعِ، إِنْ أَحَبَّ رَكَعَ فِي كُلِّ رُكْعَةٍ رُكُوعَيْنِ، وَإِنْ أَحَبَّ رَكَعَ فِي كُلِّ رُكْعَةٍ ثَلَاثَ رُكْعَاتٍ، وَإِنْ أَحَبَّ رَكَعَ فِي كُلِّ رُكْعَةٍ أَرْبَعَ رُكْعَاتٍ، لِأَنَّ جَمِيعَ هَذِهِ الْأَخْبَارِ صَحَاحٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَهَذِهِ الْأَخْبَارُ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى فِي كُسُوفِ الشَّمْسِ مَرَاتٍ لَا مَرَّةً وَاحِدَةً. إِبْرَاهِيمَ. فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَصَلَّى بِالنَّاسِ سِتَّ رُكْعَاتٍ فِي أَرْبَعِ سَجَدَاتٍ، كَثُرَ ثُمَّ قَرَأَ فَأَطَالَ الْقِرَاءَةَ، ثُمَّ رَكَعَ نَحْوًا مِمَّا قَامَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَرَأَ دُونَ الْقِرَاءَةِ الْأُولَى، ثُمَّ رَكَعَ نَحْوًا مِمَّا قَرَأَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَرَأَ دُونَ الْقِرَاءَةِ الثَّانِيَةِ، ثُمَّ رَكَعَ نَحْوًا مِمَّا قَرَأَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، ثُمَّ انْحَدَرَ، فَسَجَدَ سَجْدَتَيْنِ، ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى ثَلَاثَ رُكْعَاتٍ قَبْلَ أَنْ

¹ المعجم الكبير للطبراني: 1681

² صحيح ابن خزيمة: 1730

يَسْجُدُ، لَيْسَ فِيهَا رُكْعَةٌ إِلَّا الَّتِي قَبْلَهَا أَطْوَلُ مِنَ الَّتِي بَعْدَهَا إِلَّا أَنْ رُكُوعَهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ تَأَخَّرَ فِي صَلَاتِهِ، فَتَأَخَّرَتِ الصُّفُوفُ مَعَهُ، ثُمَّ تَقَدَّمَ فَتَقَدَّمَتِ الصُّفُوفُ مَعَهُ، فَقَضَى الصَّلَاةَ وَقَدْ أَضَاءَتِ الشَّمْسُ، ثُمَّ قَالَ: "أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، وَإِنَّهُمَا لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ بَشَرٍ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَصَلُّوا حَتَّى تَنْجَلِيَ".¹

وِيَحَدِّثُ لُقْمَانَ بْنِ عَامِرٍ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ (أَنَّهُ) قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا كَانَ بُدْؤُ أَمْرِكَ؟ فَقَالَ: «دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبُشْرَى عِيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ»²

وأما "أضاء له" متعدياً فقد قلَّ استخدامه في كلام العرب فقال أبو الطمحان القبيني:

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دجى الليل حتى نظمَ الجَزَعُ ثاقبه³
وقال الفرزدق:

أعدْ نظراً يا عبدَ قيسِ فرُبَّما أضاءتْ لك النارُ الحمارَ المُقَيِّداً⁴
وقال الأخطل:

تُضيء لنا الظلماء غرة وجهه إذا الأفعسُ المِبطانُ أرتجَ حاجبه⁵
وقال الأخطل أيضاً:

نورُ أضاء لنا البلادَ وقد دَجَّتْ ظُلُمٌ تكادُ بها الهداةُ تجور⁶

¹ المصدر نفسه: 1385

² المعجم الكبير للطبراني: 7729

³ شرح ديوان الحماسة، 945/2

⁴ ديوانه، ص 161

⁵ ديوانه، ص 40

⁶ ديوانه، ص 117

وقال جرير:

هل تعرفُ الربعَ إذ في الربعِ عامرُه فاليوم أصبح قفراً غيرَ معمور
أو تبصران سنا برقي أضاء لنا رمل السُمينة ذا الأنقاء والدور¹

وقال أيضاً:

تُضيء لنا الحجالُ سنا غمامٍ إذا لمَحَتْ غوارِبُه انجلينا²
وأما كلمة "أظلم" في مختلف صورها الصرفية فقد استخدمت في كلام العرب
لمعنيين: لكون الشيء مسوداً بالظلام ولجعل الشيء مسوداً بالظلام. فيقول
الشماخ في رثاء عمر بن الخطاب:

أبعدَ قتيلٍ بالمدينة أظلمت له الأرضُ تهتزُّ العِضاءُ بأسوق³
وقال الفرزدق:

أتشربُ أسلابَ امرئٍ كان وجهُه إذا أظلمت سِيما امرئٍ السوء أسفرا⁴
وقال الفرزدق أيضاً:

أبوا أن يفرّوا يومَ كُرِّ عليهم، ولا يقتل الأبطالَ إلا كُرُورها
جَلّوا بالعوالي والسيوف غشاوةً، يكاد من الإظلام يعشى بصيرها⁵
ومنه دخل في الظلمة فقال الشاعر الجاهلي محرز بن المكعب الضبي:

فظلّ لهم على الأنقاء منا إلى أن أظلموا يوم طويل⁶

¹ ديوانه، ص 193

² ديوانه، ص 477

³ ديوانه، 676/1

⁴ ديوانه، ص 253

⁵ ديوانه، ص 273

⁶ قصائد جاهلية نادرة، ص 195

وقال قرواش بن حوط الضبي:

غَضَّ الوعيدَ فما أكون لموعدي قَنَصًا ولا أَكْلاً له مُتَخَضِّما
ضَبْعًا مُجَاهِرَةً وليثا هُدْنَةً وَتُعِيلِبَا خَمَرٍ إِذَا مَا أَظْلَمًا¹

وقال الأحوص الأنصاري:

كشمسٍ نهارٍ أبَتَ للناسِ، إنْ بَدَتْ أَضَاءَتْ وَإِنْ غَابَتْ مَحَتْهُ فَأَظْلَمًا²
وقال الفرزدق:

أعوذ ببشرٍ والمعلّى ومنذر سماكان كانا: ذو سلاحٍ ومُرْزَمُ
وثالثهنّ المهتدى ببياضه إلى الخير في ليلٍ وساريه مُظْلِمٌ³
وقال عامر المحاربي:

وكنّا نجومًا كلما انقضَّ كوكبٌ بدا زاهرٌ منهنّ ليس بأقْتَمًا⁴
بدا زاهرٌ منهنّ تأوي نجومه إليه إذا مستأسد الشرّ أظْلَمًا
ألا أيها المستخبري ما سألتني بأيامنا في الحرب إلا لتعلمًا⁵
وقال المرقش الأكبر:

ثعلبٌ ضَرَبَ القوانس بالـ سيفٍ وهادي القوم إذا أَظْلَمَ⁶
ومنه لظلام الليل وهذا كثير فقال الشاعر الجاهلي زهير بن مسعود الضبي:

حتى أَضَاءَ الصبحُ وانحسرت عنه غمايهُ مُظْلِمٌ دَمَسٌ⁷

¹ شرح ديوان الحماسة، 870/2

² شعره، ص 247

³ ديوانه، ص 569

⁴ أقتم: ما عليه الغبار

⁵ ديوان المفضليات، 319

⁶ ديوان المفضليات، ص 238

⁷ قصائد جاهلية نادرة، ص 88

وقال طفيل الغنوي:

فما أمّ درّاصٍ بأرضٍ مُضَلَّةٍ بأعْدَرٍ من قيس إذا الليلُ أظْلَمَ¹
وقال عمر بن ربيعة العامري:

ويا حبّذا برْدُ أنيابِه إذا أظْلَمَ الليلُ واجلُودًا²
وله أيضًا:

في غفلةٍ ممن نحاذر قولَه وسوادٍ ليلٍ ذي دواجٍ مُظْلِمٍ³
وقال القعقاع بن ربيعة:

إن يُظْلِمَ الليلُ تعتَلّا بظلمته أو تنظّرا ظُهرًا يطرُفكما النظر⁴
وقال جرير:

ألا طرقتُ شعْثاءَ والليلُ مُظْلِمٌ أحمّ عُمانِيًّا وأشعثَ ماضيا⁵
وقال حميد بن ثور الهلالي يصف البرق:

خفا كاقْتِذاءِ الطيرِ وهنّا كأنه سراجٌ إذا ما يكشفُ الليلُ أظْلَمًا⁶
وقال الشاعر الوحشي:

فسِرِّي كإعلاني وتلك سَجيتي وإظلامُ ليلى مثلُ ضوءِ نهاري⁷

¹ ديوانه، ص 140

² ديوانه، ص 179

³ ديوانه، ص 496، 477

⁴ ديوان الوحشيات، ص 207

⁵ ديوانه، ص 500

⁶ ديوانه، ص 32 وأظلم: طفا نوره.

⁷ كتاب الوحشيات، ص 272

وقال الفرزدق:

شجاعٌ إذا لاقى، ورامٍ إذا رمى، وهادٍ إذا أظلم الليلُ مصدع¹
وقال الفرزدق أيضاً:

ومُظلمةٌ عليّ من الليالي جلا ظلماءها عني بلال²
وله ما يلي:

لو كنتُ صلبَ العود أو كابن معمر لخضتُ حياضَ الموت والليلُ مُظلم³
غزا من أصول النخل حتى إذا انتهى بكهـل أدّى رمحه شرّاً مغنم
فلو كنتُ صلبَ العود أو ذا حفيظة لوريتَ عن مولاك في ليلٍ مُظلم⁴
أبوكم أبو العاصي الذي كان ينجلي به الضوء عمن كان بالليل أظلم⁵
وقال الأخطل:

فجاء وقد بليت عليه ثيابه سحابةٌ مُسودّ من الليل أظلم⁶
وفي ليلةٍ لا ينبحُ الكلبُ ضيقها إذا نُبّه المبلودُ فيها تغمغما
فلما أضاءته لنا النار، واصطلى أضاءت هججاً موحشاً قد تهشّم⁷
وقال جرير:

سعدّهم المتيمّنون بأمرهم وهم الضياء لليلة الإظلام⁷

¹ ديوانه، ص 366 ومصدع: الذي يكشف الأمر ويبينه

² ديوانه، ص 472، 561

³ ديوانه، ص 547

⁴ ديوانه، ص 519

⁵ ديوانه، ص 521 وأظلم: وقع في ظلمة الليل أو أصبح فاقد الضوء

⁶ ديوانه، ص 314

⁷ ديوانه، ص 428

وقال أوس بن حجر:

كان بنو الأبرص أقرانكم فادركوا الأحداث والأقدام
إذ قال عمرو لبني مالك لا تعجلوا المرة أن تحكمما
باتوا يصيب القوم ضيقاً لهم حتى إداما ليهم أظلماً¹
ومنه كون اليوم مظلماً فقال بن المكعب الضبي:

ظلمت تدوس بني كعب بكلكلها وهم يوم بني نهد بإظلام²
وقال حسان بن ثابت الأنصاري:

أظلمت الأرض لفقدانه واسود نور القمر الناصل³
وقال الفرزدق:

ولكنني استقيت أعراض مازن لأيامها من مستنير ومظلم⁴
ومنه لغروب الشمس فقال مهلهل بن ربيعة:

لما نعى الناعي كليباً أظلمت شمس النهار فما تريد طلوعاً⁵
ومنه لظلام السحاب فقال الأخطل:

ومظلم⁶ تعمل الشكوى حوامله مستفرغ عن سجال العين منشط⁷

¹ ديوانه، ص 113

² ديوان المفضليات، ص 252

³ شرح ديوانه، ص 263

⁴ ديوانه، ص 584

⁵ ديوان شعره، ص 48

⁶ مظلم: سحاب كثيف

⁷ ديوانه، ص 30

وقال الأخطل:

وإن تدجّت¹ على الأفاق مُظلمةٌ كان لهم مخرجٌ منها ومُعْتَصِرٌ²
ومنه لسواد القعر فقال الأخطل:

فأقسيم لو أدركنه لقذفنه إلى صعبة الأرجاء مُظلمة القعر³
وقال عبد الرحمن بن حسان:

ولولا هم لكننت كحوت بحر سرى في مُظلم الغمرات داجي⁴
وكذا يستخدم لشدة ظلام السواد فقال سنان بن أبي حارثة:

منا بشجنة والذباب فوارس وعُتائِدٍ مثلُ السواد المُظلم⁵
وقال الفرزدق:

إذا أظلمت سيما امرئ السوء أسفرت خلائق من علوان يدعو دليلها⁶
وحق هذا يستخدم لامرأة مومسة يظلم عليها الليل فتقول العوراء بنت سُبَيْع في
رثاء عبد الله:

طَيَّانِ طاوي الكشح لا يُرَخِّى مُظلمة إزاره⁷
وأما استخدامه متعديًا فقال الفرزدق:

وقد تَرَكَ الأيامُ لي بعد صاحبي إذا أظلمت عينًا طويلًا سِجَامُها⁸

¹ تدجّى: أظلم

² ديوانه، ص 105 ومعتصر: ملجأ

³ ديوانه، ص 114، 149 ومظلمة القعر: هوة القبر

⁴ كتاب الوحشيات، ص 227

⁵ ديوان الأصمعيات، ص 208

⁶ ديوانه، ص 461

⁷ شرح ديوان الحماسة، 1/685

⁸ سجام: انهمار

كَأَنَّ دَلُوحًا تُرْتَقَى فِي صَعِيدِهَا، إِذَا نُبِّهَ الْمَبْلُودُ فِيهَا تَغْمَعُهَا
عَلَى حُرِّ خَدَيِّ مَنْ يَدَيَّ ثَقْفِيَّةَ تَنَاقُثُ مِنْ إِنْسَانٍ عَيْنِي نِظَامُهَا¹
وَقَالَ رُوبَةُ بْنُ الْعِجَاجِ:

وَبِالْفِعَالِ لَكَ فِي الْمُقَدَّمِ
وَنُورٌ مَضَى تَنْوِيرُهُ لَمْ يُظْلَمْ
وَرَاءَ جَرِي السَّابِقِ الْمُصَمَّمِ
رَمَيْتَ عَنْ عِرْضِكَ رَمِيَّ الْمَرْجَمِ
بَحْسَبٍ ثَمَّ وَرَأْيٍ فَدُغَمِ
وَعِنْدَ إِمْرَارِ الْمُغَارِ الْمُبْرَمِ²

وَقَالَ الْأَخْطَلُ عَنِ الْمَصِيبَةِ الَّتِي تَجْعَلُ الْجَوَّ مَسُودًا لِلْمَرَّةِ:

وَمُظْلِمَةٌ³ تَضِيقُ بِهَا ذِرَاعِي وَيَتَرَكْنِي بِهَا الْحَدِيبُ النَّصُورُ
كَفُونِهَا وَلَمْ يَتَوَاكَلُوْهَا بِخُلُقِي لَا أَلْفُ وَلَا عَثُورُ⁴
وَلَنَذْكُرْ هُنَا أَنَّ "أَظْلَمَ" مَعَ صِلَةِ "عَلَى" لَا يَأْتِي إِلَّا لَازِمًا فَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ الْحَمَاسِيُّ:
وَدَاعٍ دَعَا بَعْدَمَا أَظْلَمْتُ عَلَيْهِ الْبِلَادُ وَلَمْ يَكْلِبِ⁵
وَقَالَ بَكْرُ بْنُ النَّطَّاحِ:

فَكَأَنَّهَا فِيهِ نَهَارٌ سَاطِعٌ وَكَأَنَّهُ لَيْلٌ عَلَيْهِ مُظْلِمٌ⁶

¹ ديوانه، ص 523-524

² ديوانه، 76/3

³ المصيبة التي تُعَيِّ البصير

⁴ ديوانه، ص 184 وَخُلُوقُ ج: خُلُق: صَاحِبُ الْأَخْلَاقِ الْعَالِيَةِ

⁵ شرح ديوان الحماسة، 925/2

⁶ شرح ديوان الحماسة، 775/2

وقال جرير في رثاء عبد العزيز:

وأظلمت البلاد¹ عليه حزناً وقلت: أْفَارَقَ القمَرُ المنير²
وقال علي بن أبي طالب عليه السلام: "--- وإن أظلم عليه أمرٌ اكتتم به لما يعلم من جهل نفسه".³
وتعال أنشد لك بيتاً أظلم فيه الليل والنهارُ فكأنَّ الكون كله أصبح مظلماً. قال أبو ذؤيب الهذلي:

وعَيَّرَهَا الواشون أني أحبها وتلك شكاةٌ ظاهرٌ عنك عازها
فلا يهنأ الواشين أني هجرتها وأظلم دوني ليها ونهارها⁴
وحتى لم يستخدم "أضاء على" إلا لازماً فقال نهشل بن حري:

تضيء على القوم الكرام وجوههم طوال اليهودي من وِرادٍ ومن سُقر⁵
وقال أبو صعتر البولاني:

أودُّهم وُدّاً إذا خامر الحشا أضواء على الأضلاع والليل دامس⁶
واستخدمت هذه الكلمة في الأحاديث النبوية بمختلف صورها الصرفية فيحدث نافع أن ابن عمر استُصْرِخَ على صفية، فسار في تلك الليلة مسيرة ثلاث ليالٍ، سار حتى أمسى، فقلت: الصلاة، فسار ولم يلتفت، فسار حتى أظلم، فقال له سالم أو رجل: الصلاة وقد أمسيت، فقال: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان إذا عَجَلَ به السير جمع

¹ وقال مروان بن أبي حفصة يرثي معن بن زائدة الشيباني:

وأظلمت العراقُ وأورثتها مصيبتُهُ المجلَّلةُ اختلالاً

ديوانه، ص 79

² ديوانه، ص 173

³ نهج البلاغة، ص 60

⁴ ديوان الهذليين، 21/1

⁵ عشرة شعراء مقلون، ص 117

⁶ شرح ديوان الحماسة، 643/1

ما بين هاتين الصلاتين، وإني أريد أن أجمع بينهما، فسيروا، فسار حتى غاب الشفق، ثم نزل فجمع بينهما".¹

ويحدث الوليد بن العيزار عن ابن عباس (أنه) قال: "قال أبو جهل: لئن عاد محمد يصلي خلف المقام لأسطون به، فقيل: هو ذاك يصلي خلف المقام، فانطلق نحوه، ثم رجع، فقال: واللآلئ والعُرَى لقد أظلم بيبي وبينته من الكتائب، قال ابن عباس: لو تحرك لأخذته الزبانية" ثم قرأ: (فليدع ناديه سندع الزبانية) [العلق: 18]²

ويروي ثابت عن أنس أنه قال: "لما كان اليوم الذي دخل رسول الله ﷺ فيه المدينة أضياء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء، وما نفضنا عن النبي ﷺ الأيدي، وإنا لفي دفنه حتى أنكرنا قلوبنا". [5: 49]³

ويحدث محمد بن إسحاق عن موسى بن يسار عمه (أنه) قال: بلغني أن سلمان كتب إلى أبي الدرداء: إن العلم كالتبائع يغشاهن الناس فيختلجها هذا وهذا، فينفق الله به غير واحد، وإن حكمة لا يتكلم بها كجسد لا روح فيه، وإن علما لا يخرج ككثر لا ينفق منه، وإنما مثل العالم كمثل رجل حمل سراجا في طريق مظلم يستضيء به من مر به، وكل يدعو له بالخير".⁴

ويحدث أبو إسحاق عن البراء بن عازب (أنه) قال: بعث رسول الله ﷺ إلى أبي رافع اليهودي رجلا من الأنصار، فأمر عليهم عبد الله بن عتيك، وكان أبو رافع يؤذي رسول الله ﷺ ويعين عليه، وكان في [ص: 92] حصن له بأرض الحجاز، فلما دنوا منه، وقد غربت الشمس، وراح الناس بسرحهم، فقال عبد الله لأصحابه: اجلسوا مكانكم، فإني منطلق، ومثلطف للبواب، لعلني أن أدخل، فأقبل حتى دنا

¹ مسند أحمد: 5120

² المعجم الكبير للطبراني: 12693

³ صحيح ابن حبان: 6634

⁴ الإتحاف: 5930 وسنن الدارمي: 598

مِنَ الْبَابِ، ثُمَّ تَفَنَعَ بِتَوْبِهِ كَأَنَّهُ يَفْضِي حَاجَةً، وَقَدْ دَخَلَ النَّاسُ، فَهَتَفَ بِهِ الْبَوَّابُ، يَا عَبْدَ اللَّهِ: إِنْ كُنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَدْخُلَ فَادْخُلْ، فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُغْلِقَ الْبَابَ، فَدَخَلْتُ فَكَمَنْتُ، فَلَمَّا دَخَلَ النَّاسُ أَغْلَقَ الْبَابَ، ثُمَّ عَلَّقَ الْأَغَالِيقَ عَلَى وَتْدٍ، قَالَ: فَقُمْتُ إِلَى الْأَقَالِيدِ فَأَخَذْتُهَا، فَفَتَحْتُ الْبَابَ، وَكَانَ أَبُو رَافِعٍ يُسَمِّرُ عِنْدَهُ، وَكَانَ فِي عِلَالٍ لَهُ، فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْهُ أَهْلُ سَمَرِهِ صَعِدْتُ إِلَيْهِ، فَجَعَلْتُ كُلَّمَا فَتَحْتُ بَابًا أَغْلَقْتُ عَلَيَّ مِنْ دَاخِلٍ، قُلْتُ: إِنْ الْقَوْمُ نَذَرُوا بِي لَمْ يَخْلُصُوا إِلَيَّ حَتَّى أَقْتُلَهُ، فَأَنْتَهَيْتُ إِلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ فِي بَيْتٍ مُظْلِمٍ وَسُطَّ عِيَالِهِ، لَا أَذْرِي أَيْنَ هُوَ مِنَ الْبَيْتِ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا رَافِعٍ، قَالَ: مَنْ هَذَا؟ فَأَهْوَيْتُ نَحْوَ الصَّوْتِ فَأَضْرِبُهُ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ وَأَنَا دَهْشُ، فَمَا أَغْنَيْتُ شَيْئًا، وَصَاحَ، فَخَرَجْتُ مِنَ الْبَيْتِ، فَأَمَكْتُ غَيْرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ دَخَلْتُ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا الصَّوْتُ يَا أَبَا رَافِعٍ؟ فَقَالَ: لِأَمِكَ الْوَيْلُ، إِنَّ رَجُلًا فِي الْبَيْتِ ضَرَبَنِي قَبْلَ السَّيْفِ، قَالَ: فَأَضْرِبُهُ ضَرْبَةً أَثَخَّنَتْهُ وَلَمْ أَقْتُلْهُ، ثُمَّ وَضَعْتُ ظِلَّةَ السَّيْفِ فِي بَطْنِهِ حَتَّى أَخَذَ فِي ظَهْرِهِ، فَعَرَفْتُ أَنِّي قَتَلْتُهُ، فَجَعَلْتُ أَفْتَحُ الْأَبْوَابَ بَابًا بَابًا، حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى دَرَجَةٍ لَهُ، فَوَضَعْتُ رِجْلِي، وَأَنَا أَرَى أَنِّي قَدْ انْتَهَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ، فَوَقَعْتُ فِي لَيْلَةٍ مُقْمَرَةٍ، فَأَنْكَسَرَتْ سَاقِي فَعَصَبَتْهَا بِعِمَامَةٍ، ثُمَّ انْطَلَقْتُ حَتَّى جَلَسْتُ عَلَى الْبَابِ، فَقُلْتُ: لَا أَخْرُجُ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَعْلَمَ: أَقَتَلْتُهُ؟ فَلَمَّا صَاحَ الدَّيْلُ قَامَ النَّاعِي عَلَى السُّورِ، فَقَالَ: أَنْعَى أَبَا رَافِعٍ تَاجِرَ أَهْلِ الْحِجَازِ، فَأَنْطَلَقْتُ إِلَى أَصْحَابِي، فَقُلْتُ: النَّجَاءُ، فَقَدْ قَتَلَ اللَّهُ أَبَا رَافِعٍ، فَأَنْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَحَدَّثْتُهُ، فَقَالَ: «ابْسُطْ رِجْلَكَ» فَبَسَطْتُ رِجْلِي فَمَسَحَهَا، فَكَأَنَّهَا لَمْ أَشْتِكِهَا قَطُّ.¹

واستخدم "أضاء" و"أظلم" معًا في الحديث الآتي فيحدث جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمَانَ الضُّبُعِيِّ، قَالَ: حَدَّثَنَا ثَابِتٌ عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: لَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، وَمَا نَفَضْنَا عَنْ النَّبِيِّ ﷺ - الْأَيْدِي حَتَّى أَنْكَرْنَا قُلُوبَنَا.²

¹ صحيح البخاري: 4039

² صحيح ابن ماجه: 1631

موقع استخدامهما في القرآن الكريم: استخدم القرآن مختلف صور الإضاءة ثلاث مرات: مرتين في سورة البقرة ومرة في سورة النور فيقول تعالى:

"مَثَلُهمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّ بكمُ عُمى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِيْءِ آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾" (سورة البقرة: 17-20)

"اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ تُوِّرُّ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾" (سورة النور: 35)

يبدو مما قدّمنا من شواهد كلمة "الإضاءة" و "الإظلام" على كونهما متعدّيين ولازمين أنّ "الإضاءة" عامّ استخدامه لازماً ومتعدّياً معاً ولكن حينما يستخدم مع صلة اللام كمثّل "لهم" فيندر استعماله متعدّياً بينما استخدامه في هذه الحالة لازماً عامّ شائع. وأما "الإظلام" فاستخدامه متعدّياً نادر للغاية حتى اضطرّ الزمخشري إلى الاستدلال بأبي تمام الذي ليس من شعراء عصور الاستشهاد ولكن استخدامه لازماً عامّ شائع. وأما استخدامه مع صلة "على" فلا يستعمل إلا لازماً.

والآن للنظر في مواضع استخدامهما في القرآن الكريم ففي الآية السابعة عشر لسورة البقرة استخدم "أضاءت" متعدّياً مفعوله "ما حوله" بينما استخدم في الآية العشرين من نفس السورة لازماً لأن استخدامه مع صلة اللام يعمّ في كونه لازماً لا متعدّياً ويؤكدّه "أظلم عليهم" الذي لم يستعمل إلا لازماً. وكذا استخدم لازماً في سورة النور.

وبجانب هذه استعمل القرآن كلمة "ضياء" من نفس المادة ثلاث مرات في كتابه العزيز فيقول تعالى:

"هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ" (سورة يونس: 5)

"قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَآ تَسْمَعُونَ" (سورة القصص: 71)

"وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يَحْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ۝" (سورة الأنبياء: 48-49)

ففي المثالين الأولين استخدمت الكلمة للضياء المادي بينما استخدمت في المثال الثالث للنور الروحي الذي يهبه الله لأخلص عباده.

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم
2. جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، تحقيق: محمد علي البجادي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.
3. ديوان الأخطل، شرح: مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1994م
4. ديوان الأصمعيات، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف بمصر، ط3
5. ديوان الأعشى الكبير بشرح محمود إبراهيم محمد الرضواني، وزارة الثقافة والفنون والتراث، إدارة البحوث والدراسات الثقافية، الدوحة، قطر، 2010م
6. ديوان الخنساء، اعتنى به وشرحه: حمدو طمّاس، دار المعرفة، بيروت، 2004م
7. ديوان الشماخ بن ضرار الشيباني، تحقيق وشرح: صلاح الدين الهادي، دار المعارف بمصر، د.ت.
8. ديوان الفرزدق، شرح الأستاذ علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1987م
9. ديوان المفضليات للمفضل الضبي، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، ط6
10. ديوان الهذليين، الجمهورية العربية المتحدة، الثقافة والإرشاد القومي، طبعة دار الكتب، 1996م
11. ديوان امرئ القيس، ضبطه وصحّحه: الأستاذ مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م
12. ديوان أوس بن حجر، تحقيق وشرح: د. محمد يوسف نجم، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1980م
13. ديوان جرير، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1986م

14. ديوان حسان بن ثابت الأنصاري الخزرجي، شرح: ضابط بالحربية، مطبعة السعادة، مصر، د.ت
15. ديوان حميد بن ثور الهلالي، صنعة: الأستاذ عبد العزيز الميمني، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1951م
16. ديوان زهير بن أبي سلمى، شرح وتقديم: الأستاذ علي حسن فاعور، دار التب العلمية، بيروت، ط: 1، 1988م
17. ديوان طفيل الغنوي، تحقيق: حسّان فلاح أوغلي، دار صادر، بيروت، ط: 1، 1997م
18. ديوان عمر بن أبي ربيعة المخزومي القرشي، مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر.
19. ديوان مروان بن أبي حفصة، جمع وتحقيق وتقديم: د. حسين عطوان، دار المعارف، ط: 3، 1982م
20. ديوان مهلهل بن ربيعة، شرح وتقديم: طلال حرب، الدار العالمية، د.ت.
21. شرح ديوان الحماسة، كتب حواشيه: غريد الشيخ، وضع فهارسه العامة: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000م
22. شرح ديوان روبة بن العجاج، تحقيق: د. ضاحي عبد الباقي محمد، جمهورية مصر العربية، مجمع اللغة العربية، ط: 1، 2011م
23. شعر عمرو بن معديكرب الزبيدي، جمع وتنسيق: مطاع الطرابيشي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ط: 2، 1985م
24. شعراأحووس الأنصاري، جمع وتحقيق: عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط: 2، 1990م
25. عشرة شعراء مقلّون، صنعة: أ.د. حاتم صالح الضامن، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد، العراق، 1990م
26. قصائد جاهلية نادرة، للدكتور يحيى الجبوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: 2، 1988م
27. كتاب الوحشيات، لأبي تمام الطائي، تحقيق: عبد العزيز الميمني الراجكوتي، وزيادة: محمود محمد شاكر، ط: 3، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1968م

28. مجموعات الحديث (أخذنا معظم الأحاديث من المكتبة الشاملة)
29. نهج البلاغة، ضبط نصه وابتكر فهرسه العلمية، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط4، 2004م

دلالات الألفاظ والتراكيب في سورة الفاتحة دراسة بيانية تحليلية

- د. محمد وسيم خان¹

ملخص البحث

اشتمل هذا البحث على مقدمة أشاد فيها الباحث بأهمية الموضوع، وبيّن أسباب اختياره، وذكر الدراسات السابقة عن الموضوع، وهدف البحث، وخطته، والمنهج المتبع فيه، وختمها بكلمة الشكر. ثم قسم الباحث بحثه إلى ثلاثة مباحث أولها نص سورة الفاتحة، وثانيها دراسة الألفاظ، وثالثها دراسة التراكيب في السورة.

وقد ركّز الباحث على الدلالات اللغوية والبيانية، وما احتوت عليه الحروف والكلمات المفردة في ذاتها من معانٍ عميقة دقيقة، وإشارات لطيفة عجيبة، وعني ببيان الألفاظ، وشرح التراكيب، وما اشتملت عليه من مفاهيم ودلالات.

وقد مضى الباحث ملتزمًا في دراسته المنهج الوصفي التحليلي، محاولًا من خلاله الوصول إلى الهدف الذي يسعى إلى تحقيقه، وهو إبراز الجوانب البلاغية والكشف عن الوجوه البيانية في سورة الفاتحة من خلال دلالات الألفاظ والتراكيب، جامعًا بين الدراسة اللغوية الدلالية والدراسة البيانية البلاغية، ملتزمًا بهما؛ لما فيهما من ربط مباشر وثيق غير قابل للانفصال للكشف عن جماليات القرآن ودقائقه اللغوية، وعجائبه البيانية، ولطائفه البلاغية، معتمدًا على أقوال المفسرين واللغويين والبيانين.

وانتهى الباحث من خلال البحث والدراسة للموضوع إلى نتائج رصدتها في خاتمة البحث.

¹ أستاذ مساعد في البلاغة العربية، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والفنون، جامعة حائل، المملكة العربية السعودية.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الكريم، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فهذه دراسة بيانية تحليلية للألفاظ والتراكيب في سورة الفاتحة، وهي تحاول كشف بعض ما فيها من أسرار البيان، وجمال الأسلوب، وبلاغة التعبير مستعينة بالنظر في كتب علماء التفسير، واللغة، ومن عُثُوا ببيان جماليات التعبير القرآني.

وقد ربطت فيها بين اللغة والبلاغة وبين الدلالة والبيان؛ حيث قمت بتحليل الحروف والكلمات، والمفردات والتراكيب، والكشف عما فيها من بلاغة وبيان؛ إذ تتجلى فصاحة القرآن الكريم وبلاغته وبيانه بداية من اختيار الحروف والكلمات، ثم الجمل والنظم والتأليف.

أهمية الموضوع: يكفي لأهمية هذا الموضوع أنه متعلق بالقرآن، بل بأَمِّ القرآن، يكشف عن بعض ما اشتملت عليه هذه السورة العظيمة من المعاني الجليلة، والمطالب العالية، وينقب عن بعض ما احتوت عليه من ألوان البلاغة والبيان، وتتلخص أهميته في النقاط التالية:

1. أن الموضوع متّصل بالقرآن الكريم اتصالاً مباشراً يبحث فيه، ويكشف عن بعض جمالياته.

2. وأنه متعلق بسورة عظيمة من سور القرآن، وهي سورة الفاتحة التي هي فاتحة الكتاب وأَمِّ القرآن.

3. وأنه يبحث في جانب يتصل بإعجاز القرآن الكريم.

أسباب اختيار الموضوع: هذه الأسباب السابقة الكاشفة عن أهمية هذا الموضوع، ورغبتني في دراسة آيات القرآن دراسة تحليلية تنعي الذوق، وتساعدني

على الوقوف عند دقائق القرآن اللغوية، وجمالياته البيانية؛ دفعتني إلى اختيار هذا الموضوع للدرس والبحث.

الدراسات السابقة: أفنى العلماء أعمارهم في دراسة القرآن وتفسيره والعناية به من جوانب مختلفة، ولا يزالون يستمرون في ذلك مبتغين به وجه الله تعالى.

وعلى هذا فإنّ مؤلفات التفسير اللغوي والبياني وكتب إعراب القرآن على العموم تعدّ من الدراسات السابقة لهذه السورة حيث تناولتها من جوانب مختلفة.

وأخص بالذكر هنا الكشف للزمخشري (ت 538هـ)، والتفسير الكبير للرازي (ت 604هـ)، والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (ت 745هـ)، والدر المصون للسمين الحلبي (ت 756هـ)، وروح المعاني للآلوسي (ت 1270هـ)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (ت 1393هـ)، وأضواء البيان للعلامة محمد الأمين الشنقيطي (ت 1393هـ) رحمهم الله جميعاً؛ لما لها صلة أقوى بمضمون هذه الدراسة والبحث؛ إذ تكشف عن جماليات التعبير القرآني بشكل واضح ملموس.

ثم هناك دراسات خاصة تناولت هذه السورة أو جزءاً منها بالشرح والتفسير والبيان، وهي كثيرة، وأذكر منها ما لها صلة مباشرة بالموضوع، وهي:

- بدائع الفوائد لابن القيم (ت 751هـ).
 - لمسات بيانية في نصوص من التنزيل للدكتور فاضل صالح السامرائي.
- هدف البحث: يهدف هذا البحث إلى إبراز الجوانب البلاغية والكشف عن الوجوه البيانية في سورة الفاتحة من خلال دلالات الألفاظ والتراكيب.
- خطة البحث: اشتملت خطة البحث على مقدمة، وثلاثة مباحث، والخاتمة، والفهرس.
- المقدمة: وفيها بيان أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وخطة البحث، ومنهجه، وكلمة الشكر.

المبحث الأول: نص سورة الفاتحة.

المبحث الثاني: دلالات الألفاظ في سورة الفاتحة، وفيه تسعة مطالب:

المطلب الأول: لفظ الجلالة (الله) ودلالاتها البيانية.

المطلب الثاني: صفتا (الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ): دلالاتهما البيانية، والفائدة في اقترانهما.

المطلب الثالث: كلمة (الْحَمْدُ)، وما فيها من دلالات، والفرق بينها وبين الشكر.

المطلب الرابع: دلالات كلمتي (رَبِّ الْعَالَمِينَ) البيانية، وما في كلمة (الرَّبِّ) من الدقة والإيحاء.

المطلب الخامس: دلالات كلمة (مَلِكٍ) و(الَّذِينَ) البيانية في قوله تعالى: (مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ)، والدقة في إضافة الملك إلى اليوم، وما يحمل التعبير ب(يَوْمَ الدِّينِ) من المعاني والإيحاءات.

المطلب السادس: دلالات (العبادة) و (الاستعانة) البيانية في قوله تعالى: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)، والحكمة من الاقتران بينهما.

المطلب السابع: دلالات (الهداية) البيانية في قوله تعالى: (أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ).

المطلب الثامن: دلالات (الصِّرَاطِ) و (الْمُسْتَقِيمِ) البيانية في قوله تعالى: (أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ).

المطلب التاسع: دلالات (أَنْعَمْتَ) و (الْمَغْضُوبِ) و (الضَّالِّينَ) البيانية في قوله تعالى: (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ).

المبحث الثالث: دلالات التراكيب في سورة الفاتحة، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: دلالات تركيب (الْحَمْدُ لِلَّهِ) في قوله تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ).

المطلب الثاني: دلالات التراكيب في قوله تعالى: (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ).

المطلب الثالث: ارتباط قوله تعالى: (أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) بأول السورة، ووسطها، وآخرها، وما في ذلك من دلالات لطيفة.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج التي توصل إليها الباحث من خلال البحث والدراسة.

الفهرس: ويشمل قائمة المصادر والمراجع

منهج البحث: اتبعت في دراسة هذا الموضوع المنهج الوصفي التحليلي، وقمت في أثناء تطبيقه بمراعاة ضوابط البحث العلمي من العزو، والتخريج، والتوثيق، ووضع علامات الترقيم في مكانها المناسب، وضبط ما يحتاج إلى ضبط إلى غير ذلك من الأمور التي ينبغي للباحث مراعاتها.

كلمة الشكر: أشكر الله عز وجلّ أولاً وآخرًا على ما وفقني للقيام بهذا العمل المبارك المتعلق بكتابه العزيز.

كما أقدم جزيل الشكر ووافر الامتنان لكل من له يد بيضاء كريمة في إخراج هذا العمل في هذه الصورة، فجزاهم الله أيضًا خير ما يجازي به عباده الصالحين.

وفي الختام أدعو الله أن يرزقني الفهم والبصيرة، ويهديني إلى الصراط المستقيم، ويجعل القرآن ربيع قلبي، ويثبتني على تلاوته، والتأمل فيه، ويلهمني رشدي، ويوفقني لما يحبه ويرضاه.

كما أدعو الله أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، ويرزقه القبول، ويوفقني في الدنيا والآخرة. إنّه ولي التوفيق.

المبحث الأول

نص سورة الفاتحة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ① الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ③ مَلِكِ يَوْمِ
الدِّينِ ④ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑥ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ
عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ⑦

المبحث الثاني

دلالات الألفاظ في سورة الفاتحة

المطلب الأول: لفظ الجلالة (الله)، ودلالاتها البيانية: لفظ الجلالة (الله)، اسم معروف لرب العالمين جلّ في علاه. وقد اختلف علماء اللغة في اشتقاقه على أقوال كثيرة. فقال الفيروزآبادي: "واختلف فيه- يعني: لفظ الجلالة- على عشرين قولاً".¹ وقال أبو الوفاء نصر الهوريني معلّقاً عليه: "قال شيخنا: بل على أكثر من ثلاثين قولاً، ذكرها المتكلمون على البسمة".² وأشهر الأقوال فيها ما يأتي:³

القول الأول: وهو قول أبي بكر ابن دريد صاحب "الاشتقاق"، قال: "فأما اشتقاق اسم الله عزّ وجلّ فقد أقدم قوم على تفسيره، ولا أحبّ أن أقول فيه شيئاً".⁴ والقول الثاني: إنّ أصله "إله"، ثم دخلت الألف واللام عليه فصار "الإله"، ثم حذفت الهمزة وأدغمت اللام في اللام فصار "الله". فالألف واللام عوض عن

¹ القاموس المحيط مادة "أله"، ص 1250.

² حاشية الهوريني على القاموس المحيط مادة "أله"، ص 1250.

³ تنظر هذه الأقوال بالتفصيل في تفسير أسماء الله الحسنى، ص 25-26، والمخصص، 135/17-151، وسفر السعادة، 16-7/1، والجامع لأحكام القرآن، 159-157/1، والتحرير والتنوير، 162-165/1.

⁴ الاشتقاق، ص 11.

الهمزة. وهذا رأي سيبويه.¹ وقال غيره مؤيداً له: إنّ أصله "إله"، وهو مشتق من أَلِهَ الرَّجُلُ يَأْلُهُ إِلِيهِ: إذا فزعَ إِلِيهِ من شَرَّ نزل به، فأَلَّهه، أي: أجاره وأمنه،² فسَمِّيَ إِلَهًا. وقال الآخر: إنّ أصله "إله"، وهو مشتق من "أَلِهَ يَأْلُهُ": إذا تحيّر؛³ لأنّ العقول تتحير عند التفكير في جلاله.

والقول الثالث: إنّ أصله "لأه" على وزن فَعَلَ، مثل ضرب، ثم دخلت عليه الألف واللام تعظيماً لله عزّ وجلّ وإبانة له عن كل مخلوق، فهو اسم وإن كان فيه معنى فِعْلٌ. وقرأ ابن عباس (وَيَذَرُكَ وَالْأَهْتَكَ)،⁴ أي: وعبادتكَ؛ لأنهم كانوا يعبدون فرعون. والقول الرابع: إنّ أصله "ولاه"، فأبدلت الواو همزة، فصارت "إله"، وهو مشتق من الوَلَّه، بمعنى الحب والاشتياق الشديد:⁵ لأنّ قلوب العباد تَوَلَّه إِلِيهِ.

ونجد عند التأمل أنّ كل هذه المعاني والصفات موجودة في ذات الله تعالى: فهو معبود يعبدّه الخلق، ويفزعون إليه عند الشدائد والنوازل، وهو محبوب لدى عباده الصالحين: يحبونه ويطيعون أمره، كما تتحير العقول عند التفكير في جلاله، وفي بديع صنعه، وعجيب خلقه، وعظيم قدرته.

والقول الخامس: ذهب جماعة من أهل العربية والفقهاء- منهم الإمام أبو حنيفة، ومحمد بن الحسن، والإمام الشافعي رحمهم الله- إلى أنه علم غير مشتق، ولا يجوز حذف الألف واللام عنه، كما يجوز من الرحمن والرحيم، وإليه ذهب الخليل، والفيروزآبادي.⁶

¹ ينظر: الكتاب، 2/195-196.

² ينظر: القاموس المحيط مادة "أله"، ص 1250.

³ المصدر نفسه، ص 1250.

⁴ سورة الأعراف: 127. وينظر للقراءة: جامع البيان، 39/13، والمحتسب، 256/1، والبحر المحيط، 4/465.

⁵ ينظر: لسان العرب مادة "وله"، 15/399-400.

⁶ ينظر: تفسير أسماء الله الحسنى، ص 25، وسفر السعادة، 15/1، والجامع لأحكام القرآن، 159/1، والقاموس المحيط مادة "أله"، ص 1250.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: "زعم السُّهيلي،¹ وشيخه أبو بكر ابن العربي أنّ اسم الله غير مشتق: لأنّ الاشتقاق يستلزم مادة يشتق منها، واسمه تعالى قديم، والقديم لا مادة له، فيستحيل الاشتقاق.

ولا ريب أنه إن أريد بالاشتقاق هذا المعنى، وأنه مستمد من أصل آخر، فهو باطل. ولكن الذين قالوا بالاشتقاق لم يريدوا هذا المعنى، ولا ألّم بقلوبهم، وإنما أرادوا أنه دالّ على صفة له تعالى، وهي الإلهية، كسائر أسمائه الحسنى، كالعليم، والقدير، والغفور، والرحيم، والسميع، والبصير، فإنّ هذه أسماء مشتقة من مصادرها بلا ريب، وهي قديمة، والقديم لا مادة له، فما كان جوابكم عن هذه الأسماء، فهو جواب القائلين باشتقاق اسمه "الله"؟

ثم الجواب عن الجميع: أننا لا نعني بالاشتقاق إلا أنها ملاقية لمصادرها في اللفظ والمعنى، لا أنها متولدة منها تولّد الفرع من أصله. وتسمية النحاة للمصدر والمشتق منه أصلاً وفرعاً ليس معناه أنّ أحدهما تولّد من الآخر، وإنما هو باعتبار أنّ أحدهما يتضمّن الآخر وزيادة.

وقول سيبويه: "إن الفعل أمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء"،² هو بهذا الاعتبار، لا أن العرب تكلموا بالأسماء أولاً، ثم اشتقوا منها الأفعال، فإنّ التخاطب بالأفعال ضروري، كالتخاطب بالأسماء، لا فرق بينهما.

فالاشتقاق هنا ليس هو اشتقاق مادي، وإنما هو اشتقاق تلازم، سمّي المتضمّن- بالكسر- مشتقاً، والمتضمّن- بالفتح- مشتقاً منه، ولا محذور في اشتقاق أسماء الله تعالى بهذا المعنى".³

¹ ينظر: نتائج الفكر، ص 51.

² الكتاب، 12/1، وفيه: "وأما الفعل فأمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء، وبنيت لما مضى، ولما يكون ولم يقع، وما هو كائن لم ينقطع".

³ بدائع الفوائد، 40-39/1.

و(الباء) في (بِسْمِ اللَّهِ) بمعنى الاستعانة؛ لأنَّ الفعل لا يتأتى على الوجه الأكمل إلا بالبسملة.¹

المطلب الثاني: صفتا (الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)، ودلالاتهما البيانية، والفائدة في اقترانهما: الرَّحْمَنُ فَعْلان من الرحمة. وصيغة فَعْلان تفيد الدلالة على الحدوث والتجدد، وذلك نحو عَطِشَانٌ وَجَوْعَانٌ، كما تفيد أيضاً الامتلاء بالوصف، فيقولون: غضبان لمن امتلأ غضباً، وسكران لمن امتلأ سكرًا.²

والرحمن علم وصفة، وهي من الأعلام الخاصة بالله، فلا يجوز لأحد أن يسمي نفسه بالرحمن، فهو في هذا الباب كلفظ الجلالة، بخلاف الصفات الأخرى كالرحيم والكريم وغير ذلك، فإنه لا بأس بالتسمي بها، وشتان بين الموصوفين.³ والرحيم فعيل من الرحمة. وصيغة فعيل تدل على الثبوت في الصفة، نحو طويل وجميل، كما تفيد التحول في الوصف إلى ما يقرب من الثبوت، نحو خطيب وبلغ وكريم.⁴ فجاء بالوصفين للدلالة على أنَّ هذه الصفة ثابتة فيه ومتجددة، وأفاد بالجمع بين الوصفين ما لم يفده عدمه.

فلو وصف نفسه بأنه رحمن فقط لوقع في النفس أنَّ هذا الوصف غير ثابت، كالغضبان والعطشان، والواقع ليس كذلك؛ فإنه يغضب ولكنه رحيم بعباده، ورحمته وسعت كلَّ شيء، بل غضبه أيضاً مقرون برحمته.

ولو وصف نفسه بالرحيم فقط لوقع في النفس أنَّ هذا وصفه الثابت، والواقع أنه قد يأتي وقت لا يرحم فيه، كالكريم قد لا يكرم، والخطيب قد لا يخطب.⁵

¹ ينظر: مغني اللبيب، ص 105.

² ينظر: معاني الأبنية في العربية، ص 78-82.

³ ينظر: تفسير أسماء الله الحسنى، ص 28، وبدائع الفوائد، 1/40-42، والقول المفيد، 2/260.

⁴ ينظر: معاني الأبنية في العربية، ص 53-54، و65-67، و83-88.

⁵ ينظر: لمسات بيانية، ص 34.

فإنَّه عزَّ وجلَّ متصف بصفة الرحمة الثابتة والمتجددة، وهذه الصفة هو موصوف بها كما يليق بجلاله.

وقال السهيلي: "وفائدة الجمع بين الصفتين الرحمن والرحيم الإنباء عن رحمة عاجلة وآجلة، وخاصة وعامة".¹

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: "وأما الجمع بين الرحمن والرحيم ففيه معنى هو أحسن من المعنيين اللذين ذكرهما السهيلي: وهو أنَّ الرحمن دالٌّ على الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دالٌّ على تعلقها بالمرحوم. فكان الأول للوصف، والثاني للفعل.

فالأول دالٌّ على أنَّ الرحمة صفته، والثاني دالٌّ على أنه يرحم خلقه برحمته، وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله: (وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا)،² (لَئِنَّهُمْ بِهِمْ رُءُوفٌ رَّحِيمٌ).³

ولم يحنِ قط "رحمن بهم"، فعلم أنَّ "رحمن" هو الموصوف بالرحمة، و"رحيم" هو الراحم برحمته، وهذه نكتة لا تكاد تجدها في كتاب، وإن تنفست عندها مرأة قلبك لم تنجل لك صورتها".⁴

وقد ذكروا أنَّ الرحمن عام للناس، والرحيم خاص بالمؤمنين، وتحصل في الدنيا كما تحصل في الآخرة.⁵

قال العلامة الشنقيطي: "هما- أي: الرحمن والرحيم- وصفان لله تعالى، واسمان من أسمائه الحسنی، مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، والرحمن أشد مبالغة من الرحيم؛ لأنَّ الرحمن هو ذو الرحمة الشاملة لجميع الخلائق في الدنيا،

¹ نتائج الفكر، ص 53.

² سورة الأحزاب: 43.

³ سورة التوبة: 117.

⁴ بدائع الفوائد، 1/42.

⁵ ينظر: أضواء البيان، 1/48-49.

وللمؤمنين في الآخرة، والرحيم ذو الرحمة للمؤمنين يوم القيامة. وعلى هذا أكثر العلماء. وفي كلام ابن جرير الطبري ما يفهم منه حكاية الاتفاق على هذا¹.

وقال السمين الحلبي بعدما ذكر الخلاف الواقع في أيهما أبلغ، الرحمن أو الرحيم؟ "والظاهر أنَّ جهة المبالغة فيهما مختلفة، فمبالغة "فعلان" من حيث الامتلاء والغلبة، ومبالغة "فعليل" من حيث التكرار والوقوع بمحال الرحمة"².

المطلب الثالث: كلمة (أَلْحَمْدُ)، وما فيها من دلالات، والفرق بينها وبين المدح والشكر:

أولاً: دلالة (أل) في (أَلْحَمْدُ): الألف واللام في الحمد لتعريف الجنس على سبيل الاستغراق، أي: جميع أنواع الحمد لله عزَّ وجلَّ، أو للعهد، أي: الحمد المعهود بين الناس لله عزَّ وجلَّ.³

ثانياً: دلالة كلمة (أَلْحَمْدُ) والفرق بينها وبين المدح: الحمد نقيض الذم،⁴ وهو الثناء على الجميل من نعمة أو غيرها مع المحبة والإجلال.⁵ وهو هنا أدقُّ وأوفى بالمراد المدح والشكر.

فأما من ناحية المدح فالحمد لا يكون إلا للحي العاقل، بخلاف المدح فقد يكون للحي العاقل وقد يكون للحي غير العاقل، كما يكون للجملادات أحياناً، فقد تمدح إنساناً، وقد تمدح حيواناً، وقد تمدح جماداً، ويستحيل أن تحمدها.⁶

فدلَّ "أَلْحَمْدُ لِلَّهِ" أنَّ الله حي، له الصفات العليا، والأفعال الجميلة يحمد عليها. ولو قال: "المدح لله" لم يفد شيئاً من ذلك. فالحمد أخصُّ من المدح، وضده الذم،

¹ المصدر نفسه، 48-47/1.

² الدر المصون، 33/1.

³ ينظر: جامع البيان، 139-138/1، والبحر المحيط، 31/1، وفتح القدير، 19/1، والتحرير والتنوير، 159/1.

⁴ ينظر: تهذيب اللغة مادة "حمد"، 434/4.

⁵ ينظر: الكشف، 52-51/1، والبحر المحيط، 31/1، وروح المعاني، 95-91/1.

⁶ ينظر: البحر المحيط، 31/1، والتفسير الكبير، 178/1.

بخلاف المدح إذ ضده الهجاء.¹ وكذلك فإنّ في الحمد من التعظيم والفخامة ما ليس في المدح.² وكذلك فإن المدح قد يكون قبل الإحسان وقد يكون بعده، وأما الحمد فلا يكون إلا بعد الإحسان.³

ومعنى ذلك: أنّ الحمد يكون لما هو حاصل من المحاسن في الصفات وفي الفعل، فلا يحمد من ليس في صفاته ما يستحق الحمد، ولا يحمد من لم يفعل جميلاً، بخلاف المدح فقد يكون بغير ذلك، فتمدح إنساناً ولم يفعل شيئاً من المحاسن والجميل.

ثالثاً: الفرق بين الحمد والشكر: وأما من ناحية الشكر فإنّ الحمد قد يكون لصنعة جميلة حصلت لك، وقد يكون ابتداء لما هو حاصل من المحمود لغيرك أو ثابت فيه من الصفات العليا، والشكر لا يكون إلا ثناءً لبيدٍ أوليتها.⁴

كما أنّ الشكر خاص بالنعمة، ولا يكون على الصفات الذاتية، بخلاف الحمد فإنه يعم الجميع.⁵ فكان اختيار الحمد أولى أيضاً من الشكر؛ لأنه أعم؛ إذ تُثني على الله عزّ وجلّ لنعمة الواصلة إليك، وإلى الخلق أجمعين، كما تُثني عليه بصفاته العليا الذاتية، وإن لم يتعلق شيء منها بك.⁶

ولا يكون الشكر أعم من الحمد إلا من جهة ما يقعان به: فإنّ الشكر يقع باللسان وبغيره من الجوارح، والحمد لا يقع إلا باللسان. كما يكون الحمد أعم من الشكر - كما سبق - باعتبار ما يقعان عليه: فإنّ الشكر لا يكون إلا على نعمة أصابت الشاكر من المشكور له، بخلاف الحمد فإنه يكون على النعمة أصابت الحامد أو غيره، أو على الصفات الذاتية.

¹ ينظر: تهذيب اللغة مادة "حمد"، 4/434.

² ينظر: روح المعاني، 1/95.

³ ينظر: التفسير الكبير، 1/178.

⁴ ينظر: تهذيب اللغة مادة "حمد"، 4/434، والتفسير الكبير، 1/178-179.

⁵ ينظر: لسان العرب مادة "حمد"، 4/133.

⁶ ينظر: لمسات بيانية، ص 13.

ولما كان المقصود هو الثاني مراعاة للسياق فضله هنا على الشكر، كما أنّ الشكر فضله على الحمد في آيات أخرى كثيرة؛ لأنّ السياق اقتضاه.¹

فثبت أنّ اختيار كلمة الحمد هنا كان أولى من كلمة المدح والشكر.

واللام الجارة في (لله) للاستحقاق،² أي: يستحقه الله عزّ وجلّ، وليست للاختصاص؛ لأنّ المدح ليس خاصاً بالله عزّ وجلّ، وليس للملك وغيره من المعاني لعدم مطابقتها مقتضى الكلام.

المطلب الرابع: دلالات كلمتي (رَبِّ الْعَالَمِينَ) البيانية، وما في كلمة (الرب) من الدقة والإيجاز: قال ابن فارس: "الراء والباء يدل على أصول. فالأول لإصلاح الشيء والقيام عليه. فالرب: المالك، والخالق، والصاحب. والرب المصلح للشيء. يقال: ربّ فلان ضيعته، إذا أقام على إصلاحها..."³ والربّ: المالك، والسيد، والمربي، والقيّم، والمنعم.⁴

وكلمة الرب إذا أطلقت انصرفت إلى الله عزّ وجلّ، وإذا أريد بها غيره أضيفت إليه غالباً، فقليل مثلاً: رب البيت، ورب الدابة.⁵

والعالمين جمع عالم، وهو كل موجود سوى الله تعالى. ويجمع على العالمين للعقلاء أو لما غلب فيه العقلاء.⁶

ولا شك أنّ الله ﷻ رب العالمين، رب السموات والأرض وما بينهما. بيده ملكوت كل شيء وهو على كل شيء قدير. فربّ العالمين: مالِكهم وسيدهم، ومربيهم، والمنعم عليهم.

¹ ينظر: الكشف، 52-51/1، وفتح القدير، 19/1.

² ينظر: مغني اللبيب، ص 205.

³ مقاييس اللغة مادة "رب"، 381/2.

⁴ ينظر: لسان العرب مادة "رب"، 95/5.

⁵ المصدر نفسه، مادة "رب"، 95/5.

⁶ ينظر: أنوار التنزيل، ص 8، وفتح القدير، 21/1.

وكلمة الرب هنا دقيقة، لها من المعاني والإيحاءات ما لم توجد لو وضعت كلمة أخرى مكانها؛ فإنها تدلّ على أنه رب العالمين القائم على أمورهم، المدبر لشؤونهم، المصلح لأحوالهم، المنعم عليهم. وهو سيدهم، ومالكهم، وخالقهم، ورازقهم، يسمع لهم، ويعلم بهم إلى آخر ما هو من صفات الرب الذي يملك ناصية مربوبه.

وقد وقف بعض المفسرين عند هذا المعنى، فقالوا: ودخل تحت قوله: (رَبِّ الْعَالَمِينَ) كثير من صفات الله تعالى كالعليم، والسميع، والبصير، والقيوم، والمريد، والمملك، وما أشبه ذلك: لأن كل واحد من هذه الأسماء والصفات يطلب ما يقع عليه.¹

كذلك فإن كلمة الرب دلالة على أن جميع العالمين مفتقر إليه افتقارًا تامًا، في حال حدوثها وبقائها، كما يفتقر المربوب إلى ربه.²

كما أن في قوله: (رَبِّ الْعَالَمِينَ) ردًا على اليهود الذين يدعون أن الله رب بني إسرائيل خاصة، وليس رب الخلق الآخرين من البشر، فرد عليهم بأنه رب العالمين جميعًا. فحسن اختيار (رَبِّ الْعَالَمِينَ) من كل وجه.³

المطلب الخامس: دلالات كلمة (مالك) و(الدين) البيانية في قوله تعالى: (مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ)، والدقة في إضافة الملك إلى اليوم، وما يحمل التعبير (يَوْمِ الدِّينِ) من المعاني والإيحاءات:

الدِّين مشتق من دان يدين، قال ابن فارس: "الدال والياء والنون أصل واحد إليه يرجع فروعه كلها. وهو جنس من الانقياد والذلّ".⁴ وسَيَّ يوم القيامة بيوم الدين- أي: يوم الجزاء والحساب- لما فيه من مظاهر الانقياد والذلّ.⁵

¹ ينظر: روح المعاني، 108/1.

² ينظر: التفسير الكبير، 187/1.

³ ينظر: لمسات بيانية، ص 34.

⁴ مقاييس اللغة مادة "دين"، 319/2.

⁵ المصدر نفسه، مادة "دين"، 320-319/2.

والله عز وجل ملك، ومالك لجميع الأشياء في جميع الأوقات، إلا أنه خصص ذلك هنا بيوم الدين لمعنى لطيف؛ وذلك- والله تعالى أعلم- لأن الملك والمالك الحاصلين في الدنيا لبعض الناس بحسب الظواهر يزولان، وينسلخ الخلق عنهما انسلاخًا تامًا ظاهرًا واضحًا في الآخرة، قال تعالى: (وَكُلُّهُمْ عَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا)،¹ وينفرد سبحانه وتعالى ذلك اليوم بالملكية والملوكية انفرادًا لا خفاء فيه، قال جل في علاه: (يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ)،² وقال: (لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)³

كما أن في إضافة الملك إلى اليوم- مع أن اليوم لا يملك، بل يملك ما فيه- معنى لطيفًا أيضًا: وهو أن ذلك يفيد العموم، فمالك اليوم مالك لكل ما اشتمل عليه من أمور مادية ومعنوية، فملكية اليوم هي ملكية لكل ما يجري ويحدث في ذلك اليوم، ولكل ما في ذلك اليوم، ولكل من في ذلك اليوم، فهي إضافة دقيقة في مكانها لا تقوم مقامها إضافة.⁵

كما أن التعبير بـ"يَوْمَ الدِّينِ" دون "يَوْمَ الْقِيَمَةِ" فيه من المعاني والإيحاءات التي لا توجد في غيرها: فإن الدين بمعنى الجزاء يشمل جميع أحوال القيامة من ابتداء النشور إلى السرمم الدائم، بل يكاد يتناول النشأة الأولى بأسرها على أن يوم القيامة لا يفهم منه الجزاء مثل يوم الدين.⁶

قال الجرجاني في قوله تعالى: (مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ): "فإن الجزاء يتناول جميع أحوال الآخرة إلى السرمم".⁷ ثم إن الدين له عدة معان: كالجزاء، والحساب، والطاعة، والقهر، يجمعها أصل الانقياد والدُّل كما سبق قريبًا.

¹ سورة مريم: 95.

² سورة الانفطار: 19.

³ سورة غافر: 16.

⁴ ينظر: روح المعاني، 1/115.

⁵ ينظر: لمسات بيانية، ص 39.

⁶ ينظر: روح المعاني، 1/115.

⁷ حاشية الجرجاني على الكشاف، 1/145.

فذلك اليوم هو يوم الدين كله، فهو يوم الحساب، وهو يوم الجزاء، وهو يوم الطاعة والخضوع لله، وهو يوم يعزّ فيه أهل الطاعة، ويقهر وينذل فيه أهل المعصية، إلى غير ذلك من المعاني التي تؤدّيها كلمة الدين، ولا تؤدّيها كلمة القيامة.¹ وقال الألوسي: "وأيضاً للدين معانٍ شاع استعماله فيها كالطاعة والشرعية، فتذهب نفس السامع إلى كل مذهب سائغ، وقد قال بكل هذين المعنيين بعض، والمعنى حينئذ على تقدير مضاف، فعلى الأول يوم الجزاء الكائن للدين، وعلى الثاني يوم الجزاء الثابت في الدين.

وإذا أريد بالطاعة في الأول الانقياد المطلق لظهوره ذلك اليوم ظاهراً وباطناً، وجعل إضافة "يوم" للدين في الثاني لما بينهما من الملازمة باعتبار الجزاء: لم يحتج إلى تقدير".²

وهناك أمر آخر وهو أنّ قوله: (يَوْمَ الدِّينِ) أنسب لقوله: (رَبِّ الْعَالَمِينَ)؛ وذلك لاشتغال العالمين يوم القيامة على المكلفين ولا بد، وأنسب لأصناف المكلفين التي ذكرتهم السورة من منعم عليهم، ومغضوب عليهم وضالين؛ لأن من معنى "الدين" الجزاء والحساب والطاعة والقهر، وهذه كلها إنما تكون لهؤلاء، فهو أنسب من يوم القيامة الذي لا يفهم من معناه اللغوي ما يفهم من يوم الدين.³

ثم إذا تأملنا في هذه الأسماء والصفات المذكورة واقتراها بالحمد رأينا ما أحسن اقتراها به وما أجمله! فاستغرق الحمد الزمان كله من الأزل إلى الأبد، ولم يترك منه شيئاً، فكان كقوله: (لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ)،⁴ وشمل ذلك قوله: (وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)،⁵ وقوله: (وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ

¹ ينظر: لمسات بيانية، ص 38.

² روح المعاني، 1/115.

³ ينظر: لمسات بيانية، ص 39.

⁴ سورة القصص: 70.

⁵ سورة الزمر: 75.

رَبِّ الْعَالَمِينَ¹، فلم يترك شيئاً من الحمد إلا ذكره، ولم يترك وقتاً منذ الأزل إلى الأبد إلا استغرقه، فكانت هذه السورة جديرة بأن تسمى أم الكتاب.²

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: "في ذكر هذه الأسماء بعد الحمد، وإيقاع الحمد على مضمونها ومقتضاها ما يدل على أنه محمود في إلهيته، محمود في ربوبيته، محمود في رحمانيته، محمود في ملكه، وأنه إله محمود، رب محمود، ورحمن محمود، وملك محمود".³

المطلب السادس: دلالات (العبادة) و (الاستعانة) البيانية في قوله تعالى: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)، والحكمة من الاقتران بينهما: العبادة في اللغة التذلل والخضوع، وهو مشتق من عبد يعبد. قال ابن فارس: "العين والباء والداد أصلان صحيحان كأنهما متضادان، والأول منهما يدل على لين ودُلّ، والآخر على شدة وغُلظ".⁴ وفي الاصطلاح: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله عزّ وجلّ ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة.⁵ وهي ملازمة للحب والتذلل والخضوع. فعبادة الله تستلزم الحب مع التذلل والخضوع. قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

"والعبادة تجمع أصليين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع. والعرب تقول: طريق معبد، أي: مدلل، والتعبد: التذلل والخضوع. فمن أحببته ولم تكن خاضعاً له لم تكن عابداً له، ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابداً له حتى تكون محباً له".⁶

والاستعانة مشتق من العون، وهي من الاستفعال، ومن معاني الاستفعال المشهورة السؤال والطلب،⁷ فهي بمعنى طلب العون والنصر، وهي ملازمة للثقة والاعتماد. قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

¹ سورة يونس: 10.

² لمسات بيانية، ص 40-41.

³ الضوء المنير، 62/1.

⁴ مقاييس اللغة مادة "عبد"، 205/4.

⁵ ينظر: مجموع فتاوى ابن تيمية، 149/10.

⁶ بدائع التفسير، 43/1.

⁷ ينظر: ارتشاف الضرب، 179/1، والمغني في تصريف الأفعال، ص 149.

"والاستعانة تجمع أصليين: الثقة بالله، والاعتماد عليه، فإنَّ العبد قد يثق بالواحد من الناس ولا يعتمد عليه في أموره مع ثقته به؛ لاستغنائه عنه. وقد يعتمد عليه مع عدم ثقته به؛ لحاجته إليه، ولعدم من يقوم مقامه، فيحتاج إلى اعتماده عليه مع أنه غير واثق به. وقد قرنت العبادة بالاستعانة ليدلَّ على أنَّ الإنسان لا يستطيع أن يقوم بعبادة الله عزَّ وجلَّ إلا بالاستعانة به علمها، فهم عاجزون عن أدائها الصحيح والقيام بها على الوجه المطلوب إلا بتوقيفه ونصرته. كما جمع بينهما ليجمع بين ما يتقرب به العباد إلى ربهم وبين ما يطلبونه ويحتاجون إليه من جهته".¹

والتوكل معنى يلتئم من أصليين: من الثقة، والاعتماد، وهو حقيقة (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)، وهذان الأصلان- وهما التوكل والعبادة- قد ذكرا في القرآن الكريم في عدة مواضع قرن بينهما فيها".²

وعلى هذا فقد أفادت الآية أنَّ من شأن المؤمن أن لا يعبد إلا الله، ولا يستعين إلا به، فجميع أنواع عبادته من الصلاة والزكاة والصيام والحج والذبح والنذر وغير ذلك خاضعة لله، خالصة له ابتغاء لوجهه ومرضاته، وهذا تجريد توحيد الألوهية. كما من شأنه أيضاً أن لا تكون الاستعانة بمختلف أصنافها في شؤونه المتنوعة من طلب الأمور المعنوية والمادية إلا به، وهذا تجريد توحيد الربوبية. فجمع بين الألوهية والربوبية أحسن جمع، وصرفهما لله عزَّ وجلَّ وحده.

ولو عبر بغير كلمة العبادة والاستعانة لما أدَّى هذا المفهوم الشامل كما هو واضح: فالعبادة شملت جميع الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة يحبها الله ويرضاها، والاستعانة شملت جميع أنواع ما يحتاج إليه العبد في تحصيله من نصرة ومعاونة ومساعدة.

¹ ينظر: الكشف، 57/1.

² بدائع التفسير، 44-43/1.

المطلب السابع: دلالات (الهداية) البيانية في قوله تعالى: (أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ): الهداية تأتي لعدة معان، منها: الإرشاد والتوجيه والتبيين والدلالة والإلهام والتوفيق.¹ قال تعالى: (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)،² فهنا الهداية بمعنى الإرشاد والتوجيه والتبيين والدلالة.

وقال تعالى: (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ٥٦)،³ فهنا الهداية بمعنى الإلهام والتوفيق.⁴

وفعل الهداية قد يعدى بنفسه كقوله تعالى: (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)،⁵ وقد يعدى بـ"إلى" كقوله تعالى: (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)،⁶ وقد يُعدى باللام كقوله تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا).⁷

والفرق بين المتعدي بنفسه والمتعدي بالحرف- كما قالوا- أنَّ المتعدي بنفسه يقال لمن يكون في الطريق ولمن لا يكون فيه، والمتعدي بالحرف يقال لمن لا يكون فيه، فيوصل بالهداية إليه.⁸

وفعل الهداية عدي هنا بنفسه، ولم يعدد بالحرف: وذلك ليشمل المعنيين: فكان طلب الهداية لمن كان في الطريق فيعرف به ويصير بشأنه، ولمن ضل من المؤمنين عن الجادة فيرد إلى الجادة.

¹ ينظر: لسان العرب مادة "هدي"، 58-60.

² سورة الشورى: 52.

³ سورة القصص: 56.

⁴ ينظر: بدائع الفوائد، 450-445/2.

⁵ سورة الإنسان: 3.

⁶ سورة الشورى: 52.

⁷ سورة الأعراف: 43.

⁸ ينظر: حاشية الجرجاني على الكشاف، 53/1، وروح المعاني، 124-123/1، والتحرير والتنوير، 187/1.

ثم من هؤلاء المؤمنين الموحدين الحامدين لله من هم على الجادة والطريق المستقيم فيكون المعنى لهم طلب استمرار الهداية على الطريق المستقيم؛ وذلك لأن العبد مفتقر في كل ساعة وحالة إلى الله تعالى في تثبيته على الهدى ورسوخه فيها، وتبصره وازدياده منها، واستمراره عليها.¹ قال ابن القيم رحمه الله:

"إن العبد مفتقر إلى الهداية في كل نفس، في جميع ما يأتيه ويذر، أصلاً وتفصيلاً وتثبيتاً، ومفتقر إلى مزيد العلم بالهدى على الدوام، فليس له أنفع ولا هو إلى شيء أحوج من سؤال الهداية، فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم، وأن يثبت قلوبنا على دينه".²

فيكون معنى (أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ): عرفنا الطريق الحق، وردنا إليه رداً جميلاً إذا ما ضللنا أو انحرفنا، وثبتنا على الهدى وزدنا هدى.³

وقال ابن القيم رحمه الله بعدما ذكر ما يتعلق بتعددية فعل الهداية بالحرف وبغيره خاصة، وتعددية الأفعال بالحرف وبغيره عامة، وما فيه من لطائف بيانية ودقائق لغوية: "فإذا عرفت هذا ففعل الهداية متى عُدِّيَ بـ"إلى" تضمن الإيصال إلى الغاية المطلوبة، فأُتي بحرف الغاية، ومتى عُدِّي باللام تضمن التخصيص بالشئ المطلوب، فأُتي باللام الدالة على الاختصاص والتعيين، فإذا قلت: هديته لكذا، فهم معنى: ذكرته له، وهيأته، ونحو هذا. وإذا تعدَّى بنفسه تضمن المعنى الجامع لذلك كله، وهو التعريف والبيان والإلهام. فالقائل إذا قال: (اهدنا الصراط المستقيم)، فهو طالب من الله أن يعرفه إياه، ويبينه له، ويلهمه إياه، ويقدره عليه، فيجعل في قلبه علمه وإرادته والقدرة عليه، فجرد الفعل من الحرف، وأتى

¹ ينظر: البحر المحيط، 41/1، وتفسير القرآن العظيم، 132/1، وروح المعاني، 126/1.

² بدائع الفوائد، 450/2.

³ ينظر: تفسير القرآن العظيم، 41/1، وبدائع الفوائد، 448-445/2، وروح المعاني، 126/1، ولمسات بيانية، ص 55.

به مجرداً معدّي بنفسه؛ ليتضمن هذه المراتب كلها، ولو عيّى بحرف تعين معناه، وتخصص بحسب معنى الحرف، فتأمله! فإنه من دقائق اللغة وأسرارها.¹

المطلب الثامن: دلالات (الصراط) و (المستقيم) البيانية في قوله تعالى: (أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ): وأما كلمة "الصِّراط" فهو مشتق من "سَرَطْتُ الطَّعامَ، إذا بلعته؛ لأنه إذا سُرِط غاب. واشتقاق الصِّراط من ذلك لأن الدَّاهِب فيه يغيب غيبة الطَّعام المُسَرَّط.² قال ابن القيم رحمه الله: "المشهور أنه من "صَرَطْتُ الشيءَ أَصْرُطُهُ" إذا بلعته بلعاً سهلاً، فسُيَّ الطريق صراطاً لأنه يسترط المارّة فيه. والصِّراط ما جمع خمسة أوصاف: أن يكون طريقاً، مستقيماً، سهلاً، واسعاً، موصلاً إلى المقصود، فلا تسمي العرب الطريق المعوج صراطاً، ولا الصعب المشق، ولا المسدود غير الموصل، ومن تأمل موارد الصراط في لسانهم واستعمالهم تبين له ذلك. قال جرير:³

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى صِرَاطٍ إِذَا اعْوَجَّ الْمَوَارِدُ مُسْتَقِيمٍ
وَبَنُوا الصِّرَاطَ عَلَى زِنَةِ "فِعَالٍ": لأنه مشتمل على سالكه اشتمال الحلق على الشيء المسروط، وهذا الوزن كثير في المشتملات على الأشياء، كاللِّحَافِ، والخِمارِ، والرِّداءِ، والغِطاءِ، والفِرَاشِ، والكِتابِ، إلى سائر الباب.⁴

ولذا فقد اختيرت هنا كلمة (الصِّراط) دون كلمة (الطريق) أو كلمة (السبيل): وذلك لأن (صِراط) على وزن (فِعَالٍ)، وهو من الأوزان الدالة على الاشتمال، فيشتمل على كلّ السالكين، ولا يضيق بهم؛ لرحبه وسعته.⁵ بخلاف كلمة (طريق)،

¹ بدائع الفوائد، 423/2-425.

² ينظر: مقاييس اللغة مادة "سراط"، 152/3، ولسان العرب مادة "سراط"، 240/6.

³ ديوان جرير، ص 411.

⁴ بدائع الفوائد، 416/2-417.

⁵ ينظر: بدائع الفوائد، 416/2-417، ومعاني الأبنية في العربية، ص 62.

فإنها (فعل) بمعنى مفعول من (طرق) بمعنى مطروق، وكذلك (سبيل)، فهي أيضاً كأنها (فعل) بمعنى مفعول من أسبلت الطريق إذا كثرت سابلتها، والسابلة من الطرق المسلوكة، يقال: سبيل سابلة، أي مسلوكة.¹ هذا مع المعاني والدلالات الأخرى التي تشتمل عليها كلمة "الصراط" دون كلمتي "الطريق" و "السبيل".

وعلى هذا فلا تدلان- أعني: كلمتي الطريق والسبيل- في صيغتهما على المعاني التي تدل عليها كلمة (الصراط).²

وليس معناه أنه لا تُستخدم كلمة (السبيل) وكلمة (الطريق) للطريق الحق، بل ذلك كله تابع لاقضاء الحال، فقد يكون استخدام كلمة في مكان أحسن بالموضع، وأوفى بالمراد، وأنسب بالسياق دون مكان، وكل ذلك خاضع للسياق واقتضاء الحال.

ومن الملاحظ أنّ "الصراط" جاء هنا مفرداً معرّفاً بتعريفين: بالألف واللام والإضافة؛ وذلك للدلالة على أنه صراط واحد فليس ثمة صراط آخر، وهو الصراط المعروف الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من المؤمنين.

قال ابن القيم رحمه الله: "وذكر الصراط المستقيم مفرداً معرّفاً بتعريفين: تعريفاً باللام، وتعريفاً بالإضافة، وذلك يفيد تعيينه واختصاصه، وأنه صراط واحد. وأما طرق أهل الغضب والضلال فإنه سبحانه يجمعها ويفردها كقوله: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ).³ فوحد لفظ الصراط وسبيله، وجمع السبل المخالفة له...؛ وهذا لأن الطريق الموصل إلى الله واحد، وهو ما بعث به رسله، وأنزل به كتبه، لا يصل إليه أحد إلا من هذه الطريق. ولو أتى الناس من كل طريق، واستفتحوا من كل باب، فالطرق

¹ ينظر: لسان العرب مادة "سبل"، 162/6، ومعاني الأبنية في العربية، ص 53-54.

² ينظر: بدائع الفوائد، 416/2-417، ولمسات بيانية، ص 58.

³ سورة الأنعام: 153.

عليهم مسدودة، والأبواب عليهم مغلقة، إلا من هذا الطريق الواحد، فإنه متصل بالله، موصل إلى الله".¹

وقال الرازي: "اعلم أنّ أهل الهندسة قالوا: الخط المستقيم هو أقصر خط يصل بين نقطتين. فالحاصل أنّ الخط المستقيم أقصر من جميع الخطوط المعوجة، فكان العبد يقول: (أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) لوجوه:

الأول: أنه أقرب الخطوط وأقصرها، وأنا عاجز فلا يليق بضعفي إلا الطريق المستقيم. والثاني: أن المستقيم واحد، وما عداه معوجة، وبعضها يشبه بعضاً في الاعوجاج، فيشتبه الطريق علي، أما المستقيم فلا يشابهه غيره، فكان أبعد عن الخوف والأفات، وأقرب إلى الأمان.

والثالث: الطريق المستقيم يوصل إلى المقصود، والمعوج لا يوصل إليه.

والرابع: المستقيم لا يتغير، والمعوج يتغير.

فلهذه الأسباب سأل الصراط المستقيم، والله أعلم".²

ثم ميز الله هذا الصراط وزاده بياناً وتوضيحاً بقوله: (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)، فهو غير صراط الذين غضب الله عليهم- وهم اليهود-، ولا الذين ضلوا- وهم النصارى-.

فعرفه بأل والإضافة. ثم وصفه بالمستقيم. والمستقيم اسم فاعل من استقام، ومن معاني "استفعل" المطاوعة، وهو هنا مطاوع أقمته فاستقام، أو قومه فاستقام.³

والمستقيم هو المعتدل المستوي الذي لا عوج فيه،⁴ فإذا كان الصراط متضمناً لمعنى الاستقامة- كما سبق قريباً- صار الوصف بها تأكيداً مزيداً لهذا المعنى، وتوضيحاً أكثر له.

¹ بدائع التفسير، 36-35/1.

² التفسير الكبير، 208/1.

³ ينظر: ارتشاف الضرب، 179/1، والتحرير والتنوير، 191/1، والمغني في تصريف الأفعال، ص 151.

⁴ ينظر: لسان العرب مادة "قوم"، 356/11، والتحرير والتنوير، 191/1.

المطلب التاسع: دلالات (أَنْعَمْتَ) و (أَلْمَغْضُوبِ) و (أَلْضَّالِّينَ) البيانية في قوله تعالى: (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ): إذا تأملنا وجدنا أنَّ في التعبير بكلمات "أَنْعَمْتَ" و "أَلْمَغْضُوبِ" و "أَلْضَّالِّينَ" أيضًا من الدلالات ما لا توجد في غيرها من مرادفها.

وتفصيل ذلك أنَّ كلمة "أَنْعَمْتَ" فعل ماضٍ، مشتقة من الإِنْعَامِ، والإِنْعَامُ مادتها "نعم"، والنون والعين والميم على كثرة فروعها راجعة إلى أصل واحد يدل على ترفُّه وطيب عيش وصلاح، ومنه: النِّعْمة، وهي ما ينعم الله تعالى به على عبده من مال وعيش وطيب وصلاح في الحياة، يقال: لله عليه نعمة. والنِّعْمة: المِنَّة.¹

ومن هنا فكانت كلمة الإِنْعَامِ شاملة لمعاني النعمة ومفهومها المختلفة المناسبة لأحوال الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين بلفظها، وأكبر هذه النعمة نعمة الإسلام، وهداية الصراط المستقيم. فهي أنسب لهذا المقام وأليق به. ولو كانت مكانها كلمة الإكرام أو الإحسان أو الإفضال أو غيرها من مرادف الإِنْعَامِ لما أدَّت ما أدَّتْها كلمة الإِنْعَامِ من المعاني، وما أوفت بالمراد. ثم كلمة الإِنْعَامِ بادية منها النعمة لصلتها بها اشتقاقًا، وهي كلمة عامة تشمل جميع النعم المناسبة لحال المنعم عليه، فجمعت الكلمة بين الدالتين: اللفظية والمعنوية.

كذلك فإن الإِنْعَامِ متضمِّنٌ للشكر- بخلاف الإحسان وغيره- الذي يجب وجوب الدين، وبالشكر تبقى النعمة وتدوم.²

وعلى هذا فكان الإِنْعَامِ هنا أوفى بالمراد، وأليق بالسياق؛ إذ فيه ذكر لإِنْعَامِ الله على الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، وطلب الصراط المستقيم الذي أنعم الله به على هؤلاء في جملة النعم المنعمة بها عليهم، فإذا حصل ذلك استوجب الشكر منهم؛ لأن الإِنْعَامِ يستوجب الشكر. فجمعت السورة بين الحمد والشكر.

¹ ينظر: مقاييس اللغة مادة "نعم"، 446/5.

² ينظر: الفروق اللغوية، ص 218.

كذلك كلمة "الْمَعْضُوبِ"، فإنها اسم مفعول، مشتقة من الغضب. قال ابن فارس: "الغين والضاد والباء أصل صحيح يدل على شدّة وقوة. يقال: إن الغَضْبَةَ: الصخرة الصلبة. قالوا: ومنه اشتُقَّ الغَضَبُ؛ لأنه اشتداد السُّخْطِ".¹

فلما كان الأمر متعلقاً باليهود كانت كلمة الغضب أنسب لهم؛ لما فيها من شدة وقوة؛ وذلك لأنهم عرفوا الحق ثم جحدوا به وأنكروه. فإن قيل: لِمَ لم يعبّر هنا بكلمة "السخط" دون الغضب، والمعنى متقارب؟ قيل: إنّ الغضب يكون من الصغير على الكبير، ومن الكبير على الصغير، بخلاف السُّخْط فإنه يكون من الكبير على الصغير، يقال: سخط الأمير على الحاجب، ولا يقال سخط الحاجب على الأمير.²

ومن هنا فإنّ السياق أدعى للغضب؛ لأنّ المعصوب عليهم غضب الله عليهم، وغضب عباده الصالحون عليهم، ومن العباد من كان صغيراً غضب على الكبير، ومنهم من كان كبيراً غضب على الأصغر منه، فاشتملت على الجميع، بخلاف لو عبر بالسخط أو نحوه.

ثم إن كلمة "الغضب" تدل على الشدّة والقوّة- كما سبق-، وهي في نفسها شديدة لما اشتملت على الغين والضاد والباء، وكلها من الحروف المجهورة.³ بخلاف كلمة "السخط" فهي أقل درجة من الغضب- كما سبق-، وهي في نفسها أضعف من السخط لاشتغالها على السين والخاء، وهما من الحروف المهموسة، وليس فيها من الحروف المجهورة إلا الطاء.⁴

فكلمة الغضب هي المناسبة لفظاً ومعنى للمقام، وهي المطابقة لمقتضى الحال. فائدة: قالوا إنّ الغضب عند حكماء الأخلاق مبدأ الشجاعة، والشجاعة جزء من مجموع الأخلاق الثلاثة الأصلية، وهي الحكمة، والعفة، والشجاعة التي يعبر عن جميعها بالعدالة.

¹ مقاييس اللغة مادة "غضب"، 428/4.

² ينظر: الفروق اللغوية، ص 148.

³ ينظر: سر صناعة الإعراب، 119/1، و 213/1، و 243/1.

⁴ المصدر نفسه، 183/1، و 197/1، و 217/1.

والغضب الذي يوصف به الله عز وجل هو الغضب الذي تقتضيه الشجاعة، وتوجبه الحكمة.¹ والله تعالى أعلم! والله سبحانه يتصف بصفة الغضب كما يليق بجلاله، فالصفة ثابتة، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة.

وكذلك كلمة "الضَّالِّينَ"، فإنها مشتقة من الضلال. قال ابن فارس: "الضاد واللام أصل صحيح يدل على معنى واحد، وهو ضياع الشيء وذهابه في غير حقه. ... ومما يدل على أن الأصل ما ذكرناه قولهم: أُضِلَّ المَيِّتُ، إذا دُفِن. وذلك كأنه شيء قد ضاع".²

وإذا تأملنا في الآية وما تهدف إليه من المعاني وجدنا أن كلمة "الضَّالِّينَ" وقعت في موقعها، فهي بنفسها تشعر بذهاب هؤلاء بعيدين عن الصراط المستقيم، ومن ثم ضياعهم، ومن ثم هلاكهم.

فإن قيل: لِمَ لم يعبر هنا بكلمة "الغي" دون الضلال، والمعنى متقارب؟ قيل: إنَّ أصل الغي الفساد، وأصل الضلال الهلاك.³ فكأنَّ- والله تعالى أعلم- في التعبير بالضلال إشعارًا بهلاك انصارى ومن شايعهم إذ ضلوا عن الصراط المستقيم، فكأنه قيل فيهم: الضالين الهالكين بسبب ضلالهم عن الحق. ولا شك في أن من ضل عن الصراط المستقيم فقد ضاع وهلك.

المبحث الثالث

دلالات التراكيب في سورة الفاتحة

المطلب الأول: دلالات تركيب (الْحَمْدُ لِلَّهِ) في قوله تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ): إذا تأملنا وجدنا أن قوله: (الْحَمْدُ لِلَّهِ) هنا أدق وأوفى بالمراد من (إِنَّ الحمد لله) بتأكيد؛ وذلك لأنَّ المقام ليس مقام الشك أو الإنكار المقتضي للتوكيد، بل هو

¹ ينظر: الفروق اللغوية، ص 149، والتحرير والتنوير، 1/198.

² مقاييس اللغة مادة "ضل"، 3/356.

³ ينظر: الفروق اللغوية، ص 240.

ثابت ومستقر في النفوس على سبيل البديهيّات، وإنما جيء به هنا لتوجيه المؤمنين الذين يقرّون بذلك، ويعملون على مقتضاه.

ثم إن قوله: (أَلْحَمْدُ لِلَّهِ) خبر يتضمن إنشاء،¹ فهو أولى من (إن الحمد لله): لأنه خبر محض، فجمع في قوله: (أَلْحَمْدُ لِلَّهِ) المعنيين: الخبر والإنشاء.

و(أَلْحَمْدُ لِلَّهِ) كذلك أولى من (أحمد الله): لكونها جملة اسمية تدل على الثبوت والدوام، بخلاف الجملة الفعلية الدالة على التجدد والحدوث؛ فإنّ المحامد كلها ثابتة له جلّ في علاه، كما أنها دائمة مستمرة.

ثم نجد أنه تعالى لم يقل هنا (لله الحمد)؛ لأنه يدل على الاختصاص، والحمد ليس خاصاً بالله: فقد يحمّد الرّجل الرّجل لصنيعه الجميل.

وهذا لا يعني أنه لا يقال: (ولله الحمد) مطلقاً؛ لأنّ الحاكم هو السياق، فقد يكون (لله الحمد) أولى من (أَلْحَمْدُ لِلَّهِ)؛ لاقتضاء المقام ذلك، فإذا اقتضى المقام قديم، وإذا اقتضى المقام آخر، وباب التقديم والتأخير في البلاغة باب دقيق لطيف كما هو مشهور، والبلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال كما هو معروف.

المطلب الثاني: دلالات التراكيب في قوله تعالى: (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ): نلاحظ أنّ الله تعالى أضاف الصراط هنا إلى الذين أنعم عليهم، فعرفه بالإضافة بعدما عرفه بأل- كما سبق آنفاً، ثم ميزه بضدّه بقوله: (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)، وبضدها تتميز الأشياء، فصار معروفاً متميزاً عن غيره أحسن تمييز.

وإذا تأملنا في التعبير الدقيق في قوله: (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) وفي قوله: (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) وجدنا أنّ التعبير في الأول بالفعل الماضي، وفي الثاني بالجملة الاسمية.

¹ ينظر: روح المعاني، 102/1، والتحرير والتنوير، 161-162/1.

فأما التعبير بالفعل الماضي في (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) فذلك ليتعين زمانه، وليتبين أنَّ المقصود صراط الذين ثبت إنعام الله عليهم وتحقق، وهم الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون كما قال تعالى: (فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا).¹

ولو قال: (صراط الذين تنعم عليهم) لأغفل كلَّ من مضى من رسل الله والصالحين، بل لم يفد أنه أنعم على أحد قبله، بخلاف الماضي، فإنه أحاط بمن مضى من الرسل والصالحين، وأفاد بإنعامه على من مضى.

كما أن الإتيان بالفعل الماضي يدل على أنه كلما مرَّ الزمن كثر عدد الذين أنعم الله عليهم؛ وذلك لالتحاق الحاضر بالماضي، فتتسع دائرة المنعم عليهم، بخلاف (صراط الذين تنعم عليهم) فإن الزمن فيه محدد، ولربما كان عدد المنعم عليهم قليلاً.

وأما التعبير بالجملة الاسمية في (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) فذلك ليشمل سائر الأزمنة، ويدلّ على الثبوت والدوام.

فإن قيل: ولمَ لمْ يُقُلْ: (صراط المنعم عليهم)؛ ليشمل سائر الأزمنة، ويدل على الثبوت والدوام؟ فالجواب: أنَّ لكل مقام مقالاً، ولكل تعبير موضعاً.

فلو قال: (المنعم عليهم) لم يتبين المنعم الذي أنعم عليهم، والنعمة إنما تقدر بقدر المنعم، فيختلف مستوى الإنعام باختلاف المنعم: فإنعام الأمير غير إنعام أحد الرعية، وإنعام السلطان غير إنعام أحد أفراد المجتمع.

وكذلك من حيث التكريم، فإن الذي يكرمه الأمير وينعم عليه غير الذي يكرمه أحد أفراد الرعية.²

¹ سورة النساء: 69.

² ينظر: البحر المحيط، 1/49، وبدائع الفوائد، 2/421-422، ولمسات بيانية، ص 64.

وكذلك نلاحظ أنه صرح بالفاعل في قوله: (أَنْعَمْتَ)، ونسب الإنعام إليه مباشرة، ولم يصرح به في المغضوب عليهم ولا الضالين؛ وذلك لأن الله ينسب الخير إلى نفسه مباشرة، ولا ينسب الشر إلى نفسه مباشرة. قال تعالى: (وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أُرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا)،¹ فلم ينسب الشر إلى نفسه مباشرة، بخلاف الخير فقد نسبه إلى نفسه مباشرة.

كذلك فإنّ في بناء "المغضوب" على المجهول فيه دلالة على عموم الغضب من الله ﷻ، ومن الغاضبين لله، بل وممن والاهم في الدنيا، فسينقطع حبل مودتهم في الآخرة؛ لأنها لم تبين في الله ولله. فكان كل من التعبيرين في محله ومكانه.²

كذلك نلاحظ أنه أتى في أهل الغضب باسم المفعول، وفي الضالين باسم الفاعل؛ وذلك لأنّ المغضوب عليهم من غضب الله عليهم، ومن غضب عليهم عباده الصالحون لله وفي الله، فهم مغضوب عليهم.

وأما أهل الضلال فإنهم هم الذين ضلوا وأثروا الضلال واكتسبوه؛ ولهذا استحقوا العقوبة عليه، ولا يليق أن يقال: ولا المضلّين مبنياً للمفعول؛ لما في رائيحه من إقامة عذرهم، وأنهم لم يكتسبوا الضلال من أنفسهم بل فعل فيهم.³ قال ابن القيم رحمه الله: "فذكر النعمة مضافة إليه سبحانه، والضلال منسوباً إلى من قام به، والغضب محذوفاً فاعله".⁴

كذلك نلاحظ أنه قال: (عَبَّرَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ) بلفظ "غير" دون "لا"؛ وذلك لما قيل: في ذكر "غير" بيان للفضيلة للذين أنعم عليهم، وتخصيص لنفي صفة الضلال والغضب عنهم، وأنهم الذين أنعم عليهم بالنبوة والهدى دون غيرهم، ولو قال: (لا المغضوب عليهم) لم يكن في ذلك إلا تأكيد نفي إضافة الصراط إلى المغضوب عليهم،

¹ سورة الجن: 10.

² ينظر: البحر المحيط، 49/1، وبدائع الفوائد، 422-420/2، ولمسات بيانية، ص 63-65.

³ ينظر: بدائع الفوائد، 443-442/2.

⁴ المصدر نفسه، 725/2.

كما تقول: "هذا غلام زيد لا عمرو"، أكدت نفي الإضافة عن عمرو، بخلاف قولك: "هذا غلام الفقيه غير الفاسق ولا الخبيث"، فكأنك جمعت بين إضافة الغلام إلى الفقيه دون غيره، وبين نفي الصفة المذمومة عن الفقيه، فافهمه!"¹

كذلك نلاحظ أنه قال: (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) بذكر "لا" بينهما، ولم يقل: (غير المغضوب عليهم والضالين) بدون لا؛ وذلك لتأكيد النفي الذي تضمنته كلمة "غير"، ولئلا يتوهم أن المنفي هو المجموع، فيُجوز ثبوت أحدهما.²

المطلب الثالث: ارتباط قوله تعالى: (أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) بأول السورة، ووسطها، وآخرها، وما في ذلك من دلالات لطيفة: إذا تأملنا في ارتباط قوله تعالى: (أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) بأول السورة، ووسطها، وآخرها وجدنا أنه:

ارتبط بقوله: (رَبِّ الْعَالَمِينَ)؛ لأن من معاني الرب المربي، ومن مهام المربي الهداية. وارتبط بقوله: (الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)؛ لأن من هداه الله فقد رحمه. وارتبط بقوله: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ)؛ لأن العبادة ينبغي أن تكون على الطريقة الصحيحة التي يرضيها الله عز وجل. وارتبط بقوله: (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)؛ لأن من الاستعانة طلب الهداية، والثبات عليها. وارتبط بقوله: (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) لأنهم تائهون عن الطريق، السالكون غير جادة الحق.³

ثم اعلم "أن مدار اعتلال القلوب وأسقامها على أصلين: فساد العلم، وفساد القصد، ويترتب عليهما داءان قاتلان، وهما الضلال، والغضب. فالضلال نتيجة فساد العلم، والغضب نتيجة فساد القصد. وهذان المرضان هما ملاك أمراض القلوب جميعها، فهداية الصراط المستقيم يتضمن الشفاء من مرض الضلال...

¹ المصدر نفسه، 1/351-352.

² ينظر: بدائع الفوائد، 2/443-444، وحاشية الجرجاني على الكشاف، 1/57، والتحرير والتنوير، 1/198.

³ ينظر: لمسات بيانية، ص 57-58.

والتحقيق بـ(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) علمًا ومعرفة وعملاً وحالًا يتضمن الشفاء من مرض فساد القلب والقصد... ثم إِنَّ القلب يعرض له مرضان عظيمان، إن لم يتداركهما تراميا به إلى التلف ولا بد، وهما: الرياء والكبر. فدواء الرياء بـ(إِيَّاكَ نَعْبُدُ)، ودواء الكبر بـ(وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)...، فإذا عوفي من مرض الرياء بـ(إِيَّاكَ نَعْبُدُ)، ومن مرض الكبر والعجب بـ(وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)، ومن مرض الجهل بـ(أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)؛ عوفي من أمراضه وأسقامه، ورفل في أثواب العافية، وتمت عليه النعمة، وكان من المنعم عليهم غير المغضوب عليهم، وهم أهل فساد القصد الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه، والضالين، وهم أهل فساد العلم الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه".¹

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على رسوله الأمين محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فهذه دراسة بيانية تحليلية تدور حول سورة الفاتحة في ألفاظها وتراكيبها، وتحاول الكشف عن بعض وجوهها البلاغية، وقد توصلت - ولله الحمد - من خلال الدراسة والبحث في الموضوع إلى نتائج، منها:

1. الألفاظ والتراكيب في سورة الفاتحة لها دلالات واسعة عميقة تلفت نظر المتأمل، وتدهش الدارس.
2. تشدّ سورة الفاتحة الانتباه إلى الجوانب البلاغة والوجوه البيانية والمعاني البديعة التي اشتملت عليها السورة لكثرتها مع قصرها.

1 بدائع التفسير، 41/1. وقد ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه الممتع المسعى بـ"بدائع الفوائد" أكثر من عشرين وجهًا لغويًا تكشف عن دقائق قوله تعالى: (أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) ﴿٥﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٦﴾، وهي في غاية الجودة ونهاية الإفادة، جديرة بالقراءة والدرس. (ينظر على سبيل المثال: بدائع الفوائد، 352-351/1، و 453-406/2، و 725/2).

3. الدقائق اللغوية، والتراكيب اللطيفة، والنظم البديعة التي اشتملت عليها سورة الفاتحة كثيرة، جديرة بالنظر والبحث والدراسة التفصيلية. أشكر الله مرة أخرى على ما وفقني لإنجاز هذا العمل المبارك المتعلق بكتابه العزيز، داعيًا أن ينفعنا به، ويوفقنا دائمًا لما فيه خيرا الدنيا والآخرة. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

1. ارتشاف الضرب من لسان العرب لأبي حيان الأندلسي (تحقيق: الدكتور رجب عثمان محمد)، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط 1، 1418هـ-1998م.
2. الاشتقاق لابن دريد (تحقيق: عبد السلام محمد هارون)، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط 3.
3. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للعلامة محمد الأمين الشنقيطي، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، السعودية، ط 1، 1426هـ.
4. أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي) للقاضي البيضاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 3، 1427هـ-2006م.
5. البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (تحقيق: عبد الرزاق المهدي)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 1423هـ-2002م.
6. بدائع التفسير الجامع لما فسرہ الإمام ابن قيم الجوزية (جمعه: يسري السيد محمد)، دار ابن الجوزي، الدمام، السعودية، ط 1، 1427هـ.
7. بدائع الفوائد للإمام ابن القيم (تحقيق: علي بن محمد العمران)، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، السعودية، ط 2، 1427هـ.
8. التحرير والتنوير لمحمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، د.ت.
9. تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد لابن مالك (تحقيق: محمد كامل بركات)، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، 1387هـ-1967م.
10. تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج (تحقيق: أحمد يوسف دقاق)، دار الثقافة العربية، دمشق، سوريا، د.ت.
11. تفسير القرآن العظيم لابن كثير الدمشقي (تحقيق: عبد الرزاق المهدي)، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط 2، 1423هـ-2002م.
12. التفسير الكبير = مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 2، 1425هـ-2004م.

13. تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري (تحقيق: عبد السلام محمد هارون وزملائه)، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، في عدة سنوات.
14. جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري) لابن جرير الطبري (تحقيق: محمود محمد شاكر)، دار المعارف، مصر، ط 2.
15. الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) لأبي بكر القرطبي (تحقيق: عبد الله عبد المحسن التركي)، مؤسسة الريالة، بيروت، لبنان، ط 1، 1427هـ-2006م.
16. حاشية الجرجاني على الكشف للزمخشري (بهامش كتاب الكشف)، طبعة دار المعرفة، بيروت، لبنان، د.ت.
17. حاشية الهوريني على القاموس المحيط (المطبوع مع القاموس المحيط)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 2، 1428هـ-2007م.
18. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي (تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط)، دار القلم، دمشق، سوريا، 1424هـ-2003م.
19. ديوان جرير، دار صادر، بيروت، لبنان، د.ت.
20. روح المعاني لشهاب الدين السيد محمود الألوسي (تحقيق: محمد أحمد الأمد وعمر عبد السلام السلامي)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 1420هـ-1999م.
21. سر صناعة الإعراب لابن جني (تحقيق: الدكتور حسن هندراوي)، دار القلم، دمشق، سوريا، ط 2، 1413هـ-1993م.
22. سفر السعادة لعلم الدين السخاوي (تحقيق: الدكتور محمد أحمد الدالي)، دار صادر، بيروت، لبنان، ط 2، 1415هـ-1995م.
23. الضوء المنير على التفسير (مباحث تفسيرية من كتب الإمام ابن القيم)، جمعه: علي الحمد الصالحي، مؤسسة النور للطباعة والنشر، دخنة، القصيم، السعودية، بالتعاون مع مكتبة السلام، الرياض، السعودية.
24. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير لمحمد بن علي الشوكاني (تحقيق: عبد الرزاق المهدي)، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 1420هـ-1999م.

25. الفروق اللغوية لأبي الهلال العسكري (تحقيق: باسل عيون السود)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1421هـ-2000م.
26. القاموس المحيط للفيروزآبادي (تعليق وحاشية: أبو الوفاء نصر الهوريني)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 2، 1428هـ-2007م.
27. كتاب سيبويه (تحقيق: عبد السلام محمد هارون)، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط 1.
28. الكشاف للزمخشري (تحقيق: عبد الرزاق المهدي)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط 2، 1421هـ-2001م.
29. لسان العرب لابن منظور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط 3، 1419هـ-1999م.
30. لمسات بيانية في نصوص من التنزيل للدكتور فاضل صالح السامرائي، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط 4، 1428هـ-2007م.
31. المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها لابن جني (تحقيق: علي النجدي الناصف وزملائه)، دار سزكين للطباعة والنشر، إستانبول، تركيا، ط 2، 1406هـ-1986م.
32. المخصص لابن سيده الأندلسي، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1398هـ-1978م.
33. معاني الأبنية في العربية للدكتور فاضل صالح السامرائي، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط 2، 1428هـ-2007م.
34. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصاري (تحقيق: الدكتور مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، مراجعة: الدكتور سعيد الأفغاني)، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط 1، 1425-1426هـ-2005م.
35. المغني في تصريف الأفعال للدكتور محمد عبد الخالق عزيمة، دار الحديث، القاهرة، مصر، ط 2، 1420هـ-1999م.
36. مقاييس اللغة لابن فارس (تحقيق: عبد السلام محمد هارون)، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط 1، 1411هـ-1991م.
37. نتائج الفكر لأبي القاسم السهيلي (تحقيق: محمد إبراهيم البنا)، مكة المكرمة، السعودية، 1984م.

الماء في القرآن الكريم (دراسة موضوعية)

- محمد أرباز بن محمد أنور الأموي¹

المقدمة

الحمد لله الذي جعل من الماء كلّ شيء، والحمد لله الذي أنزل من السماء ماء، فسلكه ينابيع ليطهر به البلاد والعباد، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

لا شك في أنّ الماء نعمة من الله عظيمة وهبة من المولى جزيلة، به تدوم الحياة، وتعيش الكائنات، وبه تخضر الأرض، وتنبت من كلّ زوج بهيج، وهو عنصر الحياة، وسبب البقاء، قال تعالى: "وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ" (سورة الأنبياء: 30)

ومن هنا حثّ الإسلام على الحفاظ على الماء، وتخزينه، وحسن استغلاله، وحرّم هدره وإفساده والتفريط فيه؛ بل أمر بالاعتصام فيه حتى في الوضوء والغسل كما جاء في الحديث الصحيح أنّ النبي ﷺ كان يغتسل بالصاع ويتوضأ بالمد.

على الرغم من هذه الأهمية يهدر بعض الناس المياه في الحمامات ودورات المياه والملاعب وغيرها، فليس من العقل أن نهلك أنفسنا وأرضنا ودوابنا بإهدار الماء واستعماله بإسرافه، لاسيما الماء الصالح للشرب، من هنا جاء اختياري لهذا الموضوع، فحاولت في بعض الفصول ربط الماء بطاعة الله.

خطة البحث:

يشتمل هذا البحث على مقدمة، وتمهيد، وأربعة فصول، وخاتمة:

¹ باحث، كلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية، الجامعة المحمدية، الهند

تمهيد: ويشتمل على تعريف الماء وتخليقه.

المبحث الأول: أهمية الماء، ويشتمل على أربعة مباحث:

المطلب الأول: الأهمية الشرعية

المطلب الثاني: الأهمية العلمية

المطلب الثالث: الأهمية الاقتصادية

المطلب الرابع: الأهمية العسكرية

المبحث الثاني: أنواع المياه، ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المطلب الأول: المياه السطحية

المطلب الثاني: المياه الجوفية

المطلب الثالث: الماء المنزل من السماء

المبحث الثالث: الماء بين النعيم والعقاب في الدنيا والآخرة.

المبحث الرابع: أمثال القرآن التي ذكر فيها الماء.

الخاتمة: خلاصة البحث

والله أسأل أن يوفقنا لخدمة كتابه الكريم، وتدبر آياته، وصلى الله على نبينا

محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

التمهيد

أ- تعريف الماء: الماء هو الذي يشرب، الهمزة فيه مبدلة من الهاء في موضع

اللام، وأصله موه بالتحريك، لأنه يجمع على أمواه في القلة ومياه في الكثرة،

والنسبة إلى الماء "مائي" و"ماوي"¹. قال تعالى:

"وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْثَقْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾" (سورة ق: 9).

¹ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، 250/6-251.

ب- تخليق الماء: قال تعالى:

"الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ" (سورة هود: 7)
وقال: "وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَلَهَا ﴿٣١﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣٢﴾". (سورة
النازعات: 30-31)

ذكر أهل العلم أنّ أول ما خلق الله العرش والماء، ثم القلم، ثم السماوات، ثم
الأرض، واختلف في العرش والماء والقلم أيها خلق أولاً. ففيه ثلاثة أقوال:

الأول: أنّ العرش هو أول ما خلق الله، هذا مروي عن جمهور أهل العلم، رجّحه
ابن تيمية وابن القيم، دليلهم حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال:
سمعت رسول الله ﷺ يقول: كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات
والأرض بخمسين ألف سنة، قال: عرشه على الماء.¹

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "هذا يدلّ على أنه قدر إذا كان عرشه على
الماء، وكان العرش موجوداً مخلوقاً عند التقدير لم يوجد بعده".²

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: "أول ما خلق الله من الأشياء المعلومة لنا هو
العرش واستوى عليه بعد خلق السماوات".³

الثاني: الماء هو أول ما خلق الله، هذا مروي عن ابن مسعود رضي الله عنه وطائفة
من السلف ورجّحه بدر الدين العيني صاحب "عمدة القاري لشرح البخاري"،
دليلهم حديث أبي رزين أنه قال: كان في عماء ما تحته هواء وما فوقه هواء وخلق
عرشه على الماء".⁴

قال بدر الدين العيني: في قوله تعالى "عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ" دلالة على أنّ الماء والعرش

¹ صحيح مسلم، رقم الحديث: 2653.

² الصفدية، 82/1.

³ مجموع فتاوى و رسائل ابن عثيمين، 62/1.

⁴ سنن الترمذي، رقم الحديث: 3109، ضعفه الألباني.

مبدأ هذا العالم، لكونهما خلق قبل خلق السماوات والأرض ولم يكن تحت العرش إذ ذاك إلا الماء".¹ وقد جزم الحافظ ابن حجر بأن حديث عمران ابن حصين يدل على أن الماء سابق على العرش".²

قال ابن رجب الحنبلي: "وقوله ﷺ لأبي هريرة لما سأله: مم خلق الخلق؟ فقال له: من الماء. يدل على أن الماء أصل جميع المخلوقات ومدتها وجميع المخلوقات خلقت منه، وقال: وقد حكى ابن جرير وغيره عن بن مسعود وطائفة من السلف أن أول المخلوقات الماء".³

الثالث: القلم هو أول مخلوق، رجّحه الشيخ الألباني رحمه الله في سلسلة الأحاديث الصحيحة.⁴

المبحث الأول: أهمية الماء

لا شك في أن الماء هو أساس الحياة، فلا نستطيع أن نتخيل الحياة بدون ماء، كما قال تعالى: "وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ" (سورة الأنبياء: 30)

المطلب الأول: الأهمية الشرعية: المسألة الأولى: في العقيدة: إن الله سبحانه وتعالى خلق الإنس والجن وتبين لهم غاية الخلق، وسخر لهم هذا الكون وأمرهم أن يتدبروا في خلقه ليعرفوا أن الله تبارك وتعالى هو خالق حقيقي، كثير من الآيات في القرآن الكريم تدل على قدرته، ووحدانيته، وربوبيته، قال تعالى:

"اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ" (سورة إبراهيم: 32)

ولا ريب أن في إنزال الماء دلالات على الصانع ووحدانيته، حيث جعله في غاية الصفا

¹ عمدة القاري شرح صحيح البخاري، 109/15.

² فتح الباري شرح صحيح البخاري، 289/6.

³ لطائف المعارف، 21/1.

⁴ انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني، 258/1.

واللطفة والعذوبة، وصيَّره سبباً للأرزاق وأنزله بعد قنوط الناس منه وشدة احتياجهم إليه وأودع في نزوله حياة الأرض أي حسنهما ونضارتها ورواءها الأشجار والأثمار وجريان الجداول بينها والأنهار بحيث تروق الناظرين وتشوق السامعين".¹

المسألة الثانية: في الفقه: الماء وثيق الصلة بأمور ديننا، لأنَّ الطهارة أمر أساسي، وجزء إيماني، فالصلاة التي هي عماد الدين لا تصح إلا بالوضوء، والنجاسة والجنابة لا تزال إلا بالغسل بالماء الطاهر، لذلك نجد في كتب الأحاديث وكتب الفقه الإسلامي كتاباً أو باباً خاصاً يتعلق بالطهارة، مثل كتاب الطهارة وباب الوضوء، والمعلوم أنَّ الفقهاء يستدلُّون على الأحكام الشرعية أولاً بالكتاب ثم بالأحاديث النبوية كذلك قول الله عزَّ وجل:

"وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ" (سورة الأنفال: 11)

المطلب الثاني: الأهمية العلمية:

المسألة الأولى: في علم الطب: قول الله عزَّ وجل في قصة أيوب عليه السلام "أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ" (سورة ص: 42) هذا دليل على العلاج بالماء حيث أمر الله أن يغتسل بالماء ويشرب منه، "وقيل: نبعت له عينان، فاغتسل من إحداهما، وشرب من الأخرى، فذهب الداء من ظاهره وباطنه بإذن الله".² وقد حضَّ الله ﷺ على استعمال الماء البارد في العلاج، بقوله "الحى من فيح جهنم فأبردوها بالماء".³ كذلك قد اعترف فاضل الأطباء جالينوس بأنَّ الماء البارد ينفع فيها كما قال في المقالة العاشرة من كتاب حيلة البرء.⁴

وإذا علمنا أنَّ المسلمين يغسلون أعضاء جسدكم الظاهرة باليوم واللية عدة

¹ غرائب القرآن ورغائب الفرقان، 458/1.

² الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، 97/4.

³ صحيح البخاري، رقم الحديث، 5725.

⁴ زاد المعاد في هدي خير العباد، 25/4.

مرات من الأحداث تأكد لنا أنّ ديننا الحنيف كما عالج الأرواح عالج الأبدان، كذلك منع النبي ﷺ عن البول في الماء الراكد لأنّ التلوث المائي يتسبب لنشر الأمراض المختلفة.

المسألة الثانية: في علم الزراعة: النباتات تأخذ الغذاء من موضوعين، الأول: من ضوء الشمس، والثاني: من ماء الأرض، جاء في القرآن الكريم آيات كثيرة تتحدث عن النبات والزرع. قال تعالى:

"أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۖ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۖ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۖ ﴿٢٧﴾" (عبس: 25-27) وقال: "وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكُلُهُ، وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ". (الأنعام: 141)

"جنت معروشات أي بساتين ممسوكات مرفوعات، وغير معروشات أي غير مرفوعات. قال ابن عباس "معروشات" ما انبسط على الأرض مما يفرش مثل الكروم، والزرع، والبطيخ، "وغير معروشات" على ساق مثل النخل وسائر الأشجار".¹

وقال تعالى: "وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ" (سورة الأنعام: 99)

يقول الرازي: "اعلم أنه تعالى ذكر هاهنا أربعة أنواع من الأشجار. النخل والعنب والزيتون والرمان، وإنما قدّم الزرع على الشجر لأنّ الزرع غذاء، وثمار الأشجار فواكه، والغذاء مقدّم على الفاكهة، وإنما قدّم النخل على سائر الفواكه لأنّ التمر يجري مجرى الغذاء بالنسبة إلى العرب---وإنما ذكر العنب عقب النخل لأنّ العنب أشرف أنواع الفاكهة".²

¹ تفسير القرطبي، 98/7.

² مفاتيح الغيب، 86/13.

المطلب الثالث: الأهمية الاقتصادية: إنّ معظم مدار الاقتصاد العالمي اليوم معلق بالماء حيث أنّ طريقة البحار هي أقدم وأرخص وسيلة للنقل والحمل من بلد إلى آخر، بأغراض التجارة والسياحة وغيرها. كذلك هي مصدر من مصادر الثروة الحيوانية والمعدنية، قال تعالى:

"الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَازِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾". (النحل: 14)

"وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا" يعني به اللؤلؤ والمرجان لقوله تعالى: "يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٣٣﴾". وإخراج الحلية إنما هي فيما عرف من الملح فقط.¹ اللؤلؤ والمرجان من الحلي الثمينة التي تشكّل ثروة اقتصادية اليابانيين الذين يقيمون مزارع خاصة ويربون فيه المحار الخاص لإنتاج اللؤلؤ لما فيه من ثروة وتجارة رابحة.²

المطلب الرابع: الأهمية العسكرية: لما كان الماء هو حياة البشر ولا يستغنى عنه في حال السلم والرخاء، وفي حال الحرب أشد حاجة وأكثر ضرورة يقول الله عزّ وجل عن غزوة بدر، قال تعالى:

"يُعْشِئُكُمُ الْتُعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾" (سورة الأنفال: 11)

"قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: نزل النبي ﷺ حين سار إلى بدر والمشركون بينهم وبين الماء رملة دعصة وأصاب المسلمين ضعف شديد وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ يوسوس بينهم تزعمون أنكم أولياء الله تعالى وفيكم رسوله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلّون مجنّبين فأمر الله عليهم مطراً شديداً فشرب المسلمون وتطهروا وأذهب الله عنهم رجس الشيطان وثبت

¹ تفسير القرطبي، 86/10.

² انظر: جغرافية البحار والمحيطات، ص 342.

الرمل حين أصابه المطر ومشي الناس عليه والدواب فساروا إلى القوم، وأمد الله الرسول ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة فكان جبريل في خمسمئة مجنبة، وميكائيل في خمسمئة مجنبة".¹

وقد ذكر ابن إسحاق في السيرة النبوية "أنَّ الحباب بن المنذر بن الجموح قال: يا رسول الله، أرايت هذا المنزل، منزلًا أنزلك الله ليس لنا أن نتقدمه، ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فننزله، ثم نغور ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضًا فنملاً بالماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ: لقد أشرت بالرأي. فانهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس، فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه، ثم أمر بالقلب فغورت، وبني حوضًا على القلب الذي نزل عليه، فملئ ماء، ثم قذفوا فيه الآنية".²

المبحث الثاني: أنواع المياه

الماء إما أن يكون سطحيًا على الأرض أو جوفيًا من باطن الأرض أو منزلًا من السماء من خلال أشكال مختلفة.

المطلب الأول: المياه السطحية التي تكون على سطح الأرض إما أن تكون جارية أو راكدة

المسألة الأولى: المياه السطحية الجارية مثل الأنهار والأودية: قال تعالى:

"وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ يَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَضَهَا وَرُسُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ" (سورة النحل: 15)
"الْمُهْرُ وَالْمَهْرُ مِنْ مَجَارِي الْمِيَاهِ، وَالْجَمْعُ أَنْهَارٌ وَمُهْرٌ وَمُهُورٌ".³ "وهذه الأنهار تجري من

¹ تفسير ابن كثير، 23/6.

² السيرة النبوية، 263/2.

³ لسان العرب، 236/5.

مكان إلى مكان آخر رزقاً للعباد".¹

وقال: "أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا" (سورة الرعد: 17) "أودية أصل الوادي: الموضع الذي يسيل فيه الماء، المفرج بين الجبلين وادٍ وجمعه أودية".²

المسألة الثانية: المياه السطحية الراكدة (أي الساكنة)، مثل ماء البحر: قال تعالى: "وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٣﴾ إِنَّ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ". (سورة الشورى: 32-33)

وقال: "وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ" (سورة فاطر: 12) وصف الله تعالى مياه البحر بوصفين، العذب الفرات والملح الأجاج أي الحلو والمر.

المطلب الثاني: المياه الجوفية يعني في باطن الأرض حيث يخرج منه:

المسألة الأولى: العيون والينابيع: "العين: التي يخرج منها الماء والعين ينبوع الماء الذي ينبع من الأرض ويجري، أنثى، والجمع أعين وعيون".³ "والينابيع جمع ينبوع إذا جرى من العين".⁴ قد ذكرت العيون والينابيع في مواضع مختلفة في سور من القرآن الكريم من وجوه مختلفة، قال تعالى:

"وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾". (سورة القمر: 12)

المسألة الثانية: الآبار: الآبار جمع بئر هي التي يحفرها الإنسان لبحث الماء لكن في العيون والينابيع يفجرها الله تعالى.

¹ تفسير ابن كثير، 563/4.

² المفردات في غريب القرآن، 862/1.

³ لسان العرب، 303/13.

⁴ المصدر نفسه، 345/8.

قد ذكرها القرآن بلفظين، الأول: البئر، والثاني: هو الجبّ (في قصة يوسف عليه السلام)، "فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِى مُعْتَلَّةٌ وَقَصِيرٌ مَّشِيدٌ" (سورة الحج: 45).

المطلب الثالث: الماء المنزل من السماء:

هو ماء ينزل من السحاب يعني المطر، جاء ذكر السحاب في القرآن الكريم بأسماء وأنواع مختلفة حسب الكثافة والألوان نحو (1) السحاب المسخر (2) السحاب المبسوط (3) السحاب الثقيل (4) السحاب الركامي (5) المزن (6) المعصرات (7) الحالات (8) الغمام (9) العارض.

كذلك ذكر المطر في القرآن الكريم بألفاظ كثيرة حسب أوصافه مثل (1) الغيث (2) الرحمة (3) الرزق، هذه تجمع تحت منافع المطر، أما الأوصاف الواردة في شكل ودرجة وقوة بين الضعيف والقوة والكثير والقلّة، مثل (1) الرجّ (2) الوابل (3) الطل (4) الودق (5) الثجاج (6) الصيب (7) الغدق.

قال تعالى: "وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ" (سورة لقمان: 34)، وقال: "وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْرُجْعِ" (سورة الطارق: 11) وقال: "فَإِن لَّمْ يُمْسِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ" (سورة البقرة: 265).

المبحث الثالث: الماء بين النعيم والعقاب في الدنيا والآخرة

في الماء حياة الناس ورحمة الله تعالى لهم ونعمته عليهم، ومع فيه من الفوائد فيه هلاكهم وعذابهم وانتقام الله تعالى منهم، فمن دلائل قدرة الله سبحانه وتعالى أن يجعل في الشيء الواحد فعلين متضادين، إن الناظر في القرآن الكريم يجد أن الماء ملازم للإنسان في الدنيا والآخرة تكون به حياته وهلاكه، نعيمه وعذابه.

المطلب الأول: الماء نعيم في الدنيا:

جعل الله تبارك و تعالى كل الكون محتاجاً للماء لشربه وسقيه، ففي الدنيا لا حياة

بلا ماء، ومنذ فجر التاريخ والأحياء على الأرض تتبع مواقع المياه فتسكنها، وحضارات البشر شيدت على ضفاف الأنهار، وسواحل البحار، قال تعالى:

"الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ". (سورة إبراهيم: 32)

وقال: "فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ" (سورة الحجر: 22) كذاك جعله الله وسيلة للطهارة كما قال تعالى: "وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيَطَهِّرَكُمْ بِهِ" (سورة الأنفال: 11) دون جميع المائعات.

المطلب الثاني: الماء جزاء وعقاب في الدنيا:

عاقب الله أقوامًا بالماء لما ظلموا، وجعل هذه النعمة تتقلب عليهم نعمة وعقابًا، حتى يكونوا عبرة لمن خلفهم، ومن الأقوام التي كان الماء وسيلة لهلاكهم، قوم نوح، وقوم فرعون وجنوده، وقوم سبأ.

وأما قوم نوح فقد ورد بشأنهم الكثير من الآيات التي تبين أنهم كانوا أهل أوثان، فأرسل الله نوح عليه السلام إليهم أن يدعوا قومهم إلى الله وحده، فمكث فيهم دهرًا يدعوهم إلى عبادة الخالق لكنهم أصروا واستكبروا، كما قال تعالى في دعوة نوح:

"قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾". (سورة نوح: 5-6) وبعد ذلك دعا نوح على قومهم، "رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِيَارًا ﴿٦﴾" (سورة نوح: 26) فاستجاب الله دعوته عليهم، وأهلكهم بالطوفان قال تعالى: "فَفَتْحْنَا أَيْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ ﴿١١﴾" (سورة القمر: 11)

وأما قوم فرعون فأغرقهم الله في البحر عندما تعاقبوا جنود موسى عليه السلام، قال تعالى: "وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٠﴾" (سورة البقرة: 50) وأما قوم سبأ فلقد أنعم الله عليهم بنعم كثيرة لكنهم كفروها، فجعل الله هذه النعمة نعمة وعذابًا، قال تعالى:

"فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾". (سورة سبأ: 16)

المطلب الثالث: الماء نعيم في الآخرة (أي الجنة):

أعد الله سبحانه وتعالى نعمًا عظيمة في الآخرة للمتقين وهي نعم ليست كنعم الدنيا قال تعالى: "إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾" (سورة القلم: 34) منها:

(1) أنهار الجنة: قال تعالى:

"مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّيْنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى" (سورة محمد: 15)

"يلاحظ من السياق القرآني في الآية الكريمة أن الله تعالى بدأ بالماء لأنه لا يستغنى عنه في الدنيا، ثم باللبن لأنه يجري مجرى المطعوم لكثير من العرب في غالب أوقاتهم، ثم بالخمير لأنه إذا حصل الري والشبع تشوقت النفس لما يستلذ به، ثم بالعسل لأن فيه الشفاء في الدنيا مما يعرض من المشروب والمطعوم".¹

(2) إجراء العيون، قال تعالى "فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾" (سورة الرحمن: 50)

وَقَالَ "فِيهِمَا عَيْنَانِ تَصَاحَتَانِ ﴿٦٦﴾" (سورة الرحمن: 66)

(3) الكوثر وحوض رسول الله ﷺ: لقد شرف الله رسولنا وخصه في الجنة بالوثر قال تعالى: "إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾". (سورة الكوثر: 1)

(4) شراب أهل الجنة وطهوريته: قال تعالى: "وَسَقَلُهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾" (سورة الإنسان: 21)

(5) مزاج شراب أهل الجنة: قال تعالى: "كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٢٠﴾" (سورة الإنسان: 20)

¹ تفسير المراغي، لأحمد بن مصطفى المراغي، 58/26.

(5) وقال "كَانَ مِرَاجُهَا رَاجِيًّا" (سورة الإنسان: 17)

وقال "يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ" (سورة المطففين: 25-26)

المطلب الرابع: الماء جزاء وعقاب في الآخرة:

لما تبين في المطلب السابق ما فيه لأهل الجنة من النعيم كان حرياً أن نتبين ما فيه لأهل النار؛ والمعلوم أن النار هي مأوى الكافرين والمشركين، أعد الله لهم جزاءً وعقاباً، في القرآن الكريم عدد من الآيات التي وصفت عقاب أهل النار وطعامهم وشرابهم، مثل قول الله ﷻ في صفة شرابهم.

قال تعالى: "شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ" (سورة الأنعام: 70) وَقَالَ "يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ" (سورة الحج: 19) وقال: "كَمَنْ هُوَ خَلِيدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ" (سورة محمد: 15) "أي حاراً شديداً لا يستطيع قطع أمعاءهم" أي قطع ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء".¹

وقال: "لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا" (سورة النبأ: 24-25) "غساق" هو أكره ما يكون من الشراب والصيد، مر المذاق، كرهه الرائحة".² وقال: "وَيُسْقَى مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ" (سورة إبراهيم: 16) "صديد" ما يسيل من جلود أهل النار".³

المبحث الرابع: الأمثال التي ذكر فيها الماء

الأمثال جمع مثل هو قول يشبه به حال الثاني بالأول، والأصل فيه التشبيه وحقيقة المثل ما جعل كالعلم للتشبيه بحال الأول⁴ قال تعالى:

"وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ" (سورة الحشر: 21)

¹ تفسير ابن كثير، 314/7.

² تفسير السعدي، 715/1.

³ تفسير الرازي، 79/19.

⁴ مجمع الأمثال، لأبي الفضل النيسابوري، 6/1.

وللمثل فوائد كثيرة، منها التذكير، والوعظ، والحث، والزجر، والاعتبار، والتقدير، وتصوير المعاني بصورة الحس، وغيرها. "وكان بعض السلف يبكي إذا قرأ مثلاً ولم يفهمه ويقول لست من العالمين".¹

المطلب الأول: المثل المائي للمؤمنين:

مثال الإنفاق في سبيل الله:

قال تعالى: "وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيْتًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ" (سورة البقرة: 265)

"ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من مجموع أشياء تكامل بها تضعيف المنفعة، فالهيئة المشبهة هي النفقة التي حف بها طلب رضي الله والتصديق بوعده فضوعفت أضعافاً كثيرة أو دونها في الكثرة، والهيئة المشبهة بها هي هيئة الجنة الطيبة المكان التي جاءها التهتان فزكا ثمرها وتزايد فأكملت الثمرة، أو أصابها طل فكانت دون ذلك".²

"هذا مثل للمؤمنين في صدقاتهم ونفقاتهم مثلهم الله تعالى "بالجنة على الربوة، ونفقتهم الكثيرة والقليلة بالوابل والطل، وكما أن كل واحد من المطرين يضعف أكل الجنة، فكذلك نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة- بعد أن يطلب بها وجه الله".³

المطلب الثاني: المثل المائي للكافرين:

مثال دعاء الكافرين:

قال تعالى: "لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ" (سورة الرعد: 14)

¹ الأمثال في القرآن الكريم، ص 28.

² التحرير والتنوير، لابن عاشور التونسي، 52/3.

³ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، للزمخشري، 313/1.

"دعوة الحق" ذكر الزمخشري أنّ فيه وجهين، أحدهما: أن تضاف الدعوة إلى الحق، والثاني: أن تضاف إلى الحق الذي هو الله عزّ وجلّ.¹ وذكر ابن الجوزي خمسة أقوال في تشبيهه حال هؤلاء قال "فيه خمسة أقوال: أحدها: أنه العطشان يمدّ يده إلى البئر ليرتفع الماء إليه وما هو ببالغه قاله علي عليه السلام، وعطاء. والثاني: أنه الرجل العطشان قد وضع كفيه في الماء وهو لا يرفعهما، رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: أنه العطشان يرى خياله في الماء من بعيد، فهو يريد أن يتناوله فلا يقدر عليه، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والرابع: أنه الرجل يدعو الماء بلسانه ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبدًا، قاله مجاهد. والخامس: أنه الباسط كفيه ليقبض على ماء حتى يؤديه إلى فيه، لا يتم له ذلك، والعرب تقول: من طلب ما لا يجد فهو القابض على الماء."²

مثال أعمال الكافرين:

قال تعالى: "وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ" (سورة النور: 39)

"ذكر سبحانه للكافرين مثلين: مثلًا بالسراب ومثلًا بالظلمات المتراكمة؛ وذلك لأنّ المعرضين عن الهدى والحق نوعان: أحدهما من يظن أنه على شيء فيتبين له عند انكشاف الحقائق خلاف ما كان يظنه، وهذه حالة أهل الجهل وأهل البدع والأهواء الذين يظنون أنهم على هدى وعلم، فإذا انكشفت الحقائق تبين لهم أنهم لم يكونوا على شيء، وأنّ عقائدهم وأعمالهم التي ترتبت عليها كانت كسراب بقيعة يرى في عين الناظر ماء ولا حقيقة له، وهكذا الأعمال التي لغير الله وعلى غير أمره يحسبها العامل ماء ولا حقيقة له."³

¹ المصدر نفسه، 520/2.

² زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، 489/2.

³ الأمثال في القرآن الكريم، ص 191-192.

المطلب الثالث: المثل المائي للمنافقين:

مثال أعمال المنافقين:

قال تعالى: "أَيُّدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٣٦﴾". (سورة البقرة: 266) وهذا مثل لمن يعمل الأعمال الحسنة لا يبتغي بها وجه الله. فإذا كان يوم القيامة وجدها محبطة، فيتحسر عند ذلك حسرة من كانت له جنة من أبي الجنان وأجمعها للثمار فبلغ الكبر، وله أولاد ضعاف والجنة معاشهم ومنتعشهم، فهلك بالصاعقة¹.

الخاتمة:

في ضوء البحث نخلص إلى النتائج التالية:

- 1- الماء من أوائل المخلوقات، وهو أساس الحياة لكل حيوان.
- 2- أهمية الماء من الجهة الشرعية، والعلمية، والاقتصادية، والسياسية والحربية.
- 3- وجود عدة أشكال وأسماء للماء، تدعو إلى التدبر في قدرة الله.
- 4- إن الماء ملازم للإنسان في الدنيا والآخرة؛ قد تكون به حياته، وهلاكه وقد تكون به نعيمه، وعذابه.
- 5- الأمثال المائية للمؤمنين، والكافرين، والمنافقين قد أشار إليها القرآن الكريم بأحسن أسلوب وأبلغ بيان.

¹ الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، للزمخشري، 313/1.

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
2. الأمثال في القرآن الكريم لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: سعيد محمد نمر الخطيب، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د.ت.
3. التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد) لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر – تونس، 1984م.
4. تفسير الرازي- مفاتيح الغيب لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1420هـ.
5. تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1999م.
6. تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1964م.
7. تفسير المراغي لأحمد بن مصطفى المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى، 1365 هـ- 1946م.
8. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1420هـ- 2000.
9. جغرافية البحار والمحيطات لمهدي محمد علي، بغداد، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي.

10. زاد المسير في علم التفسير لجمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الأولى - 1422هـ
11. زاد المعاد في هدي خير العباد لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، بيروت - مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، السابعة والعشرون، 1415هـ/ 1994م
12. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها لأبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض الطبعة الأولى، -1415هـ - 1995م،
13. سنن الترمذي لمحمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، الطبعة الثانية -1395هـ - 1975م
14. السيرة النبوية لعبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثالثة، 1410هـ.
15. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الرابعة 1407هـ - 1987م.
16. صحيح البخاري (الجامع الصحيح المختصر) لمحمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، 1422هـ.
17. الصفدية لتقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: محمد رشاد سالم، مكتبة ابن تيمية، مصر، الطبعة الثانية - 1406هـ
18. عمدة القاري شرح صحيح البخاري لأبي محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتاباالحنفي بدر الدين العيني، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

19. غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى، 1416هـ-1998م.
20. فتح الباري شرح صحيح البخاري لأحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة - بيروت، 1379هـ
21. الكشف عن حقائق غوامض التنزيل لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثالثة، 1407هـ.
22. لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي لأبي الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفع الإفریقی، دار صادر - بيروت الطبعة الثالثة - 1414هـ.
23. لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف لزين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السلاوي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي، دار ابن حزم للطباعة والنشر، الطبعة الأولى- 1424هـ/2004م.
24. مجمع الأمثال المؤلف لأبي الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري، المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة - بيروت، لبنان
25. مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين لمحمد بن صالح بن محمد العثيمين، جمع وترتيب: فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، دار الوطن - دار الثريا، الطبعة الأخيرة - 1413 هـ
26. المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق، ط1، 1412هـ.

أحكام الحجاب في القرآن

-الشيخ أمين أحسن الإصلاحي¹ترجمة من الأردوية: الشيخ عبد الحسيب الإصلاحي²

[الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

وبعد، فيسعدني أن أقدم لإخواننا الناطقين بالضاد رسالة لفضيلة الشيخ الأستاذ أمين أحسن الإصلاحي³ بعد تعريبها وهو من أعلام علماء الهند وباكستان، ومن كبار تلامذة ترجمان القرآن الإمام عبد الحميد الفراهي الهندي رحمه الله، وكان الإمام الفراهي نسيج وحده وفريد دهره، ومن أعلام المفسرين في هذه القارة، وهو صاحب تفسير "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان"، وكثير من المؤلفات القرآنية القيمة. وتلميذه الشيخ الإصلاحي قد حذا حذو أستاذه الإمام الفراهي ونسج على منواله، فألف باللغة الأردية كتباً متعددة ممتازة حول علوم القرآن ومعارفه وحقائقه وأسراره، أعظمها تفسيره المسعى "تدبر قرآن" في تسعة مجلدات ضخمة.

أما هذه الرسالة فقد ألفها الشيخ بالأردية في أواخر الأربعينات، حينما كانت الصحافة الباكستانية ميداناً للمعارك القلمية حول الحجاب من مؤيد له ومعارض، فلما رأى فضيلته أن لهذه المسألة- مسألة الحجاب- من الأهمية والخطورة ما يجعلها أساساً لجميع مسائل المجتمع وعماداً لسرور الحياة العائلية ورفاهيتها، وأن لها دوراً كبيراً في ضعف الحكومة وقوتها فضلاً عن صلاح الأفراد وفسادهم، فالإنحراف عن جادة الحق فيها والتهاون في أمرها يقضي على المجتمع والدولة وجميع القيم الخلقية على سواء، ولما رأى أن كلاً من هؤلاء المعارضين والمؤيدين لا يعرفون محل الآيات التي جاءت فيها أحكام الحجاب ويؤولونها غير تأويلها، لم ير بداً من أن يبين الموقف القرآني الصحيح من ذلك، لئلا يكون عذر لمن أراد أن يصبر على مخالفته بعد ذلك، ولئلا يكون أهل الحق في حيرة وتردد ولا يخطبوا خبط عشواء، بل يكونوا على نور وبصيرة ويقين وثقة، لئلا يهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة.

¹ كتب عنه مترجم هذا الكتيب.² تحدثنا عن سيرته وأعماله في افتتاحية هذا العدد.³ نسبة إلى مدرسة الإصلاح التي هو من خريجها وأبنائها الأولين البارزين المعروفين ولها ميزات وخصائص تمتاز بها عن أخواتها من المعاهد الإسلامية العربية في البلاد.

وقد نُقِلَتْ هذه الرسالة آنذاك إلى اللغة الإنجليزية وقد طبعت خلال هذه المدة طبعات عديدة في آلاف مؤلفة، ونالت الرسالة في الأوساط الإسلامية العلمية في شبه القارة الهندية والباكستانية قبولاً عاماً، ولقيت كل إعجاب وتقدير، ووافق عليها العلماء وصَبَّوا عليها وابل الثناء، فإنها جاءت كفصل الخطاب في مسألة الحجاب، وكقول الحق والإنصاف في أشد الخلاف، وجاءت بأصح التأويل للآيات التي اختلفت فيها الأقاويل، وجاءت بأكمل التوضيح لمحل الآيات الصحيح، وقطعت هذه الرسالة الوجيهة قول كل خطيب ومعانِد.

وكانت الحاجة ماسة أن تنقل الرسالة إلى العربية فترجمتها بها قبل مدة ونشرت هذه الترجمة في مجلة "المجتمع" الكويتية الشهيرة في عددها الصادر في 1397/1/14هـ، ثم نشرت في صورة رسالة مستقلة صدرت سنة 1401هـ من الدائرة الحميدية في أعظم كره بالهند، والآن نقوم بإصدار طبعة أخرى ليعم نفعها والاستفادة منها. ولتكون أداة صالحة ومادة نافعة في بناء أسرة مسلمة ومجتمع أفضل يقومون على أسس الإسلام وتعاليم القرآن وعلى سنة من جاء به عليه الصلاة والسلام، وذلك ما كنا نبغي وذلك ما يحتاج إليه العالمان الإسلامي والعربي.

وتمتاز هذه الطبعة بما فيها من زيادات نافعة وتعليقات مفيدة قد اقتبستها من تفسير المؤلف المسعى بـ"تدبر قرآن"، فقد كتب في تفسير آيات الحجاب التي وردت في سورتي النور والأحزاب بتوسع فهذه التعليقات مقبسات من تلك البحوث القيمة المهمة التي استغرقت صفحات عديدة من تفسيره.

ولله الحمد في الأولى والأخرة، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب. عبد الحسيب الإصلاحي

أحكام الحجاب في القرآن

أحكام الحجاب في القرآن تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: يشتمل على أحكام أمر بها أزواج النبي ﷺ أو أمر بها المسلمون بهذا الخصوص ولكن قد أجمعت الأمة على أنها ليست بمختصة بأزواج النبي ﷺ وكفى، بل هي عامة لنساء الأمة من أزواج وأخوات وبنات. فهي أحكام تعم نساء الأمة، وإن كان الخطاب موجهاً إلى أزواج النبي ﷺ وحدهن، لأن هذه الخطوة الخطيرة الأولى لإصلاح المجتمع لما كانت صعبة شاقة بدأ بها القرآن من بيت النبي ﷺ، ولما كانت أزواج النبي ﷺ قدوة لجميع المسلمات كن جديرات

أن يتكلفن هذه الأحكام ويحملن مسؤوليتها بكل قوة وشدة. وهذه الأحكام قد وردت في الآيات التالية:

قال تعالى: "يَنْسَاءَ النَّبِيِّ لَسُنًى كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾". (سورة الأحزاب: 32-33)

وقال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَّظِيرٍ إِنَّهُ وَلَئِكَ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَسِينِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِيهِ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِيهِ مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِنْ تَبَدُّوا شَيْءًا أَوْ خُفُّوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي ءَابَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾". (سورة الأحزاب: 53-55)

القسم الثاني: وفيه أحكام خوطب بها أزواج النبي ﷺ وعامة المؤمنات. وهذه الآيات تصرح أنّ امرأة مؤمنة إذا أرادت الخروج من بيتها لشأن من شؤونها فما هي من القيود والآداب التي يجب أن تتقيد وتلتزم بها. وهذه الأحكام ذكرت في الآية التالية:

قال تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ جَلْبِيبَهُنَّ ذَٰلِكَ أَذًى أَنْ يُعْرِفَنَّ فَلَا يُؤْذِينَ ۖ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٦﴾ ۖ لِّئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ الْمُتَنَفِّقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا

يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾". (سورة الأحزاب: 59-60)

القسم الثالث: وفيه أحكام خوطب بها المسلمون والمسلمات في أمر دخول الدار وهي تفصل أن مسلماً إذا دخل بيت أخ مسلم فما هي الشروط والآداب التي يلتزم بها هذا الداخل، وبجانب آخر ما هي القيود التي يجب على النساء داخل الدار أن يتقيدن بها. وقد ذكرت هذه الأحكام في سورة النور.

والآن نأتي بتفاصيل أحكام الأقسام الثلاثة فيما يلي:

أحكام القسم الأول

خاطب القرآن أزواج النبي ﷺ وأمرهن بأحكام الحجاب فيما يلي من الآيات:

قال تعالى: "يٰۤاَيُّهَا النِّسَاءُ اَلْبَسِي لِسِتْرٍ كَاَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ اِنَّ اَتَّقِيْنَ فَلَآ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِيْ فِي قَلْبِهٖ مَّرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٣﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ اُولٰٓئِىٔ وَاَقِمْنَ الصَّلٰوةَ وَاَتَيْنَ الزَّكٰوةَ وَاَطِعْنَ اللّٰهَ وَرَسُوْلَهٗ اِنَّمَا يُرِيْدُ اللّٰهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ اَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِرًا ﴿٣٤﴾".¹ (سورة الأحزاب: 32-33)

¹ من أراد أن يدرك مدى هذه التوجيهات والتشريعات ويعرف مغزاها الحقيقي فعليه أن يستذكر ما أسلفنا ذكره من قبل وذلك أن المنافقات كن يمين أزواج النبي ﷺ بما كانت في قلوبهن من الأمانى فيقلن لأزواج النبي ﷺ إنه إن سرحن خطب إليكن كبار رؤساء القوم ومشاهيرهم وكان لكن التبرج والنزعة والتطواف في الطرق والأسواق كعقيلات الرؤساء والأثرياء وسائر السيدات ففي هذه الآيات تعريض للمنافقات بما كن يقمن بالوسوسة والتوجيهات الشريرة الخبيثة كما فيها تعليمات لأمهات المؤمنين أن يقرن في بيوتهن ولا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى. والحقيقة أن فيها تعريضاً للمنافقات وتحقيراً لشأنهن، وإن كان الخطاب موجهاً إلى أزواج النبي ﷺ وإلا فأيهن كان يتطرق إليها الوهم أنها تحب أن تخرج من البيت وتجول وتتبرج تبرج الجاهلية الأولى.

"الجاهلية الأولى" فيها إشارة إلى انقراض هذه الحضارة الجاهلية التي كان المنافقون والمنافقات يعتنقونها ويتمنون لها البقاء على الرغم مما كانوا يرون أنها قد أصيبت بضربات من ظهور الإسلام سوف تقضي عليها. وإنما عبر القرآن عنها ووصفها بالأولى إشعاراً بأنها سوف تكون قصة ماضية تذكر وتروى، وإنما على وشك الانقراض وسوف تصير إلى أنقاض.

"إِنَّمَا يُرِيْدُ اللّٰهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ اَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِرًا ﴿٣٤﴾" فيها خطاب إلى أزواج

ثم خاطب المؤمنين وأرشدهم إلى الآداب التي يجب عليهم الالتزام بها إذا مستهم الحاجة إلى دخول بيت من بيوت النبي ﷺ:

"يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَبْظِيرٍ

النبي ﷺ بصفة خاصة وتسليتهن بغاية الشفقة والمحبة إن هذه التوجيهات التعليمات ليست بقيود أريد بها تقييد حياتكن وتضييقها بل يريد الله أن يذهب عن أهل بيت النبي ﷺ جميع الأرجاس ويزكهن تركية فائقة تؤهلن لمرافقة النبي في الدنيا والآخرة. أما الرجس ففيه تعريض بما كانت للسيدات من أسباب الزينة كأنها ليست بزينة بل هي أقذار يريد الله أن يطهر أزواج نبيه منها...

هذا ما عرفت من تأويل هذه الآيات وهناك أمور تستوجب الالتفات إليها. أولها: أن الميدان الأصلي لعمل المرأة هو بيتها، وعليها أن تقوم بجميع أعمالها ونشاطاتها داخل البيت وليس لها أن تخرج منه إلا لضرورة ألجأتها إليه وإذا خرجت فعلها أن تلتزم بتلك القيود التي يأتي ذكرها بعد في هذه السورة نفسها (إشارة إلى آية الجلباب). وثانها: أن خروج النساء من البيوت متبرجات ليس دليلاً على الحضارة بل هو رجعة قهقرى إلى الجاهلية الأولى.

وثالثها: أن أزواج النبي هن أهل البيت أصالة كما نصت على ذلك هذه الآية، ولها في القرآن نظائر أخرى وما أريد أحد غير أزواج النبي ﷺ وإنما يدخل فيهم الآخرون تبعاً لأصالة. هذه الآية تذكر "وَأَذْكُرَنَّ مَا بُيُوتُكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ مِنْ ءَايَاتٍ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا" الغاية الأصلية لحياة أزواج النبي التي اختارهن الله لها وهي ليست بما تدعو إليه المنافقات بل هي أن يذكرن ما يتلى في بيوتهن من الكتاب والحكمة...

لا يغيبن عن بال أحد أن النبي ﷺ كما بعث لهداية الرجال كذلك بعث لهداية النساء على سواء، وكما كان ﷺ يعلم الرجال خارج البيت كذلك كان يعلم من كان داخل البيت، وكما كان الوحي ينزل عليه خارج البيت كذلك كان ينزل عليه داخل البيت أيضاً وكما كان كل قول النبي ﷺ فيه تعليم وحكمة للناس كذلك كان كل فعل قدوة وأسوة حسنة لهم. لم تكن حياة النبي ﷺ منقسمة إلى قسمين: حياة شخصية وحياة شعبية، منفصلة إحداهما عن الأخرى بل كانت كل دقيقة وثانية من حياته الطيبة المباركة مختصة بتعليم الأمة وتركيتها مقصورة عليها.

فكما كان من مقتضيات ذلك أن يكون أصحابه المتفانون ملازمين له لزوم الظلال للرجال، يحفظون كل شيء من أقواله وأفعاله يأتيه النبي ﷺ خارج البيت كذلك كان من الواجب أن يحفظ كل ناحية من نواحي حياته البيئية، وذلك لم يكن بمستطاع لأحد غير أزواج النبي ﷺ. فالواقع أن انتشار علم الرسول وعمله بالأزواج المطهرات لم يكن أقل مما انتشر بأصحاب الرسول، ولم يكن دورهن أقل وأحط شأنًا من دور الرجال في ذلك.

وتصرح هذه الآية أن هذه المهمة الكريمة قد كلفهن الله بنفسه، وهي أنها لا يجدر بشأنهن أن يلتفتن إلى زخارف الدنيا، بل علمن أن يذكرن وينشرن للناس ما ينزل في بيوتهن من الآيات والحكم. وإني أعتقد أن هذه من تلك المصالح التي أذن للنبي ﷺ بصفة خاصة لأزواج أكثر من نصاب الأمة. (تدبر قرآن، 221-218/5) ملخصاً.

إِنَّهُ وَلَكِنَّ إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَنْسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٥﴾ (سورة الأحزاب: 53-55)

الأحكام التي تتضمنها تلك الآيات

- أ. لا ينبغي للنساء أن يكلمن رجالاً غير محارم لهن على العموم إلا أن تمسهن الحاجة إلى ذلك في أمر خاص فإذا فعلن فلا يخضعن بالقول، ولا تخرج من أفواههن كلمة تنير في نفوس السامعين نزوعاً وتوقعهم في طمع.
- ب. بيت المرأة المسلمة هو مكانها الأصيل "وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ" فلا تخرج من بيتها إلا إذا مسّها حاجة. أما خروج النساء متبرجات للتنزه والتفرج والتجول فهو جاهلية، وليس لامرأة مسلمة حرة كريمة أن تتبع طريقة الجاهلية.
- ت. إذا دعا مسلم أخاً له إلى الطعام فلا يدخل بيته إلا بعد أن يستأذنه، وإنما يدخل في وقت حضور الطعام، لا أن يصل قبل موعد الطعام بساعات يرتقب نضجه. ثم إذا انتهى من الأكل خرج ولا يمكث فيه للسمر والأخذ بأطراف الحديث، فإنّ ذلك يخلّ بحرية أهل البيت واهتمامهم بالحجاب.
- ث. وإذا أراد أحد أن يسأل أهل البيت شيئاً فله أن يسأل من وراء حجاب، لا أن يهجم عليهم هجوماً.

هذه القيود على ذوي القرابة أيضاً إلا أن يكونوا محارم من آبائهن وإخوانهن وأبناء أخواتهن أو ما ملكت أيمانهن. أما النساء فلا تدخل منهن إلا الأخوات المؤمنات المحسنات العفيفات فإن الخبيثات والمنافقات منهن ربما أثار اختلاطهن بالنساء المؤمنات فتناً شديدة. وفي قصة زينب رضي الله عنها أكبر شاهد وأعظم دليل على ذلك.

الحجاب خارج البيت

يتضح جلياً بالآيات السابقة أن الإسلام يوجب على المرأة في عامة الأحوال أن تخرج في البيت، ولا تخرج منه إلا إذا مسّتها حاجة شديدة، وإنما أذن لها بالخروج لأمر خاص، وإذا خرجت لمثل ذلك الأمر فليس لها أن تخرج كيفما شاءت، بل عليها أن تخرج وقد ألفت على رأسها جلباباً، وأرخت شيئاً منه على وجهها. فقال الله تعالى:

"يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا" ¹ (سورة الأحزاب: 59).

¹ (1) نزلت هذه الآية في وقت كان المنافقون بالمدينة في قوة وتجاسر، وكان المنافقون يتعرضون للنساء إذا خرجن لقضاء حوائجهن، وإذا عوتبنوا اعتذروا وقالوا حسبنا المرأة أمة، فظن بعض "الأذكفاء" أن هذا الحكم كان مؤقتاً، فنسخته آيات سورة النور، وهذا غير صحيح كما سيتبين فيما بعد حينما نذكر المحل الصحيح لآيات سورة النور. (حاشية المؤلف).

(2) قد أمر أهل بيت النبي من أزواجه وبناته ونساء المؤمنين لحفظهن من أذى المنافقين والأشرار أن يدين على وجوههن من جلابيبهن، ويخالفن بزهن عن زي المشركات والإماء فيعرفن، فلا يجد أحد سبيلاً ولا علة يعتذر بها إلى تعرضهن. قد جاءت في سورة النور أحكام في ذوي القربى منها أنهم إذا دخلوا بيوت أقربائهم بعد الاستئذان فعلى من في البيت من النساء أن يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن أي يحتفظن بأنفسهن وألبسهن ولا يبدن من زينتهن وليضربن بخمرهن على جيوبهن (سورة النور: 31) وهنا أمر بإدناء بعض جلابيبهن على وجوههن وبعبارة أخرى أن يتقنعن بجلابيبهن، والقرينة واضحة أن هذا التعليم للنساء إذا خرجن لقضاء بعض حوائجهن. ومن الأدلة على هذه القرينة ما ذكر من فوائدها أي ذلك أولى وأجدر بأن يعرفن فلا يتعرض لهن، ولا يخفى أن ذلك لا يحصل إلا بعد الخروج من البيوت. والقرينة الثانية ههنا أنها جاءت كلمة الجلباب لا الخمار، والجلباب هو الرداء فوق الخمار ولا يخفى أن هذه الجلابيب لم تكن الحرائر في حاجة إليها وهن في بيوتهن نعم إذا كن يخرجن منها اتخذنها. وأشعار شعراء الجاهلية تدل أن الجلابيب كانت من عادات حرائر العرب لا يتسع المقام أن نذكر مثل هذه الأشعار فإنها كثيرة وإنما أكتفي بواحد منها وكفى به شاهداً على ما قلنا. تقول امرأة من هذيل ترثي قتيلاً لها:

تمشي النسور إليه وهي لاهية مشي العذارى عليهم الجلابيب

إن التشبيه النادر الذي تراه في هذا الشعر لا محل للكلام عليه فإنه يذهب بنا إلى غير ما أردنا ولكن الذي يجب علينا أن نذكره أن جميع النساء لم تكن في الجاهلية متبرجات بل كانت نساء الأسر الحرة يلقين الجلابيب على خمرهن عند خروجهن من البيوت، والقرآن قد هدى

وردت في الآية كلمة الجلباب، والجلباب- كما نصّت المعاجم- ملاءة واسعة ضافية. وكانت الحرائر في العرب لا يخرجن إلا وقد تجلببن بما لهن من الجلابيب، كما هو المعتاد عندنا في الهند وباكستان في الأسر الشريفة، فيتغطين بملاءات واسعة وقت الخروج يؤثرنها على البراقع الجديدة العصرية اللامعة الشفافة والتي تجذب الأنظار. واني أعتقد أن هذه الملاءات الواسعة الضافية أشد ستراً للأجسام من البراقع وأحفظ لها من سوء النظر. فهذا الجلباب هو الذي قد حلّ محلّه البرقع في عصر التقدم، فلا مانع من النقاش حول البرقع، هل هو يفي في صورتها الجديدة الراقية بالغاية المنشودة التي أرادها الإسلام من إدناء الجلابيب وإرخائها على الوجوه أم لا؟ ولكن لا مبرر لأحد أن يقول إن البرقع صنيع العلماء الرجعيين ولا يمتّ إلى الإسلام بصلة.

في صدد هذا الجلباب، وقد زاد على ذلك أن المؤمنات إذا خرجن من البيوت فعلمهن أن يدين علمهن بعض جلابيبهن ليسترن به وجوههن ولا يخرجن في مشهن. هذا الجلباب هو المعتاد لدى العجائز والشيخات من الأسر الشريفة في قرى هذه البلاد وأريافها. وهذا الجلباب قد تحول إلى البرقع في هذا العصر، عصر الرقي والزي... ومهما قال المنخدعون والمفتونون بالحضارة الجديدة إن هذا البرقع مخالف للمدنية وبعيد عنها للغاية، ولكن القرآن يأمر به بصراحة ولا ينكره بعد ذلك إلا من كان يدعي أنه أكثر أدباً وأرقى مدنية من الله ورسوله.

"ذَلِكَ أَذَى أَنْ يُعْرِقَنَّ فَلَا يُؤَدِّيَنَّ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا" فكان ذلك علامة مميزة للمؤمنات تميزهن عن غيرهن فإذا خرجن كان من السهل أن يعرفن عن بعد ولا يتعرض لهن أحد بشيء، وإن فعل فليستعد لمواجهة عاقبة أمره. وكانت حينذاك في المدينة مشركات لا يتقيدن بالحجاب، والإماء اللاتي كان مستوى حياتهن وأخلاقهن سافلاً جداً، فكان للأشرار أعداء، فإذا تعرضوا لحرارة وأرادوا أن يكلموها وعوتبوا على ذلك قالوا حسبنا إنها أمة فلان، وأردنا أن نسألها عن كذا. فقد قضت هذه العلامة المميزة على مثل هذه الأعداء وسدت أسبابها.

ولا يتوهم أحد أن ذلك الحكم كان حيلة موقته ومعالجة طارئة لحفظ المؤمنات من أذى الأشرار، ولم يبق بعد ذلك من حاجة إلى الالتزام بذلك الحكم فإن الأحكام كلها تنزل تحت أسباب ودوافع، لكن ذلك لا يعني أن تذهب تلك الأحكام إن زالت تلك الأسباب (إن أسباب النزول لا يتوقف عليها حكم الآيات القرآنية فهي تخاطب الناس في هذا الزمان وما بعده كما كانت تخاطب محمداً ﷺ وأصحابه وهذا لا ينكره أحد من أهل العلم، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب).

ثم هل يمكن أحداً أن يدعي أن الظروف الاجتماعية الحاضرة قد تغيرت وتحسنت؟ كلا بل ترى أن الظروف صارت أسوأ مما كانت من قبل بآلاف من الأضعاف، بل ذهب عواطف الحياء والعفة النبيلة التي قد أمر بها القرآن أدراج الرياح. (تدبر قرآن، 266/5-268)

الحجاب داخل البيت

لنا أن نتدبر الآن الآيات التي وردت في سورة النور في أمر الحجاب داخل البيت ولكن هناك أمورًا يجب إلها الالتفات قبل تدبر تلك الآيات:

1. إن هذه الآيات في ذوي القربى والأرحام وخدم البيوت من الموالى والتابعين وأهل الثقة من الأصدقاء، ومما لا يخفى أن الحياة الاجتماعية ولذتها ونعمتها ورفاهيتها وسهولتها أمور تقتضي أن لا يحول شيء دون دخول أهل العلاقة للبيوت، وترددهم إليها، ومخالطتهم وأكلهم مع أهلها مجتمعين وفرادى. هذا، وبجانب آخر يطلب الإسلام وما فيه من الاهتمام والمحافظة على القيم الخلقية أن يقيد هؤلاء بقيود والتزامات، لئلا يتطرق بعدها إلى الحياة البيتية سوء النظر وفساد السلوك. ولما كان الإسلام دين الفطرة اعتنى بهذين الأمرين بكمال الاعتدال والاعتزان.
 2. وليكن منك على ذكر أن العرب في عهد البعثة لم يعرفوا النظام العائلي المشترك (Joint Family System) السائد في بعض أجزاء بلادنا. بل كان أحدهم إذا بلغ وتزوج امرأة يفرد له أبوه القيم عليه بيتًا خاصًا، فالأب في بيت والعم في بيت والأخ في بيت والأخت في بيت والأب نفسه في بيت منفرد به. هكذا تتفرع من أسرة واحدة بيوت متعددة تكون منفصلة بعضها عن بعض من ناحية، ومتصلة بعضها ببعض - من ناحية أخرى - بالعلاقات الفطرية والاجتماعية.
 3. كان العرب في بداوتهم على سداجة العيش وبساطته، فلم تكن على الأبواب بيوت معدة للضيافة منفصلة عن السكن، وإن الدور لم تكن يومئذ عليها ستور.
- لك أن تضع بين عينيك هذه الأمور الاجتماعية والمدنية للعرب آنذاك، ثم تتلو هذه الآيات التالية من سورة النور:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا

ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آرْجِعُوا فَآرْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُلِ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُلِ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّبَاعِينَ غَيْرِ أُولَى الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْطِفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾" ¹ (سورة النور: 27-31).

¹ وإذا دخل أحد بيت أحد بعدما استأذنه على الطريق المذكور، فله أن يغض بصره ويحفظ فرجه. وأسلوب "قُلِ لِلْمُؤْمِنِينَ" يدل أن هذا الغض للبصر والحفظ للفرج من مقتضيات الإيمان ومتطلباته و"مِنْ أَبْصَرِهِمْ" من للتبعيض وهو يدل أن المطلوب من غض البصر أن يغضه بحيث لا يقع بصره على نساء البيت فإن سبب هذا الحكم. وتدل هذه الآية أنه إنما أذن لذوي قرابة الرجل وأصحاب علاقته وأهل ثقته أن يدخلوا بيته دفعاً للحر، وبصفة خاصة لعدم وجود دور الضيوف في بيوتهم في ذلك العصر و في عصرنا هذا أيضاً. وتدل هذه الآية أيضاً على أنه إن كانت هناك في البيوت من غرف لاستقبال الضيوف فمطلوب من الرجال الأجانب جلوسهم فيها كما يتضح هذا جلياً بالآيات التالية.

والأمر بغض البصر أمر مهم، فإن البصر هو الرائد الأول بين الرجل والمرأة، فإن حفظه أحد وراقبه بكل صدق وإخلاص أمن كثيراً من مكاييد الشيطان وفتنه. وحفظ الفروج إنما يتوقع إذا كان ملابس الرجل ذا وقار، ولكننا نرى في هذا الزمان أن ولوع الفتیان بالأزياء قد ذهب بهم كل مذهب، وصارت ملابسهم على أنواع مختلفة حتى فقدت غاية التستر وإنما بقي هدف التجميل، وإن كان هذا التجميل لا تجد فيه أثراً من الوقار. كنا نعيب من قبل ملابس النساء، ولكننا الآن نرى الفتیان قد اتخذوا من الملابس ما لا يستحقون بعدها أن يدخلوا مجالس الرجال ذوي المروءة والشرف فضلاً أن يدخلوا بيت أحد من المسلمين.

"وَقُلِ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ" الآية. هذه توجيهات وتعليمات للنساء أنه إذا دخل

الحجاب في داخل البيت وأحكامه الأساسية

في الآيات المذكورة أحكام لمن أراد أن يدخل بيتاً من بيوت المسلمين وهي فيما يلي:

1. ليس لمؤمن أن يدخل بيتاً من بيوت المسلمين المسكونة للنساء إلا بعد أمرين:

الأول: أن لا يكون غريباً عن أهل البيت، بل يكون بينهما أنس وائتلاف وارتباط.

والثاني: أن يستأذنيهم للدخول بأن يسلم عليهم. أما الأنس فله صور وأشكال: منها أن يكون هو من ذوي أرحام أهل البيت ومن أهل قرابتهم، ومنها أن يكون من أصدقائهم الموثوق بهم، ومنها أن يكون من خدامهم ومواليهم- أما التسليم فهو خير طريق للاستئذان وجامع للأدب والبركة، وطريقته المذكورة في الحديث أن

يبتهن رجل من غير محارمهن فعلمن أيضاً أن يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدین من زینتهن شیئاً إلا ما لا بد من ظهورها.

"وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ" الآية. الزينة: اسم جامع لكل من اللباس والحلي- ولا يمكن إخفاء كل منهما كما لا يجب إظهار كل منهما- الجانب الظاهر من اللباس لا بد أن يظهر كما أن الحلي لا سيما حلي اليد كالخاتم وأمثاله في ستره حرج.

"إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا" استثناء قد أنجانا من كل ما فيه من الحرج غير العادي. وإنما كلفهن إخفاء زينة لم يكن في إخفاءها من حرج.

"وَلْيَضْرِبْنَ خُفْرَهُنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ" الآية. علمنا من هذه الآية أموراً: أولها: أن الخمار من ملابس المرأة المسلمة، وثانيها: أنه إذا كان واحد من غير محارمهن في البيت وجب عليهن أن يغطين بخمرهن رؤوسهن وجيوبهن. هذا، وتزعم متبرجات القوم أن الخمار من آثار الرجعية ولا بد من إبعاده عن الحياة ويزعمن أن فتح الجيوب ورفع الصدور من أعظم متطلبات التقدمية! "وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" هذه التوجيهات والتشريعات لما كانت لإصلاح المجتمع الإسلامي وتزكيته بكامله، وجّه الخطاب إلى الجميع ودعوا أن يتوبوا جميعاً، ويتداركوا ما فاتهم، ويصلحوا بالهم، ويختاروا في حياتهم طريقاً يهدي إليهم القرآن، وهذا هو الطريق الوحيد للفوز والفلاح.. في الآيتين المذكورتين أنفاً أحكام وتعاليم للرجال والنساء عن الحجاب داخل البيت كما رأيت وأما ما هو حكم حجاب المرأة خارج البيت إذا خرجت لحاجة من حوائجها؟ فهذا ما ذكر في سورة الأحزاب وقد سبق بحثه في بدء هذه الرسالة.

هذه أحكام قاطعة صريحة في القرآن للحجاب خارج البيت ودخله. فالذين يجروون بعد ذلك ويقولون إن القرآن ليس فيه من حكم للحجاب فماذا يقال فيهم إلا أن غض البصر الذي كان قد أمرهم به القرآن من غير المحارم من النساء قد غضبه هؤلاء من القرآن نفسه. لا جرم أنهم يقدسون القرآن ويقبلونه بكل حب وإخلاص ولكن لعلمهم يتركونه بعد هذا التقبيل والتقديس كأنه صخرة ثقيلة ليس لهم أن يحملوها! (تدبر قرآن، 4/528-532) ملخصاً.

- يقوم لدى الباب ويسلم على أهل البيت ثلاث مرات فإن لم يرد عليه فليرجع.
2. وإن لم يكن في البيت صاحبه فلا يدخله حتى يؤذن له. وإن قيل له: ارجع، فليرجع بغير تلكؤ ولا انتظار ومن غير أن يشعر بغضاضة في نفسه.
3. أما البيوت غير المسكونة للنساء فليس لدخولها شرط ذلك الاستئذان كالبيوت التي تكون خاصة للرجال فهي خارجة عن أمر الاستئذان فلهم أن يدخلوها من غير استئذان.
4. وعلى الداخل للبيوت المسكونة أن يغض بصره ويحفظ فرجه.
5. وعلى المؤمنات اللاتي كن في البيوت:
 1. أن يغضضن من أبصارهن.
 2. وأن يحفظن فروجهن.
 3. وأن يحتفظن بأنفسهن وألبستهن بحيث لا يبدو شيء من زينتهن،¹ وإنما استثنى منها ما لا بد من ظهورها من الجانب الظاهر من اللباس وغيره.
 4. وأن يضربن بخمرهن على جيوبهن.
 5. ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن.
6. هذه أحكام يجب العمل بها على جميع ذوي القرابة سواء كانوا من أهل المحارم أو غيرهم، وعلى جميع أهل الخدمة. وأما الذي نهيت عنه المرأة من إبداء زينتها فقد استثنى القرآن منه الأزواج والمحارم من الآباء والإخوان وأبناء الأخ وأبناء الأخت وغيرهم، وكذلك اشترط للخادمين غير أولي الإربة تصريحاً بأن الخادم إذا كان شاباً فليس للمرأة أن تبدي له زينتها، ولما كان ذكر كل من الخادم والمولى في الآية ذكراً مستقلاً فلا مبرر لأحد أن يقيس الخادم على المولى وشتان ما بين خادم ومولى فإن هناك أموراً اجتماعية ونفسية تفصل بينهما فصلاً.
- وهكذا استثنى الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم كما استثنيت الأخوات المؤمنات

¹ الزينة: يطلق على الحلي والألبسة والمراد هنا من الزينة اللباس، وكذلك المراد مما "ظَهَرَ مِنْهَا" الجانب الظاهر من اللباس.

الصالحات وهذا يدل أنه يجب عليهن أن لا يبدین زینتهن للعواهر والمربيات منهن
لئلا یوقعهن فی فتنه.

توضیحات وتبیینات لأمر هامه

هذه أحكام أساسية للحجاب الداخلي نزلت فی سورة النور، وقد مرت بك. ثم
نزلت آیات تبییناً وتوضیحاً لهذه الأحكام بعدما نشأ وجرى علی ألسنتهم من
الأسئلة حول هذه الأحكام وما هی:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ
مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ
صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوَرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَفُونَ
عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾
وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَذِنُوا كَمَا اسْتَذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ
اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا
فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ
وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾". (سورة النور: 58-60).

رخص وما لها من الحدود

وقد تضمنت هذه الآيات ثلاثة أمور:

1. ليس للموالي والأطفال الذين لم يبلغوا الحلم شرط الاستئذان للدخول إلا في
ثلاثة أوقات: قبل صلاة الفجر، وفي الظهيرة، ومن بعد صلاة العشاء لأنه لا
يكون فيها تستر أهل البيت، فإن دخلوا بغير استئذان فربما يقع نظرهم على
حال لا يليق بهم إن يروهم عليها، فكأنه تخفيف من الرب في الأحكام السابقة
نظراً للحاجة.

2. هذه الرخصة للأطفال ما داموا صغاراً ولم يخرجوا من حد الطفولة، ولكن

إذا بلغوا الحلم عاد شرط الاستئذان الذي ذكر من قبل للمؤمنين عامة.
3. أما العجائز فخير لهن أن يأخذن أنفسهن بأحكام الحجاب، ويراعينها حق المراجعة، ولكن ما عليهن من سبيل إذا لم يلتزم بأحكام الحجاب داخل البيت وخارجه غير متبرجات بزينة، مثلاً لا جناح عليهن إن لم يدنين من جلابيبن وأن لا يضررن بخمرهن على جيوبهن.

دفع الشبهة

ثم التفت القرآن بعد هذه إلى دفع شبهة نشأت من الأحكام السابقة في قلوب كثير من الناس. وهي أنهم ظنوا أن الإسلام قد قيد الاختلاف إلى البيوت بحدود وقيود وما غادر ذوي القرابة حتى الأداني منهم إلا كلفهم بها فضلاً عن الآخرين، فلعل الإسلام يريد أن يقضي على ما كانوا متمتعين في المجتمع من الحريات والنشاطات الاجتماعية، ويكره الإسلام أن يكون بين أهل القرابة والصدقة من حرية المداخلة والمخالطة ولذة المؤكلة كما ظن بعضهم أنه كان هناك كثير من أقاربهم المرضى وأولي الضرر يلزمون بيوت ذوي قرابتهم، ولكن نزول هذه الآيات والأحكام أذهب عنهم هذه الحرية وراحتها، فأزال القرآن هاتين الشبهتين بأنه ليس المقصود من وراء هذه القيود القضاء على النشاطات الاجتماعية، ولا التضيق على المرضى والعجزة. بل أنتم أحرار في الاختلاف إلى بيوت الأقرباء والأصدقاء في الأكل من بيوتهم مجتمعين أو متفردين.

نعم عليكم أن تستأذنوا أهل البيت بالتسليم عليهم، وإن كبر عليكم هذا الأمر فعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ويعود عليكم وعلى أهل البيت ببركات جمّة وفوائد عظيمة فقال عز وجل:

"لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ

إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالَكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْكُمْ مَقَاتِحُهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾". (سورة النور: 61).

خلاصة الكلام

قد تبين مما ذكرنا من قبل أن أحكام الحجاب في القرآن على نوعين، فإن المرأة لا يخلو أمرها من هاتين: إما أن تضطر هي للخروج من البيت، وعسى أن تتعرض لغير ذويها، وإما أن تكون في البيت ويدخل عليها رجل من أقاربها، أو من أقارب زوجها، أو خدمه ومواليه وأمثالهم. فللصورة الأولى أحكام في سورة الأحزاب، وهي أن تخرج بجلباب وقد أدنت شيئاً منه على وجهها، وللصورة الثانية أحكام وردت في سورة النور.

ولهذه الثانية أحكام أساسية أتية:

1. لا يدخل غريب غير مستأنس بيت أحد من المسلمين.
2. لا يدخل أحد من المستأنسين إلا أن يؤذن له.
3. وإذا دخل أحد فليغض بصره، ويحفظ فرجه وعورته.
4. وعلى نساء البيت أن يغضضن، ويحفظن فروجهن، ولا يبدن من زينتهن إلا ما لا بد من ظهورها، ويضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يضربن بأرجلهن على الأرض.
5. ولا يبدن زينتهن إلا للأزواج، والمحارم، والخدم غير أولي الإربة، أو الذين لم يخرجوا من حد الطفولة، فلا جناح في إبداء زينتهن لهم.
6. الموالى والأطفال مأذون لهم في الدخول بغير إذن إلا في الأوقات الثلاثة فإنها أوقات عورة وغفلة فإذا دخل فيها أحد بغتة عسى أن يطلع على ما يأباه

الوقار والحشمة ولا يطيب لهما.

7. أما العجائز فلمن رخصة أن يضعن ثيابهن، وألا يضربن بخمرهن على جيوبهن، إن لم تكن من نيتهن إبداء زينتهن، على أن الالتزام بأحكام الحجاب والاستعفاف خير لهن.

الأحكام الأساسية وما فيها من رخص

هذه أحكام الحجاب الأساسية وقوانينه الرئيسية قد بيّنها القرآن نفسه ولا يتطرق إليها شك ولا خلاف. وإنما كان يخشى الاختلاف - ومن الأسف أنه قد وقع فعلاً - في فهم الآيات فترى كثيرًا من الناس يخطئون في فهم الأحكام التي هي في سورتي الأحزاب والنور، ويغفلون عن محل الآيات وموقعها فيهما. فكل ما كتب حول هذه المسألة فيه تناقض شديد، وهذا التناقض قد وضع السهام في أيدي الطاعنين في الحجاب أكثر مما أعطاهم الداعين إليه والموالين له. وفي هذه المقالة أزيل هذا التناقض وعين محل آيات الحجاب تعيينًا صحيحًا حتى لم يبق لعادل يخاف الله أن يحيد عن الحق ويضل ولا ينحرف عنه بعد ذلك إلا مدل بباطل، أو جاهل. ولا يرجى من أمثال هؤلاء أن يخضع للحق ويتبعه وإن كان الحق واضحًا وضوح الشمس في رابعة النهار.

كل من نظر في هذه الأحكام لم يخف عليه أن الله شرع للحجاب، في داخل البيت وخارجه على سواء أحكامًا واضحة مفصلة لا ترى فيها من خفاء ولم يغادر من أصولها إلا وقد بيّنها.

نعم كانت هناك فروع وجزئيات لم يتعرض لها القرآن، وتركها لاجتهاد العلماء أو قد بينها خاتم الأنبياء فترى أن لنا رخصًا في بعض الأحوال والأحيان قد فسرها النبي ﷺ مثل رجل يريد أن يتزوج امرأة فيأذن له الشرع أن ينظر إليها، وكذلك للشرطي أو صاحب القضاء أن ينظر إلى امرأة إن مسته الحاجة إلى معرفتها، كما أن للطبيب أن ينظر إلى امرأة أجنبية أو يمسه، وكذلك الأحوال المفاجئة غير

المعتادة (حالات الطوارئ) توجد فيها رخصة وتخفيف إلى حد كبير، مثلاً إذا أصاب المرأة حريق أو أشرفت على غرق فهي أولى وأحرى بالإنقاذ من الهلاك ولو بمخالفة شيء من أحكام الحجاب المشروعة، وكذلك في السفر لا سيما في سفر الحج وفي حالة الحرب استثناءات من الكليات وترخيصات بدل التأكيدات نظراً للحاجة والمصلحة وقد صرحت بها الأحاديث النبوية.

وهناك مسائل فرعية وضمنية قد صرح بها الأئمة المجتهدون وتوجد في كتب الفقه ولا يغيب عن بالك أن جميع هذه المسائل الفرعية قد أخذت من أصولها من أحكام الحجاب وبنيت على قواعدها. ولنا- إن مست الحاجة- أن نضم إلى تلك المسائل الفرعية مسائل نستنبطها من الجزئيات ولكن لا مبرر لنا أن نجعل هذه المستثنيات قواعد أصلية، ونأتي على أحكام الحجاب الأساسية ونهدمها هدمًا. ولا يجترئ في أمر الدين على مثل ذلك إلا من كان جاهلاً بأمر الشريعة.

وأما الذي نراه في الروايات والأحاديث النبوية أنّ بعض أزواج النبي ﷺ وأزواج المؤمنين لم يراعين في الحرب أحكام الحجاب حق المراجعة، فهذا دليل أن الإسلام لا يطالب أهله العمل بأحكام الحجاب في الأحوال غير المعتادة مطالبته في الأحوال المعتادة، لكن لا يستدل بذلك أن الإسلام لم يأمر بالحجاب أصلاً، والنساء حرائر في جولاتهن سافرات غير محتجبات. إن كان هذا الاستدلال صحيحاً جاز أن يقول شخص إن الإسلام لم يأمر بالتوضئ فإن كثيراً من الروايات يفيد أن الصحابة صلّوا أحياناً بعدما تيمموا ولم يتوضؤوا، وأن يقول آخر: إن القيام ليس من أركان الصلاة فإن كثيراً من الصحابة والصحابيات ربما صلّوا جالسين غير قائمين فإن كان هذا الاستدلال باطلاً- ولا شك في بطلانه- فكيف يصح قول من يقول إذا رأى في أمر الحجاب بعض المستثنيات في أحوال خاصة أن الإسلام لم يأمر بأحكام الحجاب أصلاً. وإنما اختلقها العلماء الرجعيون، وأقحموها في المجتمع المسلم، وما هي من الإسلام في شيء.

شتان ما بين الحجاب المعروف في المجتمع

وبين الحجاب المطلوب في القرآن

قد اتضح جلياً بما سبق أنّ أحكام الحجاب في القرآن مفصلة وثبت أنّ ما أمر الرجال والنساء به من غض البصر فهو يتعلق بداخل البيت، حيث يكون المداخلة والمخالطة بين ذوي القرابة والصلة والعلاقة. وأما خارج البيت فلا مناص فيه من إدناء الجلباب وهذا ما ذكر في سورة الأحزاب. كما ثبت أنّ النهي عن إبداء الزينة واستثناء الزينة الظاهرة بنفسها بدون قصد، هو ما دامت المرأة في البيت. ومن ظن أنه حكم لخارج البيت فهو لم يتدبر القرآن، وأتى بأقوال يخالف بعضها بعضاً وترى فيها تناقضاً شديداً.

هذا وقد ثبت فيما سبق أنّ السفور نفور من هدي القرآن كما ثبت أن الحجاب المألوف في المجتمع لا يلائم الحجاب المطلوب في القرآن إلى حد كبير لا سيما أمر الحجاب في البيت فهو الآن على غير ما يريده القرآن. فإما حرية مطلقة أئمة لا يقيدوها قيد، ولا تقف عند حد، وإما تقيد بقيود مبتدعة غير ملائمة ما كتبها الله عليهم وما أنزل الله بها من سلطان. فالواقع أن الأقرباء وأولي الأرحام يعاملهم الناس في أمر الحجاب أحياناً معاملة الأجانب أو بمجرد أن يكون بينهم شيء من القرابة والعلاقة يزول كل حجاب ولا يحول شيء دون اللقاءات والزيارات.

ونتيجة لهذا الإفراط والتفريط تفقد تلك المؤانسة والمخالطة التي يحب الإسلام دوامها واستمرارها، هذا بجانب، وبجانب آخر يضر ذلك بالأخلاق التي يحرص عليها الإسلام ويصونها بكل رخيص وغال ولا يتهاون في أمرها أبداً، والتي يزول المجتمع الإسلامي بزوالها.

والطريق السوي بين الإفراط والتفريط أن نتمتع بما أذن لنا القرآن ولا نستحي في ذلك، ونذهب إلى حيث يذهب بنا القرآن، كما أن نراعي تلك القيود التي قد فرضها

علينا. هذا هو الطريق الوحيد لتكوين بيئة إسلامية نظيفة تتجلى فيها العفة والحرية بكمال الاعتدال والاعتزان، وفي مثل هذه البيئة الطاهرة الطيبة النقية تتم تربية النفوس وتزكيتها الإسلامية التي قد أرادها وأحبها الله ورسوله ﷺ.

الإنسان من القرآن إلى العمران

- د. محمد البويسفي¹

تقديم: لقد خلق الله تعالى الإنسان وكرّمه وجعله خليفة في الأرض وكلفه بإعمارها وإصلاحها، مصداقاً لقوله تعالى: "هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا".² وحدّد له علاقته ووظيفته علاقة الإنسان بخالقه وهي علاقة عبادة وتقديس، ومن شروط الاستخلاف عدم تجاوز صفة الإنسانية إلى التألّه أو تأليه سلطة أخرى. علاقة الإنسان بأخيه الإنسان وهي علاقة تواصل وتعارف ولها ضابطان هما: العدل والرحمة. علاقة الإنسان بالأرض والكون هي علاقة تسخير لها نفس الضابطين: العدل والرحمة بما يشمل ذلك الحيوان.

والناظر في القرآن الكريم يخلص إلى أنّ القصد من استخلاف الإنسان هو العمران، وهذا الأخير وسيلة عبادة الإنسان لله، فيكون العمران نتاجاً وغاية للاهتمام بالقرآن، ولا يتم ذلك إلا من خلال التدبر في القرآن والتفكير في الكون. ومن خلال البحث العلمي لتسخير ما أعطاه الله للبشر مما على الأرض من خيرات.

ينطلق هذا البحث من مسلمة هي أنه لا بد من الانطلاق من القرآن لتحقيق العمران، وأنه لا عمران نافعاً ومحققاً للسعادة البشرية إلا ما كان على وزن القرآن الكريم. وأنّ القرآن الكريم قدّم منهجاً متكاملًا لبناء الإنسان المستخلف والمعمّر للأرض، بدأ من البناء الروحي إلى البناء الفكري والمنهجي.

يروم هذا البحث الإجابة عن الأسئلة الآتية: كيف يحقّق الإنسان العمران من خلال القرآن؟ وبعد ذلك يحاول الإجابة عن أسئلة فرعية مثل: ما هي معايير بناء

¹ باحث في الدراسات القرآنية، جامعة القاضي عياض، المغرب² سورة هود: 60

العمران في القرآن؟ ما هو منهج القرآن في إعداد الإنسان لبناء العمران؟

وفيما يلي خطة البحث:

المحور الأول: الإنسان في القرآن

المحور الثاني: طبيعة القرآن الكريم ووظيفته

المحور الثالث: العمران في القرآن الكريم

المحور الرابع: منهج الاستفادة من القرآن لبناء الإنسان والعمران

المحور الأول: الإنسان في القرآن

أولاً: تعريف الإنسان في القرآن الكريم: الإنسان مخلوق خلقه الله تبارك وتعالى من طين ونفخ فيه من روحه وكرمه وفضله على سائر المخلوقات، وأسكنه في الأرض وكلفه بعمرانها.

ويؤكد هذا التعريف أنّ الإنسان مخلوق خلقه الله تعالى بيده، ونفخ فيه من روحه، وأكرمه وفضله على كثير من الخلق وأسجد له الملائكة. قال تعالى: "إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ"¹ فهو مكوّن من مادة وروح، مادة الطين وروح علوية سماوية. وأنه السيد في هذه الأرض وكل ما فيها مسخر له حتى يقوم بعمارته. قال تعالى: "وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"².

ثانياً: تكريم الإنسان في القرآن: التكريم ميزة وهبها الله تعالى للإنسان وخاصية لأدم وذريته، وهي منة من الله تعالى وتفضل منه، قال الله تعالى: "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا

¹ سورة ص: 71-72

² سورة الجاثية: 13

تَفْضِيلًا"¹، والكريم من جُمعت فيه الصفات الحميدة، وضده اللئيم وهو الدنيء الأصل السيء الخلق والشحيح النفس، والتكريم جعل الشيء كريماً في ذاته، "جَعَلُهُ كَرِيماً؛ أي: نفيساً غير مبذول ولا ذليلاً في صورته، ولا في حركة مشيه وفي بشرته؛ فإنّ جميع الحيوان لا يعرف النظافة، ولا اللباس، ولا ترفيه المضجع والمأكّل، ولا حسن كيفية تناول الطعام والشراب، ولا الاستعداد لما ينفعه، ودفع ما يضره، ولا شعوره بما في ذاته وعقله من المحاسن فيستزيد منها، والقبائح فيسترها ويدفعها، بلّه الخلو عن المعارف والصنائع، وعن قبول التطور في أساليب حياته وحضارته، وقد مثّل ابن عباس للتكريم بأنّ الإنسان يأكل بأصابعه؛ يريد أنه لا ينتهش الطعام بضمه، بل يرفعه إلى فيه بيده، ولا يَكْرَع في الماء، بل يرفعه إلى فيه بيده؛ فإن رفع الطعام بمغرفة والشراب بقدرح فذلك من زيادة التكريم، وهو تناول باليد"².

وفيما يلي مظاهر تكريم الله تعالى للإنسان في القرآن الكريم:

أ- خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه: قال تعالى مخاطباً إبليس: "مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِيَّ"³، وقال تعالى: "إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ" (٩١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي"⁴، وهذا أوّل تكريم أن خلقه الله تعالى بيده ونفخ فيه من روحه، وفيه تنبيه على أنّ هذا الخلق ليس عادياً من قبيل "كُنْ فَيَكُونُ"، ولكنه خلق له خصوصية، هي أنّ الله باشره بيده، فهذا تنويه بنفاسة هذا الإنسان، أما النفخ فيه من روح الله تعالى، فيدل على أنّ في هذا الإنسان في الأصل الأول شيئاً من روح الله عزّ وجلّ، به سيصلح بعدُ لتلقي هذه المهمة الكبيرة التي أنيطت بالإنسان، مهمة الخلافة، وبه سيصلح

¹ سورة الإسراء: 70

² التحرير والتنوير، للإمام الطاهر بن عاشور، 14/ 130-131

³ سورة ص: 75

⁴ سورة ص: 72

بعد لتلقي الهدى النازل من عند الله تعالى الذي هو أيضًا من جنس ما نُفخ في آدم عليه السلام،¹ أي أنه من روح الله تعالى: "وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا"².
 ب- إسجاد الملائكة له: قال تعالى: "وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ"³، وهذا تكريم خاص في موقع خاص أمام مخلوقات خاصة، هي الملائكة الكرام البررة التي خلقها تعالى من نور، فسجدت سجودَ تكريم لآدم، وطاعة لله عزَّ وجلَّ، وفي هذا دلالة خاصة ورمزية خاصة أغاضت إبليس واستخرجت ما به من شرِّ دفين.

ت- تعليمه وتدريبه: قال تعالى: "وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَثْبِتُوكَ بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣١﴾ قَالَ يَتَذَكَّرُ أَثْبُتُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَثْبَتَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٢﴾"،⁴ وهذا تكريم وتشريف ومنة كبيرة من الله تعالى، قال تعالى: "عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ"⁵، لأنَّ الإنسان امتلك بهذا العلم والقدرة على التعلم نصيبًا من الحكمة التي ميزته ورفعته عن منزلة الملائكة، وتميز عن باقي المخلوقات الأخرى. وهذا العلم من مؤهلات ومستلزمات الاستخلاف والسيادة في الأرض. أما ماهية العلم الذي علَّمه الله تعالى لآدم هل معرفة أسماء الأشياء؟ أم القدرة على تسمية الأشياء وإعطاء أسماء لها؟ والذي أميل إليه هي تلك الاستعدادات للتعلم وبناء المعرفة وبالعلم بما في الأرض، يقول الإمام ابن

¹ مظاهر تكريم الإنسان في القرآن الكريم للأستاذ الدكتور الشاهد البوشيخي، أنفو برانت،

فاس، 2009م، ص 13-16

² سورة الشورى: 52

³ سورة البقرة: 34

⁴ سورة البقرة: 32-33

⁵ سورة العلق: 5

عاشور: "وأياً ما كانت كيفية التعليم قد كانت سبباً لتفضيل الإنسان على بقية أنواع جنسه بقوة النطق وإحداث الموضوعات اللغوية للتعبير عما في الضمير. وكان ذلك أيضاً لتفاضل أفراد الإنسان بعضهم على بعض بما ينشأ عن النطق من استفادة المجهول من المعلوم وهو مبدأ العلوم".¹ فكانت هذه ميزة للإنسان عن غيره من المخلوقات أهلتها لعمارة الأرض والاستخلاف فيها.

وبعد الخلق من الطين والنفخ من الروح والتعليم جاء التدريب في الجنة: تدريب آدم وحواء على الشريعة والقانون الإلهي، مع وجود شهوات النفس وشبهات إبليس، تماماً كما هو الواقع في الأرض، حتى إذا أخطأ آدم في مرحلة التدريب علّمه الله تعالى كيف يصلح خطاه. قال تعالى: "وَقُلْنَا يٰٓآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٠﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ جِينٍ ﴿٢١﴾ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾".²

ث- الاستخلاف في الأرض: وهي نعمة تشريف وتكليف في نفس الوقت، والخلافة بمعنى يخلف من كان ساكناً في الأرض قبل البشر، أو المراد من الخليفة "المعنى المجازي وهو الذي يتولى عملاً يريد المستخلف مثل الوكيل والوصي أي جاعل في الأرض مدبراً يعمل ما نريده في الأرض فهو استعارة أو مجاز مرسل وليس بحقيقة لأنّ الله تعالى لم يكن حالاً في الأرض ولا عاملاً فيها العمل الذي أودعه في الإنسان وهو السلطنة على موجودات الأرض، ولأنّ الله تعالى لم يترك عملاً كان يعمل فوكله إلى الإنسان بل التدبير الأعظم لم يزل لله تعالى فالإنسان هو الموجود الوحيد الذي استطاع بما أودع الله في خلقته أن يتصرف في مخلوقات الأرض بوجوه عظيمة لا تنتهي خلاف غيره من

¹ التحرير والتنوير، المرجع السابق، 410/1

² سورة البقرة: 35-37

الحيوان"¹، ومكّنه من لوازم الاستخلاف بأنّ سَخَّرَ له ما في الأرض، وجعل له السيادة فيها.

ثالثاً: وظيفة الإنسان في الأرض: وظيفة الإنسان هي عبادة الله تعالى وطاعته واتباع ما أمر به واجتناب ما نهى عنه، لأنّ الإنسان كائن مخلوق مأمور من لدن خالقه، وكُلِّفَ بمهمة عمارة الأرض وخلافة الله تعالى فيها، وهي المهمة التي حدّدها تعالى للإنسان قبل أن يخلقه وينفخ فيه من روحه. قال تعالى: "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً"²، فحدّد الله تعالى للإنسان وظيفته ومكان القيام بهذه الوظيفة، الوظيفة هي الاستخلاف في الأرض وعمارتها، وذلك وفق العهد الرباني، ثم أنزل تعالى منهاج هذه الخلافة ودليل تسخير الأرض والاستفادة منها، قال تعالى حين أنزل آدم وحواء وإبليس إلى الأرض، بعد أن مهّد تعالى هذه الأرض وأصلحها وجعلها مهيأة لحياة بشرية فوقها. "قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى"³، هدى الله هو منهاج الاستخلاف ودليل تسخيرها، وهو "المنهاج الوحيد الذي تستقيم في ظله الحياة، وتستقيم في ظله النفوس، وتجد الفطرة في ظله السلام مع ذاتها، والسلام مع الكون الذي تعيش فيه"⁴ والناظر في القرآن الكريم يجد أنّ المركزية في هذه الكون المنظور للأرض، والمركزية في هذه الأرض للإنسان⁵، وأنّ غاية خلق هذا الإنسان هي العبادة التي هي علة خلق الإنسان والغاية النهائية للوجود الإنساني، وهي جوهر تعريف الإنسان ومعنى حياته على هذه الأرض، وبمقتضاها يطلّع الإنسان بوظيفة كونية بالغة الأهمية،

¹ التحرير والتنوير، المرجع السابق، 399/1

² سورة البقرة: 30

³ سورة طه: 123

⁴ في ظلال القرآن لسيد قطب، دار الشروق، بيروت، 1977م، 486/1

⁵ القرآن والإنسان أية علاقة للدكتور الشاهد البوشيخي، أنفو برانت، فاس، 2009م، ص 16-17

عجزت عن القيام بها السماوات والأرض، إنها تحمل الأمانة أو التكليف الملقى على عاتق الإنسان بكامل إرادته، قال تعالى: "إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٦﴾"،¹ وهذا التكليف وتحمل المسؤولية ليس له حدود، فهو يشمل الكون بأسره، وتشكل السماء والأرض مسرح عملياته ومادتها. والإنسان في ذلك مسؤول عن كل ما يحدث في زوايا الكون كله.²

وحرية الإنسان في تحمل المسؤولية تفسّر لنا إمكانية العصيان الموجودة لدى الإنسان، لكن فيه من الخير ما أهله لهذه الوظيفة. وهو ما جعله في مكانة أرفع بكثير من المخلوقات الأخرى بمن في ذلك الملائكة، لأنه وحده المؤهل لذلك والقادر عليه. وقدرة الإنسان على "فعل الشر تشكل خطراً محتملاً على موجودات الكون، إلا أنّ ذلك لا يقارن بالوعد العظيم الذي يمكنه تحقيقه بإنعام الله عليه بالحرية. فما أراد القرآن تأكيده هو أنّ الإنسان ينفرد بإمكانية تحقيق القيمة الأخلاقية، لأنه هو الوحيد من بين المخلوقات الذي يتمتع بالحرية اللازمة لذلك، وهو الوحيد الذي قد يسعى لتحقيق منظومة القيم بكليتها، لامتلاكه العقل والرؤية اللازمة لمثل هذه المهمة".³

المحور الثاني: طبيعة القرآن الكريم ووظيفته

القرآن الكريم كلام الله تعالى المنزل على نبيه محمد ﷺ من أجل هداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وليبين لهم الطريق المستقيم للحياة السعيدة في الدنيا والآخرة. ومن أجل استبيان طبيعة القرآن الكريم ووظيفته، سوف نستنطق آياته البينات، ومن خلال النظر في هذه الآيات نجد قول الله تعالى: "وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا

¹ سورة الأحزاب: 72

² التوحيد ومضامينه في الفكر والحياة للدكتور إسماعيل الفاروقي (ترجمة: د. السيد محمد السيد عمر)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، مكتبة الأردن، عمان، 1، 2016م، ص 164-165

³ التوحيد ومضامينه في الفكر والحياة، المرجع السابق، ص 173-174

إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكْتُبُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥١﴾¹ قال الإمام الطبري إن معنى الروح هنا الوحي² أو الرحمة، وأميل هنا إلى معنى الوحي وقوله تعالى: "قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿٥١﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ".³ فهذه الآيات تدلنا على طبيعة القرآن الكريم بأنه روح ونور من الله تعالى.

أ- القرآن الكريم روح: القرآن الكريم روح، والروح من أمر الله تعالى لا نستطيع الخوض فيها ولا الإحاطة بأسرارها، الذي نعلمه عنها من عند الله تعالى وبها صار الإنسان كائنًا حيًا مميّزًا، قال الله تعالى: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا"⁴، وقوله تعالى: "رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ"⁵. فطبيعة القرآن أنها روح وخاصية الروح هي بعث الحياة في الجسم، وهذا القرآن الكريم روح من الله تعالى، الذي نفخ في آدم من روحه، فحمل النفحة العلوية التي رفعت من شأنه، وجعلته كائنًا حيًا، ومتى حلت الجسد أعطته الحياة، "حين تحلّ في الإنسان الفرد تمنحه الحياة بعد الموت، فيصير خلقًا آخر. وهو روح حين تحلّ في جم من الناس، يصيرون جسدًا واحدًا، وأمة واحدة. وما صارت هذه الأمة: أمة الإسلام، خير أمة أخرجت للناس إلا بحلول روح القرآن في أفرادها جميعًا، وفي كيانها العام جميعًا. وما صنعت هذه

¹ سورة الشورى: 52

² تفسير الطبري، دار المعارف، 560/21

³ سورة المائدة: 15-16

⁴ سورة الإسراء: 85

⁵ سورة غافر: 15

الأمّة ما صنعتها في التاريخ، إلا حين حلّت في أفرادها روح القرآن، وحلّت في مجموعها روح القرآن".¹

وبالتالي فالعلاقة بين الإنسان بالقرآن هي علاقة الروح بالجسد، لأنّ الإنسان بلا روح جسد ميت، والقلب بلا روح قلب ميت، بالمعنى الديني، في ميزان القرآن الكريم، ويؤكد ذلك قول الله تعالى: "أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا"،² وقول النبي ﷺ: "مثل الذي يُذكر الله ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت".³ وميزة الروح أنها تبعث الحياة، فحياة الإنسان تكون بالقرآن الكريم الذي هو روح المسلم، وروح الأمّة المسلمة، وسرّ حياتها وفعاليتها وقوتها. وقد أوصى الله تعالى بكثرة ذكره عزّ وجلّ حتى تبقى الصلة قوية به ويكون الاستمداد مباشراً منه، فقال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا".⁴

ب- القرآن الكريم نور: الله نور: "اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ"،⁵ والقرآن الكريم نور من نور الله تعالى. ومحمد ﷺ جاء بنور الله تعالى. يقول الإمام الطبري في تفسير الآية الكريمة: "قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ".⁶ "يا أهل التوراة والإنجيل" من الله نور"، يعني بالنور، محمد ﷺ الذي أنار الله به الحق، وأظهر به الإسلام، ومحقق به الشرك، فهو نور لمن استنار به يبين الحق. ومن إنارته الحق تبيّنه لليهود كثيراً مما كانوا يخفون من الكتاب".⁷

¹ القرآن والإنسان أية علاقة، المرجع السابق، ص 19-20

² سورة الأنعام: 22

³ رواه البخاري، رقم الحديث: 6407

⁴ سورة الأحزاب: 41

⁵ سورة النور: 35

⁶ سورة المائدة: 15-16

⁷ تفسير القرآن للطبري، دار المعارف، 11/144

وعلاقة النور بالإنسان علاقة هداية وإرشاد إلى الطريق الصحيح، لأنَّ النور يعين على الرؤية والإبصار، ومتى غاب النور حلَّ الظلام، وانعدمت الرؤية، فيقع الإنسان في التيه والضياح والانحراف عن الطريق الصحيح الموصل إلى الهدف، وحاجة الإنسان إلى هذه الرؤية، كحاجته إلى الماء والهواء، لأننا جئنا من غيب ونتجه إلى غيب، فالمستقبل غيب ولا ندري عن اللحظات القادمة شيئاً. الغيب يحاصرنا، ونحن نخترق ظلامه كلَّ وقت وحين. وهذا يجعلنا في حاجة إلى الهداية وإلى النور.

يقول الأستاذ الدكتور الشاهد البوشيخي: "وشأن النور أن يعطي الأمان، ويوضح الرؤية، وأن يبرز الأشياء على حقيقتها. بواسطة النور نرى الأشياء بأحجامها الطبيعية، وألوانها الطبيعية. مع النور يكون الأمن والأمان، ومع الظلمة تكون الرهبة والخوف. مع النور يكون الوضوح، ومع الظلمة يكون الغموض. مع النور تُعرف الحقائق، ومع الظلمة تُطمس الحقائق. إن هذا القرآن نور للقلوب، ونور للعيون للألسنة، ونور للجوارح، ونور للفرد، ونور للجماعة للأسرة، ونور للجماعة، ونور للأمة، ونور للبشرية".¹

هذا القرآن سرَّ حياة الإنسان، وإذا كان الإنسان من طين فالقرآن الكريم ماء السماء، الذي يُحيي الأرض بعد موتها، وإذا كان الماء يجعل الأرض خصبة فكذلك القرآن يجعل الإنسان حيًّا معطاءً نافعًا. وعلى قدر تقبل الإنسان للقرآن يكون خيره ونفعه للخلق. ويبين هذا المعنى قول النبي ﷺ: "مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت الكلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به".²

¹ القرآن والإنسان أية علاقة، المرجع السابق، ص 21-22

² صحيح مسلم، رقم الحديث: 2282

المحور الثالث: العمران في القرآن الكريم

أولاً: مفهوم العمران في القرآن: العمران "هو مصدر من عمر الأرض يعمرها عمارة وعمراناً. والعمران نقيض الخراب، وعمر الأرض: بنى عليها وأهلها. واستعمرها جعل يعمرها، وأما في القرآن الكريم فلم يرد لفظ العمران لكن وردت ألفاظ قريبة منه، وكلها تصب في معنى واحد هو تعمير الأرض بالعمل الصالح النافع الذي يناسب متطلبات الإنسان المعيشية، يقول الراغب الأصفهاني: ¹ "العِمَارَةُ: نقيض الخراب: يقال: عَمَّرَ أرضَهُ: يَعْمُرُهَا عِمَارَةً. قال تعالى: "وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ". ² يقال: عَمَّرْتُهُ فَعَمَّرَ فهو مَعْمُورٌ. قال: "وَعَمَّرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَّرُوهَا" ³، "وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ" ⁴، وَأَعَمَّرْتُهُ الأرضَ واستَعَمَّرْتُهُ: إذا فَوَّضْتَ إليه العِمَارَةَ، قال: "وَأَسْتَعْمِرْكُمْ فِيهَا". ⁵ فكل الإنشاءات المعنوية والحسية التي بها يقوم الإنسان فيعبد بها الله تعالى ويقوم بوظيفة الخلافة... كل ذلك هو العمران.

وهذا ينقلنا إلى المعنى الاصطلاحي إذ العمران اسم للبنيان ولما يعمر به المكان ويحسن حاله بواسطة الفلاحة وكثرة الأهالي ونجاح الأعمال والتمدن، ⁶ وعرفه ابن خلدون في مقدمته بقوله: "اعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التقلبات للبشر بعضهم على بعض،

¹ المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (تحقيق: عدنان صفوان الداودي)، دار القلم، دمشق، ط1، 1412هـ، 586/1

² سورة التوبة: 19

³ سورة الروم: 9

⁴ سورة الطور: 4

⁵ سورة هود: 61

⁶ سراج الطالبين على منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين للإمام الغزالي، دار الكتب العلمية، د.ت. 41/2

وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعدتهم من الكسب والمعاش والعلوم والصانع، وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال"،¹ فجعل العمران نتاج التفاعل الاجتماعي البشري ونمطاً لحياته البشرية وخاصة من خاصيات الإنسان التي يتميز بها عن غيره من المخلوقات الأخرى.

إنه نتاج السعي البشري المادي والمعنوي، وهو نشاط تعميري لا تخريبي، يوافق طبيعة الإنسان الاستخلافية التي خلقه الله تعالى عليها، وعليه لا ينبغي النظر إلى العمران البشري باعتباره مقتصرًا على فن البناء بأنماطه وأشكاله وهندسته الموروثة والمحدثة، بل يعني بالمفهوم الإسلامي القيام بأعباء الاستخلاف وفق فلسفة الإسلام الكونية، وبذلك يتمثل النشاط البشري في كل المجالات المادية والفكرية والثقافية على السواء؛ ومدلول التعمير يرادف مدلول الحضارة بصفة عامة.²

وبالرجوع إلى القرآن الكريم نجد لفظ "عمر" يرد خمسًا وعشرين مرة، في ثلاث منها على صيغة اسم علم "آل عمران"، وثلاث مرات منها اسمًا للنسك العمرة التي تتم في سائر أيام العام، مما يُبقى المسجد الحرام عامرًا بالمعتمرين ومعمورًا بهم على مدار العام.

وجاء في ثلاث مرات متعلقًا بعمران المساجد وبنائها وخدمتها والإقامة فيها، وجاء ثلاث مرات أخرى بمعنى الإقامة والاستقرار في الأرض وفلاحها وبناء المساكن وتشديد القصور والأخذ بأسباب الحضارة والتخلي عن حياة التنقل والبادية. وجاء مرة واحدة بمعنى الحياة، أما بقية المرات فجميعها إشارة إلى مرور الزمن في حياة الإنسان.³

¹ المقدمة، لابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، طبعة دار الفكر، ص 32
² الدين والتمدين لكديم الصوصي مولاي إبراهيم، ضمن المدينة المغربية العتيقة، إشكاليات الحاضر وتحديات المستقبل، جامعة القاضي عياض، المراكش، 2003 م، ص 86.
³ العمران في منظومة القيم الحاكمة لفتحي ملكاوي، مجلة إسلامية المعرفة، العدد: 59، ص 7-8

وبتأملنا في مواطن ورود العمران بصيغه ومشتقاته المختلفة في القرآن الكريم نجد نوعين للعمران: عمران مادي بعيد عن القرآن الكريم وما جاء به من الهدى والحق، وعمران على وفق القرآن الكريم وهداه، وأما الثابت منهما فهو ما كان موافقاً للقرآن الكريم، وما أُسس على قوانينه ومبادئه العليا. وإلا فإن مصير العمران البشري المخالف لمبادئ القرآن إلى زوال، وإلى خراب ودمار، وهذا المصير حكاه القرآن الكريم فيما يخص أمم الكفر مثل قوم عاد عندما قال تعالى: "وَأَمَّا عَادُ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَازِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ".¹ وهذا يؤكد أن أساس العمران هو القرآن، فارتباط العمران بالقرآن إذن، ارتباط السبب بالمسبب، بحيث لا يمكن أن يكون عمران في الأرض إلا إذا وُجد القرآن، لأن الذي ينشئ العمران هو القرآن، إذ العمران مرتبط بالوظيفة الأصلية لأدم وبنيه، التي هي الخلافة والتي حددت في شيء اسمه "عبادة الله وحده لا شريك له"، التي تقرها الآية: "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ"². إذن لكي ننتج العمران فنحن نحتاج إلى القرآن، ولا بد من الانطلاق من القرآن إلى العمران.³

ثانيًا: أسس العمران في ميزان العمران: أساس العمران في القرآن الكريم هو الإيمان والعمل الصالح، وهو ثابت باستقراء الآيات القرآنية، والإنسان نفسه مصيره الخسران إذا افتقد إلى الإيمان والعمل الصالح، كما في قوله تعالى في سورة العصر: "وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ"⁴ وهو ما أكدته الآية الكريم: "وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا

¹ سورة الحاقة: 6-8

² سورة الذاريات: 56

³ القرآن والعمران، المرجع السابق، ص 35

⁴ سورة العصر: 1-3

مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا
يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ".¹

ومن أسباب ازدهار العمران واستمراره هو القيم الأخلاقية خاصة إقامة العدل
والإحسان في الأرض، ثم العلم والمعرفة، والذي به يتم تيسير تسخير الكون للإنسان،
وذلك عندما أنعم الله تعالى على الإنسان بنعمة العقل والتفكير، وهي النعمة
الكبرى التي تميز بها الإنسان عن باقي المخلوقات الأخرى، وكان التكريم مباشرة
بعد خلق الإنسان، حيث علّمه الله تعالى الأسماء، وبهذا العلم تفوّق آدم على
الملائكة، قال تعالى: "وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا"²، وقال تعالى: "خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ
الْبَيَانَ"³، وبالعلم استطاع الإنسان تيسير الحياة وتسخير المخلوقات لصالح،
ويزداد العمران كلما ازداد الإنسان علماً، قال تعالى: "اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ"⁴
فجمعت الآية بين القراءة وكرم الرب، أي أنّ القراءة وكرم الرب اقترنا في مكان
واحد. وحين ننظر إلى العالم جغرافياً- أي مكانياً- سنرى هذا الاقتران متلازماً، أي
أنّ الذين ينالون كرم الرب وغناه هم القراء أو أكثر الناس قراءة في العالم. وإذا
نظرنا حولنا في هذا العصر الذي نعيش فيه وجدنا أنّ الذين يتمتعون بخيرات
العالم وينالون الكرم والكرامة هم قراء هذا العصر وأكثرهم صلة بالقراءة وما
يتصل بها. إن من يقرأ أكثر ينل أكثر.. إنه قانون الله..⁵

¹ سورة النور: 55

² سورة البقرة: 31

³ سورة الرحمن: 3-4

⁴ سورة العلق: 3

⁵ انظر: كتاب اقرأ وربك الأكرم لجودت سعيد، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط2، 1993م، ص

ثالثاً: نواقض العمران: العمران البشري يقوم على الإيمان بالله تعالى والإصلاح في الأرض، ولا يقوم عمران مع وجود الفساد والإفساد في الأرض، وقد مهّد الله تعالى هذه الأرض الإنسان وأصلحها حتى صارت مهيأة له، ونهى تعالى الإنسان عن الإفساد في الأرض، فقال تعالى: "وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا"¹ وقد بيّن العلماء أنّ الله تعالى نهى عن جميع أنواع الإفساد المادي والمعنوي، لأنّ وجوده مؤذن بالخراب. قال أبو حيان الأندلسي: "هذا نهى عن إيقاع الفساد في الأرض وإدخال ماهيته في الوجود فيتعلق بجميع أنواعه من إيقاع الفساد في الأرض وإدخال ماهيته في الوجود فيتعلق بجميع أنواعه من إفساد النفوس والأنساب والأموال والعقول والأديان ومعنى (بعد إصلاحها) بعد أن أصلح الله خلقها على الوجه الملائم لمنافع الخلق ومصالح المكلفين"².

ومعلوم أنّ العمران منه ما هو مادي ومنه ما هو معنوي، وأساس العمران المادي هو الجانب المعنوي المتجلي أساساً في العقيدة والإيمان، لأنّ الغاية من العمران هي عبادة الله تعالى وتحقيق إرادته عزّ وجلّ في الكون، أما إذا تم الاكتفاء بالجانب المادي من العمران فمآله هو الخراب والزوال، وهو ما سار إليه عمران الأمم السابقة التي ذكرها القرآن بأنها أقامت عمرانها على المادة بلا إيمان، لأنّ أصل الوجود المادي هو الغيب، وإذا فُقِدَ هذا المعنى ولم يستند إليه فَقَدَ سرّ بقائها.

وقد جعل الله تعالى التدافع بين الناس حتى لا يغلب الجانب المادي من العمران على الجانب المعنوي، قال تعالى: "وَلَوْ لَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَمْرَهُ وَلَا تَقْرَبُوا مَعَاصِيَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ"³ وجعل تعالى منع المساجد وأماكن العبادة التي تزوّد الإنسان

¹ سورة الأعراف: 56

² البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، دار إحياء التراث العربي، د.ت. 312/4

³ سورة الحج: 40

الجانب الروحي والمعنوي من أبشع أنواع الظلم، فقال تعالى: "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهِ"¹. والإغراق في العمران المادي على حساب مع العمران المعنوي يؤدي حتمًا إلى الخراب والدمار لأن شهوات الإنسان لا حدود لها، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ولاستحالة تحقيق الإشباع المادي في الحياة الدنيا، وهذا ما حاول إبليس إغراء آدم به في الجنة: الإشباع في العُمر والتملك، "فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَىٰ"²، وهذا غريزة في الإنسان، وهو من مقتضيات العمران، غير أن الإغراق فيه يأتي بنتائج عكسية، فكان الدين بما فيه عقيدة وشريعة من أجل تهذيب هذه الغرائز واستقامة العمران وفق ما أراد الله تعالى.

وقد قصَّ علينا القرآن الكريم مصير أمم بلغت شأنًا في العمران المادي على حساب العمران المعنوي، فلم يغن عنها عمرانها شيئًا، وأصابها الهلاك والدمار، قال تعالى: "إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا"³، وقال تعالى: "أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ"⁴، وقال تعالى: "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۖ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۖ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ ۖ"⁵.

رابعًا: واقع العمران البشري اليوم: والناظر في العمران البشري اليوم بميزان القرآن يجد أنه عمران مادي بعيد كل البعد عما ينبغي أن يكون عليه، وهذا

¹ سورة البقرة: 144

² سورة طه: 120

³ سورة الإسراء: 16

⁴ سورة الأنعام: 6

⁵ سورة الفجر: 6-8

البنیان والإنشاءات لم تنفع الإنسان ولم تحقق سعادته، بل أشقته، خاصة أن الإفساد بلغ أوجه بعد مس تغيير الفطرة البشرية، وتغيير خلق الله تعالى، وهو فعل شيطاني، قال تعالى: "وَلَا تُرْهِقُهُمْ فَلْيَعْيِرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ"¹. وهذا التغيير في تزايد مستمر موظفًا العلم الحديث، وإنه حين يصل تغيير الشيطان في الخلق إلى درجة يختل فيها توازنه العام، يدمر الكون، لأنه إذ ذاك تكاد تكون السيادة للشيطان تامة،² ولا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق، كما قال النبي ﷺ: "لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكُونَ أَشْعَدَ النَّاسِ بِالدُّنْيَا لُكْعُ ابْنِ لُكْعٍ"³.

وتجلى هذا الإفساد في عصرنا الحالي في التغيير للخصائص الوراثية للإنسان ومخلوقات أخرى، بما يعود على الإنسان بالدمار والخراب والشقاء، ومنها الفساد الأخلاقي ومن أخطره الشذوذ الجنسي وعقم الأرحام، ثم التلوث البيئي بكل أنواعه وأشكاله... وهذا الإفساد في الأرض مؤذن بخراب العمران البشري. ولا بد من إصلاح ما تم إفساده، ولا يتم ذلك إلا بالرجوع إلى القرآن الكريم، وبناء الإنسان الذي سيبنى العمران على وزن القرآن. ومن أجل ذلك لا بد من رؤية قرآنية للإنسان والعمران. والافتناع بالزامية الانطلاق من القرآن بشروطه ومبادئه العقدية والأخلاقية والتشريعية. وإذا توفرت الرؤية سهل ما بعدها.

المحور الرابع: منهج الاستفادة من القرآن لبناء الإنسان والعمران

نزل القرآن الكريم على محمد ﷺ في مكة، والعرب حينئذ لا يعرفون معنى للحضارة أو التحضر، يعيشون في جاهلية وأمية، فأحدث القرآن الكريم نقلة كبيرة في حياة العرب، من أمة لا ذكر لها بين الأمم، إلى أمة شاهدة على الناس. وخير ما يصور لنا هذه النقطة هي الصحابي الجليل جعفر بن أبي طالب ﷺ عندما قال لملك الحبشة:

¹ سورة النساء: 119

² القرآن والعمران أية علاقة، المرجع السابق، ص 35

³ رواه الترمذي، رقم الحديث: 2209

"أيها الملك، كنّا قومًا أهلَ جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونُسيء الجوار، ويأكل القويُّ منا الضعيف، فكُنّا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منا نعرفُ نسبَه، وصدقَه، وأمانته، وعفافَه، فدعانا إلى الله لتوحيده، ولنعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وأباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان".¹

فكيف حدثت هذه النقطة؟ حدثت بالقرآن الكريم، وبالمنهج النبوي في التعامل مع القرآن الكريم، ويمكن أن نلخص هذا المنهج النبوي في التلاوة بمنهج التلقي، والتعليم والتعلم بمنهج المدارس والتزكية بمنهج التدبر. ويجمع ذلك قوله تعالى: "هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ".²

أولاً: التلاوة بمنهج التلقي: وتلاوة القرآن أمر بها الله تعالى رسوله ﷺ، وأمر بها المؤمنين، لما لها من أثر على القلوب، فقال تعالى: "وَأْتِلْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا".³ وقال تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ".⁴ ولكي يكون للتلاوة الأثر المأمول، ينبغي أن تكون بمنهج التلقي، والتلقي هو الاستقبال، وهو منهج الرسول ﷺ في تلاوة القرآن، والتلقي هو استقبال القلب للوحي، على سبيل الذكر، وهو عام في كل مؤمن في كل زمان ومكان، وهو الذي تنبعث به القلوب. لأنها تتلقى آنئذ القرآن روحًا من لدن الرحمن، "وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا".⁵ ويحصل هذا إذا تعامل المؤمن بصورة شهودية، أي كأنما

¹ مسند الإمام أحمد، رقم الحديث: 1740

² سورة الجمعة: 2

³ سورة الكهف، 27

⁴ سورة فاطر: 29

⁵ سورة الشورى، 52

يشهد تنزله غضاً طرياً، باعتباره يخاطبه هو في نفسه ووجدانه، فيبعث قلبه حياً في عصره وزمانه.¹

ثانياً: التعلم والتعليم بمنهج التدارس: والتدارس صيغة مفاعلة من الدراسة وهو تتبع صيغ العبارات، ووجوه المعاني والدلالات للمقاصد والغايات، من كل آية وسورة، وتعلم ذلك كله ترتيباً وتفسيراً.²

والتعلم بمنهج التدارس منهج جبريل عليه السلام في تعليم النبي ﷺ، فعن ابن عباس، قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جَبْرِيْلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ».³

وهو منهج حث عليه النبي ﷺ عندما قال "ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتمهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده".⁴ وسار عليه الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، في أوضح وأنضج صورة من صور التعامل والاستفادة من القرآن الكريم، والوقوف على أسرارهِ وعجائبهِ، ذلك أن تدارس القرآن منهج راشد في تثوير القرآن الكريم وسبر أغواره والتفقه فيه، كما جاء في الأثر عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "مَنْ أَرَادَ الْعِلْمَ فَلْيُتَوَرِّ الْقُرْآنَ، فَإِنَّ فِيهِ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ"⁵، وعن أنس بن مالك قال: "جاء ناس إلى النبي ﷺ فقالوا أن ابعث معنا رجلاً يعلمونا القرآن والسنة فبعث إليهم سبعة رجلاً من الأنصار يقال لهم القراء فهم خالي حرام يقرءون القرآن ويتدارسون بالليل يتعلمون".⁶

¹ مجالس القرآن للدكتور فريد الأنصاري، منشورات ألوان مغربية، ط1، 2004م، ص 37-38

² المرجع نفسه، ص 42

³ صحيح البخاري، رقم الحديث: 6

⁴ رواه داود في سننه، روقم الحديث: 1455

⁵ أخرجه الطبراني في "الكبير"، رقم الحديث: 8665

⁶ صحيح مسلم، رقم الحديث: 677

ثالثاً: التزكية بمنهج التدبر: والتزكية هي التطهير والتنقية، والمقصود منها تزكية النفس وتطهيرها من الآثام ومن كل ما يندسها من الشرور، حتى تعود نقية سوية على الفطرة التي خلقها الله عليها أو مرة، كما بين ذلك النبي ﷺ عندما قال: "ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا؛ كل مال نحلته عبداً حلال، وإنني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً".¹ ومعلوم أن النفس البشرية لها استعداد لهذه التزكية كما لها استعداد للتدسية، قال تعالى: "وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا"²، أما تزكيتها فتكون بالقرآن الكريم الذي هو طبّ القلوب ودواؤها، والغوص في أسرار القرآن يكون بتدبر آياته، والنظر في مآلاتها في النفس البشرية وفي المجتمع، "فتبصر حقائقها الإيمانية إبصاراً، فتكتسب بذلك من الصفات الوجدانية، ما يعمر قلبك بالإيمان، ويثبت قدمك في طريق المعرفة الربانية، ويضعك على صراط السير إلى التخلق بأخلاق القرآن (..) والتدبر هو غاية كل ذلك ونتيجته، ولذلك قال عز وجل: "كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ"³. فجعل غاية الإنزال للقرآن التدبر والتذكر، ولولا التدبر لما حصل التذكر الذي هو يقظة القلب، وعمران الوجدان بالإيمان".⁴

بهذا المنهج تعامل النبي ﷺ والصحابة الكرام مع القرآن الكريم، الذي أنزله الله تعالى هداية للناس وإرشاداً لهم إلى الطريق القويم ليخرجهم من الظلمات إلى النور، فتلقاه النبي ﷺ بشوق، وعناية كبيرة، حتى بلغه إلى الصحابة الكرام بأمانة،

¹ المرجع نفسه، رقم الحديث: 2865

² سورة الشمس: 7-8

³ سورة ص: 29

⁴ مجالس القرآن، المرجع السابق، ص 48-49

فأقبلوا عليه تلاوة وتدارسًا وتدبرًا وتطبيقًا، فكانت النتيجة هي استقامة الفهم والسلوك، ورفي حضاري وعمران بشري.

خاتمة: في نهاية هذا البحث نؤكد على أهمية بناء الإنسان المؤمن الرسالي كما أراد الله تعالى في القرآن الكريم، وذلك يقوم بالمهمة المنوطة به، ألا وهي عبادة الله تعالى، وتتجلى هذه العبادة في عمارة هذه الأرض وإصلاحها وفق إرادة الله وشرعه، وهو تمام الاستخلاف الذي حدّده تعالى وظيفته الإنسان في الأرض.

ونؤكد أيضًا أهمية الانطلاق من القرآن الكريم لبناء العمران البشري، وأنّ الأبنية والإنشاءات المادية المخالفة لمعيار القرآن مآلها الخراب والدمار، وهو مصير الأمم السابقة التي خالفت الوحي وما جاء به الأنبياء عليهم السلام.

ونؤكد أنّ حاجة البشرية اليوم ماسة للرؤية القرآنية لإنقاذ العمران البشري المادي، ولإنقاذ الإنسان نفسه من المادية المتوحشة التي أنهكته ولم تحقق له السعادة التي توهمها في العمران المادي، فسار يلهث وراءها حتى إذا بنى العمران المادي لم يجد السعادة ووجد الشقاوة.

وهذا يقتضي نهوض المؤمنين الربانيين للقيام بمهمة التربية الإيمانية، وتبليغ رسالة الله إلى الناس جميعًا، وإنقاذ البشرية من صحراء المادية المعاصرة والأنانية القاتلة.

المصادر والمراجع

1. اقرأ وربك الأكرم لجودت سعيد، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط2، 1993م
2. البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، دار إحياء التراث العربي، د.ت.
3. التحرير والتنوير لابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1997م
4. تفسير الطبري، دار المعارف، مصر، د.ت.
5. التوحيد ومضامينه في الفكر والحياة للدكتور إسماعيل الفاروقي (ترجمة: د. السيد محمد السيد عمر)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، مكتبة الأردن، عمان، ط1، 2016م
6. سراج الطالبين على منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين للإمام الغزالي لإحسان محمد دحلان الجمفسي الكديري، دار الكتب العلمية، د.ت.
7. في ظلال القرآن لسيد قطب، دار الشروق، بيروت، 1977م
8. القرآن والإنسان أية علاقة للدكتور الشاهد البوشيخي، أنفو برانت، فاس، 2009م
9. مجالس القرآن للدكتور فريد الأنصاري، منشورات ألوان مغربية، ط1، 2004م
10. المدينة المغربية العتيقة، إشكاليات الحاضر وتحديات المستقبل، جامعة القاضي عياض مراكش، 2003م
11. مظاهر تكريم الإنسان في القرآن الكريم للأستاذ الدكتور الشاهد البوشيخي، أنفو برانت، فاس، 2009م
12. المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (تحقيق: عدنان صفوان الداودي)، دار القلم، دمشق، ط1، 1412هـ
13. المقدمة لابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، طبعة دار الفكر، د.ت.
14. مجلة إسلامية المعرفة، العدد: 59

الدراسات اللغوية في شبه القارة الهندية قبل الإسلام وبعده

- د. ضياء القمر آدم علي¹

تُعدّ اللغة للبشرية جمعاء أساساً مهمّاً، وضرورةً من أهمّ ضرورياتها؛ تُعبّر بها عن حاجاتها، ورغباتها، وآمالها، وطموحاتها، وتساعدها في تبادل الآراء والأفكار، والأحاسيس والمشاعر، وتنبيّ أفكارها وتجاربها؛ فهي تهيئها للأخذ والعطاء، والإبداع والمشاركة؛ وهي عنصرٌ مهمٌّ يربط الإنسانية بوجودها في هذا الكون، لولم تكن اللغة لم تعرف قيمتها وثقافتها، ولم تتميز عن غيرها. وللغة وظائف متعدّدة: اجتماعيّة، وفكريّة، ونفسية؛ وهي بهذا تمثل الأداة الأساسية لتواصل البشر؛ سواءً في المجتمع الواحد أو في المجتمعات المختلفة؛ قال ابن جني: "هي أصواتٌ يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم"².

فدراسة حروف اللغة وأصواتها منعزلةٌ تعدّ دراسةً للمستوى الأساسي؛ وهو المستوى الصوتي، ثم استخدام هذه الأصوات بترتيبٍ منظمٍ على حسب حاجة المتكلم؛ لينطقها متنوعاً متصرفاً باشتقاقاتٍ كثيرةٍ يسعى المستوى الصرفي، وعند تجاوز دراسة بنية الكلمة إلى تكوين الجملة من هذه الكلمات- حسب القواعد النحوية أو الضوابط التركيبية؛ لنبيّ جملاً سليمةً التركيب وسليمةً المعنى، وحسب الحاجة؛ لدى المتكلم أو الكاتب يسعى المستوى التركيبي، أو النحوي، ثم استخدام هذه الجمل والتراكيب- وفق ضوابط دلالية- وجعلها حسب المخاطب يسعى المستوى الدلالي، وهكذا تترابط المستويات اللغوية في

¹ أستاذ اللغة العربية بالجامعة المحمّدية منصوره، ماليغاون، مهاراشتر، الهند

² الخصائص، 14/1

اللغة، وفق هذا النظام؛ الذي يبدأ بالمستوى الصوتي، ثم الصرفي، ثم التركيبي، ثم الدلالي؛ إذ لا يقوم مستوى إلا بالآخر؛ الذي قبله.

ومفهوم الدراسات اللغوية عند الباحثين هو: دراسة أية لغة؛ كانت عربية أو غيرها، واللغة تشتمل على مستويات: الأول: المستوى الصوتي، الثاني: المستوى الصرفي، الثالث: المستوى النحوي، الرابع: المستوى الدلالي، وكل مستوى من هذه المستويات يدخل ضمن الدراسات اللغوية.

وقد يراد بالدراسات اللغوية- إضافة إلى هذه المستويات- النظر في أي جانب من جوانب اللغة؛ ليشمل كل صورة من صور التفكير فيها؛ كالحديث عن نشأتها، ونموها، وتطورها، وما إلى ذلك مما له صلة باللغة.¹

نشأة الدراسات اللغوية وظهورها: إن اللغة- بالرغم من اتصالها بحياة الإنسان اتصالاً شديداً، وارتباطها بها ارتباطاً وثيقاً، وتعايش الإنسان معها معايشة طويلة- لم نثر على مصدر يرجع بنا إلى ما يعدّ إرهاصاً لها؛ قبل القرن الرابع قبل الميلاد، سوى ومضات خاطفة وإيماءات خفيفة، تتمثل في النقوش القديمة في الهيروغليفية والسومرية والآشورية؛ من حيث احتواؤها على عدة إشارات:

1. اختراع الكتابة وتطورها من الرمز بالصورة إلى الرمز بالشكل للصوت أو المقطع.

2. وصول سفراء الدول الأجنبية إلى بلاط الفراعنة في صحبة مترجمين.

3. تلك القواميس الثنائية؛ التي تجمع بين اللغتين: السومرية والآشورية، أو

القواميس متعددة اللغة؛ التي تجمع أربع لغات.²

¹ ينظر: (خصائص تراكيب اللغة العربية للدكتور عبد الله علي علي الثوري) مقال منشور في الشبكة العنكبوتية (مدونة الثوري).

² ينظر: أسس علم اللغة، ص 225

فمن إمكاننا عند التفكير في بداية الدراسات اللغوية أن نعدّ انتقال الكتابة من الرسم والتصوير إلى الرموز الدالة على الصوت المفرد نقلة معرفية كبيرة؛ تقوم في أساسها- على معرفة لغوية متقدمة.

هذه الأمثلة وغيرها- على الرغم من أهميتها التاريخية- فإنها لا تدل دلالة كافية على وجود تفكير لغوي منظم في تلك الحقبة المتقدمة من التاريخ؛ فهي مجرد ومضات خاطفة تدلّ على وجود وعي لغويّ دون تحديد مقداره أو حدوده، وتفصيلاته.

ولكنّ أقدم ما سجّله التاريخ من تفكير لغوي منظم يرجع إلى الحضارتين القديمتين: اليونانية والهندية.

وفي التالي أحاول إلقاء الضوء على الدراسات اللغوية في الحضارة الهندية بغض النظر عن غيرها خشية الإطالة.

إذا قلبنا صفحات التاريخ وجدنا أنه عُني الهنود بلغتهم "السندسكريتية"؛ التي ارتبطت بكتاب مقدّس لهم يُعرف بـ"الفيدا"؛ وذلك في مرحلة متقدمة من الزمن؛ ترجع إلى ما بين القرنين: الثاني عشر والعاشر قبل الميلاد، وقد أثرت عن الهنود دراسات في فروع علم اللغة المختلفة تتناول الأصوات، والاشتقاق، والنحو، والمعاجم؛ كما تتناول كثيرًا من مشكلات قضايا اللغة، ويرجع أقدم هذه الدراسات إلى فترة مجهولة لنا، أما أقدم ما وصلنا منها فيرجع إلى حوالي القرن الخامس قبل الميلاد.¹

من الحقائق الثابتة المعروفة لدى الباحثين أنّ اللغة- لكونها جزءًا أساسيًا لحياة الإنسان- تلقّت من ناطقها باهتمام بالغ نحوها، ولكن ارتباطها بدين يضفي عليها بهاء لا يُضاهى، وقيمة لا تجارى، وخير دليل على ذلك ما حدث باللغة العربية؛ فعندما أخذ الإسلام ينتشر شرقًا وغربًا، ودخلت بلاد العرب وغيرها في الإسلام، سارت اللغة

¹ ينظر: البحث اللغوي عند العرب، ص 57

العربية مع الإسلام جنباً إلى جنب؛ فحيثما انتشر الإسلام انتشرت اللغة العربية؛ فمع اعتناق الفرد للدين الإسلامي لا بدّ له من الإمام- على الأقلّ- ببعض الآيات القرآنية، حتى يؤدّي بها صلاته وواجباته الدينية؛ ولذلك فإنّه لا بدّ أن يكون على علم ولو ضئيل باللغة العربية، أما من يريد أن يفهم دينه ويتبحّر فيه؛ فلا بدّ له من الإمام الجيّد باللغة العربية حتى يستطيع قراءة القرآن الكريم وفهمه، وقراءة شروحه وتفسيره، وبهذه الطريقة حمل الإسلام اللغة العربية معه حيثما حلّ وأينما ارتحل؛ على نحو جعل للعربية قدراً واسعاً من الانتشار في كلّ المناطق؛ التي تضمّ جماعات مسلمة.

وهذه الحالة بالفعل حدثت بلغة الهنود السنسكريتية؛ فكان الدافع إلى دراستهم للغتهم دينياً محضاً يتمثّل في:

1. حفظ نصوص "الفيدا".

2. اعتقادهم أنّ لغتهم الأساسية قد خلقها الإله لاستعمال الناس؛ بل يعتقدون أنّها اللغة المستعملة بين الآلهة، وأطلقوا عليها وصف الوجود بدون سبب.

3. اعتقادهم أنّهم ربما يكونون مثل الإله العظيم.

فلذلك كانوا يقدّسون لغتهم السنسكريتية؛ التي كُتب بها هذا الكتاب، ووصفوها بالكمال، وكانوا يتعبّدون بدراستها، والاعتناء بها.¹

اللغة السنسكريتية، فصيلتها، وظهورها، وطبيعتها: تنتمي "السنسكريتية" إلى المجموعة الهندية-الآرية Indo-Aryan المتفرعة عن المجموعة الهندية-الإيرانية Indo-Iranian المنتمية إلى الأسرة اللغوية الهندية-الأوروبية Indo-European.

"السنسكريتية" أقدم اللغات الهندية، وقد ظهرت- أصلاً- في المنطقة الشمالية الغربية من شبه القارة الهندية، ثم انتشرت جنوباً وشرقاً، ثم "صارَتْ واسعة

¹ نفس المرجع، ص 58

الانتشار جداً في قارتها؛ فشملت أعمالها المعروفة على أوسع نطاق؛ ملهاة خيالية رومانطيقية، ولغويات نظرية، واقتصاداً، وشيئاً من الجنس، وأشعاراً غنائية، وتاريخاً، إلى جانب إنتاج مستمر من شعر الملاحم، وكراسات دينية وفلسفية؛ وهو تقليد أدبي شديد الوعي بالنفس، ومليء بالإشارات المثقفة".¹

ورغم كون هذه اللغة مقدسة لهم ومحط اهتمامهم بها- كما تقدّم- صارت لغةً مهجورةً فيما بعد؛ لاقتصرها على مجموعة من الأناشيد الدينية البراهمية القديمة، ولكن بالنظر إلى أنّ جماعة من رجال الهند قد تولّوا حفظ هذه الأناشيد البراهمية، وتعلّم طرق النطق بها، علاوة على طرق التعبير السليم بهذه الأناشيد وشرحها؛ فإنهم انصرفوا إلى الاهتمام بدراسة مفرداتها بتقعيد القواعد ووضع الضوابط؛ فظهر لذلك جيل لاحق من النحويين لم يُوقف اهتمامه فقط- على لغة هذه الأناشيد والكتابات المقدسة؛ بل تعدّى ذلك إلى تناول المستويات اللغوية: الصوتية، والصرفية، والدلالية، والنحوية.

فمن رجال الهند القدامى؛ الذين تصدّوا لدراسة اللغة السنسكريتية عددهم غير قليل، إلا أنّ الذين بلغت إلينا معلوماتهم قليل؛ منهم: ياسكا، وبانييني، باتنجالي، أمارا سنها، وغيرهم.

وفيما يلي ومضات لجهودهم في المستويات اللغوية الأربعة.

أولاً: المستوى الصوتي: نشأت دراسة صوتية للفيديا؛ ليتمكّن ذووه من نطق كلّ كلمة على وجه الدقة، وحسن التنغيم، غير أنّ هذه الدراسة لم تنشأ مستقلةً منفصلةً عن غيرها من فروعها؛ وإنما ظهرت مرتبطة بالنحو، وعولجت مشاكلها مع مشاكله؛ فكان النحاة- آنذاك- يستفيضون في كتبهم النحوية في الحديث عن الألفباء الهندية، والمشاكل النطقية، وغير ذلك، ثم

¹ إمبراطوريات الكلمة، تاريخ للغات في العالم، ص 254

انفصلت الدراسات الصوتية عن النحو، وظهرت عندهم مؤلفات مستقلة تعالج موضوعات من علم الأصوات العام.

يقول الدكتور أحمد مختار عمر: "يرجع تاريخ الدراسات الصوتية عند الهنود إلى 700-800 ق م، وأما الفترة التاريخية للمؤلفات المفقودة فترجع إلى المدة من 800-500 ق م، وأما الفترة التاريخية للمؤلفات الموجودة فترجع إلى المدة من 500-150 ق م" وقال: "وقد استطاع الدكتور verma أن يجمع خمسين كتابًا هنديًا قديمًا في الأصوات؛ منها 31 كتابًا مطبوعًا، و19 مخطوطًا، وأقام دراسة على هذه المؤلفات الخمسين".¹

وقد أخذت الدراسات الصوتية عند الهنود أشكالًا مختلفة؛ تتمثل في ثلاث نقاط: الأولى: الصوت المفرد: فيما يتعلق بالصوت المفرد، فقد توصل الهنود إلى الحقائق الآتية:

1. "قسّموا الأصوات إلى: علة، وأنصاف علة، وساكنة، وقد قسّموا العلة إلى: بسيطة وإلى مركبة؛ كما قسّموا السواكن بحسب مخارجها إلى: حلقية، وغارية، ولسانية، وأسنانية، وشفوية.
2. توصل الهنود إلى أثر القفل في إنتاج الأصوات الانفجارية أو الوقفية، والفتح في إنتاج أصوات العلة؛ كما تحدّثوا عن أنصاف العلل، وعن الأصوات الاحتكاكية.
3. وضع الهنود مقاييس لكميّة الصوت على أنّه يكون قصيرة، أو طويلة، أو طويلة جدًا؛ كما ذكروا أنّ الصوت البشري ثلاثة أنواع: سريع، ومتوسّط، وبطيء".²

¹ البحث اللغوي عند الهنود، وأثره على اللغويين العرب، ص 47

² نفس المرجع، ص 48-51

الثانية: المقطع: أما ما يتعلّق بالمقطع الصوتي فقد تحدّث الهنود عنه بالتفصيل؛ يتمثّل في: تقسيم المقطع، وقواعده، وكيفيّته، وطرق قياسه، وغير ذلك.

1. ذكروا أنّ أهمّ أجزاء المقطع هو العلة، وذلك بناءً على ما قرّروه من أنّ الساكن لا يمكن أن يقف بنفسه؛ وإنما يعتمد دائماً على العلة؛ في حين أنّ العلة يمكن أن تستقلّ بنفسها.

2. وضع الهنود قواعداً للتقسيم المقطعيّ على النحو التالي:

أ. إذا وقع الساكن قبل علة فإنّه يتّبع العلة؛ التي تليه؛ سواء كان الساكن أولاً أو وسطاً.

ب. إذا وقع الساكن بين علتين فإنّه يلحق بالعلة؛ التي تليه.

ت. الساكن المتطرّف يتّبع العلة السابقة، والسبب في ذلك أنّ كلّ السواكن المتطرّفة في السنسكريتية أصواتٌ انفجاريّةٌ كانت تنطق في تهاون، حتى إنها قد اختلفت في بعض اللهجات، ولا يمكن أن يتوقع في مثل هذه الحالة أن يُشكّل أحدها مقطعاً مستقلاً¹.

الثالثة: النّبر: أما في النّبر فقد توصّل الهنود إلى الحقائق التالية:

1. النّبر ليس من خصائص السواكن؛ وإنما من خصائص العلل، ويرى باتنجالي أنّ الساكن قد يشارك العلة في النّبر إذا جاورها؛ فتنتقل إليه خاصّتها تماماً؛ كما يحدث لقطعة قماش بيضاء حين توضع بين قطعتين حمراوين، فإنّ البياض يكتسب لون الحمرة منهما.

2. العلة: التي تتحمّل نغمةً عاليةً تُسمّى منبورةً.

3. للنّبر ثلاث درجاتٍ.

¹ نفس المرجع، ص 53-56

4. كل كلمة لها نبرٌ واحدٌ يختلف موضعه من كلمة إلى كلمة.

5. هناك كلمات لا نبر لها؛ مثل الأدوات والضمائر.¹

ثانيًا: علم الاشتقاق: أما جهود العلماء الهنود في علم الاشتقاق، فالمصادر الهندية القديمة تشير إلى سكاتيانا أول رائد لهذا العلم، غير أن أعماله؛ التي قام بها لأجل فقدها نسيه الناس، ونسب الريادة في هذا العلم إلى ياسكا، وعرف كتابه "التيروكتا" أول كتاب هنديّ؛ يحوي قواعد الاشتقاق وضوابطه.

على ما تقدّم؛ فسواء كانت الريادة لياسكا أو سكاتيانا، فإنّ الريادة في هذا العلم يرجع إلى رجلٍ هنديّ، لا غيره.

يقول ماكس مولر: "ناقش ياسكا موضوعات الاشتقاق، وأصل الكلمات بطريقة؛ لا أعتقد أنّ أحدًا- في العصر الحاضر مستعينًا بكلّ حقائق علم اللغة المقارن- يستطيع أن يجاريها، أو يقدر على أن يقدم بديلاً عنها بطريقة مقنعة أكثر مما فعل ياسكا".²

وقد أسّس الهنود الاشتقاق على عدّة أسس:

1. كلُّ الكلمات يمكن أن تردّ إلى أصولها؛ التي تُسمّى جذورًا.

2. كلُّ الأسماء لها أصلٌ فعليّ.

3. الوصول إلى أصول الكلمات يؤدّي إلى التمييز بين الجذور واللواحق التشكيلية.

4. ليست كلُّ الجذور تتصرّف بطريقة واحدة؛ فبعضها ناقص التصرّف، وبعض الجذور الواردة في "الفيدا" قد ماتت، وهناك جذورٌ أخرى قد جدّت... وهكذا.

5. ربما كانت بعض اللواحق في فترة تاريخية قديمة تستخدم جذرًا.

¹ نفس المرجع، ص 56-57

² نفس المرجع، ص 63.

6. كلُّ جذرٍ كان يُعدُّ جملةً تامَّةً في استعمال الرجل البدائي.

وهذه الاشتقاقات كانت تهدف إلى تحليل الكلمات السنسكريتية، وليس الوصول إلى صياغة كلمات جديدة؛ كما كانت تهدف إلى التمييز بين الكلمات السنسكريتية الخالصة والكلمات الدخيلة؛ فما خضع للنماذج الاشتقاقية؛ التي ذكروها كان أصيلاً، وما لم يخضع كان دخيلاً.¹

ثالثاً: المستوى النحويّ: أما ما يتعلّق بالنحو الهندي فهو- أيضاً- نشأ مرتبطاً بالنصوص المقدّسة السنسكريتية؛ فقد أعطته النصوص قداسة كبيرة، وجعله موضع اهتمام خاصّ؛ يقول باتنجالي في بداية كتابه المعنون "مهايهاسا" إنّ هناك خمسة أسباب لدراسة النحو: "هي الحفاظ على "الفيدا"، والقدرة على تحرير الصياغات من "الفيدا"؛ لتناسب وضعاً جديداً، وتحقيق الالتزام الدينيّ، وتعلّم اللغة بالسهولة المستطاعة، وحلّ الشكوك في تفسير النصوص".²

ومن ينظر في تاريخ الدراسات النحوية عند الهنود الأقدمين يجد عدّة مدارس تتوالى في الظهور؛ تخدم هذا العلم بأشكال مختلفة ومناح متعدّدة؛ أبرزها ما يلي: أولاً: مدرسة "إيندرا"؛ الذي أسّسها "إيندرا"، وكان أتباع هذه المدرسة ينادون بمبدأ تحليل الجملة إلى كلمات، واعتبار الكلمة المفردة وحدة للمعنى. ثانياً: مدرسة "ساكايانا"، وكان من أهمّ آرائه أنّ كلّ الصيغ غير الفعلية مشتقة من جذور فعلية.

ثالثاً: مدرسة "عزجيا"؛ وهو أول من رأى أنّ حروف الإضافة ليست رموزاً لمعانٍ إضافية فقط- ولكنها تحمل معناها الخاصّ المستقلّ بها؛ حين تعزل عن الأسماء والأفعال.

¹ نفس المرجع، ص 64-67 باختصار

² ينظر: إمبراطوريات الكلمة، تاريخ للغات في العالم، ص 260

رابعاً: مدرسة "غالوا": وهي مدرسة تميل أكثر إلى الدراسات الصوتية.

خامساً: مدرسة "ياسكا": يُعدّ "ياسكا" اشتقاقياً وباحثاً في قضايا اللغة أكثر منه نحوياً، غير أنّ له جهوداً موفّقةً ونظراتٍ صائبةً في النحو؛ منها أنّه قسّم الكلام إلى أربعة أقسام: اسم، وفعل، وحرف إضافة، وحرف أداة، ومنها أنّه قدّم تعريفاتٍ محدّدة لكلّ قسمٍ من هذه الأقسام.

سادساً: مدرسة "بانيني": مدرسة "بانيني" تعدّ أهم مدرسة اعتنّت بدراسة النحو بشكلٍ مُدهشٍ، وسيأتي الكلام عنها- إن شاء الله؛ لربط جهودها بالجهود؛ التي تلت في القرون المتأخّرة.

سابعاً: مدرسة "جانندرا": يعدّ "جانندرا" نحوياً بوذياً، وكان من أهدافه: كتابة نحو جديد يمدُّ تلاميذ كنيسته بقواعد تتخلّص من العناصر البرهمية التقليدية؛ كما كان يهدف إلى إصلاح أعمال مدرسة "بانيني"؛ واتصفت بالاختصار الشديد، وعدم الدقة في بعض الأحيان.

ثامناً: مدرسة "جين إندرا" وأهمّ ما يميّز هذه المدرسة القيام ببعض التعديلات في الترتيب على نظام "بانيني"؛ كما أنّه قد ألّف كتابين: الأول مطوّل؛ يحوي حوالي 3700 قاعدة، والثاني مختصر؛ يحوي حوالي 3000 قاعدة.¹

هذه عدة مدارس اشتهرت في تاريخ الدراسات اللغوية السنسكريتية، غير أنّ مدرسة "بانيني" تُعدّ من أهمّ تلك المدارس؛ التي أدّت دوراً بارزاً في إحياء قواعد السنسكريتية، ويعدّ "بانيني" العميد الأصيل؛ الذي يرجع إليه تجديد الدراسات اللغوية السنسكريتية في مؤلفه الشهير "ثمانية كتبٍ في قواعد اللغة"؛ الذي ذكر فيه أسلافه من النحويين.

"وتكمن أهميّة كتاب "بانيني" في تناوله اللغة من جميع جوانبها؛ لفظاً، وكتابةً، ونحواً، وصرفاً، وإعراباً للمفردات والجمل، وكذلك في تصنيفه جذور الأفعال والأسماء،

¹ البحث اللغوي عند الهنود، وأثره على اللغويين العرب، ص 76-83 باختصار

واستخلاص قواعد اشتقاقها؛ كما ميّز - جغرافياً - الصيغ اللغوية الشمالية من الصيغ الشرقية، وقد صاغ "بانيني" قواعده في لغة يسهل حفظها عن ظهر قلب، مما ساعد في صون قوام اللغة من اللحن والخطأ عبر القرون؛ فصار كتابه مقياساً لصحة السنسكريتية، ولا سيما مع ظهور فروق واضحة بين السنسكريتية واللغة المنطوقة المتداولة في عصره؛ أي: لغة براكريت Prakrit، بما يماثل الاختلاف في العربية بين الفصحى والعامية أو المحكية، التي بيّنها "بانيني" في كتابه¹.
و"يحتوي كتاب "بانيني" على ما يقرب من أربعة آلاف قاعدة؛ موزعة على أقسامه الثمانية على النحو الآتي:

1. يشتمل القسم الأول على تعريفات عامة وقواعد للشرح؛ كما يعالج مشكلات صوتية متنوعة.
2. القسم الثاني يعالج مشاكل الإبدال وهدف التصريف، ووضع قواعد للجنس، والأعداد.
3. القسم الثالث يتحدث عن اللواحق الأساسية.
4. أما القسمان: الرابع والخامس فيتعرضان للواحق؛ التي يمكن إضافتها للأصل غير الفعل مكوّنة جذراً غير أساسيّ، ولواحق تصريفية.
5. القسمان: السادس والسابع يتناولان بحوثاً صرفية صوتية على مستوى الكلمة.
6. القسم الثامن يعالج مشاكل متنوعة.

وقد كُتبت عدة شروح وتعليقات على عمل "بانيني"؛ منها: شرح "كاتيانا" باسم varttikas، وشرح "باتنجالي"، باسم "مهاباشا"؛ شرح فيه مؤلف "بانيني"، واتخذ فيه جانب الدفاع عنه والانتصار له، ويمتاز هذا الكتاب بأسلوبه السهل الحي؛ الذي لا يجارى، والذي لم يسبق له مثيل في تاريخ النحو السنسكريتي².

¹ ينظر: الموسوعة العربية، 11/176 (السنسكريتية).

² ينظر: البحث اللغوي عند الهنود، وأثره على اللغويين العرب، ص 84-86.

رابعاً: المستوى المعجمي: و"أقدم الأعمال المعجمية عند الهنود تلك القوائم من الكلمات الصعبة المأخوذة من النصوص المقدسة: التي عُرفت باسم nighantu لمؤلف مجهول اسمه، ولا يصحّ اعتبارُ هذه القوائم معاجمَ ولا أشباهَ معاجمَ؛ لأنها اكتفتُ بالسرد والجمع، ولم تحو أيَّ شروح للكلمات المجموعة على الإطلاق. وتلا ذلك ظهور معجم niruktas؛ الذي يعدُّ بمثابة الشرح للمعجم السابق، والذي يمكن أن يسمّى معاجمَ الموضوعات، أو معاجمَ المعاني.

ثم ظهر معجم wordbooks (كتب الكلمات)، هذا المعجم لا يتقيّد بالنصوص المقدسة، ولا يرتبط بأيّ كتاب معيّن؛ وإنما يعالج الكلمات بوجه عام؛ كما أنه يشمل الأسماء فقط من دون التعرّض للأفعال.

ثم ظهر معجم المشترك اللفظي المسمّى بـ anekarthasamuccaya لمؤلفه Aasvata في القرن السادس الميلادي، وترتيبه للموضوعات: شرح أوّلاً الكلمات؛ التي تحتاجُ لبيان معناها إلى بيتٍ كاملٍ، ثم الكلمات؛ التي تحتاجُ لنصف البيت، ثم الكلمات؛ التي تحتاجُ إلى ربع بيتٍ.

ثم ظهر معجم abhidhanaratnamala لمؤلف halayudha في منتصف القرن العاشر الميلادي.

والظاهرة الملاحظة بوجه عامّ على كلّ هذه المعاجم أنها كانت تكتبُ في شكل منظومات؛ ليسهل حفظها؛ كما أنها كانت تهدف إلى خدمة الشعراء.

والخلاصة أنّ ترتيب المفردات عند الهنود لم يكن يخضعُ لنظام معيّن؛ فبعضُها كان يكتفي بالترتيب الموضوعي؛ فيضع الكلمات المتعلقة بموضوع واحد تحت عنوان واحد، وبعضُها كان يُرتّب الكلمات بحسب الحروف الهجائية، وبعضُها كان يأخذ في الاعتبار حجمَ الكلمة، وعددَ المقاطع؛ التي تحويها، وإلى جانب هذا لم يعرف عن أحد هذه المعاجم أنه اتصف بالشمول، أو ادعى لنفسه حصراً كلمات اللغة...¹

¹ نفس المرجع، ص 93-98 باختصار.

هذه ومضاتٌ خاطفةٌ للدراسات اللغوية، وأهمّ صور نشاطاتها في شبه القارة الهندية؛ قبل مجيء الإسلام إليها؛ التي اتخذت مكان الريادة، وعُدّت البذور الأولى للدراسات اللغوية، وأصبح اللغويون الباحثون يُرجعون الدراسات اللغوية قديمها وحديثها إليها.

ويكفي أن تكون جهودهم في مجال الأصوات هي الأساس؛ الذي بنى عليه علماء الأصوات المحدثون دراساتهم، حتى قال فيرث: "إنه لولا المعلومات؛ التي قدّمها وليم جونز عن النحاة والصوتيين الهنود ما كان يمكن أن تنشأ مدرسة صوتيّة إنجليزية في القرن التاسع عشر".¹

وإذا تقرّر أنّ الدراسات اللغوية المرتبطة باللغة السنسكريتية هي الأساس الأول والنواة الأولى، فمن البديهي أن تكون قد أثّرت في الدراسات اللغوية الأخرى، وتأثّرت بها، ولا سيما الدراسات اللغوية العربية؛ لوجود الصلات بين العرب والهنود من القدم؛ ولذلك نرى عددًا من الباحثين يميلون إلى أنّ الدراسات اللغوية العربية متفرعةٌ عن الدراسات اللغوية السنسكريتية، وأنّ روادها- كالخليل وسيبويه- قد أخذوا فكرة دراساتهم منها.

فإذا تتبّعنا مصادر الدراسات اللغوية التاريخية وجدنا أنّ تأثير الدراسات اللغوية السنسكريتية في الدراسات اللغوية العربية وتأثرها بها قضيّةٌ تضاربت فيها أقوالُ القدامى والمحدثين من اللغويين إلى ما يأتي:

أما القدامى فذهبوا إلى أنّ الدراسات اللغوية العربية نشأت في البيئة العربية، والدواعي في هذه القضية تدور في مجال القرآن الكريم وصونه من اللحن والخطأ، وحول شعر العرب ونثرهم وكلامهم- أيضًا.

وذهب ابن فارس في كتابه "الصاحي"² إلى أنّ علم العربية كان العرب يعرفونه قبل الإسلام؛ وهو توقيفٌ من الله؛ مثل أصل اللغة والخط والعروض. هذه

¹ نفس المرجع، ص 58-59

² ينظر: الصاحي في فقه اللغة، ص 12-13

المعارف كانت قديمًا، ثم أتت عليها الأيام، وقلّت بين الناس، ولما جاء أبو الأسود جدّد العربية؛ كما جدّد الخليل علم العروض.¹

أما المحدثون فتتلخّص آراؤهم في ثلاثة اتجاهات:

الأول: الرأي الذي يرجح أو يقطع بوجود تأثير هندي.

الثاني: الرأي الذي لا يرجّح ولا يقطع، ولكن يرى احتمال وجود هذا التأثير.

الثالث: الرأي الذي ينفي وجود أيّ تأثير هندي.

أما الرأي الأول فيترعّمه الدكتور شوقي ضيف الذي يقول: "وقد وضع الخليل معجمًا للعربية؛ بترتيب مخارج الحروف متأثرًا بالهنود في ترتيب لغتهم".²

ويقول الدكتور عبد الرحمن أيوب: "إنّ سيبويه قد تأثر في تبويب كتابه بالطريقة الهندية في التأليف؛ التي تقوم على أسس ثلاثة: هي العناية بالأصوات ومخارجها، وعدم الاهتمام بالنظريات والتقسيمات العقلية، والاعتمادُ على أشكال الألفاظ في تقسيمها إلى أنواع".³

وأما الرأي الثاني فقد اختارته دائرة المعارف الإسلامية؛ التي تقول: "كان الخليل- أيضًا- أوّل من صنّف معجمًا عربيًّا هو كتاب "العين"، والظاهر أنّه ربّبه على حروف الهجاء عند نحاة السندسكريتية؛ وهي التي تبدأ بحروف الحلق؛ حتى تصلّ إلى حروف الشفة".⁴

ويبدو كذلك أنّ هذا هو رأي الدكتور أحمد أمين؛ حيث يقول: "وأنا أخشى أن تكون حكاية أبي الأسود قد وُضعت في العربية على نمط الحكاية الهندية، ولعلّ مما يرجّح هذا الظنّ أنّ الحكاية العربية مختلفة الأشكال، متعددة الرواية".⁵

¹ ينظر: دراسات في المذاهب النحوية في التفكير النحوي عند العرب، ص 62

² ينظر: الفن ومذاهبه في الشعر، ص 132

³ ينظر: محاضرات في علم اللغة، ص 7

⁴ ينظر: البحث اللغوي عند الهنود، وأثره على اللغويين العرب، ص 140

⁵ ينظر: ضحى الإسلام، 245/1

أما الرأي الثالث فقد اختاره بروكلمان: الذي يُصَرِّح بأنه لا يمكن إثبات التأثير الأجنبي على النحو العربي، لا من القواعد اللاتينية، ولا من الهندية، ويُصَرِّح كذلك بعدم وجود تأثير هندي في علم الأصوات العربية، وإنْ وجدتْ بعضُ المشابهات العارضة اتفاقاً من طبيعة البحث.¹

ولكنَّ الرأي الأقرب إلى الصحة والأدنى إلى القبول هو تأثيرُ هندي من نوعٍ ما على الدراسات اللغوية العربية، أو على الأقل احتمال وجود هذا التأثير.

وقد ذكر الدكتور أحمد مختار عدة صور للتأثير أهمُّها ما يلي:

"أولاً: فكرة الترتيب الصوتي للأحرف الهجائية: مع البدء بأعمق الأصوات مخرجاً؛ فمن المحتمل جداً أن يكون الخليل قد سمع بترتيب صوتي عند الهنود لحروف لغتهم؛ فقام بنفس المحاولة في اللغة العربية..."

ثانياً: تصنيف الأصوات عند العرب؛ تبعاً لمكان النطق، ودرجة الاتصال، أو التقارب بين الأعضاء؛ فهذا يطابق منهجَ الهنود، ويخالف ما فعله اليونان.

ثالثاً: استخدام بعض المصطلحات أو التقسيمات النحوية؛ مثل الحديث عن اسم الفعل، ومثل القول بأنَّ الحرف لا يحمل معنىً في ذاته، ومثل تقسيم الكلمات إلى متصرفٍ وجامد.²

الدراسات اللغوية في شبه القارة الهندية بعد الإسلام ظهورها، ونشاطاتها: لا شك أنَّ اللغة العربية هي أنصع اللغات بياناً، وأغناها تراثاً، وأغرزها علماً، وأعرقها ثقافةً، لها أهميَّةٌ كبيرةٌ بين لغات العالم الحية؛ فهي تمتازُ بالجودة، والقوَّة، والتأثير، والروعة، والجمال، والحيوية.

ويرجع تاريخ اللغة العربية إلى قديم الزمان؛ وهي متفرعةٌ عن اللغة السامية، إلا أنها فاقت أصلها، ونالت مكانتها المرموقة، وحظوتها العالمية، وسعة انتشارها،

¹ ينظر: تاريخ الأدب العربي، 123/2.

² ينظر: البحث اللغوي عند الهنود، ص 142-143.

عندما تشرّفت أرض شبه الجزيرة العربية بالإسلام، ومصادره التشريعية- القرآن والحديث- بهذه اللغة، وانطلقَ بها الدعاة والفاثحون إلى شتى بلاد العالم: شرقاً، وغرباً، وشمالاً، وجنوباً.

هذه اللغة العربية- لكونها لغة القرآن الكريم، والحديث الشريف، والثقافة الإسلامية- صارت تتمتع بالحبِّ والاحترام والتقدير لدى المسلمين حيثما سارت وراجت. يقول أبو منصور الثعالبي: "من أحبَّ الله- تعالى- أحبَّ رسوله محمداً- صلى الله عليه وسلم- ومن أحبَّ الرسول العربي أحبَّ العرب، ومن أحبَّ العرب أحبَّ العربية؛ التي بها نزل أفضلُ الكتب على أفضل العجم والعرب، ومن أحبَّ العربية عُني بها وثابَر عليها، وصرف همته إليها، ومن هداهُ الله للإسلام، وشرَّح صدره للإيمان، وآتاه حسنَ سريرة فيه، اعتقد أن محمداً- صلى الله عليه وسلم- خيرُ الرسل، والإسلامَ خيرُ الملل، والعربَ خيرُ الأمم، والعربيةَ خيرُ اللغات والألسنة، والإقبالَ على تفهيمها من الديانة؛ إذ هي أداة العلم، ومفتاح التفقه في الدين، وسببُ إصلاح المعاش والمعاد، ثم هي لإحراز الفضائل والاحتواء على المروءة، وسائر أنواع المناقب؛ كالينبوع للماء، والزند للنار".¹

ولهذه الأهمية عُني المسلمون بهذه اللغة عنايةً بالغةً، وبذلوا جهوداً مضنيةً في تعلّمها وتدريسها، وصرفوا مساعيمهم في التصنيف والتأليف فيها. وهكذا أخذت اللغة العربية تكتسبُ صبغةً عالميّةً على الصعيد العالمي منذ القرون الأولى.

وتُعَدُّ الهند واحدةً من البلاد؛ التي يرجع فضل انتشار الإسلام فيها إلى دعاة العرب؛ الذين تشبّعوا بروح الإسلام السمحة؛ فأنازوا الطريقَ لنشر الدعوة الإسلامية في ربوعها عقبَ ظهورها في الجزيرة العربية مباشرةً، وهبّتَ عليها نفحاته منذ أن فتحتها القائد الشاب محمد بن القاسم سنة 93هـ، وفتح مناطق كثيرةً في ولاية السند، ودخل الإسلامُ السندَ والهندَ لأوّل مرّة؛ فأصبحتِ السند ولايةً من

¹ فقه اللغة وسرّ العربية، ص 25.

ولايات الخلافة الأموية، ثم اتسعت رقعة الإسلام في الهند من بلاد السند إلى غيرها؛ فدخلت بلادُ غجرات، وملتان، وكشمير، وغيرها في الإسلام.

ولما كانت اللغة العربية لغة القرآن، والحديث، ولسان الدعوة الإسلامية، ولسان المنتصر- في ذلك الزمان- كان من الطبيعي أن تنتشر مع انتشار الإسلام، وأن تأسر قلوب معتنقي الإسلام ولو بخطى وليدة.

وتدلنا المصادر التاريخية أنه بدأ استخدام اللغة العربية في الهند منذ الأيام الأولى للفتح الإسلامي للسند، وكان أولُ نقشٍ عُثر عليه في الهند هو نقشُ المسجد الجامع في (بنهور) بالسند المؤرخ سنة 107هـ/727م؛ وهو أقدم النماذج؛ التي استخدم فيها الخط العربي للكتابة على الأحجار في العصور الإسلامية.¹

هكذا استمرت الدعوة الإسلامية، واستمر الإسلام ينتشر فيها؛ فكما انتشر الإسلام انتشرت اللغة العربية على نطاق واسع بين سكان البلاد؛ حيث تروي كتب التاريخ أن الهنود؛ الذين أسلموا في أقاليم السند؛ كانوا يتحدثون إلى العرب بلغتهم، وكانوا يرتدون زبهم؛ يقول الإصطخري: "ولسان أهل المنصورة والملتان ونواحيها العربية والسندية".² ويؤكد الدكتور خورشيد الندوي أن انتشار اللغة العربية في الهند على نطاق واسع كان في القرن الرابع الهجري؛ حين وصلت أسر؛ مثل: الممالك، والخلجيين، والتغلقيين، والسادات، واللوهيين، وتمتاز هذه الفترة بتقديم ملموس في تعليم اللغة العربية والدين الإسلامي؛ حيث غني كثير من ملوكها وأمرائها بتأسيس المدارس ومراكز التعليم، وبذل العلماء جهوداً جبارة في توسيع نطاق اللغة العربية؛ حرصاً على لغة القرآن والسنة؛ فاثمرت جهودهم، وأتت بنتائج مبشرة.³

¹ ينظر: (الخط العربي وأثره الحضاري، للدكتور محمد يوسف صديق)، مقال منشور على الشبكة الدولية في موقع (نادي الإحياء العربي).

² ينظر: المسالك والممالك، ص 105

³ ينظر: اللغة العربية في الهند عبر العصور، ص 14

بل قام المسلمون- في شبه القارة الهندية- بدور كبير في خدمة هذه اللغة السمحة: فقدّموا للعالم الإسلامي تحفًا علميةً نادرةً وعظيمةً بهذه اللغة العظيمة، ولم يكن اعتناؤهم بها أقلّ من غيرهم؛ فمنذ أن دخل الإسلام في هذا البقاع أخذت اللغة العربية تكتسح الساحات فيها، وأخذت تكسب أرضًا جديدةً كلّ يوم في مكان اللغات المحليّة الموجودة قبلها. يقول الدكتور نبيل فولي: "لكنّ العربية بقيت- في كلّ الأحوال- لغة العلوم الدينية والدينيوية الأولى، طوال فترات التفوق الحضاري للمسلمين، وكانت تصنع لنفسها في بعض المناطق خنادق خاصة بها في أوساط العلماء والطلّاب وسط خضم من اللغات الأعجمية؛ التي تأثرت بها تأثّرًا لم يتوقّف عند حدود استعارة الألفاظ؛ بل استعارت منها ألوانًا أدبيةً متعدّدة- أيضًا"¹.

ولكنّ الذي يدعونا إلى الأسف أنّ اللغة العربية لم يكتب لها من الذيوع والانتشار- في هذه البقعة من الأرض- ما هي حقيقة به؛ فلم تصبح لغةً هذه البلاد، ولغة التخاطب والتفاهم، كما أصبحت لغة أهل مصر والشام والعراق، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أنّ الملوك؛ الذين حكموا الهند، وتولّوا زمامها، لم يصرفوا اهتماماتهم بنشر الإسلام ولغته.

وعلى الرغم من هذا، كانت العربية تُستَقْبَلُ بالحبِّ والاحترام والإعجاب من أهل الهند، ثم استمرّت المراكز العلمية تؤدّي دورها في مناطق متعدّدة في نشر اللغة العربية، إلى جانب الفارسية والأردية؛ فكانت تدرّس فيها موادّ النحو، والصرف، والبلاغة، والأدب، والموادّ الأخرى المتعلقة بالعربية؛ مثل: الترجمة، إلى جانب العلوم الدينية؛ مثل: التفسير، والحديث، والفقه، وأصول الفقه.

¹ ينظر: الشعر العربي في شبه القارة الهندية، للدكتور نبيل فولي، مقال منشور في مجلة الوعي الإسلامي الصادرة عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت، العدد 32، بتاريخ 3 سبتمبر 2010م.

ولم تكتفِ المدارسُ بتعليم وتدريب الموادّ العربية فقط؛ وإنما خرّجتْ جهابذة وعباقره ساهموا في التأليف والإنتاج العلمي في اللغة العربية وعلومها وآدابها. إنّ الدارس للحركة اللغوية في شبه القارة الهندية يلاحظ أنه لا توجد دراسات لغويّة متكاملة إلا في القرن السابع الهجري؛ وذلك عندما ظهرت على يد الحسن بن محمّد الصغاني اللاهوري (ت 650هـ).

ووجود دراساتٍ متكاملةٍ في هذا القرن السابع، يعني أنه قد سبقَتْها مقدّماتٌ مهّدت لظهورها،

ومنها ما قام به القراء؛ إذ لا بدّ أن يتعلّم القاري المبتدئ أصولَ اللغة، ومبادئ النحو، والظواهر العامة فيهما: من أصواتٍ لغويّة، وفتح، وإمالة، وإدغام، ووقف، وابتداء، كما أنّ رحلة العلماء من شبه القارة الهندية وإليها ساعدت على رحلة كثير من الكتب والدراسات في اللغة؛ وهي- وما قام حولها في مجالس العلم والتدريس- كانت بمثابة الروافد؛ التي أغنت الدراسات؛ التي ظهرت متكاملة- فيما بعد.

وإذا تصفّحنا التاريخ الإسلامي وجدنا أنّ الهندَ رأتِ العربيةَ تنشط- في درسها اللغوي- نشاطاً ملحوظاً في كلّ من: العهد العربي، والغزنوي، والغوري، وعهد الممالك، والعهد المغولي، وعصر الاحتلال الإنجليزي، والعصر الحديث.

الدراسات اللغوية في العهد العربي: يمتدّ هذا العهد منذ أن بزغت شمس الإسلام في أرض الهند إلى سنة 392هـ؛ وفيه ظهر عددٌ من العلماء؛ الذين لهم مشاركاتٌ وإسهاماتٌ في قرض الشعر والتأليف باللغة العربية¹؛ كأبي معشر نجيب السندي المتوفى سنة 170هـ، والشاعر العربي أبو عطاء السندي المتوفى سنة 180هـ، وغيرهما؛ وهؤلاء ظهرت شخصياتهم في مجال الشعر والأدب والكتابة بالعربية؛ لأنهم أخذوا قسطاً كبيراً من علوم العربية؛ وتبحّروا في الدراسات اللغوية وخوضهم فيها، غير أنّ نشاطاتهم

¹ ينظر: تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، 77/1، والأدب الأردّي الإسلامي، ص 48.

واهتماماتهم لم تدوّن في صفحات الكتب، ولم يعتنوا هم أنفسهم بتسجيلها؛ فضلّت مجهولة، ولم يصل إلينا منها إلا قدر ضئيل لا يصلح لأن يُذكر، ولأنّ شأن البدايات أن تكون صغيرة، ثم تكبر؛ ومن ثم فإنه يمكننا أن نعدّ العصر العربي بمثابة الفجر الأوّل؛ الذي يؤدّن بصبح مشرق لظهور الاهتمام اللغوي في شبه القارة الهندية.

الدراسات اللغوية في العهد الغزنوي والغوري: يمتدّ العهد الغزنوي من بداية حملة محمود الغزنوي السند سنة 392هـ، إلى سنة 547هـ، وآخر ملوكه بهرام شاه، ثم يبدأ العهد الغوري من بداية سنة 547هـ إلى سنة 602هـ.

وفي هذين العهدين لاقت اللغة العربية رواجاً كبيراً؛ حيث أصبحت لغة رسمية، وعُزيت المصطلحات الفارسية، وظهر الكثير من أدباء العربية وشعرائها؛ مثل: عطاء بن يعقوب الغزنوي المتوفى سنة 491هـ، وغيره كثير¹.

أما نشاطاتهم في الدراسات اللغوية واهتماماتهم بها فنجدها تنشط نشاطاً ملحوظاً؛ بحيث ظهر عديدٌ من الأدباء والشعراء؛ الذين شهد لهم التاريخ بعلوّ كعبهم، وفائق قدراتهم في مجال الأدب العربي شعراً ونثراً.

الدراسات اللغوية في عهد المماليك: يمتدّ عهد المماليك منذ سنة 602هـ إلى سنة 932هـ، وقد حكم فيه عدّة أسر؛ بدءاً من قطب الدين إيبك 602-664هـ وانتهاء بأسرة لودي سنة 932هـ.

وفي هذا العهد ازدهرت العربية، وألفت كتبٌ قيّمة في الفقه والتفسير، وأنشئت مدارسٌ عديدةٌ بمدينة دلهي، وأغره، وغجرات، وبهار، وبنغال، وملتان، وغيرها من المدن بأسماء وعناوين مختلفة، حتى انتشرت شبكة المدارس الإسلامية في أرجاء الهند، وكان الطلبة يدرسون التفسير، والفقه، والحديث، والنحو، والأدب،

¹ ينظر لمزيد من التفصيل: الأدب الأردّي الإسلامي، ص 49-50.

والصرف، والعلوم الفلسفية مباشرةً من خلال الكتب العربية، بالإضافة إلى بعض الكتب الفارسية.¹

أما نشاطاتهم في مجال الدراسات اللغوية واهتماماتهم بها- في هذه الحقبة- فنجدها تزدهر كلّ الازدهار؛ حيث بدأ التصنيف والتأليف في أرض الهند؛ فأول من لمع اسمه في تاريخ الدراسات اللغوية العربية في الهند، والذي إليه يرجع قصبُ السبق، وعُدَّ من مراجع اللغة العربية، واعتنى بها أئمة اللغة قديماً وحديثاً، واعترفوا له بالدقة والإتقان، وغزارة المادّة، واعترفوا بالفضل والإمامة هو الحسن بن محمّد الصغاني اللاهوري (577-650هـ) الذي صنّف كتباً عديدةً في الدراسات اللغوية؛ مثل: العباب الزاخر واللباب الفاخر، والتكملة والذيل والصلة، والأضداد، ومجمع البحرين، وكتاب الخيل، وكتاب الأسد، وغيرها من الكتب في مختلف العلوم والفنون.

وظهور موسوعية الصغاني في علوم العربية آذنَ بظهور أوائل المؤلفات في موضوعات شتى في اللغة والنحو والأدب في شبه القارة الهندية.

ثم بدأت التأليفات تتابعَت في الظهور بعده؛ حيث نبغ جمٌّ غفيرٌ من العلماء؛ الذين لهم إسهاماتٌ فذة، ومشاركاتٌ فريدةٌ في تطوير الدراسات اللغوية؛ من خلال تصانيفهم، وتأليفاتهم، أبرزهم؛ الأمير خسرو الدهلوي المتوفى سنة 725هـ صاحب كتاب (شرح نظم العوامل المائة في النحو)، وسراج الدين الأودي المتوفى سنة 758هـ صاحب كتاب (هداية النحو)، ويوسف بن جمال العلوي الملتاني المتوفى سنة 790هـ صاحب كتاب (شرح لبّ الألباب)، والشيخ صفي الدين الردولي المتوفى سنة 819هـ، صاحب كتاب (غاية التحقيق شرح كافية ابن الحاجب)، وملك العلماء شهاب الدين الدولة آبادي المتوفى سنة 849هـ صاحب كتاب (الإرشاد في النحو)، و(شرح على الكافية) معروف بالحواشي الهندية، وسعد

¹ ينظر: تاريخ أدبيات مسلمانان باك وهند، عربي أدب، ص 119، 150.

الدين الخير آبادي المتوفى سنة 882هـ صاحب كتاب (شرح كافية ابن الحاجب)،
وزين الدين بن علي المليباري المتوفى سنة 928هـ صاحب كتاب (كفاية الطالب في
حل كافية ابن الحاجب)، وغيرهم كثير¹.

الدراسات اللغوية في العهد المغولي: يمتد العهد المغولي من سنة 928هـ إلى
سنة 1273هـ، وفيه بدأت اللغة العربية تتراجع كثيرًا، وبدأت الفارسية
والسنسكريتية والتركية تزاحمها مكانتها؛ إذ أصبحت العربية لغة الدين والثقافة
الإسلامية، بينما الفارسية أصبحت اللغة الرسمية، ولغة الأدب والشعر².

وبالرغم من ذلك نبغ في هذا العهد جم غفير من العلماء، ألفوا كتبًا كثيرة في مجال
الدراسات اللغوية إلى جانب الدراسات الإسلامية، ومن أبرز علماء هذا العهد في
مجال الدرس اللغوي: ملاً جمال الدين بن نصير الدين (ت984هـ) صاحب كتاب
(الحاشية على الفوائد الضيائية)، والشيخ عثمان بن جمال الدين المعبري الفناني
(ت991هـ) صاحب كتاب (عين الهدى شرح قطر الندى)، والشيخ منور بن عبد
المجيد اللاهوري (ت1011هـ) صاحب كتاب (شرح على إرشاد القاضي شهاب
الدين)، والشيخ أبو الخير بن المبارك (ت1019هـ) صاحب كتاب (شرح الإرشاد
للدولت آبادي)، والشيخ عيسى بن القاسم السندي (ت1031هـ) صاحب كتاب
(التميم شرح المائة العاملة)، وملاً عبد الحكيم السيكوتي (ت1067هـ) صاحب
(الحاشية على شرح الكافية للجامي)، والشيخ محمد رشيد العثماني الجونفوري
(ت1083هـ) صاحب كتاب (خلاصة النحو)، والشيخ جمال الدين الغجراتي
(ت1124هـ) صاحب كتاب (الحاشية على شرح الكافية للجامي)، والشيخ عبد
الرسول السهارنفوري (ت1133هـ) صاحب كتاب (شرح على العوامل المائة)،
والشيخ نور الدين الغجراتي (ت1155هـ) صاحب كتاب (الشرح على الزبدة)، وأحمد

¹ اقتطفت هذه المعلومات من كتاب: نزهة الخواطر لعبد الحي اللكنوي (الجزء الخامس والسادس).

² ينظر: الأدب الأردني الإسلامي، ص 52

بن مسعود الهرغامي (ت1175هـ) صاحب كتاب (باهر البرهان)، والشيخ عبد النبي الأحمدي (ت1200هـ) صاحب شرح الكافية (جامع الغموض ومنبع الفيوض) و(دستور العلماء جامع العلوم في اصطلاحات الفنون)، والشيخ عبد القادر بن خير الدين (ت1202هـ) صاحب كتاب (منظومة في العوامل النحوية)، والشيخ عليم الدين بن فصيح الدين (ت1211هـ) صاحب كتاب (عين الهدى شرح قطر الندى)، والسيد أمير حيدر الحسيني البلغرامي (ت1217هـ) صاحب كتاب (منتخب النحو)، والشيخ محمد عليم الإله آبادي (ت1220هـ) صاحب كتاب (شرح الميزان والمنشعب)، والشيخ تراب علي بن نصره الله الخير آبادي (ت1242هـ) صاحب كتاب (وسيط النحو)، والشيخ علي جعفر الحسيني الإله آبادي (ت1249هـ) صاحب كتاب (الشرح على هداية النحو)، والشيخ عبد الرحيم بن عبد الكريم الصفي فوري (ت1267هـ) صاحب كتاب (أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك)، و(غاية البيان في علم اللسان)، والمولوي خادم أحمد اللكنوي (ت1271هـ) صاحب (رسالة في مبحث الحاصل والمحصل من شرح الكافية للجامي)، وغيرهم كثير.¹

الدراسات اللغوية في عهد الاحتلال الإنجليزي: يمتدّ عهد الاحتلال الإنجليزي من سنة 1273هـ إلى سنة 1367هـ، وفيه نال الإنجليز سيطرةً تامّةً على الهند، وبدأوا في نشر نظامٍ للتعليم للقضاء على اللغة العربية؛ فتقلّصت المدارس الإسلامية، وتراجعت إلى داخل المساجد، وقلّت المدارس العربية والإسلامية، وهجرها الدارسون والمعلّمون،² ورغم هذا نجد عددًا كبيرًا من العلماء؛ الذين بذلوا جهودهم الجبارة لأجل المحافظة على العربية، وتصدّوا للتأليف في هذا المجال: أبرزهم: السيّد محمّد تقي اللكنوي (ت1289هـ) صاحب كتاب (العباب في النحو)، والمفتي سعد الله المرادآبادي (ت1294هـ) صاحب التأليف المشهور (القول المأنوس

¹ ينظر: الثقافة الإسلامية في الهند لعبد العلي اللكنوي، ص 27-32.

² ينظر: الأدب الأردني الإسلامي، ص 52.

في صفات القاموس)، والشيخ وحيد الزمان بن مسيح الزمان اللكنوي (ت1296هـ) صاحب كتاب (تاج اللغات)، والشيخ علي عباس الجرياكوتي (ت1302هـ) صاحب كتاب (خلاصة الصرف)، والسيد عبد الله بن آل أحمد البلغرامي (ت1305هـ) صاحب كتاب (عين الإفادة في كشف الإضافة)، والسيد صديق حسن خان القنوجي (ت1307هـ) صاحب كتاب (البلغة في أصول اللغة)، والمولوي ظفر الدين اللاهوري (ت1322هـ) صاحب كتاب (نيل الأرب في مصادر العرب)، والشيخ كرامت حسين الكنتوري المتوفى سنة 1335هـ صاحب كتاب (فقه اللسان)، والشيخ عبد الحميد الفراهي (ت1349هـ) صاحب كتاب (مفردات القرآن)، والشيخ محمد سليمان أشرف المهاري (ت1358هـ) صاحب كتاب (المبين)، والشيخ محمد حسن الرسول فوري (ت1359هـ) صاحب كتاب (الفروق في اللغة)، والشيخ محمد بن يوسف السورتي (ت1361هـ) صاحب كتاب (الإنصاف فيما جرى في منع نحو أبي هريرة من الخلاف)، وغيرهم كثير¹.

الدراسات اللغوية في العهد الحديث: ويمتد هذا العهد من استقلال الهند الحرة من أيدي الإنجليز سنة 1367هـ إلى يومنا هذا؛ وفيه أغنى علماء الهند المكتبات العربية من التصانيف النادرة، والبحوث القيمة في الدراسات اللغوية، وتفصيل ذلك كله يتطلب مئات من الصفحات، ولكن أكتفي بذكر عدة علماء برزوا في هذا المجال؛ منهم: الشيخ عبد العزيز الميمني الراجكوتي (ت1398هـ) محقق (سمط اللآلي)، والشيخ وحيد الزمان القاسمي الكيرانوي (ت1995م) صاحب (القاموس الجديد)، والدكتور عبد الحق شجاعت علي (ت2012م)، والشيخ نور عالم خليل الأميني صاحب كتاب (مفتاح العربية)، والدكتور بشير أحمد جمالي صاحب كتاب (مقارنة بين النحو العربي والإنجليزي)، والشيخ ف عبد الرحيم صاحب كتاب (معجم الدخيل في العربية الحديثة)، وغيرهم من العلماء.

¹ ينظر: الثقافة الإسلامية في الهند لعبد العي اللكنوي، ص 27-32

وهكذا لقيت الدراسات اللغوية الاهتمام البالغ من قبل علماء الهند، وظلّت عنايتهم مستمرة على مرّ العصور، وليست هذه العناية تقليديةً فقط؛ بل لهم إبداعاتٌ وابتكاراتٌ، وإضافاتٌ وزياداتٌ، وآراءٌ ونظراتٌ، واختياراتٌ وترجيحاتٌ؛ واعتراضاتٌ وانتقاداتٌ، منها ما هو فريدٌ في المكتبة العربيّة.

وهذا ما سنتعرّض له في اللقاء القادم- إن شاء الله.

المصادر والمراجع

1. الأدب الأردني الإسلامي لسمير عبد الحميد إبراهيم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، سلسلة آداب الشعوب الإسلامية (2).
2. أسس علم اللغة الماريوباي، ترجمة الدكتور أحمد مختار عمر، عالم الكتب، الطبعة الثانية سنة 1419م.
3. إمبراطوريات الكلمة، تاريخ للغات في العالم لنيقولاس أوستلر (ترجمة الدكتور محمد توفيق البجرمي) دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، سنة 2011م.
4. البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لقضية التأثير والتأثر، لأحمد مختار عمر، عالم الكتب، الطبعة السادسة سنة 1988م.
5. البحث اللغوي عند الهنود، وأثره على اللغويين العرب لأحمد مختار عمر، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1972م.
6. تاريخ الأدب العربي لمصطفى صادق الرافعي، مكتبة الإيمان سنة 1997م.
7. تاريخ أدبيات مسلمانان باك وهند، جامعة بنجاب باكستان سنة 1987م.
8. تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم للدكتور أحمد محمود الساداتي، مكتبة الآداب بالقاهرة، بدون سنة.
9. الثقافة الإسلامية في الهند لعبد الحي الحسني، مؤسسة هندواي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، 2015م.
10. الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بدون سنة.
11. (خصائص تراكيب اللغة العربية للدكتور عبد الله عليّ عليّ الثوري) مقال منشور في الشبكة العنكبوتية (مدونة الثوري).
12. (الخط العربي وأثره الحضاري، للدكتور محمد يوسف صديق)، مقال منشور على الشبكة الدولية في موقع (نادي الإحياء العربي).
13. دراسات في المذاهب النحوية في التفكير النحوي عند العرب لزهير غازي، عالم الكتب، بيروت، 1986م.

14. الشَّعْرُ الْعَرَبِيُّ فِي شِبْهِ الْقَارَةِ الْهِنْدِيَّةِ، للدُّكْتُور نَبِيل فُولِي، مقالٌ منشورٌ في
مجلة الوعي الإسلامي الصَّادِرة عن وزارة الأوقاف والشُّؤون الإسلاميَّة
بالمكويت، العدد 32، بتاريخ 3 سبتمبر 2010م.
15. الصَّاحِي فِي فَهْمِ اللُّغَةِ لِأَحْمَدِ بْنِ فَارَسٍ، تحقيق السيّد أحمد صقر، مكتبة
ومطبعة دار إحياء الكتب العربيَّة.
16. ضحى الإسلام لأحمد أمين، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، مصر، الطَّبعة
الأولى سنة 1997م.
17. فقه اللُّغة وسرُّ العربيَّة لأبي منصور الثَّعَالِي، تحقيق عبد الرزَّاق المهدي،
إحياء الثَّراث العربي، الطَّبعة الأولى 2002م.
18. الفنُّ ومذاهبه في الشَّعر العربي، للدُّكْتُور شوقي ضيف، دار المعارف سنة
2010م.
19. اللُّغة العربيَّة في الهند عبر العصور لخورشيد أشرف إقبال الندوي، الهيئة
المصريَّة العامَّة للكتاب سنة 2008م.
20. محاضراتٌ في علم اللُّغة الحديث للدُّكْتُور أحمد مختار عمر، عالم الكتاب
سنة 1419م.
21. المسالك والممالك لأبي القاسم ابن حوقل، مطبع بريل المسيحيَّة سنة 1872م.
22. الموسوعة العربيَّة لعددٍ من الباحثين، النَّاشِر: هيئة الموسوعة العربيَّة،
الطَّبعة الأولى 1998م.
23. نزهة الخواطر لعبد الحيّ بن فخر الدِّين بن عبد العليّ الحسنيّ، دار ابن
حزم، بيروت، لبنان، الطَّبعة الأولى 1420هـ.

السرد الدرامي في ملحمة جلجامش

- د. سناء كامل شعلان¹

ملخص

هذا البحث يتتبع السرد الدرامي في نص ملحمة جلجامش عبر التركيز على عناصر الصراع = عنصر درامي، والحكي = السرد، والحدث = عنصر درامي وسرد. وهو يتوقف عند ضبط مصطلحات السرد والدراما والأسطورة والملحمة. وتتظاهر عدة من العوامل لتدفع بمسيرة الفعل/الحدث إلى الأمام في سبيل تكوين هذه الملحمة، وهي: عوامل بناء الحدث الأسطوري: وهي: الشخصيات الأسطورية في الملحمة، و الأماكن الأسطورية في الملحمة، والأماكن الأسطورية في الملحمة، وعالم البشر بجانبه، وعالم الكائنات الأسطورية في الملحمة. ثم يعكف البحث على تتبع سيروية نمو الحدث الدرامي في الملحمة في 12 لوحًا من ألواح الملحمة بعد إثبات نصوصها في البحث.

إطلالة

قد يلفت هذا العنوان اهتمام أي مختص في الأدب أو الفن المسرحي أو أي مطلع على هذين المجالين. واستطيع أن أضمن أن هذا التوقف عند هذا العنوان سيكون لسبب واحد أظنه بسبب تلك المزاوجة بين مصطلحين قد يختلفان إن لم يتضادا تمامًا في حقل التعريف والدلالة.

فالسرد في أبسط تعاريفه يدور حول القول الحكي، أما الدراما فيدور تعريفها حول المحاكاة الفعل².

¹ أستاذ مشارك، الجامعة الأردنية، الأردن

² أنظر: أرسطو طاليس: فن الشعر (تحقيق وترجمة: عبد الرحمن بدوي (أسلوب المحاكاة)، دار الثقافة بيروت، ط2، 1973م، ص 9-11.

ومرة أخرى قد يظهر على السطح السؤال: كيف يمكن الدّمج بين مصطلحين مختلفين في وصف واحد لعمل فني؟ والجواب عن هذا السؤال سيكون جواباً طويلاً وشافياً، في هذه الدراسة المتواضعة.

وجملة تعليلي لهذه المزاوجة تنبثق من العمل نفسه الذي يعني هذه الدراسة- أعني ملحمة جلجامش- فهذا العمل هو نص عملي طويل يقع في اثني عشر لوحاً، وهو يمثل صراعاً مريئاً بين عدة عناصر.

- فهو صراع بين الموت والحياة.

- الرحيل والعودة.

- الصداقة واللا صداقة.

- القوة والضعف.

- الحلم والحقيقة.

- الطبيعة والإنسان.

- الإنسان والآلة.

فالإنسان المجسّد في جلجامش هو القاسم المشترك في كلّ هذا الصراع مع الآخر.

"صحيح أن شخصاً ما اسمه جلجامش يضطلع بمهنة الملك، لكنّه ليس سوى مجرد (اسم علم) وذلك بمعزل عن تكوينه الفيزيولوجي، واسم العلم يمكن أن يحل محله اسم علم آخر شريطة أن يقوم بنفس الدور. بما يخصّ جلجامش، فإنّ التركيز باتجاهه هو تركيز على النوع، النوع الإنساني بأكمله.¹

¹ قاسم المقداد: هندسة المعنى في السرد الأسطوري الملحي جلجامش، دار السؤال للطباعة والنشر، دمشق، ط1، 1984م، ص 84-85

والصراع = الفعل، وهو لبّ وأساس العمل الدرامي، وإن كان ينقص هذا اللب أمر آخر، وهو التجسيد الحاضر، (أي على خشبة المسرح أو أمام المناظرة). لذلك رأيت أن ألحق بهذه الدراما عنصر السردية، وهو الذي يشمل عنصر الحكي لما هو مكتوب وحدث في الزمن السابق.

وبذلك أصبح هذا البحث مشتملاً على عناصر ثلاثة، تتضمنها الملحمة:

"الصراع" = عنصر درامي، "الحكي/السرد" = عنصر سردي، "الحدث" = عنصر درامي وسردي.

فالعنصر الدرامي الذي يشترط به أن يقوم على المسرح أمام النظارة، ينتقل ليصبح حدثاً مكتوباً على ألواح تجسد مسيرة جلجامش في طلب الخلود، مع الاحتفاظ بعناصر الدراما والسرد التي تتقاطع مع بعضها، وتتشابه لتكون العمل، وهي:

1. الزمان
2. المكان
3. الشخصيات
4. الحبكة
5. الصراع
6. نمو الحدث التآزمي

فهذا العمل يستطيع أن يزاوج بين الحكي/السرد الأدبي المدوّن وبين الصراع الدرامي الذي لا يعرض ممثلاً على خشبة المسرح بل ويوظّف في عمل مكتوب.

السرد: السرد اصطلاحاً يعني:

أ. "نقل الحادثة من صورتها الواقعية إلى صورتها اللغوية".¹

¹ آمنه يوسف: تقنيات السرد في النظرية والتطبيق، دار الحوار للنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 1997م، ص 18.

ب. "وهو الفعل الذي تنطوي فيه السمة الشاملة لعملية القص"¹

ج. "الطريقة التي يختارها الروائي أو القاص أو حتى المبدع الشعبي (الحاكي) ليقدم بها الحدث إلى المتلقي، فكأن السرد هو إذن نسج الكلام، ولكن في صورة حكي وبهذا المفهوم يعود السرد إلى معناه القديم حيث تميل المعاجم العربية إلى تقديمه بمعنى النسج أيضًا"².

"ويقوم الحكي على دعامين أساسيتين: الأولى، أن يحتوي على قصة ما، تضم أحدًا معينة، والثانية: أن تعين الطريقة التي تحكي بها تلك القصة، وتسمى هذه الطريقة سردًا.

ذلك أن قصة واحدة يمكن أن تحكى بطرق متعددة، لهذا السبب فإن السرد هو الذي يعتمد عليه في تمييز أنماط الحكي بشكل أساسي"³.

الدراما: لقد ولد الإنسان مقلدًا كما يقول أرسطو، وهو يقلد من وجهة نظر أرسطو أيضًا؛ لأنه يجد لذة في المحاكاة، يقول أرسطو "الملحمة والمأساة، بل والملهة والديثرمبوس وجلّ صناعة العزف بالنادي والقيثارة، هي كلّها أنواع من المحاكاة"⁴ في مجموعها، لكنّها فيما بينها، تختلف على أنحاء ثلاثة: لأنها تحاكي إمّا بوسائل مختلفة، أو موضوعات متباينة، أو بأسلوب متمايز.⁵

ويعود أرسطو ليرى أنّ الفنون السابقة تتحقق بواسطة الإيقاع واللغة والانسجام مجتمعة معًا أو متفرقة، بينما الصناعات الأخرى تحاكي الألوان أو الرسوم أو

¹ المرجع نفسه، ص 28.

² المرجع نفسه، ص 28.

³ محمد أحمد القضاة: التشكيل الروائي عند نجيب محفوظ، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ط1، 2000م، ص 127.

⁴ نشيد يتغنى به في أعياد باخوس، إله الخمر.

⁵ فن الشعر، ص 40.

الأصوات. لذلك يفرق أرسطو بين المحكيات وفقًا لاختلاف وسائل المحاكاة،¹ كما أنّ المحاكاة تختلف وفق الموضوعات والطريقة.

لهذا قال أرسطو عن بعض أعمال هوميروس. وسوفوكليس "إنّ مؤلفاتهم (درامات)؛ لأنّها تحاكي أشخاصًا يعملون ويفعلون".²

والمحاكاة مدخلنا الأول إلى الدرامى، فالإنسان يجد لذة في المحاكاة. والفارق في هذا بين إنسان وآخر فارق في الكم، وليس فارق في الكيف، والأب الذي يزحف على أربعة ليتمكن طفله الصغير من امتطاء ظهره يقلد بهذا حيوانًا ما، وهو في نفس الوقت يستمد من اللذة بقدر ما يستمد صغيره.

ولا بد أنّ البداية الأولى للدراما نشأت عن هذا الميل الغريزي للمحاكاة عند الإنسان، والصورة التقليدية التي يسوقها النقاد ومؤرخو المسرح تمثل أسرة بدائية تأكل من الطعام الذي أحضره الأب البدائي بعد رحلة صراع مع الحيوان ومطاردة درامية طويلة، وهذا الأب يروي الأحداث التي مرّ فيها في هذا الصراع من أجل اصطيد الفريسة من خلال حركات جسمانية وأصوات تسترجع ذلك الصراع "وهو صراع غير متكافئ من ناحية، ولا يصوّر صراعًا بين إرادتين من ناحية أخرى، ثم إنّ عنصر التعمّد أو القصد فيه غير متوقّر، فرجل الكهف يخرج ليصطاد أيّ شيء يقتات به هو وأسرته، قد يكون أيّ غزال أو سمكة أو أرنب، ثم إنه صراع بين إنسان له إرادة وطرف آخر ليست له إرادة".³

فعبد العزيز حمودة يقول "لم يكن صراع الإنسان البدائي صراعًا دراميًا؛ لأنّه لم يكن صراعًا بين إرادتين، وبنفس الطريقة فإن الصراع الدرامي بصفة عامة لا يعني صراعًا بدنيًا؛ لأنّ عنصر الإرادة يكون عادة غير موجود".⁴

¹ يعني: الإيقاع، واللحن، والوزن.

² فن الشعر، ص 10.

³ عبد العزيز حمودة: البناء الدرامي، قبلته الأنجلو المصرية، القاهرة، ط1، ص 112.

⁴ المرجع نفسه، ص 114.

ولفظة دراما تشير في أصلها اليوناني إلى الشيء الذي يُؤدَّى أو يُعرض أو يُقدَّم. فالدراما معناها الفعل في اللغة اليونانية، ولغة الدراما هي لغة السلوك، وقد اشتقت من كلمة (درامينون)، اليونانية ومعناها عمل شيء؛ ومن هنا كان الحدث هو عصب الدراما، ومن هنا كانت طبيعة الحدث هي المدخل الأول للدراسة هذا الشكل الفني.

والعمل المقصود هنا هو (التمثيل المسرحي)، فأشلى ديوكس يقول: "الدراما والمسرح شيئا ينبغي أن يكونا شيئاً واحداً، ووحدهما هي واجب كل مسرحي يدرك رسالته حقاً".¹ "والدراما التي لا حياة فيها، والتي لا تعدو أن تكون حديثاً من أحاديث الحياة الجارية، تشبه المسرح الذي لا حياة فيه، حيث يقتصر الممثلون على أداء الحركات المألوفة في كل يوم، ولكن الدراما التي تنبض بالحياة، وليدة العقل والعاطفة والخيال، هي التي تتطلب المسرح الحي الذي يستطيع أن يعبر وأن يمثل".²

فالدراما لا مناص لتكاملها من عنصر العمل، وفي ذلك تقول (مارجواي بولتون): "المسرحية ليست في الحقيقة قطعة من الأدب للقراءة، وإنما المسرحية ذات خصائص ثلاث: فهي أدب يمشي، ويتكلم أمام أبصارنا".³

وهذا التكلم الذي يجسد الفعل هو الذي يبني الحركة الدرامية التي يعرفها س. و. داوس: "بمسلسلة المواقف التي تستولي على انتباهنا، وكل موقف ينشأ عما سبقه، مثيراً فينا المزيد من التغير حتى نهاية الحركة التي يصفها جونسن بأنها (نهاية التوقع)".⁴ فالحركة الدرامية تأسيساً على ذلك هي متوالية الأفعال المسرحية التي من شأنها أن تحول اللغة المكتوبة إلى لغة مرئية منطوقة ومؤداة، بحيث تعطى معناها الصحيح في الزمان والمكان اللذين يصبح الممثل والمشاهد شركاً فيهما.

¹ أشلى ديوكس: الدراما (ترجمة: محمد خيرى)، عالم المكتبة، القاهرة، ط1، ص 2.

² المرجع نفسه، ص3.

³ وليد منير: جدلية اللغة والحدث في الدراما الشعرية العربية الحديثة، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ط1، 1997م، ص 15.

⁴ المرجع نفسه، ص 16.

فالبناء الدرامي في العمل "يعني كيفية خلق العلاقات الحتمية بين الأحداث بعضها البعض حتى تشكّل في مجموعها نمطاً واحداً متسقاً، فالبناء هو إضفاء الوحدة على الأحداث المتتالية من خلال إيجاد علاقات حتمية بينها". وتنبع وحدة الحدث الدرامي عادة من الموضوعات والأفكار والشخصيات والعلاقات المنطقية أو السببية بين تفاصيل الحدث. والمبدأ الذي يحكم البناء الدرامي عادة هو ترتيب الأحداث بطريقة لها منطقها الداخلي، أي بواسطة مبدأ السبب والنتيجة، ولا يهم هنا أن يكون منطق ترتيب الأحداث في المسرحية هو نفس منطق الحياة.

وبناء على كل ما سبق من ربط الدراما بالحدث والصراع وما ينشأ عنهما من تطوّر فعلي ضمن بُؤرتي الزمن والمكان يقول مارتن أسلن: "ليست الدراما مجرد شكل من الأدب مع أنّ الكلمات المستعملة في مسرحية ما، حين تكون مكتوبة يمكن أن نعتبرها أدباً، إن ما يجعل الدراما دراما على وجه الدقة، هو العنصر الذي يمثل خارج الكلمات ويتخطّاها، ذلك العنصر الذي ينبغي أن يُرى ويُشاهد بصفته فعلاً في حيز التمثيل أو أنه قد تمثل ابتغاء إضفاء معنى على مفهوم الكاتب بعينه".²

واعتماداً على كلّ ما سبق مهمنا تأكيد حقيقتين أساسيتين الأولى: إنّ الدراما فن أدائي في المقام الأول، والثانية: إنّ الصراع يمثل العمود الفقري في البناء الدرامي، فبدونه لا قيمة للحدث أو لا وجود للحدث.³

"والحدث بوصفه موقفاً يحتوي بطبيعته على عناصر الصراع، ويتطوّر بواسطة الحبكة والفعل ورد الفعل وتصارع الإرادة إلى ذروة معينة، لا ينفصل عن الشخصية. فالشخصية هي صانعة الحدث، وبذلك تكون الشخصية والحدث شيء واحد".⁴

¹ سمير سرحان: مبادئ علم الدراما، منشورات مركز الشارقة للإبداع الفكري، الشارقة، ط1، 1990م، ص 47.

² مارتن أسلن: تشريح الدراما (ترجمة: يوسف ثروت)، مكتبة النهضة، بغداد، ط2، 1984م، ص 12.

³ البناء الدرامي، مرجع سابق، ص 118.

⁴ مبادئ علم الدراما، مرجع سابق، ص 30.

والبطل في بحثنا هذا هو جلجاميش الذي يوازي بفعله الصراع والحدث. وبذلك يكون بعداً درامياً تتسرب إليه السردية من خلال الحدث في الزمن الماضي، ونقل الحدث من خلال الحكي القص لا من خلال مشاهدة أحداث مضارعة تحدث في الحاضر، وإن كان الحدث هو درامي آني بالنسبة لشخصية جلجامش الذي يحدث الفعل على مستوى الحاضر من صراعها في القوى المحيطة بها.

وبذلك نخلص إلى أنّ الدراما:¹

اصطلاح يطلق بشكل عام على أيّ موقف أدبي ينطوي على صراع، ويتضمن دراسةً له عن طريق افتراض وجود شخصين على الأقل. كما أنّ الدراما تُعدّ شكلاً من أشكال الفن القائم على تصوّر الفنان لقصة تدور حول:

أ. شخصيات تتورط في أحداث معينة.

ب. تحكي نفسها عن طريق الحوار المتبادل بين الشخصيات .

ج. تتضمن لحظات صمت خالية من الحوار، ولكنها مشحونة بالفعل أو بالأفعال.

ويحلو للبعض أن يرى أن الدراما أنواع منها:

1. الدراما الطقسية: هي مبدأ طقس من طقوس الدين، إذ أنّ العبادة المسيحية دراما في جوهرها.
2. الدراما التسجيلية: وهي شكل درامي يقوم على تسجيل الحقائق.
3. الدراما البرجوازية: هي التي يتم فيها إدخال العنصر الواقعي في الحدث الدرامي وتحطيمه لمواصفات البطل للاشتراطات المحددة حتى تغير شكل الدراما ومضمونها، وأصبحت تعرف باسم الدراما الحديثة.

¹ أنظر: جبار عوده العبدى وصلاح مهدي القصب: مدخل في الدراما وتدرجها التاريخي، دار الفتح، بغداد، ط11، 1992م، ص 15-16

4. دراما اللامعقول: هي التعبير عن الرؤيا بأفضل ما يستطيع المرء معرفته وبوسائله المختلفة، وهي صورة تبحث عن الماضي البشري، وهي نوع من الاختزال الفكري لنمط معقد من التشابه في هذا العصر المعقد.

5. الدراما المقرؤة: وتطلق على مجموعة من المآسي الشعرية التي كتبها شيلي وباروف وغيرهم، ولكنها ظلت تقرأ دون تمثيل على خشبة المسرح.

الأسطورة والدراما: بعيداً عن تلك التعريفات المطولة والدراسات المستفيضة لمعنى الأسطورة وتعريفها وجذورها، نكتفي بهذا التعريف المكثف والمختصر. والذي يقول: "الأسطورة حكاية تعيش منذ القدم في تقاليد قبلية أو جنس أو أمة يتوارثها خلف عن سلف، وتدور حول الآلهة وأنصاف الإلهة والأحداث الحادثة، وتختلف عن الملاحم التي تسجل أفعالاً إنسانية، وعن الحكايات الخرافية التي ابتكرت. لأغراض التعليم والتسلية".¹

وهذه الحكاية الأسطورية تقوم على الرمز الذي يحاول أن يفسر مظاهر الطبيعة والكون بمنطقه الخاص، وهذا الرمز في عالم الأسطورة "إنما هو بمثابة الدرك الفلسفي الذي يكشف عن حركة الديمومة وحركة الصراع التي تنطبع في الأشياء، فتحيلها إلى مادة حية لا يمكن إدراكها بطريقة علمية تجريبية، فعن طريق الإدراك الحدسي يمكن أن يتصور الفنان العالم الأسطوري تصوراً إبداعياً يقوم على توصيد الأضداد والتأليف بين هذه الأضداد في وحدة محكمة، إنه يستطيع أن يتصور الأسطورة تصوراً جديداً".²

والتصور الأسطوري للعالم إنما هو تصور درامي يقوم على أساس من الصراع المحتوم بين الإنسان والقدر، وقد كان الإنسان دائماً هو المغلوب في كل معركة، فمهما طال العراك فلا بد في النهاية من تحقيق الغلبة للقدر.

¹ محمد عصمت حمدي: الكاتب العربي والأسطورة، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، ط1، القاهرة، ص5.

² سعد عبد العزيز: الأسطورة والدراما، المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة، 1966م، ص7.

والأساطير تحمل بلا شك دلالات إنسانية لم تفقد قيمتها خلال التطور الحضاري، ولقد حاول الأدباء والفنانون علاج الكثير من هذه الأساطير، وذلك لتوضيح دلالاتها أو تحميلها دلالات وتفسيرات جديدة تتفق مع روح العصر.

جلجامش بين الملحمة والأسطورة

قد يكون من المناسب أن نمهد للرد الدرامي في هذه الملحمة بتوطئة تلقي الضوء على جزء هذه الملحمة من حيث التعريف بها وشرح الأجواء التي تحيط بها، والذي يُعدّ فهمها جزءاً من فهم ورموز هذه الملحمة الخالدة.

ملحمة جلجامش هي أطول ملحمة وأكمل ملحمة عرفتتها حضارات العالم القديم، أي أنها الأسبق في الزمن لجميع ما يضاهاها من الملاحم العالمية المشهورة. فقد دونت قبل (4000) عام، لذا يحقّ لها أن تسمى "بأوديسة العراق".

ولقد وصلت إلينا ملحمة جلجامش الشهيرة مدونة على اثني عشر لوحًا، وقد جرت عادة البابليين والأكاديين في مثل هذه المجاميع الأدبية التي يعنونها بأول عبارة أو شطر من الشعر فيها "فمثلاً عنونوا ملحمة جلجامش بِشأنقبا أمورو: أي "هو الذي رأى كل شيء"¹. وهذه هي أول جملة يبدأ بها اللوح الأول من ملحمة جلجامش.

جلجامش أسطورة أم ملحمة؟ هذا العمل الأدبي الطويل الذي كُتب بالأكادية المسماريّة يروي حكاية بحث بطولي عن الشهرة والخلود، وكثيراً ما يتساءل البعض إن كان عملاً أسطوريّاً أم عملاً ملحمةً؟

من المهم ذكره ابتداءً إنّ هناك فرقاً أساسيّاً بين الأسطورة والملحمة. فشخصيات الأسطورة يكونون عادة من الآلهة، وأنّ أحداث الأسطورة تدور في الغالب حول أمور الخليقة والكون وصراع قوى الخير والشر والمعتقدات الدينية، أما الملحمة فهي تدور حول فرد من البشر وتهتم بمنجزاته ومآثره وبطولاته.

¹ طه باقر: مقدمة في أدب العراق القديم، جامعة بغداد، ط1، 1976م، ص 48.

وفي هذا الشأن يقول فاضل عبد الواحد علي: "ولكن علينا أن نوضح أنّ هذا التمييز بين الأسطورة والملحمة مسألة شكلية، وأنّ الحدود قد لا تراعى في كثير من الأحيان بحيث تصبح الأسطورة ملحمة والملحمة أسطورة. والسبب في ذلك يرجع بشكل رئيسي إلى أنّ كثيرًا من الأساطير التي قلنا إنّ أبطالها من الآلهة، يقومون بأعمال ومغامرات بطولية مما يحمل الباحث على تجاوز الحدود المتعارف عليها، فيسبى مثل هذه الأساطير بالملحمة".¹

واعتمادًا على ما سبق يصنف هذا العمل بالملحمي؛ لأنّه يبرز مغامرات بطولية يقوم بها شخص جنبًا إلى جنب مع آلهة وإلهان يشاركون أحيانًا في أحداث القصة، ويديرون غالبًا شؤون البشر الفانيين: مع ذلك يتكوّن لدينا انطباع عن حرية الإرادة عند الإنسان التي باستطاعتها رسم قدره وأحيانًا إحباط الرغبات السماوية.

سبب تأليف هذه الملحمة: "لا يوجد ما يشير إلى أنّ الملحمة قد عُرضت على مسرح أو تمت تلاوتها كجزء من احتفال أو طقوس. فإنّ مسألة تحديد الهدف من نظمها مسألة صعبة جدًّا. ولكن السبب في وجودها ووجود القصص المكونة لها في التراث الروائي الشفهي قد يكون لمجرد الترفيه في بلاطات الملوك أو المساكن الخاصة، أو حول نار المخيم لقوافل الصحراء، أو الرحلات الطويلة بين الهندوس ورأس الخليج العربي".²

إنسانية ملحمة جلجامش: "المقصود بإنسانية الملحمة كون الإنسان محور الارتكاز في الملحمة إذ نجد معالجة شاملة لقضاياها الأساسية، ولعلاقاته بالآلهة والمخلوقات والطبيعة بشكل عام، ومواقفه من الحياة والموت ومن الخير والشر،

¹ فاضل عبيد الواحد علي: سومر أسطورة وملحمة، الأهالي للطباعة أو النشر، دمشق، ط1، 1999م، ص 161.

² ستيفاني دالي: أساطير من بلاد ما بين النهرين (ترجمة: نجوى نصر)، دار جامعة أكسفورد للنشر، نيويورك، ط1، 1991م، ص 65-66.

وتفكيره في مصيره في الوجود إلى غير ذلك من الموضوعات التي يمكن أن تكون في مجموعتها فلسفة إنسانية".¹

ولعل إنسانية هذه الملحمة هي من أهم أسباب انتشار الملحمة، إلى جانب تمجيد هذه الملحمة للإنسان البطل وليس البطل الإله أو مجموعة من الآلهة. كما أنّ هذه الملحمة استطاعت بشكل فريد أن تصبغ المشاعر المختلفة بل والمتناقضة في قالب أدبي قصصي جعل لها جاذبيتها الخاصة وتأثيرها الشديد، ولهذا فقد وصفها بعض الدارسين بأنها نموذج للإبداع الأدبي في بلاد النهرين في أحسن حالاته.

وهذه الملحمة وإن انتهت نهاية محزنة ومخيبة لآمال جلجامش وبني البشر قاطبة، فإنها قدّمت البديل، وإن كان دون طموحات جلجامش، لكنّه يبدو منطقياً على أيّ حال، فإذا كان الخلود مستحيلاً للإنسان : لأنّ الآلهة استأثرت به منذ اللحظات الأولى للخلق، فباستطاعة جلجامش وأيّ إنسان آخر، أن يخلد بأعماله ومآثره، فيبقى ذكره ما بقي الدهر.

شخصية جلجامش:² البطل جلجامش هو أحد ملوك بلاد النهرين في العصر السومري، وليس شخصية أسطورية من صنع الخيال الأسطوري لشعب بلاد النهرين. هذا وقد أثبتت الحفريات الحديثة وجود ملك الأوروك يُدعى جلجامش عاش حوالي منتصف الألف الثالث قبل الميلاد. ويحتلّ هذا الملك مكانه في قائمة ملوك سومر، إذ تذكر قائمة الملوك جلجامش: أنّه أحد الملوك البارزين، وقد سبقه في الحكم ملوك سومر، وهم: مسكياج جاشر، وابنه انمركر، ولوجالبندا، ودرموزي.

¹ محمد أحمد: الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي القديم، دار آفاق عربية، بغداد، ط1، 1988م، ص 30.

² أنظر ستيفاني دالي: أساطير من بلاد ما بين النهرين، مرجع سابق، ص 76-77؛ محمد حسن محمد الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي القديم، مرجع سابق، ص 22-23؛ فاضل عبد الواحد علي، سومر أسطورة وملحمة، مرجع سابق، ص 193.

وبذلك يكون جلجامش الملك الخامس في قائمة ملوك سومر، ولكل فاقت الجميع شهرة، وأصبح البطل المطلق للأسطورة السومرية. فنُظمت فيه القصائد العديدة، وكتبت عنه الملاحم التي تمجّد أعماله البطولية. ومن دراسة هذه الأخبار القليلة الواردة عن جلجامش حدّد بعض المؤرخين وجود جلجامش التاريخي حوالي عام 2600 ق. م ويؤرخون لعملية تأليهه فيما بعد بأنها قد تمت حوالي عام 2500 ق. م.

والملمحة الشعرية المكتوبة بالأكادية البابلية تروي حياة الملك جلجامش ملك أوروك وأعماله بطريقة يمتزج فيها التاريخ بالأسطورة. وقد وُجدت الألواح في مكتبة آشور بانيبال تحت أنقاض القصر الملكي في العاصمة نينوى، ويدعى نص نينوى بالنص الأساسي أو المعياري؛ لأنه الشكل الأدبي الأخير الذي اتخذته الملمحة بعد فترة طويلة من التطور والتغيّر دامت قرابة الألف عام. ويتميّز هذا النص الأساسي عن بقية النصوص السابقة عليه، بأنّ الواحة الفخارية خرجت سليمة نسبيًا، وفي حالة تسمح بقراءة متسلسلة. على الرغم من الكسور الحاصلة في بعضها والتشوّهات التي اعترت الكثير من سطورها.

مدينة جلجامش (أوروك): اسم مدينة أوروك هي واحدة من المدن ذات الأهمية التاريخية والحضارية في منطقة بلاد النهرين، فهي واحدة من المراكز الحضارية الأولى في المنطقة، ولا تزال المدينة موجودة إلى وقتنا الحالي وحيث تحمل دسم الوركاء، وتقع أطلالها الآن قرب خضر الدراجي في محافظة المثنى متمثلة أطلالها في تلال ورور والوصواص وحمد الوركاء.

ومدينة أوروك هي الآن ورقا التي تقع عند مجرى الفرات الأدنى بعيدًا عن شاطئه، فهي التي دثرت في العهد القديم تحت اسم إرك، وكانت في قديم الزمان تقع على مجرى الفرات الأدنى ثم تغيّر مجرى النهر على مرّ الزمن فتزحزح إلى الغرب تاركًا البلدة ورقًا بعيدة عنه.¹

¹ أنظر فراس السّواح: جلجامش ملحمة الرافيدين الخالدة، منشورات علاء الدين، دمشق، ط1، 1996م، ص 31، فاضل عبد الواحد علي: سومر أسطورة وملحمة، مرجع سابق، ص 196-197: محمد حسن محمد: الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي القديم، مرجع سابق، ص 40-42

ويقول فراس السواح:¹ "البيئات الأركيولوجية الراهنة تدل على أنّ أوروك كانت أكبر المدن السومرية في مطلع عصر الأسرات، وأنها قد بلغت مرحلة المدينة الحقيقية قبل غيرها ما المراكز الحضرية في وادي الرافدين الجنوبي".

وهذه المدينة قد عرفت الكثير من التطور والحضارة العمرانية، فقد بنى جلعامش سورها العظيم حوالي عام 2600 ق.م.

ومدينة أوروك أو إرك هي ذاتها مدينة الوركاء الواقعة على بعد 220 كم جنوبي بغداد. واسمها السومري unng يعني المستوطن. أما البابليون فسمّوها uruk، وكانت الوركاء تتكون من جسمين رئيسيين: الأول يسمى eanna وهو الذي كان يضم منطقة الزقوده والمعبد الخاص بالآلهة انا² (أي عشتار) التي كانت الوركاء مركز عبادتها الرئيسي، أما القسم الثاني فيُعرف باسم kullab، وكثيراً ما لُقّب جلعامش بلقب سيد كوللاب. ويقع في هذا القسم المعبد المخصص للإله أنو³ وزوجته أنتو⁴، وهو المعبد المعروف باسم أنو - أنتو.

مؤلف الملحة:⁵

تشير تقاليد بلاد ما بين النهرين إلى أنّ مؤلف النص الذي يعود إلى القرن السابع الذي عثر عليه في نينوى هو كاتب يدعى سن - لت - أونيني، وهو كاتب رئيسي وراهب تعاويد من العهد الكشي. ويبدو ملائماً أن نقبل بهذا الاعتقاد دون شكّ

¹ فراس السواح: جلعامش ملحمة الرافدين الخالدة، مرجع سابق، ص 31.

² تذكر الأسطورة: إنّ أنانا هي من نقلت فنون الحضارة من أريدو إلى أوروك، وقد جعلتها مركزاً للحضارة السومرية، أنظر: صموئيل نوح كريم: الأساطير السومرية (ترجمة: يوسف عبد القادر)، مطبعة المعارف بغداد، ط1، 1971م، ص 107-113.

³ أنو: معناها السماء، هو آلهة أوروك، زوج أنتو، والد عشتار، رئيس جيل الآلهة القدماء. أنظر: ستيفاني دالي أساطير بلاد ما بين النهرين، مرجع سابق، ص 372.

⁴ أنتو: زوجة الإله أنو، ووالدة عشتار.

⁵ فاضل عبد الواحد علي: سومر أسطورة وملحة، مرجع سابق، ص 196.

مبرر. لكننا ربما لن نعرف أبدًا إلى أي مدى اعتمد هذا الكاتب على نص روائي شفهي جاهز، وقسمه إلى أحد عشر لوحًا. وقد أُضيف ملحق إلى اللوح الثاني عشر الذي يصف زيارة أنكيديو إلى العالم السفلي بعد أن أُضيف ملحق إلى اللوح الثاني عشر، الذي يصف زيارة أنكيديو إلى العلم السفلي، بعد أن أُضيفت المقدمة والخاتمة وذلك ربما خلال القرن السابع لأسباب لم تزال مجهولة.

مصادر ملحمة جلجامش:¹ وصلت إلينا ملحمة جلجامش مدونة بالخط المسماري واللغة البابلية على ألواح تمثل ثلاثة عصور نذكرها حسب تسلسلها في القدم:

1. العصر البابلي القديم: كتبت ألواح هذا العصر التي تؤلف ما يسميه الباحثون نسخة العصر البابلي القديم، في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد. وهي تختلف في بعض أجزائها اختلافًا واسعًا أحيانًا مع النسخة الآشورية من نينوى، بينما تتطابق معها في أجزاء أخرى.
2. العصر البابلي الوسيط: لم تلبث الملحمة أن حققت انتشارًا واسعًا في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، أي في العصر البابلي الوسيط، بدليل العثور على كسر من ألواحها في مواقع أثرية، متباعدة من الشرق الأدنى القديم.
3. العصر الآشوري الحديث: أما الألواح التي تمثل النسخة المعروفة من الملحمة في الوقت الحاضر، أو كما تُسمى بالنسخة القياسية أي المعتمدة، فقد عُثر عليها في مكتبة الملك آشور بنيبال ويرجع زمن تدوينها إلى النصف الأول من القرن السابع قبل الميلاد.

هل وصلت ملحمة جلجامش كاملة؟ لكي نجيب عن هذا السؤال يجب أن نشير إلى خاصية تتميز بها الملاحم بشكل عام، وملحمة جلجامش بشكل خاص، هي خاصية (استباق الأحداث) أو (استباق النتائج) كما يسميها طه باقر، أي استباق ما

¹ للمزيد أنظر: فاضل علي: سومر أسطورة وملحمة، مرجع سابق، ص 190-191

ستتمخض عنه الرواية أو القصة¹ والتلميح بالحلّ والنهاية. ففي ملحمة جلجامش تبدأ الرواية بديباجة في التعريف ببطل الرواية والتغني بأمجاده، وتلمح أيضًا إلى خاتمتها. والمرجح أن يكون تفسير هذا في تحريك السامع وتشويقه إلى أحداث الرواية. ويمكن تشبيه هذا الأسلوب من الفن القصصي القديم بأساليب العرض السينمائي الحديثة، إذ يبدأ بعض الأفلام بلقطة من خاتمة الرواية أو من أهم أحداثها، ثم تبدأ حوادث الرواية بالتسلسل، وتنتهي بالمشهد الذي بدأت منه. واستنادًا إلى هذه الظاهرة فإن حقيقة كون بداية ملحمة جلجامش أو ديباجتها مضاهية لخاتمتها دليل على أنّ النصوص التي وصلت إلينا منها تمثل الملحمة كاملة تقريبًا.

ملحمة جلجامش تنشر في العصر الحديث: كان أول ناشر لما عثر عليه في البداية من مخطوطات الملحمة هو (باول هاوبت) وقد نشر ذلك في العدد الثالث من مجلة (المكتبة الآشورية) عام 1884 تحت عنوان (ملحمة النمرود البابلية). ثم تلا ذلك نشر بعض أجزاء متفرقة أخرى قام بنشرها (باول هاوبت) (وألفيد بريمنز)، وبعد أن تم نشر المخطوطات المتفرقة ومقارنتها بعضها ببعض، تمكن الباحث (ب. ينش) من نشر الملحمة نشرًا كاملاً.²

السير الدرامي في ملحمة جلجامش

تتظافر عدة من العوامل التي تدفع بمسيرة الفعل/ الحدث إلى الأمام في سبيل تكوين هذه الملحمة.

عوامل بناء الحدث الأسطوري:

أولاً: الشخصيات الأسطورية في الملحمة:

جلجامش: جلجامش هو بلا شك الشخصية الرئيسية الأولى في الملحمة التي تحمل اسمه شخصية تاريخية واقعية. والملحمة ترسم جلجامش بالصورة التالية:

¹ طه باقر: مقدمة في أدب العراق القديم، مرجع سابق، ص 45-46.

² نبيلة إبراهيم: أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار نهضة مصر، القاهرة، ط1، 1970م، ص 23.

"سيد المدينة المطلق، يهيمن على سكانها، قوته لا مثيل لها، ينحدر من أصل إلهي" وشخصية جلجامش تبدو شخصية أسطورية وليست حقيقة،¹ ويمكن تحديد الجانب الأسطوري في شخصية جلجامش في:

1. الميلاد الإلهي لجلجامش: تقدم الأسطورة جلجامش على أنه كائن يجمع بين الإنسان، والإله، ففي اللوح الأول العمود الثاني من الملحمة نقرأ "ثلاثه إله وثلثه بشر" وهي عبادة لم تحدّد فقط الصفة الإلهية الإنسانية في جلجامش، ولكنها أقرّت بترجيح العنصر الإلهي فيه على العنصر الإنساني حين جعلت الثلث فقط ينتمي إلى الإنسانية.

فالملحمة تذكر أنّ جلجامش هو ابن الإلهة نينسون² زوجة الإله لوجالبندا، ولوجالبندا ليس أباً لجلجامش، ولكنه زوج أمه فقط؛ أما أبوه فهو إنسان بشر مجهول على الرغم من أنّ قائمة الملوك السومرية تطلق عليه لقب الكاهن الأعلى لكولاب، وفي ذلك يقول فاضل علي: "لقد كان أبوه (lillu)، وتستعمل كلمة (lillu) للدلالة على نوع³ من الشياطين⁴ أو المردة ولهذا اعتقد بعض الباحثين أنّ والد جلجامش كان من الجنّ وأنّه تزوج من ننسو فأولدها جلجامش الذي حمل في ثلثين منه صفات إلهية خارقة عن أبيه. كما نستخدم الكلمة (lillu) أيضاً كصفة. بمعنى مجنون، أحمق".

2. الصفات الإعجازية في شخصية جلجامش: ويتأكد الجانب الأسطوري في شخصية جلجامش من خلال مجموعة من الصفات والوظائف ذات الطابع الإلهي، والتي نجدها منتشرة في ثنايا الملحمة، منها على سبيل المثال ما ورد في

¹ قاسم المقداد: هندسة المعنى في السرد الأسطوري الملحمي لجلجامش، دار النّوال، دمشق، ط1، 1984م، ص 121.

² ننسون سيدة البقرة الوحشية، إلهة سومرية من ألقابها (حكيمه) و(بقرة وحشية) واسمها الشخصي (ريمات-ننسون). انظر: ستيفاني دالي: أساطير من بلاد ما بين النهرين، مرجع سابق، ص 384.

³ فاضل عبد الواحد علي: سومر أسطورة وملحمة، مرجع سابق، ص 195.

⁴ يعني (أبا جلجامش).

مطلع الملحمة من صفات عقلية وجسمانية ترتفع بشخص جلجامش فوق مصاف البشر بكونها صفات غير عادية.

3. علاقات جلجامش الإلهية: لعلّ من الأمور التي تقوّي الجانب الأسطوري في شخصية جلجامش مجموعة العلاقات الوارد ذكرها في الملحمة بين جلجامش من ناحية. وبعض الآلهة المعروفة في بلاد النهرين آنذاك من ناحية أخرى. وهذه العلاقات الإلهية أصبحت ممكنة في الملحمة من خلال الصفة الإلهية لجلجامش، وهذا سهل له كبطل عملية الاتصال بالآلهة، والدخول معها في علاقة إيجابية أو سلبية، حسب المواقف التي يتعرض لها البطل.
4. جلجامش إله العالم السفلي: من الأوصاف التي نسبت إلى جلجامش وصفه بأنه الحاكم العادل لعالم الموت، هناك صلاة موجهة إليه كدعاء، ولقب أيضاً بقاضي الموت، كما أنه من الناحية الأسطورية يعدّ ملكاً للعالم السفلي. ومن يدرس شخصية جلجامش في ملحمة يجد أنها قد مرّت في أطوار، يلخصها فراس السّواح في أربع مراحل:¹

1. الطور الأول: (الفردية والحرية المطلقة): كان جلجامش الفرد الحرّ الوحيد في مجتمعه، كان ملكاً مطلق السلطان، أقوى الرجال جسدياً وأكثرهم ملاحاة وذكاء، مفعماً بالحيوية والنشاط الدائب، لا تهدأ حركته ليل نهار.
2. الطور الثاني: (الإلتزام): وذلك عندما توثقت الصداقة بين جلجامش وإنكيكو، ونمت بين الطرفين محبة عميقة غيرت مجرى حياتهما.
3. الطور الثالث: (تفكك الواقع- البحث في المستحيل): عندما يغادر جلجامش أوروك وحيداً حزيناً، باحثاً عن اوتنابشتيم الحكيم، في بحثه عن الموت والحياة.
4. الطور الرابع: (إعادة تركيب الواقع): في هذا الطور ينتهي بحث جلجامش عن الخلود، ليعود مخدولاً بعد أن سُرقت منه نبتة الخلود، وأخذ يوجه كلّ جهد له إلى خدمة شعبه وتطوير أحواله.

¹ فراس السّواح: ملحمة جلجامش ملحمة الرافدين الخالدة، مرجع سابق، ص 240-266.

إنكيديو: مما لا شك فيه أنّ البنية الأسطورية لشخصية أنكيديو في ملحمة جلجامش بنية مركبة معقدة، وهي أكثر شخصيات الملحمة أسطورية. وإذا كان جلجامش قد جمع في شخصيته بين الصفات الإنسانية والإلهية، فإنّ أنكيديو قد أضيفت إلى شخصيته صفة ثالثة، وهي صفة الحيوانية، فأصبح يجمع في شخصه بين الحيوانية والإنسانية بالإضافة إلى وصف الملحمة له في بعض المواضع بأنّه إله. وهكذا تصبح شخصيته أكثر اتصالاً بالنماذج الأسطورية من غيرها في الملحمة. ومن أهم ملامح تلك الأسطورة في شخصيته:

1. عملية خلق إنكيديو: فقد خلقته الآلهة استجابة للبشر، ولقد خلقته من جوهر الإله أنو، ومنحه إله الحرب صفة النبل والفضيلة والحرب.
 2. عملية أنسنة إنكيديو: تعطينا الملحمة وصفًا دقيقًا لحيوانية إنكيديو الذي يأكل العشب ويتدافع مع الوحوش البرية إلى موارد المياه. وقد تمّ تحويل إنكيديو إلى إنسان اجتماعي بواسطة المرأة أو الجنس.
 3. علاقات إنكيديو الإلهية: خلق إنكيديو لتغليب الخير على الشر، ومع ذلك لم تكن كلّ الآلهة على علاقة طيبة مع إنكيديو، فقد اتخذت عشتار موقفًا معاديًا منه، الأمر الذي أدّى فيما بعد إلى إصدار الحكم الإلهي عليه بالموت.
- ولقاسم المقداد رأي طريف في هذا الأمر في كتابه (هندسة المعنى في السرد الأسطوري) فهو يرى تشابهًا ما بين عملية ولادة إنكيديو وما بين عملية ولادة الكائن البشري، فيقول: "قيام الآلهة تينورتا بالنفخ في حفنة الطين، هو فعل يشبه¹ الفعل الجنسي، أو دخول الحيوان المنوي للرجل في بويضة المرأة، ووضع أنكيديو في الطبيعة (السَّهل) يقابل وضع الطفل قبل الدخول في الحياة الاجتماعية".
- أوتونبشتم:² الشخصية الثالثة المهمة في الملحمة: والتي تستحق توضيح الصفة الأسطورية فيها هي شخصية أوتونبشتم، فهو الإنسان الوحيد الذي حصل على

¹ هندسة المعنى في السرد الأسطوري الملحمي، مرجع سابق، ص 121.

² من السَّهل أن يدرك المرء مدى قرب هذه الشخصية من شخصية النبي نوح عليه السلام. وهذا يؤكد أنّ هذا الجزء من الملحمة كان متأثرًا بهذه القصة.

الخلود، كما أنّ الظروف التي مكنته من الحصول على الخلود هي أيضاً أسطورية، كما أنّ طريق الوصول إلى أوتنبشتم طريق أسطوري مملوء بالعوالم الأسطورية. فأوتنبشتم أو (شوروباك) كما يسمى أحياناً قد أمره الإله بأن يبني سفينة يأخذ فيها من كلّ زوج، وذلك لما غضب الآلهة من البشر بسبب صخبهم، وقررت إهلاكهم. ثانياً: الأماكن الأسطورية في الملحمة: لقد بدأت هذه الملحمة في مدينو أوروک، كما انتهت فيها، لكنها مرّت في الكثير من الأماكن الأسطورية التي لا مكان لها إلا في مخيلة مؤلف الملحمة. ومن هذه الأماكن:

1. غابة الأرز: ويطلق عليها أحياناً أرض الأحياء، وربما ذلك إشارة إلى أنّها الأرض التي يعيش فيها الخالدون، والمكان الذي يمكن للإنسان الفاني أن يحصل فيه على الخلود. وهذه الغابة أرض بلا حدود جغرافية واضحة، وبلا معالم حقيقة تدلّ عليها، كما أنها ليست منسوبة إلى زمان معيّن، أو عصر بعينه، وهي المكان الذي لم تطأه قدم بشرية، ولم يترك أحد فيه أثراً إلى وقت زيارة جلجامش له. وهذه الغابة أرض هي غابة الإله أنليل الذي عين عليها الوحش الأسطوري خمبابا حارساً لها؛ لإثارة الرعب بين الناس حتى لا يفكر أحد في اختراقها.
2. جبل ماشو: من الأماكن الأسطورية في الملحمة ذلك الجبل المسعى بـ(ماشو) أو جبل الشمس، ويعدّ هذا الجبل سور السماء وبوابة جهنم. وقد وصل جلجامش إلى هذا الجبل بعد أن قرّر البحث عن أوتنبشتم الإنسان الوحيد الحاصل على الخلود. فقد كان هذا الجبل واحداً من العقبات التي كان على جلجامش أن يتخطّاها حتى يدرك أوتنبشتم، وقد توفرت مجموعة من العناصر التي جعلت من جبل ماشو جبلاً أسطورياً في مواصفاته، فهو جبل محفوف بالمخاطر، ولم يتمكّن إنسان من الوصول إليه، كما أنّ حراس هذا الجبل هم رجال عقارب أشكالهم مرعبة.
3. حديقة الإله: يتمخض المجهود الشاق لجلجامش في عبور جبل الظلمات عن ظهور ما يسمى بحديقة الإلهة. والحقيقة أنّ هذه الحديقة على اختلاف

مسمياتها بمثابة صورة أسطورية جديدة، ورائعة من الصور الأسطورية في الملحمة، فهي جنة عجيبة بمناظرها العجيبة وألوانها الزاهية، وهي تنقل المشاهد أو القارئ نقلة أسطورية من هذا الجو الكثيب الذي عاشه مع جليجامش في رحلة عبور الجبل إلى جَوْ من الإشراق والبهجة.

4. بحر الموت: ينتقل جليجامش من حديقة الآلة إلى موقع أسطوري آخر، وهذا هو البحر المحيط الذي تقع حديقة الآلهة عن شاطئه. وهو يعطي في الملحمة تسمية أسطورية مثيرة للرعب والهلوع، إذ يُسمَّى أحياناً ببحر الموت، وأحياناً أخرى مياه الموت، وقد اعتقد السومريون بأنّ هذا المحيط يقع في مكان ما وراء الخليج العربي، ويصل جليجامش إلى هذا البحر بعد أن ينجح في عبور جبل ماشو حيث يصل إلى حديقة الآلهة، ويقع هذا البحر عند نهاية الحديقة، وقد سُمِّي هذا البحر ببحر الموت؛ لأنّ من يلمس ماءه يموت، ومن هنا كانت أيضاً التسمية الأخرى ماء الموت. وفي هذا المكان الأسطوري التقى جليجامش بصاحبة الحانة الأسطورية وب(أورشانا) الملاح.

5. مصب الأنهار: هذا المكان لم يرد باسم خاص، ولكنّه المكان الذي يقع عند فم الأنهار، وهو مكان غير معروف، وليس له دلالة جغرافية محددة.

6. البحيرة: وهي البحيرة التي غاص فيها جليجامش طلباً لنبتة الخلود.

7. أرض دلمون: تقع بالقرب من موقع المحيط، أي من مكان ما وراء الخليج العربي، وقد ورد ذكرها في مصادر أخرى من بلاد النهرين لا سيما في لوح عُثر عليه في نيبور. وهي أرض لا يسمع فيها نغيب، وتعيش الحيوانات فيها أمنة، ولا توجد فيها أرملة، ولا ينتشر فيها مرض، ولا تعرف فيها الشيخوخة، ولا يحدث فيها بكاء أو نحيب.

ثالثاً: الأماكن الأسطورية في الملحمة:

1. عالم الآلهة: تعطي الملحمة تصوّراً عميقاً لعالم الآلهة التي عرفت في منطقة بلاد النهرين، فقد وردت مجموعة من قصص الآلهة التي تعطي صورة واضحة

وعملية لحياة الآلهة من خلال أنشطتها المختلفة التي تظهر في طبيعة الآلهة، وما يكتنف هذه الطبيعة من تناقض ظاهر وتظهر وظائف الآلهة، وما ينجم من تداخل هذه الوظائف من تعارض بين الآلهة وصراع وتوتر، ويظهر أيضًا في علاقات الآلهة في مناسبات عديدة. والحقيقة أن عالم الآلهة مرتبط في واقعه بالحياة الدينية في بلاد ما بين النهرين وبالطقوس والشعائر التي تطورت هناك.

2. عالم الموتى: يرد ذكر هذا العالم كثيرًا في الأساطير القديمة، وهو عالم تحكمه الآلهة. وقد ورد ذكر هذا العالم في اللوح الثاني عشر من الملحمة الذي يختص بنزول إنكيديو إلى العالم السفلي، وهذا العالم عالم مخيف رهيب، يعيش فيها الإنسان حياة صعبة.

ويوصف العالم السفلي بأنه (عالم الظلام) و(بيت التراب) و(البيت الذي لا يرجع من دخله) و(الطريق الذي لا رجعة لسالكه) و(البيت الذي حرم ساكنوه من النور).

وكثيرًا ما يرد ذكر بعض آلهة بعض العالم السفلي على رأسهم الآلهة أراجلا¹ وهي ملكة العالم السفلي والإله² يزجال، وهو زوج آلهة العالم السفلي.

ثالثًا: عالم البشر بجانبه الأسطوري: على الرغم من أن عالم الإنسان هو العالم الواقعي لأحداث ملحمة جلجامش، إلا أن الملحمة قد أضفت على هذا العالم سمة أسطورية، أبعدته عن الواقع التاريخي الملموس، وجعلته يتجاوب مع بقية العوالم الأسطورية في الملحمة؛ ففي مدينة أوروك تتجلى السمة الأسطورية، عندما تذكر الملحمة أن هذه المدينة قد بُنيت على يد الآلهة، ومعبدتها تهبط فيه الآلهة، وقد وضع الحكماء السبعة أسس هذه المدينة.

¹ تُسَمَّى آلهة العالم السفلي بـ(إريشكيغال)، وتسمى كذلك بـ(ملكة الأراضي العظيمة) و(سيدة الأرض). وهي زوجة نركال، وشقيقة عشتار، ووالده نينازو.

² أنليل: هو إله الهواء، وقد تزوج من الآلهة (ننليل) سيدة الهواء و(نانا) هو ابنهما إله القمر. انظر للمزيد: حزعل الماجدي: إنجيل سومر، الأهلية للنشر، عمان، ط1، 1998م، ص 16، 35.

رابعاً: عالم الكائنات الأسطورية في الملحمة: بالإضافة إلى عالم الآلهة والعالم السفلي وعالم البشر تعطي ملحمة جلجامش صورة لعالم أسطوري آخر يضم مجموعة المخلوقات أو الكائنات الأسطورية في الملحمة، وهي كائنات من عالم الحيوان أو الجن يدخل معها جلجامش وإنكيدو في قتال مثير. وقد أعطت الملحمة لهذه الكائنات أوصافاً خرافية، سواء في وصف شكلها الوحشي في وصف قوتها الهائلة، والرعب الذي تثيره في النفس. ومنها:

1. خمبابا المارد: خمبابا هو المارد أو العفريت الذي عينه الآلهة إنليل لحراسة غابة الأرز ويوصف بالملحمة بالمحارب المولع بالقتال.¹ وهذا المارد عندما يزأر يكون صوته كهدير العاصفة، وأنفاسه مثل النار، وأنيا به الموت بعينه، وهو يحرس أشجار الأرز جيداً حتى أنه يسمع الدابة إذا تحركت في الغابة، وإن بعدت عنه ستين فرسخاً.
 2. الثور السماوي: هذا الثور قد خلقه الإله أنو، وأنزله إلى السماء استجابة لطلب الآلهة عشتار في الانتقام من جلجامش الذي رفض ودها، وعرضها للزواج به. وهذا الثور ضخيم كبير يثير الرعب في نفس كل من يراه.
 3. الرجال العقارب: والرجال العقارب مخلوقات أسطورية مركبة من الإنسان والعقرب، أو تجمع بين الشكل الإنساني والعقرب، ووظيفتهم حراسة جبل ماشو الأسطوري بما يبعثونه من رعب وهلع.
- نمو الحدث الدرامي في الملحمة: سأعرض في هذا الجزء من البحث إلى نمو الحدث في الملحمة من خلال تتبع نموه في كل لوحة من لوحات الملحمة، علماً بأن هذا النمو في الحدث تبرز فيه عدة أفكار، وهي:

¹ قام الكثير من المستشرقين ومن العرب بترجمة ألواح جلجامش من الأكادية المسمارية إلى العربية، وقد اطلعت على الكثير منها. بعضها كان واقفياً في ترجمة كل الألواح، والبعض الآخر كان به الكثير من النقص: بسبب نقص تلك الأصول التي نقل عنها. وقد اعتمدت على ترجمتين هما: ستيفاني دالي: أساطير من بلاد النهرين، مرجع سابق، ص 75-153؛ وفراس السواح: جلجامش ملحمة الرافدين الخالدة، مرجع سابق، ص 107-235.

1. فكرة توالي الأزمات والحلول.
2. فكرة التحدي.
3. فكرة الأعمال والمغامرات البطولية.
4. فكرة المسخ.
5. فكرة الانتقام بالقتل أو التخلص من المنافس بالعقارب.
6. فكرة موت أو مقتل الصديق أو الحبيب أو القريب.
7. فكرة الصراع بين البطل والحيوانات والوحوش الخرافية.

اللوحة الأولى¹

"هو الذي رأى كلّ شيء إلى تخوم الدنيا

هو الذي عرف كلّ شيء وتضلع بكل شيء"

بهذين السطرين تبدأ الملحمة، ويبدأ اللوح الأول منها، تلك الملحمة المعنوية باسم (هو الذي رأى) جرياً على عادة السومريين القديمة بتسمية اللوح بأول جملة منه. والمقصود بـ(هو الذي رأى) جلجامش، وهذه البداية التي نراها تصلح أن تكون النهاية. ففيها تقرّ الملحمة بأنّ جلجامش الموصوف بالحكمة قد عرف كلّ شيء خلال رحلاته الطويلة التي خاضها في ملحمة التي سيأتي الذكر عليها، وجاء بكثير من الأسرار والأخبار عن الزمان الغابر وعن الأماكن المجهولة. وقد نقش هذه الأسفار، وذلك في لوح جعله في أحد أسوار مدينته، التي بناها ورفع أسوارها، وبني معبدها المقدس، معبد (عشتار)² بعد أن وضع أسسها الحكماء السبعة. وتلك المدينة خضراء جميلة ذات بساتين ومروج.

¹ يسمى أيضاً اركال وهو الإله الرئيسي في العالم السفلي.

² مرجع سابق، ص 75-153؛ وفراس السّواح: جلجامش ملحمة الرّافدين الخالدة، مرجع سابق، ص 107-235، عشتار بالسومرية (إنّين، إنّينا، إنانا) وهي إلهة الحب والجنس والحرب. سيدة أوروك ونيروي وإربيل، وأبوها هو الإله أنو، من مشتقات اسمها نجمة الصباح، نجمة المساء، الوردية.

تبدأ الملحمة بوصف جلجامش، فتصفه ملكاً لكلّ الصعاب، فاق كلّ الملوك قوة، وهو ابن أوروك، وهو رجل أمين، كما أنه قائد سنجاع، وفي أصله هو ابن الإلهة نندسون.
"نسل لوجاك بنداء جلجامش الكامل القوة.

ابن البقرة المهبوب نندسون.¹

فاتح ممرات الجبال.

ناقب الآبار في سفوح المرتفعات.

فهذا الملك كما تقول الملحمة ثلثاه إله، وثلثه بشر: وهو يملك جسداً قوياً كما جسد الثور، وقدرته على القتال لا مثيل لها، ولا يستطيع أحد أن يتصدى له، حتى عندما يأخذ الابن من أبيه أو المرأة من أختها أو الفتاة من زوجها، لا يستطيع أن يعترض أحد عليه.

"لا يترك جلجامش ابناً لأبيه

ماض في مظالمه ليل نهار

وهو الراعي لأوروك المنيع

لا يترك جلجامش بكرًا لأُمها

ولا ابنة لمحارب أو صفية لنبييل"

ولكن أهل أوروك يشكون للآلهة، ويطلبون منها أن ترسل من عندها من يتصدى لجلجامش، فتخلق آلة أدور إنكيديو قوياً كأنه ثور بعد أن جمعت قبضته من الطين ونفخت فيها الروح.²

"لقد خلقت أرورو هذا الثور الوحشي.

¹ لقب البقرة من الألقاب الإلهية في ثقافات الشرق القديم.

² أرورو: اسم يطلق على الآلهة الوالدة العظيمة.

بأس سلاحه بلا شبيهه.

سمعت آرورو هذا، وتملّت في فؤادها صورة آنو.¹

غسلت يدها وجمعت قبضة من طين رمتها

في الفلاة".

وقد كانت هيئة إنكيدو (المخلوق الجديد) مخيفة، فهو أشعث الشعر، يلبس

ملابس الرعاة، يأكل مع الحيوانات، ويرد معها الى الماء.

"في البراري خلقت إنكيدو العظيم، نسل ننورتا.²

يكسو الشعر جلده، وشعر رأسه كامرأة

لا يعرف الناس ولا البلدان

يرعى الكلاً مع الغزلان

يرد الماء مع الحيوان

ومع الهيمة يفرح قلبه عند الماء"

وقد طال إزعاج إنكيدو للصيد الشاب الذي كلما وضع فخاً أفسده له، ولما رأى

الصيد الشاب إنكيدو وجهاً لوجه، أصابه الخوف الشديد.

"رأه الصيد فامتقع وجهه هلعاً

مضى بصيده إلى بيته

كان في قلبه اضطراب، وعلى محياه اكتئاب"

ثم أسرع الشاب يشكو إلى أبيه من ذلك المتوحش الذي يسكن الفلاة، وقد اقترح

الأب الخير أن يتوجه ابنه إلى جلامش، ويقصّ عليه القصة لعله يعطيه إحدى

¹ آنو: هو إله أوروك، زوج أنتو، والد إنليل وعشتار، وهو رئيس جيل الآلهة القدماء.

² ننورتا: ابن إنليل، وكان ننورتا إلهاً محارباً اشتهر بقتاله لأكثر من وحش خرافي.

عاهرات المعبد، ليغوي إنكيدو بها. وهذا ما كان فعلاً فما كاد يرى إنكيدو العاهرة التي تجردت من ثيابها حتى عاشرها ومارس الجنس معها أياماً طويلة حتى كرهته الحيوانات، وانصرفت عنه، ولم تعد ترغب فيه.

"فقد وقع بصر المرأة عليه، رأت الرجل الوحشي

فتاة البهجة، حرّرت ثديها، عرّت صدرها

فقطف ثمارها

لم تخجل، أخذت إليه دفأها

طرحت ثوبها، انبطح عليها

علّمت الرجل الوحشي وظيفة المرأة

وها هو واقع في حبها"

عاد إنكيدو حزناً إلى العاهرة¹ بعد أن نبذته الحيوانات، وسألها النصيحة، فعرضت عليه أن تذهب به إلى أوروك جلجامش.

"تعال آخذك إلى أوروك المنيعة

حيث المعبد المقدس مسكن أنو وعشتار"

¹ من الجدير بالذكر القول إنّ العهر كان يمارس في الماضي على شكل عبادة مقدسة ترتبط بوظيفة دينية ذات اعتقاد خاص بالخصوبة والإنبات، وفي عقيدة أساسية في البيئة الزراعية، فقد كانت المرأة تتقرب إلى الآلهة من خلال نذر جسدها للعبادة الجنسية حيث تدفع كل ما تحصل عليه من نقود مقابل البغاء الى المعبد، وكانت المرأة البغي المقدسة تنال الاحترام من المجتمع بل والتقديس أحياناً، وفيما بعد تستطيع ترك البغي والزواج. وقد كانت النساء من كلّ الطبقات وبمن فيهن نساء الإيمان يقبلن على هذا النوع من البغاء، أنظر: فراس السواح: لغز عشتار ، سومر للدراسات والنشر، برص، ط1، 1985م، ص 183 و190، محمد خليفة محمد: الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي القديم، مرجع سابق، ص11؛ فاضل علي: سومر أسطورة وملحمة، مرجع سابق، ص 207-208

راقت الفكرة جلجامش وقرّر التوجه إلى أوروك في حين كان جلجامش كان يحلم بأمر غريبة تزعجه، فهو يحلم بنجم ثاقب يجثو عليه، كما يحلم بفأس يضعه عند قدميه، ويضمه كما يضم الرجل المرأة، وهو يبحث عن تفسير لأحلامه عند أمه التي تبشره بصديق يحبه بشدة، فيفرح جلجامش بهذا التفسير.¹

"إن الفأس التي رأيت رجل

لقد ملت عليها كما تميل على امرأة،

ولقد جعلتها بنفسني لك ندًا

معنى ذلك: رفيق غني يعين الصديق عند الضيق

أقوى من في الفلاة ذو بأس عظيم"

ويقول قاسم المقداد: "يعتقد بعض المختصين في ثقافة وتاريخ شعوب بلاد ما بين النهرين القديمة بأنّ الأحلام الواردة في قصة ملحمة جلجامش من نوع (الأحلام-الرسائل) إنما (أحلام-رموز)؛ لأنّ الحلم الرسالة "يرد دائمًا في إطار اصطلاحي متصلّب، والرسالة المنقولة هي رسالة ملفوظة لكلمات واضحة ومفهومة، بينما لا تكون الرسالة في (الحلم-الرمز) ملفوظة العبارات واضحة بشكل مباشر بل على العكس، فإنّ الحالم يرى مجموعة من الأفعال والحركات أو الأحداث العقلية لا يكون أبطالها محددين، مثل الآلهة والنجوم أو الأشياء الأخرى".²

اللوحة الثاني

عاد إنكيديو مع عاهرة المعبد إلى حيث الرعاة والحظائر، كانت الحياة غريبة بالنسبة له، فلأول مرة يرى الخبز والخمر بل ويأكلها كما كان يشرب الحليب من الحيوانات المتوحشة.

¹ عنيت ثقافة بالذرافدين بتفسير الأحلام، وكان التفسير ضروريًا لكل حلم، ولا سيما الأحلام المزعجة.

² هندسة المعنى في السرد الأسطوري الملحي، مرجع سابق، ص 166.

"تعود أن يرضع
وضعوا أمامه خبزاً
فارتبك، نظر إليه
وحدّق فيه
فإنكيدو لا يعرف شيئاً
عن أكل الخبز وشرب الشراب القوي"
أخذ إنكيدو ينخرط في الحياة الإنسانية الاجتماعية بمساعدة العاهرة والرعاة،
وأخذ يفتك بالأسود
التي تزعجهم، فقد كان قوياً إلى درجة كبيرة.
"أخذ سلاحه،
وراح يهاجم الأسود
يربح الرعاة منها ليلاً
قنص الذئب
واصطاد الأسود"
وفي هذه المرحلة لقي إنكيدو جليجامش في السوق أمام أحد البيوت حيث ينوي
جليجامش الدخول بعروس، ليعاشرها قبل زوجها كما اعتاد أن يفعل.
"طبل الناس يقرع
يطأ العرائس المنذورات للزواج
هو يأتي أولاً
ومن ورائه الزوج الموعد"
يتصدى إنكيدو القوي المشابه لجسد جليجامش له؛ وإن كان أقصر منه؛ ويحاول
أن يمنع جليجامش من الدخول بعروس غيره.

"إنه شبيه لجلجامش في بنيته

أقصر قامة،

ولكنّه أصلب عودًا"

يدور بين الاثنين صراع شديد، يحطمان فيه دعائم البوّابات، ويخوران خوار الثيران.

"جلجامش وإنكيدو،

أمسك كلّ منهما الآخر،

يخوران خوار الثيران.

حطّما دعائم البوابة.

وارتجت لهول الصراع الجدران"

وفي النهاية كتب النصر لجلجامش، واستدار مبتعدًا، بينما وجه إنكيدو إليه كلّ

معاني الاحترام والتقدير.

"كمخلوق فريد، أمك

سيدة المدن الحصينة، البقرة الوحشية

الربة ننسون

قد حملت بك"

اللوّ الثالث

يبدو جلجامش وإنكيدو قد عقدا صداقة دائمة، وهذه الصداقة قد غيّرت

جلجامش تغييرًا عميقًا ؛ فبعد أن كان مضرب الأمثال في الظلم والطغيان، نجده

قد عقد العزم على المضي إلى غابة الأرز البعيدة، حيث الوحش حواوا،¹ رمز الشر

ليقضي عليه، ولكن إنكيدو يحاول أن يثنيه² عما نوى.

¹ ورد في بعض الترجمات باسم (خمبابا)

² نفسه

"تري لماذا ترغب

في القيام بذلك

في الماضي إلى الغابة"

ولكن محاولات إنكيديو تذهب أدراج الريح، ويصمّم جليجامش على هذه المغامرة؛
لأجل تخليص البشر من شر حواوا.

"في الغابة هناك يعيش حواوا الرهيب

هيا، أنا وأنت نقتله،

هيا نمسح الشر كلّ عن وجه الأرض"

ويعزي جليجامش إنكيديو بموافقته؛ لأنّ الحياة إلى زوال لذلك يستحق الأمر بعض
العمل العظيم.

"الآلهة هم الخالدون في مرتع شمس¹

أما البشر فأيامهم معدودات

وقبض الريح كلّ ما يفعلون

أراك خائفًا من الموت وما زلنا هنا،

فأين ضاعت منك القوة العظيمة"

يقرر كلّ من جليجامش وإنكيديو الانطلاق في رحلتهما، ويجهزان الأسلحة لذلك،
وهذه الأسلحة غاية في القوة، فالفأس زنته ثلاث طالينات.² والسيوف يزن الواحد
منها طالينين. وأمام باب المدينة ذات المزاليج السبعة، تجمهر الناس لوداعهم.

"تجمهر الناس

¹ شمس: بالسومرية- أوتو إله الشمس، إله مدينتي زيبار ولارسا. لقبه شمشي، ويعني صاحب
الجلالة، ويمنح للملوك الفنانين.

² الطالينين، وزنه بابلية تعادل ستين رطلًا.

في طرقات أوروك ذات الأسواق

جلسوا أمامه

بينما كان يتحدث إليهم

وقد حاول شيوخ مدينة أوروك أن يثنوا جلعامش عن قصده لما في ذلك من مخاطر، ولكنّه رفض ذلك، وبقي مصممًا على هدفه.

"قد سمعنا عن شكل حواوا المخيف

فمن يستطيع الصمود أمام أسلحته؟!

تتسع الغابة عشرة آلاف ساعة مضاعفة،

فمن يستطيع المضي في أعماقها،

وفيها حواوا يزأر كالعاصفة

في فمه نار وفي أنفاسه العطب"

وفي النهاية انطلق جلعامش إلى هدفه بعد أن جهّز نفسه، ودع شعبه، وباركه شيوخ المدينة، وقدموا له النصيح في رحلته قائلين:

"لا تعتمد على قوتك يا جلعامش

دعه يكشف الطريق أمامك، واحفظ نفسك

دع إنكيدو يتقدمك،

فلقد رأى الطريق وقد سلكه،

حتى مشارف غابة الأرز"

ويذكر مؤلف هذه الألواح مباركة ننسون لرحلة ولدها، ودعائها المستمر من أجله

ومن أجل صديقه ننسون

"أطفأت ننسون البخور

ودّعت إنكيديو وأعطته وصاياها

أي إنكيديو القوي. ولست من نسلي

ولكنني اليوم قد تبنيّتك

فصرت مني كفتيه جلجامش المندورين"¹

اللوح الرابع

بعد عدة أسطر مهشمة في الألواح، لعلها سطور تصف الرحلة الطويلة يصل

جلجامش وإنكيديو إلى غابة الأرز حيث يحفران بئراً قريباً لشمس

"بعد عشرين ساعة مضاعفة، توقفنا لبعض الزاد

وبعد ثلاثين ساعة مضاعفة أخرى- توقفنا لقضاء الليل

خمسین ساعة مضاعفة قطعاً في كلّ نهار

فاجتازا مسيرة شهر ونصف في ثلاثة أيام

ثم حفرا بئراً قريباً لشمس"

وقد نجح إنكيديو وجلجامش في اقتحام البوابة المسحورة التي تحيط بالغابة التي

شلت بعض الوقت يد إنكيديو بعد فتحها عنوة.

"فتح إنكيديو فمه قائلاً لجلجامش

دعنا يا صديقي لا نهبط الغابة

فقد شلت البوابة ידי بعد فتحها

ففتح جلجامش فمه قائلاً لإنكيديو:

لا تتحدث يا صديقي كأنسان ضعيف

قد واجهتنا صعاب تخطيناها معاً"

¹ الفتية المندورين: هم المخنثون الذين يمارسون البغاء المقدس.

اللوحة الخامس

في هذا اللوح يقف إنكيديو وجلجامش ينظران نحو الغابة

"شاهدا ذرى شجر الأرز

وشاهدا مدخل الغابة"¹

وفي هذه الألواح يحلم جلجامش ثلاثة أحلام مخيفة يفسرها إنكيديو إيجابياً، ويرى أنها إرهابية في سبيل النصر

"إنها يا صديقي رؤية طيبة

وإنه لحلم عظيم

إنّ الجبل الذي رأيت، أيها الصديق هو خمبابا

سوف نمسك بخمبابا سوف نقتله"

وعند اللقاء بين خمبابا المرعب وجلجامش يهبّ الإله شمس لمساعدة جلجامش للقضاء على خمبابا؛ وقطع رأسه؛ والتخلص منه.

"سمع شمس السماوي صلاة جلجامش

فهب في وجه حواوا رياح عاتية

الريح الكبرى، وريح الشمال، وريح الجنوب، وريح الزوبعة

ريح العاصفة، وريح الصقيع، وريح الإعصار"

فاللوحة يؤكد أنّ الانتصار حدث بمساعدة الآلهة التي تبدو راضية عن جلجامش ومساعدة له.

¹ يرى بعض الكتاب أنّ غابة الأرز تقع في لبنان.

اللوحة السادسة

ينتقل السير الدرامي في هذا اللوح إلى أوروك حيث يعود الصديقان، وينعمان في العيش، وحيث يغسل جلجامش شعره ويتزين.

"غسل شعره الطويل، ومسح أسلحته

أسدل شعر رأسه على كتفيه

نضى ثيابه الوسخة، وارتدى ثياباً نظيفة

لبس عباءة وأحاطها بحزام"

وفي هذا الجزء من الملحمة تقع عشتار¹ في عشق جلجامش يعرض عليه الزواج مقابل الكثير من الهبات والعطايا.

"تعال يا جلجامش وكن عريسي

هبي ثمارك هدية

كن زوجاً لي وأنا زوجاً لك

سأمر لك بعربة من لازورد وذهب

عجلاتها من ذهب وقرونها من كهرمان"

ولكن جلجامش يرفض هذا الزواج، ويسخر منها، ويعدّها شؤماً على كلّ من أحبّت² ويذكر لها أولئك الذين أحبّوها، فمسختهم إلى حيوانات، أو الذين كتبت عليهم الشقاء والموت أمثال دموزي.

¹ عشتار كانت الآلهة الحامية لمدينة أوروك.

² أنظر لبعض من عشق عشتار في: خزعل الماجدي: إنجيل سومر، مرجع سابق، ص 70، 71، 74، 75، 78، 93، 106، 107، 108، 163.

تغضب عشتار من رفض جلجامش، وتقرر معاقبته، تسرع إلى والدها أنو، وتطلب منه أن يخلق ثورًا مخيفًا لتعاقب أوروك وجلجامش به، وتهدد بإطلاق الموتى وبعثهم. إذا لم يستجيب والدها لطلبها.

وفي هذا الجزء من الملحمة يستخلص فراس السواح أنَّ لعشتار سلطة على الحياة السفلى أيضًا، فيقول: "فكانت تعين أختها أريشكجال¹ على ملء جهنم من الناس. وفي بعض النصوص تبدو ذات سلطة على العالم الأسفل تعادل سلطة أختها أريشكجال نفسها الأمر الذي يؤكد تفسيراتنا السابقة حول الوحدة الربانية للآلهتين. وتحذرهما معًا من أصل مشترك لم تكن الأسطورة قد نسيته في تلك الأيام، ففي ملحمة جلجامش تطلب عشتار من أبها أنو أن يعطيها ثور السماء لتهلك به جلجامش الذي أهانها، وتهدد بأن تفتح بوابات العالم السفلي، فتطلق كل من ماتوا منذ بدء الخليقة ليأكلوا ويشربوا مع الأحياء، لتعم المجاعة ويشرف الكل على الهلاك".²

في النهاية يستجيب أنو لرغبة عشتار الغاضبة، ويخلق الثور المرعب الذي يهلك الكثير من أهل أوروك، ويشيع المجاعة فيهم، ولكنه يُقتل على يد جلجامش وإنكيديو اللذين يتعاونان على قتله، وتقديم جسده قربانًا للإله، فيغضب هذا الأمر عشتار، وتبكيه هي وعاهرات المعبد، ويعود جلجامش ويهنأها مرة أخرى، ويرميها بفخذ ثورها الميت:

"انتزع فخذ الثور الأيمن ورماه في وجهها

لو استطعت بك إمساكًا،

لينالك مني مثل ما ناله،

ولربطت أحشاءك إلى خصرك"

¹ أريشكجال: إلهة العالم السفلي.

² فراس السواح: لغز عشتار الألوهية المؤنثة، وأصل الدين والأسطورة، مرجع سابق، ص 213.

اللوحة السابع

تجتمع آلهة السماء، وتقرّر معاقبة من قتل ثور عشتار السماوي، ويقع الاختيار على إنكيديو بسبب مجهول لا تذكره الملحمة.

"فقال أنو لإنليل

لأنهما قتلا ثور السماء، وصرعا حواوا

واحد منهما يجب أن يموت.

من جرد جيل الأرز يموت

فقال إنليل: سيموت إنكيديو

أما جلجامش فلن يموت"

وسرعان ما يقع إنكيديو طريح الفراش لأيام يعاني منها الآلام الشديدة، ويلعن فيها الصياد والعاهرة اللذين دفعا به إلى أوروك.

وعندما ينتقل إلى الحياة الآخرة، يدخل دار التعاسة التي لا يخرج أحد منها، ويخسر الكلّ فيها امتيازاتهم.

"إلى دار لا يرجع منها داخل إلها

إلى درب لا يرجع بصاحبه من حيث أتى

إلى مكان لا يرى أهله نورًا

في بيت التراب حيث دخلت.

رأيت الملوك وقد نزعت تيجانها"

أما جلجامش فيحزن بشدة لموت صديقه، ويلبس الخشن من اللباس بعده، ويشعر بوحدة شديدة تزيد من آلامه.

اللوح الثامن

هذا اللوح من ألواح الملحمة يفيض بمشاعر الحزن وآلام على موت إنكيديو، فجلجامش يفرض شعائر الحزن على كلّ المدينة من نساء ورجال وشيوخ. وكثيراً من مقطوعات هذا اللوح تجسّد ذكريات جلجامش مع إنكيديو. ويقوم جلجامش بتخليد ذكرى صديقه بصنع تمثال له.

"وعند انبلاج ضوء الفجر، قام جلجامش بتشكيل [....]¹

جلب طاولة كبيرة من خشب ال(ايلاماكو)

ملاً بالزبدة إناء من عقيق،

وملاً بالعسل إناء من لازورد

[....] زينهما وعرضهما للشمس"

اللوح التاسع

موت إنكيديو جعل جلجامش يفكر بعمق في الحياة والموت، ويقرر أن يفهم حقيقتهما، لذلك يترك المدينة لكن دون غناء أو حشود مودعة، بل يلبس جلد الحيوانات وحيداً بائساً، ويقرر التوجه إلى أوتونبشتم الإنسان الوحيد الذي وهب الخلود، وركب إلى درجة الآلهة. وينطلق في رحلة صعبة تصف الألواح جزءاً كبيراً منها، حتى يصل إلى جبل ماشو الذي يقع في آخر الدنيا ليلقى هناك حراساً يحرسونه، نصفهم عقرب ونصفهم الآخر رجال. المنظر يخيفه بشدة "يحيي مداخله البشر العقارب

لهم ألق مخيف وفي نظراتهم الموت

¹ [....] تعني أنّ هذا الجزء من اللوح مهشم غير واضح لا يستطيع المترجم قراءة أيّ منه.

بسطوا جلالهم المرعب فوق الجبال

يحرصون الشمس في قدومها وإيابها

عندما وقع بصر جلجامش عليهم

اعتم وجهه خوفاً ومرقاً

ولكن جلجامش يتمالك نفسه؛ ويخبر الرجال العقارب بوجهته، فيرقّ الرجل
العقرب له، ويسمح له بعبور بوابة الجبل التي يسير فيها طويلاً حتى يصل إلى
حديقة رائعة الجمال.

اللوح العاشر

في هذا اللوح يصل جلجامش إلى سيدوري ساقيه حانه الآلهة، التي تخشى منظر
جلجامش، وتوصد دونه الأبواب، ولكن جلجامش يعزفها بنفسه وبوجهه ويؤكد
لها أنه جاء يبحث عن أوتونبشتيم، ولا يريد بها شراً، وإنما شكله حزين بسبب موت
صديقه إنكيديو.

"إنكيديو الذي أحببت كثيراً

من لزمني في المشقات جميعاً

أدركه مصير البشر

في الليل وفي النهار بكيت عليه"

يطلب جلجامش من سيدروي أن تساعد في قطع بحر ديمون الذي يفصله عن
أوتونبشتيم ولكن سيدروي تؤكد له استحالة ذلك على بشر، وتنصحه بالاستمتاع
بحياته.

"اخطر بثياب نظيفة زاهية

اغسل رأسك وتحمم بالمياه

دلل صغيرك الممسك بيدك

واسعد زوجك بين أحضانك

هنا نصيب البشر في هذه الحياة"

لكن جلجامش على لقاء أوتونبشتيم، ويعرض على الملاح أورشناني أن يساعده على عبور بحر الموت، لكن أورشناني يقول له:

"قد حالت يدك دون عبورك

إذ قمت بكسر الصور الحجرية

فالصور الحجرية الآن مهشمة".

ولا يجد جلجامش مناصاً من قطع مئة وعشرين شجرة، لكي يستخدمها في دفع القارب إلى الأمام؛ لأنه يمنع لمس مياه بحر الموت، ومن يلمسها يموت. ويمر بمرحلة طويلة وشاقة في بحر الموت برفقة أورشناني وصولاً إلى مكان سكنى أوتونبشتيم.

اللوح الحادي عشر

يسمى البعض هذا اللوح لوح الطوفان؛ لأنّ هذا الطوفان يتحدث بالتفصيل عن قصة الطوفان الذي دمر الأرض، وأباد البشرية إلا من ركب السفينة.

فعندما وصل جلجامش إلى أرض أوتونبشتيم، دهش لمنظره عندما رآه رجلاً عادياً، فقال له:

"أنظر إليك يا أوتونبشتيم

شكلك عادي، وأراك مثلي

نعم شكلك عادي وأراك مثلي.

قد صورك لي جناني على أهبة القتال"

ثم تسأل عن سبب حصول أوتونبشتم على هذا الخلود، فقصّ الثاني عليه قصته، وقصة نجاته من الطوفان. فقد أزعج البشر الآلهة، ومنعوها من النوم، فقررت الآلهة أن ترسل عليهم طوفاناً ليغرقهم جميعاً، ولكن الإله إيا أفضى السرّ ونقله إلى أوتونبشتم، الذي أخذ ببناء سفينته، ذات سبعة طوابق، وأخذ يجهز نفسه للحظة الرحيل. وهي اللحظة التي أخذت السماء تمطر فيها لدرجة أخافت الآلهة ذاتهم:

"حتى الآلهة ذعرت من هول الطوفان

هرب جميعهم صعداً نحو سماء أنو

ربضوا عند الجدار الخارجي، ككلاب مرتعدة

صرخت عشتار كامرأة في المخاض"

وبعد ستة أيام توقف المطر وأصبحت السفينة وحيدة، فوق سطح البحر، ثم استقرّت على جبل، ثم أطلق أوتونبشتم حمامة لتتأكد من وجود مستقراً، ولكنهما عادت خائبة الرّجاء، أما الغراب الذي بعثه للمهدف ذاته، حطّ على الطعام عندما وجد الماء قد انحسر ولم يعد.

وعندما اكتشفت الآلهة أنّ بعض البشر قد نجوا من الهلاك بسبب مساعدة أوتونبشتم، وهبه وزوجته الخلود، وجعلتهما من الآلهة.

وفي هذه اللوحة من الملحمة يتوسط أوتونبشتم عند الآلهة لتهب الخلود لجلجامش، فتشترط الآلهة لذلك أن يبقى مستيقظاً ستة أيام وسبع ليال، ولكنّه يفشل في ذلك، ويقرّر العودة كسيراً إلى بلاده.

لكن زوجة أوتونبشتم تشفق على عودة جلجامش إلى بلاده خالي الوفاض، فتسأل زوجها أن يعطيه شيئاً فدلّ أوتونبشتم جلجامش على نبتة شوكية تعيد الشباب

وهي في قاع أحد البحيرة، والحصول على تلك النبتة يسّر جلجامش، ويقرر أن يحمل العشب إلى بلده ليطلع منها العجزة فيعودون شبابًا، ولكن في الطريق وإبان انشغال جلجامش بالاعتسال تختلسها حية وتبتعد.

وقد استطاعت الحية بفعل ذلك النبات السحري أن تجدد شبابها على الدوام بنزع جلدها كلّ عام، ومما لا شك فيه أن هذه الأسطورة أصل اتخاذ صورة الحية رمزًا للحياة والشفاء والتطبيب عند اليونانية، وفي العصر الحديث. كما يصحّ أن نربط هذه الأسطورة بصورة العداء الذي استحكم بين الحية وبين ذرية حواء من بعد حادثة الإغواء. فقد فرض الله على آدم وحواء بالإضافة إلى إخراجهما من الجنة العداء المستحكم بين الحية وبين ذريتهما¹.

"وبهذا نالت الحية ما لم يستطيع الإنسان نواله. ومما لا شك فيه أنّ هذا الجزء من الملحمة يعدّ مثالًا واضحًا لما يسمى بالأسطورة التعليلية، أي التي تعلّل حدثًا ما، أو تشرح سبب وقوعه، وهنا نجد تعليل واقعة تغيير الحية لجلدها بربطها بأسطورة أكلها لزهرة معينة"² وهي زهرة جلجامش.

وبذلك تكون الحية هي الراجح الوحيد في نهاية المطاف كما يقول فاضل علي: "لأنها حصلت على النباتات السحرية، وأصبحت تنعم بشباب متجدّد على الدوام، فتزعم عن جلدها كلّ عام"³.

اللوح الثاني عشر

الحدث الدرامي في هذا اللوح يسير ببطء شديد، ولا يقدم الكثير، فجلجامش يعود كسيرًا من رحلته، يتذكر صديقه (إنكيكو) ويكي وحشته، ويكرّس كلّ طاقته وجهده في سبيل خدمة بلده (أوروك) وتختتم الملحمة بذات الجمل التي فتحت بها:

¹ طه باقر: مقدمة في أدب العراق القديم، مرجع سابق، ص 28.

² محمد خليفة محمد: الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي القديم، ص 143.

³ فاضل عبد الواحد علي: سومر أسطورة وملحمة، مرجع سابق، ص 248.

"الحكماء السبعة من أرسى له الأساس.

شار واحد للمدينة، وشار للبيساتين، وآخر للمروج

والبقية أرض بلا زرع أو بناء لمعبد عشتار

ثلاث شارات والأرض غير المزروعة في مدينة أوروك"

فجلجامش يكتشف أنّ خلود الإنسان في عمله الصالح، وفي مآثره الجليلة وفي
حبّه للغير، وليس في الخلود والشباب الذي لا يفنى.

المصادر والمراجع

1. أرسطو طاليس: فن الشعر (تحقيق وترجمة: عبد الرحمن يدوي)، دار الثقافة، بيروت، ط2، 1973م.
2. آمنه يوسف: تقنيات السرد في النظرية والتطبيق، دار الحوار للنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 1997م.
3. جبار عوده العبيدي وصلاح مهدي القصب: مدخل في الدراما وتدرجها التاريخي، دار الفتح، بغداد، 1992م.
4. خزعل الماجدي: إنجيل سومر، الأهلية للنشر، عمان، ط1، 1998م.
5. ستيفاني دالي: أساطير من بلاد ما بين النهرين (ترجمة: نجوى نصر)، دار جامعة أكسفورد للنشر، نيويورك، ط1، 1991م.
6. سعد عبد العزيز: الأسطورة والدراما، المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة، ط1، 1966م.
7. سمير سرحان: مبادئ علم الدراما، منشورات مركز الشارقة للإبداع الفكري الشارقة، ط1، 1990م.
8. صموئيل نوح كريم: الأساطير السومرية (ترجمة: يوسف عبد القادر)، مطبعة المعارف، بغداد، ط1، 1971م.
9. طه باقر: مقدمة في أدب العراق القديم، جامعة بغداد، بغداد، ط1، 1976م.
10. فاضل عبد الواحد علي: سومر أسطورة وملحمة، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، ط1.
11. فراس السّواح: جلعامش ملحمة الرافدين الخالدة، منشورات دار علاء الدين، دمشق، ط1، 1996م.
12. فراس السّواح: لغز عشتار، سومر للدراسات والنشر، قبرص، ط1، 1985م.
13. مارتن أسلن: تشريح الدراما (ترجمة: يوسف ثروت)، مكتبة النهضة، بغداد، ط2، 1984م.

14. محمد أحمد القضاة: التشكيل الروائي عند نجيب محفوظ، المؤسسة العربية، للدراسات بيروت، ط1، 2000م.
15. محمد أحمد: الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي القديم، دار آفاق الأدبية، بغداد، ط1، 1988م.
16. محمد عصمت حمدي: الكاتب العربي والأسطورة، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، القاهرة، 1986م.
17. نبيله ابراهيم: أشكال القهر في الأدب الشعبي، دار نهضة مصر، القاهرة، ط1، 1970م.
18. وليد منير: جدلية اللغة والحدث في الدراما الشعرية العربية الحديثة، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ط1، 1997م.

العلامة محمد بن يوسف السورتي¹

- أبو تحرير الهندي²

﴿4﴾

أعمال العلامة السورتي

أولاً: مؤلفات العلامة السورتي: ألف العلامة السورتي كتباً ورسائل طبعت أربعة منها وهي كما يلي:

1. القواعد العربية (علم الصرف): هذا كتاب فريد في الموضوع باللغة الأردنية. طبع من مطبعة الجامعة الملكية الإسلامية، نيو دلهي في 1342هـ/1924م. والكتاب يحتوي 304 صفحة في القطع الصغير، والآن هو نادر الوجود. عثرت على نسخة منه في مكتبة الجامعة الملكية الإسلامية بنيو دلهي.

ألف العلامة السورتي هذا الكتاب النافع خلال تدريسه في الجامعة الملكية الإسلامية، وهذا جزء أول منه كما صرح به المؤلف في مقدمته. ولكن لم تسنح له الفرصة لتأليف الجزء الثاني. ويشتمل الكتاب على مقدمة وستة فصول، وكل فصل يحتوي على مباحث نافعة وجامعة.

تحدث المؤلف في المقدمة عن أهمية اللغة العربية ودعا إلى إدخال التعديلات في المقررات الدراسية ونظام التعليم في المدارس الإسلامية، وأشار إلى مشكلات الطلاب الهنود في تعلم اللغة العربية. ثم ذكر علم الصرف وغاياته وفوائده وأوضح مبادئ الصرف.

¹ هذه المقالة حلقة متسلسلة لبحث جامعي قام بها الكاتب

² كاتب ومترجم حرّ

في الفصل الأول ذكر المؤلف أقسام الكلمة والأوزان وقواعدها. والفصل الثاني يشتمل على تصريف الأسماء والتعريف والتنكير والتذكير والتأنيث والمفرد والتثنية والجمع وجمع القلة والكثرة وأقسام التصغير وقواعده وأوزانه.

والفصل الثالث يحتوي على مباحث الأفعال وعلامات النفي والنهي وأفعال اللزوم والمتعدي وأقسام الضمائر والمهموز والمضاعف والمثال والأجوف والناقص وأدوات النصب وعوامل الجزم وأحكامها وهمزة الوصل والفصل.

والفصل الرابع يحتوي على الاشتقاق وأنواعه من اسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة وصيغ المبالغة واسم التفضيل واسم الظرف واسم الآلة.

والفصل الخامس يتضمن المجرد والمزيد من الأفعال. وقد فصل الكلام في المصادر تحت الأبواب المختلفة مع تصريفها- وتحدث المؤلف عن خاصية الأفعال وأجاد فيها.

والفصل السادس يتحدث عن الوقف والتقاء الساكنين والإبدال والحذف والقلب وحروف الزيادة وغيرها. هذا الكتاب سفر مفصل في علم الصرف. وناقش فيه المؤلف كل قاعدة بالإسهاب اللازم مع مراعاة نفسية الطلاب الهنود ومشكلاتهم في تعلم اللغة العربية، واختار طريقة سهلة لتعلم القواعد العربية. وكذا قام بترجمة الكلمات العربية إلى اللغة الأردية وبتشكيل الكلمات بغاية الدقة والضبط لكي يتيسر حفظ الكلمات للطلاب. وهكذا التزم المؤلف بإيراد الكلمات والألفاظ الجديدة، وربما الغريبة. وفيه تمارينات تطبيقية وجداول لأوزان جمع القلة والكثرة وتصريف الأفعال. والكتاب فريد في علم الصرف. فقد أسهم العلامة السورتى في تسهيل دراسة اللغة العربية للمواطنين الهنود.

2. كتاب التوحيد (ترجمة أردية): مؤلف هذا الكتاب الشيخ محمد بن عبد الوهاب (1115-1206هـ) كان من الدعاة المصلحين الذين أسعف الله تعالى بهم الأمة الإسلامية في حين أصيبت في دينها وخلقها بأمراض خطيرة من الشرك

والبدع والفسق والفجور. وقد صَنَّف هذا الإمام الهمام كتبًا عديدة، بذل في معظمها جهوده الجبارة في الدعوة إلى التوحيد والرد على الشرك. وهذا الكتاب نال شهرة عالمية. وقد أَلَفه مرتبًا على الأبواب وأقام لكل مسألة من مسائل التوحيد بابًا جمع فيه الآيات القرآنية والأحاديث المرفوعة ثم أثار الصحابة عليهم السلام والتابعين رحمهم الله ثم ذكر المسائل المستنبطة من هذه الدلائل.

ووضع بعد المقدمة ستة وستين بابًا وكل واحد منها يتضمن مسائل عديدة ويكأنه في العقيدة كتاب جامع موجز سهل الفهم والأخذ.

وقد بيّن في الأبواب الأربعة الأولى منها: فضيلة التوحيد والحاجة إليه ورغب وشوق إلى دعوته وحذر وخوف من الشرك، وبعد ذلك يأتي باب لتوضيح التوحيد وتبيينه ثم جعل عشرة أبواب لبيان أقسام التوحيد ثم أورد باين للشفاعة ولواحقها، ثم ذكر خمسة أبواب لبيان قباحة الإطراء ونتائجه ثم أورد باين للرد على التحاكم إلى الطاغوت والإطاعة لغير الله ثم ذكر في سبعة عشر بابًا صفات التوحيد ثم في أربعة أبواب أحكام القدر حيث ردّ على القدرية ثم بيّن في الأبواب السبعة الأخيرة عظمة الله سبحانه وتعالى وكبريائه وعلوّ شأنه ورفعته.

وقد أَلَف العلماء شروحًا لهذا الكتاب كما نقلوه إلى لغات العالم المختلفة وقد اعتنى العلماء الهنود بهذا الكتاب اعتناءً بالغًا وقاموا بترجمته إلى اللغة الأردية. وقد بادر الشيخ عبد الحليم شرر اللكنوي إلى نقل هذا الكتاب إلى اللغة الأردية:

"قام الشيخ عبد الحليم شرر اللكنوي بترجمة هذا الكتاب في سنة 1881م في دلهي وترجمته معقدة بعيدة عن الأسلوب الأردّي في بنية الكلمات والجمل".¹

وقد ترجم العلامة السورتي هذا الكتاب قبل 1932م وطبعه من قرول باغ في دلهي وترجمته تشتمل على 180 صفحة. وكتب له مقدمة نافعة تحتوي على ذكر أحوال

¹ عبد الحليم شرر، شخصيت أور فن، ص 297

الشيخ محمد بن عبد الوهاب ودعوته والإشارة إلى المشكلات التي واجهته في سبيل الدعوة ثم تأييد الله تعالى على يد الإمام محمد بن سعود رحمه الله له ولدعوته.

كما عني المترجم في مقدمته برّد الافتراءات التي وجّهها الأعداء إلى الدعوة وأصحابها وأتباعها. وأخيرًا ذكر ملخصًا لما يحتوي عليه هذا الكتاب. وقد فصلّ السورتى في المقدمة ما جرى بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب وبين الإمام محمد بن سعود من الكلام ومن إكرام الإمام محمد بن سعود إياه وبيعته على دين الله ورسوله وعلى الجهاد في سبيل الله ووعد بالنصر والتأييد للدعوة.

إن الترجمة واضحة سهلة الفهم والأخذ، وقد اهتم السورتى بترابط المضامين وتوافقها واستخدم اللغة الأردية السهلة المعروفة في تلك الأيام. وشرح الألفاظ الصعبة في الهوامش وتكلم عن صحة الأحاديث وضعفها أيضًا. والطبعة الأولى لهذه الترجمة نادرة الوجود فقامت الدار السلفية بمومباي في سنة 1979م بطبعها الجديدة مع تقديم الشيخ مختار أحمد الندوي. ولكن الدار حذفت مقدمة السورتى القيمة وظهرت طبعها السابعة في سنة 2000م.

3. صراط مستقيم شرح بلوغ المرام: لم أر هذا الكتاب ولكني اطلعت على إعلان عنه في كتاب "ولي الله" للعلامة أبو العلاء محمد إسماعيل الكودهروي وكتب له العلامة السورتى مقدمة علمية نافعة سنذكرها في الصفحات الآتية. ذكر العلامة السورتى أن هذا الكتاب أي صراط مستقيم يطبع قريبًا ويتضمن أربعة أجزاء ثم أشار إلى دوافع شرح هذا الكتاب. يقول السورتى:

"إن اللغة الأردية تحرم كتابًا في فن الحديث يشتمل على شرح الأحاديث النبوية وحلّ اللغات وأحوال الرجال وتحقيق المسائل فقمت بشرح هذا الكتاب بعدما ألحّ الأصدقاء علي. و"بلوغ المرام" لابن حجر العسقلاني كتاب جامع في الحديث. وأشار المؤلف إلى صحة الأحاديث وضعفها ولذا اخترت هذا الكتاب للشرح".¹

¹ ولي الله، ص 95

يقول السورتي عن طريقته في الشرح:

"كتبت أولاً الحديث بالرقم ثم ترجمته إلى اللغة الأردية وقمت بحلّ اللغات وبعد ترجمة موجزة للصحابة أشرت إلى تفاصيل تتعلق بالأحاديث وذكرت اختلاف المجتهدين وأقوالهم في مسائل الخلاف مع بيان الحجج والبراهين لكل واحد منهم وتعيين القول الراجح عند كل فريق والتزمت بالإشارة إلى مصادر الآيات والأحاديث"¹.

4. أزهار العرب: هي مجموعة مختارة من الأشعار العربية. قام العلامة السورتي باختيارها في سنة 1340هـ خلال تدريسه في الجامعة المالية الإسلامية كما أشار في مقدمة الكتاب:

"وهذه أبيات اخترتها للمبتدئين من كلام المتقدمين والمتأخرين على حسب اقتراح (الجامعة المالية الإسلامية) راعيت فيها السلامة من الخطأ والخلل والبراءة من اللحن والغلط والصفاء من الكدر والسقط لتكون عوناً على الآداب ووسيلة إلى فهم كلام الأعراب فيرتقوا بها إلى القصائد وينتقوا منها الفوائد"².

قد اختار المؤلف أبياتاً حسب ذوقه الشعري، تدل على حسن ذوقه ومستواه الأدبي الرفيع حيث جمع الأشعار التي تحمل في طياتها دروساً أخلاقية فيها عبر ومواعظ لطلبة الفصول المتوسطة وكان غرضه من تأليف هذه المجموعة خلق الغيرة الإسلامية والذوق الأدبي السليم لدى الطلبة ويقرّ الجميع بأن هذا الكتاب أدى دوراً لا يستهان به في تهذيب ذوق الطالب ورفع مستواه الأدبي والخلقي.

في بداية المجموعة كتب المؤلف مقدمة علمية وجيزة أشار فيها إلى أهمية الأدب ثم تحدّث عن الدوافع التي أدت إلى تأليف هذه المجموعة. يقول السورتي:

¹ المصدر نفسه، ص 95

² أزهار العرب، ص 9

"علم الأدب الذي فاق به العرب واختصوا به دون الأمم سلوكه سبله ووطأوا مسالكه وأسسوا عماده وشيدوا بنيانه وفتقوا لسانه وقوموا ميزانه. من تعلمه سبق، ومن حققه برز. به يعرف إعجاز الكتاب العزيز، ومنه ينشأ التحرير والتميز، وهو روض الأرواح وثمر الألباب وجوهر القريحة ومصباح الذكاء، فيه الحكم واللطائف وفنون المخاطبات والظرائف والقصص والحكايات عبرة وعظة وتاريخ وتذكرة يهذب الأخلاق ويصحح الأعلاق. به يخلد الذكر وينتج الفكر، منه النثر الطيب النشر كالحلل الموشية والديباج الخسرواني ومنه النظم كأنه عقد درّ أو قلادة تبر، يمتزج بالروح امتزاج الريح والشعر له مزية على النثر من حسن السبك والبنية ولطافة الاستنباط وسهولة الحفظ وسرعة التناقل وكثرة الاستشهاد وهو حاكم بغير أداة الحكم، ربما سفك الدماء وغير الأسماء وأبطل الأحكام وبدّل الأقوام وأحيا الأمم وأثار الرمم وفيه قول النبي صلى الله عليه وسلم "إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكماً" وكان عليه الصلاة والسلام يدعو حسناً ويحضه على الشعر ويوضع المنبر فيقوم عليه ينشد وقال لحسان: "إن روح القدس معك ما نافحت عن الله ورسوله". والشعر ديوان العرب به تحفظ لغتها وفيه تجمع وقائعها وعليه تدور رجي آدابها وفيه:

من كل معنى يكاد الميت يفهمه حسناً يعبد القرطاس والقلم
وقال علي بن الرومي:

أرى الشعر يحيي الناس والمجد بالذي تبقيه أرواح له عطرات
وما المجد لولا الشعر إلا معاهد وما الناس إلا أعظم نخرات¹

ونقل هنا عددًا من الأبيات تدل على أنّ المؤلف التزم في اختيار الأبيات أن لا يخلو أي بيت من موعظة دينية وموضع عبرة وأن يستنتج منها الطالب فائدة خلقية دينية وثقافية أو ترشد إلى تعليم خلقي وأدب إسلامي. فقال محمود الوراق (ت 225هـ):

¹ المصدر نفسه، ص 7-8

تعصي الإله وأنت تظهر حبّه
لو كان حبّك صادقاً لأطعته
هذا محال في القياس بديع
إنّ المحبّ لمن يحبّ مطيع¹
وقال الإمام الشافعي:

أخي لن تنال العلم إلا بستة
ذكاء وحرص واجتهاد وبلغة
سأنبئك عن تفصيلها ببيان
وإرشاد أستاذ وطول زمان²
وقال علي بن الجهم:

هي النفس ما حملتها تتحمل
وعاقبة الصبر الجميل جميلة
ولا عار إن زالت عن المرء نعمة
وما المال إلا حسرة إن تركته
وللدهر أيام تجور وتعديل
وأكمل أخلاق الرجال التفضل
ولكنّ عاراً أن يزول التجميل
وغنم إذا قدّمته متعجل³
وقال آخر:

ولا ينفع الفتیان حسن وجوهمهم
فلا تجعل الحسن الدليل على الفتى
إذا كانت الأخلاق غير حسان
فما كل مصقول الحديد يمان⁴
وقال آخر:

لا تحقرن الرأي وهو موافق
فالدّر وهو أجلّ شيء يقتنى
حكم الصواب إذا أتى من ناقص
ما حطّ قيمته هوان الغائص⁵

¹ المصدر نفسه، ص 9

² المصدر نفسه، ص 22

³ المصدر نفسه، ص 37-38

⁴ المصدر نفسه، ص 55

⁵ المصدر نفسه، ص 86

وقال أبو البقاء صالح بن شريف الرندي الأندلسي رحمة الله يذكر الأندلس وغلبة الكفار عليها ويرثي البلاد وأهلها ويستنهض ذوي الهمم لارتجاعها:

لكل شيء إذاماتم نقصان	فلا يغر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول	من سره زمن ساءته أزمان
أين الملوك ذوو التيجان من يمن	وأين منهم أكالييل وتيجان
وأين ما حازه قارون من ذهب	وأين عاد وشداد وقحطان
وأين قرطبة دار العلوم فكم	من عالم قد سما فيها، له شأن
وأين حمص وما تحويه من نزه	ونهرها العذب فياض ومالان
حيث المساجد قد صارت كنائس ما	فمن إلا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة	حتى المنابر ترثي وهي عيدان
يا غافلاً وله في الدهر موعظة	إن كنت في سنة فالدهر يقظان
لمثل هذا يذوب القلب من كمد	إن كان في القلب إسلام وإيمان ¹

وقد يتجلى في اختيار هذه الأبيات ذوقه الأدبي السليم ودراسته البصيرة ومعرفته الواسعة بالأدب العربي.

وهذه المجموعة مع صغرها قد رزقت القبول من الله تعالى لدى العلماء والطلاب وقرّر تدريسها خبراء التعليم في المدارس الإسلامية وهيأة اللغات الفارسية والعربية بإله أباد قد ضمّتها في مقرراتها الدراسية ولا تزال تدرس فيها وهذا الذي دعا عديداً من العلماء إلى شرح هذه المجموعة والتعليق عليها وأقبل الناشرون على طبعتها مرات عديدة. منها:

- 1- أسرار الأدب في حلّ أزهار العرب لمولانا نثار أحمد القاسمي، مكتبة نعيمية، مئونات بنجن (يو- بي) سنة 1994م.

¹ المصدر نفسه، ص 157-162

- 2- أنوار الأدب في شرح أزهار العرب لمولانا محمد حفيظ الرحمان الرمضان فوري، مكتبة نعيمية، مئونات بنجن (يو- بي) سنة الطبع لم تذكر.
- 3- كتاب أزهار العرب صحّحه وشرحه وخرّجه محمد أبو القاسم أبو الخير السلفي، إدارة البحوث الإسلامية بالجامعة السلفية ببنارس، الطبعة الأولى، 1993م.

وقد استفدت من هذا الشرح حيث إنّ الطبقات القديمة كانت قد نفدت وظهرت في السوق طبقات مشوهة محرفة تعسرت الاستفادة منها. وهذا الشرح فريد ونافع جدًا كما تدلّ عليه خصائصه التالية:

- 1- تصحيح متن الكتاب على أساس الطبعة الأولى التي نشرتها الجامعة المليية الإسلامية بدهلي في عام 1340هـ/1921م.
- 2- شرح الكلمات الصعبة للطلاب.
- 3- توضيح إعراب بعض الكلمات.
- 4- تشكيل الكلمات التي قد تتشابه على الطلاب.
- 5- ترجمة موجزة للشعراء وأصحاب النصوص.
- 6- تخريج الأبيات والنصوص وذكر المصادر التي وردت فيها مع الإشارة إلى اختلاف الروايات، ولم يتيسر تخريج جميع المقطوعات بسبب قلة المصادر.
- 7- تسمية القائل في المواضع التي وردت فيها عبارة "قال آخر".
- 8- بيان الراجح فيما اختلف فيه العلماء من نسبة الأبيات حسب المصادر المتوافرة.
- 9- التنبيه على ما بدا من سهو المؤلف حسب المصادر التي بين أيدينا اليوم. هذا، وتراجم الشعراء ملخصة من كتاب الأعلام للزكلي.¹

¹ المصدر نفسه، ص 6

وله مؤلفات أخرى ولكنها لا توجد وقد ورد ذكرها في كتاب نشرته الجامعة السلفية باللغة الأردية من تأليف أحد أساتذتها الشيخ محمد مستقيم السلفي باسم "جماعت أهل حديث كي تصنيفي خدمات" (مؤلفات علماء أهل الحديث)، ومنها:

5. شرح سنن ابن ماجة
6. شرح ديوان حسان بن ثابت
7. مقدمة في الصرف
8. مقرب في النحو
9. الإنصاف فيما جرى في صرف أبي هريرة من الخلاف
10. الزيادات الوافية على الكافية الشافية
11. عالم برزخ
12. أحسن الحديث في إثبات في حجية الحديث
13. المعجم العربي الأردني (أكمل نصفه الأخير الشيخ عبد الرحمان طاهر السورتي (ت 1987م) نجل العلامة السورتي.

وثانيًا: مقالات العلامة السورتي: وكذا كتب العلامة السورتي ثماني مقالات
نفصل عنها كما يلي:

1. السيرة النبوية وآداب تأليفها: نشرت هذه المقالة في مجلة "جامعة" الشهرية الصادرة من الجامعة الملكية الإسلامية (من يوليو 1924م إلى نوفمبر 1924م) وتشتمل المقالة على 48 صفحة في أربع حلقات. وهي ملاحظات أعدّها العلامة السورتي بعد دراسة "سيرة النبي" للعلامة شبلي النعماني و"سيرة النبي" كتاب فريد في موضوعه ومما يتفرد به الكتاب أنه ليس يدور حول سيرة النبي صلى الله عليه وسلم فحسب، بل هو يتناول العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق والعادات بالبحث العلمي الرصين. والكتاب في ستة مجلدات كبار، كتب مجلدتها الأولين العلامة شبلي النعماني، وأما المجلدات الأربعة المتبقية

فكتمها العلامة سيد سليمان الندوي بعون من أعضاء ورئيس دار المصنفين بأعظم كره.

هذه المقالة نقد علمي شامل لـ "سيرة النبي" (الأول والثاني). أشار العلامة السورتى إلى أخطاء المؤلف التي وردت في رجالات الحديث والفقه والأصول والنقد وعلم الحديث وأصوله واللغة العربية وأشعارها وإيراد القصص في ضوء الكتاب والسنة النبوية الموثوق بها. وكذلك تكلم عن موقف المؤلف في الرواية والدراية وفي بداية المقالة ذكر آداب المؤلفين للسيرة النبوية فيقول:

1- أن يكون المؤلف ماهراً في القرآن المجيد

2- وله اطلاع واسع على الحديث ورجاله والسير

3- وله تذوق في علم النسب وعلوم العرب الأخرى¹

ثم أشار إلى الأخطاء التي وردت في الكتاب مثلاً كتب العلامة شبلي النعماني: أن أم حمزة رضي الله عنه هالة رضعت النبي صلى الله عليه وسلم وكان جبير ابن مطعم من أسارى غزوة بدر وأن أبا سفيان حضر في غزوة بدر وكذلك أخطاء أخرى، فرد عليه السورتى وقال إن هالة لم ترضع النبي صلى الله عليه وسلم بل رضعته ثوية جارية أبي لهب وما كان جبير ابن مطعم من أسارى غزوة بدر بل جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليناقش معه في أمور الأسارى وتسريحهم وكذلك أن أبا سفيان لم يشارك في غزوة بدر بل هو كان في الشام مع القافلة التجارية. وذكر العلامة شبلي النعماني في مكان "أسود بن عبد المطلب" فأشار السورتى إلى الصحة وقال هو "أسود بن مطلب".

ونقد العلامة السورتى للأحاديث وأسانيده ورجاله يدل على نبوغه في علوم الحديث. قام العلامة شبلي في كتابه برد المزاعم والأباطيل التي لفقها أعداء

¹ مجلة "جامعة"، علي كره، يوليو، وأغسطس 1924م، ص 312

الإسلام فأنكر بعض الأحاديث الصحيحة في الدفاع عن الإسلام والسيرة النبوية مع أنه يتحفظ في الروايات التي يوردها، فلا يأخذها حتى ينقدها ويقيسها ويزنها ويستخدم في ذلك جميع المبادئ التي تستخدمها رجالات الحديث والفقه والأصول والنقد ويعرض الروايات عرضاً يضرب على جذور جميع الاعتراضات التي يصحبها الأعداء على نواحي السيرة المحمدية صلى الله عليه وسلم ولكن العلامة شبلي وهم في بعض الأماكن فأشار إليها السورتي وفصل الكلام في أسانيد الأحاديث ورجالها ورواتها وجاء ببحث علي جيد.

وجملة القول أنّ المقالة جامعة نافعة وتناول الناقد جميع القضايا والمباحث بدقة وكل رجل يطالع المقالة ينوه بموقفه المحايد من القضايا والأفكار والمواقف والرجال ويعترف بأنه حقاً باحث مثالي وعالم كبير نظرته عميقة واسعة وكتابته ممتعة رائعة ومواقفه محايدة عادلة ولكن الناقد أطنب في الكلام وكثر في إيراد الوقائع وربما عقد المباحث بكثرة الدلائل والبراهين. والمقالة لا تخلو من أخطاء اللغة الأردنية التافهة والتراكيب غير المألوفة.

2. الأمالي لأبي علي القالي واللائي: انتقد العلامة السورتي في هذه المقالة "سمط اللائي" للعلامة عبد العزيز الميمني والمقالة نشرت في مجلة "معارف" الشهرية (أبريل 1938م إلى يونيو 1938م) الصادرة من دار المصنفين بأعظم كره وتتضمن 36 صفحة في ثلاث حلقات.

تكلم الكاتب في بداية المقالة عن العلوم الإسلامية وتدوينها وأشار إلى دور المسلمين في نشر العلوم الإسلامية ومساهماتهم في تطوير العلوم الأخرى واعتنائهم بالكتابات في الفنون المختلفة والعلوم الشتى ثم ذكر انحطاط المسلمين في مجالات العلم والأدب والثقافة ويقول:

تلك آثارنا تدلّ علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

تحدث الكاتب عن الإملاء وطريقته بالإيجاز وأشار إلى أربعة كتب في الأدب العربي وقال إن طالب الأدب العربي يجب عليه أن يطالع هذه الكتب بدقة وإمعان، وهي كما يلي:

1. البيان والتبيين للجاحظ 2. الكامل للمبرد

3. الأمالي لأبي علي القالي 4. أدب الكاتب لابن قتيبة

ثم ذكر أبا علي إسماعيل بن القاسم القالي (288-356هـ) وكتابه الأمالي وشارحه أبو عبيد البكري، فالقالي والبكري كلاهما من نوابع الزمان في اللغة والأدب والنقد وقد شرح الأول النصوص والأشعار شرحاً حسب ذوقه ومنهجه وجاء الثاني فأضاف إليه ما رأى من الفائدة باسم "اللائي". فكلاهما يمثلان الفكر العربي خير تمثيل فليس من الهين أن يقوم محقق وباحث بتصحيح الأغلاط التي وقعت بنقل المخطوطة في الأدوار المختلفة من الخلط والتصحيح، فقام العلامة عبد العزيز الميمني بتحقيقه وتصحيحه وتخريج طبعته وطبعة النسخة المحققة من مصر.

أثنى السورتي في البداية على العلامة الميمني وجهوده في اللغة العربية وأدائها ونبوغه وتفوقه في قراءة المخطوطات ثم أشار إلى أخطاء المحقق التي وردت في الكتاب.

عقد السورتي عنواناً خاصاً "أخطاء السمط الإجمالية" ويقول:

1- تطويل الهوامش من ذكر المصادر غير الضرورية.

2- ترديد الشارح وتغليظه بدون التحقيق والنظر.

3- نسب المحقق (الميمني) إلى العلماء والمتقدمين الأقوال التي لم تصدر عنهم.

4- خيانة علمية.

5- عدم الالتفات في الإشارة إلى جميع إشكالات أبي علي القالي وأغلاطه.

6- التطويل في إشارة المصادر للأبيات الشهيرة والتافهة ولكن السكوت في محل الكلام.

7- الإعراض عن الأخطاء الفاحشة والرد على بيان الشارح.

8- عدم الالتفات إلى تخريج الروايات والأقوال.

9- الإهمال عن حلّ الألفاظ الصعبة.

10- وعدم الالتفات إلى أمهات الكتب في اللغة والأدب كما ترك كتب ابن السكيت وجمهرة اللغة لابن دريد¹.

ثم فصل المؤلف الأخطاء ولكن أسلوبه لا يليق بالعلماء. إنه كتب في أثناء المقالة عن أحوال الميمني الشخصية وأسلوب المقالة يدل على أن الكاتب له المنافرة مع الميمني وكذلك لما رد الميمني على هذه المقالة في مجلة "برهان" الشهيرة (ديسمبر 1938م إلى أبريل 1939م) الصادرة من ندوة المصنفين بدليي، اختار ذلك الأسلوب وهزل في كلامه.

إن السورتي قد بالغ في الإشارة إلى الأخطاء الواردة في "سمط اللآلي" ولكن المقالة تدل على تضلعه في اللغة العربية وأدائها ونبوغه ومهارته في علم الأنساب وعلم الرجال وشغفه بالدراسة والتحقيق.

3. تذكرة السامع المتكلم: هذه المقالة استعراض لـ"تذكرة السامع والمتكلم" (سنة الطبع 1353هـ) من مطبوعات دائرة المعارف العثمانية (حيدرآباد) والمقالة تشتمل على 16 صفحة ونشرت في مجلة "معارف" الشهيرة (ديسمبر 1939م)

تحدث الكاتب عن أهمية التعليم ودور المسلمين في نشره وقال إن الإسلام أولى اهتمامه البالغ بشأن العلم فأشاد بسموه وجعله عنصرًا أساسيًا من عناصر نهضته الفكرية وأن الإسلام يؤمن بالعلم ويؤمن بمقدرته الخلاقة على تطوير المجتمع الإنساني ونموه وازدهاره وكذلك اهتم المسلمون بإنشاء المدارس والمراكز

¹ مجلة "معارف" الشهيرة، أعظم كره، أبريل 1938م، ص 278-279

التعليمية لأن لها أهمية بالغة في تقدم الإنسان وتطوير حياته، وهي من أهم العوامل لإنقاذ الناس من شر الجهل والجمود وأشار إلى عدد من المدارس التي أنشئت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم. ذكر العلامة السورتي مؤلفات العلماء القيمة التي تبحث عن أمور التعليم وهي كما يلي:

1. جامع بيان فضل العلم وأهله لحافظ المغرب ابن عبد البر الأندلسي (ت462هـ)

2. فاتح العلوم للإمام الغزالي (ت505هـ)

3. تعليم المتعلم لبرهان الدين الزرنوجي

4. إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد لابن ساعد الأكفاني (ت749هـ)

5. روضة العلماء لزندويسي

6. اللؤلؤ التنظيم للشيخ زكريا الأنصاري

7. المعيد في أدب المفيد والمستفيد "مختصر كتاب الدر النضيد" للشيخ عبد الباسط ابن موسى العلموي (ت981هـ)

ثم تكلم المؤلف عن "تذكرة السامع والمتكلم" ويقول إن الكتاب يشتمل على خمسة أبواب: الباب الأول يشتمل على فضائل العلم والعلماء، والباب الثاني يتضمن آداب العلوم، والباب الثالث يحتوي على آداب المتعلم، وفي الباب الرابع ذكر المؤلف الآداب للحفاظ على الكتب، والباب الخامس يبحث في المدارس وآداب الإقامة فيها.

ثم أورد الكاتب الكلام في مباحث الكتاب التي تتعلق بفن التربية والتعليم وحث على المذاكرة بعد ذكر أهميتها. وكذلك أثنى على مجالسة العلماء والحكماء ثم يعرض هذه الأبيات التالية:

وما بقيت من اللذات إلا محادثة الرجال ذوي العقول
وقد كنا نعدهم قليلاً فقد صاروا أقل من القليل
والمقالة تنتهي بذكر تخلف المسلمين في مجال العلم والأدب والثقافة والتأسف
على أوضاع المدارس المتدهورة وانحطاط المسلمين في العلوم الجديدة.

تعرض المقالة صورة جلية عن فن التعليم وأسلوب التربية والتعليم، وأسلوب
الكاتب علمي رصين واللغة ممتعة والمقالة تنبئ عن معلوماته الوافرة وإطلاعه
الواسع على الكتب العربية التي ألفها علماء الأمة في العصور السالفة ونشروها في
البلدان المختلفة وهذه المؤلفات تساعد الأمة في التمسك بالدين والأخلاق والعلم
وترشد الشباب إلى معرفة مسؤولياتهم وأداء واجباتهم نحو الأمة الإسلامية
والمجتمع البشري وتزودهم بالثقافة الواسعة والوعي الإسلامي حتى يقوموا
بدورهم المنشود.

4. دائرة المعارف النظامية: أنشئت دائرة المعارف النظامية بحيدرآباد في
1888م بإيحاء ومساعدة عماد الملك سيد البلكرامي والملا عبد القيوم
وفضيلة جنك الأستاذ أنوار الله خان أستاذ مير عثمان علي خان نظام
حيدرآباد السابق. وأن الدائرة تهدف إلى التنقيب عن المخطوطات العربية
النادرة وجمعها وتحقيقها والحفاظ عليها، وإعادة تنسيقها ونشرها، سواء
تناولت هذه المخطوطات الأدب العربي أو التاريخ أو الفلسفة أو الموضوعات
الدينية أو العلمية أو الفنون أو غير ذلك من الموضوعات.

وتكلم السورتي في مقالته عن الدائرة وخدماتها الجليلة وأثنى على القائمين بها كما
أشار إلى أخطاء المطبوعات ثم ذكر مطبوعات الدائرة وقسمها في ثلاثة أقسام:
المرتبة العليا والمرتبة المتوسطة والمرتبة البسيطة وجاء بذكر الكتب من جميع
المراتب وفي النهاية عرض المقترحات لتطوير الدائرة وإزدهارها وهي:

"وعلى الدائرة أن تدعو أهل العلم في جلساتها وتستشيرهم في اختيار المكتبات والمخطوطات للطباعة والنشر وتحف مطبوعاتها إلى المدارس الإسلامية والكتب العامة وترسل إلى الجرائد العلمية للاستعراض وتلفت إلى وضع قائمة الكتب المطبوعة وتراعي في الطباعة والتقطيع نفسية العصر الراقي وتعين الإخصائيين في العلم والموضوعات فيقوموا بدراستها وتنقيحها وإصلاح ما فيها من الأغلاط وتقويم ما استصعب فيها من الألفاظ والكلمات وتتبادل مطبوعاتها من مطبوعات مصر وأوروبا وتقوم بطبع الكتب العلمية الجديدة بعدما حصلت عليها من القيمة".¹

ونشرت هذه المقالة في مجلة "جامعة" الشهرية (يناير 1926م) وتعطي صورة واضحة عن اطلاع السورتي على المخطوطات النادرة والكتب العلمية في العلوم الإسلامية واللغة العربية وآدابها.

5. دائرة المعارف النظامية ونشر الكتب القديمة: نشرت هذه المقالة في مجلة "معارف" الشهرية (يناير وفبراير 1932م) وتشتمل على حلقتين والحلقة الأولى تفصيل للمقالة المذكورة التي نشرت في مجلة "جامعة" (يناير 1926م) وفي الحلقة الثانية تكلم عن طريقة اختيار الكتب للطباعة وأشار إلى الكتب العلمية والمخطوطات والنوادر التي توجد في مكتبات الهند وخارجها ثم قسم العلوم الإسلامية وهي كما يلي:

1- علوم القرآن

2- الحديث ومتعلقاته

3- الفقه والأصول والجدل

4- الكلام ومتعلقاته

5- الرجال والتاريخ

¹ مجلة "جامعة"، علي كره، يناير 1926م، ص 507

6- اللغة والآداب

7- علوم الأوائل

ثم قسم علوم القرآن إلى أقسام مختلفة:

1- نظم القرآن وإعجازه

2- أحكام القرآن

3- لغات القرآن وإعرابه

4- تفسير القرآن

وقسم كتب الحديث ومتعلقاته كما يلي:

1- المسانيد والمعاجم والسنن والمجاميع

2- علل الحديث

3- شروح الحديث وأطرافه

4- علوم الحديث أو مصطلح الحديث

ثم ذكر عددًا من الكتب في الحديث.

هذه المقالة تحتوي على معلومات موثوق بها ونافعة عن المخطوطات والنوادر والكتب العلمية في مختلف العلوم وتشير إلى شغل الكاتب بالمخطوطات والكتب وإطلاعه الواسع على التراث الإسلامي.

6. مقدمة لكتاب "ولي الله": هذه مقدمة كتبها (في سنة 1349هـ) العلامة السورتي لكتاب "ولي الله" لمولانا أبو العلاء محمد إسماعيل الكودهروي، والمقدمة تتضمن 28 صفحة وتبحث في حياة الشاه ولي الله الدهلوي ومساهماته الجليلة في نشر دعوة الكتاب والسنة والقضاء على البدع وأمور الشرك. تكلم الكاتب بعد تمهيد طويل عن التضحيات الجسيمة التي قدّمها الشاه الدهلوي في سبيل حركة السنة وتجديد الدين. والعناوين تشير إلى أهمية المقدمة:

خطة الشاه ولي الله وخدماته في ترويج القرآن الكريم والحديث النبوي، والشاه ولي الله والتقليد والتصوف، والمقررات الدراسية والشاه ولي الله، وتلاميذ الشاه ولي الله، والمدرستان الفكريتان للشاه ولي الله، وهل نجح الشاه ولي الله في دعوته؟

أشار الكاتب إلى كل ناحية من نواحي حياة الشاه بإيجاز وتحدث عن مؤلفاته القيمة التي لعبت دورًا بارزًا في إصلاح الجمود الفقهي وإزالة العراقيل وإبعاد الحواجز التي قامت في سبيل الفكر والنظر بسبب الجمود والاستكانة وتوفير الحرية الفكرية والنظرية على ميزان الكتاب والسنة وأئمة السلف الصالح رحمهم الله تعالى.

ظهرت دعوة الشاه ولي الله الدهلوي في القرن الثاني عشر الهجري، حينما كانت الدولة المسلمة الهندية تلفظ أنفاسها الأخيرة، وكاد لواؤها ينخفض رغم أنه رُفِر في فضاء الهند منذ أن غزاها الإسلام في أواخر القرن الأول، وتسربت البدع والأمور الشركية إلى صفوف المسلمين وراج التصوف المفضي إلى الزندقة والإلحاد واران الجمود الفقهي والتعصب المذهبي على عقول الفقهاء الذين شغلهم التدقيقات الدقيقة والمناقشات الكلامية ثم أنعم الله على الهند بوجود الشاه ولي الله الذي رتب منهاجًا جديدًا للدعوة والإصلاح وكان هذا المنهاج هو الرجوع إلى الاعتصام بالكتاب والسنة في العقيدة والعمل والتفكير، واختيار طريق الفقهاء المحدثين في المسائل الفقهية، وكانت ترمي دعوته إلى إصلاح التصوف والقضاء على البدع والخرافات والجمود الفقهي وتقريب الحنفية الجافة والظاهرية الخشنة إلى منهج المحدثين، حتى يسهل الوصول إلى الصراط المستقيم.

وكان يهدف الشاه ولي الله إلى أن يوفق بين المذاهب الأربعة ومذهب الفقهاء المحدثين ويؤسس مدرسة فقهية لا تكون فيها ظاهرية الحافظ ابن حزم التي تشين النصوص وتبعدها عن الفصاحة والبلاغة اللتين عهدناهما لدى النبي ﷺ وصحابته ولا الاهتمام البالغ بالقياس والرأي بحيث يتحكم في النصوص تدقيق العلماء وتفرعهم ولا يبقى لها معنى واضح كما نرى لدى الفقهاء المتأخرين الذين أنشأوا قصرًا جديدًا

للمدين بالفروض والتخييل حيث عجز المتقدمون. وقد وقف الشاه في مؤلفاته "حجة الله البالغة" و"البلاغ المبين" و"المصفى" و"المسوى" و"الإنصاف" و"عقد الجيد" و"تحفة المؤحدين" من الجمود الفقهي والبدع والعادات الشريكية موقفاً حكيماً ووضّح الحقائق توضيحاً كبيراً وانتقد انتقاداً رزيناً وكان يتأثر بالتصوف ولكن كان يتنفر من بدعته وتقاليده ومع تمسكه بالمذهب الحنفي كان يكره الجمود الفقهي والعصبية وقال: ليس هذا النظام الفقهي والتقليد سوى جهود فردية وليس لها أهمية أساسية فالبحت عن وجوبهما وفرضيتهما بحث لا طائل فيه ولا معنى وأنه يرى في التقليد انسداداً للذهن وعائقاً للفكر.

ذكر الكاتب من تلاميذ الشاه ولي الله: (1) المولوي محمد معين بن محمد أمين صاحب "دراسات اللبيب" (2) العلامة مرتضى البلكرامي والزبيدي شارح القاموس (3) المولوي محمد عاشق (4) الشاه عبد العزيز (5) الشاه رفيع الدين (6) الشاه عبد القادر.

ثم تكلم عن أهل ديوبند وأهل الحديث وقال: هاتان المدرستان تدعيان انضمامهما إلى الشاه ولكنهما أعرضتا عن مسلك الشاه وتعيشان في عالم ساد فيه الجمود وتحجرت العقول.

كتب العلامة السورتى ولا شك أن دعوة الشاه قد اكتسبت قدراً كافياً من النجاح وقد نفع الله بدروسه ومؤلفاته خلقاً كثيراً نشطوا بعده لنشر أفكاره وبثّ الروح الإسلامي والعلمي والرجوع إلى دين السلف الصالح ولكن دعوته لم تنل مثل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب من النجاح والقبول الذي كان يعاصر الشاه الدهلوي وقام بإحياء السنة والقضاء على البدعة في الحجاز وله سببان: الأول: اتخذ الشاه الدهلوي موقف الكناية والإخفاء بدلاً من التصريح والإعلان والثاني: إن الشاه لم يجر من عالم النظريات والتصورات إلى ميدان العمل في عديد من المسائل وهي كانت عبقرية الشاه محمد إسماعيل وشهادته والذي قد حول الحركة بتمامها من التصور إلى العمل وحلّ التصريح مكان التعريض والإشارة.

7. نظرة على رسالة "فلسفة عزاء": كتب العلامة السورتي هذه المقالة في الرد على رسالة "فلسفة عزاء" التي ألفها الملا محمد هارون وقد ذكر فيها مشروعية العزاء وفضيلتها وحث المسلمين في الاحتفال بالندب والنياحة على مأساة كربلا اليوم العاشر من شهر محرم الحرام وأشار إلى فوائده الروحية والدينية وأثاره الإيجابية في المجتمع الإسلامي وقد استدلل بالأحاديث الموضوعية والقصص فرد العلامة السورتي عليها ردًا بليغًا وأزاح اللثام عن أباطيل الملا وهفواته بالأدلة القاطعة والحجج الدامغة من القرآن والسنة وقال: هذه بدعة ابتدعتها معز الدولة الديلمي الشيعي في العقد السادس من القرن الرابع الهجري الذي أجبر النساء على الخروج من بيوتهن وعلى النياحة على رؤوس الأشهاد اليوم العاشر من شهر محرم الحرام ومن هنا أخذ الشيعة يروجونها ويهتمون بها عبر العصور المتعاقبة ولم يعهد التاريخ من قبل ذلك في أي عقد من الزمان منذ أن وقعت المأساة الكبرى.

نشرت هذه المقالة في مجلة "النجم" الشهرية (يونيو 1912م) الصادرة من لكتناؤ. تكلم الكاتب عن جميع أدلة الملا ثم قام بردها وأشار إلى تصحيحه وتغليظه في شرح الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة وأشار إلى الأحاديث الموضوعية وتكلم عن رجالها وإسنادها بالتفصيل ودلّ على أخطاء الملا.

المقالة تحتوي على مباحث علمية نافعة وما ذكر الكاتب شيئًا إلا أتى بالدلائل من القرآن والأحاديث الصحيحة والمصادر الأصلية من العلوم الإسلامية والأدب العربي وكذلك رد موقف الملا في ضوء كتبه الشائعة في الأوساط العلمية وأشار إلى تناقضاته في إثبات مشروعية العزاء وفضيلته. والمقالة تشير إلى سعة اطلاع العلامة السورتي في العلوم الإسلامية وتضلعه في اللغة العربية ومعرفته الدقيقة للكتب التي ألّفت في تاريخ المذاهب الإسلامية وكذلك معلوماته في علوم الحديث ورجالها وأسانيدھا ومع أن المقالة كتبها في حداثة سنه في مجال العلم والأدب ولكن جاء بمباحث علمية تدل على نضوجه الفكري ومهارته الكاملة.

8. الرد على من طعن في البخاري وكتابه "الصحيح": كتب العلامة السورت بهذه المقالة في الدفاع عن الإمام البخاري وكتابه الشهير "الجامع الصحيح" وقام فيها برد رسالة "عقل وتهذيب أهل حديث" للملا مظهر الإسلام الذي طعن فيها على الإمام البخاري وصحيحه واتهمه بالسرق والخيانة في تأليف البخاري وذكر أن الإمام البخاري حصل على كتاب علي المدني ثم نقله وأعد هذا الكتاب.

نشرت هذه المقالة في مجلة "النجم" (28 ذي قعدة 1329هـ) الصادرة من لکناؤ ورد على الملا وموقفه الشنيع وفكره الخاطئ حول الإمام البخاري وكتابه الشهير. ذكر السورتي أولاً الواقعة التي ذكرها الملا في رسالته واستدل بها ثم أشار إلى حقيقة القصة وراويها عند أئمة الحديث وعلومه في نفس الكتاب وهو تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني. وهو يقول:

"قال مسلمة وألف علي بن المدني كتاب العلل وكان ضئيلاً به فغاب يوماً في بعض ضياعه، فجاء البخاري إلى بعض بنيه وراغبه بالمال على أن يرى الكتاب يوماً واحداً فأعطاه له. فدفعه إلى النساخ فكتبوه له ما ورده إليه. فلما حضر علي تكلم بشيء فأجابه البخاري بنص كلامه، مراراً، ففهم القضية واغتم لذلك فلم يزل مغموماً حتى مات بعد يسير واستغنى البخاري عنه بذلك الكتاب، وخرج إلى خراسان ووضع كتابه الصحيح فعظم شأنه وعلا ذكره وهو أول من وضع في الإسلام كتاباً صحيحاً فصار الناس له تبعاً بعد ذلك".

وهي القصة التي استدل بها الملا وجماعته ولكنهم صرفوا النظر عن كلام ابن حجر في نفس الكتاب وهو يقول:

"قلت إنما أوردت كلام مسلمة هذا لأبين فساده فمن ذلك إطلاقه بأن البخاري كان يقول بخلق القرآن وهو شيء لم يسبقه إليه أحد وقد قدّمنا ما يدل على بطلان ذلك وأما القصة التي حكاها مما يتعلق بالعلل لابن المدني فإنها غنية عن الرد لظهور فساده وحسبك أنها بلا إسناد وأن البخاري لما مات علي كان مقيماً

ببلاده وأن العلل لابن المديني قد سمعها غير واحد غير البخاري، فلو كان ضئيلاً بها لم يخرجها، إلى غير ذلك من وجوه البطلان لهذه الأخلوقة والله الموفق".

ثم تكلم السورتي عن أخطاء الملا التي وردت في نقل هذه القصة إلى اللغة الأردنية. ذكر الكاتب حوالي 23 خطأ للملا وهي تتعلق باللغة وعلم الرجال والأنساب وأسانيد الحديث وصحته وضعفه. وهذه المقالة رد بليغ في الدفاع عن السنة ولها مكانة عظيمة في الأوساط العلمية لأنها مبنية على الدلائل القاطعة من المصادر الأصلية من كتب الرجال والأنساب وعلوم الحديث.

9. الرحلة إلى الحجاز: رحل العلامة السورتي في عام 1936م إلى الحجاز لأداء فريضته الحج وبعد رجوعه إلى الهند كتب مقالة عن الرحلة التي نشرت في مجلة "جامعة" الشهرية (يناير وفبراير 1927م)

ذكر الكاتب في هذه المقالة تجارب السفر القاسية والسارة وفصل الكلام في الحج ومناسكه وأشار إلى بعض الأعمال الشريكة والبدعية التي كانت رائجة بين المسلمين في ذلك الزمن وأثنى على المملكة في توفير التسهيلات لضيوف الرحمن. والتقى العلامة السورتي في هذه الرحلة بالعلماء الكبار منهم الشيخ عبد العزيز عتيقي والشيخ محمد نصيف والآخر أتحف العلامة بكتاب العلل لابن أبي حاتم وتلقى بعض أبناء العرب من السورتي دروساً في النحو والصرف واللغة وقرأوا عليه "بلوغ المرام" لابن حجر العسقلاني وأثنوا على تضلعه في اللغة العربية وآدابها وعلوم الحديث وعلومه. المقالة ممتعة ونافعة جداً والأسلوب يتصف بالدعابة والفكاهة.

وثالثاً: البحوث العلمية للعلامة السورتي: وكان من أهم أعمال السورتي ورغباته جمع المخطوطات والمصادر القديمة من الحديث والأدب واللغة وشرحها والتعليق عليها والتحشية عليها، وكان العلامة ينقب عن المكتبات المنتشرة في أنحاء الهند وخاصة كان كثير التردد على مكتبات تونك وحيدرآباد ورامفور وبتنه ويستفيد منها ويرى فيها من النوادر والنفائس ويقرأها بشوق ولهفة ويكتب لها

تعليقات وهوامش. فقد كانت طريقة شاقة متعبة ولكنه كان أقوى وأصمد من هذه المشكلات فقد كان رزق همة عالية ونفساً متحركة ورغبة ملحة للعلم والثقافة.

قام العلامة بتصحيح المخطوطات العديدة وتحقيقها وترتيبها ولكن لم يطبع منها إلا اثنان والبواقي نادرة الوجود أو تلاشت. وجدير بالإشارة أولاً إلى الأعمال المفقودة التي ذكرها السورتي في مقالته التي نشرت في مجلة "معارف" الشهرية (يناير وفبراير 1932م) وقد جرى ذكرها في الفصل الأخير.

يقول السورتي: "أردت قبل مدة أن أقوم بطبع "طبقات الحنابلة" واخترت له كتباً تالية:

- 1- مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي قد تم طبعه من مصر
 - 2- طبقات أبي يعلى ابن الفراء وهي معروفة بـ "طبقات أصحاب الإمام أحمد"
 - 3- طبقات ابن رجب الحنبلي وهي ذيل أبي يعلى
 - 4- ذيل ابن رجب السحب الوابلة وعثرت على نسخة ابن رجب وحاولت لطبعها وقد جاء ذكرها بحضور مولانا أبي الكلام آزاد ورضي بطبعها بشوق ولهفة ففوضت إليه المجلد الأول بعد التصحيح والتحشية وبعد مدة طبع منها عدة صفحات ثم تلاشت المطبوعة والمخطوطة عند مولانا آزاد".¹
- "وكانت نسخة أبنية الأفعال لابن القطاع القديمة موجودة في مكتبة رامفور وبعناية حكيم أجمل خان حصلت الجامعة الملكية الإسلامية على صورتها الشمسية ولكن أوضاع الجامعة الملكية لم تسمح بطبعها. وكانت النسخة القديمة مليئة بالأغلاط وعدم الترتيب وكانت خلافات كثيرة فيها حول تذييل المؤلف وعلامة الأصل لابن القوطبة وقد قمت بترتيبها بعد مقابلة النسخة المطبوعة في أوروبا من حذر وجهد وقد أكملت المجلدين الأولين وأقوم بترتيب المجلد الثالث وتهذيبه وأسميتها "تهذيب أبنية الأفعال".²

¹ مجلة "معارف" الشهرية، أعظم كره، يناير 1932م، ص 121

² المصدر نفسه، ص 122

"وعزمت على ترتيب فهرس المسند للإمام أحمد في سبعة حلقات وقد فزت بترتيب القسمين والطريقة التي اخترتها للبواقي كانت طويلة شاقة فأخيراً أنهيتها في المجلدات الخمسة واطلعت على أنها تطبع في مصر مع الفهارس والتبويب".¹

"في المجاميع نسخة الجمع بين الصحيحين للحافظ الحميدي الأندلسي جديرة بالطباعة والنشر ولو انضم إليها المؤطا فتكون متناً متيناً كاملاً وقد أعدت نسخة في أربعة مجلدات إلى حد ما وأضفت في النهاية فهرساً كاملاً لمتون المؤطا من كتاب الملخص لأبي الحسن القايسي الأندلسي وكتاب التقصى للحافظ ابن عبد البر".²

1. **جمهرة اللغة:** أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد (223-321هـ) ولد بالبصرة ونشأ بها وأخذ العلم عن علمائها ونبغ في اللغة والأدب وقام في ذلك مقام الخليل بن أحمد وبرع في الشعر، وقد قدم ابن دريد للمكتبة العربية مؤلفات حسنة في اللغة والأدب ومنها "جمهرة اللغة" وألفها للشاه ابن ميكال وولده وهما يومئذ على عمالة فارس وقد استفاد ابن دريد في تأليف "الجمهرة" من الخليل وكتابه العين. وال خليل وضع أساساً متيناً للتأليف المعجمي العربي وخط نهجاً لا يمكن أن يغفله من يتصدى بعده لوضع معجم وأشار الكتاب إلى المواطن التي اتبع فيها ابن دريد الخليل والمواطن التي فارقه فيها في التبويب والمادة والشرح والأبواب الرئيسية التي يتألف منها الكتاب هي كالتالي:

(أ) الثنائي الصحيح وهو "لا يكون حرف البتة إلا والثاني ثقل، حتى يصير ثلاثة أحرف، اللفظ الثنائي والمعنى ثلاثي وإنما سمي للفظه وصورته فإذا صرت إلى المعنى والحقيقة كان الحرف الأول أحد الحروف المعجمة والثاني مثلين وأحدهما مدغمًا في الآخر نحو بَتَّ يَبْتُ بَتًّا".

¹ المصدر نفسه، ص 127

² المصدر نفسه، ص 129

(ب) الثنائي الملحق ببناء الرباعي المكرر نحو بجيج وبجبح وأفرد بعده ابن دريد باباً صغيراً للرباعي المكرر المهموز نحو بأبأ و تأتأ.

(ج) الثنائي المعتل وما تشعب منه نحو توى وأتى ومعه ذكر ابن دريد وكان منتهياً بالهمزة نحو بوا ووفأ.

(د) الثلاثي الصحيح وما تشعب منه وهو يشغل ما يقرب من ثلثي المعجم.

(هـ) الثلاثي يجتمع فيه فرمان مثالان في موضع الفاء والعين أو العين واللام أو الفاء واللام نحو بلل ولبب.

(و) الثلاثي الذي عين الفعل منه أحد حروف اللين نحو باب وبيب وسوس ومنه ما هو مهموز أيضاً نحو خبأ وأبد.

(ز) باب النواذر في الهمزة وألحق به باب اللفيف في الهمزة والمقصود في الهمزة.

(ح) الرباعي الصحيح

(ط) الرباعي المعتل وذكر تحته أشياء غير معتلة من الرباعي كالرباعي الذي حرفان مثالان نحو دردق وكركم والثلاثي المضعف الآخر نحو عكب وخذب.

(ي) الخماسي وما لحق به من الحروف الزوائد.

(ك) أبواب لغوية متفرقة منها ألفاظ يجمعها وزن ما وألفاظ يجمعها موضوع ما وألفاظ تمثل ظاهرة لغوية ما كالاتباع والاستعارة.

يقول العلامة السورتى: إن المصنف العلام اختار نهجاً مخصوصاً في تصنيفه هذا الذي يخالف الطرق الرائجة في كتب اللغة في العصر الذي بعده وهو أنه شرع بمادة واحدة وكتب كل المواد التي تحصل من تلك الأحرف بتقليبها مرة أو مراراً مثاله أنه كتب مثلاً (ف ل ي) فكتب لفظ الفيل والليف في تلك المادة أو أورد مادة (ب ض ر) فكتب لفظ بضر وضرب وبرض وربض في تلك المادة ولكنه رتبته على حروف الهجاء مثلاً إذا أراد شخص لفظ برد فيجد في بدر لأن الدال قبل الراء وعلى هذا القياس".¹

¹ مقدمة الجهمرة (تحقيق: العلامة السورتى)، 1/122

لما قامت دائرة المعارف حيدرآباد بطبع هذا الكتاب ساعدها عديد من العلماء في التحقيق والتصحيح كما يقول السيد زين العابدين الموسوي المصحح الأول للمطبعة: "... وأرباب مجلس الدائرة لما أرادوا طبعه وإشاعته سعوا سعيًا بليغًا في تحصيله إلى مدة مديدة فحصلوا منه ثلاث نسخات متشقات وفوضوها إلى المصحح الأول وهو مولانا الشيخ محمد السورتي سلمه الله فاشتغل الشيخ الموصوف بتصحيحه وتنقيحه ومع ذلك كان بها نقص وتحريف في بعض مقاماته فبعد فراغه عن التصحيح اطلع أرباب المجلس على ثلاث نسخ منه في أوروبا ففوضوه إلى المصحح الثاني وهو العالم المستشرق مستر كرنكو الألماني للمقابلة بتلك النسخ وللتصحيح، فالعالم الممدوح قابل هذا الكتاب بتلك النسخ الموجودة في المكتبة البريطانية وليدن وباريز كما أشير إليه في مقدمة الكتاب فمن جهة كثرة اختلافات النسخات والحواشي المكتوبات عليها وقع التشتت الكثير في أصل الكتاب فلذلك لا يؤمن من التحريفات والأغلاط الواقعة فيه وقت الطبع التي لا محيص عنها لكل كتاب يدخل تحت الطبع".¹

ورد العلامة السورتي حيدرآباد في سنة 1336هـ ذكره أرباب الدائرة أمر كتاب الجمهرة ورضي السورتي بتحقيقه وتصحيحه وأشار إليه السورتي في مقدمة الكتاب فيقول:

"... فهذبت الكتاب وأصلحت الخلل وبنيت ما فيه من الزلل ووضعت الفهارس العديدة وقيدت الشوارد البديدة فجاء بحمد الله صحيحًا من العلل والأسقام وبريئًا من التصحيف والأوهام".²

وكتب السورتي مقدمة علمية للجمهرة أشار فيها إلى جوانب حياة ابن دريد ومكانته العلمية والأدبية في تاريخ الأدب العربي ثم تكلم السورتي عن كتاب

¹ المصدر نفسه، 515/1

² المصدر نفسه، 3/1

الجمهرة وخصائصه وميزاته وفصل الكلام في اختلاف نسخ الجمهرة والنسخ التي جرى عليها الطبع والكتب المؤلفة على الجمهرة، والمقدمة تنتهي بذكر الأسلوب الذي اختار السورتي في تصحيح كتاب الجمهرة وتهذيبه.

يقول السورتي: "ذكر القوم أن نسخ الجمهرة كثيرة الزيادة والنقصان لأن ابن دريد أملاها بفارس ثم ببغداد من حفظه فلما اختلف الإملاء زاد ونقص والباقية التي عليها المعول هي النسخة الأخيرة وآخر ما صح من النسخ نسخة أبي الفتح عبيد الله بن أحمد بن محمد النحوي المعروف بجفجفج لأنه كتبها من عدة نسخ وقرأها عليه".¹

ثم يذكر النسخ التي جرى عليها الطبع:

"... الذي وفقنا عليه من نسخ الجمهرة ثلاث نسخ (إحداها) وهي الأصل وهي أعلاها صحة وأجودها كتابة وأكثرها فائدة، نسخة (المكتبة الأصفية) فرغ منها كاتبها سنة (1078هـ) وهي من نسخة قرئت على ابن خالويه وأبي العلاء المعري وعليها حواش للمعري ولابن خالويه أيضاً. و(ثانيتها) نسخة (مكتبة بانكي فور) التي أسسها المحامي المشهور (خدا بخش خان) وهي التي قابلنا عليها الأصل ولو لا أنها سقيمة جداً لجعلناها لأنها أحسن وضعاً وترتيباً في غالب المواد و(ثالثتها) نسخة (مكتبة رامفور) وليس فيها ما يوجب الرجوع إليها لأنها جديدة وسقيمة معاً وكأنها منقولة عن نسخة (بانكي فور)".²

أورد السورتي الكلام عن الكتب المؤلفة حول الجمهرة وجاء بمعلومات نافعة منها "فائت الجمهرة" لأبي عمر الزاهد و"نشر شواهد الجمهرة" لأبي العلاء المعري و"جوهرة الجمهرة" للصاحب بن عباد ثم ذكر السورتي الطريقة التي اختارها لتصحيح الكتاب فيقول:

¹ المصدر نفسه، 15/1-16

² المصدر نفسه، 17/1

"... وأما الفهرس فذكرنا فيه كل ما في الأصل من اللغات والأمثال والأسماء والأبيات ولم نذكر من الأسماء ما ذكره المؤلف في المواد اللغوية وكذا لم نذكر أسماء المواضع الواقعة في الأبيات إلا ما شرحه المؤلف.

وأما الشعر فذكرنا قافية مرتبة وربما يذكر المؤلف مصراعاً ولم نقف على تمامه أو بعض مصراع فجعلنا آخره بمنزلة القافية وذلك أقل، وقد رغبتنا في ذكر جميع الأبيات التي ينشدها المؤلف فذكرنا أوائلها وقوافيها غير أن الأصل فيه الأخير وقافية"¹.

وقد طبع الجمهرة من دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد (المجلد الأول) في 1344هـ (والمجلد الثاني) في 1345هـ و(المجلد الثالث) في سنة 1351هـ وذيلت بجزء رابع معظمه فهارس للألفاظ وأشيرت إلى العلامات المستعملة في حواشي كتاب الجمهرة وهي:

هـ- إشارة إلى نسخة الهند ل- إلى النسخة التي في ليدن

ب- إلى النسخة في برتش ميوزيم مخ- إلى مختصر الجمهرة

س- إلى الشيخ محمد السورتى المصحح الأول

ك- إلى المستر كرنكو المصحح الثاني الألماني

وقد يتجلى في تصحيح هذا الكتاب ذوقه العلمي والأدبي وتضلعه من اللغة العربية وقواعدها وآدابها واطلاعه الواسع على علوم الرجال والأنساب والكنوز العلمية والنفادر الأدبية.

2. الكفاية في علم الرواية: هذا الكتاب يتضمن أحكام مصطلح الحديث ويعتبر من الكتب القيمة التي ألّفت في علوم الحديث. ومؤلفه الحافظ أحمد بن علي

¹ المصدر نفسه، 17/1

ثابت الخطيب البغدادي يحتل مكانة مرموقة في مجال العلوم الإسلامية وقدّم للمكتبات الإسلامية مؤلفات حسنة وقامت دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد بطبع هذا الكتاب في سنة 1257هـ بتصحيح من العلماء الأفاضل ومنهم العلامة السورتى كما ذكر في نهاية الكتاب:

"وكانت جمعيتنا المؤفّرة قد ظفرت بنسخة من الكتاب محفوظة في المكتبة الأصفية للحكومة النظامية في عاصمتها المحروسة حيدرآباد- الدكن، وأمرت بتصحيحه مولانا العالم الفاضل أبا عبد الله السورتى فقام بالتصحيح بحسب الطاقة ثم سمعت الجمعية بنسخة محفوظة في مكاتب استانبول فاستدعت نقلاً منها بالتصوير الشمسي فإذا بها نسخة جيدة جداً كما يعلم من خاتمتها التي أثبتناها آنفاً فقابل عليها حضرة المدير مع حضرة الأستاذ الفاضل الشيخ إبراهيم حمدي المدني مدير مكتبة شيخ الإسلام بالمدينة المنورة عند وروده إلى حيدرآباد وقام مصححو الدائرة باستدراك ما بقي من التصحيح وجعلنا علامة النسخة الأصفية - صف - وعلامة النسخة الإستانبولية -قط- وعلامة المصحح الأول (س) وعلامة مصححي الدائرة (ح)".¹

وقد عثرت على هذا الكتاب في المكتبة العامة للجامعة السلفية ببنارس ولكن ما وجدت فيه العلامة التي تشير إلى تصحيح السورتى إلا ببعض الأمكنة.

3. الاعتصام: وجدت هذا الكتاب في مكتبة الجامعة الإسلامية فيض عام بمؤنات بنجن (يو.بي) ومؤلفه الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخي الشاطبي ثم الغرناطي وقد قامت بطبعه دار الكتب الخديوية بمصر في ثلاثة مجلدات (المجلد الأول في عام 1913م والمجلد الثاني في عام 1914م). يكتب العلامة السورتى على غلاف الكتاب:

¹ الكفاية في علم الرواية (تحقيق: العلامة السورتى)، ص 440

"قال الفقير أبو عبد الله محمد بن السورتي: قد طالعت هذا الكتاب مرتين مرة قبل الحج سنة 1344هـ ومرة بعده. وهذا الكتاب يدل على قريحة سيالة وفطرة سليمة وعقل وافر وحجة ثابتة، ولم أظفر بكتاب مثله في بابه".

هناك بعض ملاحظات السورتي التي كتبها خلال قراءته على حواشي الكتاب:

ملاحظات السورتي

الشاطبي	السورتي	المجلد/الصفحة
أهل التهدي	الهدى	6/1
ولا أفردت عن أنواعه	من	13/1
عن سهيل ابن مالك	عن أبي سهيل بن مالك	16/1
عبيد	أبو عبيد	58/1
كما قال الشاعر: إن سليبي والله يكلؤها ظننت بشئ ما كان يرزوها	البيت لأبي هرمة	317/1
عن المغيرة	مغيرة	64/2
ولذلك قالوا في مثل وأين البون إذا مالز في قرن لم يستطع صولة البزل القناعيس	هذا من شعر لجريز بن الخطفي معروف	260/2
من فارق الجماعة شئياً فمات ميتة جاهلية	شبراً	133/3

قال العتبي	العتبي وهو ابن قتيبة وله كتب منها كتاب مختلف الحديث وكتاب مشكل القرآن وغيرهما	147/3
فخرج البخاري في المعلقات عن سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عباس: إني أجد في القرآن أشياء تختلف عني...	ليس من المعلقات بل مسند موصول	208/3

إن المؤلف قد وضع فهرسًا بسيطًا للعناوين الموجودة في الكتاب ولكنه كان معقدًا ولا يدل على مباحث الكتاب دلالة واضحة وكان الناس يواجهون الصعوبات والمشاكل في الاستفادة والاطلاع على جميع المحتويات فوضع العلامة السورتي فهرسًا جديدًا أنيقًا للعناوين يشير إلى كل ما يحتويه من الكنوز العلمية والشرعية ولو انضم هذا الفهرس إلى الطبعة القادمة لكان الكتاب أنفع وأجمل ترتيبًا وتيسيرًا.

4. أحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام: وجدت هذا الكتاب أيضًا في مكتبة الجامعة الإسلامية فيض عام بمؤنات بنجن (يو. بي) ويتضمن أربعة أجزاء في المجلدين ومؤلفه الشيخ تقي الدين أبو الفتح الشهير بـابن دقيق العيد (ت 702هـ) وقامت بطبعه إدارة الطباعة المنيرية بمصر في سنة 1345هـ كما أشير إليه في الكتاب بقلمه.

نعرض بعض ملاحظات السورتي التي تدل على معرفته الواسعة في الأحاديث النبوية وعلومها.

ملاحظات السورتى

ابن دقيق	السورتى
قال: لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة. الحديث رواه البخاري في مواضع مختلفة.	قلت هذا غلط، لم يروه البخاري في موضع، إنما ذكره تعليقاً، فينبغي للمؤلف أيضاً أن لا يذكره في المتفق عليه وكنت أظن هذا أولاً والآن فتشت عنه في البخاري فوجدته روى في الجمعة وقد ذكر ابن حجر في "بلوغ" أن البخاري روى تعليقاً، وهو من باب الوهم وذكر النووي أن من أنكر رواية البخاري فهو مخطئ وهو الصواب، 65/1
"عدم قضاء الصلاة على الحائض" ذكر العلماء أن الصلوة تتكرر فأيجاب قضائها مفض إلى حرج ومشقة فعفى عنه بخلاف الصوم فإنه غير متكرر فلا يقضي قضاءها إلى حرج...	قلت: وإنما لم تؤمر بقضاء الصلوات لأن الصلاة فريضة مؤقتة ولكل يوم وليلة خمس صلوات شرط الطهارة وقد فاتها الشرط فالمشروط كذلك والقضاء إنما يكون على الذي يمكنه الأداء وهي غير قابلة للأداء في الأيام المعلومة، 128/1
ومذهب مالك مع ما مر من الحديث يتأيد بعمل أهل المدينة.	هذا بعيد جداً فإن الناس كانوا غيروا الأمور وبدلوا كثيراً بعده ﷺ فكيف بعده بمئة سنة وقد دارت عليهم دوائر كثيرة وتغيرت حكومات عديدة صار

فيما العدل جورًا والبدعة سنة والعذر
عن الصحابة أن بعضهم كان يرى
السنن ونحوه من الأمور الهنيئة ولا
ينظر إلا إلى الفرائض والدليل على
التغير ما قاله أنس وأبو الدرداء
وغيرهما: إنا لا نرى في الناس شيئًا مما
كان على عهد صلي الله عليه وسلم
فقليل لأحدهما والصلاة فقال أما
أحدثتم فيها، أحدثتم أو كما قال
هذا، فخرج في الصحيح، 177/1

والتعليقات المذكورة وإن كانت قليلة ولكنها تشير إلى تضلع السورتي من الأحاديث النبوية وإطلاعه الواسع على رجالها وأسانيدها ومعانيها.

ورابعًا: شعر العلامة السورتي: كان العلامة السورتي قد رزق ذوقًا سليمًا للشعر العربي وكان يحفظ ألوفاً من الأشعار العربية ويوردها في كتاباته ويستشهد بها وقد يتجلى في اختيارها واستخدامها ذوقه الشعري السليم ومستواه الأدبي الرفيع ودراسته البصيرة بالأدب العربي وإطلاعه الواسع ومعلوماته الغزيرة عن الأشعار العربية في العهود المختلفة وكان العلامة يختار منها حسب ذوقه للتدريس ويدرس تلامذته القصائد والأشعار من الشعراء المختارين له بدون أن يبالي بالمقررات الدراسية وكلما أتى شعر خلاب وجذاب بدأ يكرره ويستلذ به ويمتدح له ويمزج الناس به.

يقول محمد سرور جامعي: إن الشعراء الجاهليين كانوا أحبّ لديه ولا سيما الشعراء الذين كانت لهم علاقة أقوى مع حياة البداوة والصحراء وكان يعتني بالأدب الإسلامي والأموي وبشيء من الأدب العباسي. وما كان يرضى أن يدرس الأدب العربي حتى بشار وأبي نواس وإنه كان يحب البساطة والسذاجة في كل شيء.

في الحياة العامة والأدب والبلاغة وأعرض دائماً عن التصنعات والتكلفات سواء كانت في الشعر أو النثر وفي قواعد النحو أو في أنواع الاستعارة والتشبيه ومما يلقي الناس في الجبرة مع أن العلامة السورتى كان يعتبر رجعيًا على وجه العموم ومع أن جميع أثنائه الأدبية والعلمية كانت على طراز قديم لكن ذوقه الأدبي والشعري كان يشبه إلى حد كبير بذوق الناقدین المعاصرين من مصر والشام¹.

مع نبوغه في اللغة العربية وآدابها وشغفه بالأشعار العربية حفظًا ونقدًا لم يكن قرض الشعر موضع العناية الرئيسية لديه. لعله مثل العلماء البارزين كان يتردد في قرض الشعر لأن الشعر يزري بشأن العلماء كما قال الشافعي رحمه الله:

لولا الشعر بالعلماء يزري لكنك اليوم أشعر من لبيد

وعلى هذا فقد خلف آثارًا قليلة في هذا المجال ولكنها تدل على ذوقه الأدبي السليم وقدرته الموفورة على قرض الشعر باللغة العربية ونسجه على منوال الشعراء المتقدمين.

اختار العلامة السورتى في "أزهار العرب" قصيدة لأبي البقاء صالح بن شريف الرندي الأندلسي والشاعر يذكر الأندلس وغلبة الكفار عليها يرثي البلاد وأهلها ويستنهض ذوي الهمم لارتجاعها وقد ذكرت بعض الأبيات في الفصل السابق. وقرض السورتى عدة أبيات متأثرًا بها ويتجلى فيها إخلاصه للإسلام والمسلمين وقدرته على قرض الشعر العربي.

أيا أسقًا ضاع الأمور، وفللت	شباباً، وحلّ الشر كلّ مكان
لقد شرب الإسلام رنقًا على قذى	وأصبح أهلو الكرام كعان
وأصبح عز مشمخر بناؤه	بأيدي ضعاف القوم في رجفان
تثلّم منا كلّ حصن ومعقل	وأسلمنا الإخوان عند هوان ²

¹ مجلة "جامعة" (الجامعة الملكية الإسلامية)، سبتمبر 1942م، ص 144

² أزهار العرب، ص 165

إنه يستعرض تاريخ المسلمين فيرى فيه ما يخلج كل مسلم ويرى فيه ما لا يتفق مع الرسالة المحمدية وتعاليمها ومثلها العليا ويرى أن الخرافات لقد طغت على الحقيقة وتاهت الأمة في الأخبار ولقد انطفأت شعلة الحب والحنان في المسلم فأصبح ركاً من رماد لا شعلة فيه ولا حياة ثم يتذكر أولئك الأبطال الذين رحلوا وغابوا في غياهب الماضي وينشد:

فليت لنا مثل الذين تقدموا	من الأمراء الغرّ، أهل سنان
أولئك منهم عامر وحذيفة	معاذ ومنهم خالد الزحفان
إذا رموا صعباً من الأمر معضلاً	تقاود طوعاً عند كل طعان
تمناهم من لم يكونوا كفءاء	خليفة حق، عادل ببيان
تمناهم الفاروق في مجمع الأولى	لهم غاية السباق عند رهان ¹

وإن السورتي يملكه الحزن والتألم بما يرى من خمود المسلمين بعد النشاط والإحجام بعد الإقدام والفرقة بعد الوحدة والعبودية بعد السيادة والاتباع بعد القيادة.

وهذه القصيدة تدل على علو كعبه في اللغة العربية وجودة قريحته وإخلاصه ومثابرته وحبّه للإسلام والفكرة الإسلامية.

وله أبيات في مدح النواب عماد الملك سيد حسين البلكرامي مؤسس دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد وأنشد السورتي نظراً إلى اهتمامه البالغ بنشر علوم الكتاب والسنة واللغة العربية وأدائها وجهوده الجبارة في إحياء التراث الإسلامي:

زين الأنام جمال العصر ذو كرم	من محتد الصدق أحساباً وأجدادا
من همّ السعي في إحياء مآثرة	أفنى عليها صروف الدهر أو كادا

¹ المصدر نفسه، ص 165-166

ماضي العزيمة في حزم وتجربة أبي الهزيمة بالعلياء، قد سادا
فمن مآثره أحداث مكتبة أضحت لصحف علوم الناس أوتادا
ومن مفاخره إجراء مطبعة زهت بأزهارها غورًا وإنجادا¹
وهي نموذج رائع لإجادة البيان ومتانة الأسلوب.

وكذا ينشد في مدح سلطان الدكن وأثنى على علو همته وإخلاصه للإسلام
والمسلمين ومساعدته الكريمة للعلماء الذين يقومون بنشر علوم الكتاب والسنة:

ملك تسامى للعلی ذو بهجة يهب الجزيل وما لديه جزيل
كالسيف عزمًا والأسود مهابة والدهر تجربة لديه فصول
في الجود حاتم دهره أو كعبه ذكر السمول في الوفاء فضول
متهلل رحب الجنب فمن أتى أبوابه فكأنه الموصول
أحيا البلاد بعدله وببذله فالظلم مقهور القوى وخذول
نشر المكارم والعلوم بأسرها وطوى المخازي فالجهول خمول²

ولما فرغ السورتی من تصحيح كتاب الجمهرة وتهذيبه أنشد:

كدرة البحر زهت للرائد صافية من كل طعن الرائد
فريدة وحيدة في بابيه يرغب فيها كل حبر نابيه³

وله مرثية على وفاة العلامة أبو جليل محمد طيب المكي، مستهلها:

ألا إنما الدنيا بلاء ومعطب فليس سوى عليب بها الدهر مطرب
ألا إنما الدنيا رزايا وحسرة وزور أمان ليس عنهن مذهب

¹ مقدمة الجمهرة (تحقيق: العلامة السورتی)، 2/1

² المصدر نفسه، 3/1

³ المصدر نفسه، 3/1

ليبك أبا عبد الجليل سميع
ويبكيه علم الدين والشعر واللغى
خليل لعلم العرب عمرو رواية
وأما علوم العقل فهو نقاها
عليك سلام الله ثم صلوته
ووافاك رضوان وحوور ونعمة
لكل معال باكرات تقضب
وروضة آداب تسقى فتخصب
وكالباهلي في نطقه مصوب
طوى قفرها والقوم حسرى ولغب¹
ورحمته تترى وأهل ومرحب
وأكرمت في دار الخلود نقرب²

وأسلوب السورتي في هذه المراثية يقارب أسلوب المتقدمين من الشعراء العرب.
فيما يتعلق بإجادة البيان والتأثير بدون أن يتورط في المبالغة الركيكة في الإطراء
والثناء والوصف.

وله أبيات يشكو فيها فتية من الأنصار:

أقول لنفسي في الخلاء ألومها
ومن أجل أن خانت عهدك عصابة
هم بسطوا تلك الأمانى حلبة
وبانت بنات الشوق يحنن نزعا
وكانوا طويلاً يأمّلون خيانتى
على غير شيء قلبوا لي مجنهم
ولم يرقبوا ولا الدين راعهم
ولا رحموني إذ منيت بشقوة
لك الويل ما هذا التخشع والذكر
يهمهم الدنيا وما إن لهم عذر
فلما اطمأن الأمر واستحصد الأمر
وضمّ الحشا منها الحباب فلا صبر
فما خنت يوماً لا ولا غالهم مكر
وضحّوا بقلبي ضحية ما لها نكر
ولا سطوة الله العزيز ولا العذر
ولا حفظوا في الوداد فما دروا³

¹ تذكره كاملان رامفور، ص 183-184

² المصدر نفسه، ص 184

³ الإعلام بمن في الهند من الأعلام، 430/8

لا يتعدى شعر السورتي حدود الحكمة والوعظ والموضوعات التي تناولها في شعره المدح والرثاء والوعظ والحماسة ويغلب الجانب الديني والإصلاحي في شعره ونرى أنَّ شعره يمتاز بغنى الفكر والتعبير فأدخل فيه تشبيهات نادرة ويمتاز بكامل النقاء لفظاً ومعنى ويمكن أن نقول إن شعره يقارب الشعر الجاهلي أسلوباً والشعر الإسلامي معنى ولفظاً. ولا شك أنه لم يبتدع أسلوباً جديداً في الشعر ولم ينل الاعتراف في الأوساط العلمية الهندية بكونه شاعراً في حين تم الاعتراف بمكانته المرموقة في اللغة العربية وآدابها والعلوم الإسلامية وخاصة في الحديث وعلومه المختلفة وعلم الرجال والأنساب. وإن هذه الأبيات تدل على قدرته على كتابة الشعر العربي ونبوغه وبراعته فيه ولو اعتنى بقرض الشعر بقدر اعتنائه بالحديث وعلومه والتصحيح والتحقيق لكان له مكان مرموق في تاريخ الشعر العربي-الهندي.

المصادر والمراجع

1. ابن دريد: جمهرة اللغة، دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد، ط1، 1344هـ
2. أبو العلاء محمد إسماعيل الغودهري: ولي الله، جامعه مليه بريس، دلهي، د.ت.
3. أبو يحيى إمام خان النوشهري: تراجم علماء أهل حديث هند، جيد برقي بريس، دلهي، د.ت.
4. أبو يحيى إمام خان النوشهري: هندوستان مين أهل حديث كي علمي خدمات (خدمات أهل الحديث الحديثية في الهند)، جيد برقي بريس، دلهي، د.ت.
5. أحمد بن علي الخطيب البغدادي: الكفاية في علم الرواية (تصحيح: العلامة السورتى)، دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد، ط1، 1357هـ
6. إرشاد الحق الأثري: باك وهند مين علماء أهل حديث كي خدمات حديث خدمات علماء أهل الحديث في الهند وباكستان الحديثية)، مركزي مكتبه أهل حديث، مئو، ط1، 1995م
7. إقبال أحمد السلفي: هند وباك مين عربى أدب (تاريخ الأدب العربى في الهند وباكستان)، تاج آفيسيت بريس، الله اباد، ط1، 1982م
8. بين تشندر: جديد هندوستان (الهند الجديدة)، أين سي آر تي، دلهي الجديدة، ط1، 1994م
9. بدر الزمان النيبالي: الشيخ عبد الله الغزنوي، ندوة المحدثين، غوجرانواله، باكستان، ط1، 1984م
10. الحافظ أحمد علي شوقي الرامفبوري: تذكره كاملان رامپور، مكتبة خدابخش العامة الشرقية، بتنه، ط2، 1986م
11. الدكتور فهميده بيغم: ذاكر حسين، شخصيت ومعمار، ترقى أردوي بيوريوف، دلهي الجديدة، ط1، 1995م
12. رئيس أحمد الجعفري: ديد وشنيد (مما رأينا وسمعنا)، عظيمي برنترز، كراتشي، 1987م

13. زبير أحمد الفاروقي: مساهمة دار العلوم بديوبند في الأدب العربي، دار الفاروقي، دلهي الجديدة، ط1، 1990م
14. السيد أبو الحسن الندوي: المسلمون في الهند، المجمع الإسلامي، لكتناؤ، ط3، 1982م
15. السيد أبو الحسن الندوي: في مسيرة الحياة، دار القلم، دمشق، ط1، 1987م
16. السيد سليمان الندوي: ياد رفتگان (وفيات العلماء)، دار المصنفين، أعظم كره، 2000م
17. السيد عبد العلي الحسني: الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، مكتبة دار عرفات، رائ بريلي، 1983م
18. سيد نذير نيازي: مكتوبات إقبال (رسائل إقبال)، مجمع إقبال، كراتشي، ط1، 1957م
19. عبد الحليم الندوي: مراكز المسلمين التعليمية والثقافية في الهند، مطبعة نوري المحدودة، مدراس، ط1، 1967م
20. عبد الرحمن الفريوائي: جهود مخلص في خدمة السنة المطهرة، إدارة البحوث الإسلامية، الجامعة السلفية، بنارس، ط2، 1986م
21. عبد الرزاق المليح آبادي: ذكر آزاد، مطبعة أجالا، كولكاتا، ط1، 1960م
22. القاضي محمد عبد الله الخانفوري: تذكره علماء خانفور، المكتبة السلفية، لاهور، ط1، 1985م
23. محمد إسحاق البهتي: بزم أرجمندان، مكتبه قومية، لاهور، ط1، 1992م
24. محمد إسحاق البهتي: كاروان سلف (قافلة السلف)، مكتبه إسلامية، فيصل آباد، باكستان، ط1، 1999م
25. محمد إسحاق البهتي، نقوش عظمت رفته، مكتبه قومية، لاهور، ط1، 1999م
26. محمد إسرائيل السلفي الندوي: تراجم علماء أهل حديث ميوات، جمعيت أهل حديث، هريانه، ط1، 1993م
27. محمد بن يوسف السورتی: أزهار العرب، دار البحوث الإسلامية، بنارس، ط1، 1993م

28. محمد بن يوسف السورتي: قواعد عربي (علم صرف)، مطبعة جامعه مليه، علي كره، ط1، 1924م
29. محمد بن يوسف السورتي: كتاب التوحيد (ترجمة أردوية)، الدار السلفية، مومباي، ط6، 2000م
30. محمد سالم القدوائي: أحوال وأفكار، إداره علوم إسلاميه، علي كره، ط1، 1992م
31. محمد يونس النغرامي: هندوستان مين عربي علوم وفنون كے ممتاز علماء اور أنكي علمي خدمات (أبرز علماء العلوم والفنون العربية الهنود وخدماتهم العلمية)، مطبعة نامي، لكناؤ، ط1، 1997م
32. مسعود عالم الندوي: شهور في ديار العرب (ترجمة: د. سمير عبد الحميد إبراهيم)، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، ط1، 2001م
33. "مجلة المجمع العلمي الهندي" الفصلية الصادرة عن جامعة علي كره الإسلامية، علي كره
34. مجلة "آفاق الثقافة والتراث" الصادرة عن الإمارات العربية المتحدة
35. مجلة "الاعتصام" الشهرية الصادرة عن لاهور
36. مجلة "النجم" الصادرة عن لكناؤ
37. مجلة "ترجمان جديد" الفصلية الصادرة عن دلهي الجديدة
38. مجلة "ثقافة الهند" الفصلية الصادرة عن مجلس العلاقات الثقافية، نيو دلهي
39. مجلة "جامعة" الفصلية الصادرة عن علي كره ودلهي
40. مجلة "صوت الأمة" الشهرية الصادرة عن الجامعة السلفية، بنارس
41. مجلة "صوت الجامعة" الصادرة عن الجامعة السلفية، بنارس
42. مجلة "معارف" الشهرية الصادرة عن دار المصنفين، أعظم كره

مدرسة العلوم بعلي كره

(تاريخها وأثرها في المجتمع)

- أ.د. ظفر الإسلام الإصلاحي¹

ترجمة من الأردوية: شفاء الرحمن²

﴿2﴾

الباب الثاني

أسباب اختيار مدينة علي كره لتأسيس مدرسة العلوم

(من خلال كتابات السير سيد)

السير سيد أحمد خان يمتاز عن مفكري ومصلحي الهند الجديدة بأنه ركّز حركته الإصلاحية على ترويج التعليم، وأوقف لها كلّ قدراته ومؤهلاته. ولا شك أنّ مجال خدماته الاجتماعية والقومية والوطنية واسع ومتنوع جدًّا، ولكن لن ننكر أنّ ترويج التعليم الجديد، وتعميمه بين المسلمين أبرز خدماته. وتأسيس مدرسة العلوم- كما نعلم- أكبر مظهر من مظاهر حركة السير سيد، ولقد بدأ المؤسس توطین العقول لهذا الأمر المهمّ منذ فترة طويلة، وشرع في الاستعداد لتأسيسها بطريقة منظمة. ويحتلّ تشكيل "لجنة الراغبين في رفع مستوى تعليم المسلمين بالهند" (في سنة 1870م)، و"لجنة خزانة البضاعة لتأسيس مدرسة العلوم للمسلمين" (في سنة 1872م) أهمية خاصة في المراحل العملية لإنشاء مدرسة العلوم، وبالأخصّ لعبت اللجنة الثانية دورًا هامًا في توفير الوسائل المالية، وتلبية الحاجيات الأخرى.³

¹ بروفيسور متقاعد، قسم الدراسات الإسلامية، جامعة علي كره الإسلامية، علي كره، الهند

² باحث، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليّة الإسلامية، نيو دلهي

³ مقالات سر سيد (مقالات السير سيد بعنوان: "أحوال مدرسة العلوم علي كره التاريخية")،

مجلس ترقّي أدب، لاهور، 1963م، 191-190/12، وحياة جاويد لألطف حسين حالي،

المصدر السابق، ص 172.

وكان من أهم المشاكل المتعلقة بتأسيس المدرسة تحديد موقع لائق لها. وتظهر عظمة السير سيد وسعة صدره وبصيرته بالخطوات المناسبة التي اتخذها لحلّ هذه المشكلة بأحسن طريق، وبدأ جهده لحلّ هذه المشكلة في سنة 1872م، وكان من أهم الجوانب فيه استشارة أعضاء اللجنة والأصدقاء وعامة الناس، ولا شك أنّ الشورى لها أهمية بالغة في الأمور الاجتماعية والأشغال المالية، وقد وصف المؤمنون في القرآن الكريم بأنهم يؤدون أمورهم بالشورى بينهم، فقال تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾¹. وكان من محامد السير سيد أنه كان يستشير الناس في الأمور الاجتماعية والأشغال المالية بدون مجاملة، ثم يتخذ قرارًا قاطعًا في القضية ذات الصلة. وتوجد لمحات وصفه الخاص هذا في العديد من الحالات في المراحل المختلفة لحركة علي كره، وأثناء تأسيس مدرسة العلوم وبعده أيضًا. وقد اهتم أيضًا بالشورى بين الناس في قضية تحديد موقع لمدرسة العلوم اهتمامًا خاصًا، ثم اتخذ قرارًا في هذا الشأن كما يتضح من التفاصيل الآتية.

وبدأت الاستعدادات بسرعة للمدرسة المقترحة بعد إنشاء "لجنة خزانة البضاعة لتأسيس مدرسة العلوم للمسلمين" أو صندوق الكلية في 1872م، وفي هذا الصدد اهتم السير سيد بنشر الإعلان لاستطلاع آراء الناس في تحديد موقع لها في Aligarh Institute Gazette، وغيرها من الصحف، وهذا الإعلان نشرته لجنة الراغبين في رفع مستوى تعليم المسلمين بالهند في الجرائد المذكورة وكان نصه:

الإعلان

ولنعلم أنّ "لجنة الراغبين في رفع مستوى تعليم المسلمين بالهند" اقترحت إنشاء مدرسة عالية لتعليم المسلمين خاصة في المدن الشمالية الغربية بعد جمع المساعدات المالية يتعلم فيها المسلمون جميع أنواع العلوم الدينية والدنيوية،

¹ سورة الشورى: 38

ولكن بقي اتخاذ قرار موقع مناسب لإنشائها؟ ونريد أن يكون تحديد موقعها بعد استطلاع آراء الناس حتى الوسع، فينشر هذا الإعلان إذا كان لدى أحد فكرة بهذا الشأن فليكتبها إلى هذا الأثم في مدينة بنارس، وستعرض كافة هذه الآراء أمام اللجنة، ولكن لا بد من ذكر الأسباب في اختياره للموقع، والرسائل التي ترسل ستكون مدفوعاً ثمنها ولا تكون بدون طابع.

نطلب من جميع الصحفيين أن ينشروا هذا الإعلان لأجل المصلحة العامة في جرائدهم، ونأمل من محرريها أيضاً أن يكتبوا آرائهم عن هذا الموضوع فيها، والجريدة التي ينشر فيها هذا الإعلان نرجو استلام نسخة منها مجاناً لأجل المصلحة العامة، وهذا لكي تعرض الآراء أمام اللجنة، وستكون اللجنة شاكراً لكل من أسدى هذه الخدمة إلى مصلحة الشعب.

كتبه

سيد أحمد

أمين لجنة الراغبين في رفع مستوى تعليم المسلمين بالهند

مدينة بنارس، 9 يوليو 1872م¹

يمكن تخمين مدى سعة نطاق استشارة السير سيد في تعيين موقع مدرسة العلوم بهذا الإعلان جيداً، وأنه لم يطلب رأياً من رجال الطبقات الخاصة، بل طلبه من عامة الناس في هذا الأمر المهم. والأمر الثاني: أنه لم يحصر هذا الإعلان في Aligarh Institute Gazette، بل حاول نشره في جرائد أخرى. والأمر الثالث: أنه طلب من محرري الجرائد أيضاً أن يدلوا بآرائهم في هذا أيضاً. والأمر الرابع: أنه تأكد على من يريد عرض رأيه في هذه القضية أن يعدد أسباب اختيار مدينته المقترحة. والأمر الخامس: أنه طلب من محرري الجرائد أن يختاروا الطريقة المناسبة لتعريف القراء بآرائهم وطلب منهم خصوصاً أن يرسلوا نسخة من الجرائد التي نشروا فيها

¹ Aligarh Institute Gazette، 29/7، 19 يوليو 1872م، ص 360

هذه الآراء، فيتضح من جميع هذه الأشياء مدى أهمية قضية اختيار الموقع لمدرسة العلوم، وكيف اهتم المؤسس المرحوم باستطلاع آراء الناس فيها.

ومن الممكن أنّ العديد من الناس قد أعربوا عن آرائهم بعد قراءة الإعلان المذكور أعلاه، التي نشرت في الجرائد المختلفة. وقد أشار إليها السير سيد في تقريره (الذي نشر في Aligarh Institute Gazette 29 نوفمبر 1872م) مشتملاً على آراء مختلف الناس وتحليلاتهم، ولكن لم يمكن لي العثور عليها. ولا تخلو من الأهمية الإشارة إلى أنّ السير سيد التمس من محرري الجرائد في الإعلان الذي نشر من قبل اللجنة لرقى تعليم المسلمين الهنود (كما مضى ذكره أعلاه) أن يعربوا عن آرائهم الخاصة أيضاً في قضية اختيار الموقع لمدرسة العلوم (مع ذكر أسباب اختياره) علاوة على نشر هذا الإعلان في جرائدهم. ومن الجدير بالذكر أنّ السير سيد نفسه قدّم رأيه مفصلاً بصفته محرراً لـ Aligarh Institute Gazette، كما سلّط عليها الضوء الشيخ مشتاق حسين (النواب وقار الملك) في غاية من التفصيل عن طريق الرسالة، والأمر المهم أنّ النواب وقار الملك كان في طليعة الذين أظهروا رأيهم في تعيين الموقع للمدرسة بعد نشر الإعلان المذكور غير السير سيد. وطبقاً لرأيه نشرت رسالته هذه بعنوان: رسالة رقم 1، في Aligarh Institute Gazette، وهاتان الرسالتان نشرتا في نفس العدد لـ Aligarh Institute Gazette (26 يوليو 1872م). ووصلت رسالة النواب وقار الملك إلى السير سيد عندما كان قد سجّل رأيه،¹ ولكن الجدير بالذكر أنّ أسباب اختيار الموقع لتأسيس مدرسة العلوم التي ذكرها النواب وقار الملك تشبه الأسباب التي كتبها السير سيد إلى حد كبير.²

وعلى كل، فالنقاط التي تظهر بدراسة آراء السير سيد وغيره لا تخلو من الفائدة والأهمية.

¹ نفس المرجع، 30/7، 26 يوليو 1872م، ص 464

² انظر للدراسة التحليلية لآراء النواب وقار الملك في هذه القضية: مقال الكاتب بعنوان: "استشارة السير سيد في قضية اختيار الموقع المناسب لمدرسة العلوم وإبداء النواب وقار الملك رأيه"، مجلة "فكر نو" (علي كره)، 3/1، أكتوبر 2017م، ص 32-36

يكتب السير سيد أحمد خان قبل ذكر رأيه:

"سبق أن نشرنا إعلاناً للجنة الراغبين في رفع مستوى تعليم المسلمين بالهند يوم 19 يوليو، طلبت فيها اللجنة من جميع الصحفيين الهنود أن يكتبوا آرائهم في المدرسة التي أرادت اللجنة تأسيسها لتعليم المسلمين مع الإشارة إلى وجوه الترجيح، ولذا نعرب عن آرائنا في هذه القضية، ونرجو أن تلفت أنظار اللجنة".¹

الأسباب التي ذكرها السير سيد لاختيار مدينة علي كره للمدرسة المقترحة تلخصها فيما يلي:

1. ملائمة واعتدال الجو.
 2. مناسبة الموقع وسهولة التنقلات من وإلى الموقع.
 3. تواجد أهل الخير والمساعدة والمواسين المتوقعين في ضواحي المدرسة.
 4. تواجد الموقع في وسط المناطق المعروفة لترويج العلوم القديمة.
 5. وقوع المدينة في المنطقة التي يتواجد فيها أهل اللغة الأردية.
 6. تواجد المكتب الرئيسي لـ Scientific Society (الجمعية العلمية) فيها.
- فأولاً أكد السير سيد على أن مناخ علي كره جيد للغاية، والطقس هنا معتدل، وأعرب عن انطباعاته قائلاً: "إن علي كره تقع في بقعة لا تسود فيها الحرارة على البرودة، ولا البرودة على الحرارة، ولا الرطوبة على التجفيف، ولا التجفيف على الرطوبة".² ولذا هذا المكان مناسب جداً للمناطق المختلفة، ولأشخاص ذوي طبائع مختلفة، وكذا أوضح السير سيد في هذا الصدد أن الأشخاص من مختلف المناطق المقيمين في علي كره للعمل أو التجارة أو لأي غرض آخر جعلوا مناخ هذه المنطقة مفيداً لصحتهم أيضاً، وبالإضافة إلى ذلك أن حكام المدينة أيضاً

¹ Aligarh Institute Gazette، 30/7، 26 يوليو 1872م، ص 462-463.

² نفس المرجع، ص 463

يصدقون جودة أجواء هذه المنطقة، وفي الأخير قال موضحاً سبب هذا الاختيار: "إن مراعاة جودة الأجواء من ضروريات الموقع الذي تؤسس فيه المدرسة لتعليم السكان من مختلف المدن، والذي يكون مجعاً لسكان البلدان المختلفة".¹ وهذا هو السبب الأول لاختيار علي كره الذي ذكره النواب وقار الملك أيضاً في رسالته، وذكر لإثباته "يعلم واضحاً بمشاهدة الخريطة أنّ هذا المكان (علي كره) يقع بين نهريْن في موقع جميل لا يتصور موقع أفضل منه. ويقع نهر يامونا على مسافة يقع على نحوها نهر الكنج في شماله، وهذا هو السبب الذي يقوم به الطقس هنا معتدلاً في كل فصل، ويتيقن به أنّ شخصاً من سكّان أيّ منطقة من مناطق الهند يأتي هنا ويقوم سوف يكون قوياً وصحياً من كل النواحي بفضل الله وكرمه، وهذا من الضروري لدراسة الطلاب ولطمئنان قلوب أولياء أمورهم".²

فيخبرنا هذا التقرير الذي اشتمل على خلاصة آراء الناس، وعرض في اجتماع "لجنة خزنة البضاعة لتأسيس مدرسة العلوم للمسلمين" المنعقد في 8 نوفمبر 1872م، يخبرنا عن مدى أهمية صحة الطلاب عند السير سيد في اختيار الموقع للمدرسة، وقرأوا الجزء المطلوب من التقرير في كلمات السير سيد ذاتها: "ويجب علينا أيضاً أنّ نعتني بجودة مناخ ذلك الموقع الذي اقترح إنشاء مدرسة العلوم فيه، لأنّ أبنائنا (الطلاب) سيقومون به، ويتعرعون في مناخه، وسوف يكون لمناخه أثر كبير على صحتهم، وعلى قوة قلوبهم وعقولهم، وعلي كره معروفة بجودة أجوائها وطقوسها.³ والشئ الأكثر اهتماماً في هذا الصدد هو أنّ السير سيد استطلع رأي الطبيب الجراح لمدينة علي كره (الدكتور جيمس آر جاكسون) عن مناخ علي كره، وأنه قدّم شهادته الخطية المتعلقة به في اجتماع اللجنة، فقرأوا كلمات الدكتور جاكسون:

¹ نفس المرجع

² نفس المرجع، 465

³ Aligarh Institute Gazette، 29 نوفمبر 1872م، ص 753

"My opinion has been asked as to the eligibility of Allygurh as a site for the New Mohammadan College.

My experience only extends over a period of less than two years, but this again is supported by that of my predecessors Dotors Clarks and Kilkelly. I have no hesitation in asserting on my judgement, corroborated by the authority of those gentlemen that Allygurh is one of the healthiest stations of North- West Provinces. It is particularly free from malarial diseases, especially that low form of fever, which has of late ravaged the Saharanpur, Mozuffar Nuggur and Meerut Districts.

(Sd.) J.R. Jackson, M.D Off, Civil Surgeon, Allygurh 8th October, 1872"¹.

ترجمة: وقد طلب رأيي عن ملائمة علي كره كموقع للكلية المحمدية الجديدة، وخبرتي لا تمتد إلا على فترة أقل من عامين، ولكن يؤيدها تجربة من سبقني من دوترز كلارك وكالكيلي. وأنا لا أتردد في التأكيد على حكمي الذي تؤكد سلطته أولئك السادة بأن علي كره هي إحدى أفضل المحطات الصحية في المحافظات الشمالية الغربية، وهي خالية بشكل خاص من أمراض الملاريا، ولا سيما ذلك النوع المنخفض للحصى، الذي خرب مؤخرًا محافظات سهارنפור، ومظفر نغر، وميرث.

توقيع: جي. آر. جاكسون، 8 أكتوبر 1872م."

والسبب الثاني لاختيار علي كره الذي ذكره السير سيد هو أنّ هذه المدينة تقع على طريق تتصل به الطرق من الجهات الأربع، ويرتبط هذا الموقع بجميع أجزاء البلد المختلفة بالسكك الحديدية، وعلى هذا فيسهل الذهاب والإياب للطلاب والناس الآخرين.² كما وصف النواب وقار الملك بأنّ هذه المدينة مناسبة نظرًا

¹ نفس المرجع، ص 756

² نفس المرجع، 26 يوليو 1872م، ص 464

للموقع، وناقش هذه القضية بالتفصيل بأن كيف ارتبطت سلسلة الذهاب والإياب بدلهي، وميرث، وسهارةفور، وأكره، وكانفور، ولكناؤ، وإله آباد، وروهيل خند، وتشندوسي، ومراد آباد، وبريلي، ورامبور، وبدايون، وبيجنور، ومناطق أخرى من البلد إلى هذه المدينة.¹

والسبب الثالث لترجيح علي كره لإنشاء المدرسة والذي جعله السير سيد أكبر الأسباب وأقواها، هو أنّ هذه المدينة تقع وسط المدن الأربع (دلهي، ورامبور، وأكره، ولكناؤ) التي تعتبر مركزاً للعلوم والفنون من قبل، ولم تكن معروفة خصوصاً لترويج العلوم القديمة، والعلوم الدينية في الهند فحسب، بل معروفة في البلاد الأخرى. وبسبب ذلك يميل سكان هذه المدن وما جاورها إلى العلوم القديمة ومنهجها إلى حد لا ترغب طبائعهم في العلوم الجديدة، ولا يعترفون بإفادة العلوم الجديدة. وفي هذا الصدد فإنّ كلمات السير سيد لها معنى كبير، اقرأوا: "وتلك المدن الأربع هي دلهي، ولكناؤ، ورامبور، وأكره. فتسعى دلهي دار السلام، ولكناؤ مخزن العلوم، ورامبور دار العلوم، ولم يكن المسلمون الهندود فحسب، بل المسلمون من البلاد الأخرى يتعلمون العلوم القديمة والدينية في هذه المدن، وبسبب ذلك يميل سكان هذه المدن وما جاورها إلى علومهم القديمة، ومنهجها بحيث تكون طبائعهم مخالفة لأهمية تعليم العلوم القديمة ومنافعها".² ويقول فيما يتعلق بهذه الحالة: لأنّ الغاية من مدرسة العلوم المقترحة هي إصلاح تعليم المسلمين لا سيما المسلمين الذين لا يعترفون بإفادة العلوم الجديدة، بل يظنونها عبثاً. ولذلك ينبغي تأسيس المدرسة في موقع تشتد فيه الحاجة إليها، ولا شك أنّ هذا الموقع هو علي كره التي تقع في وسط هذه المدن من حيث الأسباب المذكورة أعلاه، وبهذا المعنى أيضاً تبدو علي كره أكثر مناسبة.³

¹ نفس المرجع، ص 465

² نفس المرجع، 30/7، 26 يوليو 1872م، 463

³ نفس المرجع

وفيما يتعلق بالسبب الرابع نبّه السير سيد إليه قائلاً إنه لم يتوفر نظام جيد للتعليم في المدن الشمالية الغربية إلى الآن يستفيد منه المسلمون والهندوس. وبالعكس فتقوم جامعة كولكاتا في الشرق، وجامعة لاهور في الغرب بتلبية الاحتياجات التعليمية لسكانها حتى ولو كانت عامة، ولكن المدن الشمالية الغربية تحرم نظام التعليم (الجديد) إلى الآن، ولهذا فيستحقّ سكان تلك المناطق أكثر بتطور التعليم فمهم، وتغيرت تصوراتهم أيضاً، ولذلك إنّ حالات سكان المدن الشمالية الغربية تحتاج إلى الإصلاح أكثر في أمر التعليم، ومن هذا الجانب أيضاً تفوق علي كره على غيرها لكونها في وسط تلك المدن.¹

والسبب الخامس الذي فضّل به السير سيد علي كره على غيرها لمدرسة العلوم بأنها تقع بين دلهي وكنّاؤ، وأوضح هذه النقطة أنّ هاتين المدينتين كانتا عاصمتين للمسلمين حيناً من الدهر. ولذلك علاقة المسلمين الهنود التي تتعلق بهاتين المدينتين بحيث الإقامة فيهما أو لأغراض أخرى لا توجد في غيرهما، والمقدّرون للعلم الذين يوجدون في ضواحيهما لا يوجدون في أي مكان آخر.²

والسبب السادس الذي أكد منه السير سيد موقفه لتأسيس المدرسة مستدلاً بالقواعد والأصول التي وضعت، أن يكون الاهتمام بتعليم العلوم الجديدة باللغة الأردية حتى الوسع، ومركز هذه اللغة هو البقعة التي توجد فيها دلهي، وعلي كره، وأكره، وكنّاؤ. وفي هذا الصدد أوضح السير سيد أنّ مدينة دلهي وضواحيها معروفة في فصاحة الكلام، وفصاحة الكلام حلية نفيسة للعلم، ولذلك ينبغي أن يكون مركز التعليم في الموقع الذي يستطيع فيه الطلاب أن يحلّوا أنفسهم بفصاحة اللغة وسهولة الكلام، وهذا الموقع هو علي كره التي تعتبر أفضل في ضواحي دلهي.³

¹ نفس المرجع، ص 463

² نفس المرجع، ص 463-464

³ نفس المرجع، ص 464

والسبب السابع علاوة على الأسباب المذكورة لاختيار علي كره لتأسيس المدرسة واضح وظاهر حيث توجد هنا من قبل جمعية علمية تتولى الترجمة الأردنية للكتب العلمية. وهذه الترجمات سيستفيد منها طلاب المدرسة وأساتذتها. والأمر الثاني أنّ الجمعية العلمية والمدرسة تتقوى بعضهما البعض، وفي النهاية تتمتع بالتطور والازدهار.¹ وهنا لا يخلو من الأهمية أن نذكر أنّ السبب الأخير قد ذكره النواب وقار الملك أيضًا كما جاء في رسالته أنّ الجمعية العلمية توجد فيها قاعة جيدة للمطالعة تتوفر فيها الجرائد بشتى اللغات من البلاد المختلفة، وتصدر من الجمعية نفسها جريدتان باللغتين، وعلاوة على ذلك توجد المكتبة القيّمة المتصلة بها تتوفر فيها الكتب باللغة الأردنية المتعلقة بعلوم الطبيعة، وتوجد فيها الآلات العلمية والتجريبية التي يستطيعون بها إلقاء الخطب المفيدة. ولذلك يكون تأسيس المدرسة بجوار مثل هذا المعهد مفيداً، ويستفيد المعهد نفسه من المدرسة كثيراً.²

ومن الواضح أنّ النواب وقار الملك جعل نشر جريدة "تهذيب الأخلاق" من هذه المدينة سبباً لاختيارها موقعاً للمدرسة بالإضافة إلى الجمعية العلمية. وكتب أنّ جريدة "تهذيب الأخلاق" التي تخص بثقافة المسلمين تصدر من علي كره أيضاً، وستصدر في المستقبل من هنا كما اعتقد، فتكون علاقتها بمدرستنا العظيمة هي العميقة، وكما أظن أنها تتعلق بمدرستنا مستقلاً إن شاء الله، وتسمى "جريدة مدرسة العلوم" للمسلمين، وتنشر فيها مقالات الطلاب المؤهلين.³

والواقع أنّ تمّنيات النواب وقار الملك الشيخ مشتاق حسين رحمه الله المخلصة بشأن جريدة "تهذيب الأخلاق" تحققت كاملاً حتى صارت هي ترجماناً لحركة السير سيد، وجريدة مقبولة وحبّية لمدرسة العلوم (A. M. O. Collage) وما شاء الله

¹ نفس المرجع.

² نفس المرجع، ص 465-466

³ نفس المرجع، ص 466

حتى اليوم لا تزال مكانتها على حالها، وتزداد يوماً بعد يوم، وتزين بمقالات أبناء هذه المدرسة أيضاً.

وبالإضافة إلى ذلك أنّ النواب وقار الملك ذكر سبباً هاماً وممتعاً لاختيار علي كره كموقع لمدرسة العلوم (ولا يوجد ذكره عند السير سيد) وهو أنّ هذه المدينة سيكون فيها الكثير من الاقتصاد في المصروفات أي هذه المدينة رخيصة. وضرب له مثلاً إن تقدّر تكلفة بثلاثمائة ألف روبية لبناء المدرسة. وتكفيه في مدينة علي كره فلا يكفي أربعمئة ألف لمثل هذا البناء في إله آباد. والأمر الثاني المهم الذي أوضحه النواب أنّ هذه المدينة رخيصة من حيث المصروفات علاوة على المواد البنائية، وتتوفر فيها جميع الأشياء الضرورية بسعر مناسب ومنخفض. وكذلك يستفيد الطلاب والأشخاص الآخرون المنتسبون إلى المدرسة من هذه الرخص.¹ ولعلّ أحدًا لا ينكر خصيصة علي كره هذه والتي لا تزال موجودة حتى اليوم. والواقع أنه، على الرغم من أنّ 145 عامًا مضت على هذا المقال الذي نحن بصددده، لا تزال علي كره تعتبر أخص مدينة بالنسبة إلى مدن الهند الشمالية الغربية.

وبعد تقديم جميع هذه الأدلة في كون علي كره موقعاً ملائماً لإنشاء مدرسة العلوم اعتبر السير سيد هذا التوضيح ضرورياً من وجهة نظر موضوعية أنّ علي كره وطنه. ولكن الحقيقة هي أنّه ولولم تكن علي كره وطنًا له فتوجد فيها ميزات تجبره على اختيارها موقعاً لهذه المدرسة وتناسبها الاحتياجات والأهداف التي تنشأ لأجلها هذه المدرسة.²

وفي النهاية قدّم السير سيد خلاصة كلامه بهذه الكلمات:

"فإذا نظرنا إلى مجموعة كل هذه الأسباب، فسنجد سبباً قوياً يدل على كون علي كره موقعاً جيداً ومناسباً، لا يدل على أي موقع آخر، ووفقاً له يعتبر كاتب في

¹ نفس المرجع، ص 465

² نفس المرجع، ص 464

صحيفة علي كره، علي كره أفضل المواقع وأحبها، والمسلمون البعيدو النظر والأذكياء الذين يحبون مطالب المدرسة وأهدافها يعتبرون علي كره أيضاً صالحة لها للأسباب المذكورة أعلاه".¹

ويناسبنا هنا التوضيح بأن السير سيد حلل جميع الكتابات والرسائل المنشورة في Aligarh Institute Gazette والصحف الأخرى، وآراء الناس المطروحة في اللقاء الشخصي في هذا الباب بعد نشر الإعلان الذي يتعلق باختيار الموقع المناسب لمدرسة العلوم بأربعة أشهر تقريباً، وقام بتقديم تقريرها مفصلاً في اجتماع لجنة خزانة البضاعة (المنعقد في 8 نوفمبر 1872م)، وتم نشره بعد المناقشة في Aligarh Institute Gazette. وبعد إلقاء النظر عليه يظهر أن أسباب الاختيار التي ذكرت في الرسالتين المذكورتين ذكرت خلاصتها فيه. وعلاوة على ذلك يتضح العديد من الأشياء الجديدة أيضاً التي يمكن أنها مأخوذة من تلك الكتابات المنشورة في الجرائد الأخرى استجابة للإعلان، ومن المناسب شرح هذه النقاط الجديدة التي تتعلق بأسباب الاختيار.

النكتة الأولى: المدرسة التي اقترح إنشاؤها، والتي كانت مستهدفة لحفظ الطلاب من القلق، واطمئنان قلوبهم، وتحلّيمهم بالأخلاق الحميدة، وولعهم بحسن العشرة، كان الضروري لها أن تؤسس في مدينة لا كبيرة ولا مزدحمة ولا مليئة بالرغائب، وأن لا تكون صغيرة يقلّ فيها توافر الأشياء الضرورية، ولو ننظر وفقاً لذلك فيبدو أن علي كره جدّ مناسبة لها.²

النكتة الثانية: إن علي كره لها أولوية لأن في ضواحيها سكناً سيساعدون المدرسة، وينفعونها عند الحاجة. ويضيف السير سيد قائلاً: ينبغي لنا عند اختيار موقع

¹ نفس المرجع

² نفس المرجع، 48/7، 29 نوفمبر 1872م، ص 753

مناسب للمدرسة أن ننظر في نوعية الأشخاص الساكنين به أو في ضواحيه فنتوقع منهم أن يكونوا هم وأولادهم ناصرين لها ومعينين، ويهتمون بها ويتفقدونها. ومن هذه الجهة عندما ألفت نظري فأرى الظلام في جميع الأنحاء، ثم لا يتوقع شيء من الآمال إلا من سكان ضواحي علي كره.¹ وأوضح قوله بأن عددًا كبيرًا من المسلمين يوجدون في علي كره والقرى المجاورة لها، ويسكن في هذه المنطقة الأغنياء والإقطاعيون، ومنهم أصحاب الضمائر الحية والفهم، والمتأسفون على حالات المسلمين السيئة. وكان الرجاء من جميع الناس وأولادهم أن يكونوا مسؤولين عن بقاء المدرسة وناصرين لها، وهذه (من حيث اختيار موقع مناسب لها) ميزة خاصة من ميزات علي كره إذ لم يكن لها نظير في المدن الشمالية الغربية، ولذلك أرى علي كره أجود الأمكنة لتأسيس "دار العلم".²

وبالإضافة إلى ذلك قدّم السير سيد موقفه هذا من آكره، وإله آباد، وروهيل خند، ودلّهم مع الدلائل في تقريره (اقتراحات الناس التي وصلت فيهن لتأسيس مدرسة العلوم) أنه لا يوجد أي موقع أنسب منها لمدرسة العلوم.³ وعلاوة على ذلك ردّ السير سيد على آراء الناس في هذا الصدد، الذين يرون أن تكون المدرسة في مدينة معروفة ليكون اسم المدرسة عاليًا، ويطير صيتها. فعلق عليه السير سيد تعليقًا بليغًا وهو "يشتهر الموقع الذي تأسست فيه هذه المدرسة اشتهارًا بالغًا ستزل أمامها جميع مدن الهند الشهيرة، أليس العدد القليل من سكان أوكسفورد وكامبردج أشهر من جميع مدن إنكلترا الشهيرة".⁴ من ينكر أن فكرة السير سيد هذه ثبتت صحيحة مئة بالمئة.

¹ نفس المرجع، ص 754

² نفس المرجع

³ نفس المرجع، ص 754-755

⁴ نفس المرجع، ص 755

وفي نهاية التقرير أوضح السير سيد هذه النكتة القيمة أيضاً في اختيار علي كره موقعاً مناسباً لمدرسة العلوم بأنّ نفس اسمها أكبر الأسباب لأولويتها، و[بكلماته]: أنّ علي كره اسم جميل ورائع، وقول رسول الله ﷺ هذا معروف: "أنا مدينة العلم وعلي بابها"¹ فهذه المدرسة الأولى لنا المسلمين التي ستكون باب العلم حقيقة، فلا ينبغي أن تكون إلا في علي كره.²

وما يبدو من الأمور الهامة من هذه التفاصيل هي: أنّ المؤسس اهتم باختيار الموقع للمدرسة اهتماماً بالغاً. وبذل الجهد بكل ما يمكن لمعرفة آراء عامة الناس في هذا الباب، ولم يحاول معرفة آرائهم بالطريقتين الكتابية والشفوية فحسب، بل اهتم بهما اهتماماً خاصاً. وحلّل آراء المعربين عن اختيار الموقع المناسب وأسباب اختيارهم له تحليلًا دقيقًا. وقدم تقريره بالتفصيل في اجتماع لجنة خزانة البضاعة لتأسيس المدرسة للمسلمين، ويتضح من القرار المتخذ بعد المناقشة أنّ مصلحة الطلاب والمنتسبين إلى المدرسة قد عني بها في هذا الشأن، واهتم بفلاح المدرسة ونجاحها اهتماماً بالغاً.

الباب الثالث

الجلسة الافتتاحية لمدرسة العلوم- جوانب مهمة

لا شك في أنّ قيام مدرسة العلوم في علي كره باب لامع من أبواب تاريخ المسلمين الهنود، ولتأسيسها أهمية كبيرة في تاريخ الأمة الإسلامية بالهند، وإنّ الأمة بأكملها شاكرة للسير سيد رحمه الله على صنع هذا التاريخ الرائع، ولم لا؟ إذ أنه كان خطوة ثائرة خطيرة تحمّلها المؤسس بمساعدة من زملائه. وفي الحقيقة أنّ هذه المدرسة كانت مظهرًا من المظاهر العملية لمهمته الإصلاحية الطويلة التي بدأها في

¹ هذا الحديث موضوع، انظر: السلسلة الضعيفة للألباني برقم: 2955

² Aligarh Institute Gazette، 29 نوفمبر 1872م، ص 755

الستينات، والتي لأجلها أوقف قدراته ومواهبه وكل ما يملكه. والتخطيط والإعداد الذي قام به السير سيد لتأسيسها قد تقدم ذكره باختصار في الباب الثاني. ومن المناسب هنا أن يضاف إليه أن الموافقة تمت على فتح المدرسة للتعليم الابتدائي بعلي كره في اجتماع لجنة البضاعة لتأسيس مدرسة العلوم للمسلمين الذي انعقد في مدينة بنارس في 25 فبراير 1875م¹. وإخراجها إلى حيز الوجود نشر الإعلان في جريدة Aligarh Institute Gazette، الصادرة في 7 مايو، وهو كالتالي:

الإعلان

ننشر هذا الإعلان لإعلام الجميع بأن لجنة البضاعة لتأسيس مدرسة العلوم للمسلمين وافقت على افتتاح مدرسة العلوم للمسلمين للتعليم الابتدائي في علي كره التي جاء ذكرها بشأن تعليم مدرسة العلوم وتلك بإشراف الشيخ محمد سميع الله خان قاضي مساعد علي كره بدءًا من 1 يونيو.

1. على الطالب الذي يلتحق بهذه المدرسة أن يؤدي رسومًا حتى الوسع أكثرها 5 روبيات، وأقلها 3 روبيات. ومع ذلك سيكون خيار التخفيض أو الزيادة أو الإعفاء عن الكل للجنة إدارة المدرسة.
2. وللطلاب خيار أن يرتبوا سكنهم بأنفسهم في علي كره، وإن أرادوا البقاء تحت إشراف لجنة إدارة المدرسة فيوفر لهم السكن والوجبات الغذائية، ويتقاضى الطلاب التكاليف المصروفة عليهم في سكنهم ووجباتهم الغذائية أو يتقاضى أولياؤهم.
3. يتم تعيين المدرسين لتدريس اللغة الإنكليزية والعربية والأردية، وسيكون للطلاب حرية في اختيار لغة التدريس.

¹ تقرير جلسة أعضاء لجنة خزانة البضاعة لتأسيس مدرسة العلوم للمسلمين المنعقدة في 25 فبراير 1875م، ص 2، ومقالات سر سيد (مقالات السير سيد)، مجلس ترقى أدب، لاهور، 1963م، 391/12.

4. وسيكون هناك مدرس على حدة لتعليم المذهب السني والشيوعي، وكما يوصي أعضاء لجنة المذهبيين للتعليم الديني سيتلقى الطلاب تعليمهم المذهبي على نفس المنوال.

5. العلوم التي ستُدْرَس في المدرسة فعلاً تفصيلها كما يلي:

أ. اللغة الإنجليزية وعلومها وآدابها.

ب. اللغة العربية صرفها ونحوها وعلومها وآدابها، والكتب الدراسية الابتدائية.

ت. اللغة الفارسية وعلومها، وعلوم الأردية وآدابها.

ث. الرياضيات.

ج. الجبر والمقابلة.

ح. الهندسة أي تحرير أقليدس وغيره.

خ. التاريخ.

د. الجغرافيا.

ذ. كتب مذهب أهل السنة والجماعة، ومذهب أهل الشيعة الاثنا عشرية، كما توصي لجانها.

السير سيد أحمد خان بهادر، سي - ايس - آئي

أمين عام لجنة خزانة البضاعة¹

وفيما بعد تغير تاريخ الافتتاح إلى 24 مايو 1875م (كما يتضح من تقرير اجتماع خزانة البضاعة المنعقد في 20 مايو 1875م)، ووفقاً لهذا انعقدت الجلسة الافتتاحية لمدرسة العلوم تحت رئاسة رفيق السير سيد الحميم الشيخ محمد كريم نائب جاني الضرائب لعلي كره. ولا شك أن افتتاح مدرسة العلوم كان مناسبة الفرح

¹ Aligarh Institute Gazette، 19/10، 7 مايو 1875م، ص 284

والسرور للغاية، لأنَّ سراجًا جديدًا للعلم كان يضيء، وكان يخرج مركز عظيم للتعليم إلى حيز الوجود ترتبط به آمال الكثير من الناس، وكان الحماس شائعًا في كل مكان، وكانت هناك سلسلة التهاني والتبريكات يئنُّ بها الناس بعضهم بعضًا. ولا يخلو من الأهمية ذكر أنَّ تقرير افتتاح العمل الثائر للسير سيد أو مدرسة العلوم نشر في Aligarh Institute Gazette بعنوان "بشرى مباركة" ولا شك أن هذا العنوان كان ملائمًا ومناسبًا للغاية يعكس على هذه المناسبة السارة والمباركة بأكملها. ولا يخلو من الأهمية بمكان نقل محتويات هذا التقرير التاريخي بأسرها، وإعادة النظر فيها، وإدراك معناها بمناسبة الاحتفال بالذكرى المئويتين للسير سيد.

بشرى مباركة

"هذه خدمة عظيمة لا يوجد لها نظير في الهند في زمننا هذا، وهي نموذج عالٍ ليس له مثيل في هذا العصر، أي وسيلة النجاح والفلاح التي قد لقبت بمدرسة العلوم للمسلمين التي تجاوز صيتها حدود الهند إلى الآن، ولا يشك اثنان في علوِّ كعبها، وإن لم تتجلَّ في صورتها الأصلية إلى الآن ولم تقرَّ عيون المسلمين بالهند من جمالها وحالتها اللامعة، ولكن من شدة الفرح والسرور والاطمئنان أنَّ المدرسة للتعليم الابتدائي قد أسست في 24 مايو في علي كره، وأقيم حفل التدشين بكل عظمة وروعة، الذي ترسَّخ برؤيته في قلوب المسلمين تصوّر أنَّ ذلك اليوم ليس ببعيد حين تتجلَّى فيه صورة مدرسة العلوم التي كانت مجرد خيال إلى الآن تتجلَّى في عالم الوجود.

والجسلة العظيمة التي عقد فيها هذا الحفل المبارك كانت تظهر مليئة بالفرح العجيب، وكان قلب كل فرد منا فياضًا من شدة البهجة والسرور. وكان أصحاب المكانة والمناصب العالية مملوئين بالحب الوطني في ذاك الوقت، وكانت جدران البيوت تردد مرحبًا بحماس تعاطفهم وتضامنهم.

وأول من ألقى خطابًا موجزًا في هذه الجلسة هو الشيخ عبد الكريم بهادر نائب جابي ضرائب علي كره، ثم ألقى الشيخ محمد سميع الله خان بهادر سكرتير الجلسة خطابًا ممتعًا مشتملاً على تفاصيل أهداف المدرسة وغاياتها. ثم ألقى الشيخ چراغ علي خطابًا، وفي النهاية ألقى السير سيد أحمد خان خطابًا راع المسلمين، وكان هذا الخطاب مملوءًا بالسحر الذي إذا وصلت كلماته المؤثرة إلى أذن شخص لم يتمالك نفسه على أن يصبّ الدموع، ولم يستطع أن يملك قلبه. وكان يعول كل شخص كأنه يرى أحوال المسلمين المؤسفة بأمّ عينيه. وكان يقطر الألم من كل كلمة من كلمات هذا الخطاب المعجز، ويخرج صوت آه من كل فقرة من فقراته. ولقد أيقن هذا الخطاب بلا شك أنّ المسلمين سيكونون في أشدّ الحالة المؤسفة إذا لم يصحوا بعد، ولم يكن أثر غفلتهم هذه محدودًا في أنفسهم فحسب بل يعمّ أثر ظلمهم هذا أجيالهم القادمة.

وارتبط الأمل بهذه المدرسة كثيرًا بأنّ حالة المسلمين التي يبكي عليها الجميع الآن ستغير في المستقبل حتمًا، ويأتي زمان يحتفل فيه بالسعادة والسرور بانتهاء عهد المسلمين من التخلف، وأنهم أحرزوا تقدمًا ورفقًا، ولا شك أنّ مثل هذه المدارس سوف يكون لها تأثير يجعل المسلمين لا يعملون للبريطانيين في المستقبل كطهارة وحاملي المشاعل وخدام وفراشين كما نراهم يقومون لهم بمثل هذه الأعمال الآن، ولن تستفيدوا من هذه المدرسة بأن تصلح بها حالتهم الدنيوية فحسب، بل تصلح حالتهم الدينية أيضًا. ويرفع عنهم ما يوجد فيهم من عدم المعرفة عن العلوم الدينية في هذا الوقت، وتكون أكبر فائدة من هذه المدرسة للذين يترددون في مستقبل مدرسة العلوم يبعدون من هذا التردد، وتيسر لهم حالة تطمئن بها قلوبهم إضافة إلى ذلك أنّ هذه المدرسة ستعدّ العديد من الطلاب بجهدا في المدة التي تقام فيها مدرسة العلوم، والذين يتمكنون من الالتحاق بها.

فعلى ما ذكرناه سابقًا من الأسباب إنّ خير افتتاح هذه المدرسة خبر مبارك جدًّا يفرح به مسلمو الهند الذين تفور قلوبهم بالمحبة الوطنية، ولا شك أنّ المسلمين

يوقنون الآن في قيام مدرسة العلوم حتمًا، وبما أننا نتوقع فلاحًا عامًا للمسلمين من هذا العمل الذي ليس له نظير، وبالتالي أن المسلمين سيجدون الفرصة في شعبيهم لأن يرفعوا التهاني والتبريكات فيما بينهم، وعلمهم أن يرسخوا فكرة تنميتها في قلوبهم ظانين أنها واجبة عليهم فيقوموا بمساعدتها".¹

وألقى خطابًا في هذه الجلسة الافتتاحية الشيخ سميع الله، والشيخ چراغ علي وسيد محمود، والسير سيد أحمد خان، والملك جيه كشن داس علاوة على رئيس هذه الجلسة، وفي الأخير أعرب خواجه علي أحمد خان سكرتير لجنة الأعمال الخيرية بدلي، وخواجه محمد يوسف محامي محكمة علي كره عن انفعالاتهما في مدرسة العلوم باختصار. ويتضح هنا أن التقرير الموجز لهذه الجلسة الذي نشر في Aligarh Institute Gazette بعنوان "بشرى مباركة" بتاريخ 28 مايو 1875م، لا يوجد فيه ذكر خطاب سيد محمود، والملك جيه كشن، وذلك لاختصاره غالبًا. وعلى كل فقد نشر ملحق بهذا العدد اشتمل على ثماني صفحات وتوجد فيه تفاصيل التقرير لهذه الجلسة الافتتاحية كاملاً. ونقل فيه نصّ خطابات هؤلاء الأشخاص الخمسة المذكورين أعلاه في هذا الملحق، وقدم نص خطاب السير سيد مع دراسة محتوياته التحليلية في الباب التالي، وتذكر خلاصة تقارير خطابات أخرى في السطور الآتية، ولكن قبل هذا أرى من المناسب أن أنقل فقرات بدائية لهذا التقرير:

افتتاح التعليم الابتدائي في مدرسة العلوم للمسلمين في علي كره

"انتهى حفل افتتاح التعليم الابتدائي في مدرسة العلوم للمسلمين في أحسن صورة يوم الاثنين 24 من شهر مايو سنة 1875م، وذلك بمناسبة ميلاد الملكة العظيمة فيكتوريا، واجتمع عدد غير قليل من المسلمين، والرؤساء وأعضاء لجان مدرسة العلوم في هذا القصر الذي اشترته اللجنة، وفعلاً اقترح عنه أن

¹ Aligarh Institute Gazette، 22/10، 28 مايو 1875م، ص 338-339

يكون هذا مبنى للمدرسة. وترأس هذه الجلسة الشيخ محمد كريم بهادر نائب جابي الضرائب الذي هو رئيس مجلس إدارة المدرسة، بدأت الجلسة بخطاب الرئيس الذي كما يلي¹:

"الحمد لله العلي الأعظم الذي علّم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على خير خلقه ورسوله محمد المبعوث إلى جميع الأمم وعلى آله الأكرم وأصحابه الأفخم أما بعد:

أيها الحضور! انعقدت هذه الجلسة المباركة اليوم بمناسبة بدء التعليم الابتدائي في مدرسة العلوم للمسلمين التي اقترحنا إنشاءها لفلاح دين إخواننا وديناهم، وتقدمهم. و24 مايو الذي هو يوم ميلاد الملكة العظيمة للمملكة المتحدة والهند التي نعيش في حكومتها نحن الشعب المسلم جميعاً مع الحرية الدينية والدينيوية، ولدينا حرية كاملة في تحقيق تقدّمنا وفلاحنا الديني والدينيوي، وهذا اليوم بلا شك يوم الفرح والسرور للغاية، ويوم التهاني والتبريكات لشعب الهند، وفي الحقيقة بدء التعليم الابتدائي في مدرسة العلوم للمسلمين وسيلة من وسائل التقدم الديني والدينيوي لشعبنا، ففي هذا اليوم عقد الاجتماع سعادة وتهاني مزدوجة لنا، ويوم 24 مايو يذكر في تاريخ الهند والمملكة المتحدة دائماً، كما يذكر بدء مدرسة العلوم للمسلمين في 24 مايو 1875م في تاريخنا الوطني، والآن أختتم خطابي بهذه الكلمات المختصرة لأنّ صديقي الشيخ محمد سميع الله خان سكرتير مجلس إدارة المدرسة سيبين أحوال المدرسة والأمور الإدارية مفصلاً².

وبعد خطاب الشيخ محمد كريم ألقى الشيخ محمد سميع الله خان سكرتير مجلس الإدارة خطابه، وسلّط الضوء على أهداف مدرسة العلوم وأغراضها مفصلاً، ووضح

¹ ملحق جريدة Aligarh Institute Gazette المشتمل على التقرير لجلسة افتتاح التعليم

الابتدائي في مدرسة العلوم للمسلمين بعلي كره، 22/10، 28 مايو 1875م، ص 1

² نفس المرجع، ص 1

أنّ هذه المدرسة مدرسة عظيمة وفاخرة للغاية سيكون فيها تعليم العلوم الدينية والعصرية حسب الطلب، وأنه قدّم المعلومات اللازمة في خطابه بشأن قواعد المدرسة وأصولها، ونظم السكن، والمنح الدراسية للطلاب المجتهدين والموهوبين، والمساعدات المالية للطلاب المساكين (سيأتي ذكرها في الباب الخامس مفصلاً)، وعلاوة على ذلك أنه أثنى على أعمال لجنة الراغبين في رفع مستوى تعليم المسلمين بالهند ولجنة خزانة البضاعة، وأعرب عن انطباعه بأنّ أعضاء اللجنتين يستحقون الشكر والتقدير على جهودهم وجديتهم ونشاطهم من الشعب كله، وبالإضافة إلى ذلك أنه قدّم الشكر في تأسيس المدرسة لمحافظي المدن الشمالية الغربية، وموظفي الحكومة الآخرين على تقديم المساعدات، والنواب سالار جنغ بهادر على عطاياه، وشكر خاصاً لرؤساء مدينتي علي كره وبلند شهر المعروفين في علوّ الهمة والجود الذين قدّموا دعمهم كاملاً لإجراء التعليم الابتدائي في مدرسة العلوم.¹

وبعد ذلك ألقى خطابه الشيخ محمد جراح علي سكرتير لجنة مفكّري تعليم مذهب الشيعة الإمامية الاثنا عشرية، وأعرب فيه عن انطباعه قائلاً: في الحقيقة إنّ افتتاح هذه المدرسة مظهر من مظاهر فكرة السير سيد العالية، وهمة الرفيعة، وعزيمته الراسخة، وأنه لم يظهر علوّ همته في هذا الزمن المظلم بلسانه فحسب، بل "شاع أثره الحسن في شعبه، واليوم قام بتقديم أسوة حسنة، وأساس قوي من العمل والتنفيذ". وأنه أدلى ببيان مملوء بالأمال عن المدرسة: "إنّ هذه المدرسة تبدأ باسم التعليم الابتدائي ولكن ينبغي اعتبارها مصداقاً لفلاحنا وعروجنا نحن ولأجيالنا القادمة، والشجرة المثمرة للتضامن الوطني، و"أصلها ثابت وفرعها في السماء". وكذا قال: إنكم في الواقع تلاحظون أنّ هذا التعليم الابتدائي سيتحول تدريجيّاً إلى مدرسة حقيقية ويمثل المدارس الكبيرة كمدارس دمشق، وبغداد، وقرطبة وغرناطة، واليوم لا توجد لها آثار إلا أسماؤها، ومدرسة العلوم هذه سوف

¹ نفس المرجع، ص 2-1

تنافس جامعتي أوكسفورد وكامبردج اللتين هما معادن العلم والمعرفة اليوم في العالم كله".¹ بعد ذلك خاطب سيد محمود بكلماته التالية: اليوم يوم بطلت فيه فكرة من كانوا يمزحون بها، واليوم سيستيقظ مثل هؤلاء من النوم، ويرون أنّ الفكرة نفسها تتواجد اليوم، وابتدأ تعليمها". وقال أيضًا: اليوم نشعر بالسعادة والسرور برؤية نتيجة جهودنا؛ ونتوقع أنّ الناس يتوجهون إلى التعليم الآن، ويحصلون على الشرف والعزة ملّمين بالعلم والمعرفة، وهم يقومون بتوفير الأمن والراحة لشعبهم، "كمثقف يوفرهما لشعبه، وأولاده، ووطنه".²

ثم ألقى السير سيد خطابًا سيأتي ذكره المفصل في الباب التالي، وعلاوة على ذلك ألقى صديقه ومختبر المدرسة راجه جيه كشن خطابًا في هذه الجلسة أيضًا، واعتبر حضوره فيها شرفًا وعزة له، وأثنى على المهمة التعليمية التي بدأها السير سيد لمتطلبات التضامن الوطني. وأنه أعرب عن اتفاقه مع رأي سيد محمد محمود هذا "الآن ليس الوقت للتحرّس على رثانة بال الشعب، بل هناك حاجة إلى تفكير وإجراءات عملية لأجل التطوير والتنمية في المستقبل، إضافة إلى ذلك أنه نبّه الحضور على هذه النكتة الثمينة بهذه الكلمات:

"ينبغي لهذا البلد أن يترك الاختلافات الدينية ويتوجه نحو تحقيق الفلاح الوطني، لأنّ الجميع أولاد آدم، (وآدم من تراب) وهناك علاقة دائمة بين المسلمين والهندوس، فليتفقوا جميعًا، ويتجنبوا الذلة والإهانة، والعزّ واحد لنا وللمسلمين من حيث الوطن".³

وبعد ذلك أعرب خواجه أحمد علي سكرتير لجنة الأعمال الخيرية بدلهي عن اتفاقه مع أهداف المدرسة وأغراضها كليًا، كما أوضح أنّ القائمين بأعمال عظيمة

¹ نفس المرجع، ص 3-4

² نفس المرجع، ص 4-5

³ نفس المرجع، ص 8

يواجهون صعوبات ومشاكل دائماً كما حدث مع السير سيد، ولكن نأمل أن هذه الأشياء ستزول إذا اتضح هدف المدرسة الأصلي للناس.¹ وأخيراً أظهر محمد يوسف قاضي مساعد علي كره فرحه في خطابه الموجز على تأسيس مدرسة العلوم في علي كره، وقال إن تأسيسها في علي كره عزّ وشرف لأهاليها رغم طلب إنشائها في المدن الكبيرة الأخرى، ولذلك فإنّ على سكّان المدينة ورؤسائها حقاً في مساعدة جهود تبذل لتطويرها.²

وبعد جميع هذه الخطابات قام رئيس الجلسة وأعلن قائلاً: أنا أخبركم جميعاً بأنّ التعليم الابتدائي في مدرسة العلوم قد ابتداء من اليوم.

وكان من أهم جوانب هذه الجلسة الافتتاحية أنّ الطلاب الذين قبلوا في هذه المدرسة أولاً قدّمهم السير سيد بين يدي رئيس هذه الجلسة، وعزّف الحضور بهم، وذكر أيضاً أنه حدّد تاريخ الافتتاح أولاً 1 يونيو، وأعلن عن وصول الطلاب الملتحقين بها إلى علي كره إلى 30 مايو، ولكن غيّر هذا التاريخ فيما بعد إلى 24 من مايو، ولذلك لم يحضر الطلاب هذه المناسبة إلا القليل منهم، ولاحظوا المشاعر والعواطف التي أعرب عنها السير سيد عند التعريف بالطلاب الأوائل للمدرسة في شكل التقرير الذي نشر في جريدة (Aligarh Institute Gazette):

"بعد ذلك قام الشيخ سيد أحمد خان بهادر وقُدّم الطلاب الذين كانوا موجودين في المدرسة للالتحاق بها أمام الرئيس، وقال: إن تاريخ 1 يونيو 1875م قد عيّن لافتتاح مدرسة العلوم، ولكن غيّر ذلك التاريخ ولذلك لم يصل جميع الطلاب الذين أمروا بالحضور في المدرسة في 30 مايو، ولكن مع ذلك اجتمع عدة طلاب في هذه المناسبة، أنا مسرور جداً وأشعر بسعادة داخلية لأنّ أول طالب التحق بهذه المدرسة هو ابني حميد الله، وأهني كثيراً أخي العزيز سميع الله خان الذي أعطاه

¹ نفس المرجع

² نفس المرجع

الله القدرة التامة، ويمكن له أن يصرف على تعليم ابنه في هذا الوقت ثلاثمائة روبية شهريًا مع ذلك أنه ألحق ابنه بهذه المدرسة للتضامن الوطني مثل الطلاب المساكين، أو الطلاب الأغنياء الذين يلتحقون بالكلية، وأنا أدعو الله تعالى من داخل قلبي أن يطيل أعمار هؤلاء الطلاب الأوائل ويبارك فيهم.

وبعد ذلك جاء طالبان بئسان من أعظم كره، من بينهما طالب توفي والداه، وأما الآخر فأبواه على قيد الحياة بفضل الله تعالى. ولا حاجة لبيان المحبة والشفقة التي تكمن في الوالدين، ولكن لما سمعوا بافتتاح مدرسة العلوم أرسلوهم على الفور، وهؤلاء الطلاب كلهم أبناء الأغنياء، وأدعو الله لهم أن يطيل أعمارهم، ويرزقهم الرقي والثروة والغنى، وأن يعطيهم علمًا يزيد به معرفتهم بالله، والإيقان بصفاته، ويزداد به نور الإيمان في قلوبهم، ويجنبهم علمًا قيل فيه "العلم حجاب أكبر".¹

(لم ترد أسماء هذين الطالبين اللذين جاء من أعظم كره في البيان المشار إليه أعلاه، ولكن تفاصيلهما توجد في مصادر أخرى على النحو التالي: 1- إحسان الله بن عزيز الدين. 2- وثناء الحق بن محمد باقر، وكلاهما من سكان تشريا كوت، من مديرية أعظم كره).²

وبعد ذلك قُدِّمَ الشكر لرئيس الجلسة، ثم أعلن بانتهائها، وفي هذا الصدد أرى من المناسب الإشارة إلى أن عشرة رجال من أهل الخير عرضوا مساعدة مالية لطلاب المدرسة الفقراء بمناسبة افتتاحها، وكان منهم رئيس الجلسة نفسه الشيخ محمد كريم.³

¹ نفس المرجع

² ملحق جريدة Aligarh Institute Gazette، 28 مايو، 1875م، ص 8، وتقرير تطوّر تعليم مدرسة العلوم للمسلمين بعلي كره، سبعة أشهر الأخيرة لـ 1875م، ميدكل هال بريس، بنارس، 1876م، ص 9

³ ملحق جريدة Aligarh Institute Gazette، 28 مايو، 1875م، ص 8

وفي النهاية لا يخلو من الأهمية بمكان أنّ مدرسي المدرسة وغيرهم قدّموا منظومة التاريخ، والتهنئة بمناسبة افتتاح المدرسة، وكذا أرسل الشيخ الطاف حسين حالي رسالة التهنئة المنظومة إلى السير سيد كما قدّم الشيخ محمد أكبر والشيخ محمد هاشم قصيدة عربية، وهكذا أرسل الشيخ صفدر حسين منظومة التاريخ باللغة الفارسية والأردية من مدينة غورخفور، وأرسل الشاه علي أحمد منظومة التهنئة بافتتاح المدرسة من أنبیتة في سهارنفور.¹ وقد أعرب السير سيد عن سروره بهذه المنظومات والرسائل، وشكر الله تعالى على أنّ الناس يبذلون سعادتهم بافتتاح هذه المدرسة، ويرسلون رسائل التهاني والتبريكات، وكان السير سيد اعتبر هذه الأشياء كلها سعادة حظاً للمدرسة.² وأرى من المناسب أن أختتم هذا الباب على أبيات منظومة للتهنئة كتبها الشيخ حالي وهي مليئة بالسرور والتهنئة والدعاء:

خودہ کہ وقف جہاں گنج سعادت ہے آج فتنہ ایام سے سب کو فراغت ہے آج

رہو مبارک سدا ساعت مسعود یہ برسوں میں ہوتی وصول یاروں کی محنت ہے آج³

ترجمة: بشراکم اليوم فقد أفرغت خزينة السعادة على العالمين، وفرغ الناس كلهم واطمأنوا عن فتن الأيام والليالي. لتكن هذه الساعة السعيدة مباركة للأبد فإنّ جهود الناس تتكلّل بالنجاح بعد أن تمرّ بسنوات بل قرون.

¹ حیات جاوید، المصدر السابق، ص 186، الہامش، رقم 1.

² Aligarh Institute Gazette، 28 مايو، 1875م، ص 339

³ نفس المرجع

الجامعة المالية الإسلامية

(حلقات متسلسلة لترجمة كتاب "قصة الجامعة" لعبد الغفار مدهولي)

﴿5﴾

- عبد الغفار المدهولي¹

ترجمة من الأردية: د. هيفاء شاكري²

السنة الثامنة

(من أغسطس 1927 م إلى يوليو 1928 م)

ربما يكون ممتعاً أن نتعرف على كيفية بداية المسرحيات في الجامعة، ولكنها بداية غريبة. ففي يوم من الأيام يأتي إعلان من مدير الجامعة بأن طلاب الصف الثالث من المدرسة سيقومون باستعراض في الحصة الأخيرة، تجمعت الجامعة بكاملها، شاهدنا طاولة في الركن، وضع عليها موقد كيروسين، وقدر، وكأس، وكمية من الثلج. شرح الطلاب موضوع "كيف يتكون السحاب، وكيف ينزل المطر" بطريقة علمية مثل معلم العلوم الذي يشرح للطلاب درس العلوم. وكانوا يتحدثون ويضحكون، تشجع الطلاب بهذا العمل وطلبوا مني أن أجهز لهم أشياء جديدة كهذه، وكنت أرغب في ذلك، في تلك الفترة لم يكن عدد مسرحيات الأطفال قد تجاوز مسرحية واحدة أو مسرحيتين. وكتبت للمرة الأولى مسرحية بعنوان "الطالب الوطني".

كان من أقوال مهاتما غاندي أن يتواصل الطلاب الأعمال التعليمية، ولكن إذا دعت الحاجة فإن على الطلاب الكبار مساندة القواد في ميدان السياسة، وقد وضعت هذه الفكرة نصب عيني أثناء تألّيفي لهذه المسرحية. ولم يكن هناك متسع

¹ كان مدرّساً في مدرسة الجامعة المالية الإسلامية، نيو دلهي

² مشارك في التحرير وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المالية الإسلامية، نيو دلهي

في القاعة حيث كان عدد المشاهدين كبيرًا، وكنا نحتاج إلى ستائر عديدة إذا قمنا بنقل العرض إلى الساحة، تبرع الطلاب بكل سرور لذلك، وقدمت الجامعة بعض المساعدة. وكانت أيام العيد، جلس منسوبو الجامعة والضيوف في الساحة، وحضر كذلك الشيخ محمد علي. في البداية قدم الطلاب النشيد الوطني، ثم قام طالب من الصفوف العليا بتمثيل دور طالب يؤمن بالقومية والذي يشارك في اجتماع وطني، ويتم القبض عليه، ويعمل على الرخى في السجن مثل الشيخ حسرت موهاني، ثم يطلق سراحه فيحتفل بذلك زملاؤه في المدرسة. ويقوم نفس الطالب بعد أن يكبر بحماية أموال شخص هندوسي أثناء الاضطرابات الطائفية. كان الشيخ محمد علي مسرورًا بهذه المسرحية وكان يعلق على الأحداث بصوت عالٍ بين حين وآخر. لأن كل هذه الأحداث كانت قد مرت عليه. وكان يقول: "هؤلاء الطلاب يقلدونني". وقد استمتع المشاهدون بذلك أكثر وأكثر. وقد مثل الطالب عرفان من لكانا دور الطالب الوطني، بينما مثل الطالب رفيق من الولاية المركزية دور قاطع الطريق بطريقة جيدة، أما نبي أحمد فقد قلّد الشيخ شوكت علي، فهو صاحب جسم ثقيل يجعل الطلاب يضحكون حتى قبل أن يتكلم.

في نفس الفترة سألتني أحد الطلاب: "كل ما نقوم به جيد، ولكن لماذا لا يكون هناك دور للفتيات في مسرحياتنا مثل مسرحية كبار الطلاب؟"

فرددت عليه: "لأنّ الفتيات لا يدرسن في مدرستنا، ولذلك لا يوجد لهن دور".

فردّ طالب: "وما المشكلة في ذلك، هناك من الأولاد في مدرستنا من يستطيع القيام بدور البنات".

فقلت: "جيد، ولكن من الأفضل أن يمثل الرجال دور الرجال والنساء دور النساء، فإذا بدأت الفتيات يدرسن في مدرستنا، وضعنا ذلك محل اهتمامنا، وانظروا إلى كلّ المسرحيات التي قدّمناها إلى الآن، كانت بدون الأدوار النسائية وكانت جيدة. فليس من الضروري الدور النسائي في كل مسرحية".

فهم الطلاب وتم حل القضية.

إنّ من يعمل ويجتهد يظهر أثره في كل شيء، فعندما حضر السيد رام شندرن والسيد ديوداس إلى الجامعة، قاما بترويج آلات الغزل اليدوية (النول)، وقد سألهم البعض ما فائدتها؟ ردّ نفس الرد الذي يرد به ويشعر بالفخر كل من يعمل عليها مرارًا وتكرارًا، أي أنّ وسائل البلد ليست من الكفاءة بحيث يشترك فيها الجميع، فالفلاح يبقى فارغًا دون عمل وفائدة طوال السنة إلا في فترة السنة التي يقضيها في العمل الزراعي، ويضيع الشباب المتعلمون سنوات عديدة في البحث عن الوظيفة أو العمل. ومن الأفضل أن نقوم بعمل شيء بدل قضاء الوقت في عالم خيالي. وعمل اليد يؤثر بطريقة جيدة على العادات الأخرى للمرء. وكأنه اصطياد عصفورين بحجر واحد، فهناك عمل نعمله من جهة، وتطوير للقطن الوطني المغزول يدويًا من جهة أخرى. فكونك بدون عمل ولبس الملابس المستوردة مثل أن تمنح كل ما تملكه للآخرين وتصبح عاريًا. على كل حال، ليس لهذه الأدلة، إنما كان الطلاب مسرورين لأنهم وجدوا شيئًا ممتعًا يشغلهم. ففي كل ركن ترى آلة الغزل اليدوية، وكأن القماش المستورد الذي نلبسه هو قرض لا يتم إيفاءه إلا بغزل القطن الوطني. وقد شجع على هذا العمل كثيرًا الأستاذ سعيد الأنصاري والأستاذ شفيق رحمه الله. ويستخدمه أصحاب التعليم الأساسي الآن للأغراض التعليمية. وسنذكر ذلك عند الحديث عن كلية تربية الأساتذة.

وعندما جاء موعد رحيل السيد رام شندرن نظم حفلة وداعية قال فيها: "تيقنت من تعاملكم الأخوي أنّ أساس خلافتنا هو الجهل وعدم المعرفة، وأعتقد أن الطلاب الهندوس والمسلمين هم حلقة الوصل للاتحاد بين الفريقين". وقد شكره الشيخ محمد علي قائلاً: "على المسلمين أن يخدموا الهندوس ويساعدوهم مثل ما ساند السيد رام شندرن المسلمين، لأن خدمة الإنسانية هي ما يدعو إليه الإسلام".

ولتشجيع الحرف اليدوية تم تأسيس قسم النجارة، وكان الأستاذ عبد الحي المتعلم من مدرسة الفنون في لکناؤ هو مدير القسم. فكان يساعد الطلاب في

صناعة أشياء جميلة للمعرض إضافة إلى تعليمهم المبادئ الأساسية لهذا الفن. وقد فاز الجامع المسجد ومنارة قطب المصنوعة من الخشب بعدة جوائز. كان عمل طلاب الأستاذ عبد الحي متميزًا دائمًا في معارض الجامعة.

كانت الرواتب قليلة في تلك الفترة في الجامعة، ولم تكن تصرف لعدة شهور، وكان الأستاذ يسكن في قرول باغ على بعد ثلاثة أميال من بوابة حبش خان، وكان يأتي مشيًا صباحًا ومساءً. وتقرر كذلك أن تكون مادة الرسم ضرورية لكل مراحل الدراسة، وبالنظر إلى العدد المحدود لمن يعلم الرسم، كان من الصعب أن نجد أستاذًا جيدًا يؤمن بالقومية، ولكن في النهاية وجدناه، شخص مليء بالحماس القومي، وفي رأيه أن بعض الأشياء يجب أن تكون ضرورية في الجامعة مثلاً: اللباس القطني، والطاقية القطنية، وحاولنا أن نقنعه بأن اللون الوطني من مميزات الجامعة، ولكننا لا نقيد في الأمور الفرعية. ولكن يحق لكل أستاذ أن يحاول إقناع طلابه بلبس الملابس القطنية. وأنا متأكد أن الطلاب الذين كانوا يتهربون من لبس الطاقية القطنية قد فهموا أنني أتحدث عن السيد أختار حسن الفاروقي. وهو الذي يحتفظ بالعلم الوطني وعلم الجامعة، ويقوم برفع العلم في كل مناسبة تحت رعايته.

بدأت مجلة "جوهر" والتي كانت قد توقفت لفترة بالصدور مرة أخرى في نفس هذه الأيام. بدأ السيد محمد قاسم السندي مجلة "كلشن" تحت إشراف النادي الأدبي للمدرسة، ولكونه سندياً لم يكن من السهل أن يتعلم اللغة الأردية مثل الطلاب الآخرين الذين كانت الأردية لغتهم الأم. ولكنه كان يتحمس بسبب هذا العمل، وقد استمر في إصدار المجلة لفترة طويلة.

عقد اجتماع عيد ميلاد النبي حسب التقاليد، وقد ألقى الشيخ خواجه عبد الحي خطابه في هذا الاجتماع إضافة إلى خطاب السيد رام شندرن.

واستمرت سلسلة خطب الشيخ محمد علي حول الفلسفة الإسلامية، وقد قال في

إحدى خطبه: "ليس معنى التوحيد فقط هو أن نؤمن بوجود إله واحد، إنما يشتمل المعنى على التحرر من عبودية النفس وكذلك من تقليد الآخرين".

تم إرسال الطلاب من قبل جمعية الاتحاد إلى الحفل السنوي لمدرسة هندوسية في كانكري، وقد شارك من كليتنا السيد سعيد الأنصاري والسيد عبد الحميد الزبيري. حصل الزبيري على الجائزة الأولى، وكذلك حصل فريقنا على الدرع لكونه الفائز في جميع المسابقات.

أسس الأستاذ بركت علي في هذه السنة "جمعية الحكمة"، وحاول أن ينظم عدة أمور واحدة تلو الأخرى، وكذلك كان ينظم ألعاب الطلاب غير المقيمين في السكن لفترة طويلة. وقد أسس من قبل هؤلاء الطلاب "الدرع التذكاري الأنصاري للهوكي" في عام 1938م. وشجع كذلك لعبة الكريكت في الجامعة. وكان حريصًا ومواظبًا، ففي الفترة التي كان يسجل فيها الحضور والغياب في المدرسة، توفيت عمته في صباح أحد الأيام، ولم يكن الوقت كافيًا لإخبار المدرسة، فقدم بنفسه وسجل الحضور والغياب ثم ذهب لتجهيز الجنازة.

تم الاهتمام في هذه السنة بالتزهر والترفيه، وفتحت لذلك مجالات جديدة للمستقبل. واهتم كل سكن بافتتاح الألعاب والأنشطة الترفيهية في الصالات المغلقة. ففي كل صالة كانت توجد لعبة "اللودو"، ولعبة "السلم"، و"الشطرنج"، و"الكيرم" وغيرها من الألعاب. وفي موسم الأمطار كنا نذهب إلى منطقة أوكلا والتي تبعد عن قرول باغ بعشرة أميال والتي يجري فيها نهر جمنا، وذلك للمتعة والترفيه. وكان بعض الطلاب يقولون: "يا ليت الجامعة كانت هنا". ولكن في تلك الفترة كانت هذه أمنية فقط، ولم يكن لأحد أن يتخيل بأننا سوف نسود هذه المنطقة بعد عشر سنوات. كيف نتخيل وكانت رواتب الأساتذة لم تكن تصرف لشهور، ولكن انظروا إلى ثبات هؤلاء الأساتذة، فإنهم لم يألوا جهدًا في تدريس الطلاب والاهتمام بترفيهم وألعابهم وتوفير كل ما يفرحهم، بل قاموا بإضافات جديدة كل سنة.

وجدت بركة حكومية على بعد مسافة بسيطة من المدرسة بالقرب من القصر القديم لأبي علي البخيتاري. وتم أخذ الإذن لتعليم الطلاب السباحة فيها. فكان جميع الطلاب يتجمعون في المساء، وكان الطالب محمد حسين الحيدرآبادي يعلمهم السباحة، والسباحة سهلة ولكن المهارة في إنقاذ الغريق، وكان محمد حسين ماهرًا في ذلك. كان الشيخ محمد علي يحضر في بعض الأحيان لرؤية ترفيه الطلاب. وفكر السيد ذاكر حسين مرة أن يتعلم السباحة، فنزل إلى البركة وجلس على حافتها، ووقف حسين ينتظره، فقال السيد ذاكر: "أحفظ كل أصول وقواعد السباحة، ولكن لا تأتيني الجرأة إلا إذا غطست عدة مرات".

لا ينسى طلاب هذه السنة مير باقر علي الحكواتي، كان من الأبناء القدامى لدلهي، وكان ماهرًا في سرد الحكايات، وماذا أقول عن طريقة سرده، وكأن الواقع يتمثل أمام الأنظار، وكأن شخصيات الحكاية قد تجسدت أمامنا تمثليًا وتتحرك، لم نكن نمل الاستماع إليه، ونتمنى أن نستمع إليه لساعات، حيث كانت قصصه تستغرق ثلاث ساعات على الأقل. فكان الطلاب والأساتذة يتجمعون في الليالي المقمرة على سطح سكن الطلاب الصغار "خاكسار منزل"، وكان مير باقر يحكي القصص القديمة لدلهي، قصص الملوك وأحيانًا أخرى قصص عامة الناس. وكانت الشخصيات متنوعة بين كبار السن والأطفال والنساء والرجال، والممتع في قصصه أنه كان يتحدث بلهجة الشخصية التي يحكي على لسانها. وفي وسط حكاياته كان ينصح الطلاب بعمل شيء أو يمنعهم عن بعض التصرفات على حسب الحكاية.

أما أجواء رمضان فكان لها لون خاص، حيث كان طلاب كل سكن يعزمون الأساتذة والمحاسبين وعرفاء الفصول إلى مائدة الإفطار، لم تتسن لنا فرص التواصل كهذه من قبل.

والآن اسمعوا أحوال الضيوف:

زار مهاتما غاندي الجامعة لأول مرة بعد نقلها إلى دلهي، فقدّم الطلاب والأساتذة

كيسًا يشتمل على سبعين روبية وذلك تبرعًا لعمل القطن اليدوي، كما قدّموا شهادة التقدير والامتنان. وكان معه كل من الشيخ محمد علي، والشيخ شوكت علي، والحكيم أجمل خان (مدير الجامعة)، والدكتور الأنصاري، والسيد جمنا لال البزاز، ومها ديف ديسائي.

كان الطلاب يغزلون الخيوط بالمغزل على طرفي الطريق المؤدي إلى المنصة، نظر غاندي إلى عمل كل واحد منهم وفرح كثيرًا. رَحَّب به الحكيم أجمل خان بكلمته الترحيبية، ثم قدّم طالب الكلمات التقديرية:

سيدي المهاتما! قد ملأتم قلوبنا بالفرحة بقدمكم الميمون إلى الجامعة، نشكركم من أعماق قلوبنا إذ شجعتنا زيارتكم هذه ورفعت من معنوياتنا، وندعو الله أن يديمكم أعوامًا عديدة لخدمة وطننا الحبيب.

وتعلمون جيدًا أنّ جامعتنا قد كلفت نفسها بعمل عظيم، فهي تود أن تمنحنا التعليم الذي يجعلنا عبادًا صالحين، وخدامًا صادقين لوطننا ومحبين للإنسانية. وتريد أن تغرس فينا الأخلاق الحسنة عن طريق العلم والفن، وأن نكسب الرزق الحلال لأنفسنا وأسرنا بالجد والاجتهاد، وأن نحاول أن نطور شعبنا ونحرر وطننا بالإخلاص والمساندة.

وكما تعلمون فإن الجو العام يعمل ضدنا، ويواجه الوطن عاصفة من الخلافات والاضطرابات مما يؤدي إلى ذبول المحبة والترابط. ونريد أن نؤكد لكم أن هذه البراعم التي سقيتموها أنتم وأكابر آخرون بدماء قلوبكم، وإن ذبلت فلن تموت بذورها، إنها باقية محفوظة في قلوبنا، وإن شاء الله ستنبت منها براعم جديدة، وستصبح أشجارًا قوية متجنية الأجواء المسمومة. وفي النهاية نشكر لكم بكل احترام قدومكم المبارك، ونرجو أن تكرمونا بهذه الزيارة مرارًا وتكرارًا.

نحن طلاب الجامعة المليئة الإسلامية المطيعون لكم".

وقد رد مهاتما غاندي على هذه الكلمات بقوله:

"إن الطفل الذي يجلس بجانبنا هنا هو حفيد صديقي القديم وزميلي أحمد محمد كاشلية. وكنت أعتبره مثل أخي الشقيق، ومن الطبيعي أن أتذكره بعد رؤية حفيده. وأريد أن أخبركم بعض الأشياء بهذا الشأن. عندما بدأت حركة التحرير في أفريقيا الجنوبية، لم أجد بين الهندوس والمسلمين شخصاً أكثر همة واستقلالاً من "كاشلية". فقد ضحى بكل ما كان يملكه من أجل عزة ومكانة وطنه، لم يهتم لا بتجارته وأمواله، ولا بأصدقائه وأحبابه. بل ألقى بنفسه في الحركة دون شك أو تردد. وكانت الخلافات بين الهندوس والمسلمين تظهر بين الفينة والأخرى في تلك الفترة أيضاً، ولكن كاشلية كان يوازن بينها دائماً ولم يهتم أبداً بالتحيز والمساندة في غير محلها.

لم يتعلم حب الوطن والمسامحة في أي مدرسة أو بعد الذهاب إلى إنجلترا، إنما تعلم ذلك في بيته. لأنه كان يفهم اللغة الغجراتية ويكتبها بصعوبة، وكان يدافع في القضايا ويقدم الدلائل بطريقة تجعل المحامين يتعجبون، وبعض الأحيان كان هذا يساعدهم في عملهم. وكان يرشد الأشخاص المرتبطين بالحركة وقد فارق الدنيا وهو على هذه الحال. وكان له ولد اسمه علي، وقد سلمه لي، طفل في الحادية عشرة من عمره وكان مسلماً مخلصاً وثابتاً. لم يكن يترك صوم يوم واحد في شهر رمضان. ولكنه لم يكن يكره الزملاء الهندوس. ما نراه في هذه الأيام هو أن معنى كون الشخص متديناً لدى كل من الهندوس والمسلمين أن يكره ويحتقر أصحاب الديانة الأخرى، ولكن علي كان نزيهاً من هذه المشاعر. على كل فإن أسماء الوالد وولده سبب في فرحتي وسروري، وأتمنى أن يكون مثالهم هو سبب اتباعكم لهم وهدايتكم.

في الفترة التي اتحد فيها الهندوس والمسلمون وكانوا مستعدين لبذل دمائهم من أجل الوطن، دعوت الطلاب إلى ترك المدارس والكليات الحكومية، ولم أندم خلال كل هذه الفترة على طلبي لهم وإخراجهم من مؤسساتهم التعليمية، وأنا على يقين كامل من أن الطلاب الذين استجابوا لطلبي قد قدموا خدمة جلية لوطنهم، وأنا

متأكد أن مؤرخ الهند سيسجل إثارهم وتضحياتهم هذه بحروف من ذهب.

أنا مسرور جدًا لرؤية آثار ذلك الزمن الذي أفخر به هنا، وفرحت بجهودكم المضنية لرفع هذا العلم والحفاظ عليه عاليًا، ولو أن عددكم قليل إلا أن المخلصين والصادقين لا يكون عددهم كثيرًا في العالم، وأنصحكم أن لا تلتفتوا إلى قلة عددكم، ولكن ضعوا نصب أعينكم أن الوطن يعتمد عليكم في حركة تحريره. وعلاقة الحرية بتعلمكم أو غزلكم قليلة. إن الأشياء الأساسية التي نحتاج إليها لتحرير الهند هما اثنتان: مخافة الله، وعدم الخوف من البشر أو جماعتهم والتي تسعى الحكومة أو السلطنة. فإن كان هذا ممكنًا في جامعتكم فلا أعتقد أنه يمكن في أي مؤسسة أخرى. وأنا أعرف أساتذتكم ووثائق من أن هذين الأمرين يتم تعليمهما هنا.

ولا أهتم بكون حالتكم المادية سيئة. والحقيقة أنني مسرور بأنكم تعيشون حياة العسر والحاجة، ففي هذه الحالة تتذكرون الله دائمًا، وتحفظون بذكره في قلوبكم دائمًا.

إن قول الحكيم أجمل صحيح بأن قدومي إلى دلهي كان صعبًا جدًا، ولكني مسرور ومطمئن جدًا، ولم آت إلى هنا لأجلكم، بل لأجل أن أفرح نفسي، ولي طلب خاص أقدمه أمامكم، وهو أنه بالرغم من سم الكراهية المنتشر خارج الجامعة، وبالرغم من أن الهندوس والمسلمين يريدون قتل بعضهم البعض، ولكن لا تدعو هذه الأمور تؤثر عليكم، ولا تنسوا خالقكم، ولا تجعلوا للحقد والكراهية سبيلًا إلى قلوبكم، وقد قدمت إلى هنا أحمل كل هذه الأمان في قلبي.

ربما لاحظتم أنني لم أتحدث عن الغزل والقماش المغزول يدويًا بكلمة واحدة، والسبب في ذلك أنهما لا أهمية لهما أمام الأمور الأساسية التي تحدثت بها إليكم، فلو استخدمتم آلة الغزل ألف مرة ولبستم القماش المغزول، ولكن لم تعملوا بالأمور التي تحدثت عنها، فلا فائدة لذلك. وأنا واثق من أنكم لن تنسوا ضرورة لبس القطن المغزول والتي تحدثت عنها الحكيم أجمل خان. وأعتقد أنكم تعلمون

أننا نقوم بتوفير أسباب العيش لستين ألفًا من الذين يغزلون القطن، غير النساجين والغسالين وأصحاب المهن الأخرى. تذكروا أن كثيرين منهم مسلمون، ولم تكن آلة الغزل قد راجت لماتت كثير من النساء المسلمات جوعًا. وليس هناك طريقة للتقريب بين المسلمين والهندوس غير أن نلبس القطن المغزول.

إضافة إلى ذلك، حافظوا على النظافة والطهارة دائمًا، وهذه النظافة والطهارة لا تكون في الظاهر فقط، إنما في الباطن والقلب أيضًا، أعتقد أنكم فهمتم ما أقصد، وأوفوا بالوعد ولو تعرضت حياتكم للخطر، وتذكروا دائمًا ما قلته لكم".

كل فرحة يصاحبها حزن، وكان الناس في الجامعة يقومون بأعمالهم فرحين مسرورين حتى وصل نبأ وفاة مسيح الملك الحكيم أجمل خان، أجمل خان الذي كان مدير الجامعة، قدم بالجامعة الجريحة من علي كره إلى دلهي وضمد جراحها. وكانت الجامعة تمر بضائقة مالية عام 1924م، وفي بعض الأحيان لم تكن نفقه ماذا نعمل، ولكننا كنا نتشجع عندما نفكر في الحكيم أجمل، حيث طلب من أصدقائه المقربين بأن يتبرعوا للجامعة بأموال كثيرة في مثل هذه الظروف. ولو كانت الجامعة فقط من مسؤولياته لكان من السهل عليه تحمل النفقات، ولكنه كان أيضًا مسؤولًا عن الكلية الطبية من جهة، ومن جهة أخرى لم يكن يتقاضى أي أجر ممن يأتي إلى منزله للعلاج سواء كان غنيًا أو فقيرًا. كان يعدّ من أغنياء دلهي ولكنه في الحقيقة كان غني القلب، وخادمًا للفقراء.

علقت له صورة في مكتب مدير الجامعة، وكتب تحتها الشعر التالي:

يك چراگست دریں خانہ کہ از پرتو آں ہر کجا می نگری انجمنے ساختہ اند
ترجمة: يوقد في هذه الدار سراج واحد عقدوا في ضوءه اجتماعات (عديدة) في
مختلف أماكنها.

عندما يفارقنا من أحسن إلينا يقام له تذكارات نذكره به، وكان الحكيم أجمل قد أسس الكلية الطبية التذكارية في حياته وذلك للعلاج الجسدي للأمة، ورغب

الناس بأن نجعل الجامعة المليية الإسلامية تذكراً قوياً له للعلاج الروحي. كانت الفكرة صائبة، وعقد اجتماع كبير لهذا الشأن في دلهي في فبراير عام 1928م. ولم أر في حياتي تجمّعاً أكبر للسياسيين الكبار مثله إلا في الاجتماعات السنوية لحزب الكونجرس. وكان منهم بndت موتي لال نهرو، الشيخ محمد علي، السيد سري نواس آينكر، مولانا أبو الكلام آزاد، بndت جواهر لال نهرو، بndت مدن موهن مالويه، الدكتور مختار أحمد الأنصاري، السيدة سروجني نايدو، مهاراجة محمود آباد، السيد وحي راكهو آشارية، الدكتور شيخ محمد عالم، الشيخ مرتضى بهادر، السيد بركاش، الشيخ شفيع داؤودي، الشيخ عبد القادر قصوري، السيد شنكر لال، الشيخ عبد القادر، سردار سرول سنغ وكثير من الشخصيات المهمة. وكان البndت موتي لال نهرو رئيس الجلسة، وبالإضافة إلى أشياء أخرى قال: "كان السيد حكيم ينظر إلى الهندوس والمسلمين بنظرة واحدة، وعلى الهندوس أن يشاركوا أيضاً في العمل لإقامة تذكاره".

وبعد خطاب البndت موتي لال ذكر الدكتور مختار أحمد الأنصاري أهداف الجامعة، وبين أن التعليم الديني، والمسامحة، والأخوة، والتعليم بواسطة اللغة الأردية، والاتحاد بين الهندوس والمسلمين من مميزات الجامعة. ثم ذكر أن الجامعة إلى الآن موجودة في المباني المستأجرة، والفكرة هي أن يتم جمع 800,000 روبية في ذكرى الحكيم أجمل يمكن بها تجهيز مباني خاصة بالجامعة. وألقى كل من بndت مدن موهن مالويه، ومهاراجة محمود آباد، ومولانا أبو الكلام آزاد، وسردار سرول سنغ كلمات لتأييد هذه الفكرة. تم في ذلك الوقت الوعد بأربعة عشر ألف روبية، وقرأ الدكتور ذاكر حسين أسماء الشخصيات التي وعدت بهذا التبرع.

وقبل أن نذكر ما حدث في الجامعة من تطورات كبيرة من الناحية المالية والتنظيمية في العام التالي، من المناسب أن نذكر أن السيد ذاكر حسين، وزميله السيد عابد، والسيد مجيب قاموا جميعاً بخفض رواتبهم تبرعاً لتقوية الجامعة

واستحكامها. كما تبرع السيد مجيب براتبه للعطلة الصيفية لمكتبة الجامعة حتى يتم شراء الكتب. وكانت المدرسة الليلية تواصل عملها في قرول باغ، ولتأسيس عمارة خاصة بها تم شراء قطعة أرض من قبل الجامعة لأول مرة في 12 سبتمبر 1927م، والتي بني عليها فيما بعد مبنى فخم، ونقلت إليها في عام 1930م المدرسة الابتدائية للجامعة. وبدأ الحديث عن شراء أرض في منطقة فسيحة بعيدة عن دلهي بعدة أميال، وذلك لنقل الجامعة بالكامل إليها. تخيلوا تبرع الأساتذة وخفضهم لرواتهم من جهة، وفكرة شراء الأرض من جهة أخرى. كان المجلس التأسيسي ينظم أمور الجامعة إلى الآن عن طريق الجمعية التنظيمية والجمعية التعليمية إلى الآن، فقام المجلس التأسيسي بإنشاء مجلس جديد للأمناء، وسلم المجلس جميع صلاحياته وحقوقه إلى مجلس الأمناء، وبذلك تم حل المجلس التأسيسي وانتهت فترته. تم كل ذلك تحت العملية التالية:

محضر اجتماع جمعية المجلس التأسيسي المنعقد في 29 أبريل 1928م:

عقد اجتماع الجمعية التأسيسية للجامعة المالية الإسلامية في 29 أبريل 1928م بمكتب الجامعة الساعة السادسة والنصف مساءً، وقد رأس الاجتماع الدكتور مختار أحمد الأنصاري. شارك في الاجتماع كل من السادة:

1. الدكتور مختار أحمد الأنصاري

2. الشيخ محمد علي

3. الشيخ شوكت علي

4. القاضي نجم الدين

5. الحاج محمد موسى خان

6. الدكتور ذاكر حسين

تحدث الدكتور الأنصاري عن الحالة المالية للجامعة، وعن طلب مهاتما غاندي والدكتور ذاكر وغيرهما من القادة الكبار للتبرع لصندوق الحكيم أجمل بالتفصيل، كما ذكر ما دار بينه وبين القادة من الحديث حول تنظيم الجامعة واستمراريتها. وبعد المناقشة والتفكير العميق اعتمدت الجمعية التأسيسية القرار التالي:

إن من الضروري لاستحكام الجامعة المالية الإسلامية وإبرازها كتذكار للمرحوم مسيح الملك الحكيم أجمل خان، ولإبعاد الجامعة عن الضائقات المالية، من الضروري أن نجتهد بكل قوتنا، ويجب أن يسلم هذا العمل إلى أعضاء منتخبيين من الأمناء، والذين يديرون نظام الجامعة المالية الإسلامية. لذلك فإن الجمعية التأسيسية اليوم وبتاريخ 29 أبريل عام 1928م تنتخب الأعضاء التالية أسماؤهم لمجلس الأمناء:

1. الدكتور مختار أحمد الأنصاري رئيس مجلس الأمناء
2. الدكتور ذاكر حسين معتمد مجلس الأمناء
3. السيد جمنا لال بزاز مسؤول الأمور المالية (الخازن)
4. الشيخ محمد علي عضوًا
5. الشيخ شوكت علي عضوًا
6. مولانا أبو الكلام آزاد عضوًا
7. السيد عبد المجيد خواجه عضوًا
8. الشيخ محمد شفيع داؤودي عضوًا
9. السيد عبد الله هارون عضوًا
10. السيد جمال محمد عضوًا
11. السيد شعيب قريشي عضوًا
12. الشيخ مسعود علي عضوًا

13. الشيخ كفاية الله عضوًا
14. الشيخ محمد عرفان عضوًا
15. جواهر لال نهرو عضوًا
16. الحاج محمد موسى خان عضوًا
17. تصديق أحمد خان شيرواني عضوًا
18. القاضي نجم الدين عضوًا
19. الشيخ محمد نسيم عضوًا
20. الشيخ عبد القادر قصوري عضوًا
21. الدكتور محمد عالم عضوًا
22. الشيخ عبد الحق عضوًا
23. الشيخ قطب الدين عبد الوالي عضوًا
24. الدكتور عابد حسين عضوًا
25. السيد محمد مجيب عضوًا
26. السيد اي جي كيلاي عضوًا
27. حسن محمد حيات عضوًا
28. شودهري خليك الزمان عضوًا
29. الشيخ سيد مرتضى عضوًا
30. الشيخ عبد الماجد دريابادي عضوًا

وينتخب المجلس التأسيسي الأعضاء التالية أسماؤهم أعضاء للمجلس التنظيمي الأول لمجلس الأمناء:

1. رئيس مجلس الأمناء الدكتور الأنصاري

2. معتمد مجلس الأمناء الدكتور ذاكر حسين

3. مسؤول خزانة مجلس الأمناء السيد جمنا لال بزاز

4. مسجل الجامعة الدكتور عابد حسين

5. الشيخ محمد علي عضوًا

6. الشيخ شوكت علي عضوًا

7. مولانا أبو الكلام آزاد عضوًا

8. السيد عبد المجيد خواجه عضوًا

9. الشيخ محمد شفيق داؤودي عضوًا

يقرر المجلس التأسيسي نقل جميع صلاحياته ومسؤولياته إلى مجلس الأمناء المذكور، ويتم بعده تحليل الجمعية التأسيسية. وبذلك انتقلت جميع الحقوق والمسؤوليات إلى مجلس الأمناء وتم تحليل المجلس التأسيسي.

كما تقرر أن يعدّ المجلس التنظيمي الجديد في جلسته القادمة الدستور الأساسي للجامعة ويقدمه أمام مجلس الأمناء لاعتماده.

انتهى الاجتماع الساعة الثامنة والنصف مساءً.

التوقيع

ذاكر حسين

30 أبريل 1928م

الترجمة بين اللغتين العربية والأردية في الهند

(دراسة موجزة في الفن والتقليد)

- أ.د. مجيب الرحمن¹

ملاحظة تمهيدية

أُعِدَّ هذا البحث على شكل "باور بوينت" بناءً على طلب رئيس قسم اللغة العربية في الجامعة المليية الإسلامية ومدير الندوة الوطنية البروفيسور الدكتور حبيب الله خان حفظه الله تعالى حول "الترجمة في الهند بين الفن والتقليد" التي أقامها القسم في الفترة من 2-3 مارس 2020م ليلقى كلمة رئيسة في الحفل الافتتاحي للندوة. وهدف البحث إلى عرض صورة عامة لجهود العلماء الهنود في الترجمة بين اللغتين العربية والأردية، ولذلك اقتصر البحث على تناول الأعمال المترجمة من الأردية إلى العربية وبالعكس على أيدي العلماء الهنود فقط، وإذا كان البحث ذا طابع تعريفي، يفتقر إلى المراجع حيث تمّ تدوين معظم المعلومات عن طريق الاتصال الهاتفي بالترجمين، أو بالرجوع إلى الشبكة العنكبوتية.

لا يقوم البحث بإحاطة شاملة لكافة الأعمال المترجمة من العربية إلى الأردية وبالعكس، فهذا متعذر، فهناك ألوف من الكتب التي تمت ترجمتها خصوصاً من العربية إلى الأردية في مواضيع دينية شتى، وهي متناثرة، ويحتاج عمل تدوينها إلى وقت طويل ومثابرة كبيرة، لذا فهذا البحث هو تعريفي في نوعه وليس شاملاً في إحاطته. وقد أعَدَّ الباحث قائمة للترجمات التي اطلع عليها عن طريق الاتصال بالترجمين.

¹ بروفيسور، مركز الدراسات العربية والإفريقية، كلية اللغة والأدب والثقافة، جامعة جواهر لال نهرو، نيو دلهي، الهند

تعريف الترجمة

- الترجمة لغويًا هي على وزن فَعَّلَ مصدرها "ترجمة"، وهي تعني نقل الكلام من لغة إلى أخرى، وبعبارة أخرى هي نقل نصّ من لغة (المصدر) إلى لغة أخرى (الهدف)¹.
- وهناك تعاريف أخرى للترجمة في مجملها تتقارب في المقصود، وفيما يلي بعض منها:
- تحويل الكلمات إلى لغة مختلفة: أي إعادة إنتاج النص المكتوب أو المنطوق بلغة مختلفة مع الحفاظ على المعنى الأصلي (MSN ENCARTA)
 - تغيير الكلمات إلى لغة مختلفة (Cambridge Advanced Learner's Dictionary)
 - العرض بلغة أخرى (The American Heritage Dictionary of the English)
 - نقل الكلام إلى لغة أخرى، ترجمَ الكتاب: نقله من لغة إلى أخرى (معجم المعاني).
 - الترجمان هو الذي يترجم الكلام أي ينقله من لغة إلى لغة أخرى (لسان العرب)
 - "نقل المستوى المعنوي من اللغة الأولى إلى اللغة الثانية واختيار ما يناسب لذلك من المستوى الصوتي والمستوى النحوي في اللغة الثانية" (يوئيل يوسف عزيز)
 - "تعتبر الترجمة عملية تحويل الرموز وذلك يعني أنّ سلسلة من الرموز في لغة يتم استبدالها بسلسلة من الرموز في لغة أخرى" (ريتشارد د. بريسلين)
 - استبدال مادة نصية في لغة (اللغة المصدر) إلى مادة نصية مساوية في لغة أخرى (جيه سي كاتفورد)
 - تتمثل عملية الترجمة في إعادة إنتاج النص في اللغة المتلقية لتحقيق

¹ www.academiaworld.com تاريخ الزيارة 31 مارس 2020م

المعادلات الطبيعية للغة المصدر أولاً من حيث المدلول وثانياً من حيث الأسلوب (نايدا وتابير)¹

وتهدف الترجمة إلى تحقيق تكافؤ المقصود بين نص لغتي المصدر والهدف (أي التأكد من أن كلا النصين يوصلان نفس الرسالة) مع الأخذ في الاعتبار قيود السياق، والقواعد اللغوية، وتقاليد كلتا اللغتين، والتعابير الخاصة بهما، وثقافة مجتمع كلتا اللغتين، والأهم من كل هذا الإلمام الدقيق بمادة النص موضوعاً وفناً. والمطلوب هو تحقيق التكافؤ الأمثل، إذ لا يمكن تحقيق التكافؤ التام بين النصين، ولذلك يعتقد البعض أن الترجمة الدقيقة لا يمكن إنجازها ولا سيما في ترجمة الشعر.

الترجمة نظرية أو حرفة أو فن؟

يقول الدكتور يوثيل يوسف عزيز في كتاب "مبادئ الترجمة من الإنجليزية إلى العربية" إنَّ العرب مع ممارستهم للترجمة على نطاق واسع لم يتكلموا كثيراً عن الناحية النظرية والنقل وأساليبها، ولم يصل إلينا في هذا الجانب إلا القليل، وفي مقدمة من كتب عن الترجمة الجاحظ والصلاح الصفدي².

والجاحظ هو الآخر وضع شروطاً صعبة وصارمة للمترجم، وخصوصاً على مستوى إتقان اللغة المصدر ومعرفة القسم "ولا بد للترجمان أن يكون بيانه في نفس الترجمة على وزن بيانه في نفس المعرفة"².

يقول الأستاذ آيان أف فنلاي: "عملية الترجمة حرفة وفن في وقت واحد. مما يعني أن الترجمة تتعامل مع معالجة لغة بصورة دقيقة وباحتياط يرافقها قليل من

¹ نقلاً عن كتاب "فن الترجمة"، للسيد إحسان الرحمن، دار الصفوة للنشر، القاهرة، 1998م

² مريم سلامة كار، ترجمة: عبد الخالق المسالي، الترجمة والجاحظ، الموقع الإلكتروني https://www.aljabriabed.net/n10_10lamsalmi.htm تاريخ الزيارة 28 فبراير 2020م

الحرية والتخيل والتشكيل".¹

يقول المفكر والباحث الفلسطيني جورج زيناتي: "الترجمة لا تعني خيانة النص بل الولوع مباشرة في عالم الآخر بل إلى حميميته وعقر داره، لقد اختصرت الترجمة المسافات الشاسعة، وأصبحت فعلاً يحقق لقاء الثقافات، وتفاهمها وانتصاراً على الأحكام المسبقة".²

إن الترجمة شيء عملي وتطبيقي ولكنها تستند إلى نظريات معينة، فليس كل عالم بنظريات الترجمة خبيراً في عملية الترجمة، وبالعكس أيضاً، وتصبح الترجمة حرفة حين يرتقي بها المترجم معرفةً بالنظريات والمبادئ وتطبيقاً لها عملياً، وتصبح فناً عندما يبلغ إلى أعلى مستواها من الدقة والبراعة.

الترجمة جسر بين الحضارات والثقافات

الأمر واضح وضوح الشمس في رابعة النهار؛ لقد قامت الترجمة بدور الجسر بين الحضارات ومعبّر للتواصل بين الثقافات، ووسيلة لا غنى عنها للأخذ والعطاء ونقل الرصيد الحضاري والثقافي والمعرفي إلى الأجيال القادمة. فالحضارة العربية الإسلامية خير شاهد على ذلك، إذ استطاعت أن تصل إلى ما وصلت إليه من الرقي والازدهار في عصورها الذهبية عن طريق ترجمة العلوم والمعارف من اللغات

¹ Ian F. Finlay, Translating, First Print 1971, The English Universities Press Ltd., Edinburgh, Page VII

² جورج زيناتي، الموقع الإلكتروني

<https://www.alittihad.ae/article/30308/2008/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B1%D8%AC%D9%85%D8%A9-%D8%AC%D8%B3%D8%B1-%D8%AA%D9%88%D8%A7%D8%B5%D9%84-%D8%A8%D9%8A%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%B6%D8%A7%D8%B1%D8%A7%D8%AA-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%AB%D9%82%D8%A7%D9%81%D8%A7%D8%AA>

تاريخ الزيارة 28 فبراير 2020م

السريانية والإغريقية والسانسكريتية والفارسية في العصر العباسي، وثم في عصر النهضة الحديثة من اللغات الأوروبية، ونفس الشيء فعلته أوروبا في عصور ازدهار الحضارة العربية الإسلامية إذ قامت بنقل العلوم والفنون من العربية إلى اللغات الأوروبية ثم عند الشروع في نهضتها الحديثة نقلت العلوم باللغة العربية إلى اللغات الأوروبية، والترجمة عملية مستمرة لا تتوقف عنها الشعوب الحية لمداومة السقيا بالجديد في كل ميدان من ميادين الحياة من اللغات / الشعوب الأخرى.

ويقول الأستاذ مهند حامد: "الترجمة بوابة للتسامح وجسر للتعارف بالآخر، وهي الخيط الناظم الذي يربط بين المجتمعات، ويدعم نسيج الحضارة الإنسانية، والجسر الذي يربط الشعوب المتباينة المتباعدة ويقربها".¹

ويقول الأستاذ رامي عبد الله: "الترجمة لها مدلولات ومعانٍ إنسانية، لتواصل البشرية عبر آلاف السنين، فكل دون هذا النتاج بلغته، وليس من السهل نقل حضارة إلى أخرى، إلا بمعرفة الإنسان للغة الإنسان الآخر، وخير وسيلة لذلك هي الترجمة".²

ويقول الأستاذ سلمان الناطور بهذا الصدد: "إن الترجمة وسيلة لفهم الآخر في زمن الحرب والسلم، فالترجمة هي الأداة التي يمكننا بها مواكبة الحركة الفكرية والثقافية في العالم".³

ويقول أشيت شاكراپورتى: "قامت الترجمة بدور عظيم في نشر الثقافة والحفاظ عليها على امتداد القرون الغابرة، فمثلاً، لو لا الجهود المخلصة والجادة للمترجمين الموهوبين في بلاد الروم وبغداد وطيطة، في مختلف العصور التاريخية المهمة، لما وصلت إلينا معظم كنوز الثروة العلمية من الفكر الغربي".⁴

¹ <https://ar.qantara.de/content/dwr-ltrjm-fy-hwr-lhdt-ltrjm-bwb-lltsmh-wjsr-lltryf-blakhr> تاريخ الزيارة 31 مارس 2020م

² المصدر أعلاه

³ المصدر أعلاه

⁴ Ashit Chakraborty, Translational Linguistics of ancient India, Vol 1, Part 1, 1971, New Delhi, P. 1

واقع الترجمة في العالمين العربي والإسلامي

بحسب تقرير التنمية الثقافية في العالم العربي الصادر عن مؤسسة الفكر العربي في عام 2011م وبحسب تقرير اليونسكو الصادر في عام 2012م "يُترجم سنويًا في العالم العربي خمس ما يُترجم في دولة اليونان الصغيرة، والحصيلة الكلية لما ترجم إلى العربية منذ عصر الخليفة العباسي المأمون إلى العصر الحالي تقارب الـ 10000 كتاب، وهذا العدد يساوي ما ترجمه إسبانيا في سنة واحدة. وفي النصف الأول من ثمانينات القرن العشرين كان متوسط الكتب المترجمة لكل مليون مواطن، على مدى خمس سنوات هو: 4.4 كتاب (أقل من كتاب لكل مليون عربي في السنة) بينما في هنغاريا كان الرقم 519 كتابًا لكل مليون، وفي أسبانيا 920 كتابًا لكل مليون.¹

ولعل السبب الأبرز للنقص الكبير في عدد الترجمات إلى العربية هو المعدل المتدني جدًا للقراءة في الوطن العربي، فقد ورد في تقرير صادر عام 2003م عن اليونسكو: كان كل 80 عربيًا يقرأ كتابًا واحدًا في السنة، بينما كان المواطن الأوروبي يقرأ 35 كتابًا في السنة، والمواطن الإسرائيلي يقرأ 40 كتابًا، وبعبارة أخرى العربي يقرأ بمعدل 6 دقائق سنويًا بينما نظيره الأوروبي يقرأ بمعدل 200 ساعة سنويًا.²

وإنّ الدافع وراء سرد الأرقام المذكورة أعلاه هو البحث عن أسباب ندرة الترجمة بين اللغتين العربية والأردية التي نحن بصددّها، لأنّ هذه إشكالية ثقافية تخص المجتمعات العربية والإسلامية. إن الحركة الثقافية في أيّ مجتمع ما تتطور وتنتعش في مجتمع يشغف أفرادها بالقراءة، ولذلك نلاحظ المجتمعات الأخرى التي حققت مستوى جيدًا من التقدم يحب فيها الأفراد قراءة الكتب وهذا بدوره يدفع

¹ <https://www.albayan.ae/five-senses/last-page/2015-09-19-1.2462680> تاريخ الزيارة

28 فبراير 2020م

² <https://www.annabaa.org/arabic/mediareports/15166> تاريخ الزيارة 28 فبراير 2020م

الحركة الثقافية إلى الأمام، أما المجتمعات العربية والإسلامية فهي بشكل عام تعاني من مرض ثقافي مرده إلى قلة الاعتناء بالقراءة، وهذا بالتحديد يفسر ندرة الكتب المترجمة من العربية إلى الأردية وبالعكس.

الطابع الغالب على الترجمات البينية

لقد تبين لي من خلال استعراض الكتب المترجمة من العربية إلى الأردية أن أغلب الكتب المترجمة هي كتب دينية من ترجمة القرآن وتفسيرها، والحديث النبوي، والعقيدة، والعبادات، وغيرها، ذلك لأن هذه الكتب تفي بالحاجة الدينية للمسلمين الهنود الذين لا يفهمون العربية، ويحتاجون إلى الكتب الدينية المترجمة للاطلاع على أساسيات الدين وأحكام الشريعة الإسلامية وغيرها. وإن كان المسلمون في الهند يبلغ عددهم مأتي مليون تقريباً ويتحدثون بلغات مختلفة إلا أن حوالي مائة مليون منهم يتعاملون بالأردية في المسائل الدينية إما قراءة وفهمًا أو نطقًا بها، لذلك فكانت هناك حاجة ملحة لترجمة الكتب الدينية إلى الأردية.

ومما لا شك فيه أن ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الأردية قد حظيت بالنصيب الأوفر في الترجمة من العربية إلى الأردية، فتتوفر حوالي مأتا نسخة لترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الأردية ما بين مطبوعة ومخطوطة، وتتضمن الترجمة أيضاً تفسيراً للقرآن الكريم بالأردية، وقد حظي عدد لا بأس بها من الترجمات بشعبية واسعة في شبه القارة الهندية، وتقع هذه الترجمات والتفسير أحياناً في مجلدات كثيرة، وقد جرت طباعة بعض نسخها ونشرها وتوزيعها في شبه القارة الهندية على نطاق واسع من قبل حكومة المملكة العربية السعودية. ومن بين أهم ترجمات القرآن الكريم إلى الأردية هي ترجمة الإمام العلامة أبي الأعلى المودودي رحمه الله (1903-1979م)، وترجمة الإمام أبي الكلام آزاد (1888-1958م) باسم "ترجمان القرآن"، وترجمة الأستاذ أمين أحسن الإصلاحي (1904-1997م) باسم "تدبر قرآن"، وترجمة مولانا شبير أحمد العثماني (1887-1949م)، وترجمة الشيخ

المفتي محمد شفيع (1897-1976م)، وترجمة مولانا عبد الماجد الدرايا بادي (1892-1977م)، وترجمة مولانا محمد ثناء الله الأمرتسري (1868-1948م)، وترجمة الإمام أحمد رضا خان (1856-1921م)، وترجمة الشيخ محمود الحسن الديوبندي (1851-1920م)، وترجمة السيد العلامة أحمد سعيد كاظمي (1913-1985م)، وترجمة مولانا أشرف علي التهانوي (1863-1943م)، وترجمة المفتي الدكتور تقي أحمد العثماني (من مواليد عام 1943م) وترجمة مولانا عاشق إلهي البلند شهري (1925-2001م)، وكثيرين غيرهم.

أما الأحاديث النبوية الشريفة فلا نجد مجموعة مطبوعة إلا ولها ترجمة في اللغة الأردية، فالصباح الستة مترجمة بكاملها إلى الأردية، و"صحيح البخاري" 26 ترجمة، وأشهرها الترجمات التي قام بها أبو الحسن (لاهور 1313هـ)، ووحيد الزمان الحيدرآبادي (1323هـ)، ومرزا حيرت الدهلوي (1323هـ)، و"صحيح مسلم" سبع ترجمات، أشهرها من صنع وحيد الزمان الحيدرآبادي (1305هـ) وأبي داؤد راز (1385هـ)، ولكل من "جامع الترمذي" و"سنن أبي داؤد" و"سنن النسائي" و"سنن ابن ماجة" ترجمات أردية عديدة عملها أفاضل هنديون من أمثال فضل أحمد دلاوري (1309هـ) وعبد الأول (1950م) ووحيد الزمان الحيدرآبادي (1305هـ) وعبد الدائم الجلاي (1355هـ)، كما ترجمت مجموعات أخرى من الأحاديث النبوية الشريفة من أمثال "مشكاة المصابيح"، و"مشارق الأنوار"، و"شرح معاني الآثار"، و"بلوغ المرام من أدلة الأحكام"، و"سنن الدارمي"، و"منتقى الآثار"، و"مسند الإمام أبي حنيفة"، و"رياض الصالحين" للنووي، و"الشفاء" للقاضي عياض، و"الأدب المفرد"، و"منهاج" لابن حجر العسقلاني، و"موطأ الإمام مالك"، و"مسند الإمام أحمد"، وغيرها من المجموعات.¹

¹ د. محمد ثناء الله الندوي، صيانة اللغة العربية في الهند بين شهادة التاريخ ومشهد الراهن، موقع أهل السنة والجماعة،

<https://arabicindiaislam.wordpress.com/2011/03/10/arabic-language-2/> تاريخ الزيارة

31 مارس 2020م

مؤسسات معنية بترجمة الكتب العربية إلى الأردية

ثمت عدد لا بأس به من الجامعات والمؤسسات الدينية والبحثية التي اعتنت بترجمة الكتب الدينية إلى الأردية ونشرها وتوزيعها، وإليها يرجع الفضل الأكبر في تعميم الثقافة العربية والإسلامية في الهند عن طريق الترجمة. ومن بين هذه المؤسسات على سبيل المثال لا الحصر:

1- دار الترجمة: تم إنشاؤها بحيدرآباد في عام 1917م، وتكونت لجنة التأليف والترجمة من خمس لجان فرعية هي لجنة العلوم الطبيعية، ولجنة الفنون، ولجنة علم الإحصاء، ولجنة الطب، ولجنة الهندسة، ومجلس وضع المصطلحات العلمية التي ظهر منها ستة أجزاء حتى عام 1949م في العلوم والتدريس والرياضيات والفلك والطب والترقيم الرياضي والعلمي، وهذه الدار نشرت 346 كتاباً حتى عام 1946م بينما كانت 58 كتاباً قيد الطبع و86 كتاباً تحت الترجمة والتأليف فيها عدد كبير من الكتب العربية.¹ ولهذه الدار الفضل الأكبر في وضع المصطلحات العلمية في اللغة الأردية عن طريق ترجمتها من اللغات الإنجليزية والعربية، وبحسب بعض التقديرات يبلغ عدد الكتب المترجمة من العربية إلى الأردية التي قامت بها الدار إلى 400 كتاب.

2- المجمع الفقهي الإسلامي: ولهذا المجمع مساهمات قيّمة في مجال ترجمة النصوص العربية إلى الأردية التي تستحق أن تكتب بماء الذهب، ويفيدنا موقع المجمع الإلكتروني أنّ المجمع قام بترجمة الموسوعة الفقهية الإسلامية (في 45 مجلدًا) من العربية إلى الأردية ونشر 13 جزءاً منها، كما ترجم قرارات

¹ د. محمد ثناء الله الندوي، صيانة اللغة العربية في الهند بين شهادة التاريخ ومشهد الراهن، موقع أهل السنة والجماعة، <https://arabicindiaislam.wordpress.com/2011/03/10/arabic-language-2/> تاريخ

الزيارة 31 مارس 2020م

مؤتمرات المجمع الفقه الإسلامي الدولي وقرارات مجمع الفقه الإسلامي إلى الأردنية، إلى جانب حوالي 20 كتاباً في مواضيع تتعلق بالفقه والعقيدة والفكر الإسلامي لكبار المفكرين المسلمين العرب و10 كتب من الأردنية إلى العربية.¹

3- دار النشر التابعة للدار السلفية بولاية مهاراشترا: قامت هذه الدار بترجمة ونشر عدد كبير من الكتب العربية إلى الأردنية، ويقدر عدد الكتب المترجمة لهذه الدار بـ300 كتاباً من العربية إلى الأردنية، وقام الشيخ المولانا مختار أحمد الندوي وحده بترجمة 14 كتاباً معظمها يتعلق بالعقيدة والتوحيد والعبادات وغيرها من المواضيع الإسلامية ونشرها.

4- معهد الدراسات الموضوعية بنيو دلهي: اعتنى المعهد بترجمة أهم الكتب العربية المتعلقة بالفكر الإسلامي إلى الأردنية ونشرها من خلال دار النشر قاضي بيليشرز بنيو دلهي.

وبالإضافة إلى المؤسسات المذكورة أعلاه قامت ولا تزال تقوم المؤسسات الوارد ذكرها بترجمة الكتب العربية المهمة إلى اللغة الأردنية تعميماً للفائدة على قراء الأردنية:

- مجمع البحوث العلمية بدار العلوم ندوة العلماء، لكتناؤ
- أكاديمية حجة الإسلام بدار العلوم وقف، ديوبند
- مركز أبي الكلام آزاد للتوعية الثقافية، نيو دلهي
- جمعية أهل الحديث المركزية، نيو دلهي
- الجماعة الإسلامية المركزية، نيو دلهي

¹ موقع المجمع http://www.ifa-india.org/arabic.php?do=home&pageid=arabic_publications

تاريخ الزيارة 28 فبراير 2020م

• الدار السلفية، ولاية مهاراشترا.

• دار المصنفين، أعظم جراه.

جهود فردية في مجال ترجمة الكتب من العربية إلى الأردية وبالعكس

نذكر فيما يلي قائمة لبعض الكتب المترجمة من الأردية إلى العربية وبالعكس التي اطلع عليها الباحث، في شتى المواضيع والفنون، وهي مرتبة حسب المواضيع.

الكتب المترجمة من الأردية إلى العربية مرتبة حسب الموضوع

- القصة، الرواية، الرحلة، السيرة وغيرها:

عنوان الكتاب الأصلي واسم المؤلف	عنوان الكتاب المترجم واسم المترجم	تفاصيل النشر	القسم وملاحظات عن الكتاب
هندوستانى تاريخ وثقافت اور فنون لطيفه المؤلف: السيد عتيق أنور صديقي	تاريخ الهند: ثقافتها وفنونها الجميلة المترجم: أ.د. حبيب الله خان	مؤسسة الفكر العربي، بيروت، لبنان، 2017 م	القسم: التاريخ ينقب الكتاب أوراق التاريخ القديم للهند، ويقدم للقارئ العربي معلومات قيمة عن تاريخها وثقافتها وفنونها الجميلة منذ عصر ما قبل التاريخ وحتى القرن العشرين
تاريخ تمدن هند	تاريخ حضارة الهند	مؤسسة الفكر العربي، بيروت،	القسم: التاريخ يصف الكتاب حياة

المؤلف: محمد مجيب	المترجم: أ.د. محمد نعمان خان	لبنان، 2016م	أهل الهند القدامى الذين حرصوا على وضع مبادئ لكل علم ووضع قواعد لكل فن في إطار نظام مستقل، مقسمين العلم إلى ثلاثة أقسام: الديانة (دهارما)، والشؤون الدنيوية (أرثا) وشؤون الرغبة الجنسية (كاما)
عرب وهند كے تعلقات المؤلف: السيد سليمان الندوي	العلاقات العربية الهندية المترجم: د. صهيب عالم	مؤسسة الفكر العربي، بيروت، لبنان، 2016م	القسم: العلاقات بين الدول يعدّ من أهم المراجع الأساسية حول العلاقات المتنوعة التي قامت بين الهند والجزيرة العربية منذ عصر ما قبل الإسلام.
جزيره نما عرب كى تاريخ وثقافت هندوستانی سفرناموں كى روشنی میں.	تاريخ الجزيرة العربية وثقافتها المترجم: د. صهيب عالم نفسه	مؤسسة الفكر العربي، بيروت، لبنان، 2016م	القسم: التاريخ / الرحلة تمثل مذكرات رحلات الحج المدونة على أساس تجارب ومشاهدات الحجيج

المؤلف: د. اختر الواسع ود. صهيب عالم			وانطباعاتهم مصدرًا مهمًا لمعلومات قد لا تتوافر في كتب التاريخ، وعلى رغم تحيز مؤلفها في بعض الأحيان تبقى هذه الرحلات مرجعًا تاريخيًا مهمًا.
آگ کا دریا المؤلف: قرة العين حيدر	نهر النار المترجم: د. مجيب الرحمن	مشروع "كلمة" للترجمة، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، الإمارات العربية المتحدة، 2020م	القسم: الرواية من أهم الروايات الحديثة في الأدب الأردني بل الهندي وتقدم فيها الكاتبة تاريخ الهند الممتد على ألفي وخمسمئة سنة بتقنية تيار الوعي في ثوب قصصي وشبهت الرواية برواية "مأة عام من العزلة" للروائي مارسيا كویز.
بادلون کے گہرے المؤلف: کریشنا سوبتی	دوائر السحب المترجم: د. محمد عفان	مشروع "كلمة" للترجمة، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، الإمارات العربية المتحدة، 2020م	القسم: القصة (مجموعة قصصية) قصص اجتماعية في غاية الأهمية تصور المجتمع الهندي في القرن العشرين.

اسلامى علوم كه هندی مصادر المؤلف: لسيد محمود حسن قيصر الأمروهي	المصادر الهندية للعلوم الإسلامية المترجم: د. أورنك زيب الأعظمي	دار الفكر العربي، سوريا، 2010م	القسم: علم المصادر والمراجع كتاب قيم في موضوع المصادر الهندية للعلوم الإسلامية كما هو واضح من العنوان ذاته
حجاب المؤلفون	الحجاب المترجم: د. أورنك زيب الأعظمي	روزورد بوكس، نيو دلهي، 2013م	القسم: القصة القصة (مجموعة قصصية) الكتاب عبارة عن مجموعة قصصية قام المترجم باختيارها من القصص الأردية، وهي تتناول مواضيع إسلامية، وسميت بالحجاب لأن القصة الأولى تتخذ من "الحجاب" موضوعاً لها.
قاعده بغدادى مع صحيح بخارى تك المؤلف: القاضي أطهر المباركفوري	من القاعدة البغدادية إلى صحيح البخاري المترجم: د. أورنك زيب الأعظمي	شبكة الألوكة، 2015م	القسم: سيرة ذاتية هذه سيرة ذاتية قيمة للعلامة القاضي أطهر المباركفوري

غالب اور متنى دو عظيم شاعر المؤلف: أ.د. فيضان الله الفاروقي (غير منشور)	الغالب والمتنى شاعران كبيران: دراسة مقارنة المترجم: د. أورنك زيب الأعظمي	شبكة الألوكة، 2015م	القسم: مقارنة بين شاعرين يتناول البحث بالمقارنة بين شاعرين عظيمين هما غالب والمتنى
المأمون المؤلف: العلامة شبلي النعمانى	المأمون المترجم: د. أورنك زيب الأعظمي	دار الكتب العلمية، بيروت، 2017م	القسم: السيرة كتاب قيّم جدًّا في سيرة الخليفة العباسي المأمون
منشي نول كشور حيات وخدمات المؤلف: وسيم أحمد الأعظمي (غير منشور)	منشي نول كشور لمحّة عن حياته ودراسة لخدماته المترجم: د. أورنك زيب الأعظمي	ريسرتش غيتواي سوسائتي، باكستان، 2017م	القسم: السيرة كتاب في سيرة الباحث والناشر الشهير منشي نول كشور
تراجم المؤلف: العلامة شبلي النعمانى	التراث المنقول المترجم: د. أورنك زيب الأعظمي	دار الكتب العلمية، بيروت، 2017م	القسم: التراجم/ السير عبارة عن ترجمات تحدّث عنها العلامة شبلي النعماني ومشمولة في كتاب مقالات شبلي

مسلمانون كى گذشته تعليم المؤلف: العلامة شبلي النعماني	الحركة العلمية وكيف طورها الإسلام المترجم: د. أورك زيب الأعظمي	دار الكتب العلمية، بيروت، 2018م	القسم: التاريخ كتاب قيم من أوائل كتب العلامة شبلي النعماني ويبحث في الحركة الثقافية التي أطلقها الإسلام.
هندوستان كى منتخب كهانيان المؤلفون	القصص القصيرة من الهند المترجم: أ. ذكر الرحمان	مشروع "كلمة" للترجمة، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، الإمارات العربية المتحدة، 2011م	القسم: القصة القصيرة (مجموعة قصصية) هذه مجموعة قصصية من الأدب الأردني اختارها الأستاذ ذكر الرحمن وترجمها ونشرها مشروع "كلمة" للترجمة، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة
سفرنامه حج المؤلفة: أميرة بوفال النواب سكندر بيجوم	مذكرات رحلة حج أميرة بوفال النواب سكندر بيغم المترجم: د. ثمارة فيصل	نور بيليكيشنز، نيو دلهي، الطبعة الأولى، 2013م	القسم: الرحلة رحلة مشهورة لأميرة بوفال إلى الحجاز قامت بها لأداء فريضة الحج وتعتبر من أهم المدونات في فن الرحلة لملاحظاتها وخواطرها ومشاهداتها، وبسبب ضياع النسخة

الأصلية تم الاعتماد على النسخة الإنجليزية للترجمة.			
هندوستان كي كهانيان المؤلفون	قصص هندية المترجم: أ.د. أحسان الرحمن	هند آسيان بليكشاز، نيو دلهي، 2009م	القسم: القصة القصيرة (مجموعة قصصية) قام المترجم باختيار القصص من اللغات الهندية بما فيها الأردية ونقلها إلى العربية
هندوستان كي كهانيان المؤلفون	قصص من الهند الترجم: أ.د. أحسان الرحمان	آي سي سي آر، نيو دلهي، الهند، 1985م	القسم: القصة القصيرة (مجموعة قصصية) قام المترجم باختيار القصص من اللغات الهندية بما فيها الأردية ونقلها إلى العربية.
عربي أدب میں اودھ کا حصہ المؤلف: أ.د. مسعود أنور علوي	مساهمة أوده في خدمة اللغة العربية وآدابها المترجم: أ.د. ثناء الله الندوي	نشر البحث الكامل في مجلة ثقافة الهند في عام 1991م، ثم نشر كاملاً في مجلة التاريخ العربي، مراكش 2014م	القسم: تاريخ الأدب العربي يبرز الكتاب مساهمة منطقة أوده في خدمة اللغة العربية.

سائس مضامين مجموعة مؤلفين	مجلة الهلال التذكارية الجديدة المترجمون: عدد من المترجمين في قسم اللغة العربية بجامعة مانو بحيدر آباد	قسم اللغة العربية، جامعة مانو، حيدر آباد، 2017م	مقالات مختارة صادرة في مجلات العلوم الأردنية عن مواضيع علمية مثل الاحتباس الحراري وغيرها، وتولى قسم اللغة العربية بجامعة مانو بترجمتها ونشرها.
حنيف ترين ك منتخب اشعار الشاعر: حنيف ترين	بعيداً عن الوطن المترجم: د. شمس كمال أنجم	ترين ببليكي شانز، نيو دلهي، 2006م	القسم: شعر قصائد مختارة للشاعر حنيف ترين المقيم في المملكة العربية السعودية ترجمها من الأردنية إلى العربية الدكتور شمس كمال أنجم
كاروان زندگي (الجزء الأول والثاني) المؤلف: العلامة الحسن الحسني الندوي	في مسيرة الحياة (ج 1 و 2) المترجم: الشيخ سلمان الحسيني الندوي	دار القلم، دمشق، 1990م	القسم: سيرة ذاتية هذه سيرة ذاتية للشيخ أبي الحسن علي الندوي بالأردنية ونقلها إلى العربية الشيخ سلمان الحسيني الندوي

تاريخ دعوت وعزيمت المؤلف: العلامة أبو الحسن علي الحسيني الندوي	رجال الفكر والدعوة في الإسلام (لجزء الثاني) المترجم: الشيخ سعيد الأعظمي الندوي	دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 2002م	القسم: تاريخ الدعوة الإسلامية
تربيت نفس كا اسلامی طريقه المؤلف: الشيخ عبد الباري الندوي	المنهج الإسلامي لتربية النفس المترجم: الشيخ محمد الرابع الندوي	المجمع الإسلامي العلمي، لکناؤ، الهند، 2019م	القسم: التربية الإسلامية
جزيرة العرب المؤلف: الشيخ محمد الرابع الندوي	جزيرة العرب تاريخيًا، ثقافيًا، وجغرافيًا المترجم: محمد فرمان الندوي	المجمع الإسلامي العلمي، لکناؤ، الهند، 2017م	القسم: الجغرافية يتناول الكتاب عرض الجغرافية الطبيعية والسياسية والثقافية لشبه الجزيرة العربية.
سر سيد کے منتخب مقالات المؤلف: السير سيد أحمد خان	المنتقى من مقالات السير سيد أحمد خان المترجم: أ.د. صلاح الدين عمري	طبع في علي جراه، 2007م	القسم: ثقافة عامة مجموعة من أهم مقالات السير سيد أحمد خان، انتقاها الدكتور صلاح الدين عمري وقام بترجمتها.

سر سيد كے منتخب مقالات المؤلف: السير سيد أحمد خان	المختار من مقالات السير سيد أحمد خان المترجم: أ.د. صلاح الدين عمري	طبع في علي جراه، 2010م	القسم: ثقافة عامة مجموعة من أهم مقالات السير سيد أحمد خان، انتقاها الدكتور صلاح الدين عمري وقام بترجمتها.
مقالات شبلي المؤلف: العلامة شبلي النعماني	مقالات شبلي في الإسلام والمستشرقين	شبكة الألوكة، 2015م	القسم: ثقافة عامة مجموعة من أهم مقالات العلامة شبلي النعماني، انتقتها الدكتورة هيفاء شاكري من مجموعة مقالاته ثم قامت بترجمتها

الكتب المترجمة من العربية إلى الأردية

- القصة، الرواية، الرحلة، السيرة وغيرها:

عنوان الكتاب الأصلي واسم المؤلف	عنوان الكتاب المترجم واسم المترجم	تفاصيل النشر	القسم وملاحظات عن الكتاب
حياتي المؤلف: أحمد أمين	میری زندگی المترجم: أ.د. إحسان الرحمن	همس لائف، نيو دلهي، 2016م	القسم: سيرة ذاتية للمؤرخ والكاتب أحمد أمين، كتاب شهير في فن السيرة الذاتية

روائع اقبال	نقوش اقبال	مجلس تحقيقات	القسم: النقد الأدبي والفكري
المؤلف: الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي	د. تبريز شمس خان ندوي	ونشريات إسلام، لکناؤ، الطبعة السادسة، 1994م	
رحلة إلى الهند	هندوستان کا سفر	نشرها أورانك زيب الأعظمي، غفار منزل، جامعة ناغار، نيو دلهي، 2004م	القسم: رحلة المؤلف: أمينة السعيد
باص القيامة	قيامت کی بس	مشروع "كلمة" للترجمة، أبوظبي والثقافة والتراث، الإمارات العربية المتحدة، 2010م	القسم: قصة قصيرة مجموعة قصص أماراتية للكاتبة الشابة روضة البلوشي
المرأة	آئینہ اور درپن	مشروع "كلمة" للترجمة، أبوظبي والثقافة والتراث، الإمارات العربية المتحدة، 2010م	القسم: قصة قصيرة مجموعة قصصية للكاتبة الأردنية منى عبد القادر العلا
منينة	منينة	مشروع "كلمة" للترجمة،	القسم: قصة قصيرة
المؤلفة: مريم	المترجم: أ. ذكر		

الناصر	الرحمن	أبوظبي والتراث، العربية 2010م	للثقافة الإمارات المتحدة،	مجموعة قصصية
بوذية المؤلفة: مريم السعيد	بوذية المترجم: أ. ذكر الرحمن	مشروع للترجمة، أبوظبي والتراث، العربية 2010م	"كلمة" هيئة للثقافة الإمارات المتحدة،	القسم: قصة قصيرة مجموعة قصصية
ضوء يذهب للنوم المؤلفة: ابتسام المعلا	روشنى كا سفر تمام هوا المترجم: أ. ذكر الرحمن	مشروع للترجمة، أبوظبي والتراث، العربية 2010م	"كلمة" هيئة للثقافة الإمارات المتحدة،	القسم: قصة قصيرة مجموعة قصصية
القاهرة الجديدة المؤلف: نجيب محفوظ	جديد قاهره المترجم: الأستاذ أسلم الإصلاحي	براؤن ببليشينغ، علي جراه، 2016م	بوك رواية اجتماعية	القسم: رواية رواية اجتماعية
القاهرة الجديدة المؤلف: نجيب محفوظ	آئين نو المترجم: الدكتور فيضان بيغ	علي جراه، عام الطباعة غير مذكور	القسم: رواية رواية اجتماعية	القسم: رواية رواية اجتماعية

أجنحة الفراشة المؤلف: محمد سلماي	تتلى کے پر المترجم: د. محمد قطب الدين	جيه أم سي انديا ببليشرز نيودلهي، 2016م	القسم: رواية رواية تنبأت بأحداث الربيع العربي في مصر
ماوراء القمر المؤلف: محمد سلماي	چاند کے اس پار المترجم: د. محمد قطب الدين	عذراء بوك تريدرس، نيو دلهي، 2019م	القسم: قصة قصيرة مجموعة قصصية
الرجل والأغصان، سيرة ذاتية لبديع الزمان سعيد النورسي المؤلف: إحسان قاسم الصالحي	داستان عزم وايمان: شيخ بديع الزمان سعيد نورسي کی مختصر سوانح حيات المترجمان: حافظ محمد أحمد ندوي دكتور نسيم اختر ندوي	بارلا ببليکيشنز، دريا غنچ، نيو دلهي، 2014م	القسم: سيرة حياة حياة الإمام بديع الزمان سعيد النورسي
قصة حب مجوسية الكاتب: عبد الرحمن منيف	ايك مجوسيه کی داستان محبت المترجم: د. اختر عالم	روز ورد بوكس، نيو دلهي، 2016م	القسم: رواية
قصص منتخبة لغسان كنفاني	فلسطين کی گلیاں المترجم: د. محمد	مركزي ببليکيشانز، جامعه نغار، نيو	القسم: قصة قصيرة

(ست قصص قصيرة) الكاتب: غسان كنفاني	علي أختري	دلهي 2020م	

الكتب المترجمة من العربية إلى الأردية

- تاريخ الأدب العربي والتاريخ الإسلامي

عنوان الكتاب الأصلي واسم المؤلف	عنوان الكتاب المترجم واسم المترجم	تفاصيل النشر	القسم وملاحظات عن الكتاب
الفن ومذاهبه في النثر العربي المؤلف: شوقي ضيف	عربي نثر كا فتى ارتقاء المترجم: د. شمس كمال أنجم	إيجوكيشونال ببليشينغ هاؤس، لال كنون، دهلي - 6، 2018م	القسم: تاريخ الأدب العربي يقوم الكتاب برصد تطور النثر العربي ويعد من الكتب المهمة في تاريخ تطور النثر العربي.
تاريخ الأدب العربي المؤلف: أحمد حسن زيات	تاريخ ادب عربي المترجم: د. شمس كمال أنجم	إيجوكيشونال ببليشينغ هاؤس، لال كنون، دهلي - 6، 2017م	القسم: تاريخ الأدب العربي، ولقيت الترجمة قبولاً جيداً وتتميز بأسلوب أدبي راقي
الأدب العربي	جديد عربي	إيجوكيشونال	القسم: تاريخ الأدب

المعاصر في مصر المؤلف: شوقي شريف أدب المترجم: د. شمس كمال أنجم ببليشينغ هاؤس، لال كنون، دهلي - 6، 2014م العربي يرصد الكتاب تطور الأدب العربي المعاصر في مصر.	تاريخ النقد الأدبي عند العرب المؤلف: طه أحمد إبراهيم عربي تنقيد كا سفر المترجم: د. شمس كمال أنجم ببليشينغ هاؤس، لال كنون، دهلي - 6، 2015م القسم: تاريخ النقد الأدبي العربي يبحث الكتاب في تطور النقد عند العرب	تاريخ المدينة المنورة المؤلف: غير مذكور تاريخ مدينه منوره مترجم: د. شمس كمال أنجم ببليشينغ هاؤس، لال كنون، دهلي - 6، 2008م القسم: التاريخ يبحث الكتاب في تاريخ المدينة المنورة	فلسطين المؤامرة الكبرى المؤلف: مصطفى السحان فلسطين سارزشون ك نرغ ميں مترجم: أ.د. سميع أختار نُشر في علي جراه، 1996م القسم: التاريخ يرصد الكتاب تاريخ فلسطين والمؤامرة الغربية للقضاء على فلسطين.	العلم والعلماء في عصور الخلفاء المؤلف: رودوليف عهد عباسى ميں علماء كى سرگرمياں مترجم: طارق مختار نُشر في علي جراه، 2007م القسم: تاريخ العلم يبحث الكتاب في تاريخ العلم والعلماء في العصر العباسي

ويلهايم			
المؤرخون المصريون في القرن التاسع الهجري المؤلف: محمد مصطفى زيادة	نوين صدي هجري ك مصرى مؤرخين المترجم: طارق مختار	نُشر في علي جراه، 2004م	القسم: التاريخ يتناول الكتاب حياة وخدمات المؤرخين المصريين في القرن التاسع الهجري، كتاب قيم في موضوعه.
مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية المؤلف: مجموعة مؤلفين	عربي اسلامى علوم اور مستشرقين المترجم: أ.د. ثناء الله ندوي	توحيد إيجوكيشنال ترست، كيشان غنج، 2007م	القسم: التاريخ يتناول بالرصد والتحليل مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية.
الإسلام وفلسفة الحياة الأوروبية / الجديدة	اسلام اور جديد يوروي فلسفه حيات المترجم: أ.د. ثناء الله ندوي	قسم اللغة العربية، جامعة علي جراه الإسلامية، 2017م	القسم: تاريخ الإسلام وفلسفة الحياة الغربية الجديدة.
فجر الإسلام المؤلف: أحمد أمين	فجر الاسلام المترجم: أ.د. أحسان الرحمان	نُشر من نيو دلهي، 2020م	القسم: التاريخ الإسلامي من أهم الكتب المقبولة التي تتناول تاريخ

الإسلام وخصوصاً المراحل الأولى			
التاريخ القسم: التاريخ الثقافي للعرب.	مركزي بليكيشنز، نيو دلهي، 2019م	عهد عباس مين ترجمه نكارى: تاريخ وتحقيق المترجم: نايب حسن القاسمي	حركة الترجمة في العصر العباسي المؤلف: د. أورنك زيب الأعظمي
القسم: سيرة	اصلاحي هيلته كيئر فاؤنديشن، 2017م	قاضي اطهر مباركپورى المترجم: محمد معتصم الأعظمي	القاضي أبو المعالى أطهر المباركفوري المؤلف: د. أورنك زيب الأعظمي

الكتب المترجمة من العربية إلى الأردية

- الإسلام والفكر الإسلامي ومواضيع إسلامية

عنوان الكتاب الأصلي واسم المؤلف	عنوان الكتاب المترجم واسم المترجم	تفاصيل النشر	القسم وملاحظات عن الكتاب
إصلاح الفكر الإسلامي	إسلامي فكر كي تشكيل نو	نشر من دلهي في 1998م	القسم: الفكر الإسلامي يتناول الكتاب مبادئ

المؤلف: طه جابر العلواني	المترجم: أ.د. صلاح الدين عمري		الفكر الإسلامي وتطوره عبر العصور
عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد المؤلف: الشاه ولي الله الدهلوي	اجتهاد اور تقليد المترجم: أ.د. فهميم اختر الندوي	أم أم أي بليشرز، دلهي، 2011م	القسم: الفكر الإسلامي كتاب قيم للإمام الكبير الشاه ولي الله الدهلوي يبحث في مسائل الاجتهاد والتقليد وهما من المسائل الشائكة جدًا في الهند خصوصًا
المرأة والدعوة في عصر النبوة المؤلف: د. سليمان بن حمد العودة	عهد نبوى ميں خواتين کا دعوتی کردار المترجم: د. محمود مرزا	المجلس الفقهي الإسلامي الهندي، مومباي، 2011م	القسم: الدعوة الإسلامية يتناول الكتاب إبراز دور المرأة في مجال الدعوة الإسلامية في عصر النبوة. كتاب قيم في موضوعه
إسرائيل على بيت المقدس وفق مخطط المؤلف: غير مذكور	بيت المقدس پر اسرائیلی تسلط: ایک منصوبہ بند حکمت عملی المترجم: أ.د. صلاح الدين عمري	نشر من دلهي في 1998م	القسم: تاريخ فلسطين

الفرقان الحق	ايك أمريكى سازش المترجم: أ.د. صلاح الدين عمري	نشر من علي جراه في 2007م	القسم: السياسي	الفكر
القرآن والطبائع النفسية المؤلف: علي محمد حسن العمادي	قرآن اور انسانی نفسیات المترجم: أ.د. صلاح الدين عمري	نشر من علي جراه في 2015م	القسم: الدراسات القرآنية	
القيادة في العمل الإسلامي المؤلف: مصطفى محمد السحان	عالی تحریکات اسلامی کی چند انقلابی شخصیات المترجم: أ.د. سمیع اختر	طبع في علي جراه، 1988م	القسم: تاريخ القيادة الإسلامية المعاصرة	
المرأة في عهد الرسالة المؤلف: عبد الحليم أبو شقة	عورت عهد رسالت میں المترجم: أ.د. فہیم آختر الندوي	قاضي ببلشرز، دہلي، 1999م	القسم: مكانة المرأة في عصر النبوة	
حقوق المواطنة المؤلف: راشد الغنوشي	حقوق شریعت المترجم: أ.د. فہیم آختر الندوي	قاضي ببلشرز، دہلي، 1997م	القسم: حقوق المواطنة في الإسلام	

حسن البناء الداعية الإمام المجدد المؤلف: أنور الجندي	حسن البناء شهيد داعي إمام اور مجدد المترجم: أ.د. سمع أختر	نشر من علي جراه في 1996م	القسم: السيرة يتناول الكتاب سيرة الداعية الكبير المصري حسن البناء
فلسطين المؤامرة الكبرى المؤلف: مصطفى السحان	فلسطين سازشوں کے نرغے میں المترجم: أ.د. سمیع أختر	طبع في علي جراه، 1996م	القسم: ثقافة عامة يكشف عن المؤامرة حول فلسطين التي حاكها اليهود
الموسوعة الفقهية/ م 8، المؤلفون: مجموعة من العلماء تحت إشراف ورعاية حكومة الكويت	فقہی انسائیکلو پیڈیا، جلد 8 المترجم: أ.د. فہیم أختر الندوي:	جينوين ببليکيشانز ايند برائفيت ميدا ليميتد، دلهي، 2009م	القسم: الفتاوى الفقهية
قرارات مجمع الفقه الإسلامي الدولي مجمع الفقة الإسلامي الدولي، جدة	جده اکادمی کے شرعی فیصلے المترجم: أ.د. فہیم أختر الندوي	مجمع الفقه الإسلامي، نيو دلهي، 2005م	القسم: الفتاوى الفقهية الإسلامية

قرارات المجمع الفقهي الإسلامي رابطة العالم الإسلامي	مكة اكاڤمى كے فقہى فیصلے المترجم: أ.د. فہیم أختر الندوي	مجمع الفقہ الإسلامي، نيو دہلي، 2001م	القسم: الفتاوى الفقهية الإسلامية
دفاع عن ثقافتنا المؤلف: جمال سلطان	اسلامي ثقافت کی حفاظت المترجم: أ.د. فہیم أختر الندوي	قاضي بليشرز، دہلي، 1994م	القسم: ثقافة إسلامية
القرآن وعلم النفس المؤلف: عثمان نجاتي	قرآن اور علم نفس المترجم: أ.د. فہیم أختر الندوي	الفیصل لاہور، وقاضي بليشرز، 1999م	القسم: علوم القرآن
تجديد الفكر الإسلامي المؤلف: جمال سلطان	فكر اسلامي کی تجديد المترجم: أ.د. فہیم أختر الندوي	قاضي بليشرز، دہلي، 1993م	القسم: الفكر الإسلامي
الحديث النبوي وعلم النفس المؤلف: د. عثمان نجاتي	حديث نبوی اور علم النفس المترجم: أ.د. فہیم أختر الندوي	الفیصل لاہور، وقاضي بليشرز، 1992م	القسم: الحديث النبوي
الاختلاف أسبابه وآدابه المؤلف: جمال سلطان	اختلاف، أسباب، آداب المترجم: أ.د. فہیم أختر الندوي	قاضي بليشرز، دہلي، 1994م	القسم: ثقافة إسلامية عامة

خلاصة

يفيدنا البحث أنه قد تمت ترجمة عدد لا بأس به من الكتب العربية إلى الأردية في الهند وذلك تلبية للحاجات الدينية والعلمية للعلماء الهنود وعامة المسلمين الذين لا يستطيعون الإمام بمسائل الدين إلا باللغة الأردية، ويتعلق معظم الكتب المترجمة من العربية إلى الأردية بمواضيع كترجمة القرآن الكريم والأحاديث النبوية والعقيدة، ومسائل الدين، وجوانب شتى من الفكر الإسلامي، من حيث المجموع يغلب على هذه الترجمات الطابع الديني.

أما ترجمة النصوص الأدبية من الشعر والرواية والقصة وغيرها فهي قليلة جدًا، ونظرًا لغزارة الإنتاج في العالم العربي في الشعر والقصة والرواية والمسرحية والشعر وكثرة عدد قراء الأردية في الهند وشبه القارة الهندية فتمت حاجة ملحة لتتم ترجمتها إلى الأردية، وبالعكس أيضًا فهناك أدب ثري في الأردية يستحق أن ينقل إلى العربية ويقراه العرب.

واقع الترجمة البينية لا يعكس إطلاقًا عمق التواصل بين الناطقين بالأردية من الهنود والعرب، لذلك فهناك نقص كبير، ويعود على المهتمين بالعربية سدّ هذا الفراغ.

دور علماء مدرسة الإصلاح في تطوير الصحافة العربية في الهند

- د. محمد معتصم الأعظمي¹

تاريخ الصحافة العربية في الهند غير المنقسمة بتبديء من المجلة الأسبوعية "النفع العظيم لأهل هذا الإقليم" التي صدرت في السابع عشر من شهر أكتوبر 1871م تحت رئاسة الشيخ مقرب علي² وإدارة تحريرها الفخري. جي. دبليو. ليتنر (G.W. Leitner). ومنذ تلك الفترة صدرت مجلات عديدة من الهند وباكستان بعض منها توقفت بينما البعض يستمر صدورها.³

مدرسة الإصلاح مدرسة إسلامية تأسست لنيل الاختصاص في القرآن الكريم وعلومه. وكان من مؤسسيها ومنشئها العلامة شبلي النعماني والإمام عبد الحميد الفراهي، وكل منهما كان عالماً كبيراً للغة العربية وشاعراً لها. ولقد تطورت المدرسة تطوراً كبيراً تحت إدارة الإمام عبد الحميد الفراهي رحمه الله تعالى.

درّبت هذه المدرسة وخرّجت علماء كباراً وأدباء بارزين وشعراء مفلّحين لمختلف اللغات قاموا بتقديم خدمات جليلة في مختلف المجالات العلمية والأدبية والفنية مما يطول بذكرها المقال. ففي هذه العجالة نركّز حديثنا على خدماتهم في مجال الصحافة العربية.

¹ نائب مدير تحرير المجلة ومدرس ضيف، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة بردوان، بنغال الغربية، الهند

² سليم الرحمن الندوي: الصحافة الإسلامية في الهند تاريخها و تطورها، ص 81 وأيوب تاج الدين الندوي: الصحافة العربية في الهند نشئها وتطورها، ص 83

³ المصدر نفسه، ص 3 وسليم الرحمن خان الندوي: الصحافة الإسلامية في الهند تاريخها وتطورها، ص 81

وهذا من بواعث السرور والحزن معاً أنّ المجلس الإداري لمدرسة الإصلاح قرّر في إحدى جلساته المنعقدة في السابع عشر من شهر ديسمبر سنة 1978م أنّ تصدر المدرسة مجلة علمية فصلية باللغة العربية وجعل بعض أعضائه مسؤولين عن تقديم خطة شاملة لهذه المجلة ولكن من الأسف أنّ هذا القرار لمّا يبرز إلى حيز الوجود وقد مرّ على إمضائه حوالي أربعين سنة طويلة.

وعلى كل حال فلم يتخلف أبناؤها في تقديم إسهاماتهم في هذا المجال فلدينا فهرس لأبنائها الكبار الذين قدّموا خدماتهم في هذا المجال مثل الدكتور ظفر الإسلام خان والدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي والدكتور أرنك زيب الأعظمي وغيرهم من العلماء المتخرجين من هذه المدرسة.

بدء تاريخ الصحافة العربية في مدرسة الإصلاح: يتبدى تاريخ الصحافة العربية في هذه المدرسة من مجلة "النهضة" التي أصدرها النادي العربي بمئو ثم صدرت مجلة "الهلal" في عام 1966م التي تبعتها مجلة "المنهل" تحت إدارة تحرير الدكتور محمد أجمل في 1970م ثم تتابعت المجلات الخطية والمطبوعة التي سنذكر تفاصيلها وكذا ساهم أبناؤها في نشر وطباعة المجلات العلمية التي سنفصل عنها آنفاً.

فنبدأ بمجلة "النهضة" الإسلامية العربية الشهرية التي صدر أول مجلدها في شهر محرم الحرام 1381هـ الموافق لـ يوليو 1961م وكذلك مجلدها الثاني في شهر صفر 1381هـ الموافق لشهر أغسطس 1961م، وكانت تصدر هذه المجلة تحت رئاسة تحرير إقبال أحمد الأعظمي وكان أبو مظهر الأعظمي الندوي ومبين أحمد الأعظمي في هيئة إدارتها. يوجد عددها الأول والثاني في مكتبة طلاب المدرسة (دار المعلومات) التي تزخر بالكتب القيّمة من مختلف الموضوعات.

ننقل فيما يلي بعض موضوعات هذه المجلة:

العدد الأول: محرم الحرام 1381 هـ الموافق لـ يوليو 1961 م:

1. أهدافنا إقبال أحمد
2. في غفلة الإنسان العلامة حميد الدين الفراهي
3. وصية الإمام حسن البناء
4. الاستقامة محمد الأثري
5. ينبغي لحامل القرآن (حديث)
6. واجبات طلبة المدارس العربية محمود الفيض آبادي
7. في ذكر الأستاذ ظفر الأعظمي
8. ركن الأبحاث الخطابة أنفع أم الكتابة ظفر الأعظمي
9. بالجد تنال المراد ابن المجاهد الهندي

العدد الثاني: صفر 1381 هـ الموافق لشهر أغسطس 1961 م

1. فاتحة العدد التحرير
2. إنما الأعمال بالنيات ابن المجاهد الهندي
3. الأخلاق – قوة حاسمة السيد أبو الأعلى المودودي
4. أخبار وأنباء أحمد الأثري
5. الاتحاد مختار أحمد
6. في تقلب الأيام بالناس العلامة الفراهي
7. مدرسة الإصلاح محمود الفيض آبادي
8. اضحك مع القافلة وأقوال مختارة مأخوذ

9. قطعة قيمة للأستاذ أحمد الشرباصي

(حديقتي، الولد الذكي والذباب، لماذا نتعلم اللغة العربية، الدعاء،
أشعار مختارة، جدير بالذكر)

يبدو من النظرة الخاطفة على هذه الموضوعات أنّ المجلة كانت تهتم بموضوعات علمية ودينية وفنية كما كانت تنشر فيها الأبيات الجميلة الرائعة.

ثم نأتي إلى ذكر مجلة "الهلال" الأدبية الثنائية (أي ذات شهرين) فنُشر العدد الأول لهذه المجلة في شهر يناير وفبراير 1966م تحت إدارة تحرير عبد العظيم الأعظمي وتوجد الأعداد الأربعة لهذه المجلة في مكتبة طلاب المدرسة وهي أعداد يناير-فبراير، مارس-أبريل، مايو-يونيو، يوليو-أغسطس لعام 1966م. ويعرف مدير هذه المجلة الآن بالدكتور عبد العظيم الأعظمي والتحق الدكتور بمدرسة الإصلاح عام 1959م وتخرج منها في 1968م. وهو أستاذ في الاقتصاد في جامعة الملك عبد العزيز وهو الآن رئيس التحرير في مجلة "جامعة الملك عبد العزيز – الاقتصاد الإسلامي Journal of King Abdul Aziz University – Islamic Economy". ونذكر فيما يلي محتويات مجلدَيها الأول والثاني:

المجلد الأول، العدد الأول: رمضان وشوال 1385هـ، يناير-فبراير 1966م

1. فاتحة المجلة رئيس التحرير
2. هل القرآن كلام لا نظام فيه حضرة الأستاذ مولانا داؤد أكبر إصلاحي
3. أهدافنا بقلم فضيلة الأخ مختار أحمد إصلاحي
4. أمير المؤمنين سيدنا أبو بكر الصديق عبد العظيم الأعظمي
5. فرائض طلاب مدرسة الإصلاح الأخ أبرار أحمد الأعظمي
6. أمنيقي في الحياة مختار أحمد إصلاحي

7. أيها الطلاب! بقلم ظفر الإسلام الشمسي
 8. العلوم والفضائل الإمام الشافعي
 9. من ذا الذي يستطيع حمد محمد فضيلة الشيخ محمد حليم عطا العمري
 10. النزهة الأخ محمد أيوب الإصلاحي
 11. الصوم الأخ ظفر الإسلام
 12. ليلة القدر مولانا أبو الكلام آزاد
 - (تعريب) عبد العظيم الأعظمي
 13. الحج بقلم السيادة الشيخ فوزان السابق
 14. العرب والإسلام محمد أيوب إصلاحي
- المجلد الأول، العدد الثاني: ذو القعدة والحجة 1385هـ، مارس أبريل 1966م
1. فاتحة المجلة رئيس التحرير
 2. هل القرآن كلام لا نظام فيه حضرة الأستاذ مولانا داؤد أكبر الإصلاحي
 3. رسالة مدرسة الإصلاح بقلم فضيلة الأستاذ مختار أحمد الإصلاحي
 4. معارف السنة والآثار الأخ ظفر الإسلام الشمسي
 5. تبديد الإلحاد فضيلة الشيخ محمد إسحاق الندوي
 6. اختلاف الفقهاء الأخ مختار أحمد الإصلاحي
 7. الإمارة عبد العظيم الأعظمي
 8. عجائب الشعر
 9. المؤمن والدنيا الأخ ظفر الإسلام الشمسي

10. أمير المؤمنين سيدنا أبو بكر الصديق عبد العظيم الأعظمي

11. الكذب مصطفى لطفي المنفلوطي

12. القصص والأمثال (للطلبة بالصفوف الابتدائية)

وتليها مجلة "المنهل" لمدير تحريرها الدكتور محمد أجمل الأعظمي¹ الذي ولد في قرية سيدها سلطان فور من مديرية أعظم كره 1953م وهو من قرية كونه غني بأعظم كره، التحق الدكتور الإصلاحي بمدرسة الإصلاح في 1960م وتخرج منها في 1970م وله مؤلفات ورسائل عديدة ومنها "محاسن الشعر" (الجزء الأول والثاني)، و"الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" و"إصلاح الإصلاح" و"بحوث وتنبيهات" و"بحوث ومقالات" و"مفردات القرآن".

أصدر الدكتور هذه المجلة عندما كان متعلماً في المدرسة. كانت هذه المجلة تصدر في كل شهرين وتوجد أعدادها الثلاثة من المجلد الأول (من شهر نيسان 1970م إلى آب 1970م الموافق لصفر المظفر 1390هـ إلى جمادى الآخرة 1390هـ) ونذكر فيما يلي عناوين بعض المقالات:

المجلد الأول صفر المظفر 1390هـ الموافق نيسان 1970م العدد الأول

1. كلمة التحرير محمد أجمل الأعظمي

2. الإمام أبوحنيفة سلطان أحمد الأعظمي

3. المدرسة الأولى محمد أجمل الأعظمي

4. خصائص الأنبياء من البلاغة ترجمان القرآن الإمام الفراهي

5. بلّغوا ابن رشيق (شعر)

¹ وهو يعرف الآن الدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي ويقع في المملكة العربية السعودية ويعمل باحثاً محققاً لمصادر الإسلام وعلومه.

6. الخطاب الترحيبي سماحة الأستاذ بدر الدين الإصلاحي

(تعريب) محمد أجمل الأعظمي

المجلد الأول ربيع الثاني 1390 هـ الموافق حزيران 1970 م العدد الثاني

كلمة التحرير

1. كلمة التحرير محمد أجمل الأعظمي

2. حزيران

في ظلال القرآن

3. منهج استدلال القرآن سلطان أحمد الأعظمي

4. أربعة أنواع من الأنهار فضيلة الشيخ جليل أحسن الندوي

(تعريب) فيضان أحمد

بحوث ومقالات

5. الشعوبية وأبو نواس محمد أجمل الأعظمي

6. عبد الله بن المقفع سلطان أحمد الأعظمي

مختارات

7. أنت أنت الله منصور فهي

الشعر

8. في النصع عبد الله باشا فكري

قصة

9. هدية "گوميز" علي حسن يزداني

يبدو من دراسة هذه الموضوعات أن هذه المجلة كانت تعتني بالأدب والبلاغة والتاريخ وشؤون الدعوة.

وبجانب هذا كان الدكتور مساعد التحرير لمجلة "ثقافة الهند" الفصلية الصادرة عن المجلس الهندي للعلاقات الثقافية بنيو دلهي. خدم الدكتور هذه المجلة لمدة خمس سنوات. ولقد بلغنا أنه ساعد مدير تحرير مجلة "البعث الإسلامي" حين تعلّمه في دار العلوم لندوة العلماء وكتب مقالات عديدة نُشرت في مختلف أعدادها. وكذا صدرت مجلة "وعي الإصلاح" تحت رئاسة تحرير راشد أيوب وإدارة تحرير طاهر صغير. وراشد أيوب يعرف الآن بالدكتور راشد أيوب الإصلاحي وهو من كونه غني ومن المتخرجين في مدرسة الإصلاح. علماً بأن الدكتور راشد أيوب الإصلاحي مقيم بـ"لندن" مبعوثاً إليها لشؤون الدعوة الإسلامية من قِبَل المملكة السعودية العربية، توجد إحدى نسخ العدد الأول لهذه المجلة (لشهر جمادى الأولى سنة 1395)، وعناوين بعض مقالاتها كما يلي:

المجلد الأول	جمادى الأولى سنة 1395 هـ	السنة الأولى
كلمة التحرير	راشد أيوب	
1. أهلاً يا رمضان	الأستاذ محمد أجمل أيوب	
2. خصائص الشعر العباسي	راشد أيوب	
3. التسامح الديني للملوك المسلمين	طاهر صغير	
4. أنتِ (شعر)	عباس محمود العقاد	
5. الشعر والإسلام	الدكتورة عائشة بنت الشاطي	
6. رائد التضامن الإسلام في ذمة الله	طاهر صغير	
7. عام العثماني	خورشيد أحمد	

8. الطفولية راشد أيوب

9. حرارة السراج شمس الزمان

10. طريفة أبو سعد

11. وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا اشدوا لقمان أحمد

12. من بريد المعالم العربي

يبدو من قراءة هذه العناوين أنّ هذه المجلة كانت تهتم بالموضوعات العلمية والأدبية والفنية كما كانت تعني بشؤون الدين وتشتمل على الطرائف والرسائل.

وكذا صدرت مجلة لكل شهرين باسم "الفجر" تحت إدارة تحرير نعيم الدين وتوجد إحدى نسخ العدد الأول للمجلد الأول (لشهر فيراير-مارس) ولكن سنة النشر لم تذكر، وهذه المجلة كانت مجلة علمية دينية أدبية. موضوعاتها كما يلي:

المجلد الأول المحرم الحرام والصفير المظفر العدد الأول

1. الافتتاحية نعيم الدين

2. حول مقالات هامة للعلامة شبلي النعماني الأخ أبرار أحمد

3. الصراع بين الشيطان والموحد الأخ راشد أيوب

4. العلامة الشيخ أخترا حسن الإصلاحي الأخ نعيم الدين

5. الأستاذ حميد الدين الفراهي الأخ قمر الدين

6. السينما وأثارها القبيحة الأخ أبوبكر

7. رسالة منكم الأخ راشد أيوب

8. الاستعاذة العلامة الفراهي

9. ما الدنيا والآخرة؟ الأخ قيام الدين

10. الكرم الأفخم الأخ سرفراز أحمد
11. كون محمد نبياً الأخ علاء الدين
12. ذنب ظالم الأخ شرف الدين
13. عصيان الوالدين الأخ محمد أطهر
14. قصة الأخ لقمان أحمد
15. طلب العلم خير من طلب المال علي الفكري
16. كنز العلم

يبدو من دراسة هذه الموضوعات أن هذه المجلة كانت ذات مواضيع متنوعة إذ نجد فيها تراجم شخصيات كبرى مثل الشيخ عبد الحميد الفراهي كما نجد فيها مواضيع دينية وعلمية ومقالات عن السينيما.

و"ثقافة الهند" مجلة فصلية علمية ثقافية يصدرها المجلس الهندي للعلاقات الثقافية التابع لوزارة الخارجية الهندية، أنشئت عام 1950م بيد وزير المعارف الهندي الأسبق الشيخ أبو الكلام آزاد من قبل المجلس الهندي للعلاقات الثقافية. صدر عددها الأول في مارس 1950م تحت إشراف معالي الوزير آزاد وإدارة الشيخ عبد الرزاق المليح آبادي. ومن المساعدين لتحرير هذه المجلة شخصيتان إصلاحيتان إحداهما الدكتور محمد أجمل الإصلاحي الذي قد سبق ذكره وأما الشخصية الأخرى فهو الدكتور صهيب عالم الإصلاحي الذي كان مساعد التحرير مرتين مرة منذ 2000م إلى 2003-04 ومرة أخرى منذ 2009 إلى 2012-13. والدكتور صهيب الإصلاحي من أهالي جهاركند والتحق بمدرسة الإصلاح 1990-91 وتخرج فيها في شهر ديسمبر 1996م. ألّف كتبًا ومقالات كثيرة منها "العلاقات العربية الهندية" و"أبو الكلام آزاد" و"تشكل الأمة في مناهضة الاستعمار السياسات الطائفية الهندية" و"أجنحة من النار".

ومجلة "التاريخ الإسلامي" مجلة عربية إنجليزية فصلية كانت تصدرها دار نشر ميديا آند ببلشينغ عن جمعية التاريخ الإسلامي ومعهد الدراسات الإسلامية والعربية بنيو دلهي. كان يرأس تحريرها الرئيس المؤسس الدكتور ظفر الإسلام خان. صدر أول عددها في شهر صفر-ربيع الثاني 1416هـ / يوليو-سبتمبر 1995م.¹

هذه المجلة أول من نوعها في العالم وكانت تعني بتاريخ الإسلام ودراساتها الإسلامية وتعالج القضايا الإسلامية بالتركيز على الركائز الإسلامية، وبالعكس توجد دوريات أخرى بمختلف لغات العالم تقوم بالاهتمام بتغطية تاريخ العام والخاص والإقليمي ولكنها لا تختص بتاريخ الإسلام لذا لا تعد مجلات متخصصة بالإسلام بينما تعد مجلة التاريخ مجلة متخصصة به² كما يقول رئيس تحريرها:

"ولكن بينما توجد دوريات متخصصة بمختلف اللغات حول شتى نواحي تاريخ العام والخاص والإقليمي، لا توجد مجلة متخصصة للتاريخ الإسلامي بأية لغة من لغات العالم".³

وكذلك مجلة "نقش" السنوية المتعددة اللغات الصادرة من جمعية الطلاب الأقدمين بنيو دلهي، صدر أول مجلدها في عام 2000م ولو شكّل مجلسها الإداري في عام 1998 ولكن لم يتم نشرها لأسباب فصدر عددها الأول تحت رئاسة تحرير أورك زيب الأعظمي فيقول الأعظمي في افتتاحيتها: "هذه المجلة ترجمان جمعية تتكوّن من الطلاب الذين هم قلائل في العلم وفي التجربة معًا فلا يتوقع منهم نضج الأساتذة ولا العمل المنظم.... ها هو العدد الأول وقد قدّمنا فيه تعريفًا موجزًا بمدرسة الإصلاح وبأعضاء الجمعية ونبذة عن حياة العلماء والمفكرين الإصلاحيين لأن هذا العدد كان عددًا خاصًا بالأحياء من العلماء والمفكرين الإصلاحيين الذين لم يزالوا يلعبون دورًا

¹ مجلة التاريخ الإسلامي: العدد 1:1، صفر-ربيع الثاني 1416هـ / يوليو-سبتمبر 1995م، صفحة الغلاف.

² المصدر نفسه (افتتاحية العدد)، ص 9

³ المصدر نفسه (افتتاحية العدد)، ص 9

رياديًا ممتازًا في المجالات المختلفة".

ولا تزال تنشر هذه المجلة حتى الآن فيشتمل قسمها العربي على موضوعات عديدة منها القرآن والحديث والفقه والقصة والرواية وغيرها من الموضوعات. وقام بإدارة تحريرها المختلف من علماء مدرسة الإصلاح ومنهم الدكتور أشفاق ظفر، والدكتور عزيز الرحمن، والدكتور أبرار أحمد، وعلم الله الإصلاحي، وآخرون غيرهم.

و"مجلة الهند" التي هي مجلة عربية فصلية تصدرها مؤسسة مولانا آزاد أنيديل إيجوكيشنال ترست ببولفور في بنغال الغربية يرأس تحريرها الرئيس المؤسس الدكتور أورنك زيب الأعظمي ويساعده في تحريرها الآن كاتب هذه المقالة. وصدر أول عددها في شهر يناير-مارس 2012.¹

هذه المجلة أول من نوعها في الهند تركّز على تطوير العلوم العربية والإسلامية بخصوص مساهمة الهند وأبنائها في العلوم والفنون والآداب، كما يقول رئيس تحرير المجلة الدكتور أورنك زيب الأعظمي:

"أردت أن أنشر مجلة تفضّل البحوث العلمية والمقالات البحثية كي يعود لمجلات الهند ماضيها الزاهر الذي كانت تنشر فيه مقالات وبحوثًا علمية، هذا وقد وددتُ أن أفضّل المقالات والبحوث عن الدراسات العربية والإسلامية....."²

ولقد أثبتت المجلة منذ أول يومها ما ادّعت ونشرت عددًا هائلًا من المقالات والبحوث العلمية في الموضوعات المذكورة أعلاه. ونذكر فيما يلي محتويات بعض الأعداد:

المجلد الأول أبريل-يونيو 2012م العدد الثاني

الافتتاحية د. أورنك زيب الأعظمي

¹ مجلة التاريخ الإسلامي: العدد 1:1، صفر-ربيع الثاني 1416هـ/ يوليو-سبتمبر 1995م، صفحة الغلاف.

² مجلة الهند، 1/1، ص 5

مقالات وبحوث:

تفسير تدبر القرآن

الشيخ أمين أحسن الإصلاحي

ترجمة: د. أورنك زيب الأعظمي

موقف الشيخ وحيد الدين خان من أركان الإيمان والدعوة إلى الله
د. أشرف أحمد محمد محمد عماشة

وسائل إثبات ونفي النسب في الشريعة
الإسلامية بالنظر للتطورات الطبية
والنوازل الفقهية المعاصرة للمسلمين
المقيمين خارج ديار الإسلام
د. محمد سعيد متولي الرهوان

تقريب الخطاب الصوفي ونشر ثقافته
الأخلاقية والمعرفية سبيل إلى إصلاح الذات
والآخر
د. أمين يوسف عودة

تدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها-
دراسة تحليلية
أ. د. فيضان الله الفاروقي

أثر البلاغة العربية في البلاغة الأردنية
الكركدن الوحيد القرن الهندي الكبير
د. سيد عليم أشرف الجائسي
الشيخ بدر جمال الإصلاحي
قراءة في كتب:

الطبعة الباكستانية لـ"ديوان الفيض"-
دراسة نقدية
د. أورنك زيب الأعظمي

قصص وحكايات:

أكه نندن
(ترجمة: جاويد أحمد بال)

قصائد ومنظومات:

رثاء ولده الصغير فيض الحسن السهارنفوري

رثاء ابنه عبيد الله وشعيب نظام الدين الفاروقي

ذكرى ابنته عبد المعيد عبد الجليل

هذا وقد نشرت المجلة عددان خاصين بسير وأعمال شخصيتين كُبريين إحداهما العلامة شبلي النعماني. نشر العدد الخاص بسيرته وأعماله في مجلدين وهذا عدد بديع من حيث طباعتها وموضوعاتها فلم ينشر إلى الآن عدد خاص بالعربية لا في الهند ولا في خارجها، وأما العدد الخاص الثاني فهو عن سيرة وأعمال الإمام عبد الحميد الفراهي. هذا العدد الخاص نشر في خمسة أجزاء ويريد الدكتور الأعظمي أن ينشر أجزاء أخرى لهذا العدد الخاص. إنَّ هذا العدد الخاص أيضًا بديع بحيث طباعته وتنوع موضوعاته فلقد نشرت في خمسة أجزاء حوالي خمسمئة مقالة عن الإمام الفراهي.

والجدير بالذكر أنَّ جمعية الطلاب من مدرسة الإصلاح قد أصدر مجلة سنوية متعددة اللغات عام 1988م وسماها "مجلة" وهذه المجلة تصدر باستمرار حتى الآن وتشتمل على المقالات المتنوعة ولا توجد المقالات باللغة العربية في جميع أعدادها. وكتب مديرها الأول في كلمة العدد: "هذه المجلة السنوية بين أيديكم وهي محاولة أولى منا، وعلى الرغم من أنَّ الرسائل الخطية يتم إصدارها شهريًا أو فصليًا من قبل الطلاب ولكننا أول مرة نصدرها مطبوعة".

ونذكر أسماء بعض محرريها مقصود أحمد الأعظمي، كمال اختر يسين المباركفوري، فياض حميد، عزيز الرحمن السنجري، طارق إعجاز الأعظمي، منور علي الأعظمي، محمد وصي الفراهي، شاهنواز عالم الأعظمي (أورنك زيب الأعظمي)، أبو القيس، محمد عليم، عبد الماجد البلرامفوري، أشرف أخلاق الأعظمي، محمد قاسم

الفراهي، محمد مرسلين ، بدر عالم البلامفوري، عبد الرحمن، زبير عالم النيبالي، شهنواز أحمد المندوي.

ومما نشرت هذه المجلة من المقالات باللغة العربية "جمع القرآن في الخلافة الأولى"، "الرق والإسلام"، "دور الشباب المسلم في البناء المجتمع الصالح"، "المرأة في الإسلام"، "مؤسس مدرسة الإصلاح حياته وخدماته"، "دانتة الكوميديا الإلهية"، الإمام مالك رحمه الله تعالى"، "فراصة أبي بكر الصديق ﷺ"، "الإيمان والإسلام"، "قيادة المرأة في الإسلام"، "الإمام الفراهي وكتابه: أساليب القرآن"، "حقيقة الدعاء"، "العلامة عبد الحميد الفراهي وتحقيق مفردات القرآن"، "حقيقة التوبة"، "الإخلاص"، وأبيات الشاعر الإسلامي أحمد محمود كوثر الإصلاحي الأعظمي ومنها:

ألم تعلم بأن العلم، علم يزكي الناس، يهديهم وينفع
وإن القلب، قلب مطمئن بذكر الله، يحمده ويخشع¹

وفي البداية كانت محتوياتها الأردنية والعربية والإنجليزية منفصلة فكانت المقالات الأردنية توضع أولاً ثم مقالات القسم العربي ثم مقالات القسم الإنجليزي. وقد عبر كبار علماء الهند وأساتذتها عن انطباعاتهم واكتفي بنقل رأي القاضي أطهر المباركفوري الذي يقول:

"بلغتني المجلة السنوية (1988م) لجمعية طلبة مدرسة الإصلاح، وحينما استلمتها ألقيت نظرة على محتوياتها ثم قرأت معظمها برغبة وهيام، هذه المجلة تصدق ومستوى طلاب مدرسة الإصلاح العالي. ولو أن عليها طابعاً طلابياً إلا أنها تطوي بين دفتيها قدرًا علميًا نعقد معهم أملاً كبيرًا.

إن مدرسة الإصلاح ليست مدرسة دينية فقط، بل هي معهد تربوي مركزه القرآن الكريم، وفق الله طلابنا لمذاق الكتابة ويواصلوا سيرهم العلمي بقدرة

¹ "مجلة"، 1990م، ص 203

أكاديمية كاملة".

ومجلة "الشروق" التي صدرت نصف سنوية في السنتين 1993-1994م تحت إدارة تحرير الدكتور أورنك زيب الأعظمي، كانت مشتملة على المقالات المتنوعة التي كان يكتبها الدكتور أورنك زيب الأعظمي بنفسه. يقول عن أول عددها الدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي:

"لقد سُدَّتْ بالاطلاع على هذه المجلة الخطبة الجميلة التي أصدرها الأخ العزيز ابن لثيق الأعظمي (الاسم التأليفي القديم للدكتور الأعظمي). وسُرِرْتُ أيما سرور. وأعجبني ذلك الجهدُ الجاهد الذي بذله في إعداد المجلة، فقد كان وحده كاتبًا وناسخًا معًا. وعلى الرغم من ذلك استطاع أن ينوع موضوعاتها. نهى الأخ على إخراج هذه المجلة على مثل هذا المستوى وهو طالبٌ في الصف الخامس. ولا شك أن ذلك يبشر بمستقبل زاهر له عالمًا وكاتبًا قديرًا إن شاء الله".¹

ولا تنتهي هذه السلسلة الذهبية فلقد صدرت في المدرسة مجلات جدارية تجدر بالذكر ومنها "انقلاب" نصف الشهرية فصدرت أول مرة في شهر مارس عام 1994م من أيدي طلاب الصف السابع في "قاعة الفراهي" وكان أول مدير هذه المجلة الجدارية أبو القاسم من سدهارث نغر وكان يساعده في التحرير محمد نصير، ولكن لم تستمر هذه السلسلة العلمية إلا لسنة واحدة، وبداية كان اسمها "الانقلاب" ثم حُذِفَتْ "أل" بعد المشاورة، وكانت الآيات القرآنية تُكْتَبُ على يمين المجلة الجدارية والأحاديث كانت تُكْتَبُ على يسارها، والمقالات الصغيرة بأسفلها باللغة الأردوية والعربية، وكذلك الأخبار والأنباء، ثم توقفت المجلة لمدة أربع سنوات واستأنف صدورها في شهر أبريل 1998م، فكان يرأس تحريرها فضل الرحمن الظلي ويساعده في التحرير مجيب الرحمن الأعظمي، وفي 1999م كان مديرها ضياء الرحمن الإصلاحي ومساعدته في التحرير رضوان أحمد وفي عام 2000م أصبح مديرها رضوان أحمد إذ ساعده في

¹ مجلة "الشروق" نصف السنوية، 1993/1/1م (في نهاية المجلة)

التحرير محمد مرسلين المطري، وفي 2001م حرّرها محمد مرسلين المطري وساعده بدر عالم. وفي 2008م كان مديرها بلال أحمد ويساعده محمد قدير. وكذلك كانت تصدر مجلة جدارية باسم "شاهين" على منوال "انقلاب" باللغة الأردوية والعربية خلال 2000م و2002م فقام بإصدارها بعض زملائي في الصف منهم معين الدين الأعظمي وأبو شحمة وأنور أعظم من باري خاص وعبد الرب من جونفور كما نشرت مجلة جدارية عربية "الثورة" خلال فترة 2017م و2018م، ونشر عددان منها فقط ثم توقفت. كان يرأسها رشاد اليونس فوري، ثم نشرت هذه المجلة مرة أخرى في 2019م بعد بداية السنة الدراسية ولكن غيّر اسمها فنجد مجلة جدارية عربية "باكورة الإصلاح" يرأس تحريرها ريان ويساعده أشرف الأعظمي، وهذه المجلة لا تزال تنشر خلال الفترة الدراسية.

هذا، وقد بدا من هذا الاستعراض الموجز للمجلات العربية التي أصدرها العلماء المتخرجون من مدرسة الإصلاح أن هذه الدار قد شعرت بحاجة العصر إلى صدور مجلة علمية باللغة العربية وقد حقق هذا الحلم العلماء المتخرجون منها فقد أصدر كل من الدكتور ظفر الإسلام خان والدكتور أرنك زيب الأعظمي مجلة "التاريخ الإسلامي" و"مجلة الهند" كما أصدر المؤسسات العلمية "الإصلاحية" المجلات العربية مثل منظمة طلاب مدرسة الإصلاح الأقدمين (فرع دلهي) التي أصدرت مجلة "نقش" السنوية وأصدر النادي العربي لمدرسة الإصلاح لمنطقة منو مجلة "النهضة" وهكذا قام العلماء المتخرجون من هذه الدار بإدارة التحرير أو مساعدة التحرير لمختلف المجلات العربية الصادرة عن الهند ومنهم الدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي الذي ساعد في تحرير مجلة "ثقافة الهند" والدكتور صهيب عالم الإصلاحي الذي ساعد في تحرير نفس المجلة مرتين.

هذا ونرجو من المدرسة أنها ستحقق حُلْمَها الذي رآته قبل أربعين سنة أو أكثر من إصدار مجلة علمية فصلية بالعربية من ميدانها.

ترجمة كتاب "مسلمانوں كى گذشتہ تعليم" العربية (دراسة تحليلية)

- د. محمد أجمل¹

مقدمة

اللغة هي أهم أداة للربط والتواصل بين الشعوب المختلفة، فهي تعبر عن حاجتهم وتعكس تقدّمهم ورقمهم في مجالات المعرفة المختلفة، وتتغير بتغير الأحوال والظروف الحياتية لتستوعب الأحداث الجديدة ومجريات الأمور.

بسبب ما يحدث الآن في العالم من تطور وتوغل في كافة المجالات أصبحت الترجمة أمراً حتمياً لمواكبة التقدّم الحضاري ونقل المعلومات وتبادل الثقافات، وبذلك أصبح لها دور لا يستهان به في التواصل بين الأمم، فهي مبدأ التواصل وتخطي عقبة الحاجز اللغوي الذي كان يقف دائماً كحائط عارض في التواصل والتفاعل مع الآخرين.

الترجمة العربية لكتاب "مسلمانوں كى گذشتہ تعليم"

كتاب "مسلمانوں كى گذشتہ تعليم": سنتناول في السطور التالية ترجمة كتاب "مسلمانوں كى گذشتہ تعليم" (للعلامة شبلي النعماني) إلى اللغة العربية، وهذا أوّل كتاب للعلامة شبلي النعماني يبحث عن جهود المسلمين في سبيل التعليم والتعلم، وفي بناء المدارس والكلّيات ودور العلم، وفي تكريم العلماء والأدباء والشعراء، وفي خلق العدد الغفير من عباقرة الأئمة وجهابذة المفسرين

¹ أستاذ مساعد، مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لعل نهرو، نيودلهي

والمحدثين والفقهاء ممن يرجع إليهم فضل مواصلة الحركة العلمية التي بدأ بها الإسلام وأتباعه.¹

كتاب "مسلمانوں کی گذشتہ تعلیم" الذي يعرف الآن بـ "الحركة العلمية وكيف طوّرها الإسلام" كان في الأصل باللغة الأردية، فنقله إلى العربية المترجم الشهير الدكتور أورنك زيب الأعظمي. يقول الدكتور في كلمته: "فقد أدى العلامة محمد شبلي النعماني خدمات جليلة في العديد من حقول العلم والمعرفة؛ إن الكتب التي قام بتأليفها العلامة لها أثر بالغ في إصلاح المجتمع الهندي حتى ناقشها العلماء العرب في مباحثهم وضربوا لها مثلاً في كثير من الأحيان عند تناولهم لأُمور المسلمين ومعالجة قضاياهم فأصبحت مقبولة في العالم العربي والإسلامي جميعاً. فقد قال يوسف القرضاوي في حديث تلفزيوني "إنّ العالم العربي والإسلامي لم يسعه تقديم بديل لـ"السيرة النبوية" للعلامة شبلي النعماني في غضون مئة سنة".²

هذا الكتاب الذي نقوم بدراسته هو ترجمة إحدى رسائل العلامة شبلي النعماني التي تناول فيها النعماني مجهودات المسلمين في نشر العلم وترويجه وتلقيه، والإجراءات التي اختارها المسلمون في بناء المعاهد التعليمية صغيرة كانت أو كبيرة كما وحرّض الناس على احترام العلماء وتكريمهم واهتدى الأدباء بإرشاداته أن يخلق أدباً يهدي الناس إلى سواء السبيل وأن يكتب الشعراء شعراً يشعر منه القارئ بذوقه السليم ويعطي له عطاء حسناً. ولعب دوراً مهماً أن جاء العدد الكبير من جهابذة العلماء والمفسرين وعباقرة الفقهاء والمحدثين إلى من حملوا مسؤولية مواصلة الحركة العلمية على عاتقهم التي بدأ بها الإسلام وأتباعه.

هذا وقد وجّه العلماء والباحثون الثناء إلى هذه الرسالة وقَدّموا انطباعاتهم التي

¹ العلامة محمد شبلي النعماني: الحركة العلمية وكيف طوّرها الإسلام (ترجمة: د. أورنك زيب

الأعظمي)، دار الكتب العلمية، بيروت، 2017م، ص 4

² نفس المصدر، ص 3.

تتطلع على أهميتها وقدرها التاريخي العلمي فقال السير سيد أحمد خان: "ولو أنّ هذه الرسالة في مجرد 80 صفحة ولكنها تحفل بمعلومات عن تعليم المسلمين السابق بحيث لا تجد قدرها مجموعة في كتاب واحد"،¹ وقال أيضًا "لقد أجاد الكاتب عن تعداد العلوم التي تم إيجادها في الإسلام وكم علمًا طوّروه وكيف انتشرت هذه العلوم وكيف كان تدريسها ثم ماذا أضاف إليها بنو أمية وبنو العباس وكيف نقلوا علوم اليونان إلى لغتهم ثم كيف طوّروها فبلغوا بها ذورة لو كان اليونان أحياء لبهتوا ولرأوا أنّ البذرة التي بذروها في الأرض كيف نمت وعلت فأعطت ثمارها وكذا أشار إلى العلوم التي لم يمتها عليهم غيرهم بل هم الذين أوجدوها".² وبخصوص هذه الرسالة يقول المؤرخ عبد الحليم شرر: "هذه المحاضرة شيء جديد وممتع للمسلمين"، وقال أيضًا: رسالة "مسلمانوں کی گذشتہ تعلیم" أجمل نموذج للتاريخ والنقد والتحقيق فيه".³ وقال السيد عمير الصديق الندوي: "نحتاج إلى أن نعيد النظر إلى هذا الشبلي الذي قدّم في أول وهلة كتابًا باسم "مسلمانوں کی گذشتہ تعلیم" لو صرفنا النظر عن كافة مجهوداته لكفى هذا الكتاب مقدمًا عظمتة المنفردة".⁴

يشتمل الكتاب المترجم على ثماني وثمانين صفحة واثنتين وثمانين عنوانًا رئيسيًا ما عدا موضوع المصادر والمراجع، وفهرس المحتويات.

الكتاب يحتل أهمية خاصة بالنسبة للموضوع وأشباه مواضيعه لأنه أول كتاب نثري للعلامة شبلي خلال فترة قيامه بعلي غراه وليجب علينا أن نطلع على أنّ أول عمل صدر له بعد انتسابه إلى الكلية هو "مثنوي صبح أميد" (ملحمة فجر الأمل) والذي نشر في 1886م ولقد اعتبره تلميذه البارّ السيد سليمان الندوي، وصدق في

¹ خطوط سر سيد، ص 70

² مكاتيب شبلي، 83/1

³ مكاتيب سر سيد، ص 174-175

⁴ علي گڈھ انسٹی ٹیوٹ گزٹ، 55/23، 10 يوليو 1888م، ص 773-774

تعبيره، وصفاً جميلاً لحركة علي غراه التعليمية، والكتاب الذي نحن بصدد التعريف به تم تأليفه، على إشارة من السيد أحمد خان، كمقالة للجلسة الثانية لمؤتمر المسلمين التعليمي، فلما قدّمت هذه المقالة في هذه الجلسة أعجب بها الحضور وطار صيتها في كل أنحاء البلاد.¹ كما قال السيد سليمان الندوي: "هذا أول صوت بلغ آذان المسلمين عن مآثر أسلافهم فضجّت الهند كلها بهذه الخطبة وهذا أول أفق أشرقت منه شمس سمعة العلامة شبلي النعماني"،² ثم نشرت هذه المقالة في صورة كتاب تحت إشراف السير سيد أحمد خان.³

ولقد كتب المؤلف في موضع أني لم أظفر بما أحتاج إليه من التفاصيل للكتابة عن هذين المبحثين وتلك هي ترجمات الفلسفات اليونانية، وأسماء المترجمين ومؤلفاتهم، وتفصيل دور العلوم والمدارس الإسلامية، وطرق تدريسهم، والمناهج الدراسية، وما شابهها من المعلومات التي لم أعثر عليها في كتاب خاصّ بها، والواقع كذلك ولكننا نثني على جهد الكاتب الجليل وبحثه المضني بأنه جمع هذه المعلومات من أماكن عديدة فتارة اضطرّ إلى كتاب التاريخ لخلفاء بني أمية وبني العباس وتارة أخرى إلى سير الأمراء وتارة ثالثة إلى تراجم العلماء وحتى أجبر على قراءة أخبار الشعراء وكذا جمع ما وجده لدى علماء الغرب بالاعتراف بمنتهم تلك وهكذا فنجح في مقاصده.⁴

والأهم من ذلك أنه انتقد، من بعض الجوانب، أنشطة المؤسسة التي أقامها السير سيد فلم يقبلها السير سيد عن رضى فحسب بل كتب في استعراضه:

¹ أ. د. ظفر الإسلام الإصلاحي: "مسلمانوں کی گزشتہ تعلیم- أول كتاب للعلامة شبلي خلال إقامته بعلي كره"، مقالة له نشرت في "الحركة العلمية وكيف طوّرها الإسلام"، ص 7

² حيات شبلي، ص 139

³ علي گڈھ انسٹی ٹیوٹ گزٹ، 55/23، 10 يوليو 1888م، ص 773-774

⁴ الحركة العلمية وكيف طوّرها الإسلام"، ص 8

"ولقد أورد الكاتب اعتراضًا صحيحًا على مؤسستنا، لا نصرف النظر عنه".¹ والواقع أننا لا نجد أحدًا قبل النقد والاعتراض على كتاباته خاصة إذا كان الناقد أصغر منه سنًا وقدرًا. ومن الأسف أن بعض الكتاب وصفوا اعتراض شبلي هذا على السير سيد هو البداية للنزاع بينه وبين السير سيد، والحق خلاف ذلك. وهكذا أنّ أهمية هذه الرسالة تبدو في نظر السير سيد من أنه لم يزل يعلن في مجلته أنّ من اشترى عشرين أو ثلاثين أو أربعين نسخة من هذا الكتاب فسوف يمنح تخفيضًا معيّنًا وكان يكتب اسمه تحت هذا الإعلان وليس هذا فقط بل تم استعراض هذه الرسالة في مجلات وصحف أخرى.²

وبصرف النظر عن هذه الأمور تبدو أهمية هذا الكتاب من قراءة محتوياته وأنه يحتل منزلة كبيرة نظرًا لسعة مباحثه، ومستوى بحثه، وجودة لغته وجدة أساليبها فلقد أصاب السير سيد حينما اعتبره "يتيمة الدهر" و"فاقد النظير"،³ وإن هذه الرسالة تتصف بالتاريخ باعتبار احتوائها. ونعرف جيدًا أنّ التاريخ والسير موضوعان محبوبان لدى العلامة شبلي ويشهد له كافة كتبه القيمة لا سيما التي صُنّفت في علي غراه على سبيل المثال: المأمون، وسيرة النعمان، وسفر نامة روم ومصر وشام والفراروق والجزية ومكتبة الإسكندرية وإسلامي شفاخانه (المستشفيات في العهد الإسلامي) وحقوق الذميين. ومن المثير بالاهتمام أنه لما أمره السير سيد بتأليف "مسلمانوں کی گذشتہ تعلیم" اعتبره تاريخيًا ولو أنه لم يُر في صورة تامة كما يبدو من رسائله المرسلة إلى أعضاء المؤتمر.⁴

ومن المثير للعجب أنّ موضوع العلامة شبلي المحبوب الذي تناوله في بحثه وكتابته

¹ نفس المصدر

² على كذم انستى ثيوث كزث، 55/23، 7 يوليو 1888م، ص 764، ومكاتيب سر سيد، ص 176

³ الحركة العلمية وكيف طوّرها الإسلام، ص 10

⁴ نفس المصدر، ص 11

هو التاريخ وخصوصًا التاريخ الإسلامي ويصرح هذا الأمر في أحد كتبه منها "الكلام" قائلاً: "لقد عينت موضوع مؤلفاتي منذ فجر تأليفي هو التاريخ فما صدر من قلبي حتى الآن كان موضوعه التاريخ،¹ فضلاً عن ذلك، لنعلم أن كلمة "كذشته" (الماضي) المذكور في موضوع المقالة تدل على تاريخيتها والأهم من تلك أنه ثابت من النظر على محتوياتها.²

عالج الكتاب الجوانب المختلفة من العلوم التي قام المسلمون بإبداعها وفي هذا الخصوص ذكر دور القرآن الكريم الذي لعبه في ترويج تلك العلوم. وعدّ فيه العلوم التي ابتكرها الأجانب وطريقة الاستفادة منها التي قام بها المسلمون وطرق ترويجها التي يهدي إليها الكتاب. كذلك تناول الكتاب دور العصر العباسي في اتخاذ الخطوات التي أجراها لترويج العلوم العقلية بين المسلمين. يبحث الكتاب عن الترجمات العربية التي أجريت في اللغات الأجنبية المختلفة وعن المترجمين الذين قاموا بهذا العمل. وعالج الكتاب إقامة المدارس والمعاهد في العهود الإسلامية الأولى والأماكن التي أقيمت المدارس فيها وفي أيّ عصر من الخلفاء تمت إقامتها. ثم يذكر عن المدرسين والأساتذة الذين قدّموا خدماتهم للتدريس والتعليم إلى هذه المدارس ودور العلم، وعلى من اعتمدت، وعن الأجور للمدرسين تبنت الإدارة لهم والمنحة الدراسية قررت لطلابها. ويبين ما تناولته المدارس من المناهج الدراسية وكم كانت هي.

من المستحسن أن نلقي نظرة خاطفة على النقاط التي بحث الكتاب عنها:

1. ما هي العلوم التي أوجدها المسلمون وما هو الدور الذي لعبه القرآن في ترويجها؟
2. ما هي علوم الأجانب التي استفاد منها المسلمون ثم كيف طوّروها من لدنهم؟

¹ شبلي: علم الكلام (مقدمة)، ص 11

² الحركة العلمية وكيف طوّرها الإسلام"، ص 11

3. ما هي الخطوات التي اتخذوها لترويج العلوم العقلية في المسلمين في العصر العباسي؟

4. كم كتابًا ترجم إلى العربية من اليونانية والفارسية والسانسكريتية وكم مترجمًا قام بهذا العمل وفي أي عصر من الخلفاء تم هذا العمل؟

5. كم مدرسة أقيمت في عهود التاريخ الإسلامية الأولى وأين أقيمت ومن بناها وفي أي عصر من الخلفاء أقيمت؟

6. من كان يعلم في هذه المدارس ومن كان عميدها وكم عالمًا تخرج منها وكم مألًا صرف لرواتب أساتذتها ومنح طلابها؟

7. أي منهج دراسي كانوا يتبعونه وكم مقررًا دراسيًا كان فيها؟

عقب دراسة هذه النقاط المهمة يُستنتج أنّ العلامة شبلي النعماني قام بدراسة تاريخ العلوم الإسلامية دراسة عميقة وبحث بدقة عن جميع الجوانب الإيجابية والسلبية فيما تمكّن العلامة شبلي من العلوم الإسلامية وتاريخها ودقّق في العوامل التي تساعده في طريقة تطورها.

ولذلك من اللازم هنا أن نقوم بالإيضاح أنّ جانبًا مهمًا لهذا الكتاب هو إلقاء الضوء على أنه لما أخذ المسلمون علوم الأجانب كيف كانت وكيف أصبحت بعد أن اعتنوا بها وكان العلامة شبلي يعرف أنه لم يسعه توضيح هذه القضية ففصلها وأراد أن يؤلّف كتابًا منفردًا بها فيقول في الهامش تحت الموضوع: لو وجدت الفرصة لكتبت رسالة توضح هذه القضية أي كيف كانت العلوم حينما أخذها المسلمون وماذا أصبحت بعد عنايتهم بها.¹

وعلى كل حال فيمكن بهذا القول تقدير أهمية هذه الرسالة وكم من بحث فتح بابه بهذه الرسالة.

¹ نفس المصدر، ص 13

وعلاوة على ذلك فالرسالة لها أهمية نظرًا للغتها وأسلوبها فما نشعر به من تأثير أسلوبها بجانب بساطة لغتها وجمالها يدل على ما كانوا يستخدمون من اللغة وأساليبها في البيان عن أيّ موضوع علمي، يقول السيد صباح الدين مشيرًا إلى هذا الجانب من الرسالة: "قدمت هذه الرسالة في حين لم يكن تاريخ النثر الأردوي بطويل ولكن قوتها وإنشاؤها يدلان على أنّ الأردية كانت تنعّي اللغة وأساليبها التي كانت ضرورية للبحث عن موضوع علمي خالص".¹

فيمكننا القول بأن هذا الكتاب ينفرد في موضوعه وأسلوبه والسرد والبيان الذي عُرفَ بهما العلامة شبلي في الكتاب، ويتميز في النثر الأردوي الذي كان يتواجد في ذلك العصر.

ولا شك أنّ الكتاب "مسلمانوں کی گذشتہ تعلیم" مهمّ من مختلف الجهات ونجد صادقًا ما أبداه السيد عمير الصديق الندوي من انطباعه عنه حيث قال: نحتاج إلى أن نعيد النظر إلى هذا الشبلي الذي قدّم في أول وهلة كتابًا باسم "مسلمانوں کی گذشتہ تعلیم" ولو صرفنا النظر عن كافة مجهوداته لكفى مقدّمًا عظمتة المنفردة". وفي الواقع أنّ هذا الكتاب الموجز يرجع المسلمين إلى ماضيهم بالنسبة لنشر العلوم والفنون وترويج التعليم ثم يجعلهم معتبرين بها ويدعوهم لوضع المشروعات للمستقبل كما يحرضهم على نشر العلوم والفنون بدون تفريق ويحثهم على الكتابة في الموضوعات المهمة بأسلوب علمي حديث فالحاجة ماسة إلى أن نقوم بدراسة مباحث هذا الكتاب النقدية فيقدم الكتاب إلى القراء بترتيب علمي حديث، وفوق تلك أنّ هذه الدرة اليتيمة والفاقة النظير تدعو مسلمي العصر الحديث للتفكير في عظمة وجلالة مآثر أسلافهم لترويج التعليم وتطوير العلوم والفنون ثم النظر في درجتهم وحالتهم في هذا الشأن.

الجانب الآخر لهذه الرسالة أسلوبها التحقيقي فالواقع أنّ ما بذله العلامة شبلي

¹ مولانا شبلي نعمانی پر ایک نظر، ص 15-16

من قصارى جهوده في جمع المعلومات وتقديمها من مختلف المصادر ثم ترتيبها ترتيباً حسناً يجدر بنا أن نقدم بالثناء عليه ولقد استفيد من مختلف المصادر في إعداد هذه الرسالة، كما أشار إليه السير سيد أحمد، بما فيها تراجم الخلفاء والأمراء والعلماء والكتب المنظومة ومؤلفات الغرب عن علوم اليونان وفنونهم.¹

وبالخصوص في صلب الكتاب ومندرجاته يمكن إضافة "ولا يخلو من الأهمية لو ذكرنا هنا أنّ ما قام به السير سيد أحمد من سعة نطاق مصادرها ليس بخطأ كما يبدو من نظرة سارحة على مصادرها لأنه ضمّها سير الخلفاء والأمراء، وتراجم العلماء وكتبهم، وكلام الشعراء، وكتب المؤلفين الأوروبيين بل قد أخذ على بيانهم في غير موضع كما يبدو من دراسة هذه الرسالة، وبدا لي واضحاً من النظرة العاجلة على هذه الرسالة أنّ واحداً وأربعين كتاباً استفاد منها العلامة شبلي في إعدادها بما فيها 34 كتاباً بالعربية، و3 كتب بالفارسية، و4 كتب بالإنجليزية، وقد أشير إلى 33 كتاباً منها في الهامش بينما البقية جاء ذكرها في المتن وكذا وفّرت معلومات تفصيلية لمعظم هذه المصادر، ولنعلم أن العلامة شبلي قد أحال إلينا في الهامش بصورة منتظمة فيثبت من هذا أنّ العلامة قد استخدم طريقة المصادر والمراجع التي تعتبر منة القرن التاسع عشر والقرن العشرين للميلاد. وهذه كلها شاهد عدل على سعة اطلاع العلامة شبلي، وذوقه التحقيقي، ورؤيته النقدية ولا شك أننا لا نصرف الذكر عن تأثير بيئة علي غراه العلمية الحديثة فيه".²

نظراً لأهمية الكتاب شكلاً ومضموناً ومحتوياته والمواضيع التي اتخذت والقضايا التي عولجت كان من اللازم أن ينقل إلى لغات مختلفة كي يستفيد منه القراء من مشارق العالم ومغاربه، حيث إن الكتاب يقدم ما يلزم للإنسان في حياته أن

¹ على كدّه انسئى ثيوث كزث: 55/23، 10/يوليو، 1888م، ص 773

² أ.د. ظفر الإسلام الإصلاحي: "مسلمانوں كى كدشته تعليم، أول كتاب للعلامة شبلي خلال إقامته بعلي كره" في "الحركة العلمية وكيف طوّرها الإسلام"، ص 14

يقضي طيلتها في خضمّ محتوياته من العلم والتاريخ والفلسفة والعلوم والفنون وترويج هذه الجوانب بشتى أنواعها.

وإن الكتاب عُني فيه بتوفير المنهج الدراسي لعدد من المدارس الدينية والكليات والجامعات الحكومية وتم تعضيدها بالبراهين الموثوق بها وأحياناً أصلحت المناهج الدراسية بكاملها في الخوض بالأفكار المقبولة الرائعة وهكذا تصير إلى منهج يكون فريداً من نوعه وحقق قبولاً حسناً من أصحاب العلم والفكر وهيئات قرار الفيصل في الأمور. وجعلته العديد من المعاهد والمدارس من مقرراتها التعليمية في الهند والبعض من الكليات والجامعات في البلاد العربية. وهذا ما وجّهه العلامة الشبلي النعماني من خدماته العلمية والفكرية إلى المجتمع الإسلامي بأسره عن طريق المناهج الدراسية.

نبذة عن الكاتب: محمد شبلي النعماني، المعروف بالعلامة شبلي النعماني، ولد بتاريخ 3 يونيو 1857م وتوفي في 18 نوفمبر 1914م، بأعظم غراه بولاية أوترا براديش، كان عالماً إسلامياً ومفكراً كبيراً من شبه القارة الهندية خلال فترة حكمها الاستعماري البريطاني.¹ وهو معروف بتأسيس كلية شبلي الوطنية عام 1883م ودار المصنفين (لتأليف الكتب ونشرها) في أعظم غراه. كان شبلي باحثاً متعدد المواهب باللغات العربية والفارسية والتركية والأردية وكان شاعراً أيضاً. جمع الكثير من المواد عن حياة الرسول محمد ﷺ، لكنه لم يكتب سوى أول مجلدين من العمل المخطط له عن السيرة النبوية. استفاد تلميذه، سيد سليمان الندوي، من هذه المواد وأضاف إليها، وكتب أيضاً خمسة مجلدات متبقية من العمل لهذا الكتاب الجليل بعد وفاته.

وأعطاه أبواه الشيخ حبيب الله والسيدة مقيمة خاتون، على الرغم من أن إخوانه

¹ محمد أكرم الندوي: شبلي النعماني، علامة الهند الأديب والمؤرخ والناقد الأريب، دار القلم، دمشق، 2001م، ص 20-21.

الصغار ذهبوا إلى إنجلترا للتعليم وعادوا لاحقًا كمحامين وعملوا في محكمة الله أباد العليا، أعطياه تعليمًا إسلاميًا تقليديًا.

"هذا الجانب من خلفية شبلي ربما يفسر علاقته المتناقضة مع مدينة علي غراه والسير سيد أحمد خان. ذهب شبلي إلى مكة للحج وخصص وقته لمواصلة دراسته في اللاهوت والتاريخ والفلسفة والصوفية من علماء مختلفين في شبه الجزيرة العربية. بسبب هذا التأثير المعاكس في السنوات البدائية من حياته، كان لدى شبلي أسباب لجذبه وصده من قبل علي غراه".¹

استلهم شبلي بشكل كبير من تقدم العلم والتعليم في الغرب. أراد أن يلهم المسلمين لتحقيق تقدم مماثل من خلال اللجوء إلى تراثهم وثقافتهم الضائعة وحذرهم من الضياع في الثقافة الغربية. و"في نهاية المطاف، تولى ندوة العلماء بلكناء عن مفاهيمه حول توحيد المعرفة الغربية والشرقية وركز على البحث الإسلامي، وعلى نشر السيرة الذاتية والتاريخية باللغة الأردية. وقد حددت كتابات شبلي نمط هذا الأخير".²

وتماشياً مع هذا الهدف، ألف الكتب التالية:

- (1) سيرة النبي (حياة الرسول ﷺ) الذي العلامة النعماني اثنين من مجلداته ثم توفي فأكملها تلميذه السيد سليمان الندوي، (2) سيرة النعماني، (3) الفاروق (سيرة الخليفة عمر الفاروق)، (4) المأمون، (5) الغزالي (سيرة الإمام الغزالي)، (6) الإمام ابن تيمية، (7) مولانا الرومي (سيرة مولانا الرومي)، (8) اورنگزيب عالمگير پر ايک نظر- كتاب عن حياة الإمبراطور المغولي أورنگزيب (1658-1707)، (9)

¹ أ. د. أبو سفيان الإصلاحي: العلامة شبلي النعماني ومساهمته في تطوير الدراسات العربية"، مجلة الهند، العدد الخاص بمناسبة مرور مائة عام على وفاة شبلي النعماني، ص 315.

² د. رياض الرحمن الشيرواني، مقالة أردية له ترجمها إلى العربية الدكتور أورنگ زيب الأعظمي ونشرتها مجلة "نداء الهند" الإلكترونية في شهر مايو 2017م.

شعر العجم (تاريخ الشعر الفارسي)، (10) علم الكلام (تاريخ اللاهوت الإسلامي)، (11) سفر نامه، روم، مصر وشام (رحلة إلى روم ومصر وسوريا وتركيا مع رفيقه الباحث توماس واكر أرنولد في عام 1892م)، (12) الانتقاد على تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان.

"لقد ظلم الكتاب العلامة شبلي إذ أشار مولانا أسلم الجيراجبوري، مثلاً، إلى أخطائه في "شعر العجم"، ولكن لم يذكر أن شبلي كان أول من كتب سيرة مولانا الرومي. وكذا لم يشاروا إلى معارضة السير سيد لكتابة "الفاروق"، وأن شبلي لم يشتك من ذلك، ولكنهم تحدّثوا عن الخلافات بين السير سيد وشبلي، رثى السير سيد أنّ شعر شبلي الفارسي لم يتم اختباره على الإطلاق من حيث جدارته وكان مرتبطاً بشكل خاطئ بمعارفه مع سيدة مستنيرة في ذلك الوقت سيدتي عطية فيضي. دحض ذلك، الشيخ محمد إكرام وكشف عن حساسية فكر الشبلي المصوب في شعره الفارسي".¹

دراسة هذه الترجمة: "الحركة العلمية وكيف طوّرها الإسلام" ترجمة من اللغة الأردية إلى العربية قام بها المترجم اللبيب الشاب الدكتور أرنك زيب الأعظمي فنحن أنّ نتناولها بالدراسة في هذه الأوراق المتواضعة. ومما لا شك فيه أن الترجمة العربية تم إجراؤها في لغة عربية فصيحة من حيث طلائعها وسلاسة كلماتها وسردية جملها حتى لا يتفرق أساس لفظ أردي مع كلمة عربية في الترجمة، وعلاقة فقرة مع فقرة أخرى في العربية تبقى كما هي توجد في أصل الكتاب. سلك الكتاب المترجم مسلك كتاب الأصل في عنوانه وترتيب أبوابه وموضوعه وشبه موضوعه. أما موضوع الغلاف للكتاب فهو لافت جذاب ورائع في صورته، وحجمه ولو هو ليس بضخم ولا كبير إنما هو يبدو متوسطاً رصيناً جميلاً.

¹ Shamsur Rahman Farooqi, Shibli Nomani Annual Extension Lecture, Darul Musannefin Shibli AcademyAcademy, Azamgarh2011.

الكتاب من حيث خصائصه ومحتواه كان يجب أن يتم تعريفه على القراء العرب كي يتعرف العالم العربي من طالب باحث إلى كاتب محقق على شخصية العلامة شبلي النعماني ومساهمته في العلوم الإسلامية والتاريخ والعلوم الأخرى المتداولة، والبحوث تم تناولها في هذا الكتاب وذلك بترتيب جميل ورشيق والأوضاع والتطورات العلمية التي عولجت فيه هي فريدة من نوعها، ومن المؤكد أن الترجمة ستلعب دوراً مهماً في تعريف الكتاب ومندرجاته ومحتواه لدى القراء العرب وتسهّل فهم الثقافة الإسلامية في الهند، والمترجم قد قام بتعريب العديد من الكتب والرسائل الأردنية للعلامة الشبلي النعماني بالإضافة إلى ذلك أنه نشر عددًا خاصًا لـ "مجلة الهند" بحياة وإسهامات العلامة شبلي النعماني وهذا الكتاب هو أحد من ترجماته المهمة من الأردنية إلى العربية التي قام بها حاليًا.

نبذة عن المترجم: تعلّم الدكتور أورنك زيب الأعظمي العلوم العربية والدينية في مدرسة الإصلاح بأعظم غراه، وأتم مرحلة البكالوريوس والدبلوم، والدبلوم المتقدم في اللغة العربية والترجمة من قسم اللغة العربية وآدابها، بالجامعة الملكية الإسلامية، في نيو دلهي، ونال شهادة الماجستير والدكتوراه من جامعة جواهر لال نهرو، نيو دلهي.¹

بدأ الدكتور أورنك زيب يعلّم الدراسات العربية والإسلامية كأستاذ مساعد في جامعة شانتينيكيتان في بنغال الغربية، والتي أيضًا تعرف بجامعة طاغور، وعيّن أستاذًا مساعدًا للغة العربية وآدابها في الجامعة الملكية الإسلامية عام 2014م.²

قام الدكتور أورنك زيب بتأليف وترجمة وتدوين ومراجعة أكثر من 50 كتابًا، صدر منها 34 كتابًا من بيروت والرياض ودمشق وإنجلترا وباكستان والهند، وله

¹ من سيرته الذاتية المنشورة في الموقع الإلكتروني للجامعة الملكية الإسلامية بنيو دلهي
² فاطمة الزهراء: الدكتور أورنغزيب الأعظمي: حياته وخدماته"، شبكة الألوكة، المملكة العربية السعودية، 2015، ص 16

أكثر من 200 مقالة تم نشرها في المجلات والصحف في الهند وخارجها.¹

الخاتمة: لقد قمت بإعداد المقالة لأقدمها في الندوة الوطنية التي أقامها قسم اللغة العربية وآدابها بالجامعة المليية الإسلامية، نيودلهي بتاريخ 2 و3 مارس/آذار 2020م ولم أنو في مرحلتها البدائية أن أنشرها في أية مجلة أو جريدة، لذلك ما أليت جهدًا كبيرًا عند إعدادها. ولكن قال لي رئيس تحرير "مجلة الهند" إنه يقصد نشرها في العدد القادم للمجلة الذي سيصدر قريبًا. فاستعجلت في قراءة الكتاب بأكمله وطالعتة سطرًا سطرًا وتصفحته صفحة صفحة، فتوفرت لي معلومات بديعة وكثير من الأشياء الجديدة التي لم أكن أعرفها من قبل بالنسبة لبناء المدارس والمعاهد في الهند والعلوم الإسلامية التي تطورت عبر التاريخ الإسلامي. فإن هذه المقالة ستفسح مجالًا واسعًا للنقاش فيما يخص بمؤلفات العلامة شبلي النعماني بالعموم، وهذا التأليف على وجه الخصوص. والكتاب يعطي القارئ علمًا بديعًا ومعلومات رائعة حول المدارس والمعاهد وكيفية بنائهما والمناهج الدراسية التي تبناها الكليات والجامعات لذلك العصر.

¹ نفس المصدر

قراءة في غلاف رواية "أعشقني" للدكتورة سناء شعلان

- عبد الإله بنهدار¹

إذا كان الشعر هو ديوان العرب قديماً فإنّ الرواية اليوم تبوّأت مكانته وأصبحت هي ديوان العرب في الوقت الراهن، شاهدة على حياتهم وتجاربهم الفكرية والاجتماعية الحديثة والتحديثية أيضاً، وإذا كانت الرواية في القرنين 18 و 19 وفي الغرب تحديداً قد استطاعت أن تعثر لها على أبوتها ومشروعيتها في مدارس فلسفية معينة أمدتها وأطرتها بنظريات أضاءت لها الطريق ومدتها بتأويلات مختلفة، نجد الرواية العربية على عكس ذلك نشأت في شرط تاريخي مختلف، بعيدة عن العلوم الحديثة وتكاملها، مما جعلها تنمو وتترعرع خارج النظرية، وتعبّر عن مسارها الذاتي/ الخاص وعن أسئلتها الخاصة والمحركة وعن تطورها المتلاحق بعيداً عن فلسفات جمالية تؤطرها.²

من جهة أخرى إذا اعتبرنا قصيدة نازك الملائكة "غسلا للعار" قد حققت في المجال الشعري ثورة على هذا الفكر العروبي الذكوري فإنه يحق لنا القول أن نعتبر رواية "أعشقني" ثورة ناعمة على هذا الفكر الذكوري العروبي أيضاً، هذا الفكر المتغطرس الذي يسمح لنفسه بأن يجهر ويبوح بما يشعر به اتجاه الجنس الآخر، هذا الجنس أو النوع (الجنندر) النسائي أو النسوي يحرم عليه ما يحلّ لنقيضه.

حين نغوص في متن هذه الرواية نلاحظ بأن كاتبها ومبدعها تغوص في أعماق المرأة الشرقية (العاشقة) لتعبّر بشكل رومانسي فاضح عن كل ما يجيش في صدرها اتجاه الرجل (المعشوق) في زمن أضحى فيه العشق ألياً وليس إنسانياً،

¹ أستاذ وطالب باحث في الدكتوراه (بلاغة الصورة في التربية والفن)، كلية علوم التربية، جامعة محمد الخامس، الرباط

² أنظر: د. فيصل دراج: نظرية الرواية والرواية العربية، المركز الثقافي العربي، ط 1، 1999م، ص 6

لتبقى تيمة العشق هي المهيمنة على رواية "أعشقي" في كل فصولها الخمسة أو أبعادها الخمسة.

1. عنوان رئيس "أعشقي":

يتكون العنوان من فعل (أعشَقُ) الذي يدلّ على المضارعة وهي تحليل بدورها على الزمن الحاضر والمستقبل وفاعل هذا الفعل ضمير المتكلم "أنا العاشق" الذي هو الكاتبة أو الذات المبدعة، وهذا لا يعني أننا أمام سيرة ذاتية، فبالرغم من ورود صورة الكاتبة والتي سنفرد لها قراءة خاصة في هذا التحليل ترد أيضًا إياء المتكلم كاسم يعود على صاحبه أي على فاعل فعل (أعشَقُ) وتفصل بينهما نونٌ تُسمى في النحو العربي بنون الوقاية، وهذه النون بمثابة جسر بين الفعل المضارع الدال على المتكلم وإياء المتكلم التي هي ضمير/ مفعول به. والعشق في اللغة هو الإغرام بالنساء، وهو العَشَقُ أيضًا.¹

فالعاشقُ والمعشوقُ واحد، وفعل العشق هو مرتبة من مراتب الحبّ الذي نجد له في اللغة العربية ما يزيد عن ستين اسمًا، ويُعتبر العشق في قواميس اللغة العربية سيد كل أسماء الحبّ ومعناه: الفرط والإفراط في الحب، وإعجاب المحب بالمحبيب سواء في حالة العفة أم في حالة الفجور. كما أنّ العشق يتولد وينمو في القلب، وكلما قوي ازداد صاحبه تماديا فيه.

في ثقافتنا العربية وفي الشعر العربي بصفة أخص والذي هو ديوان العرب، نجد أنّ فعل العشق والتصريح به علانية يكون من الرجل اتجاه المرأة، ونادرًا ما قرأنا لعاشقات عربيات تتغزلن في الرجال، إلا أنّ رواية "أعشقي"² قلبت الموازين

¹ أبو الحسين احمد بن فارس بن زكريا اللغوي: مجمل اللغة (دراسة وتحقيق: زهير عبدالمحسن سلطان)، مؤسسة الرسالة، ط 1، 1984م، 668/3

² وجب التذكير بأن الرواية اليوم كما سبقت الإشارة لذلك حملت المشعل من الشعر وأصبحت هي ديوان العرب.

ومنحتنا ثورة فكرية وإبداعية تسير في الاتجاه المعاكس ضدًا على ثقافتنا التي علّمتنا وتعلمنا في مدارسها أنّ البوح بالعشق والافتخار به لا يكون إلا من الرجل الذي يبقى فعل الحب والعشق والهوى محصورًا فيه وعليه. لأنّ ذلك مرتبط بالشرف، شرف القبيلة طبعًا.



2. صورة الغلاف كدليل أيقوني/Signe iconique:

عملنا في السطور السابقة على إلقاء الضوء على بنية العنوان تركيبًا، ونجد أنه من اللازم التنبيه على أنّ هذه البنية تلتقي وتتكامل مع صورة الغلاف التي تشكل نصًا مختصرًا إن لم نقل شاملاً لعموم الرواية، ذلك أنّ صورة الغلاف مركبة من لقطة أو مشهد واحد تم اختياره وتوليّفه بلمسة فنية وبعين احترافية عملت بكلّ بارة تقنية ومهنية على الصورة وهي في غرفة المونتاج كي يتم إخراجها بطريقة مهنية واحترافية أيضًا.¹

¹ يؤمن رولان بارت من جهته بأن الصورة هي الأخرى خطاب، وهذا الخطاب يمكن تفكيكه وتفسيره، تقريبًا بالأدوات المشابهة التي يُقرأ ويُفسّر بها النص الأدبي.

إن الصورة المبتوثة على الغلاف تحتل الحيز الأكبر على مساحة الغلاف برمته وهي صورة الكاتبة نفسها (د. سناء الشعلان) والتي تقول: "دائمًا أضع صورتي، ليس لأنها جميلة وليس لأنها قبيحة، وليس لهدف استعراضي بأي شكل، أريد منها أن يعرفني القارئ".¹

صراحةً، لا سؤال الصحفي أشفى غليلنا كقراء لهذه الرواية ولا جواب كاتبها كذلك، لكننا نُسَطِّرُ على قول الكاتبة وليس لهدف استعراضي، هذا الجواب وحده كافٍ على أن الصورة تعتبر عتبة من عتبات الولوج إلى المتن المحكي بين دفتي رواية "أعشقني".

ومعلوم أن الصورة في عالمنا العربي لا زالت في حاجة إلى الدرس والتحليل سواء في المدارس والمعاهد أم في الجامعات العربية، فلا يزال الذوق العربي العام قاصرًا. إن لم يكن متخلّفًا- في تعامله مع الصورة كنص وكخطاب فني وثقافي وفكري، لتأمل الصور التي درسناها ونُدرّسها لتلاميذنا وتلميذاتنا في المدارس وفي المقررات الدراسية من الروض مرورًا بالابتدائي إلى الإعدادي إلى الثانوي التأهيلي، نجدها صورًا وُضعت في الغالب لتزيين النص الملفوظ المرافق لما هو محكي ومكتوب، في حين أن الصورة يجب أن يُنظر إليها كنص قائم الذات وهي في حاجة إلى تحليل وتفكيك، وهذا ما نصبو إليه في هذه الدراسة من خلال غلاف رواية "أعشقني".

1. على يسار الغلاف وضمن مربع صغير كتب نوع هذا العمل الأدبي "رواية/ Novel" مما يجعل رواية "أعشقني" تعلن من البداية عن انتمائها لجنس أدبي عنوانه: الرواية. وكما سبقت الإشارة نما هذا النوع الأدبي مع صعود الطبقة البورجوازية واعتلائها المسرح الاقتصادي والسياسي بدءًا من القرن السادس عشر، فما الرواية؟ تعرفها جوليا كريستيفا التعريف التالي وهي تقول: "يطلق اسم الرواية في الغالب على بنيات حكائية شديدة التنوع، هناك روايات إغريقية وروايات عاطفية

¹ قناة الشرقية 2020، برنامج: أطراف الحديث، <https://youtu.be/sexxQ-z9iAQ>

وروايات شطارية وروايات نفسية، كي لا نذكر إلا بعض المغايرات التي يشملها المصطلح. وكل محكي ينبثق من إطار الملحمة أو الحكاية الشعبية يمكن تسميته رواية شريطة أن يكون كافي الطول من دون أن يُعطى لخصوصياته تعريفٌ دقيق¹. وعند الهنغاري جورج لوكاتش في كتابه: نظرية الرواية الصادر عام (1920) وتلميذه لوسيان غولدمان في كتابه "دفاعاً عن علم اجتماع الرواية (1964م) أن الرواية قصة بحث متدهور بوسائل منحطة في مجتمع متدهور عن قيم أصيلة في منظور البطل الإشكالي².

2. وفي أسفل الغلاف نلاحظ اسم الناشر (أمواج للطباعة والنشر والتوزيع) ومقرها عمان. الأردن لتحديد الواجبات والحقوق بين الكاتبة والناشر محلياً وقطرياً ودولياً.

3. اسم الكاتبة: يرد اسم الدكتورة سناء الشعلان تحت عنوان الرواية بخط أصغر حجماً من الخط الذي كتب به العنوان الرئيس، مما يدل على أن للعنوان أهمية كبرى على حساب اسم كاتبة العمل الروائي.

إن من يتابع إبداع النساء العربيات في يومنا هذا، لا يشك لحظة بأن الكاتبة المبدعة سناء الشعلان التي تكاد تكون مؤسسة إعلامية قائمة الذات، فنشاطها كتابة وإبداعاً يوازي نشاطها وألقها الدائم على وسائل التواصل الاجتماعية من جهة، وعلى القنوات التلفزيونية والإذاعية في بلدها وفي بلدان الخليج على السواء من جهة ثانية. والاعتراف بها ككاتبة ومبدعة وناقدة عربية ارتقى إلى حدود منحها ما يزيد على الستين جائزة تزين بها مكتبها العامرة تقديراً لها ولمواقفها ورؤيتها للعالم العربي في راهنه إبداعاً ونقداً.

4. صورة الغلاف كدليل أيقوني Signe iconique: مادامت الصورة كعتبة من عتبات هذا العمل الأدبي، وجب علينا كقراء وكذلك كدارسين نسيان صاحبة الرواية، وألا

¹ Julia kristiva, le texte du roman, Mouton publishers, paris, new york, 1970, p 15 -18

² أنظر : د عبد الجليل بن محمد الأزدي: المسدس والكتاب " قراءة في رواية اللص والكلاب"، دجنبر، ط1، 2007م، ص 45

ننظر إلى صورتها على أنها مجرد صورة فوتوغرافية وُضعت لغرض جمالي يزين غلاف الرواية، إذ وجب على القارئ التنبيه أن لا يكتفي بفعل النظر إلى الصورة، بل يعتمد ويعتمد على الإبصار فيها، وعملية الإبصار كما هو معلوم تختلف عن عملية النظر.

إنّ الصورة الفوتوغرافية كما لا يخفى تنقل عددًا من المعطيات الثقافية والاجتماعية والفكرية بل وحتى الدينية، دون أن نغفل أو ننسى ما تمارسه الصورة من تأثير على المشاهد/ المتلقي وما يسقطه هذا الأخير من تفسير على الصورة في حد ذاتها.¹

تتميز الصورة بتصورات خاصة تميزها عن اللغة وعن سائر الرموز التي تتيح التعبير وهنا نتكلم بالضرورة عن المجال الجمالي. وملتقط هذه الصورة كوسيط وهو بدون شك مصور محترف ينقل إلينا معلومات ومشاعر يريد العمل الروائي المملووظ أن يجعلها في خضمه وإذا كان جاك أومون يقول بأن الصورة صُنُو العالم ولكنها صُنُو مشوّهة إذ على الرغم من واقعيتها تجذبنا وتسحرنا في ازدواجية ما تنقله كما تأسرنا في شيء نراه بأَم العين.²

لذا يحق لنا القول: إن الصورة لغة بصرية يتمُّ عبرها توليد العديد من الدلالات ومن داخلها، وهذه اللغة بالغة التركيب والتنوع، إذ سنستند من أجل بنائها إلى مكونين:

الأول: يعتمد على العلامة الأيقونية، لأنّ الصورة وهي علامة أيقونية كي تُنتجَ معانيها تستند إلى المعطيات التي يوفرها التمثيل الأيقوني كإنتاج بصري لموجودات طبيعية تامة كالوجه ذي المواصفات الخاصة مثلًا على غلاف رواية "أعشقي"، وتستند من جهة ثانية إلى معطيات من طبيعة أخرى تتعلق بما يمكن تسميته بالتمثيل التشكيلي للحالات الإنسانية أي: العلامة التشكيلية ونقصدها الأشكال والخطوط والألوان والتركيب، لأنّ المضمون أو المضامين

¹ جاك أومون، الصورة (ترجمة: ريتا الخوري)، مركز دراسة الوحدة العربية، بيروت، ط1، أبريل 2013م، ص7

² المرجع السابق، ص12

الدلالية للصورة هي نتاج تركيب يجمع من حيث الانتماء ما بين البعد الأيقوني (التمثيل البصري) وبين البعد التشكيلي مجسداً في كل ما تحويه الصورة وما هو مُودَعٌ فيها من أشكالٍ هي من صُنْعٍ وإبداع الإنسان (الثياب، الماكياج، الألوان، الخطوط إلخ....) وتعدّ الصورة من هذه الناحية ملفوظاً بصرياً مركباً ينتج دلالات استناداً إلى التفاعل القائم بين مستويين أو علامتين مختلفتين هما العلامة الأيقونية والعلامة التشكيلية.¹

فكيف نقرأ هاتين العلامتين في صورة صاحبة الغلاف، والتي هي كاتبة الرواية في الآن نفسه؟

أ. العلامة الأيقونية: يمكننا القول إن هذه الصورة الفوتوغرافية المبتوثة على الغلاف لا تكشف عن طبيعتها للناظر إليها أو لقارئها ولا عن هوية صاحبها بالسهولة المتوقعة. فهناك فاصل قوي وجوهري بين الظاهر والباطن في هذه الصورة وهو ما يدفعنا للتساؤل: ما الرابط بين المعطى والمرئي والمُوحى به في هذه الصور؟ ومن أين تستمد هذه اللقطة قدرتها على استكناه موضوعها وهي تسعى من كل ذلك إلى خلق مجموعة من الحالات الثقافية الخاصة بفئة اجتماعية-ثقافية تنتمي إلى نسق ثقافي معين؟

إنّ القراءة المتأنية لعناصر الصورة هي وحدها الكفيلة لإيجاد الوحدات الدلالية التي بإمكانها أن تقودنا إلى بناء عالم دلالي منسجم بين معطيات ومفردات هذه الصورة الفوتوغرافية.²

المفردة الأولى: (الجبين): بدون شك، يشكل جبين المرأة إحدى مفردات جمالها، سُمكُهُ وطولُهُ عرضه ولونه.. كلُّ ذلك يعد مفردة من مفردات جمال جبين المرأة إلا أنه في هذه الصورة نراه مُغطى بقماش أو لنقل: بخمارٍ يَحْجُبُ عن الرائي رؤية

¹ أنظر : سعيد بن كراد: السيميائيات مفاهيمها وتصنيفاتها، منشورات الزمن، ط1، 2003م، ص 88-89

² ارتأينا أن نجعل كل جزء من الصورة بمثابة المفردة اللغوية والتي لا تكشف عن معناها تاماً وكاملاً إلا في إطار الكل الذي هو الجملة

جمال هذا الجبين الأنثوي. وبدون شك يعتبر الخمار- بعيداً عن دلالاته الدينية- مانعاً وحاجباً لدى المرأة أغلى وأجمل ما تغطى به الشعراء على مر العصور ألا وهو "شعرُ رأسها" كما سنرى في المفردة الأخيرة من تحليل هذه الصورة.¹

المفردة الثانية: (الحاجبان): الحاجبان في اللغة هما العظامان فوق العينين بالشحم واللحم.²

وفي هذه الصورة يميل الحاجبان إلى الاستقامة، والدراسة النفسية لحاجبي المرأة من هذا النوع تقول: إنَّهما تتصفان بأمرين: الصلابة والواقعية، كما أنَّهما موضع ثقة الأشخاص المحيطين بهما، ويدلان أيضاً على أنها امرأة عقلانية لا انفعالية دون أن ننسى تغطّي الشعراء ووصف الأدباء لحاجبي المرأة بـ(الهلال) كما شبهاهما بـ(حرف النون) إلى غيرها من التشبيهات التي تزخر بها دواوين الشعر العربي.

الحاجبان هما إحدى مفردات الجمال عند المرأة ولذلك جاء النهي عن نَمص شعر الحاجبين، وفعل النَمص جائز للمرأة في جميع جسدها إلا على حاجبيها ويستند الفقهاء بالآية القرآنية (ولأمرنهم فليغيرون خلق الله) السؤال هنا: أليس نتف ونمص الشعر من جميع الجسد تغيير لخلق الله؟ إذن المسألة تتجاوز تغيير الخلق الذي جهر به الفقهاء أو الفقه أم الذي سكتوا عنه، فهو فهم حسب رؤيتهم وأذواقهم وتذوقهم لجمال حاجبي المرأة فحرموا ما أرادوا وأجازوا ما أرادوا. الشاهد عندنا في كل ما قيل هو أنَّ حاجبي المرأة يعتبران أحد مفردات الجمال في وجهها وهذا الجمال واضح في الصورة من خلل العناية بجمال وتجميل الحاجبين.

المفردة الثالثة: (العينان): طالما تغطى الشعراء بعيون النساء واعتبروا أنَّ سرَّ جمالهن يكمن في أعينهن، سواء تعلق الأمر بالشعر القديم الذي شبه عيني المرأة بعيون المها والظباء والقطا والبقر الوحشي أم في الشعر الحديث الذي نستشهد

¹ يعتبر شعر المرأة في الجاهلية عنوان جمال المرأة بسواده وطوله، أما قصه فكان معيباً ولا يكون إلا في حالة الحزن على فقدان قريب أو حبيب.

² مجمل اللغة، المرجع السابق، 267/1

في هذا المضمار بقصيدة شهيرة للشاعر العراقي بدر شاكر السياب "أنشودة المطر" والتي تعتبر من عيون الشعر العربي ومن أجمل القصائد التي تغنت بعين المرأة في العصر الحديث.

عيناك غابتا نَخيل ساعة السحر
أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر
عيناك حين تبسمانِ تورقُ الكروم
وترقصُ كالأضواء في نهر
يرجُّه المجدافُ وهنَّ ساعة السَّحر

فالعين عند بدر شاكر السياب عين تحرسها غابة من النخيل في وقت السحر وما هذه الغابة من النخيل إلا الرموش التي تحرس العين التي هي نهر يرجّه مجداف ليلاً. تصبح العين في شكلها الهندسي مثل القارب والإثم والكحل كَالسَّحَر. والبؤبؤان المتراقصان كالأضواء. فقط انظر أيها القارئ إلى العينين في الصورة واستحضر هذا المقطع من أنشودة المطر وسترى الإحساس الذي سينتابك حينئذ.

لكن دلالة العين في هذه الصورة بالذات لا تكتمل إلا بتفسير وتحليل تلك النظرة المهمة التي تحمل أكثر من دلالة وأكثر من معنى؟ فبالتأطير المقطعي تصبح العين الرائية وهي عين المشاهد/ المتلقي غير متوقفة عند جمال العينين فحسب، بل هي تمسحُ فضاء الصورة كلّها باحثة عن هدفها بعيداً عن كلّ نظرة أسرة ومُجحفة، فنظرة هاتين العينين تظل بعيدة عن النظرة العادية المبصرة، بل ترمز إلى ما هو إنساني ثقافي. يقول فرانسكو كازيت عن النظرة: "هي التي تؤسس وتنظم ما هو موضوع للرؤية، إنّ الأمر متعلق بمنظور يحدّد الحقل البصري ويبسطه أمامنا، إنه الموقع الذي ننطلق منه لتحديد ما يقع تحت طائلة الأعين".¹

¹ d'un regard a l'autre. Fransesco casette. p43

. أنظر أيضاً: السيميائيات مفاهيمها وتصنيفاتها، المرجع السابق، ص 102

إنَّ فهمَ النظرة في هذه الصورة وقراءتها مرتبط بقدره المتلقي على القيام بعملية تنسيق بين مجمل العناصر المشكلة لنص الصورة، وهو تنسيق يعتمد على ما تعطيه له الصورة.¹ ويستند هذا التنسيق إلى معاني هذه العناصر التي توجد خارج الصورة وضمن سياقات الفعل الإنساني وأيضاً داخل النسق الثقافي لهذا العقل الإنساني والنظرة فعل من أفعال الإنسان. وكأننا في هذه الصورة أمام نظرة ترسلُ خطاباً لشخص خارج إطارها، تنظر إليه هي ولا نراه نحن، تخاطبه النظرة بقولها:

- أنت ترى جمالي ولا تراني، أما أنا فأرى جمالي وأراني. أو قد تقول له أيضاً:

- أنت أيتها الرجل تعشقي، وأنا أيضاً أعشقي، لكن عشقك لي أيها الرجل ناقصٌ وعشقي لذاتي تامٌّ وكاملٌ.

تفرض علينا هذه النظرة المهمة ألا نكون متسرعين في أحكامنا، فنحن أمام نظرة إنسانية صوفية عميقة الدلالات. ألم يقل الحسين بن منصور الحلاج:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا

نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتني أبصرته

وإذا أبصرته كان أنا

روحه روعي وروحي روحه

من رأى روحين حلّا بدنا

وبالتالي فالنظرة في هذه الصورة الفوتوغرافية ليست نظرةً نظراً وإغراءً بقدر ما هي نظرةٌ اعتبارٌ وإبصارٌ وتبصُّرٌ.

¹ لن تعطي الصورة معناها للمتلقي ولن تكشف له عن دلالتها أو دلالاتها بسهولة إن لم يحول نظره إلى إبصار.

المفردة الثالثة (الأنف): تَغَيَّ الشعراء كثيرًا بأنف المرأة وجعلوا منه سمة من سمات حسن جمالها، فهذا تميم بن أبي مُقبل يقول متغزلًا بأنف حبيبته:

كأنَّها مارن العزَّين منفصلٌ من الضباء عليه الودع منتظمٌ
مقلدٌ قضبَ الريحانِ ذو جُددٍ في جوزه من نجارِ الأدمِ تُوْسيمٌ
إنَّ الضمير في كأنَّها يعود على المحبوبة المتغزل بها و(العزَّين المارن) هو الأنف اللَّين للغزال المفطوم عن أمه وقد زانه أو رتبه (الودع) أي الخرز بمعنى آخر (المنقوط) وقول الشاعر عن الأنف "مقلد" أي عليه قلاند و(جُدد) أي طرائف خطوط في جوزه أي في وسطه والضمير يعود على الأنف وقوله من (نجار الأدم) أي بياض يكون في الطباء فإذا كانت في الناس فهي السمرة الشديدة والتوسيم من الوسم وهي العلامة.

ما علاقة الصورة الحسية الملفوطة في التعبير السالف الذكر المتعلقة بأنف محبوبة الشاعر بتلك الملحوظة على أنف صاحبة الصورة الفوتوغرافية في الغلاف؟

إنَّ العلاقة التي تجمع بين الصورتين: الذهنية الحسية والفوتوغرافية الواقعية، وبين أنف المرأتين هو الجمال. جمال الأنف الذي له ملحقات تزيدُه جمالاً فوق جماله، ومن بين ملحقات هذا الجمال في أنف المرأة "الوسم" و"العلامة" و"القلادة" و"الجدد" التي اعتادت المرأة العربية أن تضعها على أنفها منذ القدم. وهذا التوسيم أو الوسم أو العلامة نجده ظاهراً على أنف صاحبة الصورة.

وهي عبارة عن نجمة خماسية في أنف صاحبة الصورة، فعلاوةً على أنه وسم وسمّة من سمات الجمال إلا أنَّ هذا الوسم/ النجمة الخماسية الصغيرة وكأننا بها تدل على الأبعاد الخمسة أو الفصول الخمسة لهذا العمل الروائي الذي اختارت له الكاتبة عدة عناوين قبل استقرارها على العنوان الأخير "أعشقي" فمن خلال تصريحها في إحدى أحاديثها الصحفية صرحت الكاتبة قائلة: إنَّ العنوان الأول الذي كان في ذهنها هو "البعد الرابع" لذلك جاءت عناوين الفصول متصدرة دائماً

بكلمة "البعد" وكان البعد الخامس بالفعل هو آخر فصول هذه الرواية.

المفردة الرابعة (الخدَّان): لا نعدم تشبيهات لخدِّي المرأة في الشعر العربي على الأقل شبهوهما بالرمان والتفاح إلخ... وكلها من الفواكه التي تشتهىها النفس، قد تكون هذه التشبيهات مسيئة للمرأة أكثر مما هي لصالحها إذ نجدها من إنسانيتها وتصبح كفاكهة يتلذذ بها الرجل، لكننا لا نعدمها في الشعر والثقافة العربيين.¹ كذلك علامات خجل المرأة وحياتها أول ما يظهرُ يظهرُ على خديها يقول إيليا أبو ماضي:

تَغَارُ إِذَا مَا قِيلَ تِلْكَ مَلِيحَةٌ يَطِيبُ بِهَا لِلْعَاشِقِينَ التَّغْزُلُ
فَتَحْمَرُّ غِيضًا تَم تَحْمَرُّ غَيْرَةً كَأَنَّ بِهَا حُسْنٌ تَجِيئُ وَتَقْفُلُ
فبدون شك نجدُ خدَّ المرأة أحد مفردات ومكونات جمالها.

المفردة الخامسة (الذقن): يُعتبرُ الذقنُ هو البعد الخامس في هذه الصورة على اعتبار أنَّ الجبين فيها هو البعد الأول، والحاجبان مع العينين هما البعد الثاني، والأنف هو البعد الثالث، والخدان هما البعد الرابع، وأخيرًا الذقن الذي هو البعد الخامس، وبه تكتمل مفردات صورة الغلاف، هذه المفردات جميعها تُكوِّنُ لنا جملة مفيدة ذات أبعاد دلالية لسيدة عربية هي عشيقَةٌ ومعشوقَةٌ تُريد من خلالِ صورتها هذه أن تصل رسالتها للرجل الشرقي وللمجتمع والإنسان الشرقي رجلاً كان أو امرأة، رسالة مفادها أنه من حقِّ المرأة الشرقية أن تعشق على هواها بدون قيود أو شروط، وبدون شك أنَّ ثقافتنا العربية تُلائقُ على ألسنة الناطقين بها عبارة: (إنَّ الله جميلٌ يحبُّ الجمال) والجمالُ بوابةٌ للعشق، وهو لا يكتمل إلا إذا اكتملت مفرداته حُسْنًا وبهاءً، لكن، ماذا عن مفردة من أهم مفردات الجمال لم نتحدث عنها في هذا

¹ في حديث صحفي لسعيد عقل تحديدًا في (برنامج خليك بالبيت) يرفض أن تشبه المرأة بهذا النوع من التشبيهات كما هو ووارد في شعر نزار قباني مثلاً.

التحليل، إنها المفردة الغائبة أو المغيبة الحاضرة وهي المفردة السادسة.

المفردة السابعة (شَعْرُ رأس المرأة): يعتبر شعر المرأة من أكثر وأجمل ما تغنى به الشعراء العرب على مر التاريخ منذ امرئ القيس إلى يومنا هذا.

لكن في هذه الصورة قيد التحليل والدراسة نجد شعر الرأس مخفيًا عن الأنظار بسبب (الخمار = القناع = الحاجز = السياج).

لماذا تمَّ حجبُ شعر رأس المرأة في هذه الصورة؟ ولم لا يتم حجبُ الوجه بكامله وهذا ما كانت تأمله بعض الآراء الفقهية المتشددة في الخليج العربي بالذات ولا زالت حتى يومنا هذا على قلتها.

فتلك النظرة الحائرة التائهة المهمة- من صاحبة الصورة- والتي سبق الحديث عنها تُعبر بجلاء عن انكسار المرأة العربية والشرقية بالخصوص، نعني بالانكسار: انكسارها النفسي والجسدي، فبالرغم من أنها صورة في غاية الروعة والجمال والقوة الإيحائية وأنَّ صاحبها ذات فكر عقلائي حدائي متنور إلا أنها تعبر بشكل فني رفيع وسامٍ عن موقف ذكوري شرقي استبدادي ومستبدّ، إذ تم الاجتهاد على إظهار مفردات الجمال في هذه الصورة لتبدو في أحسن وأبهى حلة، هذا الحسنُ والبهاء نجدُ المعنيَّ الأولَ به هو الرجل الغائب المغيّب حقيقة لكنه حاضر بالقوة مجازًا فهو حاضر بالقوة- إذا جاز لنا أن نستعمل هذا الأرسطي- داخل صرح الفضاء الاجتماعي والنسق الثقافي المهيمن.

تشرح لنا الصورة وضعًا إنسانيًا في غاية البساطة والدقة كما تحكي لنا عن وضع يُعيدُ بل ويشككُ في ترتيب العلاقات الإنسانية ويكتفّ في ثنائية (الرجل والمرأة) لتحيلنا هذه الثنائية على إحالات رمزية عديدة.

فهذه الصورة الفوتوغرافية تدعو القارئ النبيه الفطن بألا يتعامل معها بطريقة إغرائية شبيقة بل تدعوه لينظر إليها في مجملها (بجميع مفرداتها الأنفة الذكر) كصرخة تقول كل شيء عن العلاقة بين الحاكم والمحكوم، السيد والمسود، المالك والمملوك، الرجل المتسلط والمرأة الخاضعة القانعة الراضية بهذا التسلط. حتى

ولوكان أبًا أو أمًا، لتبقى كاتبة ومبدعة رواية "أعشقني" هي الصوت النسوي/ النسائي الذي يصرخ في هدوء وفي صمت وفي حلة بهية أيضًا عبر الصورة إيّاها، ونحن نعتقد ببلادة بلهاء وكأنها سيدة مُعجبة بنفسها يُغريها جمالها كي تتججج به على بنات أو بني جنسها لذلك وضعته على غلاف روايتها. كلاً وألف كلاً، إنها صورة تتعبر عما عبر عنه الشاعر العربي:

لا تحسبوا أن رقصي بينكم طرباً فالطير يرقص مذبحاً من الألم
إننا نستنطق الصورة ونستشهد بكلام صاحبها كمبدعة أولاً وأخيراً وهي تصرح
لإحدى القنوات التلفزيونية بحسرة قائلة: "أنا أجيد الرقص، أجيد الغناء، ماذا
كان سيخسر والدي في تلك اللحظة لأُمِّيل؟ ماذا كانت ستخسر أمي؟ إنها تجربة
صعبة لا أحد يعرف كيف تشعر امرأة تريد أن تُغني، تريد أن ترقص، أنا أجيد
الرقص، أنا أجيد الغناء، لكنهم منعوا ذلك عني".¹

هل نحتاج إلى دليل على حرمان المرأة العربية والشرقية وحرقتها ولوعتها أكثر من
هذا التصريح العفوي الصريح؟ أيعقل أن نقول بأن تلك النظرة في تلك الصورة
كلغة ملحوظة لا تقول ولا تعبر إلا بما عبرت عنه صاحبها لفظاً وقولاً.

لكل هذا قلنا في البداية: لا يجب علينا ألا نكتفي بالنظر إلى الصورة بل أن
نبصرها، وهناك بدون أدنى شك فرق كبير بين عملية النظر وعملية الإبصار.

ب. العلامة التشكيلية: إذا كنا تطرقنا في العلامة الأيقونية إلى الصورة وهي تُنتج
معانيها استناداً إلى المعطيات التي توفرها هذه العلامة الأيقونية كإنتاج بصري،
فإنّ العلامة التشكيلية تستند إلى معطيات طبيعية أخرى ليست من داخل
الصورة الأيقونية بل من خارجها، وهو ما يسمى بالتمثيل التشكيلي للحالات
الإنسانية ويتم ذلك عبر الأشكال والخطوات والألوان والتركيب أي: الطريقة
الجمالية التي نرى بها الصورة وهي في أبهى حلة.

¹ قناة الشرقية 2020، برنامج أطراف الحديث، <https://youtu.be/sexxQ-z9iAQ>

إن المضامين الدلالية للصورة عبر مفرداتها السابق ذكرها هي نتاج تركيب يجمع ما بين البعد الأيقوني وبين ما يلعب فيه البعد التشكيلي دوراً مهماً تبعاً لما صنعه الإنسان بكفاءته وخبرته وتصرفه في العناصر الطبيعية الأيقونية حتى تُصبح الصورة ملفوظاً بصرياً مركباً يتيح دلالاتٍ اعتماداً على التفاعل القائم بين مستويين مختلفين في طبيعة تكوينهما لكهما متكاملان ومتفاعلان من حيث وجودهما وتواجهيهما. فكمية الضوء بمقدار على هذه الصورة الفوتوغرافية واللون الذي يميل إلى السمرة في الصورة وهو ليس لون البشرة الحقيقي لصاحبة الصورة، إذ هو لون صناعي يميل إلى اللون القمحي، كلها عوامل تنتهي إلى العلامة التشكيلية وليس الأيقونية.

واللون القمحي لون أفتح من الأسمر وأسمر من الأبيض، والعرب عامة يغلب عليهم اللون القمحي، والذي اشتغل أو لعب على تشكيل الصورة لا شك أنه باستعمال الضوء جعل الصورة تبدو كذلك، وهنا ننتقل من الصورة الطبيعية إلى الصورة الصناعية. وبدون شك أن هذا العمل يحيل إلى معنى ودلالة معينة لا تعطيها لنا الصورة الواقعية أو الطبيعية. أيضاً لا يمكننا إغفال الفضاء الأزرق كجمالية تشكل خلفية الصورة.

هناك عدة علوم عرفت بالألوان ودلالاتها النفسية، حتى أنه ظهر علم يسعى بعلم "النفس اللوني" وهو من العلوم الحديثة في مجال العلوم النفسية. كثيرة هي الدراسات التي قام بها علماء النفس للبحث في مدى تأثير الألوان على المشاعر والأمزجة وأنماط السلوك العامة.

يعتبر اللون الأزرق من أكثر الألوان انتشاراً وإقبالاً في جميع أنحاء العالم مما يدل على أنه يعبر عن الاستقرار والدفع والأمان والثقة كما أنه يُزود الطاقة ويزيدها بالنسبة للإنسان، لذلك نجد الطلاء الأزرق على بعض المكاتب التي تُعنى بالتجارة والتسويق، وعلى جدار المنازل الخارجية، خصوصاً المدن الشاطئية وفي الحارات الشعبية القريبة من البحر، فاللون الأزرق يعتبر لوناً مهدئاً لنبضات القلب ويعطي إحساساً بالرحابة وسعة الصدر والمتعة كذلك في التواصل مع الآخرين.

رغم كل هذه الصفات الإيجابية التي يوصف بها اللون الأزرق، إلا أنه أيضًا قد يرتبط في بعض الأحيان بالمأساة والقوة والعنف والإثارة.

تُرى كيف نقرأ دلالة اللون الأزرق على غلاف هذا العمل الروائي "أعشقني" الذي هو الدفّة الأولى للرواية أي "الغلاف الأول" إذا ما تعاملنا بإيجابية مع اللون الأزرق نجد الرواية مفعمة بالحب وداعية إليه من أول صفحة منها إلى آخر صفحة. وإذا كان الأزرق هو لون السماء ولون البحر.¹

وإذا كانت علاقة الإنسان بالسماء علاقة ترقب وتودد ودعاء وتوسل وأنها موطن الملائكة في تصور الكثيرين، كما أنها مصدر الشمس والمطر بدونها ينتفي الوجود، بهذا المعنى يكون للسماء واللون الأزرق مدلول إيجابي على المستويين: المادي والروحي.

إلا أنّ الإنسان بعقله وعلمه وبجبروته وأناه المفرطة أيضًا جعل من هذا الفضاء مَجَرَّات له تخالف وتتحدى المجرات الإلهية الكونية الطبيعية، فالأقمار الصناعية قذف بها الإنسان إلى السماء قذفًا، وأصبحت هذه الأقمار تتحكم في مصائر الناس، تُوجههم كيفما وأنى ووقتما شاءت، وتربهم على سلوكات وتربية وقيم وثقافة كونية جديدة قد تكون مدمرة في الغالب الأعم، وهذه هي الدلالة الثانية التي يمكننا أن نستشفها من طغيان هذا اللون الأزرق كخلفية لرواية "أعشقني".

فالكاتبة واعية كلّ الوعي بأنّ العشق لا يمكنه أن يكون إنسانيًا خالصًا ما لم يكن روحانيًا خالصًا، لما نقول روحانيًا فإننا بدون شك نرفع أعيننا نحو السماء، ولما نقول ماديًا فإننا ننزل ونهبط بأعيننا إلى الأرض، لتصبح عيوننا تنظر على مستوى أفقي بعد أن كانت في المستوى الأول تنظر على مستوى عمودي. هذه الثنائيات وغيرها كثير تصادفنا في هذا المتن الروائي من البداية إلى النهاية.

والبعد الخامس وهو آخر فصل في رواية "أعشقني" تعتبره الكاتبة أهم بعد في هذا الوجود، لا يمكن أن نستمدّه إلّا من السماء، وهو بُعدٌ قريبٌ بعيدٌ لا يمكن أن

¹ للكاتبة رواية "سيلفي مع البحر" تعتمد أيضًا في غلافها على اللون الأزرق.

يُدرّكه أو يصل إليه أو يمتلكه الجميع، فقط أصحاب القلوب العاشقة من عندهم مفتاح هذه الأسرار. تقول الكاتبة "وحدهم أصحاب القلوب العاشقة من يدركون حقيقة وجود بعد خامس ينتظم هذا الكون العملاق".¹

من خلال قراءتنا المتواضعة للعبة الأولى التي هي الغلاف نخرج بالخلاصات التالية:

- بطلة الرواية "شمس" إنسانة طامعة غارقة في يَمّ العشق، وسعيدة بعشيقها لخالد وعشق خالد لها، بقدر ما تبدو شمس متحسرة ومتألّمة في داخل أعماقها وهي تعاني من ويلات هذا العشق إلا أنه الترياق الذي يداوي جراحها المكرومة في هذا العالم الذي لا يدرك معنى العشق.

- إن بطلة الرواية توهمنا بأن ما تعيشه وتحياه من سعادة بسبب العشق، هو في الحقيقة همٌّ مأمولٌ وأملٌ مشتهى غير متحقق في الواقع.

- إنّ صورة الغلاف الفوتوغرافية بكل مفرداتها التي سبقتُ دراستها لتؤكدُ لنا باللمس مضمون الرواية الذي يلعب على الشيء ونقيضه. ثنائيات تعجُّ بها فصول هذه الرواية يمكنُ إجمالها في الآتي:²

- إنّ بطلتنا "شمس" وعشيقها خالد كلاهما في مواجهة قوانين وظلم وحكم ناس المجرة وحكامها.

- التحام شمس مع عشيقها روحياً وبعدهما عن بعضهما جسدياً وماديّاً يدل على صعوبة الحب والعشق في مجتمعات تحل وتحرم حسب هواها وحسب مواقفها وحسب جنسها أيضاً.

- عشق شمس لخالد = عشق شمس لنفسها

¹ د. سناء الشعلان: أعشقتي، د سناء شعلان، أمواج للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، ط 4، 2019م، ص13.

² وهذا ما قلنا بأن الصورة بقراءة متأنية تظهر عكس ما تبطن، وهو ما عبرنا عنه بثنائية النظر والإبصار.

- الإنسان العاشق (البعد الخامس) = شمس وخالد

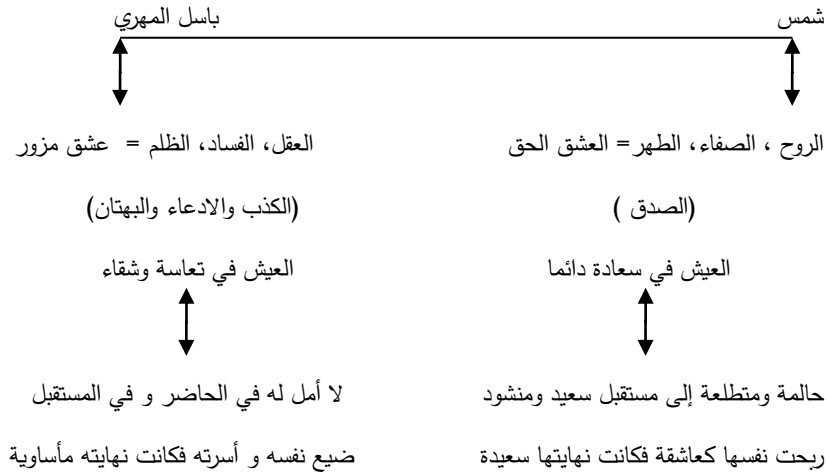
الإنسان الحاقد والمدمر لهذا البعد الخامس = باسل المهري وحكام المجرة

- العيش في الحاضر (بكل ما له وما عليه) / العيش في المستقبل (3010م) قادمة

هذه الثنائيات والمتناقضات وغيرها تبين لنا بجلاء كون بطلة الرواية وهي تؤمن وتخلص بعشيقها لخالد تبحث عن عشق خالد وأبدى وسرمدي، لكن هناك حُكام المجرة الطغاة وحاشيتهم العتاة يقفون ضد هذا العشق ويُحولونه من عشق إنساني روحاني إلى عشق مادي جسدي لئيم، حتى أنّ النطفة التي حبلت بها شمس من عشيقها خالد تحضنها الآن الآلة الصناعية الجهنمية التي أصبح باسل المهري- أحد خدام المجرة- هو محتضنها في جسد شمس الميتة، هذا الجسد الذي يعطيه دماغ وفكر باسل المهري طاقة للحياة، حياة مشوهة بدون شك، لكنها حاضرة وفاعلة، لنستشف من كل ذلك ثنائية أخرى وهي ثنائية الروح والجسد.

شمس = (الروح) النقية الطاهرة العاشقة العفيفة

باسل المهري = (الجسد) العقل الفاسد والمفسد



من كل ما سبق يتضح لنا بأن بنية العشق هي البنية المحورية في هذا العمل الروائي، لقد اشتغلت الآلة الروائية في نص "أعشقي" بكيفية منسجمة مع بنية محرك Structure moteur هي بنية العشق. فهذا الأخير هو بنية البنيات في رواية "أعشقي".

كما أنّ اختيار فضاءين رحبين كبيرين وواسعين السماء ≠ والأرض ليس اختياراً اعتباطياً وإنما هو اختيار وظيفي ومشحون بدلالات عميقة وقوية، تبرز مكونات بطل الرواية شمس المجتمعية والثقافية والدينية، وهي بذلك بنيات مبنية وبانية تساعد في تشكيل سمّت habitus لدى البطل شمس¹.

إنّ علامات المكان في رواية "أعشقي" تتمثل في البساطة وانفتاحها على (باب السماء) الذي يمثل الرأس مال الروحي/ الديني، لكن فيما يبدو أنّ عالم السماء هذا بدوره أصبح مشاعاً للآلة الصناعية الصماء، ذلك أنّ آلة الطمع والجشع الإنساني لم تتركه في أمان، فالفضاء العلوي بدوره أصبح مرعئاً ومرتعاً يلجأ ويسكنه حكام المجرات. مما أدى إلى تفتت المجتمع وتشظيه وانحلاله وتحوله من أزمنة جمعية مجتمعية متلاحمة إلى أزمنة فردية منحلة ومتشظية.

خلاصة: من خلال بعدها الأيقوني والتشكيلي نجد المعاني والدلالات التي تحتويها صورة غلاف "أعشقي" لا تكشف عن نفسها من تلقاء نفسها، كما أنّ معانيها ودلالاتها ليست ثابتة أو قارة، بل متغيرة متحولة لأنها ذات أبعاد إنسانية أنثروبولوجية تنتهي إلى الوجود الإنساني برمته. وهي مرتبطة بخطاب إنساني يمتح من الظواهر الطبيعية ويمنحها أبعاداً دلالية تتجاوز الأبعاد المادية الوظيفية.

إنّ الألوان والأشكال كما الخطوط واللون تتسرب إلى الصورة محمّلة بدلالاتها التي سبقت دراستها. فاللون الأزرق الطاغي على صورة الغلاف موجود باعتباره

¹ الهابتوس/ abitus عند عالم الاجتماع بيير بورديو هو: حركات وأفكار وأساليب يكتسبها الإنسان ويستضمها لدرجة نسيان وجودها، ولأنها صارت لا شعورية، فإنها تتيح للإنسان العمل دون التفكير فيه. إنها العادة والتعود.

دلالة أيقونية لا باعتبار وجوده المادي كلون من بين ألوان أخرى، وما يصدق على اللون يصدق أيضًا على الخطوط والأشكال أو ما أسميناه "مفردات الصورة" هي الأخرى.

فهذه المفردات لها أشكال وأحجام متباينة محتوية على دلالات أخرى تُغني البعد الأيقوني وتُنوع من دلالاته. كل ذلك من خلال نصٍّ أو خطابٍ ثقافيٍّ يحتويه نسق ثقافيٍّ يحول كل ما في الصورة إلى بؤرة لإنتاج الدلالات وتحديد أنماط استهلاكها. هذا النسق الثقافي الذي تبدو الكتابة متمردة عليه ببوحها وتحديها وإصرارها على هذا التحدي في تقنية الكتابة الروائية وهي تبحث لها عن أسلوب يميزها، وما استحضارها لقولة جيرترود شتاين بعد الإعلان عن نهاية الرواية وفي آخر صفحة بالضبط الصفحة 219 إلّا دليلٌ على هذه الحرية المنشودة من طرف كاتبتنا ومبدعتنا تقول جيرترود شتاين: "ليس هناك جواب، ولن يكون هناك جواب، ولم يكن هناك جواب قط، وهذا هو الجواب".¹

لكل ما سبق ذكره وجبَ وَجِبْ علينا لما نكون أمام صورة فوتوغرافية لها علاقة بإبداع ما أو حالة إبداعية ما أو أثناء تعاملنا وقراءتنا للصورة أن نكون على بينة وإطلاع وعلى "معرفة كبيرة لإدراك كل الإيحاءات التي تثيرها إيماءة عجلٍ أو نظرة متوسلة أو ابتسامة مُعلقة على شفاه حزينة".²

¹ من المعلوم أن جيرترود كاتبة ورسامة أمريكية عاشت في فرنسا وزارت المغرب في القرن التاسع، جمعتها علاقة حب مع رجل مغربي بسيط من مدينة طنجة رافقها إلى فرنسا. فهي سيدة متحررة فكريًا وجنسيًا، كتب قصتها مع عشيقها المغربي الدكتور حسن نجعي في روايته التي تحمل عنوان: "جيرترود".

² السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، المرجع لسابق، سعيد بن كراد، ص 100

المصادر والمراجع

1. أبو الحسين احمد بن فارس بن زكريا اللغوي: مجمل اللغة (دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان)، مؤسسة الرسالة، الجزء الثالث، ط 1، 1984م
2. جاك أومون: الصورة (ترجمة: ريتا الخوري)، مركز دراسة الوحدة العربية، بيروت، ط 1، أبريل 2013م
3. د. سناء الشعلان، أعشقتي، أمواج للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، ط 4، 2019م
4. د. عبد الجليل بن محمد الأزدي: المسدس والكتاب" قراءة في رواية اللص والكلاب"، دجنبر، ط 1، 2007م
5. د. فيصل دراج: نظرية الرواية والرواية العربية، المركز الثقافي العربي، ط 1، 1999م
6. سعيد بن كراد: السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، منشورات الزمن، ط 1، 2003م
7. قناة الشرقية 2020، برنامج: أطراف الحديث، <https://youtu.be/sexxQ-z9iAQ>
8. Julia kristiva, le texte du roman, Mouton publichers, paris, new york, 1970

ابن كثير، حياته ومؤلفاته

- د. محمد أجمل أيوب الإصلاحي¹

اسم الكتاب: ابن كثير، حياته ومؤلفاته

الكاتب: الدكتور مسعود الرحمن خان الندوي

الناشر: قسم النشر بجامعة علي كره الإسلامية، علي كره

الطبعة: الأولى

سنة الطباعة: 1979م

عدد الصفحات: 202

الثمن: 8 دولارات

يمتاز القرن الثامن الهجري بغزارة الإنتاج في مجال التاريخ والتراجم والطبقات. ومن أهم الكتب التاريخية التي ظهرت في هذا العصر الخصب كتاب "البداية والنهاية" للحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (701-774هـ) وهو موسوعة تاريخية حافلة من بدء الخليفة إلى عهد المؤلف، جعلها ذيلًا على تاريخ شيخه علم الدين البرزالي (665-739هـ) ويعتبر من أضخم مصادر التاريخ الإسلامي وأوثقها.

ولم يكن ابن كثير مؤرخًا فحسب بل كان مفسرًا ومحدثًا وفقهًا أيضًا، وأغنى التراث الإسلامي في هذه الجوانب المختلفة.

واشتهر تفسيره الذي يعدّ من أحسن كتب التفسير بالرواية لإعراضه عن كثير من الإسرائيليات ونقده للروايات فحاز إعجاب العلماء ونال قبولًا عامًا لدى الناس.

¹ محقق هندي كبير مقيم بالرياض

وقد أعان ابن كثير رسوخه في علوم الدين وثقافته المتشعبة النواحي على تحري الصدق والأمانة في الأخبار والتراجم في تاريخه "البداية والنهاية".

وقد أفاض أصحاب التراجم والطبقات في ترجمة الحافظ ابن كثير وأثنوا على مؤلفاته وأشادوا بسعة اطلاعه وعلو منزلته، وعني الباحثون المعاصرون الذين نشروا مؤلفاته أو درسوا تفسيره أو تاريخه بكتابة مقدمات ومقالات في سيرته وأحواله وأعماله نحو ترجمته للشيخ أحمد محمد شاكر في أول "عمدة التفسير" وللشيخ محمد عبد الرزاق حمزة في "الباعث الحثيث" ومقدمة السيرة النبوية للدكتور مصطفى عبد الواحد، ومقالة هنري لاوست في مجلة عربيكا الفرنسية وغيرها من المقالات. ولكن لم نطلع على دراسة شاملة محققة لحياة ابن كثير وأعماله ولكتابه "البداية والنهاية" ومصادره وقيمه التاريخية. والفضل بقيام هذه المهمة بجانبها يرجع إلى الدكتور مسعود الرحمن خان الندوي الأستاذ المساعد بمركز الدراسات الآسيوية الغربية بجامعة علي كره الإسلامية الذي اختار لأطروحته للدكتوراه في قسم الدراسات الإسلامية بالجامعة موضوع "دراسة لابن كثير المؤرخ في ضوء كتابه البداية والنهاية" تحت إشراف الأستاذ الدكتور السيد مقبول أحمد.

والكتاب الذي بين أيدينا هو في الحقيقة القسم الأول من بحثه، ولكنه إذ توسع توسعاً كبيراً، واستوعبت جوانب سيرة ابن كثير، واستدركت على المترجمين له قديماً وحديثاً نشره المؤلف منفرداً كبحث مستقل في حياة ابن كثير ومؤلفاته.

والكتاب يتألف من أربعة أبواب: الباب الأول في عصر ابن كثير، عرض فيه المؤلف بإيجاز الحالة السياسية والاجتماعية والعلمية والفكرية في القرن الثامن الهجري. والباب الثاني يبحث في فصلين نسب ابن كثير ومولده ووفاته وأخبار أسرته، والباب الثالث في ثلاثة فصول تحدث فيها عن تربية ابن كثير وثقافته ورحلاته العلمية وشيوخه.

وخصّص الباب الرابع- وهو في خمسة فصول- للحديث عن نشاط ابن كثير العلمي والأدبي والتأليفي. والفصل الثالث منها- وهو أطولها- في آثار ابن كثير. قسمها المؤلف إلى أربعة أقسام: المطبوعة، والمخطوطة، والمفقودة ثم المجهولة، ويعني بها الرسائل والأجزاء التي لم يقف عليها المترجمون لابن كثير قبل المؤلف. واعتمد المؤلف في جمع مادة البحث وتحقيقها مع الرجوع إلى المصادر المتيسرة على تاريخ ابن كثير نفسه. فيقول في مقدمة الكتاب ينوه بأهمية "البداية والنهاية" كمصدر لحياة ابن كثير وأعماله:

"إن الذين ترجموا له قديماً، أو كتبوا عنه حديثاً خفيت عليهم أهمية تاريخ ابن كثير كمصدر لأحواله وأخباره، مع أنه- في نظرنا للآن- المصدر الوحيد المطبوع الذي يلقي ضوءاً كثيراً على حياته".

فعثر المؤلف في كتاب "البداية والنهاية" على أخبار ومعلومات كثيرة غير معروفة عن شيوخ المؤلف وتلامذته ونشاطاته العلمية والفكرية، وتوصل بذلك إلى نتائج واستدراكات ذات قيمة كبيرة. فبلغ عدد شيوخه عند المؤلف إلى أربعة وأربعين شيخاً على حين لم يتجاوز مجموع عددهم عن أربعة عشر عند المترجمين لابن كثير قبله. وبلغ عدد تلامذته عنده إلى أربعة عشر "على حين لم تأت الإشارة إلا إلى واحد منهم" عند من قبله. أما مؤلفاته فلم يذكرها إلا ستة عشر كتاباً ورسالة بينما ذكر الدكتور مسعود الرحمن أربعة وثلاثين كتاباً ورسالة.

وبذل المؤلف جهداً كبيراً في نخل مادة البحث وتنقيح الأخبار ونقد الآراء، وعرضها بأسلوب علمي مشرق، على هنات نحوية لعل أغلبها من أخطاء الطبع التي لم يتمكن من تصحيحها.

وقد عنت لي ملاحظات في غضون قراءتي لهذا الكتاب القيم أسجلها فيما يلي تقديرًا لجهد المؤلف:

ذكر المؤلف في وفاة ابن كثير أنّ المؤرخين اتفقوا على أنه توفي سنة 774هـ، وقد أخطأ

ابن ناصر الدين "حين حدّد تاريخ وفاته سنة 794 (أربع وتسعين وسبعمئة) وخالف في ذلك جميع المؤرخين قديماً وحديثاً مع أنه من أول المترجمين له، (ص 18).

وأرى أن "تسعين" في عبارة ابن ناصر الدين تصحيف "سبعين" وكثيراً ما يتصحف أحدهما عن الآخر عند النساخ، ومن أمثلته ما جاء في فهرسة ابن خير (ص 96) أن أبا جعفر اللخمي قرأ كتاب الدلائل للعوفي على أبي مروان عبد الملك بن السراج سنة ست وتسعين وأربعمئة، والصواب "ست وسبعين" لأن أبا مروان قد توفي سنة تسع وثمانين وأربعمئة. ولذلك التزم بعض المحققين مثل ابن قاضي شهبه في طبقات النحاة واللغويين بضبط "سبعين" بقوله "بتقديم السين على الياء الموحدة" و"تسعين"، بقوله "بتقديم التاء".

أورد المؤلف ما نقل ابن كثير في ترجمة أبيه عن معجم شيخه البرزالي (ص 22): "رجل فاضل له نظم جيد، ويحفظ كثيراً من اللغز".

لعل اللغز في هذه الطبعة من "البداية والنهاية" تحريف، والصواب "اللغة" ويرجع ذلك ما قال ابن كثير نفسه عن أبيه أنه "حفظ جمل الزجاجي، وعني بالنحو والعربية واللغة وحفظ أشعار العرب".

نقل المؤلف عبارة عن "البداية والنهاية" ورد فيها بيت للحريري هكذا:

وإن تجد عيباً فسد الخلا فجل من لا عيب وعلا
سقط "فيه" من الشطر الثاني والصواب:

فجل من لا عيب فيه وعلا

وأخيراً نرجو أن تلقى هذه الدراسة القيمة قبولاً واستحساناً من العلماء والباحثين المعنيين بالدراسات الإسلامية والعربية.¹

¹ مع الشكر لمجلة "ثقافة الهند"، 121-116/4-1/31

ندوة علمية وطنية
حول
الصحافة العربية في الهند

- د. مجيب أخترا¹

الصحافة العربية في الهند نشأت في الربع الأخير من القرن التاسع عشر للميلاد، ومنذ تلك الفترة لم تزل تصدر مجلة أو مجلتان من مختلف ولايات الهند. وهذا التقليد قد ظهر بكل نشاط وحماس في عصرنا هذا إذ نجد عددًا كبيرًا من المجلات العربية (من ورقية وإلكترونية) تصدر نصف شهرية، وشهرية، وفصلية، ونصف سنوية، وسنوية كما نجد بها مجلات صدرت ثم توقفت لسبب أو آخر. وقد نالت بعض هذه المجلات قبولًا عامًا بين العرب فقدروها تقديرًا.

نظرًا لهذه الأهمية لمجلات الهند ودورها المتميز في تربية جيل بارز للكتاب والمحققين، وتعزيز العلاقات بين العرب والهند عقد قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة دلهي ندوة وطنية حول تاريخ الصحافة العربية وتطورها في الهند في الفترة ما بين الرابع والخامس من شهر مارس لهذه السنة. حضر هذه الندوة عدد كبير من أساتذة وباحثي اللغة العربية من مختلف بلاد الهند، وقدموا مقالاتهم وبحوثهم العلمية. تفاصيلها كما يلي:

الجلسة الافتتاحية

بدأت الجلسة الافتتاحية بعد الساعة الـ 12 ظهرًا برئاسة البروفيسور شفيق أحمد خان الندوي، رئيس قسم اللغة العربية بالجامعة المليية الإسلامية سابقًا، وقدم البروفيسور محمد نعمان خان، رئيس قسم اللغة العربية بجامعة دلهي

¹ أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة دلهي (الهند)

كلمة الترحيب بينما ألقى البروفيسور محمد أيوب تاج الدين، مدير شرف مركز الثقافي العربي الهندي بالجامعة المللية الإسلامية، نيو دلهي الخطاب الرئيسي. نسق هذه الجلسة الدكتور مجيب أختر، الأستاذ المساعد في قسم اللغة العربية جامعة دلهي. وانتهت الجلسة على كلمة الشكر للدكتور أصغر محمود، الأستاذ المساعد في قسم اللغة العربية بجامعة دلهي. وفي هذه الجلسة تم تدشين مجموعة المحاضرات التي أقيمت بمناسبة ذكرى البروفيسور خورشيد أحمد فاروق، والتي عقدها قسم اللغة العربية بجامعة دلهي على مرّ السنين.

الجلسة الأكاديمية الأولى

والجلسة الأكاديمية الأولى بدأت من الساعة 2:30 وانتهت على 4:30 عصرًا برئاسة البروفيسور محمد أيوب تاج الدين من المركز الثقافي العربي الهندي بالجامعة المللية الإسلامية، وقام بتنسيقها الدكتور آفتاب أحمد من المركز الثقافي العربي الهندي. وقدّمت فيها سبع مقالات تفاصيلها كما يلي:

1. البروفيسور مجيب الرحمن، جامعة جواهر لعل نهرو، نيو دلهي	الصحافة العربية في الهند: خواطر وانطباعات
2. البروفيسور محمد إقبال حسين، جامعة إفلو، حيدرآباد	مجلة "البعث الإسلامي" ومقالات زاويتها للأدب (بالأردية)
3. د. محمد سليم، جامعة إنديرا غاندي المفتوحة، نيو دلهي	لمحات عن الصحافة العربية في الهند البريطانية (بالإنجليزية)
4. د. آفتاب أحمد، الجامعة المللية الإسلامية	نظرات جديدة على الربيع العربي في الإعلام العربي في الهند (بالإنجليزية)
5. د. محمد أجمل القاسمي، جامعة جواهر لعل نهرو	محمد الحسني ودوره في الصحافة العربية في الهند

6. د.محمود حافظ عبد الرب مرزا، جامعة الله آباد، أوترا براديش	صحيفة الرائد ودورها في معالجة القضايا السياسية في الهند- دراسة تحليلية
7. د. محمد طارق، جامعة لكاناؤ، أوترا براديش	الشيخ محمد واضح رشيد الندوي كصحفي بالعربية

الجلسة الأكاديمية الثانية

والجلسة الأكاديمية الثانية عقدت في اليوم الخامس لشهر مارس من الساعة 10 وانتهت على الـ 11 صباحاً. ترأسها البروفيسور محمد حسان خان، رئيس قسم اللغة العربية بجامعة بركة الله، بهوفال سابقاً. قام بتنسيقها الدكتور نسيم أختر، الأستاذ المشارك، قسم اللغة العربية بالجامعة الملوية الإسلامية، نيودلهي. قدّمت فيها سبع مقالات تفصيلها كما يلي:

1. أ. د محمد حسان خان، جامعة بركة الله، بوفال	"الثقافة السنوية" الصادرة من بوفال
2. د. محمد قطب الدين، جامعة جواهر لعل نهرو	"صور و أوضاع " للأستاذ محمد واضح رشيد الندوي، دراسة صحفية
3. د. رياض أحمد رياضي، جامعة لكاناؤ	محمد يونس النجرامي ومساهمته في الصحافة العربية
4. د. محمد أكرم نواز، جامعة جواهر لعل نهرو	الصحافة العربية في شمال الهند
5. د. سبحان عالم، جامعة لكاناؤ	الصحافة العربية في الهند (بالأردية)
6. د. نسيم أحمد، كلية ذاكر حسين دلهي	الدكتور مقتدى حسن الأزهرى وخدماته في مجال الصحافة العربية

7. د. محمد قاسم، كلية ذاكر حسين دلهي	الأستاذ سيد واضح رشيد الندوي، وما له من خدمات في مجال الصحافة العربية في الهند

الجلسة الأكاديمية الثالثة

والجلسة الأكاديمية الثالثة بدأت من الساعة 11:30 صباحًا وانتهت في الساعة 12:30 صباحًا. ترأسها البروفيسور صلاح الدين تاك، قسم اللغة العربية، جامعة كشمير، ونسقها الدكتور رياض أحمد رياضي، الأستاذ المساعد، قسم اللغة العربية جامعة لكاناؤ. قدمت فيها ثماني مقالات كما يلي:

1. د. نسيم اختر، الجامعة المليية الإسلامية، نيو دلهي	القضايا الدولية في التحليلات الصحفية لوضح رشيد الندوي
2. د. عبيد الرحمن، جامعة جواهر لال نهرو	الصحافة العربية في الهند: إذاعة الهند أنموذجًا
3. د. منير الإسلام، كلية ديوان عبد الغني، بنغال	مولانا أبو الكلام آزاد ومساهماته في مجال الصحافة
4. د. عبد الملك، كلية ذاكر حسين دلهي	دور الشيخ سعيد أحمد الأكبر آبادي في تطوير الصحافة العربية
5. د. جسيم الدين، قسم اللغة العربية، جامعة دلهي	المجلات والجرائد الصادرة عن شمالي الهند (بالأردية)
6. د. محمد قمر الدين، كلية ذاكر حسين دلهي	مجلة "الداعي" ودورها في تطوير الصحافة العربية في الهند
7. د. مشتاق عالم، الجامعة المليية الإسلامية	مجلة الهند: أهم المعالم والإنجازات

8. د. مستفيض الرحمن، جامعة آسام، سلتشر، آسام	الصحافة في الهند عبر العصور

الجلسة الختامية

وعقدت الجلسة الختامية من الساعة 12:30 وانتهت في الساعة 1:30 ظهرًا. ترأسها البروفيسور صلاح الدين تاك (جامعة كشمير)، ونسقها الدكتور سيد حسنين أختر، أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية بجامعة دلهي. أعرب فيها عن انطباعاتهم كلٌّ من الدكتور عبيد الرحمن طيّب (جامعة جواهر لعل نهرو)، والدكتور نسيم أختر (الجامعة المللية الإسلامية)، والدكتور رياض أحمد رياضي (جامعة لكاناؤ)، والدكتور منير الإسلام (كلية ديوان عبد الغني). وانتهت هذه الجلسة على كلمة الشكر التي قدّمها البروفيسور ولي أختر الندوي (قسم اللغة العربية بجامعة دلهي).

ولنعلم أنّ هذه الندوة أيضًا شهدت جلسة خاصة بمقالات الباحثين لمختلف أقسام اللغة العربية في الهند فقدّمت فيها خمس عشرة مقالة. قام برئاسة وتنسيق هذه الجلسة الدكتور عبيد الله، أستاذ مساعد في كلية ذاكر حسين دلهي.

أعلام الأمة الإسلامية

- الشيخ نظام الدين أحمد الفاروقي¹

ما بال قلبك هائمًا حيرانا
أشجاك قفر منازل من أهلها
ولرب يوم قد رأيتك مازحًا
فظللت تبكي من أمي وتحسّر
لا تسألني عن تباريح الهوى
خلت الربوع فلا الربوع ولا لها
تبّت يدا ریح الصبا وشمالها
لعبت بها فتنكّرت ثم انهوت
يا عين جوذي بالدموع على حما
أهلاً لأهل بيوت دين المصطفى
خلب الشعوب حياتهم بمخالب
درّسوا الحديث وأحسنوا تهذيبه
نقدوا الرواة ضعيفهم وصحيحهم
قوم إذا عَقِدُوا مجالس علمهم

أبدًا يئنّ فيسهّد الجيرانا
أم صيرتك طولها ولها
ولطالما أبصرتك الجذلا
وتصير إذ جنح المساء سكرانا
أو لستما تريان ما أشجانا
طلل فصرت لما بها حسرانا
عفت الديار رسومها عدوانا
تسفي الرُّبا وتراها طغيانا
ة الدين ثم على الطلول حنانا
وأولي النهى كانوا لها أركاننا
فتشعبوا فهو الذي أبكانا
وتعاملوه وفسّروا القرآننا
فتبيّنت سبل الهدى برهاننا
نثر النسيم عليهم الريحاننا

¹ شاعر من محافظة أعظم كره (الهند)، كان معاصرًا للعلامة محمد فاروق التشرىاكوتي (معلم العلامة شبلي النعماني) الذي قال مشيدًا بهذه القصيدة بعدما سمعها:

نظم النظام بشعره درّجًا بها
ملاً الأكف بجوده ونواله
وإذا تصدّى لانفصال خصومة
من رآه قد أدهش الأذهانا

قد فاق فضلاً بارعًا سحباناً
وبنطقه قد شنف الأذنانا

حماسة النطق، ص 18

وإذا تكلم منهم متكلم
شبانهم ككولهم وكولهم
متعاونون على المكارم والهدى
وتراهم أسد العرين لدى الوغا
عادت لياليهم لنور وجوههم
يا حبذا من أمة أمية
كسروا الأكاسرة الجابرة الذي
قد شرقوا وسيوفهم مشهورة
ثم انثنوا ودم العدا أعمادها
قد دوخوا كل البغاة وأرضهم
وتذلت لهم الخلائق كلها
قوم إذا عهدوا وفوا وإذا هم
بلغت سياستهم لغاية مبلغ
طابت قلوب الناس من أحكامهم
ذهبوا بعزهم السني ومجدهم
دما على التقوى فدام فخارنا
إن الكرامة والشرافة والعلو
وكذاك كنتم ثم غيّر حالكم
فاستهجن الفرس النجيب تقاصراً
تركوا الأخوة والمرّة والوفا
وتبدّلوا الدين البهيّ ببغيم
هذا يسبّ مقلداً و كذاك ذا

نسي الهزار لنطقهم طيرانا
كشيوخهم وتظنّهم شبانا
كالمشط لاح جموعهم أسنانا
وإذا أتى ليل الدجى رهبانا
من بعدما كانت دجى نيرانا
غلبت على من دون الديوانا
ن طغوا فما تركوا لهم أيوانا
تفري العدا وما هوت أجفانا
فأتوا مغارب ثم صرن أمانا
بالمرهفات فأصبحوا قيانا
إذا أمنوهم كلهم إحسانا
ملكوا قفاراً عمّروا بلدانا
أخت ليوث عرينها ظبياننا
قد أبدلت بلبالهم سلوانا
وبقيت في الزمن الذي أحرانا
وكذاك خبر ذوي الفخار أنانا
لمن اتقى وتجنّب العصيانا
ورزقتم الخسران والحرمانا
وغدت طواويس النقا غربانا
وتفرقوا وتشاتموا شنانا
وضلالهم فقد أصبحوا عميانا
يفرى عليه عداوة بهتاننا

هذا يسّي نفسه أهل الحديد
 هذا يقول أنا المسيح مثيله
 ويخال مسكنه كبيت مقدس
 هذا ادعى هو نيشري ليس به
 هندي السماء ومعجزات نبينا
 ويقول بعضهم القُرود نجاره
 ويقول إن إمامنا قد قاله
 كل يظن هو المصيب وغيره
 كل يصعر خده دوائه
 أسقا لهم أسقا لهم أسقا لهم
 نقدوا الحياء فزال ماء وجوهمهم
 يا قوم يا قوم انشروا فيل متى
 بالله بالله العظيم لقد أتى
 قد صرتم من بعدما كنتم فحو
 وتركتم السعي الجميل لظنكم
 فهل أنتم إلا بعيورات الفلا
 أولا ينبيهم هوان نفوسكم
 الله أكبر أين كان صعودكم
 سبحان ربي كيف صرتم في الهبو
 أين الزمان زمانكم ولقد مضى
 ولكل داء قد رأيت إفاقة
 إني نصحت لكم فلا تستنكفوا

ث وغيره متمردًا غيانا
 وسوائه خب غوى كفرانا
 ويظنه قد قُدد من قديانا
 وي ما عدا الطرُوش والتيجانا
 وهم فلا ملك ولا شيطانا
 وقد ارتقى حتى غدا إنسانا
 لسنا نخالف دأرون مولانا
 مخط وليس يطاوع الفرقانا
 متكبرًا مُستَنكفًا أقرانا
 جعلوا الشرع واحدًا ديانا
 لا غيرة فيهم ولا غيرانا
 وإلى متى تتحملون هوانا
 الجهل العقيم وعلمكم قد بانا
 ل الناس من عظمائهم خصيانا
 ظن الخصي لدى اللقاء حسانا
 طرحت ولست أخًا لكم حيوانا
 أوليس فرد منكم يقظانا
 في العلم والشرف السني مكانا
 ط جهالة ودناءة وهوانا
 هميات ما قد زانكم عرفانا
 ولدائكم أبدًا أرى بحرانا
 واصغوا إلي بجمعكم آذانا

نوم الغفول وشَمّروا أرداننا	بالله إخواني انتهوا من نومكم
صدّيقه فاروقه عثماننا	وتذكروا الزمن القديم ومن مضى
شعبيّته سفيانه نعماننا	وعليّته وحسينه وسعيدته
كانوا المضمّر العلي فرساننا	وهم الرجال وهم أولو التقوى وهم
لجمودكم وخمودكم أزماننا	فتنبهوا وتيقظوا وتلهفوا
حتى يصير جميعكم إخواننا	وتوافقوا وترافقوا وتواصلوا
حرّيةً وإلى السموّ دعاننا	أعطى لنا الملك المعظم كلنا
بسطوة قهر العدى سلطاننا	ملك علا بفخاره كل الملوك
ليكنّ جميعكم بها أعياننا ¹	فتقبّلوا أحكامه بإطاعة

¹ حماسة النطق، ص 45